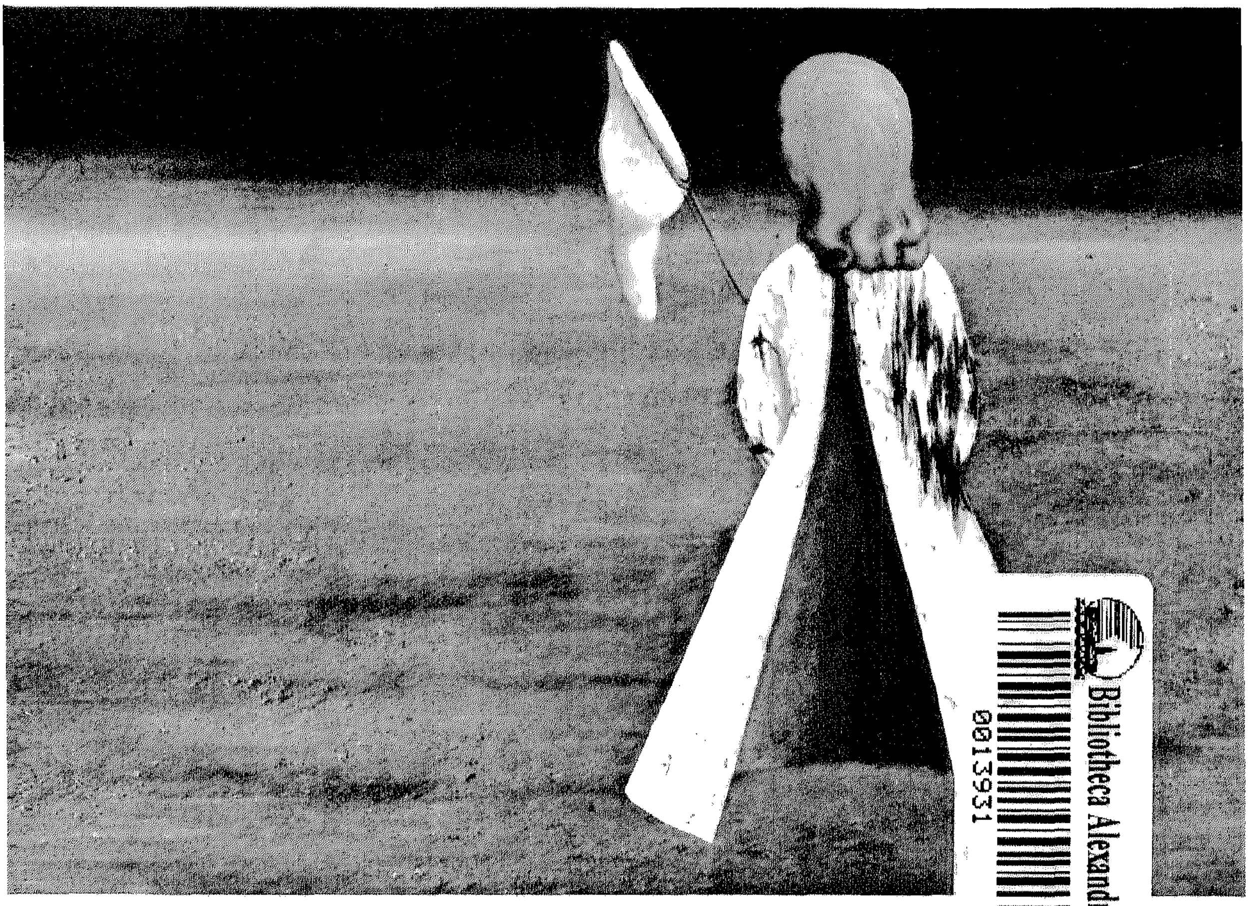
غادة السمّان

الجسدُ حقيبةُ سفر



الأعمال غير الكاملة ٢

منشورات غادة السمان

الأعمال غير الكاملة

٢

الجسد حقيبة سفر

ـ لوحة الغـلاف الاول للفنـان جيوفاني سيجا نتيني ،رسمهـا عام ١٨٩١ ٠

ـ صورة الغلاف الاخير للفنان المصور حسن حوماني .

ـ الخط وتصميم الغلاف للفنان حسين ماجد .

غـادة السَّـمّان

الأعمال غيرْ الكامِلة

٢

الجسدُ حقيبةَ سفر

منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان
بيروت ـ لبنان
ص. ب ١٨١٣-١١
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس ٩٦١١-٣٠٩٤٧٠

الطبعة الأولى: آذار (مارس) ١٩٧٩
الطبعة الثانية: أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠
الطبعة الثالثة: كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٥
الطبعة الرابعة: كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٢
الطبعة الخامسة: أيلول (سبتمبر) ١٩٩٦

مقدمـة ١ . .
بقلم سواي !

ليس هناك أفضل من عدم الاستقرار لتحريض الفكر. وهو مكروه طبعاً لأجل ذلك (البير كامو) . أريد أن أهرب من عيون العالم الى زاوية هادئة استطيع فيها أن أصبح سيدة نفسي ، فهناك مناح كاملة من شخصيتي لا أفهمها : وإنني احتاج الى الوقت الكافي لفهمها (لورانس داريل) . إن ما يعطي السياحة قيمة هو الخوف . فيتحطم في داخلنا بعض من كياننا الداخلي ، فلا نستطيع أن نداور ـ أو نخفي أنفسنا وراء ساعات المكتب والعمل . ان السياحة تنتزع منا هذا الملجأ الأخير .

. . . عندما نكون بعيدين عن ذوينا ولغتنا ، وقد اقتُلعنا من دعائمنا ، وجُردنا من اقنعتنا ، نصبح عندئذ على سطح ذاتنا بكليتنا (كامو) .
إليكم ما كانت تمثله لي أوروبا ذات يوم : القدرة على التكلم بحرية ، وعلى أن أفهم ، وأن أُقْبَلْ . أرض الصداقة الحقيقية . منزل الفنان والمتشرد والحالم (هنري ميلر) .
إن الذي حدث لي شيء بسيط . لقد شعرت فجأة برغبة نحو المستحيل (كامو) . أنا في لندن ، وقد قذفت بنفسي في مباهج سوهو باحثة عن حرية اسطورية أريد أن أمتصها وأعيشها بعمق . . . . . . وجدت أن الحياة البوهيمية الفوضوية جافة مملة ! (كولن ويلسون)
ماذا أريد ؟ عملاً جديداً . . في مكان جديد . . وتحت ظروف جديدة (شارلوت برونتي) .
إني لا أتوقف أبداً عن التأمل في الفن وفي كل نوع من أنواع التجارب التي تلقي الروح في غمرة . . العتمة ! (داريل) . كل ما يجب عليكم ان تعرفوه هو اقتناعي وقتذاك بانني اتقمص حياة مسحورة كما لو كان ذلك بفعل قوة سحرية . (مورافيا) آه يا صديقي . أتعرف ما هو المخلوق المتوحد حين يتجول في المدن الكبيرة ؟ (كامو) . نحن الذين سافرنا كثيراً ، وأحببنا كثيراً ، وتألمنا كثيراً ، وحدنا نستطيع ان نقدر المزايا المتشابكة لعواطف الرقة ، وان نفهم ارتباط الحب الوثيق بالصداقة (داريل) ذهني فارغ . قلبي نازف . ليس لي شخص يحيط بي ، ولم أجد شيئاً قط ، حتى ولا صديقاً (هنري باربوس) . عندما تتكاثر المصائب يمحو بعضها بعضاً وتحل بك سعادة جنونية غريبة المذاق . وتستطيع ان تضحك من قلب لم يعد يعرف الخوف (نجيب محفوظ) أواه اي عذاب الا يكون المرء غنياً . ان هذا يضعه في مواقف كريهة (سارتر) أليس مؤلماً اني ـ لكي أرى عالمنا العربي ـ لا بد ان اصبح بعيداً

غريباً في لندن ؟ (يوسف ادريس) . . . روحي كالعبد الذي أُعتق ، تعود الى مفاوز الماضي . كان يكفي أن أشم رائحة الحطب المحترق كي أعود الى بيتي واصدقائي ، أو شميم لحم مشوي كي أرجع الى طفولتي واعيش مجدداً في شتاء مدينتي (فانتيلا موريا) أحلم بالصداقات الضائعة ، بالزمن الذي انقضى ، بالرفاق المنسيين منذ زمن بعيد . احلم ببيتي . . . احلم ببحر مياهه حية ، وبسماء لها ثلاث شموس (دين - ر . كونت) . احذر الذكريات كما تحذر من ساعة واقفة (جورج شحادة) . ان بي صفة غريبة : هي انني يمكن ان أكره الأماكن والاشياء ككرهي للاشخاص تماماً (دوستويفسكي) .

وتقـول لنفسـك : سـوف أرحـل
الـى بـلاد أخرى . الـى بحار أخـرى .
الـى مدينـة أجمـل من مدينتـي هـذه
مـن كـل جمال فـي الماضـي عرفتـه . . .
لا أرض جـديدة ، يـا صـديقي هـناك
ولا بحـرَ جديداً: فالمدينـة ستتبعك
وفي الشوارع نفسهـا سوف تهيم الى الابد
وضواحـي الـروح نفسهـا ستتزلـق
من الشبـاب الـى الشيـخوخة
وفي البيت نفسـه سوف تشيخ وتموت ! . .

. . . .

لا سفـن هناك تجليـك عـن نفسـك
آه ! ألا تـــرى ،
انـك يوم دمرت حياتك في هذا المكان
فلقد دمرت قيمـة حياتك
في كل مكـان آخر على وجه الأرض ؟! . . .

(الشاعر اليوناني كافافي)

مقـدمـة ٢ . .

بقلمي ولن أكتبها !

هذه مسودة العناوين التي كنت اعتزم إطلاقها على هذا الكتاب ، وهـي برقيات تلخيص له ، وومضات شرارية تعرّف به. العناوين وفقاً لتاريخ ورودها الى الورقة :

رحلت . . . كتبت . .
تقاسيم على عود الغربة
تقاسيم غير منفردة على عود الغربة
رحيل داخل المرآة
نملة وحيدة في مملكة الحزن
مواطنة في مملكة الترانزيت
مساء الخير ايتها الغربة
أعمد نفسي مركباً ليلياً
وداعاً عالم الفنادق المكهربة
رحيل الى الوطن
الرحيل سجن
كل الطائرات تقلع الى الوطن
دفتر الغربة
أرحل . . . ويحتلني الوطن
مسكونة بوطني . . أرحل
أرحل . . . والوطن يسكنني
كيمياء الرحيل
دوماً . . أرحل الى الوطن
لا سفن هناك تجليك عن نفسك
لا سفن تجليك عن نفسك . .
سمكة وحيدة

أوراق الغربة تتطاير
كيمياء الرحيل
كيمياء الرحيل
مرمية من كوكب ما
مغناطيسية الوطن
فتاة الاوتوستوب
إنه الرحيل
رحيــل
رحيل في مدار الوطن
اعلن نفسي جمهورية مستقلة
أختام . . . في جواز سفر
في ليل المدن النائية
محاولة الرحيل خارج سور الأفق
أختام . . . في جواز سفر
من الوجه الآخر للقمر . . اعود
أختام . . . في جواز سفر
أوراق مغسولة بالمطر
كلمات . . في ضبـاب المطـارات (السجـع رهيب في هذا العنـوان ولكنني لم اتعمده ! . .)
لا سفن تجليك عن نفسك . .
الجسد وحده يرحل
الجسد حقيبة
الجسد حقيبة سفر
الجسد حقيبة سفر (ترحل إرغامياً من الولادة الى الموت وبينهما رحـلات أخرى استطلاعية ؟) . . .
الجسد حقيبة سفر ؟ (ما بين النهرين نهري الحياة والموت ، ونهرنا الذي نبدع)
الجسد حقيبة سفر ؟؟؟
الجسد حقيبة سفر ؟؟؟ . . .
الجسد حقيبة سفر

ملاحظة : إذا اعجب القارىء بعنوان ما منها اكثر من العنوان الـذي اخترتـه ، فليشطب عنواني عن الكتاب وليكتـب « عنوانـه » ، وانـي أبـارك مشاركتـه هذه ـ ولـو الرمزيـة ـ في الكتابة معي ! . . .

الاهـــداء

اهدي هذا الكتاب الى حبيبي الدمشقي العتيق سلمان الاخضر ، والذي صار اسمه « سام » ، والذي نسي اللغة العربية ، والذي لم يعد بوسعه قراءة هذه السطور . . . ولم أعد اعرف عنوانه . .

لذكرى رحيلنا معاً الى اوروبا من سوريا منذ ١٤ سنة ، لم يعد هو بعدها الى الوطن العربي أبداً . .

الى جرحه المُتقن التخدير ،
والى جذره المقطوع كالشريان ،
والى وجوده الطحلبي الحزين
والى دمعتي السرية كلما فاجأني في الحلم .

غادة

لندن ٦/ ٧/ ٦٤

بـداية زمـن الرحيل

واستقبلني الصقيع بلندن . وتذكرت ان الشمس غابت مع وجه « من » ودعني في مطار بيروت ولم تشرق منذ تلك اللحظة . ساعتي كانت تشير الى السادسة . قلت فلتكن ليلة شتاء اقضيها قرب الموقد .

وجاءت السابعة . والثامنة . والتاسعة . والعاشرة ولم تظلم السماء . تحولت الى عين إنسان آلي : كبيرة ومفغورة ورمادية . بلا أهداب ولا دموع . . وانا كاهنة من الشرق حيث الليل لا يعرف الزيف . . . فيه ظلمة وحنين وتراتيل غامضة . والليل هنا لوحة ميتة مدقوقة في الاعلى لا فرق بينها وبين ديكور السقف ، والقمر ، شاعر السماء الجوال لا يتسلق اطاراتها . وهنا ادركت ان العتمة لا تسود في لندن قبل الحادية عشرة فيما يدعى مجازا الصيـف . وادركت معنى سحر الشرق بالنسبة للفتيات الانكليزيات . وليل الصحـراء الذي لم يصبه عفن هباب المداخن ـ بدفئه وقمره ـ يشكل عنصراً اساسياً من عناصر ذلك السحر .

وقلت ما دام ليل بلادي كالقطع النادر في هذه البلاد ، فلأر ليلهم . . .

ورأيت . . .

واقتنعت بان لندن هي التي تنفذ ما يشاع عن باريس . واذا كانت باريس تخفي عينيها بينما هي تتعرى فإن لندن تظل تصر على قبعة الراهبة فوق رأسها اثناء ذلك ! . .

ومجون لندن طريف ومن نوع خاص . . انه مشوب بكثير من مظاهر المحافظة . .

فأبواب الملاهي من الخشب البني العتيق ، ولها وقار استاذ جامعة ، ويخيل لمن يراها قبل ان يدخل انه سيجد خلفها قاعة محاضرات او قاعة محكمة ، وحينما يصبح في الداخل لا بد له من ان يطلق شهقة دهشة قبل ان يبدي استنكاره او استحسانه . . ان اي شيء لا يمكن ان يخطر بالبال يحدث هناك . .

وفي ازقة سوهو تستحيل الحياة ثديا جميلا يقطر سماً ! . . احساس عجيب بالقلق والتوتر يغمر كل من يعبر هذا الشارع ، ينبع من كل مكان دون ان ينشأ عن مشهد معين ، مما يزيد في غموض الخوف الشاحب ، ويحس الانسان بانه يواجه هنا عدوا مجهولا لا يعرف شكله او طبيعته ، ويكتشف بان هذا العدو من بعضه ، من بعض اظافر التنين

المروض في ذاته . . والجو مشحون بنبض الترقب . . إن خنجرا ما سوف ينطلق من خلف اية نافذة معتمة . . عند كل منعطف قد تنفجر مفاجأة ، ضحكة ملونة كفقاعات حمام غانية . صرخة نشوة ام عذاب . من يدري ؟ وشعرت بأنني اسير في حقل مزروع بالالغام . . . وتذكرت كتاب كولن ويلسن الجديد (تسكع في سوهو) الذي كنت قد بدأت بقراءته منذ ايام ، لقد استطاع الكاتب ان يحمل جو الازقة الى صفحاته . كانت حروفه تسكب ذلك الضوء الاصفر الرعديد الذي تسكبه مصابيح الشارع . . وكانت رائحة الخوف والقلق والسأم المتوتر تفوح من الاوراق . . . رائحة العصر . . وتذكرت بيروت ، وشارع بلس أمام جامعتي ، ووداعته التي أتاملها من نافذة الصف كلما ضجرت من سعة علم الاستاذ ، تذكرت المصابيح التي ليست صفراء ، والاسفلت الذي ينام ببراءة زوجة شرقية في القرن التاسع عشر(أم أنها ليست بريئة؟).سوهو عندنا تختبىء خلف الجدران ، خلف النوافذ التي تطل على الاسفلت الوديع . .

وفي « مقهى مصطفى » التقيت بالروكرز (من فروع البيتلز) إنه مقرهم شبه الرسمي . . ومصطفى صاحب القهوة ذات الواجهة الزجاجية ـ التي تتحطم كل اسبوع بعد كل مشاجرة ـ رجل باكستاني الاصل . . وجهه شرقي وسيم وعيناه تحملان غموض الشرق واسراره . وفي خديه قسوة وحشية لمروض افاع مسحورة . . وله سطوة روحية على الشبان حوله ، انهم يحدثونه بود واحترام ويخيل الي ان في تقديرهم له تعبيراً عن جوعهم الى حياة روحية ما زال الشرق يمثلها في ظنهم . . في احد الاركان يجلس الفيس برسلي (اكتشفت فيما بعد انه شبيه له) ، يعزف على جيتاره ويغني بصوت حزين تارة ـ يذكر بأنين حيوان مرمي على تلة رماد كانت مدينة احرقتها الحرب ، ـ ثم بصوت متمرد ثائر احيانا يوحي بطفل ضائع في بيت مجانين يحطم كل ما في طريقه احتجاجاً وتذكيراً لمن حوله بأنه في حاجة الى العطف . . وغناؤه هذا وما يوحي به هو في نظري التعبير الصادق لمشكلة البيتلز وفروعهم . . انهم نوع من احتجاج الانسان على الصف الطويل الذي ينتظمون فيه أثناء النهار ، كل يحمل صينيته ، ليأخذ طعامه بدوره . . والصينيات متشابهة ووجوههم متشابهة ولا فرق ان تشابهت اسماؤهم أم لا فلكل منهم رقمه في سجل العمل . . انهم ملايين من قطعان النمل التي تؤدي واجباتها باتقان لكن عقلها بلا إله . . لقد فقدت أوثانها ولم تجد البديل بعد . . يخيل اليها احيانا أن البديل في الجنس ، فتسقط في تيار الخيبة اللزجة ، ويخيل اليها ان البديل في الثروة فتصاب بلعنة ميداس حينما يستحيل الذهب رتابة ومللا . .

وقال لي احد افراد الروكرز . وكان كبقية رفاقه يرتدي (بلوفر) من الجلد : ان كل انسان يختلف عن الاخر . . لكل خصوصيته التي يتميز بها ، لذا فاننا نرتدي ثيابا جلدية تميزنا . . (ولكنهم في شكل تمردهم هذا سقطوا في الرتابة ايضا . . تحولوا الى قطيع جديد من الافراس ، ولكنه قطيع مسرج . . ان اللجام ما زال هناك ، على الذهن الذي فقد بريق التفكير باشياء لا تؤكل ولا توضع في فراش . . ان الخلاص لا يكمن في تغيير قناع المهرج ، الوجه الحقيقي هو الذي يجب ان يعرى . ان الانسان الحقيقي الذي لا يكفيه ان يأكل وينام هو الذي يجب ان ينـطق ويحتج ويعلو صوته) . .

الحب مثلا . . الا يمكن ان يكون نوعا من انواع الخلاص . . نسمة رطبة في هذا الجحيم ؟ . . ان الحب في نظري هو اسباغ صفة الخصوصية على انسان ما وبالتالي تمييزه عن افراد الجنس البشري اجمع بحيث لا يمكن ان يسد فراغه اي انسان آخر او يحل محله . .

الحب . . وضحكت من نفسي في اليوم التالي حينما شاهدت عددا كبيرا من الشبان في الشوارع وقد اطالوا شعرهم وبدت خدودهم طرية وناعمة . وفي المترو جلس احدهم قربي فلاحظت ان طبقة من حمرة الشفاه تكسو شفتيه ورائحة عطر نسائي تفوح منه . . الحب ! وضحكت من اسطورة انسانية يبدو انها في طريقهـا الى الاضمحـلال (وربمـا التطور) ايام كان الرجل رجلا والمرأة امرأة والحب ديناً . . وعدت أتأمله . . نحيلاً دقيقاً لو اتكأت على صدره لتهشم ، ينتمي الى فئة (المودرنز) . وانهار في نظري وجود كامل من الاشياء التي تشد المرأة الى الرجل . الرغبة في الاحساس بالدفء والاحترام ، اي حب يمـكن ان يقـوم مع مثـل هذا الكائـن الهجـين ؟؟ . ماذا تبقـى له من الرجولـة سوى الجنس ؟ . . وهنا ادركت سرا اخر . . . ان مثل هذه الميوعة في الشخصية أي هذا التمييع لمعالم المرأة كأمرأة والرجل كرجـل يشـكل التربـة الخصبـة لنمـو علاقـات جنسية غـير مألوفة . . يجعل انتشارها اقل استهجانا . . هذا الى جانب السأم والخيبة بلونهما الشاحب الرتيب الذي يغرق العالم في عيني قرد ضائع قضى يومه في جحيم من الآلات . . الآلات الافراد . . والعلاقات الآلية . . حينما تصبح التحية مثل دورة آلة قاطع التذاكر لا معنى لها ، ومحتومة ، وباردة . . والعناق حركة رتيبة (تَذَكَّرتُها) فنجـان قهـوة تسكبـه في فم الفتاة ، او تسكبه الفتاة في فم الرجل ، تطلبه باللامبالاة نفسها التي تحشو بهـا فم آلـة الاسطوانات بشلن لتسمع الاسطوانة التي تختار . .

ان الضياع الحقيقي الذي يعاني منه بحدة شبان تلك البلاد ومظاهره المتعددة من روكرز وبيتلز ومودرنز يدل على ان المدنية الغربية الحديثة رغم ما فيها من عظمة آلية قد

افلست في منح الانسان السلام النفسي والطمأنينة الاخلاقية . . بل انها تكاد تشوهه وتغير معالمه نهائيا ، ان الحياة الروحية للانسان هناك كقدم فتاة صينية موضوعة في حذاء حديدي كي لا تنمو . . وهذا الجيل ، جيل مرحلة الانتقال الى نموذج جديد من حياة الغاب لقرد ما زال يتعذب ريثما ينسى انه إنسان ! ريثما يفقد وجهه الآخر الذي يستوطن الوجه الآخر للقمر . .

والحرية ! . . الحرية في مثل هذا العالم تلغي نفسها بنفسها لانها حرية الـذين استلبتهم المدنية انفسهم . . انها حرية ان تموت كما تشاء لانه لا وقت لدى اي انسان كي يمنعك . . وهي حرية ان تنحدر كما تريد لأنه لا أحد يهمه امرك لينتقدك او يأسف من اجلك . . انها حرية لا مبالاة الجماعة بك ، وليست حرية تنبع من اعترافها بكيانك . . انها حرية التأمل تمنح لأعمى . . حرية الاكل لمن استؤصلت معدته . . حرية المركب في ان يبحر حيث يشاء في وجود بلا بحر . .

وفي هذه الزوبعة التي تعصف بقيم الانسـان في العالـم القـديم ، تظـل الاسرة كمؤسسة ، جزيرة صلبة تطمئن الاقدام اليها ، وما زالت روابطها راسخة لانها تنبع من احساس غريزي بالحنان نحو الاطفال ، ذلك الاحساس الذي لم تغزه آلية الحياة تماما ، وان كان العلم الحديث قد استطاع تشويش بعض ما تحمله روابطها من مغزى تقليدي حينما اخترع التلقيح الاصطناعي حيث يزرع في رحم المرأة طفل رجل ما كأنها ليست اكثر من حوض نباتات ! . . ولكن ، لماذا نقول « حوض نباتـات » اذا تم ذلك باختيار واع منها ؟ أليست اكثر الزوجات في بلادي مجرد أحواض نباتات تحتضن ما يزرع ما دامت لا تختار زوجها بنفسها ؟

وبعد ،

طيلة هذه الأيام كنت كفتاة علقت ضفيرتها بمسننات آلة ضخمة تدور بلا توقف ، والآلة تلف بي بلا رحمة ، تسحقني بين مصفحاتها وتعلو بي في الفضاء لتضربنـي على الأرض ثم تدور بي من جديد . . .

غدا اعود الى الشمس .

باريس ١٣/ ٧/ ١٩٦٤

تقاسيم على عود الغربة

أول ما طالعني في باريس صدمني . جعلني اتساءل : ماذا حدث للفرنسيين ؟ ولماذا يشوهون عاصمتهم بهذه الصورة ؟ فالابنية في باريس كما في المدن العريقة الكبيرة جميعاً . تحمل احجارها آثار الزمن هباباً أسود ، فتبدو رمادية اللون معتقة الزوايا . كأن تاريخ الشعب بأكمله مكدس في زوايا الجدران . كل ذرة مغبرة انشودة نصر ، او حكاية هزيمة . كل موضع رصاصة قصة محارب . كل حجر ، اسطوانة سوداء سُجلت فوقها ملايين الصرخات والظلال ، ولحظات الصمت والتحفز . فيها من المناقشات والخطط التي تحولت ذات يوم الى ثورة ، وفيها من اسئلة مشحونة باللهفة عن اخبار نابليون ، وفيها ايضاً من مناجاة امرأة ترتدي ثوباً (شارلستون) وتضع على وجهها نقاباً من الشبك الاسود مع رجل طويل السالفين يضع على رأسه قبعة مرتفعة ،ويرجوسائق عربته التمهل بينما يعلو من مقهى مجاور خشبي الواجهة لحن (الكومبارسيتا) ممزوجا بابخرة النبيذ .

لذا دهشت لما رأيت العمال وقد تسلقوا سلالمهم وحملوا مساحيق التنظيف الاميركية ، ينظفون بها عن الجدران ماضيهم . يمسحون آثار الاعوام عن وجوهها المغبرة الغنية بايحاءاتها . . وإذا بالابنية التي تم تنظيفها هجينة المنظر ، كأنها لم تحمل ذات يوم بصمات النار والريح والشمس والناس . . . كأنها لم تكن ذات يوم سجلاً ثميناً وصفحات حية أو نصباً تذكارية لتاريخ شعب عريق .

ما زال العمال يطلون خدي باريس بالبودرة ، يبيضونها ، ترى هل تنقذ المدينة الحلوة نفسها ؟ ان مشهدها ذكرني بمنظر رجل جاهل يحاول تنظيف وعاء اثري وجده في حديقته وتلميعه ، دون ان يدرك ان قيمته تكمن في بصمات التاريخ عليه . . ترى هل تنقذ المدينة نفسها قبل ان تتحول الى ما يشبه المدن الكرتونية التي تبنى داخل استديوهات هوليوود ؟

واذا استطاع الفرنسيون ان يبرروا عملية شد الوجه هذه لباريس بحجة النظافة ، فلا اعتقد ان بوسعهم ذلك بالنسبة لقلاعهم وقصورهم الاثرية . . قصر شامبور مثلاً رأيته وقد تم تنظيف نصفه ، فصار ناصع البياض كعجين لم يخبز ، وصار التناقض في هيئته مزعجاً بعد ان فقد الانسجام بين طراز بنائه القديم ونظافته المستحدثة . في القصر عشرات

اللوحات والمقاعد والسجادات الاثرية التي نجت الى حد ما من حريق ترك آثاره فيها . ترى هل يفكرون ايضاً بإرسالها الى مصبغة للتنظيف على البخار ، أم انهم سيبدلونها بستائر مودرن ومقاعد (سليب كونفورت) ؟

ما الذي حملني الى قصر شامبور ، والى اورليان وتور وشارتر ؟

الواقع انني لم امكث في باريس طويلاً ، فقد مضيت الى الريف لألتقي بالفرنسيين لا بالوجه السياحي لفرنسا فقط .

في الريف التقيت بفرنسا الحقيقية بابنائها ونسائها الذين يبنون مجدها بصمت .

لا أثر للتهتك في الريف الفرنسي . رابطة الاسرة قوية ، وسطوة الدين ما تزال مهيمنة على الرؤوس الطيبة الساذجة . والمرأة في الريف شيء يختلف تماماً عن الصورة التقليدية التي رُسمت في اذهاننا عن المرأة الفرنسية قياساً على ما نسمعه عن باريس او نراه فيها .

رأيتها خادمة في المطعم . ورأيتها أماً تدفع بعربة اطفالها في الشارع . وفتاة في أبهى حلة ذاهبة الى الكنيسة ، وزوجة تتأبط ذراع زوجها ، وفلاحة ، وبائعة . . وكانت في الحالات جميعاً امرأة عاملة ، ولم تكن نحيلة القوام كما نيكان لأنها تعمل حقاً كالرجل ولا وقت لديها لحساب الكالوريز و (النقاط) الحرارية الموجودة في (قطعة البفتيك) . ولم تكن متهتكة او مبتذلة ، وإنما رأيتها بسيطة المظهر واللفتات ، واعتقد ان حقيقتها الرائعة هذه تخيب دوماً آمال الذين يسمعون (الكثير) عن المرأة الفرنسية ، ويبنون على هذه الاساطير كثيراً من الآمال .

لقد احترمت الفرنسية في الريف كما احترمت المرأة العاملة في باريس ، إنها تختلف كثيراً عن تلك الموضوعة في واجهات مخازن بعض شوارعها للدعاية . وشأن باريس في ذلك شأن أية عاصمة سياحية أخرى ، كبيروت مثلاً . المرأة الفرنسية (الغانية) التي تجتذب الرجال من انحاء العالم جميعاً هي الطبق الذي يطهوه الفرنسيون لضيوفهم فقط ولا يتناولونه . إنها تختلف تماماً عن طبقهم الشعبي الشائع : المرأة الجادة المحترمة ذات الضحكة الحلوة . والوجه النظيف والقامة الممتلئة . مدينة اورليان مثلا تنام باكملها قبل العاشرة ، ليس فيها ملهى واحد ، ومكان التسلية الوحيد فيها هو السينما كما في حمص مثلا او اية مدينة سورية محافظة .

ومع ذلك ، لم يخل شاطىء نهر اللوار من مشهد عاشقين انتقيا ركنا مظلما يتبادلان فيه القبلات لكنني لم ار أي عاشقين يستعرضان عواطفهما في النهار على مسارح

الشوارع ! . .

وفي « روان » أصر الدليل ، رغم تعبنا ، على جرنا الى ساحة من ساحات المدينة فيها تمثال لجان دارك ، ثم قال بلهجة مسرحية ملؤها الخشوع والتبجح : هنا احرقت جان دارك . . . قديستنا . .

وضحكت بصمت ومرارة . . ففي بلادي مئات من جان دارك يصلبن في كل مكان وبألف اسلوب واسلوب ، يحرقن ببطء دون ان يتجمهر الناس ، ويمتن ببساطة دون ان يقام لهن نصب او حتى يحفر لهن قبر ، ولا يطوف بالناس حولهن دليل . . هل من الضروري ان نستعين بالة الزمن التي ابتكرها (ويلز) لنعود القهقرى ونرى جان دارك تتلوى على عمودها وتشهق بحثاً عن الهواء والنار تأكلها ؟؟ . . لماذا لا يأتون الى بلادي ليروا الف الف جان دارك تحرق بلا لهب وتموت دون احتجاج ! .

وتتعاقب المشاهد البشرية ، وتتوالى المتناقضات . . ويبدو ان الموضات لا تتناول الازياء والازواج فحسب وانماانتقلت عدواها الى الاطفال . . وبعد ان ولعت الفرنسية بتبني القطط والكلاب تبدلت الموضة الآن الى تبني الجرذان . . لقد شاهدت في البداية امرأة ربطت شيئا صغيرا جدا على الارض يركض خلفها ، ظننته في البداية قطاً قزماً ولما اقتربت منها دهشت اذ وجدته فأراً جميلاً . . ثم اعتدت على هذا المنظر بعد أيام ، ولا احتجاج لدي على الفأر كفأر فهو مخلوق جذاب ويكاد يضاهي العصافير بجماله وها هو ذا ايضا مزاحم جديد على لقمة انسان ما جائع . .

والريف في فرنسا صحراء خضراء شاسعة ، انه رائع وشاسع حتى الرتابة وحتى الاحساس بالصحراء . . وباريس المدينة الجميلة كحديقة مثل يحتذى بالنسبة لبقية المدن . . ففي مونبيزون وفي تور رأيت حوضا لازهار جميلة ملونة على طول الرصيف ، ولوحة امام الحوض كتب عليها ان هذه الازهار هي هدية البنك الى الناس ! . . هدية من العواطف في القرن العشرين . . ترى هل تفضل ان تصلك من البنك عدة اوراق نقدية كهدية ، او عامل يزرع زهرة امام باب بيتك ؟ اظن ان ذلك يتوقف على مزاجك الشخصي وعلى مزاج صاحب البنك الذي اختار ان يكون رومانتيكيا في موضوع الهدية ، وفي رومانتيكيته هذه منتهى حذق رجال الاعمال .

واخر ما يثير اهتمام الغريب في المطعم الفرنسي هو الطعام (حتى ولو كان جائعا) . ان المطعم الفرنسي قمة في الذوق والترتيب ، ومتحف لعراقة الشعب وحضارته . . فمن صحن علقه الاب على الحائط ، الى مقعد انيق في الركن انتقاه الجد ، وستارة خلفه

عقصت بطريقة خاصة . الى لمسة خاصة في اسلوب ترتيب المكان . . هذه الاشياء تجعلنا نحس بأن الجمال الحقيقي لا يصنعه مهندس الديكور وانما هو حصيلة اذواق متعاقبة وزبدة فنون اجيال . .

والطرقات في انحاء فرنسا كلها منظمة بشكل يدعو الى الدهشة . . ان الغريب يستطيع ان يتجول فيها من مكان الى آخر دون ان يضطر لسؤال انسان عن الدرب ، اذ لا يقطع عشرة امتار الا ويجد لوحة تحمل رقم الطريق الذي هو عليه ، ولا يصل مفترق طرق الا ويقرأ الى اين تقود كل درب . . انها تحرم الانسان من لذة ان يضيع ! . . ويبدو ان الانسان يحب ان يضيع احيانا ليكتشف دربه بنفسه ، لقد قدرت هذه الدقة واعجبت بها ولكنني كنت احببت الطرقات اكثر لو تركت لي شيئاً . . الدرب الوحيدة التي تمنيت ان اسير فيها كانت ضيقة وعليها لافتة تقول : طريق لا توصل الى اي مكان . . تجنبها !! . . .

روما ١٠/ ٨/ ٦٤

أعمد نفسي مركباً ليلياً

مئات من الوجوه الحجرية ، مئات من الاجساد الرخامية تطل من كل مكان . . . من أعلى الابنية تصطف كالعساكر ، امام الابواب تنتصب ، فوق النوافير ، بين المياه المتدفقة غالباً من افواهها ، في الساحات . . . تماثيل في كل مكان ، جميلة ، دقيقة الصنع حتى لترهف السمع لتلتقط ما تتأهب لتقوله ، او تكاد تمد يدك مصافحا . . انها روما ، المدينة التي نصف سكانها (النصف الحلو) من التماثيل ، لكن النصف الاخر لم يتحول الى آلات بعد . .

في لندن مثلا كنت اذا راقصت شابا اقترب بوجهي من وجهه لأتأكد من انه يتنفس حقاً . . . واذا دست على قدم رجل ما في المترو فانني لا اعتذر لانه لا يحس بي . . انه آلة لم يدخل صانعها في حسابه حوادث تافهة من هذا النوع . . اما في روما فالجو النفسي يوحي منذ الوهلة الاولى بأن حادثة تافهة كهذه يمكن ان تؤدي الى حرب داحس وغبراء جديدة . .

الناس هنا لا يركضون بجنون فئران في انبوب اختبار مكهرب ، ما زالوا يتلكأون امام الواجهات ، ويصفرون ـ على الاقل ـ اذا مرت بهم فتاة جميلة ، ويمضغون الطعام قبل ابتلاعه ، وينامون دون جرعة من الدواء المنوم ، ويفكرون بابتياع طوق ياسمين للحبيبة بدلا من سؤالها : كم تريدين ؟ . . . وما زالوا ايضاً ينشرون العربات التي تجرها الاحصنة في مدينتهم اعترافاً منهم بأنه ما زال فيها بعض الناس الذين يفضلون ان لا يصلوا بسرعة . . إن مشهد هذه العربات ملأني طمأنينة ، ذكرني بانني لم ابتعد كثيراً عن بلادي ! . . . حتى الابنية التي احس دائما ان لها وجوها كوجوه البشر ، فرحت لما وجدتها مألوفة كوجوه ابناء الجيران ، كوجوه ابنية المعرض او سوق الطويلة ، بخدودها الصفر الموسخة وعيونها المربعة ذات الزجاج المغبر ، وطوابقها غير المرتفعة التي لا تتعدى السبعة طوابق . .

وهكذا ، منذ الوهلة الاولى ، ينتفي الاحساس بالغربة الذي يصعق الشرقي في اوروبا في البداية . . ولكن عندما يأتي المساء يكتشف ان روما مصابة بازدواج خطير في الشخصية . . . فالابنية الاثرية المبثوثة في انحائها كلها تخلق فيها جوا من الوقار والقدم ،

والتماثيل الفنية الرائعة توحي بعالم من الجمال الاغريقي والقيم الصلبة . . ومع المساء تختفي روما الدكتور جيكل وتنتصب روما المستر هايد التي تنافس برقصها الوحشي قافلة المدن التي لا تنام . . وتبهت الابنية الاثرية حتى لتكاد تختفي ، ومع اصوات القبلات في زوايا الشوارع ، والهمهمات والملاحقات وشهقات التعب ، احسست فجأة ان التماثيل العارية بدأت تنبض بالشهوة وتتحرك في اماكنها لتعربد لاهثة ، او تقفز عن قواعدها لتلاحق في الشوارع اشباحا مبهمة لنساء نحيلات الخصور ولتختفي وراءها خلف المنعطف . . . لذا لما هطل المطر الدافىء مع طلوع الفجر ، احسسته نديا منعشا يغسل عن المدينة وتماثيلها وأهلها بقايا احتراق الليلة الماضية . . . او ربما يغسلها ليعدها لليلة جديدة اكثر نهما . . .

وهذا كله يجري على بعد خطوات من مدينة الفاتيكان ، حيث يحج الالاف كل يوم طالبين بركة إلههم . . . وامام الباب الخلفي للكنيسة ، لاحظت وجود بناء متواضع جداً اذا قورن بفخامة الكنيسة وثرائها الفاحش ، وعلى البناء لافتة : بنكو دي روما (بنك روما) . . ترى لماذا لا يحج السياح الى البنك ايضا ويزورونه وهو فاتيكان القرن العشرين الحقيقي ؟ ام ان العبادة في عصرنا كالزواج ، يتزوج الرجل من واحدة وينام مع اخرى ، يعبد إلها ويصلي له في محراب إله آخر ؟ . . .

وعلى ذكر الزواج وهو اخطر انواع السجون ، اذكر انني في البانثيون شعرت بضيق لا يوصف وانا اتأمل القبة الحجرية الهائلة وكوتها الدائرية في الاعلى وانا تحتها كذبابة سجينة تحت قبعة شيطانية مثقوبة . . وكان الدليل فخوراً جداً وهو يقول : هذا من اروع الاثار الفنية لدينا . . تأملوه ببطء . . . وكنت اسير حول الجدران الدائرية العملاقة وقد باغتني احساس ملح : يجب ان اجد باباً ما . . باباً يطل على اي افق ، اي شارع . . ولما وجدت انه ليس في الجدران كلها باب واحد او نافذة واحدة بدأت أحس بالاختناق وفقدت القدرة على تذوق جمال أي شيء حولي . . حتى الكوة في الاعلى احسستها نافذة على إله بخيل لا يعطي من سمائه سوى فوهة بئر جافة . . وازداد احساسي بالاختناق ، وكان الدليل ما يزال يتحدث ، وكدت اصرخ ضيقاً . (إنها جدتي الاولى الاعرابية في أعماقي التي منحتها الصحراء ذات يوم سماءً وأفقاً بلا حساب تأبى أي نوع من أنواع كبت الحرية ولو تحت قبة بانتيون) . . وكان الدليل ما يزال يقول : « هنا مقبرة العظماء . . هنا دفن رفاييل و . . . » . . ولم يهزني الخشوع لمشهد مقابرهم المترفة ، تحركت امام عيني في الكوة قافلة من العظماء الآخرين الحقيقيين أيضاً أشباحاً ملطخة بالدم والكفاح الصامت . .

السجون القذرة ، الزوايا العفنة الرطبة ، سنوات من الخيبات المريرة دون كلمة شكر ، ارصفة يموت عليها البعض جوعاً لانهم لم يسرقوا . . . البانثيون الحقيقي في تلك الاماكن حجارته لا تحمل اسمى آيات الفن ولا تنظف كل ليلة ، ربما عليها آثار اقدام عارية لرجل او آثار أسنان إنسان كان يجلد . . .

وماذا بعد . . .

ينبوع الاماني . . . وقطع فضية ترمى في الماء . . عيون تغمض وامنيات ترفع الى سماء ما . . وامام ينبوع الاماني لم ابحث عن قطعة فضية . . ولم أرم بها في الماء ولم اذكر امنيتي . فأنا اؤمن بان الاماني لا تتحقق بالأساطير الرومانسية وانما بالعمل وحده ! . . .

تونس ١٧/ ٨/ ٦٤

مرمية من كوكب مـا

من خص النافذة الخشبي ، وقفت أتأمل قطيعا من البيوت البيض ذات الأبواب والنوافذ الزرق ، المزخرفة باسلوب خاص . . . والنخيل . . . وفي الزقاق رجال يسرعون في عباءاتهم البيض ، والغروب محمر ودام عند التقاء الشمس بالافق . المشهد امامي يصلح غلافاً لكتيب سياحي عن هذا البلد : تونس .

ثم بدأ الظلام يلقي بجسده فوق المشهد ، وكنت ما ازال مغروسة خلف النافذة ، وبدأت نسمات عجيبة تنسكب من بين نقوش خشبها وتفوح حولي . كانت لها رائحة خاصة ، تحمل نغماً خاصاً ، همهمات مبهمة ، طعم بكاء عتيق في امسيات طويلة هرمة .

وغمرني إحساس مرعب : كنت هنا من قبل !

متى ، واين ؟

لست ادري . . . في جيل ما ، في زمن ما ، كنت شيئاً آخر ، لكنني كنت هنا بطريقة ما . واحسستني سجينة جسدي ، سجينة ذاكرتي البشرية المحدودة ، وهذا الشعور المشحون بحسرة غامضة وحنين مرير يؤكد لي شيئاً خفياً طالما آمنت به : التقمص . (هذا الاحساس نفسه غمرني في احد اديرة فرنسا القديمة في « بوجانسي » التي حولوا جزءا منها الى فندق .

لما دخلت الى ذلك الفندق ـ الدير ،وشممت رائحة الخشب العتيق ، ورأيت درع فارس وخوذته ، وانجيلا قديماً مفتوحاً ، احسست فجأة بانني عدت الى بيتي بعد غياب طويل . ودون ان انطق بحرف وجدتني انسل في ممر ضيق الفت ارضيته الخشبية ، حتى شقوقها والتواءاتها كنت اعرفها . ووجدتني ابحث عن لوحة معينة ، كما يحدث في الاحلام اعرف انها هنا في مكان ما ، ووجدتها ! . . ووجدتني اتجه مباشرة نحو غرفة في آخر ممشى فندق بوجانسي ، وموظف الاستعلامات يتبعني بدهشة ، حتى وقفت امام بابها جزعة ، وطلبت منه ان تكون لي .

قال : ان لهذه الغرفة بالذات تاريخاً مرعباً ، ان امرأة قد قتلت فيها ، ولكن ، هل تعرفين الفندق من قبل ؟ وكيف سرت في الممشى وحدك ؟

وكنت اختنق ، احاول عبثاً ان ارى بوضوح ، يأكلني عذاب اخرس يريد ان يقول شيئاً ما لكنه فقد لسانه . . ذات يوم كنت هنا ، المناظر التي تطل النوافذ عليها اعرفها ، الجسر والنهر ، رائحة الخشب ، اهتراء « الارضية » ، الاشياء القديمة كلها اعرفها ، واشعر بالنقمة على الاثاث الجديد كأن امرأة اخرى استولت على بيتي ، وادخلت فيه اثاثاً لا احبه) .

اذن كنت في تونس من قبل !

هذا ما اؤمن به واصدقه لانني اعيشه ، وليست هي المرة الاولى التي يصعقني فيها مثل هذا الاكتشاف يمر بي في لحظة وميض كالبرق ، لحظة باهرة الوضوح تضيء الماضي لثانية ، ثم تنطفيء وقد خلفت ما يخلفه النور الباهر في العين بعد انطفائه .

وهبط الظلام . وحيدة ، بلا زمان ، كأنني مرمية من كوكب ما ، ولم استقر بعد على كوكب آخر . وبدأت اتمسح بذكرى اشيائي التي احبها . ابي في دمشق ، بيروت ، اللاذقية ، احاول ان ارتبط بكوكب ما لأتحرر من هذا الادراك المفجع بعجزنا عن ربط ذاتنا الحالية بالتي سبقتها وسبقتها والاولى منها . . . وعجزنا عن اختيار زماننا ومكاننا . وعمر الروح الانسانية حلقات مفككة لا تلملم شعثها ذاكرة واحدة . احسستني ممثلة في مسرح اجباري كبير ، لا ادري اي إله شرير السخرية يرسل بي من وقت الى آخر ، لألعب ادواراً مختلفة ، ويغير في كل مرة وجهي وجسدي ودوري وعصري ومصيري . . . يا انا ! أهذا كل شيء ؟ .

هل يمكن ان يكون ذلك التفسير الوحيد لكل ما يجري ، سر الوجود الذي نلهث وراءه ، ام ان التفسير الحقيقي لم ولن يخطر ببال انسان ؟؟ . .

واعادني رنين الهاتف الى القرن العشرين . ولما فتحت حقيبتي ورأيت ثيابي عرفت دوري في المسرحية . وبدأت استعد للخروج .

ومن خلف النافذة ، هبت هذه المرة اغنيتان : واحدة من الشرق واخرى من الغرب . ام كلثوم وقد اطلقت صوتها وهي تنشد « انت عمري » وماريا كالاس في مقطوعة من احدى اوبرات « فردي » . وكانت الاغنيتان تمتزجان ، تتصارعان ، لا تطغى واحدة على الاخرى . لعل هذه اللوحة الصوتية كانت ملخصاً لكل ما سأشاهده . وقد صدق حدسي . . . كنت في بلد عربي له خصائص البلاد العربية كلها ، بما فيها من التقاء الاصالة العربية مع موجات الاصالة الغربية ، والغاء هذه الموجات بعضها لبعض ، او اتحادها وتمازجها ، او تصارعها . .

وفي كثير من الاشياء كنت اجد ام كلثوم الى جانب ماريا كالاس . حتى في احاديث

التونسيين انفسهم : كانوا يتحدثون بالعربية وبالفرنسية ، ولكن مسرحية قدمت على مسرح الدولة الرسمي كانت باللغة العربية الفصحى وسرني ذلك .

وبصورة عامة كان الطابع العربي هو (الغالب) ، وحتى الجمل التي ينطقها الشاب بالفرنسية كانت تحمل عقلية عربية شرقية ، والاخلاق العربية هي السائدة ، واسلوب التعامل العاطفي ، والكرم ، والنبل ، وحرارة القول والعمل ، والوجوه السمر ، والعيون التي تلتمع ذكاء واندفاعاً .

وذات مساء جلسنا نسمر . وكان احد الاصدقاء التونسيين يتأمل زوجته الشقراء باعجاب ، ويحدثنا عنها ويطريها ، وهي تحمر خجلاً وطرباً . وكنت قد اعتدت اللهجة التونسية الى حد ما وصرت قادرة على فهم حديثه ، وفجأة ، لم أصدق انني سمعته يقول : مراتي « زعرة » !

وصعقت . وتساءلت ماذا حدث حتى يشتمها هكذا ، وعلنا ؟ . .

وسألته : ماذا قلت ؟

قال :زوجتي« زعرة » ! هذا اكثر شيء يعجبني فيها !

و« زعرة » باللجهة الشامية تعني لعوب فاسقة .

ووجدته ينفجر ضاحكاً ونظراته تتمتع بالدهشة المشفقة التي انطبعت في وجوه الزملاء اللبنانيين ، ويلحق بعبارته شرحاً لها : زعرة يعني شقراء !! . .

وتذكرت الدعوة التي يؤمن اصحابها بوجوب الكتابة باللغة العامية ، والمبررات القوية والضعيفة التي يسوقونها لدعمها . . وتخيلت اديباً تونسياً يكتب مسرحية او ديوان شعر بالعامية التونسية ويسميه : « زعرة » بدلا من « شقراء » . اية صدمة يصاب بها القارىء العربي لمجرد قراءة العنوان ؟ واية صدمات اخرى يصاب بها وهو يقلب الصفحات ؟ اي تشويه ؟ . . الا اذا اضاف الكاتب ملحقاً او شبه معجم ممسوخ للغة المطلوب من الادباء العرب تبنيها أحياناً .

وتساءلت : اذا كانت لدى الفنان اداة او طاقة متوفرة تمكنه من ان يذيع على موجة قوية توصل صوته الى أكثر من مئة مليون انسان آخر ، وتحفظ كلماته طيلة عصور اخرى ، لماذا يهجرها ليذيع على موجة محلية محدودة لن يتلقى بثها سوى عدد قليل نسبياً وجيل معين ؟

ولو تركنا جانبا عوامل التاريخ والقومية ، وبحثنا الموضوع على صعيد الادب وحده وتساءلنا : « من هو الاديب » لوجدنا انه انسان في فمه كلمة حق يريد ان يلفظها

وتتجدد كلما لفظها . . انه انسان لديه ما يقوله .

وهو اما أنه يختار قولها لنفسه ، وفي هذه الحالة يكون ادبه ذاتياً ، ولن يدهشنا ان يكتب بالمسمارية او الهيروغليفية او الفينيقية او بشيفرة خاصة يخترعها ، او لا يكتبها على الاطلاق .

او ان يقول ما لديه للناس ، وبكامل رغبته وارادته . وهنا عليه مسؤ ولية حُسْن ايصاله كلماته ، والبوح بها الى اكبر عدد ممكن من الناس ، والا فلماذا يفرح الاديب حينما يترجم نتاجه ، ويعتبر ذلك نصراً له ؟ . . والشاعر الذي يستطيع ان يرنح امة طرباً ، لماذا يتخلى عن اسعادها لينشد لقرية ؟؟ . .

***

والدار في تونس رجل شرقي ، فيها مزاياه وطباعه وعيوبه . فيها غيرته على اشيائه من زوجة وحياة داخلية ، وحرصه على اخفائها والاستئثار بها . ومن يطل من الباب لا يرى سوى فناء صغير تنفتح عليه مجموعة من الدهاليز والابواب . انه الشرقي لا يطرح اعماقه . وداخل الدار كريمة الجمال والذوق .

وفي دار تونسية خيل الي طيلة السهرة انني في دمشق ، في احد احيائها القديمة حيث الياسمين في الفناء ، والنوافذ الخشبية المحفورة باتقان تطل على فسحة تتوسطها بحرة مياه ثرية . وشعرت بذلك الخيط الذي يربط الاندلس بتونس بدمشق .

وفي تلك السهرة ايضا كان كل شيء مزيجاً من ام كلثوم وماريا كالاس . ففي باحة دار كهذه يتوقع الانسان ان يرى فتيات في ثياب رقصة السماح مثلا ، ورجالا في عباءاتهم البيض الفضفاضة ، وموسيقى العود ، وخادمايطوف بالقهوة المرة . . وعوضا عن هذا كان هنالك رجال اكثرهم شقر في « بدلاتهم » الغربية الرسمية ، وشعورهم التي يلتمع زيتها تحت اضواء « الكازات » ، بايديهم كؤ وس « الجن فيز » والويسكي ، ويتحدثون بالفرنسية والانكليزية وربما العربية . كان اغلبهم من الصحفيين والادباء ونجوم السينما الاجانب . وفجأة اطل شاب اسمر في قميص (سبور) وابتسامة (سبور) وتحية (سبور) ، وكانت اول كلمة ترحيب نطق بها : « اخلعوا ربطات عنقكم » !! . . وامتثل الحاضرون ، وعرفت انه ابن الحبيب بورقيبة ، ورأيت الايدي تمتد باسف الى الاعناق لتحل قيداً قضت ساعات في انتقائه ، وتجميل ربطته . وصار الجميع بعد لحظات اكثر قدرة على التنفس والضحك وصارت الاعماق اكثر رحابة واتساعا ، ولم ينقص شيء من ذكائهم ولا من ظرفهم حينما تخلوا عن « مشنقتهم الاجتماعية » هذه .

لماذا يسخر الرجل من المرأة وازيائها واناقتها ؟ . . وهو ايضا ، الا يتصور نفسه انيقا في ربطة العنق ، فيصر على لفها ؟ ولماذا اكسبها هذا المفهوم فجعل منها علامة احترام ورزانة ؟ . . وهل حرية الرقبة تحد من اتزان الشخصية ؟

ألا يستطيع الرجل ان يكون راجح العقل إلا اذا دفع مبلغاً كبيراً ثمناً لانشوطة تعلم من الغرب استعمالها ؟ . . ثم ان الثياب وجدت لتخدم الانسان لا لتذله ، لتحميه وتريحه لا لتضايقه ، وبلادنا ليست كاوروبا ، انها حارة يحتاج الرجل فيها الى تحرير نفسه من اي شيء يضغط على جسده ولذا كان اجدادنا اكثر حكمة يوم اختاروا العباءة وارتدوها ، واكثر مهابة وجمالا من مشهد رجل في هذه البدلة الغربية القبيحة ، التي تشوه في نظري رشاقة جسد الرجل ولا تظهر معالم القوة التي تنبع جاذبيته منها بالشكل اللائق . . وكلمة صريحة اخيرة : احلى ما في الرجل رقبته ، ومشهد عضلاتها وعروقها وهي تنتفض وتتقلص وتسترخي وتتواتر مع انفعالاته تعطي صورة موجزة او خطا بيانيا لغليان الدم في عروقه او همودہ . . انها جزء معبر كعينيه . . لماذا يئدها ؟ . .

ومن اطرف ما سمعت في تونس شتيمة ، امرأة تشتم جارتها وتقول « ينطيكي شامي » أي « يوقعك الله في حبائل زوج شامي » ، وعرفت انهم يضربون المثل بسوء معاملة الرجل الدمشقي لزوجته، وهذه المرأة التونسية لم تجد مصيبة أكبر تدعو بها عليها سوى أن يرزقها الله زوجاً من الشام . . ترى ما رأي الزوجات في دمشق ؟؟ . . .

لندن ٧/ ٩/ ٦٤

سلام على حقول البرتقال الحزين

لا شيء اجمل من لندن حينما تصفو سماؤها ، وتنبت فيها شمس ، ويتلصص فوق ابراجها قمر . . انها رائعة ، كابتسامة مفاجئة في وجه انسان متعب قلما تنفرج اساريره . . ككلمة حب مشبوبة على شفتي كاهن لا مبالاة .

وانا اعتبر الشمس فرداً هاماً من افراد اسرتي ، لذا غمرني شعور عائلي بانني في بيتي لما التقيت بها في ذلك الصباح ، واخترت ان اقضي سهرتي مساء امام التلفزيون كأي فرد يقطن لندن وله فيها اسرة وموقد . .

لكنني فقدت في الليلة نفسها ذلك الاحساس بالالفة ، وانا ارقب برنامجاً يدعى أفتردينر - أي (بعد العشاء) يقدمه « لورد بوثر » ، وكانت ضيفة البرنامج « الليدي غيتسكل » أرملة زعيم حزب العمال الأسبق .

كان اللورد يتحدث عن دور الشباب في النهوض ببلدهم ، ويطرح على الليدي غيتسكل سؤالا يتعلق بهذا الموضوع . وهنا نجد الليدي تشير الى اثر الدين في النهوض بالشعوب ، وتتخذ من (دولة) اسرائيل دليلاً على صدق كلامها ! ويتدخل اللورد (ليناقشها) ، فيلفت نظرها الى عنصر آخر يرجع اليه الفضل في (نهضة اسرائيل وقوتها) ، هذا العنصر هو ما اسماه (بالتجنيد الاجباري لقوى الشعب كافة) . . ويستمر النقاش بينهما ، وتستمر المباراة لاكتشاف (سر قوة اسرائيل !!) . . والنتيجة التي يخرج بها المستمع البريطاني هي قناعة تامة بان اسرائيل قوية ، مرتكزة على اسس دينية (تفسير يرضي اعماق الفرد البريطاني المحافظة التي تهتم كثيراً بتاريخ الجماعة وماضيها !) وعلى أسس من العمل والجد والتجنيد الاجباري . . اي على مبرر تاريخي لوجودها ، ومبرر انساني ! . .

وتمزقت وانا أرى الحقائق تمسخ امامي بهذا الاسلوب . . وسألت عن البرنامج فقيل لي انه يكتب بأكمله قبل اذاعته . . اذن فليس في الحوار اي ارتجال . . . ترى هل يؤمن اللورد حقاً بما كان يقول ؟ ام ان الدعاية الاسرائيلية استطاعت مسخ الحقائق الى هذا الحد ؟ . .

والواقع ان الدعاية الاسرائيلية كما لاحظت ترتكز على أسس علمية نفسية حديثة لمختلف الشعوب الاوروبية . . انهم يقدمونها لكل شعب اوروبي باسلوب معين يتفق مع نفسيته وظروفه وتاريخهم معه . . يسكبونها له في طبقه الشعبي كي يتناولها بتقبل . . . في المانيا مثلا لاحظت بعد نقاش واحد مع مجموعة من الشبان الالمان ان الدعاية الاسرائيلية استطاعت ان تربي لدى الجيل الالماني الجديد عقدة الشعور بالذنب امام اليهود وحولت هذا الشعور بالذنب نحو اسرائيل . . واستطاعت ان تتقاضى ثمناً لهذا الاحساس مجموعة من المساعدات المادية ، وكثيراً من العواطف الفردية الانسانية التي يحملها الالماني للاسرائيلي . . . الالماني في أعماقه ما زال يحتقر الاسرائيلي كفرد له أسلوب (حقير) في الحياة ، ولكنه تعلم ايضاً ان يكره احتقاره للاسرائيلي ويخجل منه ، بل ويدفع له ثمن احتقار اجداده له . . .

وفي ايطاليا يستغل اليهود وجود الكنيسة الكاثوليكية وتعاليمها الانسانية فيشرحون قضيتهم من زاوية دينية بحتة ويرتدون على وجوههم اكثر اقنعتهم ذلاً ومسكنة ليثيروا شفقة المتدينين والعالم .

وهنا في بريطانيا يضربون على الوتر الحساس في ذات البريطاني المحافظة التي تؤمن بقيمة العمل والجد . . .

ونحن . . .

ما زلنا نزهر كلاماً ولا نثمر . . .

نطلق سحبا ترعد ولا تمطر . . .

ونحن بعد ستة عشر عاماً من النكبة ، استطعنا اخيراً ان نتفق على محاولة الاتفاق على اتفاق لبحث اسلوب العمل !! . . ونحن ما زلنا نتشاجر ونتاجر بجرحنا ونساوم عليه حتى كدنا نحبه حب المتسول لعاهته !! . . .

« الحقيقة ولدت في المنفى » ، ونحن نزيد في نفيها ، ننفيها في كل لحظة بتصرفاتنا وجهلنا ومناوراتنا . .

وهم يبثون ألسنتهم في كل مكان ، فصيحة خبيثة تنطلق في كل دار بلغة أهله ، وعقلية أهله ، تعبر بمهارة وسلاسة عن اكبر اكذوبة في التاريخ وتنسج من الجريمة اسطورة يكاد العالم الغربي يعتنقها . . .

وهربت الى الشارع ، وكان البدر يضيء السماء ربما للمرة الاولى منذ اعوام في لندن . . واحسست بالحقد على اعماقي التي ما زالت امواج مد الذكريات وجزرها تتيقظ

فيها تحت ضوء القمر . . وهنا لم يخطر لهم استعمال القمر الا كسلم يتسلقونه ربما الى كوكب اخر . . من يرحل دون ان يتخدر يصبح تعيسا حقا . . وانا الآن عربية حزينة وهي ترى مدى جهل العالم بمقدساتها وقيمها ونبل عالمها وجراح امتها . . وترى مدى الظلم الذي تعاني منه قضاياها وقضية فلسطين بالذات . . اتمنى ان اقول شيئاً . . ان اصنع شيئاً . . كيف ؟؟ . . . واحسن بانني ضائعة ، حائرة ، من قال ان ضياع الفرد العربي مستورد ؟ . . . الفرد العربي الآن قلق وضائع ، ضياعه لم يستورد من اوبئة انعدام القيم في العالم الغربي بسبب الحرب والمدنية الآلية الحديثة . . ضياعه ناشيء عن حيرته ، عن اختلاط المفاهيم في ذاته ، عن تخبطه بين آلاف النظريات والتطبيقات الكسيحة لها ، عن قواه المبعثرة ، عن فقده للاحساس بالامن والاستقرار والطمأنينة والاستكانة تحت جناح خطة موحدة للعمل . . . ان حالة عدم الاستقرار والصراع وتشوش الحقائق واختلاطها هي التي تشتت الجهود وتبعثرها وتجعل جذور الفرد العربي رخوة في تربته ، فيحس بانه بركان تأكل نيرانه نفسها ، تلحق الخراب بأرضه عوضاً عن ان تجد من يخطط لها ويوجهها نحو ارض العدو .

الفرد العربي ضائع لأن سيوله لم تحول الى مجرى كبير موحد ، والنية والعزم لم يصبحا عملاً مثمراً . . . ضياع الفرد العربي حقيقة ما دامت قوانا مبعثرة ، ما دامت اصابع اليد الواحدة تتشاجر فيما بينها عوضاً عن ان تضرب . . .

وسألت عن اللورد بوثر . . احسست برغبة في الالتقاء به والنقاش معه حول هذا الموضوع . . فقيل لي انه كان بطل فضيحة اخلاقية كتبت عنها جريدة « الديلي ميرور » ودفعت مبلغ ٥٠ الف جنيه استرليني تعويضاً للورد الذي اقام الدعوى عليها . . لا ريب في انه الآن مشغول ببعثرة نقوده او بتعبئتها في اكياس ، ولن يكون لديه اي وقت لمقابلتي . . .

شيء عربي آخر اتعسني هنا . . .

حكاية سمعتهم يتندرون بها .

طالب عراقي في جيلفورد (تبعد ٤٥ ميلاً عن لندن) يدرس في كليتها ويعد شهادة الـ (جي سه ي) ، هذا الشاب انتحر في الاسبوع الماضي لان حبيبته تركته الى رجل آخر . . .

تمدد على قضبان القطار ومات تحت العجلات . . .

وتألمت وأنا اراهم يسخرون منه ويتندرون ، يضحكون من فكرة الحب ، من

وجود شيء في الحياة يمكن ان يموت الانسان من أجله دون أن تكون له علاقة بالنقود .

وتألمت من الطالب العربي اكثر مما تألمت عليه . .

لقد عبر تعبيراً رخيصاً خاطئاً عن عاطفة هي في نظري اثمن من كنوز الكومنولث البريطاني باكملها . . الحب ، آلهة العالم القديم العريق ، آلهة الشرق الثري بمشاعره وحنانه وروحانيته ، الحب ما زال في بلدي الهيكل الذي يتحدى جبروت اي انسان آلي مهما كان (فولتاجه) عالياً . .

ولكننا في الشرق نشوه روائعنا بسوء تعبيرنا عنها ، بارتجالنا وتسرعنا وعصبيتنا ، وبعدنا عن الموضوعية والمنطقية . .

اننا بذلك نفقد تقدير العالم الغربي لنا لانه يعجز عن فهمنا . . اننا نصرخ حينما ننطق بكلمة حق ، والعالم الغربي لا يستطيع ان يفهم لماذا نصرخ ونحتد ما دمنا ننطق بكلمة حق . . .

ليتنا ، في مؤتمر فلسطين القادم لا نمدد قضيتنا على القضبان لنثبت للعالم مدى حرارة صدقنا وانفعالنا . . .

ليتنا نتخلى عن اسلوب امرىء القيس والوقوف على الاطلال في قضايانا الشخصية والعامة . . . وسلام على حقول البرتقال الحزين . . . لا أملك لها الليلة الا السلام ، فأنا خرساء ، ومتعبة ، وعاجزة عن فقد وعيي .

لندن/ ١٤/ ٩/ ٦٤

ناقل الكفر كافر أحياناً

كلما ازداد اقتراب الانسان من الاشياء وانضمامه اليها ، كلما فقد القدرة على رؤ يتها بوضوح ، حتى اذا ما التصق بها ، عجز عن رؤيتها لان اتحاده بها يفقده شروط الرؤ ية الصحيحة من موضوعية وتجرد وصفاء ذهن . . تماماً كما يعجز الانسان عن رؤ ية وجهه -حينما يقترب من المرآة حتى يلتصق بها . . او عن رؤ ية عيوب من يحب . لذا فالرحيل ضروري باستمرار .

وربما كان ذلك أيضاً ما دفعني للاستماع الى حديث عدد من كبار ادباء الغرب وهم ينقدون العالم الادبي العربي ، والى الانصات بهدوء تام الى اتهاماتهم القاسية وملاحظاتهم الجارحة ، ونقل هذا الحديث .

فنحن هنا في بيروت وفي كل مكان من العالم العربي ـ اقصد بنحن ، الفئة التي تستعمل الحبر للكتابة لا لصبغ الاحذية ـ نُكوِّن مستعمرة اسفنجية واحدة . يعرف بعضنا بعضا ، ويتأثر بعضنا بالآخر ، خطايانا وافراحنا ومنازعاتنا وتفاهاتنا (وطواتمنا وتابواتنا) واحدة . . . لقد تربينا في التربة نفسها وهبت علينا العواصف نفسها والفروق الفردية فيما بيننا لم تغير من شروط الرؤ ية حولنا . . فنحن نشترك في مستشفى واحد كبير نسوره بغرورنا ونصر على تسمية (ما تبقى) من العالم حوله مستشفى ! وكلنا عاجز عن التحرر من الجاذبية البشرية والتاريخية لتفكيره وتبني إطلالة ـ جديدة كل الجدة وحيادية تماماً ـ على عالمنا . . نظرة من انفلت من مناخنا واستقل بتفكيره المجرد في كوكب آخر يرقبنا . .

البوصلة العقلية لكل منا قد تختلف عن البوصلة العقلية للآخر ، لكننا جميعاً نتحرك على خط عرض واحد ونخضع لمغناطيسية اجتماعية وتاريخية واحدة . . لذا فامراضنا المتشابهة صارت مألوفة لدينا ما دام لا طبيبا بيننا ولا سليما من مرض ، وبتنا نظنها وضعاً طبيعياً وأصلاً لا عَرَضاً ، كما قد يتساءل أعور من مدينة سكانها جميعاً بعين واحدة ، عن علة اول رجل مبصر يلتقي به ، ويشفق عليه مما اصاب عينه الثانية وجعلها مبصرة كالاولى !! . .

من هم ؟

الاسماء لا تهم . . ولنستمع مرة واحدة الى رأي انسان محايد دون أن نضربه

بالبيض والبندورة .

احد اولئك الكتاب الانكليز زار ذات يوم قطراً عربياً ، ولقي من الكرم (الاصيل) ما لقي . . دهش يوم مر به صديق وقال له : تعال اعرفك على الادباء في هذا البلد . .

سأله : أستطيع فهم ان تعرفني على الآثار في بلدك فنذهب الى المتحف ثم الى حطام المدن الغابرة التي لا تغير مكانها . او على منسوجات بلدك فنذهب الى السوق . . او على الطيور في مدينتك وانواعها فنذهب الى مخزن ما حيث نجدها في اقفاصها الخاصة معدة للزبائن . . اما الادباء ، فهل لهم سوق ام دكان ام اقفاص ؟ وهل ترتبونهم وتجمعونهم كأنهم اسماء في دليل هاتف ؟ . .

ـ لهم مقهى يقضون فيه ساعات النهار وبعضا من ساعات الليل . .

ـ ليس في بلاد العالم كله طبقة جديدة من نبلاء الفكر تدعى بالادباء وتستوطن حجرة مسورة تدعى بالمقهى . . الادباء عندنا يتحركون هنا وهناك ويتحدثون بتواضع ببقية كريات الشعب الحمر ، يعيشون الحياة ولا يمثلونها ، لذا فهم أقدر على رسم مشكلاتهم بصدق . . ولا يبرزون جواز سفرهم الديبلوماسي الفكري حتى امام اشارات المرور اذا احمرت ! . .

ووجدتني اسأله : بماذا تفسر ظاهرة « المقهى » في جونا الادبي ؟ . .

قال : محاولة تقليد اعمى للاجواء الادبية التي تقرأون عنها وتسمعون بها . . محاولة خلق باريس جديدة في فترة اعوام العشرينات (التوينتيز) الخصبة حيث كانت علاقات الادباء ببعضهم واحتكاكاتهم وصلاتهم محركا اساسيا لابداعهم . . تماماً كما تقلدون كتاباتهم . . والحقيقة ان اولئك كانوا (يعيشون) . . كانت لكل منهم حياته الخاصة وهذه الحياة الخاصة هي التي تحتك بحياة الآخرين . أما ان يتخلى الاديب عن حياته الخاصة ، كانسان عادي مسؤول ، وينذر نفسه لمحاولة خلق ابداعه من احتكاك عقيم ، فانه في هذه الحالة لن ينتج شيئاً وهذا ما يخلق في بلادكم الاحتكار الفكري حيث لا تعطى (شهادة) لاي نتاج جديد ما دام صاحبه لم ينضم الى النقابة !! . . هنا ، قد يكون جاري الذي لم اسمع باسمه منكبا في هذه اللحظة بالذات يكتب سطور تحفة الموسم الادبية ! . . دون ان يعلن عن ذلك في المقهى النقابي المكرس . . ليكرسه .

وتحدث آخر وآخر . . .

وكنت انصت واخجل واشجع نفسي على مواجهة نفسي . .

وقالوا اشياء كثيرة ما زلت اذكر بعضها . . اتهمونا بما استطيع ان اطلق عليه اسم

« الحمل الادبي » . . في بلدنا يوظف الانسان نفسه كاتباً دون أن يكتب . . . يصاب باعراض (الوحام الادبي) من نفش للشعر واهمال للمظهر واطالة للسوالف واحتقار للناس (العاديين) . . انه يصلح تماماً لتمثيل دور اديب على المسرح ، لكنه لا يعيش الدور لانه لا يملك المؤهل الوحيد له : الانتاج . . وفي (النقابة) ينال من الآخرين اعترافاً بجمهوريته الفكرية مقابل اعترافه لهم بذلك . . ويمضي هنا وهناك يوزع (شيكات فكرية) بلا رصيد . . ويذيع صيته دون ان يغطي الاوراق النقدية التي يطبعها بعملة صعبة او بسبائك أصالة ذهبية ! . . هذا الاحتيال الادبي لا وجود له في جوهم ، وليس عندهم اي (نابوليون رواية) عطاؤه الوحيد واترلو فاشلة ! . .

وماذا ايضا ؟ . .

قالوا ان هذه الحالة لا ترجع الى الغرور وحده او عدم الشعور بالمسؤولية او سوء فهم معنى كلمة ادب وانما ترجع ايضا الى صفة عامة في الشعوب العربية في هذه المرحلة هي الافتقار الى رحابة الافق النفسي ، ونبل الحوار المثقف وتقاليده الاصيلة من احترام متبادل وهدوء وعدم تراشق بالكلام او الرصاص .

وماذا ايضا ؟ . .

اتهموا ثقافة الاديب العربي فقالوا انها ناقصة . . نسبة قليلة من الكتاب تتقن لغة اجنبية تخولها متابعة ما يجري في العالم . . والترجمات التي تطرح في السوق لا تنقل خير ما في الغرب من نتاج . . اكثرها سريع وسطحي لكتب تلقى رواجاً موقتاً وزبداً عابراً . . وادعوا ان احداً من الكتاب العرب لم يقدم حتى الآن ـ الا فيما ندر ـ على ترجمة الذين يشكلون التيارات الحقيقية الخفية ، للادب الغربي الحديث ، بسبب صعوبة هذه الاعمال وعمقها واستحالة طرحها في عجالات . . سألوني ماذا يعرف قارئنا العربي عن « أهم » الادباء البريطانيين المعاصرين . . . قلت لهم اننا ترجمنا لورانس داريل وكولن ويلسون . قالوا ربما كانت ترجمة لورانس داريل من الاعمال الجادة القليلة في ادبنا العربي . . اما كولن ويلسون فشهرته في عالمنا العربي اكبر منها في بلاده . . وهو لا يمثل هنا شيئاً كثيراً .

وماذا ايضاً ؟ . .

اتهمونا بالافتقار الى حركة نقدية سليمة تواكب براعم النهضة الحديثة . . ان مهمة الناقد ليست في ان يطلق الاحكام بلهجة رئيس محكمة تفتيش وانما هي في اضاءة درب الكاتب التي يسير فيها دون ان يعي ، وتوجيهه وفهمه له كما لو كان توأم إبداعه الواعي

وبالتالي القاء النور على سبيله ودعمه لتحقيق غايته .

وماذا ايضاً ؟ . .

قالوا اشياء اخرى كثيرة . . ربما تمكنوا من وصف اعراض الداء لكنهم عجزوا عن اكتشاف أسباب العلة . .فحيادهم الذي أهلهم لوصف الحالة هو نفسه الذي يحول دونهم ودون الاندماج بالمأساة وتحديد اسبابها .

انا اعتقد ان انعدام الحرية الفكرية ، او انحرافها ـ وهو اخطر من انعدامها ـ او ادعاء وجودها ـ وهذا العن ـ ، او إقصارها على فئة دون اخرى تتبدل وفقاً للترمومتر السياسي ، انعدام الحرية بمعناها الحقيقي هو السبب الاول لامراضنا الفكرية جميعاً .

اديبنا مصاب (بالحمل الفكري) لانه يخشى (الوضع) !! انه يعاني مجموعة من الضغوط الاجتماعية والسياسية والارهابية التي تشله بل وتقوده احيانا الى فترة (وأدٍ ادبي) يدفن فيها كلمته الصادقة لانه ليس على استعداد لان يموت قديساً او شهيداً ، وكل ما يريده هو ان يقول بصدق ما لديه على ان يظل على قيد الحياة معنوياً ومادياً .وككل فعالية لا يسمح لها بان تمارس بشكلها الصحيح ، تنحرف الميول الادبية وتستحيل استعراضية عقيمة . . وربما كان في اجتماع الادباء في مقر او نقابة محاولة لا واعية لتوكيد وجودهم كفئة لها حقوقها ، وربما كان في انفلاتاتهم البوهيمية احتجاج طفل لم يسمح له بممارسة حرية الكلام فانطلق يحطم الاواني العتيقة حوله دون ان يجرؤ على النطق بما يريد او دون ان يقدر لو جرؤ . . . هذا ما لم أحب ايضاحه لزملاء الجلسة . . ولم ارغب ايضا في ان اقول لهم ان الجنس محرك اساسي في حياة الفرد العربي لكن معالجة اية قضية جنسية في الادب امر يثير الرعب والقلاقل مهما كان مستوى المعالجة رفيعاً وخالياً من اي ابتذال او اثارة سطحية . . ولم اقل لهم ان مشاكل الجنس في بلدي ربما كانت من أهم اسباب الاضطرابات السياسية التي نعاني منها ما نعاني . .

وماذا ايضا ؟ . .

كل ما استطيع ان اقوله وانا اغادر المسرح سريعا قبل ان ينهمر عليّ البيض والبندورة ان ناقل الكفر ليس بكافر إلا احياناً . . ولكن ، هل فيما قيل تجديف اكثر مما فيه تعرية ؟؟ . . .

باريس ٢١/ ٩/ ٦٤

نريد حرية من صنع محلي

انتحرَتْ . وجدوها بعد خمسة عشر يوماً من موتها وقد بدأت تتفسخ ، ولولم يكن يومها موعد دفع اجرة غرفتها الحقيرة لما فكر أحد بالسؤ ال عنها او تكبد عناء تحطيم القفل ليرى ما حل بابنة العشرين خريفا .

وارسلوا الى اسرتها نداء بالراديو أسمع العشرات منه كل يوم بعد الظهر في إذاعة لندن (بي بي سي وان) بعد برنامج (جيمي يونغ) فأحس بانني أعيش في مسلخ كبير . ربما تتهرب الاسر دوما من تكبد مصاريف نقل جثث اولادها ودفنها ، ومن قد يخلف تركة فانه لا يموت وحيدا ! . . .

واخرى . . .

كانت تستقل المترو ساعة الزحام (راش اور) بينما الناس في طريقهم من والى اعمالهم . كانت حاملا ، ربما في شهرها العاشر او اكثر ! . . لم يتخل لها احد عن مقعده طبعا . فجأة امتقع وجهها وتصبب منه عرق بارد ، ولاحظت انها تكتم الماً مريراً . .

بعد ان تجاوز المترو (الماربل آرش) و (اكسفورد ستريت) تحول انينها الى توجع وبكاء ، وهي تمسك ببطنها . لقد فاجأتها اوجاع المخاض !! . .

شيء لا يصدق ! جارها الجالس على المقعد الذي تستند اليه لم يرفع عينيه عن جريدته . لم يلتفت اليها انسان . ظلت عيون الرجال والنساء تنزلق على جدار الامعاء المظلمة لنفق المترو مترقبة ظهور اسماء المحطات كي لا يفوت احدهم الهبوط فيتأخر ساعة وربما يفقد عمله ويموت جوعا . ظل الصاعدون والهابطون يصطدمون بها في غمرة تدافعهم . وظلت فتاة تقبل (شابها) بنهم عند النافذة دون ان يلتفتا او يلتفت اليهما ايضا احد . تفكك عجيب في المجموعة ، كل في قفصه الزجاجي العازل ، غاب جديد من المدنية . . . كنت وحدي البدائية الغنية بآلهتها واوثانها . . وكنت وحدي التي بدت غبية ومضحكة حينما تقدمت من السيدة الحامل وسألتها ان كانت بحاجة الى المساعدة . فاستغربت ، وفي غمرة اوجاعها لوت بوجهها عني قرفا لتدخلي فيما لا يعنيني !!! . . .

وانا الآن في باريس . .

واليوم من اواخر ايام الاجازة الصيفية التي يرحل خلالها اهل باريس جميعاً الى الريف .

المدينة فارغة كمدن الاساطير العربية التي تحجر سكانها ، واستحالت ابنيتها نحاسية مسحورة . . او رحل رجالها الى حرب لن يعودوا منها ، اذ ليس في المقاهي والمطاعم والشوارع الا نساء عيونهن مزيج من خيبة وفجيعة وجوع . . نساء من جميع الحجوم والالوان والاعمار . . مكدسات على الارصفة كالبضائع الكاسدة التي يجري التخلص منها في رخصة . . . وكلهن بانتظار سائح او عربي لا يعرف تسعيرتهن في بلادهن .

وكلمة واحدة تجمع بين هذه المشاهد جميعاً اسمها : الرخص . . هذا الرخص الذي يصعق له اي شرقي تربّى على ان يموت جوعا ولا يرضى لامه بان تعمل حتى في مهنة شريفة مثل سائقة تاكسي مثلا . .

فعدد النساء هنا يفوق عدد الرجال بكثير ، والرجل صار من القطع النادر بعد ان لقي عدد كبير مصرعه في الحروب العالمية المتوالية . . . وربما كان قانون العرض والطلب الاقتصادي ينطبق على كل شيء حتى على السلع البشرية والعواطف الانسانية .

قالت عاملة تجرب لي ثوبا في احد المخازن : المرأة عندكم لا تعرف اية نعمة تعيش فيها . .

وتذكرت عشرات من الاجنبيات اللواتي يتسابقن الى الزواج من رجال شرقيين . . منهن من تركل مناظر سويسرا ورقي حياتها وتتبع اسمرها الى اعتم زاوية في حماه واكثرها تزمتا . . ماذا يأسرها سوى حلمها بان تعامل « كأنثى » . . (وان كانت في اغلب الاحيان تعود من جحيمنا الى جحيمها فاشلة) . . فالرجل الشرقي يبالغ في (حرصه) على المرأة حتى ليسجنها .

وانا أتحرك هنا ، ارى في الدعوة الى تقليد مظاهر حرية المرأة الغربية ، امرا غير منطقي . .

فحياة المرأة الغربية هنا نتيجة لتطور تاريخي واجتماعي وصناعي له جذور في حياة امتها من حروب وتصنيع . . وهكذا فالحياة التي تمارسها تتلاءم الى حد ما وبقية زوايا الحياة النفسية لما حولها . .ونحن هنالا نستطيع ان نقتطع جزءا من المشهد ونلصقه في حياتنا ولكننا نستطيع ان نستفيد من تجربتها الفاشلة في الحرية ومن تجربتنا الفاشلة في كبت الحرية . .

وحرية الغربية ضمن شروطها لا تستحق الاستيراد . . ومن المستحيل عزلها عن هذه الشروط وممارستها . . وهكذا لم يبق امامنا الا السعي وراء حرية من « صنع محلي » ندفع ثمنها ، ونصل اليها كنتيجة لتطور جريء جذوره في قيمنا وعالمنا بعد تطعيمها بما نحترمه من عالمهم . .

ان ثمن حبة الدراق في لندن او عنقود العنب في باريس يفوق ثمن امرأة !! . . . يا للرخاء . .

وذات أزل دفع آدم الاول لحواء الاولى خلوده ثمناً لحبها . .

فالى اين تسير حواء ؟ . . ام ان احفاد آدم هنا ينتقمون ، والمرأة ترقص في وليمة ذبحها ؟؟ . . .

لندن ٢٥/ ١/ ٦٥

تعليب الحقيقة للشعوب اللاهثة

« طقس جميل ، أليس كذلك ؟ »

واجتاز صوتي اكداس الثياب التي تكومت تحتها ليجيب : « أجل ، طقس جميل » .

وكان المطر ما يزال يهطل منذ الليلة الماضية ، وحبيبات الجليد ما تزال متجمدة على نوافذ القطار ، وقبل لحظات اعلن المذيع ان درجة الحرارة هي تحت الصفر بعدد لا بأس به من الدرجات .

« طقس جميل » هي عبارة التحية التقليدية ، التي يبدأ بها الانكليزي شخصاً آخر في لحظات انود النادرة ، لأنها وحدها تفك طلسم الصمت الذي يغلف كل فرد بحكم انعزاله التام عن اي فرد آخر ، ويتبعها حديث طويل ومجاني .

لكن الغريب مهما طالت اقامته لا يمكن له ان يألفها ، خصوصا اذا كان قادما من بلاد شمسها الحادة وحدها تطهو طعامه !

لذا غمرتني فرحة شريرة ، وأنا ارى اهتمام الناس بانباء مرض تشرشل . فقد تغيرت (اللازمة) التقليدية لتبادل الحديث في القطار او المطعم من مناقشة احوال الطقس (الذي لا يمكن ان يكون صقيعة موضع نقاش) الى سرد آخر انباء مرض تشرشل ، ومتابعة النشرات الطبية المتلاحقة حول ضغطه ونبضه وعدد دقات قلبه ، وشراء (الملحقات) التي تصدرها دور الصحف حول هذا الموضوع .

وقد اعجبت باهتمام الانكليز البالغ بصحة تشرشل ، وجزعهم الصادق على حياته ، وتأثرهم العميق بمرضه الى حد تبديلهم ـ بصورة عفوية ـ لأحد (تقاليدهم) في تبادل الحوار .

وكان من مظاهر اهتمامهم هذا ، حزن بالغ ، وتجمهر امام باب داره ساعات في الصقيع بانتظار كلمات طبيبه ، وقراءاتهم للنشرات الطبية عن صحته حتى اثناء اجتيازهم للشارع او قفزهم الى (الباص) ، ويخالط ذلك شيء من الهستيريا العاطفية التي لا تتفق مع الفكرة الشائعة عن برود الشعب الانكليزي و (عقلانية) مشاعره . . كانت هذه

المظاهر الهستيرية تعبر عن شيء يتجاوز الخوف الطبيعي على حياة احد ابطالهم وعظماء تاريخهم . .

احياناً تغمرنا تعاسة هي أكبر من ان نعبر عنها او نحيط بابعادها ، او نفسر أغوارها ومداها لمن حولنا ، ربما لعجزهم عن فهمنا او لعجزنا عن تبريرها ، ثم يتصادف ان يقع مصاب ما لانسان نحبه ، ودون وعي منا نجد لتعاستنا منفذاً له ما يبرره اجتماعياً ، ونمارس حزننا الخاص تحت ستار ذلك المصاب ، وحشياً هستيرياً .

فهل في حزنهم هذا تعبير عن شيء أبعد غوراً ؟ عن اضطراب داخلي يعاني منه الجيل الانكليزي الحالي ؟ . . . هل هي بقايا (العاطفية) في نفوس افراده ، والتي رغم انتهاء اساطيرها من حب وحنان وتعاطف ، ومصرعها بين مسننات عصر الآلة ، ما تزال تنتفض من تارة الى اخرى كدجاجة ذبحت للتو ، ولما تكف عن الصياح بعد ؟ . .

ان المراقب لبرامج تلفزيون لندن يلاحظ ظاهرة هامة صارت اشبه بعامل مشترك مسيطر على البرامج جميعاً . . انها السخرية . . .

المطرب يسخر ، المذيع يسخر ، المعلق السياسي ، الممثل ، كلهم يسخر من سياسييهم وزعمائهم ورجال اعمالهم ونجوم مجتمعهم . . براجمهم كلها قائمة على سخرية سوداوية فيها مرارة شرسة تذكر بأجواء مسرحيات بيكيت ، يضحك الناس لها بحقد الاطفال الشريرين وشماتتهم ، لا بروح مرح فكه سطحي . .

هذه السخرية في نظري تحمل خيبة لا حد لها من حضارتهم الآلية الغربية وانتقاماً عفوياً منها بالضحك على اعمدتها والوجوه التي تمثلها . . انها اسلوبهم في الاحتجاج على تآمر الالية عليهم وتشويهها المستمر المتسارع لانسانيتهم ، ربما كانت الصرخة الاخيرة قبل ان يستسلموا نهائيا ، ويصبحوا امتدادات لحمية وعظمية لغابة آلاتهم الدقيقة ، الممعنة في العظمة العلمية والنظرية الباردة .

اغنية البيتلز مثلا التي تقول : « لقد كان يوماً شاقاً ، وكانت ليلة شاقة ، وانا أعمل كالكلب » اليست روح المرارة والتذمر المستسلم التي تحملها ، هي التي دعت الشعب الانكليزي لاختيارها كأحب اغنية الى نفسه ؟ . . .

ربما كان حزن الشعب الانكليزي على تشرشل وجزعهم على حياته امراً صادقاً ومباشراً ليس بصمام امان ولا بانتحال لمبرر . . . وهذا معناه ان الشعب حساس جداً ، وعاطفيته سريعة الاثارة ، وموت انسان بالنسبة اليه كارثة ، لمجرد انه انسان يموت بعد ان اعطى كل ما لديه لقومه ووطنه . . .

وتذكرت الشعب العربي في عُمان وتذكرت مئات الناس الذين يموتون في كل يوم بصمت بعد ان يمنحوا كل ما لديهم ليعيش من يظل حيا من قومهم في ظل الكرامة . . تذكرت الاف الناس يموتون في كل يوم بسبب شيء اسمه (الاستعمار) ، ترى لو عرف الشعب الانكليزي بما يجري في عمان ، وعلى حقيقته ، اي جناز علني كان يقيم ؟ . . ام ان قلبه كجزيرته ، مغلق على ما بداخله ، ولا يفجعه الموت الا اذا تم على ارضه ؟ هل يدري بما يحدث ؟ ام ان صوت مآسينا ـ كالعادة ـ ضعيف ومشتت تتآمر عليه شتى القوى لتزوير تاريخه ؟

وأمام واجهة احدى المكتبات عرفت معنى تزوير وتضليل الرأي العام وتشويه الحقائق . . .

انها واحدة من المكتبات القريبة من المتحف البريطاني . . وفي واجهتها الفخمة تعرض مجموعة الكتب الاسرائيلية فقط . كلها كتب تبشيرية تضليلية تحت ستار الادب او التاريخ او الدين . . وفي كل يوم يمر امامها مئات العرب دون ان يملكوا شيئاً لقضاياهم التي تزيف باستمرار ، وفي كل يوم يشتري هذه الكتب عشرات الاجانب فيحملوا الافكار الخاطئة عن حقيقة قضايانا . . وتذكرت اسماعيل شموط الذي لم يجد واجهة تعرض لوحاته الفنية عن النكبة (حتى الآن) .

ومن هنا يصبح التهاون في تبني تخطيط جدي للدعاية لقضايانا وشرحها امراً خطيراً لم يعد يحتمل التأجيل .

فالشعب البريطاني كالشعوب الغربية كلها . . لاهث دائماً . . لاهث وراء القطار ، لاهث وراء ساعة المكتب ، يتناول وجباته الخفيفة اثناء ركضه في الزحام ، ودماغه صار كمعدته ، لا يهضم الا المعلبات ، لم يعد لديه وقت يبحث فيه عن الحقيقة ، او يمارس احاسيسه بابعادها كلها . . فالقلب الذي ينبت الحب فيه بمفهومه الانساني الكبير لا يبخل به على اي انسان في اي مكان .

***

وفي قلب لندن مهزلة يومية امام مخزن يمر الناس به كل يوم ويحملون له كل تبجيل . انه مخزن شكسبير . كل ما فيه يتعلق باديبهم العظيم شكسبير بطريقة ما . . صحون عليها صوره . . صور داره . . عباراته الرائعة محفورة على الخشب . . اسطوانات سجلت عليها مسرحياته . .

انهم يجلون شكسبير دون ان يدروا انهم في اتجاه حياتهم الحالي وفي مواقفهم من

الآخرين يخالفون اهم رسالة اراد شكسبير ان ينقلها .

اراد ان يقول ان المؤسسات ضرورية لبقاء المجتمع على ان يدخل فيها عنصر انساني هو المحبة ليخفف من آلية اسلوبها في العمل وما ينجم عن هذا الاسلوب من مضار تهدد بعض الافراد الابرياء . . المحبة التي « ليست محبة اذا كانت المصالح دافعا لها » . . المحبة التي تميز مجتمع الانسان عن اي مجتمع حيواني مهما بلغ من التنظيم الغريزي (كالنحل)

ان حبهم لشكسبير كخوفهم على تشرشل . . ليس لديهم الوقت الكافي لفهم مدلوله او ممارسته بمعناه الاصيل حيث يصبح لمصرع انسان مكافح في أي مكان من العالم وقع مشابه لمصرع رجلهم الكبير .

***

حادثة صغيرة تلخص ما يجري كله . . وهي ليست نكتة . انها مأساة الانسان الحديث . أخي الذي استعار دراجتي النارية وسقط عنها ، روى لي انه خلال إقامته في المستشفى كانت الممرضة توقظه احياناً من النوم كي تعطيه (حبة) المنوم المعتادة ! .

الطائرة ٢٧/ ١٢/ ٦٥

شركة : كيف ؟ لماذا ؟ ومتى ؟

ارحل ارحل ارحل . . .
واذا عدت ،
فلأرحل من جديد ! . . .

ارحل ، ربما لأثبت ان لا رحيل الا لو رحلت عن ذاتي . . ولكنني في كل رحلة أمعن ابحاراً نحو حقيقتي ! . . . أرحل . . ربما بحثا عن المجهول ، والمدن الغارقة في غلالات المسافات والتاريخ . . وربما لأن كل رحيل يقود الى الوطن ما دام الوطن يسكننا . . كل الطائرات تهبط بي في أرض الوطن . .

أرحل . . فلم يعد الرحيل تعذيبا . . ولم يغد الطرف الآخر من العالم (المرتكز على أحد قرني الثور الذي يحمل الكرة الارضية) ببعيد المنال . .

ولم تعد الافراح والليالي الملاح تقام للعائد من دمشق الى بيروت على ظهر ناقته (عابرة القارات) . .

وبساط الريح لم يعد اسطورة ، وخاتم علاء الدين ، يملكه كل من يحمل تذكرة سفر ، وجفنين يغمضهما ساعات ، ثم يفتحهما ليجد نفسه في المدينة التي أمر جني البطاقة بحمله اليها . .

ومع ذلك . .
فقد كان للرحيل فيما مضى سحر خاص . .
سحر المحطات . .

الوقوف في المحطات ، والاستمتاع بتنوع المشاهد الطبيعية والبشرية ، وتبدلها من مكان الى آخر . .

وهكذا كان في الرحيل عنصر انساني فقدناه في يومنا هذا . .

فاجمل ما في الرحيل هو ان يكون غاية بقدر ما هو وسيلة الى مدينة معينة . .

والذ ما فيه ان يستمتع الانسان بفترة الانتقال نفسها ، قدر استمتاعه بلحظة الوصول . . .

ان تغمض عينيك في بيروت ، ثم تفتحها في لندن يعطيك احساس من خُدُّرَ في بيروت ، ثم دُحْرِجَ على خريطة فارغة من المدن والاصوات ، ثم استيقَظَ بسطل ماء بارد في مطار لندن لحظةَ هبوطه من الطائرة !! . . .

اما أن لا تغمض عينيك في بيروت ، وان تتركهما تستمتعان بمعالم الطريق ، وتجوسان في المدن المختلفة طوال الدرب دون ان تعاني مشاق الدابة وغيلان الطريق وقطاع الطرق وسيوف حراس المدن ، فتلك هي متعة الرحيل . .

وذلك ما اكتشفته هذه المرة ، ودون ان اعاني بطء السيارة التي يحرص البعض على عبور القارات بها حرصا على متعة الدرب والتجوال . .

هذه المرة ، لم أغمض عيني في بيروت ، ثم افتحهما بعد ان ينسكب فوق رأسي دلو ماء بارد متدفق من سماء لندن في مطارها . .

هذه المرة حسدت الذين استعدوا لمحطات الطريق سلفا ، فكنت اخلفهم في كل عاصمة حلوة تهبط الطائرة فيها ، واتابع رحلتي مع ضيوفها الجدد . .

بيروت . . أثينا . . زيوريخ . . امستردام . . لندن . . باريس . .

لماذا بيروت ، لندن ؟ . . بيروت ، باريس ؟

المضيفة الحلوة تعاجل رجل الاعمال الجالس الى جانبي بابتسامة ساحرة ، وغمزة الى النور الاحمر . . وكبقية الرجال ، وكما يحدث في أمكنة اخرى ـ غير الطائرة ـ استسلم للابتسامة ، ولف حول وسطه القيد راضيا . . وتصادف ان القيد هذه المرة لم يكن فخاً زوجياً ، وانما كان قيد نجاة . .

اذن فالطائرة تهبط . . وقبل ان اجد في الوقت متسعا للبحث عن ثغرة في الطائرة اقفز منها ضيقاً كعادتي !! . .

أثينا . .

لم يستقبلني سطل المياه المعهود في لندن . .

ما زال الدفء ، الدفء في الاصوات ، في الجو ، في سمرة الوجوه ، في عتمة الشعر . . وما زالت قريبة من عالمي . . ففي صالة (الترانزيت) حقائب تحمل ذوق بلدي . . والباعة يتحاورون بصوت مرتفع ويتجادلون كما في بلدي . . وبائعة التبغ تريد ان تعرف كل شيء عني بفضول سيدات مجتمع بلدي . . انها تحاول ان تسألني عن اسمي ومهنتي والى اين أنا ذاهبة ولماذا وكم عمري وهل أحب خطيبي وهل احب البفتيك مشوية كثيراً ام (متوسطة الشوي) ، وكم ثمن جواربي . . و . . و . . في وقت واحد ، وتريد

ان تعرف الجواب في وقت واحد ، وهذا كله بينما هي تبيعني لفافة من التبغ احملها هدية معي . . .

وريثما تناولت منها علبة التبغ عرفت منها انهم يرتدون الخاتم في اليد اليمنى دلالة على الزواج لا على الخطبة . . وخفت ان تفوتني الطائرة فيما لو وقفت استمع اليها تشرح لي سبب هذا التقليد . .

وأنا اعود الى الطائرة ، وشمس البحر المتوسط في اليونان ما زالت تدفئني كنت ارقب من بعيد اولئك الذين لم يفتهم ان اجمل ما في الرحيل محطاته . . وان المدينة التي سمعت حوار الانسان مع الالهة للمرة الاولى تستحق ان يقف فيها الراحل ولو كمحطة ، وتستحق ان ينسى رحيله الميكانيكي لينصت فيها الى همسات افلاطون وذكريات الحضارة الكبيرة . .

وعادت الطائرة الى مطارها الحقيقي الازرق الشاسع ، وعاد كرش رجل الاعمال الى الاستقرار بسلام في المقعد المجاور لمقعدي ، وعادت صلعته تضيء بشدة كلما مرت المضيفة غير الحسناء بنا . .

وعاودتني رغبتي في القفز من الطائرة من النافذة مثلا ! . . لماذا يحكمون اغلاق النوافذ هكذا ؟ . . مغافلة المضيفة أمر مستحيل . . لا اعتقد انني استطيع اقناعها بتركي اتنزه على جناح الطائرة الذي يغريني . . . أحسه جسراً فضياً مغروساً في زرقة الفضاء ، وطرفه الآخر اللامرئي يلتصق بالشاطىء الآخر للمجهول . . أريد أن أذهب الى الشاطىء الآخر . .

وجه المضيفة أمامي . . هل كنت أفكر بصوت مرتفع ؟ انها تعطيني مظروفاً مغلقاً . . . وتوزع للركاب جميعاً مثله . . لذيذة هي فكرة اغلاق المظروف . . . يحس كل راكب ان محتوياته تخصه وحده . . مجرد فتحه متعة . . احلى ما في الرسائل انها تصل مغلقة !

ومع ذلك ، لم اسمح لاغراء المظروف بإيقافي عن رحلتي المعتزمة فوق الجناح . .

وانا أتأمل الجناح ، وجدتني اقرأ ما كتب عليه بصوت مرتفع ، وأردده بلا وعي :

ك . ل . م . . . ك . ل . م . .

وأردد الاحرف شبه ذاهلة .

ك . ل . م . ثلاثة أحرف تلخص كل شيء . . فقد رأيت فيها :

ك : كيف ؟

ل : لماذا ؟

م : متى ؟

كيف ، لماذا ؟ متى ؟ . .

كيف ، لماذا ، ومتى ، تلخص حكاية الرحلة الكبرى ، العمر . .

« كيف ، لماذا ، متى » ثلاث ساحرات حملن المعاول وانهلن بها على صفحة ذهني الغائمة يسألن بالحاح . . ك . ل . م . . .

كيف ؟ لماذا ؟ متى ؟ . .

تصرخ في وجهي لتنبش الف كهف والف مغارة . . لتعري للشمس ملايين الدهاليز لتفتح الاف الابواب المغلقة المرصوفة على جوانبها . .

كرش رجل الاعمال المستقر الى جانبي ،

ترى هل يقرأ الحروف الثلاثة على كيس الملح بينما هو ينثره على طعامه ؟ .

وان قرأها ، فأية رموز تحمل ك . ل . م اليه ؟

ربما : كم ، لوازم ، معمل .

وللفتاة الحالمة هناك : كرم ، ليال ، موسيقى .

ولاخيها الصبي الشقي : كنز ، لعب ، مارد .

وكل ما في الوجود من مدن واحداث واشخاص ، هم كهذه الحروف الثلاثة . .

كل يراها من زاويته . . كل يتحسسها وفقا للوتر الذي ترنه في اعماقه . .

واللغة المشتركة بين انسانين ، حينما تعني الرموز لهما شيئاً واحداً ، هي اتحادهما الحقيقي . . وهي التي تجعل من رابطتهما انتصاراً انسانياً على الغربة . . وبها يكتشفان الابجدية التي قد تحمل أجوبة « كيف ؟ لماذا ؟ متى ؟ » . . وهي التي تجعل من رحيل كل منهما مزيداً من الاقتراب نحو الآخر ، ونفاذاً في وجوده . .

وتنتصر رائحة الطعام المتصاعدة من الصينية الشهية التي تركتها المضيفة امامي ، وانقلب بسرعة من حيوان ناطق الى حيوان قاضم ، واستغني نهائيا عن فلسفة (أنا أفكر فأنا موجود) حينما الحظ نظرات كرش رجل الاعمال (العدوانية) الى اطباقي المليئة . . يقولون : « الطريق الى قلب الرجل معدته » ، واقول « الطريق الى ان ينسى الرجل قلبه ، هو معدته » .

ثم ، امستردام . .

ودلو ماء بارد ينسكب فوق رأسي لحظة مغادرة الطائرة . .

ثم زهرة التوليب ، فأغفر لدلو الماء البارد . .

امستردام . .

كل ما في المطار يغري باختراق اسوار المدينة . .

كل ما في قاعة الترانزيت من معروضات يكشف لعيني قطاعات كبيرة مختلفة من زوايا المدينة القابعة هناك . .

واجهة الزهور ، زهور التوليب الرائعة . . ارى خلفها حقولا شاسعة من الازهار التي تتحدى البرد ، وربما تستدفيء بمصادفات الشمس من خلف (نظاراتها) الزجاجية التي تزرع تحتها . .

واجهة المجوهرات ، اي ذوق رفيع . . اي دقة . . وارى صفا من المخازن المضيئة هناك خلف اسوار المدينة ، وارى الاناقة والذوق والرشاقة تتدفق على الارصفة وفي الواجهات ، ومن الباصات . .

وانكفأت في غرفة الترانزيت أتمنى ان تسرع الطائرة بالرحيل قبل ان ابدل رأيي وأفقد مقاومتي امام اغراء المدينة الساحرة التي لا ريب في انها تقبع هناك . .

لماذا لا أبقى ؟ . . ارحل هكذا مع دواليب الطائرة ؟ . . من اجل دلو الماء في المطار ، هناك في لندن ؟ . .

وأكاد أبقى . . ثم ارى وجه اخي في مطار لندن ينعم وحده (بدلو الماء) المتدفق من السماء ، وأراه يعود بنظراته من وجوه ركاب الطائرة خائبا ، لانه لم يجد وجهي . .

ولكن ، امستردام . .

اي انتقال حلو . .

فالناس هنا يتحدثون همساً . . وبائعة الدمى التي وقفت امامها تعطيني بقية النقود دون ان تنظر الى وجهي . وربما لم تطرح حتى على زوجها الاسئلة التي طرحتها البائعة الاخرى علي في أثينا . . بل ربما لم تعرف اسم زوجها الا حينما ناداه الكاهن به ساعة (تكليلهما) . .

مدينة اوروبية بمعاني الكلمة كلها . . أحلى ما فيها ان يشاهدها الانسان بعد مدينة اقرب الى الشرق ، كأثينا مثلا . .

فيشتم (بردها) ، بعد دفء مدينة (المتوسط) ، ويستريح الى (برود) أهلها ، بعد (فضول) اهل المتوسط . . واقدم لنفسي وعداً رسمياً بالبقاء في امستردام اثناء العودة ، واشكر شركة « كيف ، ولماذا ، ومتى » لانها ستعاود الهبوط هنا حرصا على عدم

ندم الزبائن ! ثم تمعن (نفسي) في الحاحها بالبقاء في امستردام ، ولا ترضى بمرافقتي الى الطائرة الا بعد ان قدمت لها وعداً بالاقلاع عن الرحيل (التعسفي) ، وبالتمتع بتاريخ وحضارة المحطات الباقية . . زيوريخ ، وباريس ، وامستردام . .

الطائرة من جديد . .

وكرش رجل الاعمال من جديد الى جانبي وقد ازداد انتفاخا ، وهو نائم . وربما كان لديه ما يحيله الة تغمض عينيها في مكتبها ببيروت ثم تتدحرج على الخريطة لتفتحها في مكتبها بلندن مثلا . .

ولكن أنا ، لماذا ؟ . .

لماذا جرفني العصر هذه المرة ، ونسيت ان احلى ما في الرحيل هو الرحلة نفسها ؟ .

ثم . .

دلو المياه فوق رأسي في مطار لندن .

والاسفنجـة المبتلة التي عرفت فيها فيما بعد وجه أخي ! . .

لندن ٢٣/ ١/ ٦٧

الذين يطلبون الدخول الى السجن

وأخيرا . . الطائرة . .

والرحيل ، الامنية الوحيدة التي لا يستهلكها مجرد تحقيقها . .

دقائق . .

وتعلو الطائرة ، وبيروت في القاع ، وقد زرعت تحت جلدها عامين من عمري . . . ورغم حزام المقعد الذي يشدني الى الطائرة ، احسني هناك ، اركض بسرعة في شوارعها المشمسة . ادق الابواب كلها . اودع الوجوه المطلة من النوافذ ببقايا نعاس مدهوش .وجوه زملاء الصف في الجامعة الاميركية ؛ سيفيم . سيرسا . ليلى . نواف . تحسين . فيكتور . عماد . الوجوه التي تتهامس في المقاهي . رمال الشواطىء . دروب الجبل . . . وبين اسناني الوك كلمة نصفها شبه وداع ونصفها زجاج مسحوق .

دقائق .

ويسقط على بيروت ستار ازرق شفاف ، ويبتلعها خط الافق ، وانا في الطائرة المبحرة نحو المجهول ، مشدودة الى مقعدي . .

وفي زوريخ ، كان الثلج في انتظاري .

جسده الابيض الكثيف يجثم فوق جسد المدينة : ارملة الفرح البيضاء ، ويغلق الدرب اليها . .

وهكذا لم اشعر بالحسرة التي تغمرني كلما مررت (ترانزيت) بمطار مدينة ما ، دون ان تتاح لي الفرصة لاكتشافها . . أكبر من حبي للمدن المجهولة كراهيتي للثلج والصقيع . .

لذا فضلت الانتظار في الطائرة الدافئة . .

خلعت جسدي على مقعدها بعد ان اغمضت عيني ، وبدأت احلم بافريقيا ، بغابات حارة تمتد اشجارها الضخمة جسورا الى السماء المشمسة ، وخليج تتفجر منه اصوات صيادين سمر الاذرع العارية ، ينشرون شباكهم الملونة . حمراء . خضراء . بنفسجية . صفراء . وينشدون للاسماك المتزاحمة على السقوط في الشباك . . .

ولكن الطائرة تتابع رحلتها الى غابة الصقيع الرمادية . . لندن . . . وهناك ، المطر

طبعا في استقبالي . دلو من الماء البارد المستمر في الانسكاب على رأسي منذ لحظة مغادرتي للطائرة . . ثم الاسفنجة المبتلة اياها والتي اتبين فيها كل مرة وجه أخي !

لندن باردة . ولندن تضج بالحياة والاحداث .

ساعات فقط ، ويبدأ الستار بالانحسار عما يدور في زوايا مسرحها ، ثم اجدني اناقش واتحمس وانتظر واغرق في تيار احداثها ، واذا انا واحدة من الملايين داخل مسرحها . . لندن حائرة ومضطربة .

ما تزال تعيش ذيول حوادث فرار عشرات السجناء ابتداء من فترة اعياد الميلاد ورأس السنة حتى الآن . . فشرطتها ما تزال تطارد بقية السجناء الذين لم يتم القاء القبض عليهم بعد ، ولم يستسلموا .

انهم حديث المدينة وشغلها الشاغل . اذ يندر ان يصطف رجال الشرطة في الشوارع لايقاف السيارات او الاطلاع على هوية راكبيها . . انه أمر تكرر في الاسبوع الاخير ، وهو لم يحدث في هذه المدينة منذ سنوات !! . . .

ثم تفتيش بعض البيوت او تفتيش احياء باكملها ، وما يرافق ذلك من اضواء كشافة وصفارات انذار . . هذا كله الى جانب عناوين الصحف جعل الناس يلاحقون القضية باهتمام شعبي بلغ حد المراهنة على السجناء ! . . وعاصفة النقاش الجدي لما تهدأ . .

ففي ندوة تلفزيونية عاصفة ، انقسم المتناقشون الى فريقين ، كل منهما يمثل احدى وجهتي النظر الاساسيتين :

الاولى تصر على ان لندن افسدت سجناءها بتدليلها لهم . . انهم اكثر رفاهية من غانياتها واهدأ بالا من طلابها الداخليين . وروى احدهم تلك الحادثة التي تناقلتها وكالات الانباء تأكيداً لوجهة نظره : دخل ليلة الميلاد شاب الى مركز البوليس وطلب ايداعه السجن ، ولما رفضت الشرطة تلبية رغبته لانه لم يرتكب اي جرم ، خرج غاضباً ، وعاد بعد دقائق وهو يحمل بيديه دراجة ، واخبر البوليس انه سرقها ! وهنا اضطروا لتحقيق امنيته الغالية : الاقامة في السجن ! وعرض التلفزيون ايضا كاريكاتورا طريفا من احدى الصحف يمثل حارس السجن وقد ارتدى ثيابا كتلك التي يرتديها جرسونات فنادق الدرجة الاولى ، ويتقدم سجينا الى غرفته حاملاً له حقائبه ، والغرفة فخمة مزودة باسباب الراحة كلها من تلفزيون وتلفون وراديو ومكيف هواء ، وهنالك درج مفتوح في ركن الغرفة وقد ظهرت فيه احدث معدات الهرب من السجون : سلالم وحبال وسكاكين ومسدسات ومنشار ومفاتيح . . . وبعد ان يضع السجان حقائب السجين ، في مكانها ،

ينحني قبل خروجه قائلاً بتهذيب واستحياء : هل استطيع ان اعرف كم تنوي ان تمكث لدينا يا سيدي ؟! . .

اما وجهة النظر المعاكسة ، فتصر على وجوب معاملة السجين معاملة انسانية حتى لو تسبب ذلك في تسهيل هربه ، فليس المقصود من السجن مجرد العقاب الاعتباطي ، وانما اصلاح الفرد دون ان يخسره المجتمع نهائيا . .

والسجن الجائر اللا انساني هو « مدرسة لتعليم الاجرام » لكل من دخله . . ثم ان هرب السجناء خلال فترة الاعياد بالذات دليل (صحة نفسية) لا دليل (مرض) ، اذ انه يثبت ان حسهم الانساني ما يزال متوقدا وروابطهم مع العالم الخارجي لما تنقطع وعواطفهم ما تزال تستثار . .

قالوا اشياء كثيرة اخرى لم اسمعها . . فخلف شاشتهم هذه ، وعلى بعد مئات الاميال منها ، هنالك شاشة اخرى لاحداث اراها بوضوح اينما كنت . . وعلى الشاشة الاخرى التي اراها باستمرار واسمها وطني رأيت ذلك السجين المجهول الذي ابتلع ابرة الخياطة بعد ان غافل حارسه ، لينتحر احتجاجاً على سجنه المرير ، والمعاملة اللا انسانية التي يلقاها فيه . . . خبر صغير قرأته في احدى صحفنا التي حملتها معي ! . . ورأيت قافلة من السجناء تزحف في مغاور التعذيب والاضطهاد التعسفي في اكثر انحاء وطننا العربي . . ورأيت (المسجونين) خارج السجون يعانون من الافتقار العام الى الفهم الحقيقي لمعنى كرامة الفرد كفرد ، كقيمة انسانية مجردة ، لا كبالون منفوخ يكبر حجمه وفقا لظروفه المادية او الاجتماعية ويصغر مع هبوط ارباح أسهمه ويعلن افلاسه الانساني لمجرد ان البنك الذي يودع فيه امواله قد اشهر افلاسه ! . .

سجيننا بائس ، وحتى السجين البريء الذي ينتظر محاكمته ، والذي قد تثبت براءته يخرج من السجن بعد ان حولناه الى مجرم حقيقي . . انه ينفصل نهائيا عن مجتمعه وتنقطع بينهما رابطة الابوة والبنوة وتبقى رابطة المقت والخوف المكبوت ، والكراهية العميقة الحاقدة . .

والفرد هنا يستطيع ان يقاضي المسؤول عن توقيفه خطأ ولو لمدة ساعات ويطالبه بتعويض . .

والفرد لدينا في أكثر الحالات يفرح بالافراج عنه ويعتقد ان نجاته هي كل ما يطمح به ! . . ان ثقته بالسلطات مفقودة ، وهو لا يحبها ، وكل ما يطلبه منها هو ان تتركه بسلام . . . وهو لذلك لا يشعر بالمسؤولية امام المجتمع الذي تمثله هذه السلطات ،

وبالتالي لا يعمل باخلاص اذ ليس هنالك ما يهز اعماقه ويشحذها . . .

كان لا مفر من ان يصمت صراخ هذه الافكار كلها حينما بدأت الحان تشايكوفسكي تغرق العالم . .

ففي الشارع المحيط بدار اوبرا « رويال البرت هول » وتحت الثلج الذي يندف بشدة كان آلاف الناس يتلمسون طريقهم بحثا عن الابواب التي يدخلون منها وفقاً لترقيم بطاقاتهم . . ورغم الجليد الذي يتكسر تحت اقدامهم فقد خرجوا جميعا للاستماع الى موسيقى تشايكوفسكي . .

وحتى انا ، سرت العدوى الي . .

كنت جالسة داخل الموقد ، وحينما سمعت المذيع في الـ (بي . بي . سي) يعلن ان اليوم هو ابرد يوم شهدته لندن منذ ١٢ سنة ، اخفيت وجهي في جمرة كبيرة ثم بدأت اركض داخل الموقد هاربة واستقريت قرب المدخنة متمددة بين السنة النار الاليفة . . . لولا تشايكوفسكي . . وصيحات الجيران الذين اذهلهم انني لا اريد الذهاب الى المسرح لسبب تافه كهذا : البرد . .

ووجدتني بين الاف الرؤوس المشكوكة على محيط دائرة كبيرة تتدرج صفوفها ملتفة حول الفرقة العازفة في الرويال ألبرت هول . وتعلو الالحان . لا همسة . لا كلمة . صلاة في الانصات . وحينما تهدأ الموسيقى بين مقطوعة واخرى تعلو عاصفة من السعال المكبوت . ثم الموسيقى . . وانا انصت وأتأمل . . . اطفال وشيوخ وعمال ولوردات . . وتعلق نظراتي بالاطفال واحس انني احسدهم لانهم يكبرون في مدينة فيها موسيقى كما فيها خبز ، وليسوا بحاجة لان يشدوا الرحال لصقل انسانيتهم وتسول مقعد في مسرح . . .

وفجأة انفجرت القذيفة ، واهتز المسرح باكمله ، وقفز احد الاصدقاء مرتاعا . . انه شاب عربي صغير وصل لندن منذ ايام بعد ان فاز باحدى المنح . . . وتابعت الموسيقى عزفها بين قصف المدفع وذعره والناس هادئون منسجمون . . .

انها افتتاحية ١٨١٢ لتشايكوفسكي التي يرسم فيها غزو نابوليون لروسيا . . . وتلك المدافع هي مدافعه ، وجزء من الموسيقى ، تماما كرنين اجراس الكنائس الذي يتبعها . ورغم انني كنت قد سمعت المقطوعة مسجلة مرارا لكنني ذعرت فعلا كذلك الشاب الصغير الذي أثار ضحك الرفاق المتآمرين . . بل انني كنت خائفة الى حد انني جمدت لبرهة ، كنت اكثر خوفا من ان احاول الهرب وبذلك نجوت من السخرية . . لم يخطر لي قط ان الناس يمكن ان يتجشموا عناء كهذا من اجل الاخلاص لمقطوعة

موسيقية . . . حمل مدفع نابوليوني باكمله الى الطابق الاخير في الدار ، وحشوه بالبارود واطلاقه بعد احكام عنف الطلقة بحيث لا يتجاوز صداها وما تبعه من هزة في البناء الضخم حدا معينا كي لا يؤدي ذلك الى انهياره . . بل انني حينا سمعت الطلقة الاولى ظننت بانني حملت لعنة اللااستقرار معي حتى الى لندن ، وتساءلت عما اذا كان الناس حولي هادئين لانهم حتى في هربهم يقفون في صف منظم كما يفعلون في المطاعم ومواقف الباصات !! . وانتهت ساعات الابحار في عوالم تشايكوفسكي التي يستسيغها الشرقي ايضاً لما فيها من نكهة شرقية اصيلة ، دافئة ورقيقة وموجعة كتلك الريح العابقة برائحة زهر الليمون والتي تهب في امسيات الربيع الاولى . . دافئة ورقيقة وموجعة كذكرى قصة حب ضاعت مع تلك الامسيات الغاربة .

لندن ١٣/ ٢/ ٦٧

على فوهة بركان « إل . إس . دي »

بمرارة أسأل .

بحزن أسأل .

هل كتب على قرننا هذا ان يشهد المصرع النهائي والكامل لاجمل اوثاننا البشرية ، واصدقها ، واكثرها رسوخا في تاريخه ، وبالتالي اشدها تعبيرا عن حقيقته الانسانية ، واعمقها جذورا في اغواره ؟ . .

بمرارة أسأل .

بحزن أسأل .

هل كتب على قرننا ان يشهد مصرع هذين الفارسين الشابين ابدا : الايمان والحب ؟ . .

وهل ستنطفىء نهائيا مع شموع هذا القرن هالات القداسة والاساطير والعنف الدامي البريء التي طالما اضاءت معابدهما .

عن « الايمان » و « الحب » ، اتساءل بمرارة منذ الصباح الباكر . . منذ التقيت بذلك الشاب المسترسل الشعر امام المدخل الرئيسي لجامعة لندن ، حيث وقف يوزع على الداخلين كراسا ما ، ظننته يتضمن بعض المعلومات الهامة كمناهج الدارسة او شروط الانتساب .

ذهلت وانا أتامل غلاف الكراس . لم اصدق ما تراه عيناي .

على الغلاف رمزان : احدهما (للجنس) المذكر ، والاخر (للجنس) المؤنث لدى اي حيوان (بما فيه الانسان) ! وقد رسما مكبرين ، احدهما بالحبر الاسود والاخر بالاحمر وبينهما اشارة جمع (+) . . وفوقهما هذا العنوان العلمي جدا :

عملية صنع الحب !! . . .

الصفحة الاولى في الكراس تسأل : هل انت يا عزيزي او يا عزيزتي بحاجة الى حبيب ؟ الامر بسيط . كل ما عليك ان تفعله هو الاجابة على الاسئلة المطبوعة في الكراس حول مواصفات الشخص المرغوب به . الشكل . الطول . العمر . الثقافة .

الهوايات . (الشذوذ مسموح به بل ومرغوب كاحدى علامات العبقرية) . . . اسئلة مفصلة حتى الاحراج ، دقيقة وشخصية الى حد مبتذل . لاحياء في العلم . لن يطلع على هذه المعلومات سوى آلة . ستضعها في مظروف مغلق مع جنيه استرليني واحد ثمناً لطعام الالة التي ستتولى خدمتك : العقل الالكتروني . . او الـ (كومبيوتر) . . ديكتاتور العصر الحديث . .

العقل الالكتروني يختار لك حبيبتك (او حبيبك !) . بعد اسبوع ، يصلك رقم هاتف الفتاة الملائمة واسمها ايضا ، فالعقل الالكتروني يلعب دور (الخاطبة) للشاب العصري ! . . وربما كان الفرق الوحيد هو ان خاطبة العصر الحديث ، (العقل الالكتروني) ، على استعداد لتقديم خدماتها للفتيات ايضا . . واذا كانت الخاطبة لدينا تقوم بمهمتها من اجل علاقة مثمرة كالزواج ، فالخاطبة الالكترونية على استعداد للعب دور (الواسطة) !

والمذهل انتشار هذا النوع الجديد من تجارة الحب . . واقبال الجيل الجديد عليه ببساطة تامة ! . .

ان الامر يبدو مريراً ومفجعاً بالنسبة لفتاة مثلي جاءت من كوكب آخر او ابحرت من قرن آخر ما يزال يؤ من ببعض القيم الروحية والقوى الميتافيزيكية : الحب من ابرزها . .

منذ الآن ، استطيع ان ارى مصرع نصف تراث الانسانية الادبي والفكري الذي شيده الانسان فوق صخرة شامخة اسمها الحب . . . حكايا الحب العنيفة ، الذين ماتوا من اجل الحب . . اشعار قيس . . هذا كله سيبدو ممجوجاً وسخيفاً لجيل تختار الآلات الحاسبة حبيبته ولون ثيابه وطبيبه النفسي ! . .

ان عملية « شراء كلب » للاسرة ستصبح اكثر عاطفة وانسانية من عملية « اختيار حبيبة» . . على الاقل ،سوف يختار كلبه لانه احبه . ..وعلى هدي ذلك الإحساس الغامض غير المنطقي الذي يجعله يفضل اللون الاصفر مثلا على اللون الاخضر دون اي تبرير منطقي حسابي محدد . . .

وهكذا ، تستطيع بشلن واحد ، ترميه في فم آلة الاسطوانات (الجوك بوكس) ان تستمع الى اللحن الذي تختار . . . وبجنيه واحد في فم (الكومبيوتر) ، العقل الالكتروني ، ان تشتري حبيبة . . وبثلاثة شلنات في فم الماسحة الميكانيكية تمسح حذاءك . . وبشلنين في فم آلة الغسيل تغسل ثيابك . . . وبثلاثة شلنات في فم بائع الصيدلية تشتري اسبرو تنتحر به . . . وتستطيع ان تنتحر مجانا ، اذا استطعت ان

تحصل على وصفة من الطبيب ! . . والواقع ان العبادة والموت وحدهما تستطيع الحصول عليهما بالمجان . والمعابد ما تزال مجانية وربما كان ذلك احد اسباب ضعف الاقبال عليها . .

فقد بدأ الشباب في لندن يعتنقون عبادة جديدة كثيرة التكاليف والاخطار : عبادة اسمها الـ (ل . س . د) . .

واذا كان ثمن الحب هنا (باوند واحد) تضعه في جوف آلة العقل الالكتروني ، فان ثمن العبادة الجديدة اكثر من خمسة باوندات تضعها سرا في يد عالم مجنون ليعطيك عقاراً جديداً هو اخطر افيون عرفته البشرية يسمونه الـ (ال. س. دي) . .

كمية اصغر من رأس الدبوس ، ولا ترى بالعين المجردة تكفي . . وهي تعطى له داخل حبة من السكر . . وتأثيرها مذهل . .

انها تفجر العقل الباطن . . تفجر الذات البشرية الداخلية . . ويدوم مفعولها ساعات عديدة يفقد الانسان خلالها توازنه . . يهذي . . يبكي بحرقة . . يصرخ . . يزحف . . يعض . . يتصور انه يستطيع ان يطير . . وبعضهم ينتحر !! . .

المرعب ان الذين يتعاطون هذا العقار يعتبرون انفسهم اتباع عبادة جديدة هي « الذات الداخلية » . . ويعتبرون تعاطي هذا العقار احد اهم طقوس ممارسة عبادتهم هذه . . وحينما منعت السلطات تعاطيه ، احتجوا على ذلك ، اذ ان القوانين تبيح الحرية الدينية ، وسبق للمحاكم الانكليزية ان برأت بعض الهندوس الذين كانوا يجمعون فطورا سامة لان ذلك من بعض طقوسهم الدينية . . لكن الحوادث المتتابعة جعلت السلطات تتخذ موقفا حاسماً من الامر ، ولا تأبه لاحتجاجاتهم القانونية وغير القانونية . . .

الـ (ل . س . د) مسموح به للاطباء النفسيين . وهو يعطى للمرضى باشراف الطبيب الذي يسجل ما يدور ويكشف عن اسرار الانسان الدفينة في آبار عقله الباطن . . ويظل المريض تحت اشراف الطبيب عدة ايام ريثما تزول آثاره تماما . .

وفي الصباح نفسه ، الذي سلمني الشاب ـ الفتاة فيه قسيمة طلب « عملية حب » ، قرأت في العناوين الاولى للصحف عن مصرع احد اتباع العبادة الجديدة اثناء (صلاته) . .

كان الخبر ببساطة كما يلي . .

شاب ، طالب جامعي ، ذهب مع فتاة غامضة لم يكشف البوليس عن هويتها ، الى احد اندية « سوهو » ، حيث تعاطى الـ (ل . س . د) . ثم خلع ثيابه . . وانطلق

يركض عارياً . ثم صعد الى سطح احدى الكنائس ، وهم بالتحليق وقفز محركا يديه في الفضاء كما لو كان يطير ، وسقط على الارض محطماً امام باب الكنيسة وذهولِ القسيس المشدوه . .

وبعض الذين يمارسون هذه العبادة يموتون انتحارا . . انهم يتفجعون بطريقة حيوانية دامية مذهلة . . .

أربعة طلاب في جامعة لندن ! من (أرزن) الطلاب واعقلهم قرروا تجربة العقار، واتفقوا (احتياطياً) على أن يتناوله ثلاثة منهم، بينما يرقب الرابع ما يدور. . وقرروا ان يسجل لهم اقاويلهم . .

وبالفعل . . احكموا اغلاق النوافذ والابواب واعدوا آلة التسجيل وبدأت التجربة . .

وبعد ساعات من الهذيان والانتحاب والهستيريا تعب زميلهم الرابع فخرج ليشرب كوبا من الماء ، وحينما عاد الى الغرفة لم يجدهم . . كان زجاج النافذة محطماً ، وفي القاع خلف النافذة ، فوق اسفلت الشارع تكوم الثلاثة بقايا دم معجون بالعظام ، ونخاع متناثر تحت الاضواء الصفر المغسولة بالمطر . .

وكانت اخر كلماتهم فوق الشريط المسجل بعد مغادرته للغرفة تقول : تعالوا نطير . . تعالوا نرحل . . نطير . . نطير . .

وفي كنيسة (لانكستر-جيت) الاثرية العتيقة ، حيث تشدني الموسيقى ، ويأسرني احد رموز الانسانية الميتافيزيكية ، لاحظت ان عدد المصلين المكتوب على لوح اسود في الكنيسة يتناقص يوما بعد يوم . . ويتزايد يوما بعد يوم عدد الذبائح البشرية على معابد آلهة جديدة مدمرة : الـ (ل . س . د) والافيونات الاخرى كلها بما فيها افيون الذهول عن الحقيقة الانسانية الاساسية : الجانب الاخر الروحي . . انه الوجه الاخر للمرآة . . . ربما الوجه الاسود الغامض ، لكن تدميره هو في الوقت نفسه تدمير للمرآة كلها . .

وبعد . . .

فان حضارة يشتري ابناؤ ها الحب من العقل الالكتروني ، ليس غريبا ان تدفع بهم الى شراء الالهة من اسواق الهذيان والجنون . .

وبعد ،

ليلا . . بحثت عن كنيسة (لانكسترجيت) رغم عويل العاصفة . . اهتديت الى صوت ارغنها الحزين وسط غابة عويل بيتلز اقبية الحي .

وبحثت عن الباب الكبير الصدىء . . وتسللت الى المقاعد الخشبية الفارغة المهجورة . . . وجلست صامتة ساعات طويلة ، ولما انطفأت الموسيقى ، ورأيت في عيني قسيسها نظرة مدهوشة ومعتذرة بينما هو يتجه الى الابواب ليغلقها ، عدت من جديد الى الشارع حزينة ، وخيل الي ان جثث اتباع عبادة جديدة تغطي الارصفة تحت نوافذ حاولوا الطيران منها . . وان رذاذ ادمغتهم المتناثرة تلتمع تحت الاضواء الصفر المغسولة بالمطر . . .

وتمنيت ان ابكي . . لأطفىء هلع السؤال : ترى هل اشهد اليوم مصرع « الحب » و « الايمان » ؟ . . وهل ، وهل احاول ان اطير يوما ما من نافذة الى إله مجهول[1] . . .

والى الارض حيث اقف نظرت . . الى الاسفلت تحت الاضواء الصفر المغسولة بالمطر . . ورأيت وجهي في زاوية الرصيف المملوءة بماء المطر يتمزق ويتماوج مع ارتعاش الظلال الصفر المريضة . . وحينما مرت سيارة ، شعرت بها تدوس جسدي المستقر تحت الاسفلت . .

غمرني الهلع . . .

عدت اركض من جديد بحثا عن صوت الارغن العتيق العميق . .

ولكنني وجدت باب الكنيسة مغلقا وعلى خشبها العتيق ، في ثقب بابها الصدىء اخفيت دموعي .

---

(١) في شهر كانون الثاني ١٩٧٥ تناولت جرعة معتدلة من مخدر ال . س . دي للمرة الاولى وسجلت وانا تحت تأثير المخدر كل ما مر بي اثناء هذه التجربة الفريدة الخطرة . نشر النص في مجلة « الاسبوع العربي » تحت عنوان « السباحة في بحيرة الشيطان » بتاريخ ٧/ ٢/ ٧٥ .

زوريخ ٢٠/ ٢/ ٦٧

يدعون : الشمس تشرق من اسرائيل !! . .

لا اذكر بالضبط كيف بدأت اللعبة الجهنمية . .

لا استطيع تحديد تلك اللحظة التي كفت فيها اللعبة عن ان تكون بريئة ومسلية لتستحيل جارحة وقاتلة ومسمومة . .

ربما حدث ذلك حينما نطق ذلك الشاب السويسري بكلمة : « اسرائيل » وفاحت معها روائح الدم وومضت الاف الخناجر بينما كانت عيناه تواجهان ثورتي المفاجئة ببراءة مذهولة ! . .

كل ما اعرفه هو انني اكتب الآن من زوريخ . . بالضبط من كوخ على تل من الثلج (أحد بيوت الطلاب ـ يوث هوستل) . . عن مجموعه من الطالبات والطلاب من بقاع العالم كلها ، جمعهم امران : التزلج على الجليد والدراسة . . .

وكل الاحداث الطريفة ـ التي حدثت طوال النهار وقررت الكتابة عنها ـ تبخرت من حنجرة قلمي . .

وكل الاحداث الموجعة التي بدأت مع يوم رحلتي الاول تعود لتنبت من جديد في محبرتي ، وتلطخ بياض ورقتي بالسواد المهين . .

منذ يوم رحلتي الاول قررت : لن تقع عيناي الا على الجميل والمبهج . . سأتحدث عن شروق الشمس واترك لسواي مشاهد الغروب . . . سأرسم نصف الكأس الملآن بالماء ، واتجنب الحديث عن النصف الباقي : الفارغ . . ففي وطني العربي يعتب الجميع على كتّاب جيلنا : « لماذا هذا التشاؤم ؟ . . . ضياعكم مستورد ! حزنكم غير أصيل ! بلادنا لم تتعرض لويلات الحروب العالمية ! . . نحن بخير . نريد ادبا اصيلا . نريد كلمات (بيضاء) فعلا ، لا من باب التسمية باسماء الاضداد » . . .

ويوم رحلت، قررت في شبه مباسطة نفسية مع ذاتي : ربما كانوا على حق . . . سأرى الامور من جديد . .

وقد حاولت . . . وتعاميت . . وتغابيت . . عذرا ايها السادة ، ولكن كلمته الليلة « اسرائيل » فجرت كل شيء . . كل شيء . . . انها التعبير المحسوس عن واقع من الخزي المرير تهون امامه مرارة مدن تستلب في حرب عالمية ما . .

عذرا ايها السادة .

لا مفر من الصدق احيانا . واذا كان المرح والجنس من شروط النجاح لادبنا العربي المعاصر : فسوف اكتب كلمات لا علاقة لها بفن نحت الكلمات الادبي . . لنسمها هلوسات مواطنة تصادف انها ايام كانت تقف لتحية العلم في طفولتها في باحة مدرسة (الفيحاء) في دمشق ، كانت تفعل ذلك بحب غريزي مرير . . وصورة ذلك العلم الاخضر الاسود الاحمر الابيض ما تزال تقطن شبكية عينيها . .

مادا حدث ؟ ما الذي دفع ذلك الطالب المجهول ليقول ببراءة تامة : اسرائيل ؟ . .

لا اهمية لذلك اذا لم افجر الوقائع (البيض) منذ بداية الرحلة . . . فالانفجار الاخير ليس سوى حصيلة عشرات الانفجارات المكبوتة . . .

بدأت الحكاية في ملعب (للرغبي) في قرية قريبة من لندن تدعى (ايشر) . .

كان البرد بارداً حقاً ! . . لا أجد صيغة اخرى اعبر بها عن مشهد ملعب اخضر العشب ممتد من الافق الى الافق وطبقة شفافة من الجليد تغطيه . . . ثم تكسر الجليد وذاب تحت اقدام الاف من الشبان لابسي الشورت ، لاعبي الرغبي يوم العطلة الاسبوعية ، الاحد . . .

وكنت ارقبهم من مبنى النادي ، عبثاً ابحث عن ساقي اخي السمراوين بين الاف السيقان البيض الراكضة المتلاحمة . . وعلى زجاج النافذة الانكليزي السميك كانت انفاس عشرات الفتيات الانكليزيات صديقات الشبان تتكاثف . . . ومن خلال الابخرة المتزايدة تستميت العيون بحثاً عن وجه ما بين المتبارين . . وكنت اشعر بالدفء والانس ، ومنظر الاف الشباب يركضون في الحقول المتجمدة كالخيول الاليفة البريئة كان من المشاهد النادرة للتجمعات البشرية التي لا تثير قرفي . . وكنت ايضا افكر كيف ان المرأة هي المرأة اولا واخرا . . انها تشاركه كل شيء في ساعات العمل لكنها يوم العطلة تلعب دورها (الحقيقي) وتنتظر رجلها في الدفء كالمرأة الشرقية .

ثم فجأة ، تمزق كل شيء . .

اقتربت مني فتاة مغسولة بالبياض مغمورة بالشعر الاشقر . . اسمها كما قالت حينما سألتني عن اسمي : باميلا . .

وانسجاما مع الافكار (الاليفة) التي كانت تتلاحق في مخيلتي في تلك اللحظات ، سألتها : هل قرأت رواية باميلا ؟ . .

ـ لا

ـ انها اول رواية انكليزية بالمعنى الحديث . يجب ان تقرأيها . . ثم ان اوصاف بطلتها تشبهك كثيرا . . .

وفكرت . هذه فتاة تمثل قسماً كبيراً من نساء هذا الشعب . انها نصف جميلة . نصف متعلمة . انيقة جدا . شقراء جدا . ولم تسمع بأحد أهم كتابها « ريتشاردسون » ، ولم تقرأ احد اهم كنوزها الادبية التي تدرس في مدارسنا نحن ! . .

سألتني بفضول وهي تتأمل شعري الاسود وبشرتي الداكنة وارتعادي المستمر لبرد الجو : وانت ، من اين أتيت ؟

ـ من بلاد دافئة دائماً . . مشمسة وجميلة . .

ـ ما اسمها ؟ . . .

ـ سورية ! . .

وقلبت شفتيها بجهل وسألت : اين ؟ . .

ـ لبنان . سورية . ألم تسمعي بها . . .

قالت : لا ! . .

ـ على شاطىء البحر المتوسط . . شواطىء دافئة ، مراعيها قلما تعرف الثلج . . .

اجابت وقد اضاءت عيناها : تعنين اسرائيل !! . .

وغمرتني رغبة عربية تقليدية في تحطيم كأس البيرة في يدي على رأسها ، ثم دفنها في التهاب الموقد والصراخ بها على طريقة يوسف وهبي : اذهبي الى الجحيم . .

لكن فضولي كان اقوى من ثورتي . سألتها بلا مبالاة :

ـ اسرائيل . . ماذا تعرفين عن اسرائيل . .

ـ كنت هناك ! هذا الصيف . . .

ربما ظنتني اسرائيلية . ربما اقنعوها بان الشمس تبزغ في اسرائيل ، وانه ليس في بقاع الشرق الاوسط المتوحشة سوى مركز حضاري واحد اسمه اسرائيل . . وفهمت منها أنها قضت على شطآن حيفا ويافا اياما رائعة . .

ذهبت في رحلة سياحية عادية ، ولكن باجور شبه رمزية ! . (طبعا حكومتهم هناك تشرف على المظهر المدني العادي للرحلة وتموله) . .

الاعلان علق على جدران مدرستها في القرية ! ذهبوا جماعة كبيرة تنتمي الى الشعوب المختلفة . صديقها من المجر رافقها . الدفء هناك لا يصدق (لا بد انك

تتجمدين هنا . هل أنت من حيفا ! . . ام من يافا ـ هكذا سألتني !!ـ) « اسرائيل بلاد رائعة . . . لا بد انك سعيدة فقد حققتم التطابق بين الواقع والاسطـورة ! » . . كغربية تسحرها الاساطير ، وتستولي عليها اكذوبة حلم اسرائيل العتيق . . لقد قرأت عن عجنون الاسرائيلي الفائز بجائزة نوبل ومع ذلك لم تسمع عن ريتشاردسون اديب بلدها العظيم . . عادت وهي ممتلئة ايمانـا بجمال (وانسانية) ما يجري هنـاك ! . . (كتب عجنون اهديت اليها هناك ، وطبعا لم تسمع بإنسان اسمه غسان كنفاني !) . . .

وحينما عاد أخي الي ، وعدنا في السيارة المظلمة انفجرت اهـذي قهرا وغيظا وكمدا . . فـ (باميلا) لم تقصد ايذائي . . . ان صوتهم وصل اليها . . واكاذيبهم دمغت قلبها البريء كما تدمغ كل يوم عشرات قلوب الفتية الاوروبيين . . . اين صوتنا ؟؟ . . .

ليلتها جلست ارقب التلفزيون صامتة . . وكانت صدمة جديدة .

مسلسل انكليزي اسمه (آدم ادموند) . . بطلـه شاب كان ضحية تجربـة علمية تسببت في نومه مئات الاعوام في الجليد ثم عاد الى الحياة . . انـه نسخـة انـكليزية عن جيمس بوند (المتأمرك) وأرسين لوبين الفرنسي . . . وليست ثيابه الانكليزية العتيقة التصميم وعصاه وبروده هي الامور المبتكرة فيه . . الجديد فيه « اعداؤه ! » . . انهم من « العرب » . .

انهم عرب اغنياء تسترت عصابتهم خلف مظهـر بيت للمسـاج والرياضـة . . . مجموعة من الاخوة وابناء العم الذين يتنازعون فيما بينهم بالاضافة الى تعاونهم على الجريمة والايذاء . . وآدم أدموند هذا ينقذ فتاة انكليزية وقعت في حب محمود احد القريبين من العصابة وبالتالي تم اختطافها لارغام محمود على توقيع شيك تنازل بأمواله . . .

ويستغل المسلسل بعض رموزنا الفولكلورية استغلالا بشعا مبتسراً . . . اننـا في المسلسل الذي يقدم اسبوعيا اقواما من البدو الرحل ، او التجـار المحتالـين . . نروض الافاعـي ونربيهـا في بيوتنـا كما تربـي الفـرنسيات والانـكليزيات الـكلاب والدواجن ـ ونستخدمها في قتل اعدائنا او الانتحار (على طريقة كليوباترة) . . والرقص الشرقي نوع من (العهر) العلني لتخدير اعدائنا ، وراقصاتنا شبه العاريات يتشنجن ببلاهة مقرفة باسم الرقص . . وأما مآكلنا فأهم طبق فيها عيون الغنم وبيوض الافاعي ، وهي تحمي من ـ الضعف الجنسي !! ـ فمن المفروض اننا اقوام تعيش لاغتصاب اكبر عدد ممكن من العـذارى ! . . ونحـن ندق اعداءنـا الابـرياء على الجـدران و (نقطعهـم بالسـكاكين كالشاتوبريان !) . . . وابطال المسلسل من (العـرب) يرتـدون البـذلات الغـربية مع

(العقال) العربي ! . . وطبعا ينتهي المسلسل بانتصار آدم ادموند على أكلة اللحوم البشرية اعداء الحضارة (العرب) . . .

وجريا على عادتنا في تمزيق اية صفحات معادية لنا ، اغلقت التلفزيون بينما قال احد الاصدقاء الانكليز معتذرا : اننا لانقصد الاساءة لكم . . . مسلسلاتنا تحمل دوما فريقا من الاعداء (الغرباء) ، وهم احيانا من اليابان او من الصين او العرب . . . ولكنه لم يقل لي لم توقف اخراج مسرحية « تاجر فينيسيا » مع انها من اجمل مسرحيات شكسبير . . لم يقل ان السبب هو ان المرابي فيها يهودي فيه بذور العقلية التي انشأت شيئاً اسمه اسرائيل : الرغبة في اقتطاع لحم الضحية التي عجزت عن دفع الدين ! . . ولم يقل لي شيئاً آخر حدثني به اخي حينما اطفأنا النور لننام ، وصار بوسع كل منا ان يخفي وجهه عن الآخر . . قال : في الاسبوع السابق لمجيئك كان موضوع المسلسل طائرة هبطت اضطراريا في ارض عربية . . . ولقي الابطال الشقر ما لقوه من العرب (البهائم !) لكن بطلهم انتصر كالعادة وهرب !! . . . ولم يحدث ابدا ان دار موضوع المسلسل في اسرائيل . . ان اسرائيل في نظر زملائي اليوم هي الجنة المشمسة التي يحلمون بقضاء اجازاتهم فيها . . .

وتعاقبت عشرات الاحداث . . .

وفي كل مرة كنت اغص باسماء كثيرة . . خالد بن الوليد . . صلاح الدين الايوبي . . . عمر بن الخطاب . . .

حتى الذين سمعوا عن ابطالنا ، يتحدثون عنهم كما لو كانوا قراصنة ! . . انهم في كتب تاريخ تلامذتهم اعداء للانسانية ولحضارة اوروبا ! . .

هنالك حقيقة جديدة لا مفر من الاعتراف بها . . . ويجب ان نعترف بها وان نجابهها لا ان نهرب منها ـ ونمنع وصول اي حرف يتعلق بها الى آذاننا ـ هذه الحقيقة هي : ان اسرائيل تعمل بموجب خطة مدروسة متكاملة الجوانب للخروج بقضيتها الى حيز جديد ، وللظهور بمظهر البقعة الوحيدة التي تدافع عن الحضارة والانسانية وسط بحر من الجهل العربي الغارق في تخلفه وجهله . .

وفي عدد التايم الاخير طالعت مقالاً عن احد البلدان العربية ومطلعه يصف ارضي بالقحط الزراعي وبالخصب في انبات المشاكل والدمار ، وخصوصا على حدود (المسكينة) اسرائيل ! . . (آمل ان تكف الرقابة عن تمزيق الصفحات التي تسيء إلينا . . . يجب ان نطلع جميعا عليها ، لنعرف ما يدور حولنا ولنجابهه) . .

إن سوء فهم العالم لبلادنا عار سوف يلطخ التاريخ الانساني اعواماً طويلة . . واذا كانت المانيا الحديثة تدفع ثمن اضطهاد النازية لليهود حتى اليوم (للاسف شحنات من الاسلحة لاسرائيل) ، فلا ادري كيف يدفع العالم (الحر) ثمن اضطهاده المقصود وغير المقصود للعرب . . لقد بدأ جيلهم الجديد يصدق الاكذوبة الكبرى اسرائيل ، وجيلنا الجديدلم يع بعد معنى هذه الصدمة وتأثيرها حتى على اصغر زوايا حياته وتصرفاته . .

وماذا ايضا ؟ عشرات الاحداث الصغيرة التي ترسم خطوطا عريضة لمرحلة جديدة في عمر جريمة هذا القرن الكبرى اسرائيل . .

صديقة لي ، نزلت في فندق (ريتشماند) في لندن ، فقد زكوه لها ، واخبروها ان صاحبه عربي الاصل واكثر رواده من اللبنانيين رغم بعده عن قلب مدينة لندن . . .

تحرش بها شاب وقح على مائدة الفطور . . . حينما علم انها لبنانية ، امعن في تحديها . . . قال لها انه اسرائيلي وهو لا يكره لبنان . . . بالحرف الواحد قال : « لبنان بالنسبة لنا كعكة شهية سيكون لنا نصيب منها » . . غادرت غرفة الطعام ثائرة ، ودق باب غرفتها بعد دقائق احد الجرسونات يحمل اليها مظروفا كبيرا ، في داخلبه كتاب دعائي مصور عن شيء اسمه « اسرائيل » . . . وهو يشرح بالصور وبلغة انكليزية (توراتية) قضية (شعب الله المختار المضطهد) ! . . .

وماذا ايضا ؟ . . يمزقني ان املأ قلمي بالسم بدل الحبر لاقول ما أقول ! . .

دخلت صدفة الى احدى البقاليات دون ان اقرأ اسم صاحبها . . واشتريت ما اشتريت . . ودفعت . . وعبأت لي العاملة ما اشتريته في كيس ، وذهلت ! . . . على الكيس اسم كبير « كوهين » ، وخارطة لاسرائيل ، وبعض الملاحظات الدعائية . .

وطبعا رمينا بالكيس وما فيه حانقين . . وضحك صاحب المحل بحبور ساخراً ، وضحك بعض الرواد (الابرياء) من غبائنا واستغربوا مثل هذا التصرف المضحك الأرعن (وكانوا للأسف على حق) !

وحينما قررنا ـ أخي وأنا ـ ان ننام بلا عشاء ، كنا نعرف ان ذلك لا يحل المشكلة ، وان القضية بحاجة الى وعي واقعي جديد وجماعي . . .

وعي واقعي جديد وجماعي يتسلل الى حياتنا كلها حتى الجذور ويقلبها هناك في وطننا العربي . . وعي يبدل مناهج دراستنا واسلوب حياتنا واهتماماتنا ومشاغلنا ومحاضراتنا وموضوعات لهونا وكل شيء . . . يجعل منها شيئاً متماسكاً مركزاً هدفه الواضح والوحيد استعادة وطننا وذاتنا وردالاعتبار لسمعتنا العالمية التي يكاد التمثيل بها يتم ! . .

قررت ان اذهب الى اي مبنى سفارة عربية ، لأستعيد شيئاً من الطمأنينة لنفسي الضائعة . . عبثا . . . تصادف ان كان اليوم يوم أحد . . .

وذهبت فلملمت كل ما في المدينة من صحف عربية . . . ومجلات . . وقرأت . . وازددت فجيعة . .

ما زلنا غارقين في تفاهاتنا المحلية وغرورنا الفردي السقيم . . ان احدا من كتابنا (الكبار) المغرورين لا يدري انه لا يساوي شيئاً هنا لان حجمه الحقيقي (بالنسبة للعالم) يستمد من حجم بلاده ، ولان مقاييس العالم قد تبدلت ، ولان هناك - اسرائيل ودعاياتها - تعبث بالموازين حينما يدور البحث عنا وتغالط ، ولاننا بغرورنا وجهلنا نسهم في تسهيل مهمتها ونمنحها مادة اولية ، ومزيدا من الفرص ! . .

اعود الى هنا ، الى الكوخ المدفون في الثلج قرب زوريخ من حيث اكتب . .

هذا المساء ، كان كل شيء هادئاً وبريئاً بعد صخب النهار وسقوط اكثرنا مهشمين في محاولاتنا العقيمة للزحف الرشيق على الثلوج كالكلاب القطبية . .

هذا المساء ، اجتمعنا متعبين ، وجوهنا مختلفة الالوان والتقاطيع - شرقية وغربية ، سويدية وزنجية واسبانية وألاسكاوية ويابانية وفرنسية - وجلسنا نسمر مجموعة من التلامذة من مختلف انحاء العالم ، وكان الحوار مزيجاً من الفرنسية والانكليزية . . أقول ،

لا أذكر بالضبط كيف بدأت تلك اللعبة الجهنمية . . قررنا ان يذكر كل منا اوصاف البلد الذي جاء منه ، ويتولى الباقون تخمين اسمها . . وللفائز جائزة . .

وقال الفرنسي : ايفل . اورليان . . وصرخنا فرنسا .

وقالت اليابانية : كيمونو . جيشا . . وصرخنا اليابان .

وقلت لهم : شمس . سيف . ارض التاريخ والاديان ، والانبياء . . . صمتوا . قلت : البحر المتوسط . . . وظل اكثرهم صامتا ثم تطوع السويسري فقال : اسرائيل طبعا ! . . . وانضم اليه بعضهم ببراءة : أسرائيل . . . والتمعت عينا احد الشبان بخبث وهو يهلل : طبعا اسرائيل . . . وبسرعة استلم دفة الحديث . . وذهلت وانا اكتشف ان خمسة من العشرين الذين ضمنا الكوخ واياهم قد زاروا اسرائيل في رحلات مدرسية منظمة ! . .

وعلى مائدة العشاء سألني احد الطلاب شبه معتذر : لم تقولي لنا من اين أنت ؟ . . قلت : سورية . لبنان . . .

قاطعني : تعنين قرب اسرائيل !!. . . وقبل ان اسكب صحن الحساء على نفسي وعليه ، كان إلطالب ذو العينين الخبيثتين يوزع على الزملاء كراسا « لاسرائيل » كذلك الكراس الذي حملته الي الصديقة نزيلة فندق الريتشماند في لندن . . .

عذرا ايها السادة . .

كنت اتمنى ان انحت كلمات شهية ، ارشق فيها عبارات شعرية عن الحب في براري الشفاه الظمأى والخطيئة على تلال النهود وقراصنة اللحم النسوي الحلم . .

عذرا ايها السادة . . .

ضياعنا حقيقي . . . نحن احفاد صلاح الدين وخالد بن الوليد وحمورابي وعمر بن الخطاب . . . مؤ امرة ضياعنا عن جذورنا الحقيقية تكاد تدمر كياننا . . نعيها حينما نخرج من قرانا الصغيرة الى العالم الواسع ونرى قسوة العيون في الحكم علينا وجهلها بحقيقتنا . . .

عذرا ايها السادة . .

من قلبي كله اتمنى ان لا تحمل لكم حروفي سوى الضحك ولذا اروي لكم نكتة انكليزية (لا معقولة) . . نكتة جديدة النوعية وغير منطقية على طريقة مسرح اللامعقول : « عذرا . لا استطيع . احتفظ بها لكم للاسبوع القادم ، فأنا الليلة حزينة. انها نكتة مضحكة . الا تثقون بكلامي . اضحكوا اذن على ما يدور في رأسي » . . . (انتهت النكتة الانكليزية) .

خلف النافذة عاد الثلج يهطل . لا ريب في انهم انتهوا الآن من مطالعة كراساتهم عن اسرائيل . . .

باريس ٦/ ٣/ ٦٧

العرب في مرآة أوروبا الصهيونية

آلة بعد اخرى . . . (قطعة نقدية بعد اخرى في ثقب كل آلة . . ثم زر اضغطه . . تطيع الالة الاوامر) . . .

آلة بعد اخرى . . .

وقفت امامها جميعا وانا في طريقي الى كهوف المترو تحت الارض . . كانت مصفوفة في الممشى الكبير الذي يقود اليه . .

آلة الطوابع . آلة بيع السجائر . آلة بيع السكاكر . . وآلة ، وآلة . . وفي كل مرة التقط الحصيلة ، اتلفت حولي بحذر ثم اهمس للآلة : شكراً . . .

ففي هذه المدينة الواسعة المتخمة بالغرباء ، يصبح التفاهم مع انسان ما معجزة غير عادية ، وتصبح استجابة آلة لرغبة ما ، لحظة حلوة تذكر بالانس والالفة ولكن بطريقة مريضة شرسة . . .

واعترف : في البداية كنت احس بان المترو يذلني ! لا ادري بالضبط لماذا ، لكنني وانا احشر داخله ، وانا أقذف في امعاء المدينة المظلمة القذرة ، احس بكراهية مشلولة لصوت الآلة الرهيب الذي نفث سما اصفر في العيون المتعبة المحيطة بي ، والعدائية .

ولذا كنت دوما وانا في طريقي اليه ، احاول ان اذل اكبر عدد ممكن من الآلات الصغيرة المرشوشة حولي . .

ثم نشأت بيني وبين تلك الآلات صداقة من نوع مذهل . . انها دوما تستجيب لرغبتك . دوما تلبي . . واحيانا ترفض بصدق وترمي بوجهك قطعة نقودك بكبرياء صامت وبلا مبرر تقدمه ! . . وصرت اشكرها ، واحيانا تساورني رغبة موجعة في التحدث اليها . . وبدأت ارى في اضوائها الصغيرة عيونا تغمز بحنان دافىء . .

هبطت الدرجات الاخيرة وانحرفت في الممشى الطويل الاخير الذي يقود الى رصيف المترو وكنت ما ازال غارقة في افكاري (الوجودية) هذه ، وتأملاتي (الذاتية) حينما بدأ يعزف فجأة . .

انه ذلك الاعمى الجالس دوما في هذا الممشى معانقا (اكورديونه) عازفاً من وقت الى آخر الحاناً تتدفق فجأة في شرايين الممرات والدهاليز وتفجر في شرايين العابرين

الراكضين ذكريات بعيدة كان يظن انه اغتالها تماماً . . . انه من أحب ما في باريس الي ، وهو ـ بعد الآلات ـ اكثرها تأثيراً في رخام لا مبالاتي . .

وبدأت خطواتي تتقلص وانا احاول ان أذكر اين سمعت هذا اللحن من قبل . . .

تذكرت ، فاستحلت قنفذاً مسموما . . سمعته منذ ايام فقط . اسمه « انشاء الله » . انه اغنية (لادامو) . . اغنية تتحدث عن الجزائريين او اي من العرب كما يتبادر للوهلة الاولى قبل سماعها بينما هي في الحقيقة اغنية تتحدث عن اسرائيل . . . عن الحنين الى اسرائيل . .

وظللت اسير نحو المترو وانا اتذكر كلماتها التي اثارت جنون اخوان من الطلاب العرب يوم سمعناها للمرة الاولى في احد المقاهي بعد دعاية هائلة اثارت فضولنا . . .

الاغنية تتحدث عن (المسالمين) الذين يعيشون في اورشليم . . عن الثلاثين الف شجرة التي زرعوها ، والعرب الذين يحرمونهم من المياه اللازمة لرعايتها !!! (يقصد تحويل العرب لمجرى نهر الاردن الذي لم ينفذه العرب ونفذته اسرائيل لصالحها طبعاً) . . . وعلى هذه الوتيرة تستمر الاغنية . .

وفرحت حينما وصل المترو بضجيجه ، وكففت عن سماع الاغنية المشؤومة . .

سقطت على اول مقعد فارغ . . انطلق المترو في دهليزه المعتم الضيق ، وفوق الجدار الراكض عادت الاحداث تنتظم امام عيني . . لم يعد هنالك مفر من ذلك . . لم يعد بوسعنا ان نغرق في افكارنا (الذاتية) او (الوجودية) ، اننا فعلا بحالة حرب مع عدو يمتاز بالتخطيط الواعي العصري . . . والفرد العربي هنا صار يجد نفسه يوماً بعد يوم في احتكاك مباشر ومتزايد مع هذه التحركات الاسرائيلية . . .

ان قضية اسرائيل بالشكل الذي تطور طرحهم لها لم تعد تهز في العربي نخوته فحسب بل وانانيته ، وبقاءه . . انها لم تعد قضية (وطنيته) فحسب بل وقضية (خبزه) وأمنه واستقراره . .

ولم يعد الحديث عما يدور هنا ، مجرد مناسبة سنوية يستعرض فيها الكاتب (عضلات قوميته) ، وانما صار واجبا حقيقيا . . كواجب صفارة الانذار قبل الغارات . . وربما لا يشنف الاذان بموال مخدر مطرب ، لكنه ينقل الحقيقة بحرارة صهيل الخيول الوحشية التي تصهل قبل الزلزال ، وتتنبأ بالعواصف . .

اقول ، خرج الامر عن نطاق الكواليس السياسية ، وبدأ السم يتسرب الى اهل المدينة جميعا ـ الشيء نفسه في كل مدينة أوروبية ـ وعن طريق اكثر الامور تأثيراً في النفس

البشرية واعمقها اثرا : الفنون جميعا . موسيقى . تصوير . ادب . شعر . .

شريط الاحداث التي لم تكن صدفة يركض امام عيني . .

وصلت باريس متعبة كالناس جميعا . سألت موظف الاستعلامات عن مكان آوي اليه . اعطاني عددا من العناوين . هتفت لبعضها : لا مكان . المرأة التي ردت على هاتفي الرابع قالت انها بانتظاري . وقف التاكسي امام العنوان.انه (أحد بيوت الشبان الأكثر رخصاً من الفنادق يوث هوستل) يدعي (لانسوف) . امامه شارة الكشاف الدولية . سجلت اسمي وأرحت حقائبي ، وكنت اكثر تعبا من أن اقرأ الاعلانات امام الباب . صباحا جمدت وانا اقرأ على المدخل :

الجميع مدعوون مجانا ليلة الاربعاء ٢٢/ ٢/ ٦٧ لحضور حفلة شاي وعرض فيلم ولوحات من اسرائيل . .

وهنا فهمت سر الانزعاج الذي بدا على وجه مديرة المكان وانا اناولها جواز سفري الذي لم تعرف حينما قالت لي (على الهاتف) ان احضر ، انه عربي . .

وهنا ايضا فهمت سر النظرات اللئيمة التي رمتني بها فتاتان من الواضح انهما اسرائيليتان . . .

وقررت ان ابقى وان ارقب ما يدور . . مساء ، في قاعة الجلوس ، بعد احدى مقطوعات باخ الجميلة تطوعت واحدة منهن ونهضت تختار لنا الاسطوانات ، وكان في عينيها تحد بارد لئيم وهي ترمقني من طرف اصفر في عينها . .

اغنية اسرائيلية . . بالعبرية . . والموسيقى عربية اسبانية . . عدد من الاغاني . .

الآن ، لا بد من نظرة حيادية الى العدو ، هي ما نفتقر اليه كخطوة اولى في الدفاع عن حقنا الكبير الذي يكاد يطمس نهائيا في اذهان الاوروبيين . .

الموسيقى حية ، وعنيفة ومليئة بالحياة والحنين وسريعة بالاضافة الى طابعها الشرقي الجميل . . انها افضل ما يمكن لشعب ما ان يقدمه كصورة عن نفسه (اقول ذلك بمرارة حقيقية) . .

وظللت صامتة ، واحس بعشرات العيون المتحدية مسلطة علي . . ظللت باردة كالثلج . . وفي الصباح حينما اكتشفوا ان الاسطوانات الخمس للسلسلة (اغنية اسرائيل) قد تحطمت لم يكن بوسع احد اتهامي . ولكن سألتني المديرة ظهراً فيما اذا كنت قد وجدت غرفة ام لا . .

ربما كانت صدفة ، ولكن ، ليلة حفلة الشاي الاسرائيلية في مركز من المفروض انه

يمثل الكشاف العالمي ، رأيتهم يحملون البراد العتيق بعيدا ويستبدلونه ببراد كبير فخم وصل هدية من المركز الكشفي الامريكي . (مطلوب من الهيئات الكشفية عندنا اخذ العلم) . .

وماذا ايضا . .

فلأ قل ما عندي ، ولو تعرضت لمس (تابو) عربي كبير اسمه ام كلثوم وعبد الوهاب . .

ففي الوقت الذي كانت « اغنية اسرائيل » (مصنوعة) خصيصا وبنجاح لاظهار كورسها من المواطنين بمظهر الشعب المسالم المتحضر المعذب طيلة قرون ولاقناع الاذان الاوروبية الفتية بحق هذه (الجماعات الطيبة !) بالحياة ، كانت اسطوانة ام كلثوم « فكروني » بين اوراقي وقد حملتها معي من آخر الدنيا لاقدمها بفخر لاصدقائي الاوروبيين . .

اعترف . . انا لا أكره اغاني ام كلثوم . . واحيانا استمع اليها نصف ساعة طويلة صامتة وبلا ملل . . لكن ما يدور هنا يفرض علينا طرح القضايا بمقاييس جديدة . . فكرت . . لو ادرت اسطوانتها « فكروني » للمستمعات الاوروبيات بعد الاسطوانة الاخيرة ، اي انطباع يحملون عنا ؟؟ . .

لنفترض انني احب ام كلثوم . تهزني عاطفيا وتفجر دمعي ، ولكن ، في هذه المرحلة بالذات ، اعتبرها تضخما عاطفيا في مجال ذاتي جدا وبالتالي قاصرة عن التعبير الصحيح عن حقيقة اعماقنا اليوم ،

الموسيقار العظيم هو الذي يتحسس حقا الأبعاد النفسية والوجدانية والقومية لجيله ، ويتطور مع تطورها . . ما قدمه لنا حتى الآن (لقاء القمتين) ما زال قاصرا عن التعبير الكلي عن ذلك . انه ناجح حتى الذروة في التعبير عن زاوية واحدة في الفرد العربي المعاصر : الزاوية العاطفية الذاتية ، ولكن : تبدلنا .

خلال السنوات العشر الاخيرة تبدلنا ، ونريد من فنانينا الكبار ان يفهموا اننا تبدلنا . . لم يعد جيلنا مكبوتا ولم يعد معزولا عن قضاياه القومية . . ونريد من فنانينا الكبار ان يساعدونا على استيعاب هذا التطور للانطلاق منه الى مرحلة عمل غير ضبابية . .

اقول اخشى ان يخلف جيلنا كباره وهم احياء ، او يعيد تصنيفهم وفقا لقانون الحياة الاول : التجدد . .

تلك الليلة ، احسست للمرة الاولى ان ام كلثوم وعبد الوهاب خذلاني . . وادركت سبب اعراضنا عن كثير من كتابنا وشعرائنا الذين كانوا كبارا . . . لقد توقفوا ، تحجروا . . والحياة تسير . في هذا العالم الواسع الذي لم نعد نستطيع العزلة عنه . .

لا اريد فقط ان اعبر عن عواطفي الشرقية الحارة ، وتفجعي للذكرى . . اريد ايضا اغنية تحمل للعالم جوانب نفسيتي الباقية كجزء من مجتمع عربي ناهض ، يصوره اعداؤه في كل لحظة (بالافيونية) (والزعبرة) والكسل والبلادة في الموضوعات الجدية . . وكجزء من أمة تحاك ضدها مؤ امرة مذلة الوقاحة . .

اغنية (يا مصطفى) الفرانكو آراب التي فرحنا بها وهللنا لها اخجل ان اقارنها باغنية (آدامو) الاخيرة عن اسرائيل . .

(تعال يا مصطفى يا ابن الحلال . . .

. . . .

لما بيجي كيفو ، بيشرب على كيفو) . .

نحن اقوام (الكيف) . وهم زراع الثلاثين الف شجرة . . . وفي ابيات من الشعر الرقيق والمؤ ثر ينشدون (لاورشليم) !

للاسف . للاسف . لو كنت لا ادري لصدقتها . . للاسف ، الجيل الاوروبي الطالع (لا يدري) لانه لم يعاصر الكارثة ، ولان معلوماته عنها حتى اليوم ضئيلة وغامضة ولان اسرائيل تزور التاريخ بينما نتلهى نحن بالعمل على افتعال العمل ! . .

الرجل القابع امامي في المترو يحمل بيده ترانزستور . اعرف ، لو كان بوسعه ان (يفتحه) لسمعت اغنية (انشاالله) . لقد تم بثها ثلاثة ايام متوالية من دار الاذاعة هنا ، وبعد اسابيع سوف يرددها ببراءة ـ وبدون براءة ـ الاوروبيون وسوف ترسخ في اذهانهم اكاذيبها الافعوانية الناعمة الكلمات . .

السيد (آدامو) استضافته اسرائيل على ما علمت بعد ان زرعوا في حلقه كلمات الاغنية . . اسطواناته الموزعة في بيوتنا اتمنى ان يتم جمعها علنا في حملة دعائية خاصة ثم ارسالها مكسرة اليه . . يحزنني ان اذكر كم كرمناه حين زار بلادنا ، وكم نكرم كل عابر سبيل من صعاليك الفن المعلقين على الواح بورصة (من يدفع اكثر) . .

زملائي الطلاب العرب جميعا يعون هنا هذه الاساليب الجديدة المتزايدة . . في صدر كل منهم عشرات الحكايا المشابهة . . حضرت احد اجتماعاتهم واذهلني فهمهم للموضوع بطريقة مباشرة وعملية في حين ما نزال هناك في اوطاننا ضائعين بلا تخطيط عملي ،

مباشر للكارثة التي تتهددنا فعلاً وعملياً . . وكل مواطن عربي ، يعيها ، سينظر الى اطفاله بحنو اذ يرى خلفهم ظلال الخيام ، وسينطلق من هذه النقطة ليعيد تقييم عالمه كله : الفكري والاخلاقي والاقتصادي . .

اؤمن ، ان وعيا اجتماعيا كهذا كان دوما يرفع المانيا عن حضيض الدمار . . وهو وحده قادر على انقاذنا قبل فوات الاوان . .

ينطفىء الشريط على الجدار . يوقظني اسم المحطة (كونكورد) .

خرجت باحثة عن قصر اسمه (لوبيتي باليه) حيث معرض « توت عنخ آون » . . ولم اصدق المشهد . .

كانت تمطر ، وتحت سقف من (المظلات) وقف مئات الفرنسيين والسياح في صف طويل بانتظار دورهم للدخول الى المعرض . لا أبالغ فعلاً اذا قلت ان طول الصف يتجاوز المئتي متر . . وباعة الجرائد يدورون حول الناس يبيعونهم عددا خاصا عن المعرض اصدرته احدى كبريات الصحف الفرنسية . .

واحسست بفرح حقيقي صادق . . هذه دولة عربية تواجه بطريقة عملية وغير مباشرة (وبالتالي فعالة) اسطورة الصهاينة الجديدة عن (توحشنا) نحن اهل (الكيف) . . وهذه آثار مذهلة تثبت عراقة تلك الاصقاع العربية وماضيها الحضاري . . فكرة مدهشة لافت الرواج المنتظر . . تعريفة الدخول (٥) فرنكات . عظيم ، لا من اجل الدخل القومي ، ولكن من وجهة النظر الاوروبية : فهم دوما يسخرون من عطائنا لاننا نمنح مجانا . . ان نجعلهم يدفعون هي الخطوة الاولى في طريق تقديرهم لنا . .

ومع ذلك ، واسترسالا مع لحظة رائعة من لحظات الصدق التي اكتب هذه الكلمات تحت وطأتها ، اقول ان الشروح كتبت على التماثيل بلغة واحدة (الفرنسية) ! . . في البداية لاحظت ذلك كهفوة سياحية ، ولما خرجت من المعرض قلت لصديقة فرنسية ترافقني وتدرس النحت مفاخرة مباهية : ما رأيك بماضينا الحضاري ؟ ألم تلاحظي ان التماثيل الفرعونية تشبه الفن الحديث بكثير من مزاياها ؟ لِمَ لا تعدِّين اطروحتك حول هذا الموضوع ؟

لو كان هناك سطر من الشروح العربية التي (لن يفهمها أحد طبعاً) لفهم الجميع ان منبت هذه الحضارة أرض عربية ولربحنا دعاية أكبر من معرض ناجح كهذا . .

عدت الى الشوارع والمطر . مررت بالمقهى الـذي يؤمـه اكثر العـرب من جيل المخضرمين (كافيه دي لابيه) ، ورأيتهم جالسـين كعادتهـم ، مسترخين على المقاعـد يرقبون الطريق بعيون ناعسة ويتهامسون . . انهم جيل (فكرونـي) بعاطفيتـه البريئـة المؤذية في مرحلتنا هذه . .

وطلابنا العرب من هذا الجيل ليسوا من جيل (فكروني) ، ولم تعد مطاردة الباريسيات همهم الاوحد . . لقد تقلص كبتهم بعد ان اخذ مداه ، وعاد ليحتل حجمه العادي ومكانه الجزئي . .

هؤلاء بحاجة الى من ينشد لهم ، يرسمهم في لحن وصوت . . . من ؟ . . وماذا ايضا ؟ . . .

لا شيء ، ما تزال تمطر ، وانا ابحث عن آلة اضع في ثقبها قطعة نقود .

هذه المرة لن اضغط اي زر ، اريد منها ان تنصت لي فقط . . . ساروي لها انه في الصباح سألتني مديرة هذا الهوستل (لانوف) بشك شديد واضح : من اعطاك عنـوان هذا المكان ؟ . .

ثم (علمت) من صديقة المانية أن الاسرائيليتين بحالة ذعر وثورة . . وهناك من رمى بالحبر الاحمر على ثيابهما البيضاء المنشورة في غرفة الغسيل ، فبدت الثياب كما لو كانت ملطخة بالدماء . . ماذا لو قتلتا وهما ترتديانها مثلا !! . .

اريد ان اطلب من الآلة ايضا ان تذهب معي للتفتيش عن غرفة !! . . .

١٩٦٧/٧/٧

احمل عاري الى لندن

ربما لانني من هنا اكتب . . .

من سلم الطائرة التي ستحملني بعيدا الى مدينة لم يعد منها عربي منذ اسابيع الا وفي حلقه عشرات الحكايا المجروحة عن اضطهادها له وعدائها . .

ربما لانني ارى منذ الآن وجه موظف الامن في مطارها ينظر الي بشماتة وهو يقرأ في جواز سفري (سورية عربية) ، ووجه صاحب الفندق المتخوف من (همجيتي) ، وزملائي في الصف المتهامسين : هذه واحدة من المئة مليون مهزوم . . .

ربما لانني اعرف انه ليس بين الملايين التي سألتقي بها في المسرح والمكتبة والشارع من سمع حكاية فلسطين الحقيقية من فم عربي ،وان آلاف العيون التي سترمقني باستهتار وشماتة هي نفسها التي سبق ان طالعت صور مذابح دير ياسين منشورة في الصحف الاوروبية على انها صور ضحايا اليهود المساكين ، الذين يواجهون (المرحلة النازية الثانية) من تاريخ عذابهم . . . نازية العرب . . .

ربما لانني واحدة من مئة مليون قضوا عشرين عاما يطيعون حكوماتهم (متعهدة) بناء النصر لهم ، ويدفعون الضرائب التي تنفق على التسليح والاعلام والمؤتمرات والبعثات الدبلوماسية ، واحدة من الصابرين على اي نظام حكم (عثماني) او (مريخي) ، المستسلمين لاية تشريعات منطقية اوغير منطقية ، لاي تجريم سياسي ، لاي تصنيف في درجات (الصوفية الوطنية) مادام ذلك باسم استعادة كرامة الفرد العربي ورد الاعتبار اليه ، الامر الذي يتمثل عمليا في قضية فلسطين . . .

ربما كان من الممكن لو وقف الامر عند هذا الحد ان نصمت ونقنع ونستمر كما كنا ، مئة مليون مخدر دون ان نصرخ في وجه حكامنا الذين زيفوا وجهنا الحقيقي كعرب امام الغرب ، في حربنا الاعلامية طيلة عشرين عاما وفي المعركة الاخيرة . . .

ربما كان من الممكن الاعتقاد ان ما حدث قد حدث لحسن نية ، وانه ناتج عن التخلف ، وعن ، وعن ، وعن ، وعن عشرات الحجج التي تعتبر وسائلنا الاعلامية العربية كلها رائدة لها في قلب باب الهزيمة الى نصر ، وذلك بتحويل حادثة هزيمة الى قضية

زخشرية بلاغية فقط ومن باب تسمية الاشياء باضدادها . .

ولكن مرحلة ما بعد الهزيمة ما تزال امتدادا لها . . .

وتتابع الاحداث منذ وقف القتال الاخير هو بالضبط كتتابعها بعد عام ١٩٤٨ ، والاسلوب الذي يتبعه المسؤولون في مواجهتهم للامور وفي طرحها للشعب اعلاميا يدل على ان العقلية التي قادت الى الهزيمة لم تتبدل . . . وان التاريخ سيعيد نفسه لا محالة . . . لذا صار السكوت جريمة . . . لن استعمل الكلمات الوطنية التي استهلكت حتى فقدت اي مدلول . . لن اقول إنها جريمة في حق الوطن الضائع واخوتنا الفلسطينيين ، سأكون اكثر واقعية ، اقول إنها جريمة في حق انانيتنا الفردية ، في حق دفاعنا عن خبزنا وبيتنا واولادنا وكرامتنا . . فالقضية هذه المرة لم تعد تترك للانهزاميين مجالا للانسحاب وترك (الفلسطينيين) وشأنهم والقول (حوالينا ولا علينا) . . . الحادثة الاخيرة اثبتت ان فلسطين في اذهان ابناء صهيون تمتد من المحيط الى الخليج . . .

ربما لانني اكتب على سلم الطائرة . . . والضجيج التهريجي ، وصور جمع التبرعات والندوات والاناشيد الجديدة واريحية سيدات المجتمع وقفشات اصحاب المعالي ونقاشات المقاهي وتخدير الوسائل الاعلامية وهذه الجعجعة كلها لا تعني الآن لدي شيئا ، ما دمت لا استطيع ان احمل معي منها ما اواجه به العالم الخارجي ، ولانها من بعض الافيون الفكري المطروح للاستهلاك المحلي . . .

الآن تبدو الامور لي اكثر بساطة وفظاعة وابعد مدلولا . . . الفجيعة الحقيقة لم تعد في لحظة الهزيمة اياها ، وانما في لحظة الهزيمة التالية ربما قبل عشرين عاما اخرى ، لان المسؤولين ما زالوا مصرين على سياسة تخدير الجماهير وتجاهل رغباتها الحقيقية والثقة المطلقة بغبائها . . .

الفجيعة الحقيقية هي في استمرار الاساليب التي قادت الى الهزيمة ورفض اعادة النظر في اسلوب العمل ، وانه ليس بالشعر وحده يحارب الانسان .

فمنذ اليوم الاول بدأ تخدير الشعب العربي قبل ان يعي الكارثة ويثور . . .

بدأ التمهيد الاول بتسمية (الهزيمة) (نكسة) ، وكأن الامور كانت تجري على ما يرام ، وما حدث هو مجرد نكسة لا غير !! . . .

وتمت تسمية الهزيمة الثانية لمئة مليون عربي امام مليوني اسرائيلي بكلمة نكسة . . . نكسة لا هزيمة .

نكسة يا اخي العربي في كل مكان . . . نكسة يا امة المئة مليون مخدر ، المئة مليون

مهزوم من المحيط الى الخليج ، امجاد يا عرب امجاد طيلة الاعوام الماضية ، وما حدث خلال الايام الثلاثة هو مجرد نكسة . . . نكسة يا كتاب هي الكلمة التي تقرر طرحها في سوق تخدير المواطن العربي . . . حسنا يا سادة . انها ليست هزيمة جديدة ، لانها استمرار للهزيمة التي ظللنا نعيشها باستمرار منذ عشرين عاما .انها ليست هزيمة ان نوقف اطلاق النار ولكنها هزيمة للشعب ان يحدث ذلك بينما كل فرد يتحرق للقتال ، والدولة التي أوجدها اصلا لتنظمه تخشى على نفسها من تسليحه . . .

انها ليست هزيمة بالمعنى الكمي والعددي ولكنها هزيمة الشعوب العربية امام حكامها ، وهزيمة الحكام عن فهم رغبات الشعوب والتعبير عنها . . . (رقابة)

الاسرائيلي مدقوق كالحربة في صدر المسجد الاقصى (رقابة) ، ولكنها هزيمة لان مئتي الف جثة عربية فقط سقطت . وهزيمة لان ذلك قد حدث رغم ان بين المئة مليون عربي من هو على قيد الحياة . . . .

انها ليست هزيمة ستة ايام من الحرب ، ولكنها هزيمة اكاذيب عشرين عاما من استعباد الشعب العربي بحجة الاستعداد للحرب . . .

(رقابة)

لم يعد يهمنا كثيرا ان كان ذلك يجري بحسن نية او بسوء نية المهم ان ذلك يجب ان يتوقف ، توقف مظاهر الحرب الخطابية والاستعراضية كلها . . .

فهي وحدها هزيمتنا الحقيقية . . .

نعم انها ليست هزيمة مئة مليون امام مليونين خلال ايام ثلاثة . . . ولكنها هزيمة الفكر العربي الذي طالما كافح طيلة عشرين عاما ليحذر منها ، انها هزيمة المثقف وانتصار الانتهازي . . . . هزيمة التخطيط وانتصار الارتجالية . . .

نكسة ؟ . . . نعم ،نكسة لحالة الحرب . . . ومن الضروري هذه المرة ان لا نتخدر ،وان لا « تهزم » ذاكرتنا ،وان لا « يهزم » حسنا بالهزيمة . . . ومن اجل ذلك يجب ان نناضل ضد منطقنا الاعلامي التقليدي الذي استطاع ان يجعل من هزيمتنا هزيمة فريدة في تاريخ العالم ،حولها الى نصر ،الى اكتشاف ما سبق ان اكتشفناه عام ١٩٤٨ . . .

وهي ليست هزيمة لانها هزيمتان . . واحدة في الداخل واخرى على الصعيد

الاعلامي الديبلوماسي . . . ان اكثر افراد الهيئات الدبلوماسية العربية لا يمثلون سوى وجه الهزيمة . . . ان اكثرهم يجهلون لغة البلد الذي يفترض ان يمثلوا دولتهم فيه ، والمبرر الوحيد لوجودهم هو رغبة الدولة في ابعادهم الى الخارج (على نفقة اموال الشعب) من اجل الحفاظ على (النظام !) . . . وهو في اقطار اخرى مظهر من هزيمة (الحكم) امام المتسلطين والمتنفذين والتوصيات بتعيين ابن البيك الذي يريد ان يسوح موظفا في السلك الديبلوماسي كأن السفارة شهر عسل مجاني . . . آلاف الامثلة التي لا يتسع المجال لحصرها . . .

كلمات اخيرة قبل ان تفوتني الطائرة . . . دفعني حظي العاثر الى الاطلاع على ما دار في مؤتمر وزراء الخارجية العرب . . .

لقد اثبتوا انهم من (السعداء في الارض) اذ ان النكبة التي بدلت اي فرد عربي - حتى الاميين منهم - لم تبدل شيئا من اساليبهم ومواقفهم . . . الامر الذي سيدفع بالشعوب (التي صار وعيها - للاسف - وقدرتها على استيعاب الامور فوق وعي حكامها وانظمتهم المختلفة) ، الى الثورة والى تمزيق الوجوه التي تزيف وجوههم . . .

قبل ان يحدث ذلك . . وكي لا يحدث ذلك . . .

اقترح ان يعين لكل مسؤول عربي سكرتير من الذين شوهت قنابل النابالم وجوههم . . . كي تطالعهم النكبة في كل لحظة ولا ينسون . . .

نحن الذين ندفع رواتبهم ضرائب لا نريد اكثر من ان نختار ممثلينا لديهم . . . ان رؤوسنا من الداخل قد احرقتها النكبة كوجوه اولئك الذين احرقتهم من الخارج .

اوقفوا هذه الاناشيد الحماسية المهترئة ، صارت تذكرنا بتاريخ طويل من الهزيمة ، ومن وهم الحرب . . .

نريد تنظيما وعملا ووقائع . . .

نريد . نريد ان لا يعتبروا المظاهرات المجنونة مظاهر غوغائية فقط . نعم ، انها كما اعتبرها المثقفون (فضيحة) ، لكنها تعبير عن فضيحة اكبر . . . فضيحة الحكم الذي يتجاهل رغبات الشعب الحقيقية . . . ولا ينظم طاقاتها في عمل ايجابي ، فتنفجر هكذا هوجاء مدمرة . . .

واذا ظلت الوسائل الاعلامية العربية كلها مصرة على استغبائنا ، فانني اقترح مظاهرة صامتة من نوع جديد .

مظاهرة من المحيط الى الخليج نحمل فيها بصمت كل مذياع لدينـا ونسير في جنازة الاعلام العربي ونرمي بها في البحر !!

انه التعبير السلمي الوحيد عن (هجرنا الفكري) لوسائل اعلامنا التي لم تعد على مستوى المعركة وعلى مستوى وعي الفرد العربي العادي . . .

لندن ١/ ١٢/ ٦٧

الحــرب الاعــلامية

ذلك الصباح الحزين ، حاولت ان اشرب بيروت بعيني عن بعد آلاف الاقدام في نظرة وداع اخيرة . ورأسي المثقل بفجيعة الحرب ـ المأساة ، سقط داخل محرك الطائرة المتجهة بي الى لندن . . . ومع هدير الشفرات الوحشية كنت اسمع من جديد عشرات الحكايا عن موقف الاوروبيين العدائي منا خلال فترة الحرب . . . عشرات الحكايا المؤسفة .

(في المطار ، سيقلب الموظف اوراقي ، ثم يصرخ بهلع شامت : عربية . . وبسرعة ، ستكرر الصرخة اصوات اخرى وتتناقلها عبر ممرات المطار وقاعاته الشاسعة كما تتناقل القبائل البدائية صرخات الحرب . سيقفز الموظفون عن مكاتبهم ، ويرمي رجال الشرطة بقبعاتهم ، والمسافرون بحقائبهم ، والمضيفات باقلام حمرة الشفاه ، وسيركضون جميعا متدافعين . يلتفون حولي . تقرع الطبول . تتعالى ضحكات الشماتة والاشمئزاز . وسيدهشهم انني ابدو مثلهم رغم انني واحدة من المئة مليون مهزوم « بدائي نازي » ، امام مليوني ونصف « حمل مسكين » ! . . سيجرونني من شعري في الشوارع ، وعبثا سافتح فمي لاقول لهم اشياء كثيرة . . . لاقول لهم ان هنالك حقائق كثيرة يبدو ان احدا لم يقلها لهم ، وانهم يجهلون مأساتنا ، وان حكايتنا لم تنته الآن ، وانما بدأت . . . و . . . ولن يسمعني احد) . . .

لم يحدث ذلك في المطار .

قلب الموظف اوراقي بلا مبالاة روتينية . قرأ طالبة في جامعة لندن بلا مبالاة . قرأ عربية بلا مبالاة . سألني فقط : كم معك من النقود ؟! . .

ورأيت وجهه يستحيل الى خريطة بريطانيا ، وفوق مدنها تتفتح شفتاه ، تقولان للعالم كله : نقود . . . نقود . . . مصالح . . .

تلك العبارة ربما كانت تلخص ببساطة الموقف الرسمي لاحفاد بلفور سياسيا . . الحقيقة الاولى في قاموس حضارتهم الآلية ذات الماضي الاستعماري هي مصالحهم . . . الحقيقة الانسانية ليس لديهم ما يدعوهم لتجنيد فرقة للبحث عنها وابلاغها لافراد الشعب . . . ولكن ، ماذا عن شعوبهم ، وشعوب العالم كلها ؟ . . .

ماذا عن ملايين الامريكيين الذين تظاهروا ضد سياسة حكومتهم في فيتنام ؟ . . .

ماذا عن آلاف الفرنسيين الذين وقفوا ضد سياسة بلادهم في الجزائر لانها ليست انسانية ؟ . ماذا عن آلاف الاحرار في اقطار العالم ؟ . . . ما موقف الضمير الانساني من الشعب الفلسطيني الذي تتم ابادته باستمرار بلا اي مبرر سوى شريعة الغاب ؟ . . .

عن مهرجان السخرية والشماتة في المطار كنت اتحدث . بالضبط ، عن المهرجان الذي لم يقع . . . ولكن .

طيلة الأشهر الخمسة التي قضيتها في لندن ، كنت ككل عربي هناك اواجه مهرجانا من السخرية والشماتة . . . والجهل التام بحقيقة القضية الفلسطينية ـ العربية . . . وكنت ككل عربي آخر هناك ، اتمزق وانا اسمع صوت اسرائيل محشورا في كل مكان يزرع الاكاذيب في كل مجال . . أما نحن . . يا نحن . . .

حرب أخرى نخسرها باستمرار

قبل ان تقوم اسرائيل بحربها العدوانية ، وبينما كانت تهيىء ادوات دمارها وتحشو بالنيران طائراتها ، كانت ايضا تتابع حربا اخرى مسرحها ليس فلسطين وانما قلوب الشعوب الاوروبية وعقولهم ، انها الحرب الدعائية . .

واذا كانت الحرب العسكرية قد نشبت وانتهت خلال ايام سبعة ، فان حرب اسرائيل الدعائية لم تكف لحظة واحدة قبل ١٩٤٨ وبعدها . . وانما اشتد وطيسها قبل العدوان الاخير لتهيئة الجو النفسي لدى الاوروبيين ، وبلغت ذروتها خلال الحرب وخلال الاسابيع التي تلت العدوان . . .

واذا اختلفت الآراء حول اسباب خسارتنا للجولة العسكرية الاخيرة ، فان سبب خسارتنا الدائمة للحرب الدعائية المستمرة لا يحتاج الى تحليل : انه ببساطة هو اننا لم نخضها . واننا لا نعيها . واننا رغم صحونا الاخير والتفاتنا الى تقوية نقاط ضعفنا العسكرية ما نزال نهمل تماما حربنا الاخرى ونجهل اهميتها ومدى خطورتها . .

تلك الحرب الاخرى التي لم تكف لحظة واحدة منذ ١٩٤٨ ـ وقبل ذلك ايضا !ـ والتي مسرحها قلوب ملايين من افراد الشعوب الاخرى وعقولهم ، لم نعد لها شيئاً حتى اليوم ، ولم يبد في سياسة اية دولة عربية ما يدل على وعي خطورة تخلفنا الدعائي ، او اية نية عملية لمواجهة اسرائيل في هذا الميدان الفكري والانساني ، رغم صيحات العديد من المثقفين وتحذيرهم من نتائج هذا الاهمال .

قبل الحرب العدوانية الاخيرة ، كنا نمر بمظاهر الدعاية الاسرائيلية بما يشبه الاستخفاف ، والدهشة من وقاحتها في تزييف الحقيقة ، واحيانا بالغضب والمرارة . . .

كان في اعماق كل منا ايمان فطري بان الحقيقة ربما ولدت خرساء ولكن لا يمكن طمسها ، وان منطق التاريخ هو دوما بالنتيجة مع الحق لا مع القوة . .

حتى كانت الحرب الاخيرة ، حيث بدت مظاهر تحيز الشعوب الاوروبية ـ حتى الشعوب ـ الى اسرائيل بشكل واضح وعلني بعد ان كنا نظن ان الامر مقتصر على محترفي السياسة الاستعمارية من الخبراء في امتصاص دماء الشعوب . .

ولم يعد بوسعنا ان نمر بمظاهر الدعاية الاسرائيلية الفعالة بذلك الاستخفاف القديم بعد ان حصدنا نتائجه ، كما ان ايماننا العتيق بان الحقيقة ازلية وخالدة تبدل الى يقين بان الدفاع عن الحقيقة هو ما يجعلها ازلية وخالدة وان من اهم مظاهر الدفاع عنها هو ايضاحها . . .

بعد الهزيمة ، صار للدعاية الاسرائيلية طعم آخر . . صار اي طالب او تاجر عربي في اوروبا يصطدم بها ، يعي خطورتها ويحس امامها بما يحسه جندي في ساحة معركة يعرف ان الرصاص ينهار عليه من كل جانب ، وهو اعزل . . .

والكلمة التي كانت من معجزاتنا العربية ، نعجز اليوم عن ايصالها ، وتقف عقول مسؤ ولينا قاصرة عن ادراك مدى خطورتها . . . واذا كنا جميعا هنا نعرف حكاية الحرب الاخيرة لحظة بلحظة ، واذا كانت عشرات الصحف قد ابدعت في وصفها وشرحها ، فان هنالك صفحات مطوية عن الحرب الاخرى (الدعائية) والهزيمة الاخرى ما يزال هنالك المزيد ليقال عنها . .

قبل ان تنشب الحرب الاخيرة العسكرية ، وبينما كان الموقف العربي ـ الاسرائيلي ينذر بالانفجار ، اضيئت واجهات مخازن « سلفريدج » الثلاثون بمناسبة اسبوع اسرائيل . .

ومخازن سلفريدج تقع في قلب لندن ، وهي من اوسع متاجر اوروبا واشهرها . . .

ورأينا يومها نجمة اسرائيل تضيء جدران المخزن المطل على « شارع اوكسفورد » ، اهم شوارع لندن التي لا بد ان يمر بها اي سائح ، ورأينا يومها سيوفنا العربية تباع باسم اسرائيل . . . وفنوننا في النحت والزخرفة ، وخشب زيتوننا وبرتقالنا يباع باسم اسرائيل . . .

وقرر بعض الطلاب الاخوة العرب : سوف ننسف سلفريدج . . .

وكالعادة ، لم يحدث شيء ، وباعت اسرائيل حضارتنا للعالم على انها حضارتها . .

هذا ، عـدا آلاف الكراسات التي كانت تـوزع ، الحفـلات الدعائيـة التي كانـت تقام ، وكل ما فيها يهدف الى اثبات شيء واحد : ان اسرائيل هي وحدها أمل الحضارة الانسانية في تلك البقعة الهمجية البدائية من العالم والتي تدعي بلاد العرب . . .

انتحارنـا الدعـائي

ربما كانت اقسى الاسلحة الدعائية التي صوبتها اسرائيل نحو صدورنا من صنعنا نحن . . .

الحقيقة مفجعة . . اقسى ما فيها هو انه لا مفر احيانا من ان نقولها . .

ان ضيق نظرنا الدعائي ، وهوسنا الغوغائي ، باية كلمة تصور عداءنـا لاسرائيل مهما بلغت من السـطحية ، وتسليم شؤ ون الاعـلام الى ايدي الموظفـين وابعـاد اكثـر الاصيلين ، جعلتنا نظهر امام العالم بمظهر المعتدين المتحاملين اللا إنسانيين . واستطاعت دعايتهم الذكية ـ ولكن المجرمة ـ الانتصار على صخبنا العادل ـ ولكن الاهوج ـ .

ولما كان اكثر ما في صحفنا ينشر للاستهلاك المحلي ، لاستهلاك افراد قانعين بعدالة قضيتهم بغض النظر عن اي اعتبار آخر ، لذا وجدت اسرائيل فيما تخطه صحفنا مادة خصبة لاثبات (نازية) العرب ، وبالتالي دغدغة عقدة اوروبا امام اليهود . . .

كمثال من عشرات الامثلة التي يمر بها اي عربي تابع الصحف هنـاك ، اقتطـع صفحـة من الصنـداي تلغـراف عدد ٢ تمـوز ١٩٦٧ . . . العنـوان يقـول : « كل الكاريكاتورات العربية كانت مصممة لبث الكراهية ضد اسرائيل ! » . . .

أكتفي بترجمـة مقاطـع من المقـال دون تعليق : « في مدرسـة مهجـورة في غزة ، اكتشفت مقاطع من اسئلة حسابية تتضمن هذه المسألـة : ثلاثـة من العـرب الفـدائيين واجهوا اثني عشر اسرائيليا . قتلوا ثمانية منهم . كم بقي من الاسرائيليين ؟ » . . .

لا مفر من ان اعلق ! نعم . اننا نربي اولادنا على كراهية اسرائيل كما كان يمكن للانكليز انفسهم ان يربوا اولادهم على كراهية اسرائيل فيما لو اقامت دولتها في مقاطعة ويلز بانكلترا مثلاً . وكان من الممكن ببساطة ان نقرأ المسألة الحسـابية نفسهـا في اي كتـاب انكليزي . المأساة هي اننا عجزنا عن ايضـاح ذلك لهم . . عجزنـا عن ايصـال صوتنـا اليهم ، ـ صوتنا النازف كبرياء ـ مما جعل الدعاية الاسرائيلية تتخذ من كلماتنا ما يدمغنا بصفة المعتدين اللاانسانيين . . .

وفي الوقـت الـذي كانـت فيه دعايتنـا الاذاعية العثمانية الاسـاليب تهـزج : سندمر . . . سنحرق . . . سنقتل . . كانت اذاعة اسرائيل اللئيمة تحدث العالم بمنطق

القرن العشرين ، وكانت تذيع باختصار : رغم غارة العرب على القدس ومقتل مئة اسرائيلي فقد وضعت امرأة طفلها بسلام وسمي اسرائيل !!

لحظتها رأيت عشرات الاطفال العرب يموتون طيلة عشرات من الاعوام في المخيمات ، في برد الشتاء ولهيب الصيف ، ومع ذلك لم يسمع أحد بهم . . ورأيت احزاننا وعدالة قضايانا تكبر عاما بعد عام ، بينا تذوي قدرتنا على ايضاحها للعالم الغربي بلغته . . . فلقد كنا افشل محامين لاعدل قضية .

سؤ ال آخر ، لا مفر من توجيهه الى وسائل الاعلام العربية باكملها : لماذا منعت الصحف الاجنبية من الدخول الى بلادنا ؟ . . أليس من حق المواطنين ان يعرفوا بالضبط موقف العالم الخارجي منهم ؟ . . من تحاول الرقابة ان تحمي ؟ . . . افكارنا من اكاذيب المعتدين ؟ . . وهل بين العرب انسان واحد يشك بعدالة قضيتنا ؟ . . .

بمرارة ، تساءلت ، بصوت كان يوما بعد يوم يشتد مرارة وحنقا وفجيعة ، كلما رأيت مظهرا جديدامن مظاهر دعايتهم المتقنة . . .

حكايــة اسرائيــل

منذ اللحظة الاولى كانوا هناك . . . ففي الباص الذي اقلني من المطار الى لندن ، واجهتني اللوحة الاولى من صور دعايتهم العدائية . . .

اعلان عن فيلم اسموه : « تاريخ اسرائيل » . . . تمثيل : النجم (المحبوب) توبول . . .

وبعد ايام ، كنت اقف امام باب اكبر دار للسينما في حي « هولبورن » الذي يتوسط لندن ، لاحجز مقعدا في فيلم حكاية اسرائيل . . . وكان تهافت الناس لمشاهدته لا يصدق ، ولم لا ، وعلى جدران الشوارع ، وفي دهاليز المترو ، الصقت الاعلانات المناسبة ؟ . وأهل لندن ، اكثرهم ، يجهلون كل شيء لا يمت بصلة الى فراشهم وطبقهم وبوليصة تأمينهم ، وهم راغبون في سماع انباء تلك الحرب الاخيرة بين اسرائيل (المتحضرة) واقوام الف ليلة وليلة !

وخلال عرض الفيلم ، شاهدت للمرة الاولى ظاهرة مذهلة ، اذ لم اكن لاصدق ان التاريخ يمكن ان يشوه بهذا الاتقان ، وان الحقيقة يمكن ان تزيف بهذه البساطة وبذلك الذكاء الشيطاني . . .

وحينما خرجت من دار السينما ، مغمومة حتى الذل ، وشاهدت مظاهرة انكليزية خرج افرادها ضد سياسة الدولة في فيتنام ، وضد سياسة اميركا الرسمية هناك ، ادركت

لماذا لم تخرج هذه المظاهرة بالذات ضد إقامة اسرائيل في فلسطين ،ومع كفاح الشعب الفلسطيني المناضل . .

كان افراد المظاهرة يسيرون بالطريقة التقليدية ، بصمت . برؤوس منكسة وشعارات مكتوبة مرفوعة ، يحيط بهم رجال البوليس ويغسل المطر كل شيء . .

وتمنيت ، تمنيت لو ان العرب طبعوا كراسات صامتة ، بدون تعليق ، كراسات تحمل صور ضحايا الاسرائيليين ، ضحايا النابالم والحقد والعداء ، ـ الصور فقط تكفي . لاركض بين افراد المظاهرة ، وازرع في ضمير كل منهم كراسا وصورة على الاقل . . . ولكن .

ولكـــن

ولكن ، في الاسبوع نفسه ، نشرت الصحف انباء فيلم جديد صوره التلفزيون في احد الاقطار العربية ، واسمه : وداعا يا بلاد العرب . .

مخرج معروف ذهب في رحلة لتصوير فيلم عن اقوام الف ليلة وليلة ، وحكاياتهم الاسطورية ، وقد فوجيء بان تلك القبائل (!!) العربية كفت عن العيش في الخيام ، وبان لديهم اليوم مدنا وحضارات كأقوام العالم كافة ، ولذا بدل موضوع فيلمه الى موضوع واقعي يصف تغير هذه الاقوام وواقعها الجديد ، وكان لا مفر من تسمية الفيلم بـ « وداعاً يا أرض العرب » يا ليالي ألف ليلة وليلة .خبر صغير نشرته الـ« ايفننغ ستاندرد » و « الايفننغ نيوز » وغيرها ، له خطورته ومدلوله ، اذ انه يعبر عن مدى نجاح الدعاية الاسرائيلية في تشويه صورتنا في اذهان شعوب اوروبا واقناعهم باننا ما زلنا قبائل الف ليلة وليلة ، خيام منصوبة وعذارى مسلوبة وجهل تام بالقيم الانسانية والحضارة ! ترى هل كان الامر صدفة ، ام حلقة من حلقات التضليل الاسرائيلي ؟

حتى صلاح الدين اغتالوه

وهل هي مصادفة أيضا ، وفي هذا الوقت بالذات ، ان توجه الدعوة الى بعض العرب المقيمين في لندن ، لحضور حفل العرض الاول لفيلم صلاح الدين الايوبي الجديد ، حصيلة انتاج انكليزي عربي مشترك ؟ . .

وهل هي صدفة أن نرى بعض الممثلين العرب ينطقون بالانكليزية كما يستعمل اثرياء الحرب الشوكة والسكين ؟ وهل هي صدفة ان يستحيل البطل العربي الكبير في الفيلم الى موظف صغير عاشق يقود حملة من اجل انقاذ امرأة اوروبية يزوجها لسواه ؟! هذا كل شيء . . اي تشويه للتاريخ ، واية عملية (ريجيم) للطموح العربي . . .

وطبعا سوف يعرض الفيلم الجرثومة على شاشاتنا ، وينزلق من بين اهداب واصابع رقابتنا التي لا تمنع الا ما يجب ان يقال بصوت عال ، وبصراحة ، وبلا مداورة . . مثلا . . . الاعداد السبعة الاخيرة من مجلة « وومنز أون » الانكليزية نشرت في قصتها المسلسلة حكاية فتاة اسرائيلية تقع في حب شاب عربي ثم تهجره في النهاية لانه دون مستواها الحضاري . . وقد سمح بتداولها في اسواق بيروت . . . وما تزال . . .

بالصمت الرهيب

. . . حتى هوايتي المحببة في لندن ، وهي التسكع امام واجهات المكاتب ، استحالت نوعا من العذاب المرير . . ليس سرا ان اقول : تم طبع ٢٠ كتابا حول الحرب العربية الاسرائيلية الاخيرة باللغة الانكليزية ، وتم توزيعها وكلها يتصدر واجهات المكاتب في لندن .

اخص بالذكر كتاب ابن تشرشل وحفيده لما لتشرشل من محبة واحترام في قلوب البريطانيين . . ولا حاجة بي للقول طبعا بان هذه الكتب كلها تتحامل على العرب وتزيف التاريخ . . . تفاصيل الكتب لا تهم . . .

كلها تدور حول حبكة واحدة . .

« الشعب اليهودي المسكين المشرد منذ ايام الفراعنة ، يعود الى ارضه الموعودة في الكتب السماوية ، ويحارب العرب البدائيين كي يعلمهم الحضارة والرقي ، ويكون منارة القرن العشرين في عوالم ألف ليلة وليلة وقبائل البدائية والجهل ! » . . .

واعترف بانني عجزت عن كبت رغبتي في تمزيق اكثرها ، واحتفظت ببعض الامثلة منها ، مثلا : تلك الصورة التي نرى فيها مشهدا مزيفا لاسرائيلي يركع خاشعا امام صورة خيمة عربية اتخذت اثناء الحرب من شاهد قبر اسرائيلي عتبة لها ! . . . ما لم تذكره الصورة ان وحشية الاسرائيليين في الحرب الاخيرة تخطت عتبات بيوت الاحياء ، ولم توفر حتى بيت المقدس . . . وما لم تذكره الصورة ايضا ان خيام اللاجئين كانت في الايام الاخيرة هدفا لقنابلهم المحرقة . . . وان حائط المبكى الذي نراهم في صورة اخرى يتباكون امامه ، صار يحق لنا ان نبنيه من المحيط الى الخليج لنبكي ضحايانا ، ولنبكي القيم الانسانية المهدورة . . .

حتى المجلات

وتم ايضا شراء اعداد خاصة من كبريات المجلات الانكليزية ، واصدارها لحساب الاكذوبة الاسرائيلية . . . من ابرز الامثلة ، « الايكونومست » التي صدرت في السادس

عشر من حزيران بعنوان « عملوها ! » . . . وبصورة لدبابة اسرائيلية تقتحم الحدود العربية . . .

اما « التايمز » فقد ذهبت الى ابعد من ذلك ، واحتفلت بالمناسبة باصدار عدد خاص حول ما اسمته بـ « حرب حزيران ١٩٦٧ المقدسة » وبيع العدد بجنيه ، ورصد ريعه لاغاثة منكوبي الحرب الاسرائيليين ! .

فيلـــم حـــي

وايضا ،

بعد الحرب بأيام عشرة ، عرض في احدى الصالات الكبرى في « بيكاديللي » فيلم تم تصويره من المشاهد الحية اثناء الحرب الاخيرة . . . وطبعا لم يكن فيه مشهد واحد من حقيقة ما يدور ، ضحايانا ، اغتصابهم لارضنا . . .

وأيضا ،

صفحات الاعلان في التايمز والاوبزرفر لم تكن تخلو من الدعوة لمحاضرة او من مناقشة حول قضية « شعب اسرائيل » . . .

اما نحن ، يا نحن . . .

لندن ١٥/ ١٢/ ٦٧

الكشتبان الذهبي

إذا كان علي ان اصف دعايتنا هنا ، بعيداً عن العاطفة والمجاملة ، فانني استطيع ان الخصها بعبارة : وهم العمل ، ـ ان لم اقل : مهزلة ـ .

وخطة المصارحة التي اتخذناها سلاحاً للبناء بعد هزيمة حزيران ، والتي بدأت تؤتي أكلها ، هذه الخطة تفرض علينا ان نقول الشيء الكثير . . .

تقليعة موشي ديان

بعد الهزيمة باسابيع قليلة . . كان يوماً مشمساً ، وكنت ما ازال شريانا مقطوعا ينزف . حزينة كالرمح المكسور . يدهشني كل صباح ان الشمس ما تزال تشرق . ولانه كان يوماً مشمساً ، خرج اهل لندن كلهم من بيوتهم ومن ثيابهم ، وتمددوا على حشائش الحدائق العامة باسترخاء . . اما المحافظون ، فقد اكتفوا بالسير في الشوارع عراة الاقدام . . .

احسست يومها انني اعيش في العصر الحجري ، عصر الذرة الحجري ، وازداد ذلك الاحساس حدة اذ ظهر اكثر الشبان ـ بالاضافة الى عريهم ـ في تقليعة جديدة : تقليعة موشي ديان . . . عصابة سوداء على احدى العينين كما يفعل موشي ديان ، والقراصنة . كان هنالك من يبيعها في ساحة التقليعات (البيكاديللي) بسعر زهيد . وحينما تحدثت الى بعضهم ، تأكدت من امر واحد : انهم لا يعرفون شيئاً عن حقيقة العرب وعلاقتهم بفلسطين وشعب فلسطين الجريح ، ولا يهمهم كثيراً اي شرح علمي مطول . . . ودعاية « اسرائيل » التي تعمل على المستويات كافة عرفت حتى كيف تتسلل الى قلوب ابناء التقليعات بتقليعة اسرائيلية . .

وكانت ترافقني يومها وتشاركني في النقاش اخت عربية من دولة شقيقة غير الدول المحيطة مباشرة « باسرائيل » (سوريا ـ لبنان ـ الاردن ـ مصر)وقد سألها احدهم بدهشة صادقة : وانت ، ما دخلك في الامر ؟! . .

لذا ، في المساء ، حينما دعاني بعض الاصدقاء العرب لحضور عرض لفيلم مصري ، يكون شاهدا على تقدمنا الفني ، ويرصد ريعه لاغاثة اللاجئين ، غمرني فرح

حقيقي . .

ولم أسأل من نظم حفلة العرض . . الاسماء لا تهمني . . . ما سيدور هو وحده ما يعنيني . . .

ومنذ البداية ، حز في نفسي مكان عرض الفيلم ، فقد ذهبوا بي الى سينما صغيرة جدا وثانوية جدا في منطقة (نوتنغهيل جيت) ، في حين يعرض الفيلم الاسرائيلي في (هولبورن) قلب لندن وفي احدى كبريات دور العرض. ولكنني غالبت هذا الشعور وقررت : المهم ان نبدأ ، ان نجمع شتاتنا ونعمل .

ثم علمت انها حفلة عرض واحدة (الفيلم الاسرائيلي ظل يعرض طيلة اشهر ثلاثة) .

ومع ذلك قررت « ان اشعال شمعة واحدة خير ألف مرة من لعن الظلام » ، وتلفت حولي احصي المدعوين الاجانب متمنية ان يكون عددهم كبيراً . . واغبط نفسي لانهم سيرون شيئاً ما ينم عن رقينا . . .

العيــــب

وكانت المفاجأة المؤسفة حين عرض الفيلم . . .

كان فيلم « العيب » فيلم عتيق من بطولة فاتن حمامة . . . وكان عرضه « عيبا » في لندن بالذات ، وفي هذه الظروف ، ولتلك المناسبة . . .

احداث الفيلم كلها تدور في الريف المصري قبل الثورة ، وتبرز الجو اللانساني من الجوع والفقر والمرض الذي يعاني منه الفلاحون وضمن هذا الاطار تتحرك فاتن حمامة ، الفلاحة الجميلة ، ويغتصبها رجل ما بينما هي متزوجة ، وتحمل ، ونقضي الفيلم مع المتفرج الاوروبي ونحن نلاحقها ويشاركنا المطاردة اهل القرية منذ اول الفيلم الذي يفتتح بجثة طفل وليد مخنوق ومرمي في الغيطان . . . ونختتم الفيلم بصراخ وزعيق فاتن حمامة (سولو) بعد ان شاركها كورس القرية في الزعيق طوال الفيلم . . ورغم ان في الفيلم محاولة مستمرة لرفع هذا الموضوع العادي والتقليدي للسينما المصرية الى مستوى فني فيه شيء من الجدة والخلق ـ تصويرا واخراجا ـ الا انه بينما تهبط الستارة ، يقول الراوي بصوت تقريري مسرحي : كان هذا حال مصر قبل الثورة ، ثم جاءت الثورة . . . وتبدل الحال . . . نعم تبدل الحال . المفروض ان يشاهدوا كيف تبدل ، لا ان نقرر لهم ذلك خطابيا . . .

المهم ، طوال عمرنا ونحن راضون بفظاعة السينما العربية بصورة عامة ، على امل

ان تكبر ، وهذا الفيلم أفضل بكثير من سواه ، ولكن عرضه فى هذا المجال يدل على سوء تقدير لا حدود له . . .

فمن نكات الفيلم المفضلة ، مشهد الباشا الذي يضرب خادمه على وجهه كلما حيره امر جثة الطفل الوليد . . . المفروض انها نكتة . . . وقد اعتدنا ان نضحك على مثل هذه الحركات التهريجية ، لكن المتفرج الاوروبي لا يستطيع ان يرى في المشهد سوى جنحة واهانة انسانية ومن المفروض ان يقاضي الخادم سيده ويطالبه بتعويض لاهانته ، فالخادم هناك موظف ، ويتقاضى راتبا محترما بالاضافة الى تمتعه بالحقوق الانسانية التي يتمتع بها كل مواطن . .

ثم مشكلة الفيلم الاساسية لا يستطيع المتفرج الاوروبي ان يعيها اذ ان (العلاقات الجنسية ونتائجها) لا تشكل لديه مشكلة بالطريقة التي تشكلها لدينا . . اي ان اسلوب نظرته الى الجنس (والحمل سفاحا) وعلاقة المجتمع بذلك يختلف تماما عن نظرتنا ، وبالتالي فهو عاجز تماما عن تحسس مشكلة الفيلم ، والفيلم لا يفعل شيئاً لايضاح جذور وجهة نظرنا بشكل يجعل جدة النظرة وغرابتها مثيرة للمتفرج الاوروبي ، وانما على العكس ، نجد التفسير الوحيد الذي يرد به على فضول الاوروبي هو زعيق فاتن حمامة طوال الفيلم .

وقد خرجت يومها من قاعة السينما فرحة لانها صغيرة ، ولان العرض لم يدم سوى ليلة واحدة ، ولان عدد المتفرجين الانكليز كان قليلا جدا ، وغاضبة حتى الانفجار من سوء التصرف هذا . . ففي الوقت الذي تنجح فيه الدعاية الاسرائيلية حتى على مستوى التقليعات نفشل نحن في تنظيم امسية واحدة صغيرة ومحدودة . . .

ورغم ان القصد من الدعاية العربية في اوروبا هو الوصول الى قلوب وجيوب الاوروبيين اولا لا العرب ، مع ذلك سررت ليلتها لان اغلب الحضور كانوا من العرب ! . .

وحينما التقينا امام باب السينما حول احد المسؤولين عن تنظيم الامسية ، كانت اجوبته تثير مزيدا من حزننا ، اذ كانت تلخص المنطق الذي كان سائدا قبل النكسة (انتم العرب تنتقدون كل من يعمل . . . لا لم يشاهد احد الفيلم قبل عرضه . . . لقد طلبناه من القاهرة ، وجاءنا من المسؤولين) ثم سألنا بلهجة شبه تهديدية :(الا تعرفون من اشرف على هذا كله ؟ وذكر لنا اسم ملكة عربية سابقة) . . .

الذى اعرفه هو ان عرض هذا الفيلم في اي بلد اوروبي غير ضروري وكان من

الحكمة استبداله بسواه . إلا على صعيد المهرجانات السينائية لا السياسية .

والذي اعرفه هو ان هذه الحادثة بالذات جعلتني افتقد تنظيا (رسميا) في دعايتنا العربية ، لاتفاهما (عشائرياً) كما هو حاصل . . . في حالة التنظيم ، يكون هنالك مسؤول ، ونظام واضح للعمل وخطة موحدة ، ورصيد مالي . . . وامكانية النقد دون تجريح للأشخاص ودون منة منهم علينا . . .

اننا بحاجة ماسة الى الوضوح ، والى النظام ، والى تناسق القوى العاملة بدلا من تصادمها الذي يؤدي غالبا الى تقوقع الكثيرين استياء من اسلوب العمل رغم ايمانهم باخلاص القائمين عليه . . . كما ان ذلك ايضا ينقذ الكثيرين من خدر الاحساس (بوهم العمل) . . . اذ انه ليس المهم ان نتعب وان نقنع انفسنا باننا قمنا بعمل ما ، المهم ان نصل الى النتيجة المرجوة قوميا دون ان نبدد طاقاتنا في شرود استعراضي لا مبرر له الا ارضاء غرورنا الفردي . .

ولا شك في « ان اشعال شمعة خير ألف مرة من لعن الظلام » وحتى (محاولة اشعال شمعة) خير ألف مرة من لعن الظلام ، ولو احرقت المحاولة بقايا اهدابنا ، ولكن خير من هذا كله ان نفهم لماذا احرقت اهدابنا ونتجنب ذلك ، وان نفكر خلال اشعال شموعنا بكيفية تبديد الظلمة نهائيا ، وكيف نلهب من جديد شمس حضارتنا وسيادتنا . . . فالايام تسير بسرعة . . . وهم يعملون بسرعة . . . بحذق . . .

ننشده دون أن ندري

ان النشيد الوطني الاسرائيلي صار على كل شفة ولسان دون ان يعرف اكثر الناس انه نشيد « اسرائيل » . . . وربما سمعه اكثرنا في مقاهي اوروبا ومطاعمها ، تعزفه الاوركسترا وينشد معه الساهرون والشاربون دون ان ندري . . .

اذ بعد خروجنا الغاضب ، عرجنا على اول مطعم نتابع نقاشنا ، ونظر الينا الزبائن بعيون حالمة مدهوشة ونحن ندخل سحابة من الصراخ والحماس ، ونفسد عليهم الاستماع الى عازف البيانو المنفرد . . . كان يعزف اغنيات اوروبية شعبية معروفة ، ويشاركه الحاضرون في الغناء . . وبعد قليل ، انتهى نقاشنا اذ اتفقنا ان ليس من العدل ان نسكب غضبنا الكبير لهزيمتنا الكبيرة على حوادث جزئية فرعية وان الانسحاب خطأ كما ان الصمت عن النقد خطأ . .

وفي محاولة مني لتغيير موضوع النقاش ، التفت الى جيراني على المائدة المجاورة ، اسألهم عن اسم اللحن الذي ينشده الجميع ـ وقد ميزت فيه لحنا سمعته مؤخراً بكثرة

وبصورة خاصة في مطاعم باريس - واجابني صوت : انه النشيد الاسرائيلي . . . جميل . . . أليس كذلك ؟ ! . .

لندن بعد النكسة

واذكر انني عشت الاسابيع التالية ، تمزقني رؤ يا جديدة للندن . . . صرت حذرة وعدائية وبدأت ارى الاشياء في ضوء جديد . . ساحاتها الواسعة الجميلة ، حدائقها ، متاحفها الرائعة ، مسارحها النابضة ، مستشفياتها العملاقة ، كل هذا صار يذكرني بالذهب المسلوب من شعوب اخرى ، وصرت احس امامه بالخجل امام تحف مسروقة . . .

حتى مسلة كليوباترة المنصوبة على شاطىء التايمز والتي اهديت منذ حوالى مئة عام الى لندن ، ونصبت هناك ، صرت احزن حين امر بها .

وذات ليلة ، سمعت احد المذيعين يتحدث عنها ويقول ان طقس لندن لا يناسب (المسلة الاثرية) ، وانها خلال مئة عام في لندن لقيت من الصقيع والمطر ما افسدها اكثر مما حدث لها طيلة ثلاثة آلاف عام في الصحراء المصرية مسقط رأسها . . . وحزنت من اجل (المسلة السلبية) ، وحلمت ليلتها بانني وآلاف الايدي نقتلع المسلة لنطير بها الى الصحراء . . .

وحتى نهر التايمز الذي طالما احببت حمرته الشاحبة حمرة الغروب واضواء الاعلانات على جانبيه ، بدأ يساورني شعور موجع بان دماء عشرات الشعوب التي اضطهدت طيلة سنين هي التي تسير فيه . . . وتلونه . . .

الكشتبان الذهبي

وكنت مغرمة بالاشياء الجميلة في حي (الماي فير) ، مغرمة برؤ يتها ، اشعر انني بحبي لها امتلكها وهي خلف الواجهة في لحظة ، اكثر مما يمتلكها اي مشتر لامبال بدقة فنها . . وحتى الاشياء الجميلة صرت اراها من زاوية جديدة .

كان هنالك (كشتبان) ذهبي في دكان احد الصاغة ، صنع بدقة مذهلة ، كان قطعة فنية قائمة بذاتها ، وكنت كلما ذهبت الى لندن اذهب خصيصاً لرؤ يته ، واضحك للفكرة : المرأة التي تستطيع ان تشتري (كشتباناً) من الذهب لا بد ان تكون ثرية الى حد انها لن تستعمله ابداطبعا . . . اي مهزلة . . . ثم كنت انسى ذلك كله امام جمال (الفن للفن) . . . جمال النقوش الذهبية حتى ولو كانت على كشتبان . . .

لكنني هذه المرة احسست بالذنب وانا اقف امام الكشتبان الذهبي . بالغضب .

رأيت ملايين الايدي المرتجفة تزرع الخيوط في القماش في عتمة الليالي واصابعها المعروقة تنزف تعبا وارهاقا ، وفقدت القدرة على رؤ ية نقوشه ، رأيت فيه ذروة (البطر) وعدم وعي الصائغ باي معنى للالتزام الانساني . . . وانها جريمة ان يصنع فنان شيئاً كهذا بينا يموت ملايين الناس في الهند جوعا ، ويموت آلافهم في بلادي تحت الخيام تشردا واضطهادا واستغلالا . . .

كانت فترة غريبة من حياتي صرت فيها عدائية حتى الاحتقار لاي جمال فني ما دام ناتجا عن موقف استغلالي او نتيجة لاضطهاد اي فريق من الناس أو اي شعب . . .

حتى جواهر التاج البريطاني الذي تتوسطه اكبر ماسة في العالم واسمها نجمة الهند وهي جميلة وساحرة واحبها كأنثى . . . تمنيت لو تختفي ذات ليلة من قفصها الزجاجي في برج قلعة لندن حيث تحرسها فرقة اسطورية من المعدات الالكترونية والجنود التقليديين ، ثم يجدها الناس ذات يوم داخل عين نبي جديد يمنح (الانسان) الممزق طيلة آلاف السنين ، سلاماً وعدالة ومحبة .

وفي واجهة محلات (هارودز) حيث تشتري الملكة واثرياء اوروبا والعرب ثيابهم ، رأيت من جملة ما رأيت ، رجلا وسيا (تمثال رجل لعرض الثياب) وقد وقفت عاملة تزيين الواجهة تضع عليه معطفا من الفرو وعليه الثمن ـ الف جنيه ـ ثم قبعة من الفرو ايضا وثمنها مائتا جنيه !! . . . وشعرت بشيء من الاشمئزاز وبرغبة غريبة في ان اطلق النار عليه !! . . كيف نصنع شيئاً كهذا وفي العالم انسان واحد يموت بردا ؟

أدب « الكشتبان الذهبي »

وصارت الاحداث تتساقط بسرعة على عيني . ربما صارت لدي حساسية خاصة لالتقاطها ، وبالتالي اشتد وعيي بها وزاد الالم توترا . . . كانت الاشياء تلاحقني كيفما تحركت . . .

في المطعم ، البرتقال يحمل اسم (يافا ـ اسرائيل) . . في البريد ، هدية من صديق فيها الكتاب الجديد الذي صدر مؤ خرا لشاعر لبناني كبير جدا كنت اتذوق شعره واعجب به كثيراً ، وعجزت هذه المرة عن اكمال قراءته . . كان ينتمي الى عالم آخر غير عالمنا المتوتر المفجوع الحائر . . مجرد كلمات جميلة جدا متقنة النحت ولكنها بعيدة عن عصرنا وعن قلوبنا . . لا يحمل في طياته العطرية ولياليه المحذلقة شيئاً من نزف ليالينا أو جوابا على اسئلتنا . . . كان كالكشتبان الذهبي الذي رأيته في مخزن الصائغ . . . وكان احساسي امامه بالضبط كاحساسي امام الكشتبان الذهبي . . هذا الكلام الذهبي المنحوت بمعزل عن

صراخ الجماهير في الشوارع ومآسيها ، وكل ما استطيع ان اقوله هو اننا لم نعد نريده . . لم نعد نتذوقه . . . ونرفض تخدير (ما فيه من الجمال) لوعينا بما (في العالم من القبح) والظلم . . . ونريد الحقيقة . . .

في الجامعة حيث أدرس ، اهداني استاذ عربي مثقف فعلا ، اهداني باعتزاز كبير النسخة الاولى من كراس كتبه بالانكليزية حول شاعر جاهلي اتم تحقيق شعره واظهر ما بطل من اكاذيب الرواة فيه ! . . . لم اقل له شيئاً اذ كان لدي الكثير اقوله . . .

ثم ، حتى لو اراد ان يكتب حول شيء آخر ، حول مأساة فلسطين مثلا ، حول شعر محمود درويش الشاعر الفلسطيني الكبير السجين في « اسرائيل » ، حتى لو اراد ذلك ترى هل كانت مطبعة الجامعة ترضى بنشره ؟ . . . ولو تحدى ، ماذا يحدث له ، وهو الفلسطيني الاصل ، الشريد ؟

أمجاد يا عرب أمجاد !

وحتى نادي (البلاي بوي) اي (الدونجوان) الشهير ، القائم في افخر احياء لندن مقابل الهايد بارك ، اذكر انني ذهبت اليه قبل الهزيمة فأثار غضبي (كأنثى) لأن مضيفاته شبه العاريات يرتدين ثيابا لها (اذناب) صغيرة مثل الارانب ، وقبعات لها آذان بشكل آذان الارانب . . . احسست في ذلك نوعا من التشويه غير الانساني لشكل الانثى ، وعرضها عمليا بصورة حيوان أليف كثير التوالد هو (الارنب) . . . وقررت انه ليس في نادي (البلاي بوي) كله بلاي بوي واحد حقيقي ، لان الرجل الحقيقي لا ترضي رجولته غزوات في كهف نساء ارانب . . يدخله ببطاقة على شكل مفتاح كرتوني ويدفع ثمن هذا (المفتاح) مقدما . . .

اما بعد الهزيمة ، حين مررت بباب (البلاي بوي) لم اذكر من هذا كله سوى ان اكثر زبائن المكان من الاثرياء العرب ، وان نوادر كثيرة تروى عن نقودهم المهدورة على موائد القمار امام الساحرات (الارانب) ، وعن تخفي بعض الشخصيات العربية المعروفة خلف نظارتين او في ركن معتم حينما يمر من يعرفهم ، الامر الذي يحدث باستمرار . . . حتى كاد المكان يستحيل الى منتدى عربي لصرف (الممنوع من الصرف) . . . وان النقود العربية التي تخرج من تحت ارض العرب وتصب في بالوعة (البلاي بوي) تكفي بلا شك لشراء محطة اذاعة تلفزيونية في اوروبا او جريدة نُسمع العالم من خلالها صوتنا . .

وربما كان من سخرية القدر (او جهلنا) ان المطعمين العربيين اللذين يقدمان

اطعمة عربية واغاني عربية ، ويجتمع فيهما الطلاب العرب باستمرار واسمهما « سورايا » و« سارابيا » يمتلكهما صهيوني ، وصهيوني جدا !! والاغـرب من ذلك ان الصحف والمجلات العربية تباع في « سورايا » الواقع في (غلوستر رود) في منطقة كينسنغتون حيث يقيم اكثر العرب . . . ترى هل يتعمد اليهودي بيعها لهم ؟! . . وهل هو بعيد النظر بما فيه الكفاية بهذا الخصوص ؟! وهل يجد صراخنا الخطابي وحماسنا المحلي من نوع غناء وصراخ الاطفال الخائفين في الظلمة ؟ . . متى يقاطع العرب هذه الامكنة الموبوءة !

ما تزال الشمس تشرق

ورغم فترة الغضب واللاثقة هذه ، كان يعزيني من وقت الى آخر ايماني بانسانية الانسان في كل مكان . . . الانسان الطيب العادي الموجود في كل زمان ومكان . . وقد التقيت مثل هذا الانسان كثيراً في لندن نفسها . . . في مظاهراتنا الطلابية ضد العدوان الاميركي على شعب فيتنام ، وفي شخص ساعي البريد العجوز مثلا ، والذي كان اول نسمة انسانية ترطب نوبتي العدائية المحمومة . . فقد اعتاد هذا الانسان الطيب لهفتي على الرسائل القادمة من اصدقائي في مختلف الاقطار العربية . . فهي ـ مهما كانت مشحونة بالاخبار الحزينة ـ تعيدني للحظات الى عالمي الغالي رغم كل ما فيه . كنت الوحيدة في البناء الكبير التي لا تتذمر كلما ايقظها لاستلام رسالة مسجلة في لحظات الصباح المبكرة . . وهكذا صار يوقظني لاستلام اية رسالة ، مسجلة كانت او غير مسجلة . . ويحدثني عن الطقس والحرب العالمية الاولى التي خاضها وسباق الكلاب واحفاده . . وكنت انتظر رسالة من صحفي ليبي ووطني كبير دخل السجن الملكي بسبب مقال كتبه بعد الهزيمة وكان يكتب لي من السجن ، ويتولى اصدقاؤه ارسالها بالبريد من روما او من اية عاصمة اخرى . . وكان يلحظ كل يوم انني اقلب الرسائل بحثاً عن رسالته ، وحينما لا اجدها يشتعل وجهي كآبة . . واهمل حديثه عن الطقس والحرب العالمية الاولى وسباق الكلاب واحفاده . . .

ذات يوم ايقظني جرس الباب كالعادة . هبطت السلم الطويل مسرعة . وهنـاك وجدت ساعي البريد العجوز بوجهه الانكليزي البارد يقول بهدوء ومحبة : لا رسائل لك اليوم يا سيدتي !! آسف . . ثم ناولني عن الارض زجاجة الحليب التي تركها بائع الحليب ومضى وهو يقول : طقس جميل . . . وكانت تمطر طبعا . . .

وفي مداعبته الطيبة ، رأيت آلافا من البسطاء مثله ، الذين تسرق قلوبهم كلمـة طيبة . . . وفكرت : كم من الآلاف البسطاء امثاله الذين لا مصـدر لاعلامهـم سوى

صحفهم التي يثقون بها بلا مناقشة ، تسرق قلوبهم الدعاية الاسرائيلية التي تسرح وتمرح . . .

بالمناسبة ، غادرت لندن وصديقي الليبي البطل ما يزال في السجن من اجل كلمة صادقة قالها . . . اذا كنا في بلادي نغتال الكلمة الحرة ونخشاها ، كيف ننتظر منها ان تكبر ذات يوم بما فيه الكفاية لتكتسح العالم . . وتمنح ادبا عالميا يخلد ؟ وحتام تحاول السلطات الحاكمة « تدجين » الاديب ؟ .

ورغم زحام الغضب والمرارة ، ويقظة الحس العدائي ، ظللت اعي بوضوح مرير تقصيرنا ولا اجد في كل ما يدور عذرا له . . اذ اننا حتى حينما نمنح الفرص نضيعها . شهدت مثلا مناظرة تلفزيونية تلخص بوضوح حكاية الدعاية العربية والدعاية الاسرائيلية وكيف نضيع الفرص .

فقد جاء المذيع باستاذ جامعي فلسطيني الاصل يدرس في جامعات لندن كممثل لوجهة النظر العربية ، وبآخر صهيوني كممثل لوجهة النظر الاسرائيلية . . . وطرحت قضية فلسطين و « اسرائيل » على بساط البحث . . . وبدأ كل منهما يدافع عن وجهة نظره . . .

وكانت مفاجأة مذهلة ، لا للمشاهدين فقط ، بل وحتى للمذيع ، ان الصهيوني قد اصطحب معه ارشيفا كاملا من الاجوبة المعدة مسبقا ، والاحصاءات والاستشهادات ، وانه كان لا يجيب قبل ان يقلب اوراقه ويقرأ منها ويستفيد ما امكن من ـ وقت المناظرة ـ نصف ساعة دعاية مجانية لاسرائيل يمكنه استغلالها ، بينما كان الاستاذ الفلسطيني العربي يرد مباشرة بحزن وعصبية وكانت عاطفته تغلف افكاره بشرنقة من الغموض بينما كان ابداع الصهيوني في تزييف الحقائق مذهلا . .

وبدأت اعصابنا تتوتر ونحن نرقب نموذجا لما يدور في اوروبا كلها ، وفجأة ، التمعت عينا الاستاذ الفلسطيني وانفجر قائلا : بالضبط . . . ما يدور الآن هو بالضبط ما يدور بيننا وبينكم . . . طلبوا منا المجيء الى مناظرة تلفزيونية بصفتنا استاذين جامعيين ، فجئت ببساطة حاملاً صدقي ، وجئت انت ومعك عشرات من الارشيفات ، جئت انا انسانا وحيدا حرم من وطنه ، وجئت انت موظفا لدى دائرة اعلامك .

كان ذلك صحيحا ، لكنه لم يكن يكفي للرد . . والمهم ان الاستاذ الصهيوني قرأ كل ما عنده ، واستفاد من نصف ساعة دعاية مجانية رغم ضيق المذيع به ومقاطعته له (فيما بعد ، شككت حتى في صدق المذيع . . . ربما كانت كلها مسرحية لصالح « اسرائيل » من

اخراجه بالاتفاق مع الاستاذ الصهيوني) .

مرفوض كيهودي مدعوم كاسرائيلي

وكانت الاشهر التالية لا تحمل الا سلسلة لاحداث مشابهة بطريقة او باخرى . . ولو لم اكن هناك ، اشاهد تقصيرنا ، لسقطت فريسة الرأي القائل بانه لا جدوى على الاطلاق من محاولة القيام بدعاية عربية في اوروبا ، لانهم لن يفهموا وجهة نظرنا حتى ولو سمعوها . . ولانهم لو فهموا سيتظاهرون بعدم الفهم لان مصالحهم تفرض عليهم ذلك . . ولان (المصالح) هي ما يتحكم في سياستهم . . « واسرائيل » كأداة استعمارية تتفق مع دول استعمارية الماضي والمطامح . . . وكنت اجد في ذلك تفسيرا لبعض المظاهر التي طالما حيرتني . . .

فاليهودي مثلا كيهودي ، مضطهد في اوروبا بصورة عامة ، وهو امر معروف . . . وفي لندن يمنع دخول اليهود الى عدد كبير من النوادي ، ولا يسمح بدخول اكثر من نسبة معينة منهم في مدرسة واحدة ، كما انهم مادة خصبة للنكات والاضطهاد الاجتماعي . . اليهودي مرفوض كيهودي ، مقبول كاسرائيلي ، ربما لانه كيهودي يشاركهم اللقمة ، وكاسرائيلي يصبح عميلا لديهم لسرقة (لقمة) الشعوب العربية . . وهم يغطون ذلك الموقف بعقدة الاحساس بالذنب ! ويعوضون على اليهود ولكن على حسابنا . . .

فاليهود في بلادنا العربية ، في دمشق ، في بيروت ، في القاهرة ، في كل مدينة عربية عشت فيها ، كانوا يلقون دوما اطيب معاملة ، كانت لهم حقوق المواطنين وواجباتهم وكان ذلك وحده مقياس الحكم عليهم . . . كان الشعب العربي هو الشعب الوحيد الذي لم يضطهد اليهود ، وهو اليوم يدفع ثمن اضطهاد اوروبا لهم وضيقها بهم واحتمائها من حقيقة موقفها بمظهر المكفِّر عن ذنبه ! . .

ولكن ذلك كله لا يكفي سببا لاستسلامنا امام امعان اليهود في طمس الحقيقة التاريخية وخلق اسطورة « اسرائيل » ، فمسؤ وليتنا لا تقتصر على هذا العصر ، ومن واجبنا المحافظة على الحقيقة وتسليمها كاملة للاجيال المقبلة ، هنا وهناك . . . ومهما قلنا لا نستطيع ان ننفي مدى تقصيرنا في هذا المجال . . . افرادا وحكومات . انهم يفوقوننا (بتماسكهم على الخطأ) وينتصرون بذلك على (تفككنا على الصواب) . نحن نملك (اليقين) وهم يملكون (الاداة) . .

تجربة جس نبض ناجحة

وربما كانت تجربة عبد الحليم حافظ الاخيرة وفرقة رضا وفرقة الرقص الشعبي

الاردنية اكبر برهان على ان امكانية العمل موجودة لو اردنا ، واحتمالات النجاح كبيرة . . .

ففي اواخر الشهر الماضي ، اقامت جمعية مساعدة اللاجئين العرب ونشر الثقافة العربية حفلا عربيا في (الرويال البرت هول) وهو المسرح الاول في لندن الذي طالما سمع فيه الجمهور الاوروبي اروع السيمفونيات العالمية واشهر الفرق العازفة . . . والقاعة تتسع لحوالى ثلاثة آلاف متفرج . . . اشرفت على تنظيم الحفل السيدة دينا عبد الحميد وقامت بالاتصالات اللازمة كلها لتدبيره ، وهو بلا شك جهد كبير وناجح . . . فقد بيعت البطاقات كلها قبل موعد الحفل باسبوع ولم يقتصر الامر هذه المرة على العرب ومعارفهم وانما تعداه الى الانكليز المداومين على حضور (كونسيرات) الرويال البرت هول ، والى قارئي (التايمز) حيث تنشر البرامج المسرحية ، وكانت هذه في نظري من المرات القليلة التي اتسعت فيها دائرة النشاط العربي وتعدت (وهم العمل) الى عمل جيد وضروري . . .

كان الحفل ناجحا بمعاني الكلمة رغم ان جمهورنا العربي كالعادة يقرن الطرب بالشغب . . . انصت الناس الى احمد فؤاد حسن يعزف على القانون ، الآلة العربية الموسيقية الرائعة . . وصفق الجميع لالحان بليغ حمدي وبدت على الانكليز اعراض العدوى باسلوب العرب في الطرب اذ بدأت عدوى التصفيق تتسرب الى انصاتهم التقليدي البارد . . . وهز صوت عبد الحليم حافظ العرب هناك ، هز ذكرياتهم وشوقهم لبلادهم حتى الفوضى . . . رقصوا بين المقاعد الامر الذي لم تشهد له صالة الرويال البرت هول مثيلا من قبل . .

رقصوا بجنون . هتفوا . صرخوا . بكوا . كانوا بذلك كله يعبرون عن طاقات عاطفية وطنية مكبوتة ومهدورة لم تجد بعد التنظيم الذي يستوعب ويخطط ويسيطر على رغباتها ويحيل عاطفتها الهوجاء الى عمل فعال ، وبالتالي يصرف كبتها السياسي والوطني الى دروب البناء الخلاق ، بدلا من التصفيق والرقص والآهات والفوضى .

فرقة رضا كانت رائعة في رقصاتها النوبية ، عادية واقل من عادية في رقص الحريم وهز البطن الذي قدمته (يعسوبتان) هزيلتان لا هما بالدودة ولا الفراشة . . . يجب ان نتخلص من عقدة ان من واجبنا تقديم هز البطن للمتفرج الاوروبي . فرقة الدبكة الاردنية كانت ناجحة جدا بوجه عام .

والمهم انها كانت تجربة ناجحة ، وان صداها كان جيدا ، وقد حضرها عدد كبير من

المسؤ ولين البريطانيين وسمعوا صوتا من اصوات ارضنا ينطلق من بين شفتي (القانون) وعبد الحليم بصوته الحزين ينشد اغنية (القدس) . . .

وكان اطرف ما في الحفل ، هو وفد جماعة الهيبيز الذين تقاطروا على عبد الحليم مهنئين ومبايعين !!

وقد رافق هذه التجربة (اسبوع عربي) ناجح اقامته الجمعية ايضا لبيع التحف والمصنوعات والمنسوجات العربية لصالح اللاجئين اهم ما فيه بيع كتب نجيب محفوظ المترجمة الى الانكليزية ، وبيع لوحات يوسف فرنسيس الفنان المصري المعروف لصالح اللاجئين . . . وكان اطرف ما في المعرض فكرة يوسف فرنسيس التي نفذت فورا : رسم اسكتشات لزائري المعرض تباع لصالح اللاجئين . .

هذا كله كان في نظري كوة اولى نفتحها ليشهد العالم من خلالها شيئاً عنا ، ولو في دائرة ضيقة بالنسبة للمساحة الدعائية التي تغطيها دعاية « اسرائيل » وبصراحة ذلك كله جيد كبداية ، ولكنه لا يكفي . . قيمته في انه من الخطوات الاولى ، واهميته الاولى انه (جس نبض) للغرب يثبت امكانية وقوفنا بوجه الدعاية الصهيونية لو اردنا ، وعملنا . .

ان تصفيق الناس هناك للحن (القدس) لا يعني اعفاء موسيقيينا العرب من مسؤ ولية انتاج سيمفونية لمأساة شعب فلسطين كسيمفونية (إكسودس) الرائعة ـ للأسف ـ والتي من المفروض انها تصور قصة « اسرائيل » ـ سفر الخروج في التوراة .

والمهم الا نثمل كعادتنا بهذا النصر المبدئي الصغير ، وننفخه حتى يغطي اعيننا ويحجب عنها الطريق الطويل وعشرات الخطى الاخرى التي لا مفر من اتخاذها في ميدان الحرب الدعائية تلك . . . واننا ربحنا جولة ليلة ، ولديهم في كل ليلة جولة ، ودعايتهم الصهيونية تغطي كل مجال .

أجراس التنبيه ضد السرقات

وبعد ، غادرت الرويال البرت هول تلك الليلة مع بعض الاصدقاء العرب ، وكنا جميعا نشتعل حماسا لقضايانا . سرنا في دروب لندن الحزينة الباردة وصمتنا جميعاً فجأة كما لو كان كل منا يخطط : من اين نبدأ ؟ كيف ؟ . .

وكنت انظر الى الاشياء ولا اراها . . . ولا ادري لماذا علقت نظراتي فجأة بدار فخمة من تلك الدور التي تحيط (بالرويال البرت هول) . . . على الباب علق جهاز اسود كتب عليه بحروف استطعت قراءتها في ضوء المصباح الشاحب : جرس تنبيه ضد السرقات .

وفجأة عادت فلسطين تحتل عيني دارا دارا . . بابا بابا . . .. لو علق العرب ، جميع العرب على ابواب دورهم اجراسا كهـذا الجرس ، في فلسطـين ، وعـدن ، ومصر ، والسودان ، وسوريا ، ولبنان، والاردن ، في كل قطر ، ترى هل كانت تلك الاجراس تكف لحظة عن القرع منذ قرون ؟ . .

كيف نقول للعالم ذلك ، وكيف نسمعهم قرع تلك الاجراس التي لم تكف عن الرنين منذ قرون ؟ . . لمن تقرع اجراسنا منذ قرون ؟

لندن ٢٢/ ١٢/ ٦٧

لا حب في لندن

انوار الصالة شبه مطفأة . الضوء الوحيد احمر مفترس ومسلط على جسد امرأة تتعرى فوق المسرح ببطء افعواني رشيق . الموسيقى يتسارع نبضها وعيون الرجال تزداد اتساعا ، ثم يستحيلون جميعا الى عين واحدة كبيرة حمراء جائعة ، حيوانية وبلا اهداب ، مفغورة باتجاه المسرح ، بينما تخلع حواء ورقة التوت الاخيرة . العربي الجالس الى جواري انتهى من أكل آخر أظافره . دقت الطبول .

ولكزني اخي وهو يقول بدهشة : انظري . .

وكان يشير الى شاب انكليزي اشقر جالس في المقاعد الامامية وقد راح في نوم عميق وسمعنا شخيره واضحا حينما صمتت الموسيقى وانتهت نمرة (السترېتيز) هذه . . . وصعقنا .

لاحظت ان اكثر (زبائن) المكان من الاجانب الشرقيين الذين ما تزال المرأة في عالمهم سرا مغلقا ، او من المراهقين . وان الرجال الانكليز يحضرون برفقة بعض اصدقاء غرباء . ولما كانت ملاهي (السترېتيز) في (حي سوهو) المجنون ، تتابع وصلاتها دون توقف بين نمرة واخرى ـ الا لحظات يستعيد فيها الحاضرون انفاسهم وتستعد الراقصة التالية ـ لذا كان من السهل ان نراقب هذه الظاهرة ـ المدهشة لنا كشرقيين ـ فوراً . . . وهكذا ، تحولت نظرات اخي وانا في الوصلات التالية الى وجوه الناس بدلا من راقصات (السترېتيز) . وكان نوم الانكليز مللا اثناء تعري المرأة ظاهرة مثيرة تذهلنا كشرقيين . . . وغادر اخي المكان احتجاجا على ذلك .

لا حـب في لندن

« مولاي وروحي في يده
قد ضيعها سلمت يده . . . »

كانت تلك ، الاغنية التي تدفقت من اذاعة الجزائر ، الاذاعة العربية الوحيدة التي نستطيع سماعها في لندن .

« مولاي وروحي في يده » كلمات من العصر البائد ـ على الاقل بالنسبة لهذه المدينة ـ

عصر الحب ، عصر « عطيل » او (بايرون) و (هيلين طروادة) . . .

وتذكرت عشرات المشاهد التي طالما فجعت حبي (الدمشقي التقليدي) للحب . . . مشاهد كانت تعبر ببساطة ووضوح عن موت (الحب) في عصر الآلة والحروب العالمية ، وعن نشوء نماذج جديدة (للحب) هي في نظري دمامل على جسد النفس الانسانية لا يمكن ان تدوم ، وطحالب في ارض الحقائق العاطفية الانسانية الخالدة ، لا جذور لها ، استنبتتها صواعق رجات انهدام الدين والتقاليد والمفاهيم الكلاسيكية في نفس الانسان المعاصر ، لكن حقيقة العلاقة الازلية بين المرأة والرجل أمر اكبر من ادوات تعبير العصور الوسطى عنه (كالشعر ، الفروسية ، التقاليد) ، وستدوم حتى بعد زوالها ، وبعد انحسار الزلزال على قيم العالم القديم ، اذ ان الحب حقيقة انسانية توجد القيم وليست القيم هي التي توجدها . . . واهتزاز القيم وتبدلها لا يعني زوال الحب .

اذكر اول لقاء لي مع هذه (الطحالب) . . . كان ذلك في احدى عربات المترو في لندن . مساء حزين من الصخب ، واندفاع كتل بشرية من التعب . وصوت حديد باب المترو الذي يغلق اتوماتكيا في كل محطة ، وبعنف يمزق الاعصاب . وفي احدى المحطات اغلق على جسد انساني حشره الزحام ، واغمضت عيني وقد ظننت انه سيفصله الى قسمين ، ووقفت على رجل واحدة اذ اعتقدت ان دمه سيغطي المركبة ، وستسبح اقدامنا في نهر من الدم بينما المترو يركض بوحشية في احشاء دهاليزه المعتمة ، وسوف يتصاعد نهر الدم حتى صدورنا ، حتى اعناقنا ، سيغطي وجوهنا ستتحشرج بطعم الدم ، سنختنق ، سنموت قبل ان يصل المترو الى محطته التالية وتفتح ابوابه ثانية اتوماتيكيا . . . لكن الباب لم يمزق جسد الشاب ، وانما انفتح عنه لثانية اتوماتيكيا بينما علا صراخ ناظر المحطة (ابتعدوا عن الابواب) . .

وحشر الشاب نفسه في الزحام . اغلق الباب . تلقاه صديقه الذي كان يرافقه بين ذراعيه اكثر مما ينبغي لرجل ان يفعل فرحا بنجاة صديقه . . . بدأ يرفع الشعر عن جبينه باصابعه ، شعره المتهدل الذي تبلل فجأة بعرق براق القطرات . . . بدأ العرق ايضا يتجمع في مسام جباه الركاب ، انصبت نظراتهم على المشهد . . . المترو يهتز بينما ينزلق في المنعطفات الضيقة بسرعة وحشية . . . اي رعب تقاسي منه قبيلة الفئران المسافرة ، لا رعب في عيني الشابين . . . شيء محموم كهربائي يتفجر من نظراتهما . . . شيء يشبه مشهد عناق امرأة ورجل على شاطىء بحر ما ايام كان هنالك حب . . ثم يهتز المترو المثقل بقبيلة الفئران المسافرة . يسقط الصديقان على الجدار الحديدي فيما يشبه التصاق الاطفال

المذعورين في الظلمة .

بدا الغضب واضحا في عيني رجل عجوز يرتدي بأناقة ثياب (عصر الملكة فيكتوريا) ويمسك بمظلته ، وكان طوال الوقت قبل ذلك يحدق في جارته نصف الحسناء ، وقال بصوت عال سمعه الركاب : هذا فظيع ومخجل ، يجب ان نبلغ البوليس في المحطة القادمة .

ورد عليه شاب تكسو وجهه آثار الجدري : لا تنس ان ذلك مسموح به قانونا . . . لقد اقره مجلس اللوردات منذ اسابيع !

وقف المترو في المحطة التالية ، وانسحب منه رجل (العصر الفيكتوري) ، واغمضت انا عيني . . . وحاولت ان اتذكر جميع قصائد الغزل التي كنت قد حفظتها من قبل عن ظهر قلب ، كما يتذكر المؤمن كتابه المقدس وكلماته ويتمتمها حينما يحس بخطر مبهم ، برصد ما ، بسحر شرير يحيط به . .

الفعل ورد الفعل

وفي الوقت الذي اتخذ مجلس اللوردات قراره التاريخي باقرار (الشذوذ الجنسي) وممارسته على اراضي بريطانيا العظمى - ذلك طبعا يشمل سفنها وطائراتها وسفاراتها - ، كانت موضة الميني جوب تلقى تطويرا عنيفا الى مرحلة الميكروجوب او (اللاجوب) ، حتى بدت لابسات (الميني جوب) العادي من الاقطار الاخرى شبه محافظات . . . (مثلي مثلا !) . . .

ربما كانت ردة فعل المرأة تهدف الى منحها امكانيات اكبر لاظهار انوثتها ، والمرأة تعري غالبا انوثتها في حالات الاحتجاج على هدرها . . .

وظهرت ايضا موضات اخرى اكثر ذكاء في تذكير الرجل بأنوثة المرأة وايام (الكومبارسيتا) والحب : كالثياب المزوقة بالدانتيلا ، والمزركشة بتطريز الحرير . . . الثياب التي كانت ترتديها جدات جداتنا في عصر (حب) الرجل للمرأة (ولو على طريقته الرهيبة !) . .

ولعل اطرف ردة فعل ، هي تلك الموضة الاخيرة : موضة حمل المرأة لنقودها في كيس يثبت على ساقها كما كانت تفعل جداتنا ، وكما ما تزال تفعل المرأة الفقيرة الساذجة ، حيث الرجال الفقراء ما يزالون يؤمنون بقيم كثيرة اولها المرأة ! وموضة اخرى عمت متاجر لندن وهي في نظري ردة فعل ذكية لتذكير الرجل بايام حبه للمرأة في الحقول وفوق اكوام القش ، وهي موضة الفستان الميني جوب والذي يبدو تحته حينما تسير المرأة او تنحني او

تجلس سروال قصير كتلك السراويل التي ترتديها الفلاحات ، وقد زينت اطرافه التي تشد على الفخذ بالدانتيلا وشرائط الحرير والساتان الملونة . .

وبدأت مجموعات الفتيات اللواتي يخرجن الى مقاهي لندن بلا رجال تتزايد . . وصار من الطبيعي مشهد امرأتين تراقص كل منهما الاخرى بحرارة بينما في الركن الآخر رجلان يتهامسان كما يفعل مراهق ومراهقة في (ستريوهات) بيروت !

ولعل من أطرف ردود الفعل الناتجة عن هذا الوضع هي موضة ارتداء النساء لثياب توحي بانهن رجال كربطات العنق و (التراوزرسوت) اي (البذلة بالبنطلون) بدلا من التايور . . . ترى هل هي ردة فعل لان الرجل بدأ يرتدي القمصان الحريرية والعقود الملونة والمعاطف المخملية ؟ . .

ولكن ، ظلت هنالك عقبة عملية لا حل لها ، رغم تجاوز الرجل الشاذ للعقبات النفسية من دينية وتاريخية ، طالما شدت الرجل الى المرأة وهي عقبة الحمل .

وهنا ايضا تدخل العلم باقتراح اسمه (الحمل الاصطناعي) . . . وقال بصوت لا جنس له ، ليس مؤنثا ولا مذكرا كأصوات الاشباح والالهة والاشرار ، ان انجاب الاطفال لا يحتاج بالضرورة الى هذه المؤسسات الاجتماعية كلها ، وان مبضع الجراح كفيل بزرع طفل رجل ما في احشاء امرأة ما ، وسوف يكون هنالك اب واحد فقط للجميع وهو هذه المرة ليس (ابانا الذي في السموات) وانما هو على الارض وفي العاصمة بالذات واسمه الدولة .

روميو وروميو !

الحزن العميق ، ليس من اجل جيل من الارامل ، ولا من اجل جيل من صديقات (بينلوب) زوجة (اوليس) التي اضاعت شبابها في انتظاره ، ولا من اجل بؤس جيل من نساء بلا رجال . . الحزن ايضا من اجل جيل من اولاد الآلة . .

بماذا سيحلمون ؟ هل سيحلمون على الاطلاق ؟ هل يمكن ان يكتبوا الشعر ؟ حول ماذا ستدور قصائدهم ؟ . . . وسيمفونياتهم ، بمن ستتغنى ، وبماذا ؟ . . . والانسان الذي عاش اجيالا يبني مؤسسة اسمها الدار ، باي شيء سوف يستبدلها ؟ بمصنع ، بمختبر ؟ هل ينتهي به الامر الى عشق رجل آلي والتغني به ؟ . . .

وهل كتاب «غرامنا» لمؤلفه « روجيه بيارفيت ابن عم الوزير بيارفت » من طلائع أدب ذلك العصر الحزين المقبل ؟ .

في هذا الكتاب ، يصف بطل الرواية قصة حبه لرجل آخر ، يرويها ابتداء من

علاقتهما في الشارع حتى غرفة النوم ! . . . وعلى القارىء العربي ان يذكر نفسه باستمرار ان البطل لا يتحدث عن بطلة . والشاب العاشق يروي للآخر (وهما في وضع حميم) تاريخ الشذوذ ، ويرجعه الى ايام الاغريق ويأتينا بشواهد شعرية وتاريخية مثيرة .

ولا يخفى على احد ان للشذوذ تاريخا طويلا ، وان عصرنا لم (يخترعه) لكنه (احتضنه) و(كرسه) . والغريب في الامر ان اقرار (الشذوذ) جاء في الوقت نفسه الذي تلقى فيه الدعوة للسماح (بالاجهاض) في بريطانيا مقاومة كبيرة . . . حتى الآن (الاجهاض) ممنوع لاعتبارات دينية ومهما كانت الاسباب والشذوذ مسموح رغم الاعتبارات الدينية كلها . . .

صيف (اللاحب) الخطر

الحالة تلك ، التي يسمونها حبا ، والتي سمح بممارستها البرلمان البريطاني ، ربما كانت من الاسباب التي دفعت بالمسؤ ولين الى اقتراح مشروع يسمح للسجناء بلقاء زوجاتهم وممارسة الحب التاريخي التقليدي دفعا لخطر انتشار (الحب الآخر) الذي يجد في السجون عادة مرتعا خصبا لنمو جراثيمه . . وقد قدم الاقتراح نواب (واتشدوج) وعددهم ٤٣ نائباً . .

ومن ابرز ضحايا (الحب الخطر) ، الكاتب المسرحي الشاب جون اورتون الفائز بجائزة (الايفننغ ستاندر) و (الايفننغ نيوز) لاحسن كاتب مسرحي في عام ١٩٦٧ . وقد مثلت مسرحيته (لوت) لمدة عام كامل في اكبر مسارح ساحة (البيكاديللي) ولقيت نجاحا كبيرا وتأييدا من اكثر النقاد تعصبا ، وكان يوم طلعت الصحف تروي مصرعه في صفحاتها الاولى ، يستعد لعرض مسرحيته الجديدة التي تحمل حكايتها نبوءة بمصرعه . .

وقد التقيت باورتون لدى بعض الاصدقاء الادباء قبل مصرعه باسابيع ، وحدثنا عن حبه لمراكش التي قضى فيها الصيف ، والتي يذهب اليها من وقت الى آخر كلما وجد الى ذلك سبيلاً . وفسرت ذلك يومها على انه حب للشرق والشمس او في اسوأ الحالات مجاملة لعربية . . . لكن الصحف طلعت يوم مصرعه تروي حكايته المفجعة :

كان يعيش مع صديق له في بيت واحد . يهرب منه احيانا الى مراكش لكنه دوما يعود . يربطهما شيء رهيب اسمه « المخدر » بانواعه كلها من افيون وحشيش وماريوانا وحتى (ال . اس . دي) .

اورتون يحاول التمرد على هذا بعد نجاحه ويطلب (الطلاق) ويبحث عن شقة منفردة . يحقد عليه صديقه . يقتله بالبلطة بينما هو نائم ، يمزق رأسه الوسيم بوحشية . ثم

ينتحر بعد ذلك بتناول كميات قاتلة من المخدر ويسقط ميتا قرب فراشه على طريقة روميو وجولييت . . . وبالاحرى روميو وروميو !

الهيبيز ،أبناء « اللاحب » غير المؤذي

اطرف ما في جماعة « الهيبيز » او « ابناء الزهور » كما يسمون انفسهم انهم أوجدوا انفسهم باسم الحب ، وان حركتهم كلها تقوم على فكرة « اصنعوا الحب لا الحرب » ! . . ولكنهم ، لو صدقوا ، وابتعدوا عن ذاتهم ليقيموها بتجرد ، لرأوا أنهم احفاد جيل (الحرب من اجل الامبراطورية الاستعمارية) لا احفاد (الحب والزهور) .

انهم في بريطانيا يمثلون الجيل الضائع بلا حب . . الجيل الجديد الذي بزغ الى الوجود بينما شمس امبراطورية آبائه واجداده تغرب . .

وهم غرباء عن أهلهم . . . عن القيم التقليدية التي ما تزال تسود بريطانيا رغم زوال مسبباتها وانقطاع جذورها عن ارض الماضي الامبراطوري الذي ضاع . . .

ولذا فهم بلا هدف . . . انهم يتعلمون الطاعة والنظام ولكنهم لا يعرفون من اجل ماذا ، وماذا بعد . . . فيتمردون تمردا اعمى على كل شيء .

وجميع الحركات الانسانية تتميز بشيء واحد : الهدف ، سواء كان ذلك الهدف صحيحا من وجهة نظر عصرنا او خاطئا (كحركة هتلر لسيادة العالم مثلا) ، الا انه من الضروري دوما لاي شعب ان يمتلك غاية وهدفا كي يكون لوجوده معنى ، وذلك ما يفتقر اليه الجيل الحالي في بريطانيا . . .

في الندوات الاذاعية والتلفزيونية في لندن ، تبحث ظاهرة (الهيبيز والجريمة والمخدرات والعنف والشذوذ) اي ظاهرة (اللاحب) باستمرار ، ويتفق المثقفون والمربون على ان السبب الاساسي لهذا كله هو « افتقار الجيل الى قضية ، وعدم وجود هدف لحياته » .

وهكذا في حين يصمم الجيل البريطاني القديم على الحياة في وهم العظمة ، يمعن الجيل الجديد احتقارا للكبار ومسلماتهم ، ويتمرد في اكثر من شكل وصورة . . . ولا شك في ان لتمرد الهيبيز كثيرا من الجوانب البريئة والطريفة ، وهم جماعة غير مؤذية اذا لم يدمن اصحابها اسلوب حياتهم الى ما بعد فترة المراهقة . .

اطرف ما في (الهيبي ـ مفرد الهيبيز) هو مظهره ، وهو لا يختلف كثيراً بين الرجل والمرأة .

للجنسين ، الشعر طويل ومسترسل . القذارة شرط اساسي ، ولم لا وهم ابناء

الزهور ، والزهور في الطبيعة لا يغسلها سوى المطر ! . . . سيقان البنطلون كسيقان الشجر ، ملتفة بشدة حول الساق ومغبرة ومهترئة . البلوزة حريرية وناعمة ومن المستحسن ان تكون اثرية . الجاكيت هندية الايحاء ، نقوشها موردة برسوم ازهار صغيرة ، لماعة القماش ، ولا مانع من ان تكون جاكيت حربية لجنرال متقاعد من موديل (جاكيتات) عصر نابليون . . . اذ ان اول شعائرهم هو « اصنعوا الحب لا الحرب » ، وما داموا قد الغوا الحرب وبالتالي الجيوش ، اذن لا مانع من ان تعمم ازياء الضباط للجميع وترتدى في مناسبات « صنع الحب » ايضا لا الحرب فقط . . .

ولهذا ايضا كان من ابرز تقليعاتهم الاخيرة التي لقيت رواجا كبيرا تعليق الاوسمة والنياشين العسكرية على صدورهم . . انهم ابطال بلا معارك ، ابطال في معركة الحب فقط ، فلم لا تكون الاوسمة من نصيبهم ايضا ؟ . .

والاصابع في نظرهم جزء مظلوم من جسد الانسان ، والقفازات مكافأة لا تكفي ، وهم لذلك يرتدون الخواتم في كل اصبع من اصابعهم العشر ، ربما يأسفون لأنه ليس لديهم اكثر من هذا العدد المحدود من الاصابع . . . والاحذية غير موجودة . هنالك (الجزم) التي ورثوها عن العسكريين ، ويفضل عليها تعرية الاقدام ، اسوة ببقية الحيوانات الاليفة في الطبيعة !

والنياشين التقليدية ليست ضرورية ، فقد اخترع الهيبيز نياشينهم الخاصة ، وهي صفائح معدنية ملونة كتبت عليها شعائرهم مثل : « اصنعوا الحب لا الحرب » و« تمددي يا سيدتي . انا طبيب نفساني» ، و« لتسقط الثياب » و« مطلوب رجل فوراً » وغيرها . . . وهم يعلقونها على صدورهم ويزرعون الزهور في شعرهم وخلف آذانهم ، ويعلقون الاجراس في اعناقهم ، ولذا حينما تمر قوافلهم وتقرع اجراسهم يشعر الانسان بانه في اسطبل !

ومن اطرف المشاهد ، منظر العجائز الانكليزيات بشعرهن القصير المحلوق على طريقة يول براينر ز بابهن التقليدية وهن يتأملن بقرف ابناء الهيبيز وتود كل منهن ان تصرخ « لكم ثيابكم ولي ثيابي » . . .

وفي الوقت الذي منعت فيه وزارة المعارف في فرنسا الطالبات من ارتداء الميني جوب ، تبنت فتيات لندن (الميكروجوب الهيبي) ، وصارت الزهور تزين ايضا اطراف (التنانير) القصيرة . . . والواقع ان لندن هي العاصمة الاوروبية الوحيدة التي يندر ان تمشي فيها فتاة لا ترتدي الميني جوب ، ولم تعد لندن الراهبة التي تتعرى سرا وانما سرقت

من باريس علنا شهرتها كمدينة مجنونة لا مبالية وسبقتها باشواط في هذا الميدان . .

الكارنبي ستريت : سوق الجنون

وتباع ملابس (الهيبيز) في دكاكين خاصة بهم . واكثرها يقع في شارع الـ (كارنابي) ، بين ساحتي البيكاديللي واكسفورد ، قلب لندن . ومخازن بيع ثياب الهيبيز مسرح قائم بذاته . . . المخزن شاحب الاضواء ، يخلق جوا شبيها بجو الستريوهات ، وموسيقاهم مجنونة وصاخبة ، موسيقى الجيرك ، وأغاني البيتلز والرولينغ ستونز وغيرهم . . . وعاملات البيع من الهيبيز ايضا ، مراهقات جميلات لا يقفن بصمت في ترقب الزبائن وانما يرقصن باستمرار ، وحتى اثناء اتمام عملية البيع ، لا تكف العاملة عن هز اردافها والتمايل .

وهناك مخزن مشهور في (كنسنغتون شورش ستريت) يدعى « بيبا » ، سبق ان قامت عدة مجلات اوروبية بنشر صوره ، وهو خاص بثياب الهيبيز في طابقه الارضي ، واما القبو فغرفة واسعة جدرانها كلها من المرايا حيث تقف الزبونات حولها وتبدل النساء ثيابهن دون اية ستارة بين الواحدة والاخرى . . . غابة من الزعيق والموسيقى والثياب المخملية والرياش ، وعدسات المصورين التي تتسلل من وقت الى آخر في لقطة محرمة .

قصرهم الكبير وحمام الصعاليك

اهم مراكز تجمع الهيبيز ، ومقرهم العام ساحتا البيكاديللي والترافلجار . .

هناك يجتمع الهيبيز من اطراف اوروبا كلها . . . وهناك يقررون نشاطهم وبرامجهم الغريبة . . وتتوسط ساحة الترافلجار الواسعة جدا بركة ماء كبيرة ، ومن النكات التقليدية (للهيبيز) انهم يقولون للسواح : تفضلوا واستحموا في حمام قصرنا ! . . . وهناك ايضا يلتقون ليبدأوا رحلاتهم (الهيتشهايكنغ) ، اي انهم يقطعون القارة دون ان يدفعوا قرشا أجرة للسفر . . . انهم يقفون في الشارع طالبين من السيارات المسافرة حملهم (اوتوستوب) . . . وهكذا من سيارة الى سيارة ومن مدينة الى اخرى . . .

ومن اهم اهدافهم : الحج الى الهند . . . فهم يتظاهرون بان لهم صفة روحية وموقفا فكريا ! . . الا ان الصحف البريطانية تسخر منهم باستمرار في كاريكاتوراتها المصورة ، اذ لا علاقة لهم بالهند الا في عقودهم الهندية وسراويلهم . . . ومن اطرف ما نشر عنهم كاريكاتور لثلاثة منهم يهمس واحدهم للآخر : هل أسأله « السؤال الاكبر » ؟ هل أسأله « السؤال الاكبر » ؟ . . . هل اسأله من اين اشترى عقوده ؟!

والواقع ان اكثرهم يرحل حتى اسطمبول ، ثم يقفل راجعا او يبعث ببرقية الى اهله

طالبا بطاقة طائرة ليعود . . . فهم يعتبرون اسطمبول بوابة الشرق ، حيث ينتمون روحيا ، ولهم هناك مخيم دائم قرب الجامع الازرق .

ومن أجمل المشاهد في لندن صيفا ، ساحة البيكاديللي الصاخبة وقد جلس على درجاتها المحيطة ببركتها اكوام من الشبان والشابات ، بعضهم نائم واكثرهم يغني او يعزف على جيتاره ، والحمام يطير ويقف ويقضي حاجته فوق وجوه بعض النائمين كانهم تماثيل لتعب الجيل الحائر . . والسواح يلتقطون الصور ورجل البوليس (الوسيم دائما في لندن) يقف بوقار ، وتمثال إيروس المنصوب وسط البركة يرقب ذلك كله بحيرة واسى ، وربما يتساءل : هل يمكن لجيل كهذا ان يصنع نصرا كالذي صنعت ؟

كرافتات دوق أوف يورك

وللهيبيز ايضا خماراتهم الخاصة ، وهي تزدحم في الشتاء حينما يستحيل لقاؤهم ونومهم في الساحات العامة والحدائق . . . واهمها خمارة « دوق اوف يورك » . . . وهي مكان عجيب ليس فيه من ارستقراطية « الدوق » سوى كرافتاته التي لا يرتديها الزبائن ، وانما تتدلى من السقف ومن الجدران كديكور للمكان ! . . . واذا تصادف ان دخل رجل ما الى هذا المكان وهو يرتدي ربطة عنق ، فان عشرات من ايدي الهيبيز سوف تمتد الى عنقه وتستولي على الربطة (المجرمة !)، وبعد لحظات ستتدلى من السقف مع بقية الربطات (المشنوقة) . . ويتركون لك تفسير هذا العمل الرمزي .

وهذه الخمارة تقع في احد اطراف حي سوهو ، في شارع (ووردور) والشارع نفسه مكان عجيب ، المفروض ان الدكاكين تبيع ثيابا رجالية ، لكن السائح يظن انه يحلم حين يرى (ثياب الرجال) تلك ، المصنوعة من الحرير والمخمل والساتان وعقودهم الخاصة وخواتمهم !

مهرجاناتهم التقليدية

يستعرض (الهيبيز) انفسهم اسبوعيا في شبه مظاهرة تخترق شارع (كينغزرود) اي شارع الملوك ، وهو يقع فيشلسي . . . يجيئون صباح كل سبت في سياراتهم الملونة التي رسمت عليها صور ازهار بألوان فاقعة جدا ، ومشهدها وهي تتحرك في شوارع العاصمة التقليدية البيوت والوقار مضحك فعلا . . . ويهبطون من السيارات بموسيقاهم وازهارهم ، وفي احد ايام السبت قام بعض الاخوة العرب ببيع (الحنة) لهم ، وكانت النتيجة ان (الحنة) بدأت تنفد من المخازن الهندية التي تبيعها ، وسرت التقليعة كالهشيم ، وعدل الاخوة الطلاب ميزانيتهم المتعبة ! . .

وفي الكينجز رود خمارة اسمها (جايز اند دولـز) اي شبـان ودمى تؤمهـا جميع الفتيات الجميلات الباحثات عن مجد سينمائي ، وهكذا نجد في الشارع صباح كل سبت موكب ابناء الازهار وبناته ومصورين صحافيين وفضوليين وسواحاً ورجال دين ومنتجين واحيانا مشاهير الممثلين واثرياء ودجالين . . . ويتجمع هذا الكرنفال البشري في المقاهي والمخـازن اذا كان الـطقس سيئـا ، وينتشرون على الارصفـة اذا تصـادف ان اشرقـت الشمس . . وعندما يقترب المساء ، يذهب اكثرهم الى (قهوة المجانين) في (فولهام رود) حيث الرقص المسعور حتى الصباح والرسم على الجدران والسقف واحيانا يمتـد الرسـم والرقص حتى ارصفة الشارع . . .

واكثر مقاهيهم غريبة الديكور، مثلا ، في مقهى (ماكابر) بسوهو المقاعد توابيت ، وديكور الجدران هياكل عظمية ، والاضواء تنبعـث من افـواه الجماجـم وحتـى كؤوس الشراب لها شكل الجماجم ، والموت ينبح من الاضواء الزرق الشاحبة كشفاه الموتى . . . وفي هذا المكان ، يمارسون رقصا فيه كثيرمن الموت : موت الهدف في نفس افراد الجيل .

واعلن زعماء الهيبيز عن اقامة عيدهم الكبير ، عيد الحب لمدة ايام ثلاثة . . . وكان المقر العام للاحتفال في سهول سولزبري ، هذا الى جانب مراكز اخرى ثانوية كالهايد بارك وحديقة (ووبرن بارك اوف دوق بدفورد) وتجمع في الاخيرة وحدها ألف منهم ، اما في سهول سولزبري فقد كان عددهم يفوق الخمسة آلاف .

قضوا الايام الثلاثة مع الطبيعة . . التحفوا بالسماء ونجومها ، ولم يكفـوا لحظـة واحدة عن شرب الخمرة والغناء ، ممجدين الحب والسلام وشارحين فلسفتهم الخاصة التي ترمز الزهور اليها !

اما في الهايد بارك ، فقد تجمع حولهم الفضوليون ، اذ ان لندن تعج بالاجانب ، ومشهد حلقاتهم العجيبة كان يلفت الانتباه . . . وكانوا يديرون اوراقا يسجل كل عليها اسمه ثم حروف غريبة من المفروض انها لغتهم الخاصة . . .

وقد ثار احدهم غاضبا وصرخ في وجه الجمع الفضولي : ماذا تريدون منا ؟ ادفعوا نقودكم (اذا كنتم تعتقدون اننا مشهد للفرجة) وامشوا من هنا .

صلاة من أجل الزعيم

وكانت النتيجة معركة تدخل فيها البوليس في عيد الحب واللاعنف !

وفي ختـام عيد الحـب ، ساروا جميعـا في مظاهـرة (جليلـة !) ، وبـدا فيهـا الميكروجـوب اكثر من ظاهرة ، وكان اكثرهم حفاة الاقدام او يرتـدون (البوطات

العسكرية !) . . . وفي هذه المظاهرة من الشبان طويلي الشعر والتقليعات ، ظهر رجل عجوز جدا يلاحقها ، رجل كأنه خرج للتو من قبره او ان عمره اكثر من قرن واحد ، وكان يحمل لافتة شدت الى جسمه وكتب عليها : قريبا ستقوم القيامة ! . . اما اهل لندن ، فهم يمرون بهذا كله دون ان يعيروه كثيرا من التفاتهم ، بل انهم يعتبرون تحديق الانسان بسواه قلة ادب وافسادا لحرية الغير . . . ان موقفهم مما يدور يلخصه موقف ذلك الانكليزي النائم أمام مشهد الستربتيز .

واطرف ما في الهيبيز علاقتهم الودية مع السماء رغم كل شيء . . . وحينما اوقف البوليس احد افراد فرقتهم الغنائية المحبوبة « الرولينغ ستونز » ، بسبب تعاطيه المخدرات ، وقدم للمحاكمة ، اعلن الهيبيز عن « ايام للصلاة » من اجل انقاذه ! . . . وهكذا استحال الرصيف المجاور لفندق (الرويال جاردن هوتيل) حيث نزل المطرب (الحشاش) بساطا للصلاة طوال الليل والنهار التقت فيه جموعهم ، وكانت صلواتهم تستحيل زعيقا هائلا كلما خرج (المصلى له) من والى المحكمة بشعره الطويل وعينيه الحالمتين . . .

الانفصال عن الواقع

ربما كانت مأساة الهيبيز الانكليز بالذات انفصالهم عن واقع الحياة اليومية ، ومحاولتهم اليائسة لخلق عالم خاص بهم جديد وغريب . .

فهم يعيشون في عزلة تامة عن وطنهم وعن بقية افراد الشعب ، ولهم مفاهيمهم واغانيهم ومخازنهم ومطربوهم واساطيرهم . ولهم ايضا مجلاتهم الخاصة ، وهي مكشوفة وتعتبر ان كل ما في الطبيعة خير ، والقتل فقط محرم ، الحب مسموح بلا قيد ولا شرط ، والحرب ممنوعة بلا قيد ولا شرط . . .

ولما كانوا يعيشون في عالم خيالي بعيد عن واقع حياة اي فرد ينتمي الى ارض وتاريخ ومستقبل ، كانت المخدرات ضرورية لتساعدهم على هذا الهرب المستمر . . . واكثرهم يتعاطى الحشيش والماريوانا ، وصنع (المثقفون) منهم الـ (ال . اس . دي) اذ ان هذا المخدر يركب في المختبر . . .

وتسير قافلتهم محملة بالزهور ، بينما الشوك ينبت داخل ادمغتهم دون ان يدروا .

الهيبيز لدنيا ،من رجال الفكر والسيف

نحن هنا ، نقف مدهوشين امام ظاهرة قبيلة الهيبيز تلك ، مظهرها ، اسلوب حياة افرادها ، وجنونها . . .

ومراهقونا ، مهما قلنا عن ولعهم بالتقليد ووباء الستريوهات ، ليس بينهم من هو (هيبي) بمعاني الكلمة كلها ، مشرد فكريا حتى الانقطاع التام عن جذور الآخرين . . مراهقونا من فئة هيبيز الصالونات . ولكن المصيبة ، اننا نجد بين (عقلائنا) و (مفكرينا) و (ساستنا) و . . . من الذين تخطوا سن المراهقة زمنيا ، نجد بينهم من هم (هيبز) فكريا ونفسيا وعمليا . .

وبعد .

أليست الصفة الفكرية البارزة (للهيبيز) عزلتهم عن مجموع الشعب وامانيه ، وانفصالهم عن واقع الآخرين ومنطق التاريخ ؟!

لندن ٢٥/ ١٢/ ٦٧

كلنا نعيش في الغواصة الصفراء

عن « الغواصة الصفراء » لندن ، ما زلت اكتب . . .

« كلنا نعيش في الغواصة الصفراء ، الغواصة الصفراء . . . الغواصة الصفراء » . . . اغنية (البيتلز) الشهيرة ما تزال المفضلة لدى ملايين من شبيبة لندن . . . ما زالوا يهذون فيما يشبه الصراخ « كلنا نعيش في الغواصة الصفراء » بينما يضربون الارض باقدامهم رقصاً مسعوراً ، ويمزقون حناجرهم وثيابهم ، ويزرعون اظافرهم في لحم الليل الطويل المسدل على شمس طموحهم . . .

ان اكثر ما يدور في اقبية لندن المعتمة ، وشوارعها الباردة ، يملأ الانسان باحساس غامض بالحزن والمرارة واللاجدوى . . . يشعر بانه حبيس تلك « الغواصة الصفراء » ، الساقطة الى قاع محيط رمادي من الضياع ، الذاهبة الى حيث لا احد يدري ، محملة بالمخدرات والقرف والجريمة والخيبة والغربة . . .

اول شيء يلتقطه ـ حتى السائح عابر السبيل ـ في لندن هذه الايام ، هو جوها المريض المحموم ، وضياع جيلها الجديد ، واتساع الهوة بينه وبين أهل الجيل الماضي ، وانقطاعه عن جذوره دون لقاء بديل عنها . .

عناوين الصحف كلها تتحدث عن حملات البوليس في الآونة الاخيرة على بيوت المخدرات والسادية الجنسية . . .

ومن يقرأ الصحف هنا هذه الايام ، يظن ان روائيا ساديا مجنونا ، مهووسا بالجنس والتعذيب والرعب ، هو الذي يكتبها . . . ويسطر اخبارها . . .

و« ادب الرعب » الذي ازدهر في العصور الوسطى وأطلق عليه اسم الـ (جوثيك نوفلز) ، يبدو كحكايا اطفال سذج ، امام فظاعة القصص التي تدور في لندن ، وترويها الصحف مع الاسماء والصور .

وأهل « الغواصة الصفراء » يرددون برعب اخبار آلاف الحوادث المثيرة المتكررة . . . وهنالك حادثة يتندر بها الشبان العرب ، دون ان يدروا انها تعرض مأساة الجيل الجديد هنالك ، الجائع الى الاثارة في غابة استبيح فيها كل شيء . . .

لا تطفىء التلفزيون

سلمان . شاب عربي ،اسمر وسيم طاردته فتيات لندن منذ الليلة الاولى لوصوله لانه يشبه عمر الشريف . كان يهرب منهن ، فقد تعلم في بلاده ان المرأة شيء محرم ومقدس وعيب ، وهي تثير في نفسه مزيجا من الجوع والرهبة والاحساس بالذنب ، احساس يشبه اشتهاء رجل لراهبة اثناء الصلاة ، وله طعم الدموع الجافة على اهداب عينين مغمضتين تحت شفتيه .

واخيرا ، قرر وسط عاصفة من سخرية اصدقائه العرب (لانه رجل عذراء) ان يمشي في درب (الرجولة) المعبد باللحم الابيض والغابات الشقر . . .

وذهب بديانا الى غرفته . كان مرتبكاً . تذكر ان اصدقاءه قالوا له : اقترح عليها الذهاب الى غرفتك بعد العشاء لتتناولا القهوة ، وهناك يمكن ان يحدث ما يجب ان يحدث . وقد نسي فيما اذا كان عليه ان يذكر القهوة (قبل ذلك) أو (بعده) . . . وفي غمرة ارتباكه ادار جهاز التلفزيون وجلس يرقبه وجلست ديانا الى جانبه والتصقت به . خاف . قرر ان يهرب ليعد القهوة .رفضت . سألته بصراحة وكثير من اللامبالاة . الا تريدني . كاد يجن . هكذا ، ببساطة ، دون ان يقرأ عليها أشعار قيس وعمر بن ابي ربيعة مترجمة ودون ان يعدها بالزواج نهضت تخلع ثيابها في النور الساطع . اطفأ النور بسرعة لانه خجل . نسي اغلاق التلفزيون في غمرة ارتباكه . . .

واخيرا . امرأة شقراء فاتنة له وحده. كان يشعر بأن اعصابه كلها تنتصب في أفق مضيء وحار وبنفسجي ، وانه يكافح ليتنفس اذ لم يعد في صدره فراغ لغير النشوة ، المرأة ، قارة اللذة ، اخيرا . فجأة فتح عينيه وابعد وجهه عن صدرها ، وحدق فيها فوجدها باردة هادئة تحدق في شاشة التلفزيون بعينين زجاجيتين كانه لا علاقة لها بما يدور مع جسدها . . . ظن ان التلفزيون يزعجها ، كان انغماسه فيها يشبه العبادة حتى سها عن العالم الخارجي . . . لذا اعتذر منها . وقرر ان ينهض ليدير زره ويطفئه . فما كان منها الا ان هتفت بحرارة محتجة : لا ، ارجوك اتركه . انني ارقب برنامجي المفضل . . .

ليلتها هرب سلمان مجنونا الى المقهى حيث الاصدقاء . . . لم يكن ليصدق ان المرأة يمكن ان تتحول الى شيء كهذا ، تمارس الجنس بينما ترقب برنامجها المفضل في التلفزيون ، كما يطالع الناس صحف الصباح بينما يتناولون وجبة افطارهم بلا مبالاة . . .

كانت صدمة ، جعلت سلمان يعامل النساء فيما بعد بآلية ، بقسوة ، كما لو كن سلعة ، او قرصاً من الاسبرو . . . وجعلته يفقد ايمانه بالحب ، ويفقد شهيته للجنس

يعيشه بينما يعاني من احتقار ضمني له .

والواقع ان رخص الجنس وبروده وآليته في « الغواصة الصفراء » قد يكون مسؤ ولا عن كثير من الانحرافات الغريبة التي تصيب الناس هناك . . .

واعتقد ان في هذه الحادثة التي فجعت الشاب العربي ما قد يدفع بكثير من شبانهم الى الانحراف والشذوذ والسادية والاجرام . . .

وربما كانت تفسر هذه الظاهرة الخطيرة التي يتحدثون عنها في الغواصة الصفراء . . . ظاهرة قتل البنات بين الـ (٧ ـ ١٠ سنوات) بعد اغتصابهن من قبل ساديين جنسيين اذكياء جدا قلما افلحت العدالة في اقتناصهم . . .

كما قد تفسر ايضا السماح بالشذوذ للرجال ما دامت لعبة المطاردة وتدنيس شيء محرم قد انتهت وصار للجنس طعم المعلبات ورخصها وسهولة الحصول عليها .

واذا كان العربي الجاهلي يقتل البنات خوفا من العار (الجنس) ، فان قتل البنات يتم هنا لانه لم يبق هنالك ما يهز القاتل (جنسيا) الا شيء جديد ومنحرف ومن ابتكاره : وهو التعذيب والقتل . . . انه يفضل ذلك على البرود المستسلم الآلي للنساء الناضجات اللواتي يرقبن التلفزيون وربما يشتغلن بالتريكو بينما يستسلمن للرجل . . .

وقد حدثت سلسلة من جرائم اختطاف البنات ثم قتلهن ، كان آخرها مقتل طفلة ، خرج في جنازتها اكثر من ١٥ الف مواطن معظمهم آباء وامهات جاءوا من قرى مجاورة . . . وظل القاتل الذي اغتصب الطفلة وقتلها وشوه جثتها مجهولا يلقي الرعب في قلوب الاطفال الذين تم تحذيرهم في المدارس من السير منفردين او التحدث الى رجال غرباء . . .

الجنس المباح
يسبب الجنون والجريمة ؟

يتحدثون عن عشرات الحكايا العجيبة السادية المشابهة . . . ازواج يصابون بانفصام الشخصية ويصرون على ارتداء ثياب زوجاتهم ، وعبثا يداويهم الاطباء بالصدمات الكهربائية ، اذ ينطلق بعضهم مسعورا يقتل على غير هدى كذئاب الغابات . . .

ان الجنس المباح الرخيص دفع بالبعض الى الجنون . . . والمرأة التي لم تعد سرا اثارت في نفوس الكثيرين الرغبة الى امتلاك شيء جديد ومحرم هو الاطفال ، كما اثار (استرجالها) في الآخرين الغيرة المريضة ، ودفعهم الى ارتداء ثياب النساء ربما

احتجاجاً . . . كأن احب ما في الجنس الى قلب الرجل هو انه محرم ، و (تابو) ، وكأن ما يثير شهية البعض ولذتهم هو هتك الممنوع والمحرم ، وبالتالي رفضهم لجنس العصر المجرد من اية عاطفة ، حتى من عاطفة الخوف !

يتحدثون ايضا عن فتيان وفتيات ذهبوا الى المدرسة او النزهة ولم يعودوا ، ثم وجدت جثثهم مرمية في الحقول ، وعليها آثار تعذيب وتشويه لا يمكن ان يرتكبها الا وحش مريض . .

بيوت تداهم ، وحقائب تختطف من ايدي النساء في محطات المترو ودهاليزه ، ومسعورون تحت تأثير المخدر ينتحرون ، ويتشاجرون ، وينطلقون في الليل حيوانات بشرية معبأة بالهذيان والعنف . .

الفتيات يقفلن ابوابهن ليلا بحذر ، ويحلمن بيوم العطلة للذهاب الى بيت الاسرة في القرية ، والنوم بامان وطمأنينة ولو مرة في الاسبوع . . شبان جامعيون ادمنوا الـ (ال . اس . دي) ، يقفزون من نوافذ الدور العاشر فما فوق متوهمين انهم قادرون على الطيران كالعصافير . شاب يخلع ثيابه راكضاً الى الكنيسة ، ليقفز من فوق سطحها ربما نحو السماء ولكن الارض تتلقفه امام نظرات الكاهن المدهوش .

جنون تعاطي المخدرات يجتاح البيوت السرية والكهوف ويتخطاها الى الجامعات والكنائس ! . .

في جامعة اوكسفورد فضيحة كبيرة ادت الى طرد ثلاثة من الطلاب بسبب الادمان على المخدر في المختبرات . .

وفي « كنيسة القديس جورج » في بيكلي ـ مقاطعة كنت ـ ابلغ راعيها الأب « كانان هاج غلاسير » البوليس عن اكتشافه للحشيش ولمخدرات اخرى يدخنها الشباب في نادي الكنيسة الذي يضم ١٥٨ من الاعضاء ! . . . (عن جريدتي الايفننج ستاندرد وايفننج نيوز) .

باتريشيا بوش (١٦ سنة) ماتت بعد ان تعاطت كمية كبيرة من المخدر . تبين للمحقق كرابتري أنها بدأت منذ الثانية عشرة من عمرها بتناول المخدرات الخفيفة المهيجة ، ثم انتقلت الى مرحلة الادمان العنيف واخيرا قضت نحبها تحت تأثير الـ (ال . اس . دي) والحشيش والهيروين . . . (عن الديلي اكسبريس)

« الادمان » مرض عصري جديد

وضمن ٨٨ شابا ، اعمارهم تتراوح بين ١٥ و٢٥ ، تبين للدكتور ايفان كلاوت ان

عشرين منهم بحاجة الى العلاج الفوري من ادمانهم على ابر الهيروين التي وجد آثارها على سواعدهم ! . .

وقال في محاضرة القاها حول هذا « المرض الجديد : الادمان » ، ان تعميم هذه النسبة يدل على اصابة مائة الف مواطن اعمارهم بين ١٥ و٢٥ بمرض الادمان هذا . .

وقامت ضجة كبيرة حول ادمان الجيل الجديد على المخدرات لما لذلك من علاقة بالجريمة وتدمير الذات وهدر الطاقات ، وقرر المسؤولون اتخاذ تدابير سريعة عملية وحاسمة . . .

ورافقت جولة وزير الصحة على المستشفيات للتحقق من معالجة المدمنين ، صيحة السير جورج جودبر الضابط الصحي الاول بالوزارة قائلا : لقد ارتفع عدد (الوصفات) الطبية لادوية مهدئة او منومة او مضادة للكآبة وانقباض الصدر من ٢٥ مليون عام ١٩٦١ الى ما يفوق ٣٧ مليون في العام الماضي (عن الديلي تلغراف . عدد ٢٤/ ١١/ ١٩٦٧) .

وينحي بعض المثقفين باللائمة على الصحف التي (تهول) اخبار المخدرات وتبرزها . . . ولكن الصحف مصرة على حملتها . . . وصار من الطبيعي ان تقرأ خبرا كهذا (طفلة في الشهر الرابع تتعذب بطريقة مرعبة . . لقد ورثت الادمان عن امها المدمنة على الهيروين ، ومنذ اللحظة الاولى لولادتها وجسدها يتشنج طالبا الهيروين . .). تقول الصحف :

الناس يتذمرون من حملتنا على المخدرات . اليس من المفجع ان تبدأ طفلة بريئة حياتها بهذا الوضع المفجع ؟ وهل نملك امام ذلك الا قرع اجراس الخطر ؟ . .

وبدأت المستشفيات بتطبيق اساليب جديدة لمداواة المدمنين ، ابرزها في مستشفى (الميدلاند) في برمنغهام حيث يعطى المدمن مخدره الذي اعتاده ، ثم يوضع في الظلام ، وامام وجهه شاشة ، وعلى الشاشة تلتمع بالتوالي صور مدمنين بشعة في لحظات ادمانهم وعذابهم ، ثم صور بشر عاديين سعداء في لحظات اشراقهم ومرحهم البريء . . وترافق صور المدمنين البشعة أنات وصرخات ألم وتوجع ، بينما يستحيل الشريط الصوتي المسجل الى موسيقى حالمة وضحكات وهمسات مع صور السعداء . . .

سقوط الاخلاق وسقوط الاسترليني

وجيل « الغواصة الصفراء » المصاب بالتعاسة والكآبة والملل ، يحاول ان يداوي هذا كله بالعقاقير المهدئة والمثيرة . . وبينما ترتفع نسبة المقبلين على هذه الحلول المصطنعة ، تهبط قيمة الاسترليني .

كانت مفاجأة واجهها الشعب بمظاهرة امام باب ولسون ، وقد صعقته واذهلته . . . ترى هل توقظ نكسة الاسترليني اهل « الغواصة الصفراء » على الانحدار المرير ؟

وهل هنالك علاقة بطريقة ما بين انهيار الاخلاق في بريطانيا وانهيار الاسترليني ؟ . .

اعني بالاخلاق احساس الفرد بالمسؤ ولية امام وطنه والتزامه بذلك ، وبالتالي يفقده التزامه هذا حقه بالانتحار النفسي ـ تخديرا او انهيارا ـ ، لان فيه ، بطريقة غير مباشرة ، هربا من المسؤ ولية والالتزام الجماعي .

وفي ندوة تلفزيونية ، اعلن احد المثقفين : ان سبب ضياع جيلهم الجديد هو انهيار قيم العصر الفيكتوري والقرن التاسع عشر (حب . دين . اخلاق) وعدم ايجاد بديل لها عندهم . . وبالتالي افتقار الجيل الى قضية يلتف ابناؤه حولها ، او هدف انساني لوجودهم . .

سموم للبيع في بلادنا

وفي بلادنا العربية ، يجب ان لا ننظر الى هذا كله بازدراء السليم ، كما يجب ان لا نسارع الى غبط انفسنا والتعبد بفضائلنا في مرايا الذات . .

ان أخطاراً كثيرة تتهددنا ، وتتهدد جيلنا الصاعد ، دون ان يحيط جهلنا بها . .

ان الادوية تباع في صيدلياتنا كما تباع اية بضاعة اخرى في مخزن للكماليات او دكان للاحذية . . .

الادوية المنومة والمثيرة وكلها تعتبر مركبات كيماوية من التي يمكن ان (يدمنها) الانسان، تباع كلها ببساطة، ودون (روشته) وهو أمر لا نجد له مثيلاً في أية دولة من دول العالم المتمدن . . .

في باريس وفي لندن وفي اية عاصمة اوروبية اخرى لا يستطيع اي مواطن ان يبتاع دواء الا بناء على « وصفة » طبية تحدد المسؤ ول عن صرف الدواء . . .

ان عشرات العقاقير التي تباع للفتيات العربيات من اجل (الريجيم) تعتبر في بلاد العالم المتمدن مخدرات ، وقطع الشهية ليس الا نتيجة من عشرات الاشياء الاخرى التي تسببها للجسد . . . كمثال اذكر الـ (بريلودين) و (الدكسدرين) . . . وهناك ايضا عشرات من الادوية المنومة والمهدئة التي يستطيع أي منا شراءها ببساطة من اية صيدلية ، ويعتبر حملها في بلاد العالم المتمدن جريمة (الا في حالات الضرورة القصوى وباشراف

الطبيب) لانها كلها تهيىء الانسان للادمان على المخدرات الاخرى الخطرة ، ولانها ايضا تمنحه حلولا تقوده الى الانهيار العصبي اذ انها تضعف الارادة وتشتتها بالنسيان ، وتعود الانسان الهرب من ازماته بدلا من مواجهتها . .

ومن الضروري وفورا ، حظر بيع الادوية الا بموجب (وصفة) طبية ، وبصورة خاصة الادوية المنومة والمهدئة والمثيرة . . . ان الكثيرين يعانون من الادمان دون ان يدروا . . فالاستهتار في بيع العقاقير جعلنا جميعا لا ندري انها من فصيلة المخدرات ، وانها نوع من انواع تلك التي يتعاطاها اناس نشفق عليهم وننظر اليهم ربما باشمئزاز ، دون ان ندري اننا معرضون للسقوط في الهوة نفسها لدى اول فرصة ، وان مناعتنا الجسدية قد ذهبت ولم تبق سوى المناعة الفكرية التي تهتز احيانا في لحظات الحزن او اليأس وتسلم الانسان فريسة للسقوط . . .

لماذا نعرض جيلنا الطالع للتجربة ، وننفق نقودنا على التخدير ؟ . .

ان شعبنا العربي في هذه المرحلة من تاريخه محكوم بعدم النسيان او الهرب . . النسيان او الهرب جريمة ، ويجب ان لا نحرض عليها او نساعد عليها بطريقة مباشرة او غير مباشرة .

واذا كان « جيل الغواصة الصفراء » هناك ، يعاني من رحيل غواصته رحيلا نهائيا عن (شطآن امبراطورية لا تغرب الشمس عنها) الى حيث لا يدري . . . واذا كانت الهوة متسعة بين الجيل الاستعماري القديم الذي يصر على العيش في اوهام عظمة الماضي ، وبين الجيل الجديد الضائع الحائر المفجوع ، فان جيلنا العربي الطالع رغم آلاف المشكلات التي يواجهها يملك كنزا فكريا واحدا وهو ان له اكثر من قضية . هدف . يقين .

جيلنا الطالع لديه قضية ، ولديه يقين ، ومأساته هي في اسلوب العمل ، في تشتته عن العمل ، في آلاف القوى الخارجية والداخلية التي تحول بينه وبين العمل . لكنه يعرفها اهدافه الكبرى : الوحدة . . . تحرير اي جزء مغتصب من اراضيه . الحرية . العدالة الاجتماعية : الكرامة . الديمقراطية . . . كلها وجوه متعددة لحقيقة واحدة كبيرة هي القضية العربية . .

في حقيبتي جثة

اعود الى الغواصة الصفراء . . .

اذكر انني عدت ذات ليلة الى لندن من اسكوتلندة متعبة بعد رحلة القطار

الطويلة ، وجلست اقرأ احدى الصحف ريثما استريح وافتح حقيبتي واعيد ترتيب اشيائي . . . وكانت الصحيفة تتحدث في صفحتها الاولى عن اكتشاف جثة فتى كان قد اختفى منذ ايام ولم يعثر البوليس عليه . . . لقد وجدت جثة الفتى مقطعة ومحشورة داخل حقيبة سفر تركها مسافر مجهول في محطة فيكتوريا . . .

وبعد ان انهيت قراءة الحكاية المرعبة ، نهضت لافتح حقيبتي ، وفجأة دهمني خوف جارف : ماذا لو وجدت فيها جثة مقطعة لشاب ما ؟ اليس من المحتمل ان اكون قد استبدلتها خطأ بحقيبة أخرى ؟

وناديت اخي ليفتح الحقيبة والدهشة تملأ وجهه لانني كنت ارتجف خوفا .

الاكاديمية العصرية للاجرام والسادية

وتعبر عن هذه الموجة من العنف والقسوة موجة من الافلام الجديدة التي تزيد في نارها تأججا ، وتضمن تخريج جيل جديد من مشاهدي السينما والتلفزيون وقد زرعت في قلوبهم بذور الجريمة والقسوة .

فقد عشت اسبوعا من الرعب !

سار على بعد خطوات مني رجل مقطوع الرقبة ، تغطي الدماء صدره ، وشاهدت عملية ولادة تمت في احتفال سادي ، وحضرت زفاف اخ واخته ، هذا بالاضافة الى بعض جرائم القتل العادية البسيطة . . .

وشاركني في رؤ ية هذا الموكب الدموي ـ للذئاب المنومين مغناطيسيا ـ مئات آلاف الناس ، وقد دفعنا جميعا الثمن غاليا اولا من اعصابنا وعاشرا من جيوبنا . . .

وقد بدأ هذا كله يوم قررت ان اعيش اسبوعا مع « الفن الحديث » في السينما والمسرح . . وكانت النتيجة انني عشت دورة في « الاكاديمية العصرية لتعلم الاجرام والسادية » . واكتفيت من التجربة بعدة أفلام اذكر منها : اختي حبيبتي ، واونباما اوالحب البدائي ، وفيلم العاب ليلية وغيرها . .

وقد ثارت الصحافة على هذه الموجة من الافلام ، واتهمتها بالميلودرامية والانحطاط والسخف ، ودافعت (الموجة) عن نفسها بقول روادها : اننا نصور الواقع كما هو بكل بشاعته ، ونترك للناس ايجاد الحلول وتلك مهمة الفن . .

لندن الأخرى ، الجميلة

وبعيدا عن هذا كله ، عن زعيق مشردي الغواصة الصفراء ورقصهم واقبيتهم وجرائمهم ورائحة مخدراتهم ، يطل الوجه الآخر للندن ، المدينة العجيبة ، وجه مشرق

وانساني وفيه امثلة تحتذى . . . نفتقر اليها في عالمنا العربي ، وكنت احس بالغيرة كلما مررت باحداها . . .

ولهذا الوجه حديث آخر .

لندن ٢٧/ ١٢/ ١٩٦٧

الوجه الحسن لبريطانيا

قدمت السكرتيرة الى رئيسها طلبا بالسماح لها بالمجيء الى مكتبها في الثامنة والنصف صباحا بدل التاسعة كما هو الدوام عادة .

لماذا ؟ لانها قررت ان تتطوع بالعمل نصف ساعة اضافية كل يوم ، وبالراتب نفسه . وقوبل طلبها بالرضى والاستحسان . طبعا كانت مفاجأة ان تلغي الفتاة من ساعات راحتها ورقصها وحبها نصف ساعة تمنحها مجانا « للعمل » . . ثم ان الوقت هناك شيء ثمين حقا ، والجميع يعون معناه ، ويدركون حقهم المطلق في التصرف به . .

في اليوم التالي ، انضمت اليها خمس سكرتيرات في المؤسسة نفسها ، وتطوعن بنصف ساعة عمل اضافي يومية ومجانية . .

وبعد ايام ، قرر موظفو المؤسسة باكملها التضامن مع السكرتيرات الست ، وتطوعوا جميعا بالعمل نصف ساعة اضافية يومية . . . وذلك يعني الف ساعة يوميا من العمل الاضافي في مؤسسة تضم الفي موظف . . . اي ستة آلاف ساعة اضافية اسبوعيا . .

وسرت العدوى الى المؤسسات الاخرى ، الامر الذي يعود على الدخل القومي باكمله بالخير الكبير والتقدم . . .

ومنحت السكرتيرات الست (الرائدات) اوسمة قيمة تقديرا لوعيهن . . (خاتمة سعيدة كما في الافلام العربية) . .

وطبعا لم ارو هذه الحكاية تمهيدا (لربيورتاج) مصور اكتبه عنهن . . ولا يهمني كثيرا مصير السكرتيرات الست .

اهمية هذه الحكاية تقع في انها تلخص اتجاها جديدا في بريطانيا لبناء اقتصادها بعد ان وعى الناس انهيارهم على اثر (نكسة) الاسترليني . . . ولان الطريق الحقيقية للبناء هي بالعمل ، ولانه حري بنا نحن (المنكوسين) لاكثر من مرة ان نجد في تلك الحكاية الصغيرة الجواب الكبير والبسيط لمآسينا وأحد الحلول الاساسية لترميم (نكساتنا) . . ولكن هل تتابع بريطانيا الطريق ؟ هذا لا يهمنا الآن . المهم ان نتعلم نحن ونتابع

طريقنا .

***

عن لندن الاخرى اتحدث هذه المرة . . عن لندن الجميلة ، لندن الحقيقة ، لندن الانسان والحرية ، لندن الفن والفكر والمسرح ، لندن الطريفة والبريئة . .

لندن التي تشدني اليها ابدا اينما كنت . . .

ارحل عنها اليها . .

اغادرها ، ولكن تجدني ابدا راجعة . .

عن لندن المعتقة بالمثل والانسانية اكتب هذه المرة . .

عن عشرات الاشياء التي نحن بامس الحاجة لاستيرادها قبل افلام جيمس بوند واغاني (البيتلز) واخلاق (الجيرك) . .

الخبز مع الكرامة

ليس في بريطانيا رجل جائع الا اذا اختار هو ذلك للريجيم .

نظام الضمان الاجتماعي مطبق بطريقة انسانية (وعادلة) نسبياً .

يستطيع اي عاطل عن العمل ان يذهب الى اقرب مركز بوليس ، والدولة تدفع له راتبا اسبوعيا قدره ١٣ جنيها ريثما تتولى ايجاد عمل له . . وهذا بلا ريب امر رائع ينقذ المواطنين جميعا من القلق والرعب الدائم من الفقر ، وهو ضروري وان كان احيانا فريسة لسوء الاستعمال . . . والصحف تروي باستمرار حكايا طريفة عن رجال يتهربون من العمل لان الراتب الذي تدفعه الدولة (للبطالة) اكبر احيانا من الرواتب التي يتلقونها .

واعظم ظاهرة اشتراكية في بريطانيا هي ظاهرة تأميم الطب والعلاج المجاني لكل فرد من افراد الشعب وحتى للرعايا الاجانب المقيمين في بريطانيا . . وهكذا ، فان مرض اي فرد من افراد الاسرة ، لا يشكل كارثة اقتصادية قد تودي بهم جميعا الى هوة الفقر والعوز . . .

تستطيع ان تمرض هناك دون ان يتولى اي طبيب امتصاص دمك بلا رحمة ، ودون ان تنتقل نقودك التي جمعتها بالتعب والعرق لتكون ثمنا لأحذية حرم الطبيب المصون سيدة المجتمع المولعة بالتقاليع . .

الطبيب هناك طبيب حقيقي . انه غالباً موظف لدى الدولة التي تلعب بينه وبين الشعب دور الوسيط . له راتب ثابت . وكل مواطن يدفع ضريبة ثابتة من راتبه للضمان الطبي .

وفي حالات المرض ، يتلقى الدواء مجانا وتجرى له العمليات مجانا وبذلك تقوى الرابطة بين الفرد وبين الدولة لانه يحس في كل مناسبة ان نقوده التي تجبى ضرائبا تعود اليه والى اولاده ، وأنه لا يخرج من الصفقة خاسراً ، صفقة الخضوع للنظام والالتزام بالدولة . . .

وتأميم الطب هو التدبير الذي نفتقر اليه في بلادنا العربية ، وبواسطته يمكن اعادة الاعتبار لمهنة الطبيب الانسانية التي يساء استغلالها في بلادي . . . بذلك وحده نكف عن قراءة الخبر التقليدي : رجل فقير حمل طفله الى المستشفى في حالة خطرة فطلبوا منه ان يذهب لاحضار مئة ليرة (او ما شابه من المبالغ التي لا يمكن ان يملكها) والا فليعالج الطفل . . عزرائيل . . وغير ذلك من الفضائح . . .

العلاقة بين الفرد والدولة

الفرد هناك يحب الدولة لانه يحس انها تحبه ولأنها تقدم له أكثر من دليل على انها تعمل من أجله .

لا مجال هناك للاحقاد الشخصية . لا احد يجرؤ على الهرب من المسؤولية . اية شكوى ضد مسؤول تحظى برد عملي ، كما ان اي تهاون او اهمال يعتبر جريمة لانها خيانة غير مباشرة للواجب .

المطر مثلاً . لا يكف لحظة عن الهطول في لندن ، ولم يحدث قط ان تجمعت بركة من الماء حتى في القرى . القرى كالمدن من حيث التحضر ، ولكنها اجمل واكثر صفاء وهدوءا . القانون فوق الجميع ، ولا يمكن تجاوزه في اية حال . المحسوبيات غير موجودة على الاطلاق .

الفرد محبوب من قبل الدولة ، وفرديته مقدسة . ولا يمكن القاء القبض على اي انسان دون ادانته مهما كانت التهمة والا استطاع مقاضاة المسؤولين .

الفرد شيء مهم ، سواء كان طبيبا او محاميا مثقفا او عاملا بسيطا او خادما . . . العمل اليدوي هناك ثمين جداً ، ودخل مُصَلِّح الاحذية يعادل دخل موظف البنك لانه يقدم للمجتمع عملاً ضرورياً كأي موظف او مثقف .

الآلة رخيصة هناك والانسان ثمين . ليس للخدم وجود الا لدى الاثرياء جداً ، وهم هناك نوع من الموظفين . الخادم او الخادمة (بمفهومنا) شيء غير موجود هنا لان فيه سوء استغلال لطاقة بشرية من المواطنين . المواطن البريطاني محظوظ حقا في الحالات كلها . .

المواطن السجين لا يعتبر محكوماً (بالتجريد من الانسانية) ولا (مطرودا الى الابد) من المجتمع ، ولذا فالسجن هناك اصلاح فعلا لا مدرسة لتعليم جرائم اكبر ، والسجين حينما يخرج لا يقذف به الى الشارع وقد امتلأ حقداً على المجتمع وانما يُهيّأ له الجو الملائم للعمل من جديد ضمن مراقبة اجتماعية طبية . . .

وللمواطن المريض ايضا (حصة) من كل شيء . . انه ليس مرفوضا لانه عاطل عن العمل مؤقتا وانما تكرس الجهود كلها لشفائه نفسياً وطبياً واعادته الى حظيرة المجتمع . . . وهكذا تكرس برامج تلفزيونية واذاعية خاصة ، وربما كان اجملها (مسلسل) إسمه (ملعقة سكر) والمقصود منه (بث الامل والبهجة في نفوس المرضى) . . . لماذا لا نستورد بعض حلقاته عوضا عن مسلسلات الجريمة ؟ . .

والمواطن البريطاني محظوظ حتى ولو كان قتيلا . . .

فقد كتبت الصحف (كما تفعل دائما) عن سقوط طائرة وكانت عناوينها تقول : مصرع ثلاثة من الرعايا البريطانيين . . . ونفاجأ حينما تتحدث تفاصيل الخبر عن مصرعهم مع مئة من بشر آخرين (ليسوا بريطانيين) . .

نحن في بلادنا نستهتر غالباً بالفرد العربي . . . ان نزفنا البشري لاسباب سياسية او اجتماعية امر لم يكف منذ سنوات في اكثر من قطر . .

ان استهتار اكثر السلطات بالفرد العربي واضح في المجالات جميعا . . كثيرون بلا جنسية او هَجَروا جنسياتهم او أُرغموا على ذلك . . . الفرد في بلادنا لا يحس بتبني السلطات له او لمصالحه او باحترامها لضرورات عمله او تنقله . . . وهو لذلك لا يحبها ولا يثق بها ولا يتعاون معها ، وكل ما يتمناه هو ان تنساه وان تتركه بسلام . . .

الحرية ، الحرية ، الحرية

الحرية ، حرية القول والعمل مؤمنة للجميع ومقدسة ، ومن يحرم الناس منها يعاقب ، كما يعاقب من يسيء استعمالها . . .

الحقيقة يريدها الناس هناك دون ان يثوروا عليها مهما كانت قاسية ، والحكام يقولونها غالباً للشعب ، والصحافة تتولى ذلك وتعتبره واجبها الاول . .

(نحن نؤيد اي مسؤول يؤمن بان الحقيقة يجب ان تقال للناس دوما مهما كانت قاسية . نحن نؤيد اللورد روبنز وزير المناجم ، الذي لم يخف حينما وقف يخبر عمال التعدين ما سيحدث لصناعتهم بعد ١٢ عاماً وكيف ان خمسة عمال من كل ستة سيكونون عاطلين عن العمل عام ١٩٨٠ ، وكيف ان عددهم الذي يربو اليوم على ٣٨٧ الف عامل

لن يكون سنة ١٩٨٠ اكثر من ١٥ الف عامل ! وسيكون الباقون جميعاً بلا عمل .

لا شك في انه من الافضل ان نعرف الحقائق كي نتمكن من مواجهتها مهما كانت مؤلمة . انها مأساة . سيقف الشعب باكمله الى جانب العمال لحل الكارثة الصناعية المقبلة) . . .

هذا نموذج رائع للانسجام والصدق في التعامل بين الحاكم والصحفي والفرد التقطته من احدى الصحف اليومية وهزني . .

الحصانة (الادبية) والفكرية :

والحرية هناك عادة . . . حرية التفكير شيء طبيعي ، وليست ثورة كما هي عندنا . .

و (اوثان) الفن الذين طالما منحوا الجماهير عطاء كبيرا واحبتهم الجماهير ، لا يمكن ان يتمتعوا (بحصانة) فكرية كما هو الحال عندنا ، وانما يتعرضون لهجوم الصحافة ونقدها متى أسفّوا . . .

وفيلم شارلي شابلن الاخير (كونتيسه من هونغ كونغ) الذي تمثل دور البطولة فيه صوفيا لورين كان موضعا لنقد لاذع قاس ، ولم تلعب شهرة شارلي شابلن او ماضيه دور الشفيع لذلك ، وقال النقاد (لماذا انتظر شارلي شابلن اكثر من عشرة اعوام ليقدم لنا فيلما كان يصلح للعرض قبل ثلاثين عاما) . . .

اما في بلادي ، فان من يكرس اديبا او فنانا ذات مرة ، يحتفظ بلقبه الى الابد ، وينال حصانة ادبية اسمها (الاديب الكبير) ، ولا يجرؤ اي انسان على نقده اذا اصدر اثراً اثبت فيه انه فقد قدرته على العطاء واصيب بالتحجر والجمود . . . واذا تجرأ احدهم ونقده ، فمن خلف اسم مستعار . . . كما فعل الاسم المستعار (فارس فارس ـ اي غسان كنفاني ـ الذي تجرأ في صفحة الانوار الادبية وانتقدكتاب الشاعر امين نخلة الاخير . تراه كان قال لولا الاسم المستعار : كَان امين نخلة في كتابه الاخير ثميناً جداً ، كالتحف الاثرية العتيقة !) . . .

لندن الفن والفكر :

في هذه المدينة يجد الانسان نفسه مضطرا الى ان ينضج ويتثقف مهما قاوم ذلك !

انه مرغم على ان يتعلم ويفهم ويرى . ان الثقافة تحاصره وتلاحقه ولا يستطيع ان ينجو منها .

في لندن كل شيء . مسرح قديم . مسرح حديث . لا مسرح . مسرح شكسبير .

سينما . مئات من دور السينما تعرض انواع السينما كلها ، قديمها وحديثها ومستقبلها ! . . .

واذا استطعت أن تهرب من المسارح المنتشرة في لندن انتشار المطاعم في بيروت ، فانك قد تدخل الى احد المطاعم او الخمارات وتظن انك قد نجوت من (الفكر) واذا بك تفاجأ بمسرحية تعرض . .

هناك عدد من المطاعم والملاهي الراقية التي تقدم مسرحية رائعة بدلا من (وصلة هز بطن) . . .

وقد تدخل صالة فخمة على بابها مجموعة من المجوهرات وتفاجأ بانك في معرض فني لاحد الفنانين . . . والمعارض الفنية هناك متنوعة ، كان اجملها معرض للوحات (المجانين) اعتقد انها ارقى ما شاهدت طول حياتي (شاركني الرأي محرر الاوبزرفر الفني وافرد لها خمس صفحات كاملة !) ، ومعرض للوحات الاطفال ايضا اختيرت واحدة منها لتكون طابعا للبريد . .

وحتى لو استطاع احد ان ينجو بجهله من الحصار الفني والفكري الذي تفرضه لندن على كل زائر ومقيم ، فانه سيسقط في شرك (التوعية) اذا ذهب آمنا مطمئنا ليشتري طابع بريد ! . .

اذ اصدرت بريطانيا سلسلة من الطوابع اسمها « سلسلة الفن » وهي تحمل صور اجمل اللوحات الخالدة لكبار عباقرة الرسم ! . .

الموسيقى والخبز

قبل ان يتناول الطفل هناك قضمة الخبز الاولى في حياته ، تحمله الام معها الى صالة من صالات الاوبرا العديدة التي تمتلىء لندن بها . . . او الى احدى الحفلات الموسيقية الاسبوعية التي تقام في الحدائق العامة وتعزف فيها اروع السمفونيات لكبار الموسيقيين الخالدين . . ان الامر يستدعي الغيرة حقا . . . لقد نشأنا جيمعا في مدن لا تضم صالة موسيقية واحدة . . . حفلات اضواء المدينة هي ذروة طموحنا (الطربي) هنا . . . وفيها كل شيء ما عدا الطرب . . .

احبها رغم كل شيء

بلادي ، احبها وحدها ، رغم كل شيء . . . احبها اكثر كلما وعيت نقاط ضعفها . . يمتزج حبي لها بالاحساس الكثيف بالمسؤولية نحوها . . واستمتاعي بلندن الفكر والفن والانسان يشوبه دائما ألم مرير لان ذلك لا يدور في بلدي ، ولان ملايين من ابناء قومي لا يشاركونني فرحة اكتشاف اشياء انسانية جميلة وكثيرة . . ولاننا جميعاً لا نكبر

في مناخ حضاري مناسب . .

لذا ، ذات ليلة . . . وبعد يوم قضيته مع روائع قدرة الانسان على الخلق الفني والفكري والموسيقي (اظنني شاهدت يومها معرض بيكاسو في « التيت جاليري » ، وفيلم « يوليسيز » لجيمس جويس ، ومعرض « البيت المثالي » الذي اقامته « الديلي ميرور » ، وحينما ذهبت لاستريح في حديقة « الشيبردز بوش » العامة ، فوجئت بالحان تشايكوفسكي تغمر العالم ، تعزفها فرقة سيمفونية حاذقة ، مجانا ، للجميع) . .

احزنني ذلك واثار مرارتي حتى الانفجار . . زحفت ايامي المشحونة فنيا في لندن داخل راسي قبيلة من الوجوه المحملة بالذكريات . . تذكرت امسياتنا الضائعة في مدننا الغالية التي لا نملك الا ان نعود اليها ابدا . . الى هناك تشدنا قيود لامرئية وطويلة ويمكن ان ندور بها العالم ، لكننا دوما نعود الى هناك ، كالنعاج المنومة مغناطيسيا ، لا مفر من ان نعود ، لان المسلخ في بلادي أحب الى نفسي ـ رضيت ام كرهت ـ من متاحف اوروبا كلها . .

احزنني ذلك واثار مرارتي حتى الجنون . . لذا ذهبت الى مدينة الملاهي .

اذ ، لم تكن هنالك اية وسيلة اخرى ، كي اصرخ بملء فمي ـ فعلا لا مجازا ـ وفي قلب مدينة لندن ، ودون ان يقبض البوليس علي او اساق الى مصح عقلي . .

اخترت اشد الالعاب اثارة للرعب . . . ووجدت في ذلك ذريعة لاصرخ واصرخ واصرخ ، والناس حولي في دهشة من امري (لماذا تصر على ركوب هذه اللعبة اذا كانت تخاف الى هذا الحد ؟) .

قضيت نصف الليل اصرخ . ونصفه الباقي ألملم اوراقي وامتعتي .

وفي الصباح ، تذكرة طائرة . .

ورجعت . . .

عمان ٥/ ١/ ٦٨

وماذا بعد يا جسر الفرار

وماذا بعد ؟

كففت فجأة عن المشي . اطفأت المصباح الصغير الذي كنت احمله في يدي . انهرت جالسة على التراب تحت جبل الظلمة والبرد ، ومشاهد اليوم الطويل . .

تحسست جسد التراب . كان نديا ، وخيل الي انه ينبض تحت يدي ، وانه دافىء وتفوح منه رائحة الدم . غمرني حب للارض لم اعرفه من قبل ، اذ ، على بعد امتار مني ، على الضفة الثانية من النهر ، لم يعد بوسع احد منا ان يرفع صلاته الصامتة لجسد ارضه دون ان يتعرض لرصاصة تثقب رأسه مع تحيات اسرائيل . . .

حولي في هذا الغور ربع مليون انسان ، ارغموا على النوم في العراء ، وبيوتهم على مرمى حجر . وذلك كل ما استطيع ان افهمه من القضية وانا هنا . .

جئت اقضي الاعياد هنا ؟ ها . . نسيت ، ما اسم اليوم ؟ ما التاريخ ؟ .

وماذا بعد ؟ . .

سؤ ال حملته معي من لندن ، سكينا مغروسة في الحلق ، وعدت به الى بلادي بحثا عن جواب ، وطرت به الى عمان بحثا عن جواب ، وقضيت يومي الأول عند « جسر الفرار » اتحدث الى الذين تركوا ارضهم وجاءوا ينضمون الى زارعي الخيام هنا . . وتلصصت عبر فوهات بنادق الفدائيين ابحث عن جواب . . .

وماذا بعد ؟ . .

ماذا بعد نصف عام من الهزيمة ؟ . .

هل يمكن ان يكون هذا كل ما تبقى ؟ صوت السعال وبكاء الاطفال في الليل ، معسكرات لغسل الدماغ الفلسطيني تسمى مخيمات ؟ . .

وفجأة ، دوى صوت انفجارات صغيرة متلاحقة ، وعلى الضفة الثانية للنهر رأيت الاضواء الكشافة تتوهج وتدور بعصبية عيني وحش اهوج ، يبحث عن فريسته (بحرارة أصلي ، ايتها الارض ، احمي فدائييك) . وفي ذلك الليل المشحون بالتوتر والترقب ، المزروع بالجان ـ الذين يسمون فدائيين ـ بدأت اقرأ اولى سطور الجواب المرير الكبير ، بينما عادت احداث اليوم الطويل تنزلق داخل رأسي . .

عمان . . . لم اتجول في شوارعها بعد . مررت بها في السيارة المنطلقة بسرعة باتجاه الاغوار . كانت تبدو حزينة ولها كآبة جسد يتنفس برئة واحدة ، بعد ان فقد الرئة الثانية : الضفة الغربية . .

مرت السيارة باحد الاسواق . استطعت ان اقرأ اللافتات على الابواب : « توكلت على الله » ، « وما توفيقي الا بالله » ، « ما شاء الله » . . . « الملك لله » . . . اذن هي مدينة اخرى كدمشق والقاهرة والقدس ، كالمدن العربية التي عشت فيها طويلا .

واحسست انني اعرف عمان رغم يومي الاول . .

وتساءلت : لماذا لا اقرأ على الواجهات شعائر اخرى دينية تحض على العمل ، وتحمل الانسان المسؤولية وديننا يزخر بها ؟ . . . لِمَ اخترنا تلك ، ومارسناها على طريقة (لا تقربوا الصلاة) ، ولم نضف (وانتم سكارى) . . .

نعم . توكلت على الله . ولكن الله في عون العبد ما دام العبد في عون اخيه .

حسنا . وما توفيقي الا بالله . ولكن صيحة « الله اكبر » في الحرب كان يرافقها دوما يد تضرب بالسيف . نعم . « ما شاء الله » يقع ، لكن الله شاء ايضا ان نعقلها ونتوكل ، لا ان نهرب من المسؤولية تحت ستار القدرية .

انا ضد الانسحاق بالفهم الخاطىء للدين . انا ضد سوء تأويل الحضارة الاسلامية وتحويلها من محرك بناء خلاق الى مخدر لاوجاعنا .

من الجسر الى القبر

هذا هو الجسر . يسمونه في الصحف الغربية : جسر الاحزان ، فكل انسان يعبره من الضفة الغربية هناك الى هنا ، يجيىء وسط الدموع حاملاً معه الى الابد مأساة مريرة . . .

وصوب ابو طلال عدسته باتجاه الارض المحتلة ، بينما كانت قافلة جديدة من النازحين تتأهب لقطع الجسر متجهة الى المقبرة الكبيرة : الى المخيمات ، لتقيم شاهداً يسمونه خيمة . . . وفي القاع يجري نهر الاردن ويحمل معه اسرار الفدائيين الضفادع الذين يقطعونه كل ليلة . .

جسر الفرار

جسر خشبي لا يتجاوز عرضه العشرة امتار ، وفي منتصفه ربطة من الاسلاك الشائكة تفصل بين الارض العربية والارض المحتلة .

وتروى عشرات الحكايا عن هذا الجسر . . يقال ان مجندات يرتدين الميني جوب يحرسنه . (احتجاج الرواة على الميني جوب اكثر مما هو على عدم وجود مجندات

عربيات !) . وآخر الحكايا كانت عن فتاة عربية جميلة وقفت على الجسر وتحرش بها مجند اسرائيلي ، مما اثار اخاً عربياً . وتطور الحادث الى تبادل اطلاق الرصاص . ادهشني اننا ما زلنا نثور من اجل « شرف البنت » ولا نثور من اجل « شرف الارض » .

اسميه « جسر الفرار » ، لا « جسر الاحزان » ، بانتظار ان يصبح « جسر العودة » .

كان يحرسه فتى اسرائيلي ، ربما صدرت الاوامر اليه ليبدو بمظهر المستخف ، فقد كان يمضغ « العلكة » ويصفر برتابة ، تثير الاعصاب ، لحنا عاطفيا لأزنافور ، ويرمينا بنظرات لا مبالية . . وحتى حينما وصلت سيارة اجرة ، وهبط منها اربعة اشخاص ساروا فورا نحو الجسر ظلت نظراته لا مبالية . تركهم يسيرون بضع خطوات فوقه ، ثم صرخ بهم ، واقترب منهم مشيرا ببندقيته الى مركز للتسجيل تحت شجرة قرب الجسر ، فاتجهوا عائدين نحوه . . .

ووقفنا على الجسر ننتظر قافلة النازحين الجدد ، الذين لم يتوقف تدفقهم منذ الحرب الاخيرة . . . « اسرائيل » مستمرة في خطة « تهجير » العرب ، والحاحها على ذلك يكفي دلالة على اهمية مقاومة ذلك . . .

وصلت قافلة النازحين الاربعة . كانوا رجلين وامرأة وطفلة .

في البداية ظننتهم اسرة . حين اقتربت منهم لاحدثهم اكتشفت ان احدا منهم لا يعرف الآخر ، وان لهم وجوه بشر ، ماتوا للتو ، لولا الرعب المرتسم في عيونهم . كان واضحا انهم لا يعرفون اين هم ومن نحن ، وكانت نظراتهم الخائفة تنتقل بين وجوهنا بذهول محتار . . كان واضحا انهم لا يسمعون شيئا نقوله ، وانهم ينقلون نظراتهم بين وجهي ووجوه رفاقي ، وانهم يتأملون ملابس الجنود ، وشارات قائد الحامية الاردنية التي تحرس الجسر ربما ليتأكدوا من انهم غادروا « اسرائيل » فعلا ، ونهائيا . .

« اسرائيل » ؟

لا يوجد شيء اسمه « اسرائيل » ، على الاقل في اذهانهم هم . هنالك ارضهم ، وبيوتهم ، وهنالك من طردهم منها ، وها هم يغادرونها احياء مستسلمين الى ارض اخرى . . .

ارض عربية ؟ . . . نعم . ولكن العروبة يجب ان تكون زحفا الى فلسطين لا نزوحا عنها . . مدا الى ارضها ، لا هربا منها . . ميثاقا على التضامن لا اغراء بالاتكالية والتخاذل . .

هدأنا من روعهم ، (سأسأل الاول ما اسمك ؟ ما اسمه ؟ ما الفرق ؟ انه عربي آخر ربما أجدى له ان يموت في الداخل مواطنا لانني اعرف كيف سيموت في الخارج نازحا . ألم يتعلم العرب شيئاً من مأساة ١٩٤٨ ؟ والبؤساء في فلسطين المحتلة ، ألم يسمعوا بمأساة البؤساء اللاجئين الى البلاد العربية التي يحتلها الجهل وسوء التصرف والتشتت وآلاف العوامل الاخرى التي تنخر في جسدها وتجعلها بعد انقضاء عشرين عاماً على الصدام الاول مع « اسرائيل » ، تصمد وقتاً اقل ، وتهزم بمزيد من الاذلال ؟؟) . .

ـ ما اسمك ؟ (كنت اعرف انه سؤال سخيف ، لكنني كنت مضطرة لان اقول شيئاً ما بسرعة) .

ـ عمرك ؟

(لم انتبه الى رده) .

ـ ماذا تفعل هنا ؟

(كان ذلك فقط كل ما يهمني ان اعرفه) . . .

لم يرد . فتح كفه .

في يده اثر جرح لما يندمل بعد . في يده اليمنى التي لا اظن انه سيكون قادراً على استعمالها ابدا .

ـ مهنتك ؟

ـ دهان !! . . .

ـ ماذا تفعل هنا ؟ . .

ـ هدموا داري .

ـ والارض ؟

ـ انا جائع .

لم يكن جائعا فقط . كانت في عينيه نظرة نائية كتلك التي تطل من عيون المصلوبين . كل ما بقي له في الدنيا عنوان لقريب له في عمان . غدا يحل عنده . « الافواه اللامجدية » تتكاثر . عدوى وباء الذعر والهرب تنتشر . وماذا بعد ؟ . .

المرأة ، تشد طفلتها اليها كلها واجهت سؤالا محرجا . طيلة اجيال ربينا المرأة على الاحتماء بالامومة هربا من انسانيتها . . وهي اليوم تواجه الكوارث بهذا الاسلوب . . . هاهي تقف امامي . صحتها جيدة . امرأة تصلح للقتال ، ذكية في تمثيلها لدور المستكين ، منذ اللحظة الاولى تلعب الدور الذي اعد لها ، دور اثارة شفقة العالم . .

هذه المرأة ، نصف مجتمعنا العربي ، ما الذي يحول بينها وبين ان تثور لكرامتها المهدورة كمواطنة ؟ ماذا سوى عصور من تكريس التخلف بالف حجة وحجة ؟ .

سألتها عدة اسئلة . انها خائفة وتريد ان تذهب ، وبسرعة . كنت اعرف سلفا ما يمكن ان تقوله . . لها زوج في مكان ما ـ في السعودية ـ وقد (طلبها) . . هذا جميل . تراها تشعر بشيء من الاحساس بالذنب لخروجها ، كي تبرره دون ان يطلب احد منها ذلك ؟

الطفلة اعجبتني . ضايقها تمسك امها بها . وقفت ترقبنا راكضة في شرود متمرد . وقفت ترقبنا باعين متحدية ، ويبدو اننا اثرنا ضيقها فاستبدلتنا بمجموعة من علب التنك الفارغة تضربها بعضا ببعض . . . تراها تعرف منذ الآن اننا جيل التنك الفارغ ، قضينا عشرين عاماً من تصادم ارعن كان دوما من نوع اصطدام التنك الفارغ بالتنك ؟ . . وان على جيلها ان ينمو بعيداً عن امراضنا ؟

الفتى عمره من عمر الهزيمة الاولى ، وفي وجهه الكثير من معالمها . .

انه وحيد ، بلا اهل . لا احد . وحتى بلا حقيبة ثياب . لا ، الحقيبة الكبيرة التي يحملها ليست له . انها للمرأة ، وهو لا يعرفها . التقوا في السيارة التي اقلتهم الى « جسر الفرار » . تشدهم رابطة الفرار . . . (لماذا لا تحمل هذه المرأة امتعتها ؟ ربما عندئذ ، سيتساءل الفتى عما يفعله بذراعيه القويتين) . . .

احسست انني اشهد حلما مزعجا ، او مسرحية من ذلك النوع الذي يعري لك اعماقك ، بينما يتحرك ابطاله ببساطة تشبه السذاجة .

سيارة اخرى . . . مجموعة جديدة من النازحين . . حوار آخر . . لماذا جئتم ؟ ماذا تنتظرون ؟ . . . اجوبة اكثرها من نوع الشعارات . لقد دفع المواطنون العرب ضرائبهم طيلة عشرين عاما من اجل اذاعات ساهمت في تربية لغة جديدة للفرد العربي : لغة الشعارات . . . بدأ سوء التفاهم يأكلنا ، وربما العجز عن التفاهم . صارت الكلمات لا تعني شيئاً حقاً .

وسيارة جديدة . .

كانوا هذه المرة مجموعة من الاطفال ، ووالدهم شيخ مسن ، وقد جلسوا جميعاً في مؤخرة سيارة شحن تحمل بعضا من اثاثهم . . .

اجتازت سيارة الشحن الجسر ، ووقفت برهة ريثما ينزعون رقمها المعدني الاسرائيلي ويضعون بدلا منه (نمرة) اردنية . اهذا كل ما استطعنا ان نواجههم به؟ . . لم

التفت ناحية الجسر ، كنت اشعر بان الجنود الاسرائيليين يرقبون ذلك بسخرية ، واحسست بنظراتهم تخترقني استخفافا . . ثم ما جدوى ان نسأل ونكتب ونرحل . .

ـ لماذا جئتم ؟ . .

كان رده هذه المرة من نوع جديد ، بسيطا ومباشرا : « انا من القدس . . من حي (. .) . تاجر . . انذروني باخلاء بيتي في السوق ، هدموا البيت المجاور وجاء دوري . . سيجيءُ دوركم جميعاً . . . انكم لا تعرفون ان دوركم سيجيء . . . لم يكن لدي سلاح لاحارب .

نعم . سيجيء دورنا جميعا . جراراتهم التي تهدم البيوت في القدس ستتجه خلال اعوام نحو بيوت عمان ودمشق والقاهرة وبيروت وبغداد . . انها ليست مأساته وحده . . انها مأساتنا أكثر مما هي مأساته ، لاننا ما زلنا لا نعرف ، واذا كنا قد عرفنا نواياهم التوسعية فما زلنا نتصرف كما لو كنا لا نعرف . .

كان الشيخ يتحدث بصوت غريب ، وجهه مهدم ، وفمه خال من الاسنان . . احزنني فعلا ان تتشرد شيخوخته . شيء واحد اضعف امامه ، منظر الشيخوخة البائسة الذليلة . انها تؤلمني اكثر من مشهد الطفولة البائسة . شيء آخر هزني في هذا الرجل . لهجته في الكلام تشبه لهجة فقراء دمشق . . اسلوبه وصوته وصراخه . . . انتهوا من تبديل اللوحة المعدنية للرقم . سارت السيارة به ومازلت ذاهلة . . .

(ستتقدم الجرارات في شوارع بيروت . في سوق المعرض . في شارع بلس حيث كنت أدرس بالجامعة الاميركية . وأسكن . سأكون ساعتها في الدولشي فيتا مع بقية الشلة ، او في الهورس شو ، نتحدث عن الله والوجود وابعاد النكبة) . . .

ان شيئاً ما يجب ان يتبدل . . اشياء كثيرة يجب ان تتبدل . . . يجب ان يعاد النظر في التنظيمات كلها ، في الانظمة كلها ، يجب ان يعاد بناء كل شيء من جديد على هدي مبدأ واحد

لا مفر من ان نستعد للحرب كي نمتلك السلم .

فلسطين لم تعد قضية العرب جميعاً من باب (العنترة) او على طريقة : « امجاد يا عرب امجاد » ، وانما هي قضيتهم جميعا ايضا من باب الانانية . حب الذات . الحرص على الحياة . الحرص على البقاء . ببساطة اكثر ، من باب الوقوف ضد الجرارات التي يخطط لها منذ الآن لهدم بيوتنا . .

سواح فوق الجسر

سيارة جديدة . هذه المرة ، هبط القادمون في قفزات رشيقة . رحب بهم بعض

الجنود الاسرائيليين وعادوا فوراً الى مراكزهم ، واختفوا بين الاشجار . هذه المرة لم يتم تسجيل اسمائهم في مركز (الترحيل) ، وانما حلوا ضيوفا على الجسر ، وعلى الرحب والسعة .

وجوههم تدل على انهم من الالمان . قال لي احدهم فيما بعد انهم من زوريخ . حديثهم مع حارس الجسر كان ودياً جداً الى حد يثير الدهشة ، كما لو كان ربيبهم . . .
همس رفيقي في اذني : انظري الى سلاحه . . انه من صنعهم . .

وقفنا جميعاً في منتصف الجسر نتحاور . . في احاديثهم سخرية مبطنة . قال لي احدهم : سمعنا بأن لديكم اغاني فولكلورية جميلة . . . نريد ان نسمع منك بعضها . . .

ـ اهدونا لعبا كتلك اللعبة وسنسمعكم اجمل الاغاني .

ـ لعبة ؟ اية لعبة ؟ . . .

لم أجب. كانت عيناي معلقتين بسلاح الجندي الاسرائيلي ،وكذلك نظرات مرافقي . وكانت لعبة جميلة حقا تلك التي زودتهم الانظمة بها ، في عيني شهوة حقيقية الى ان يكون ذلك السلاح لي . . .

(في ليلة مظلمة ، سيقفز فلسطيني من احدى الشجيرات كنمر . في لحظات سيكون الفتى مرمياً على الارض ، واللعبة الجميلة في يد الفلسطيني . وسيختفي بها في قلب الظلام . . . حتى السلاح لا مفر من ان نسرقه لندافع عن ارضنا . . . ننفق الملايين لايصال التفاهة الينا واستيراد ارخص بضائعها وعرضها عن طريق احدث الاختراعات العلمية كالتلفزيون ولا نعرف كيف ننفق لايصال السلاح لايدي العزل الذين يحاصرهم الموت ويفتك بهم الوباء) . . .

بناء صغير يطل على الجسر والنهر ويستعمل شبه (برج للمراقبة) ومكانا للاستراحة . حييت عن بعد عدداً من الجنود العرب الذين يقضون اوقاتهم في انتظار (الحرب) . . وحملت الي الريح صوت ام كلثوم ينشد عبر المذياع وتبينت انها ربما كانت تغني (الاطلال) . . . كانت تقول : « وقسوة التنهيد » . . . وللمرة الثانية في حياتي احسست انني لا احب ان استمع اليها . . . واحسست انني مفجوعة بنفسي لانني احبها (عاطفياً) رغم رفضي الكبير لما تمثله (منطقياً) . . . امام جسر الذل ، جسر الفرار ، تمنيت ان اسمع صوتاً جديداً ، كلمات جديدة ، لحنا جديداً ، تمنيت ان اصير انسانة جديدة على مستوى النكبة ، انسانة لا تهزها آهة ام كلثوم المحرورة لقصة حب واطلال

حبيب . . . تمنيت ان اسمع آهة من نوع جديد ، لقصة شعب واطلال مجد . . .

ام كلثوم اكرهها احياناً لانني اعي معنى حبي لها . لانني بحبي لآهاتها على طول ساعات ، اكتشفت ذلك الجانب العاطفي من شرقيتي . . ذلك الجانب الذي يجب ان (اهجره) والا واجهت ذات يوم مرحلة التهجير التي تعاني منها الدفعة العربية الاولى في برامج « اسرائيل » : الدفعة الفلسطينية . .

مراكز غسل الدماغ

المفروض ان اسمه « مخيم الكرامة » . . وقد ادهشتني التسمية وصدمتني . فأنا اؤمن بان آخر مكان يمكن ان تربى فيه « الكرامة » هو المخيم ، الا اذا كان معسكراً للتدريب على حمل السلاح تأهباً للعودة والانقضاض . . .

مخيم الكرامة . . مخيم دامية . . . مخيم زيزياء طار في الريح والعواصف ، وتم نقل اهله الى وادي الاردن . . . مخيمات للاجئين . . . خيام . . . خيام . . . سعال في الليل . . . بكاء اطفال .

سرت طويلاً بين الخيام . دخلت كثيراً من الخيام . تمنيت مرة ان يطردني شخص من خيمته ويقول لي : اخرجي هذا وقت نومي .

كان ذلك يمكن ان يشعرني بأنه على الاقل يحس انه يمتلك خيمته والارض التي نصبت فوقها . . .

تمنيت لو يتجمع الاطفال حولي ، ويرمونني وقافلة الفضوليين التي ترافقني بالحصى والحجارة (لا اقول بالبيض والبندورة ، هذا ترف برجوازي هنا ، ربما لم يذوقوا البيض منذ اشهر) ، ويطردونني من (حيهم) . ولكن شيئا من هذا لم يحدث . . .

وكان ذلك اول ما صدمني . . . كنت اظنني ساضطر للمبيت بينهم اياما كي يفتحوا لي قلوبهم ويتحدثوا عن مآسيهم . . ولا ادري لماذا شعرت بانني بين فريق من الناس تدرب على ان يقول الشيء ذاته ، ويروي مأساته بالعبارات نفسها لاي عابر سبيل . . . كما لو كان يتقاضى طعامه ثمناً لذلك . . . وهو لذلك لا يرفض ولا يقاوم . . .

ـ من اين انت ؟

ـ من مكان ما في الضفة الغربية (نابلس ، القدس ، . . .)

ـ لماذا انت هنا ؟

ـ اليهود .

ـ لماذا لم تحارب ؟
ـ لم اكن مسلحاً .
ـ لماذا لم تبق ؟
ـ قتلوا جاري .

لكل منهم جار مقتول ! الشائعات لعبت دوراً لا حد له في هزيمتنا . الشائعات التي نسلطها عادة سلاحا اجتماعيا ضد بعضنا البعض ، وجدت فيه « اسرائيل » اداة جاهزة لاستعمالها ضدنا . . كنا دوما ننقل الشائعات التي تروجها بامانة . . عم الرعب . ساد الهلع . غادروا الدار الى الجنة الموعودة ، جنة انتقام العرب لهم . . ترى هل سنخذلهم عشرين عاما جديدة ؟ . .

الفراغ ، ورمضان كريم

الصورة التقليدية التي حفظناها عن الخيام يجب ان تتبدل .

المخيم ليس عددا من الخيام تقطنها قبيلة من البشر تعتبر ورقة رابحة في لعبة سياسية يتنافس الزعماء على كسبها . .

المخيم ليس معرضاً للبؤس الانساني مفتوحاً على مصراعيه لكل فضولي وصحفي وعابر سبيل . . .

المخيم ليس وثيقة (بؤس حال) في يد الدول العربية تلوح بها في المحافل الدولية .

المخيم يقام أصلا كمأوى موقت للبشر ريثما تتم مساعدتهم على العودة . ولما كنا لا نعيش في العصر الحجري ، ولما كان السلاح شرطا اساسيا للحرب ، اذن ، لا مفر من (المغامرة !) وتسليح اهل المخيمات !. . والا ، فمن الافضل اطلاق الرصاص على كل نازح فوق جسر الفرار ، ففي قتله الفوري موقف انساني اكثر مما في قتل كرامته التدريجي في مخيمات الكرامة ، في كافة الاقطار العربية . . .

مخيم (الكرامة) الترابي

وفيه عدد كبير من اللاجئين من عام ١٩٤٨ . وهم يقطنون خياما من التراب (من المفروض انها بيوت . متى كانت الجدران تكفي . . اين الجذور !) . .

القرية صورة مصغرة عن اية قرية عربية اخرى خاملة ، غارقة في الجهل حتى العجز عن استيعاب مأساتها . . .

انهم يصومون ويصلون ويستمعون الى الاذاعات العربية ويصدقون كل ما يقال

لهم ، وهم مسالمون ، وفي قاع عيونهم حزن عتيق كذلك الحزن الذي يطل من عيون الاسود التي تم ترويضها منذ زمن طويل ، وقضت اعواما في السيرك حتى اعتادت نظرات الناس . العمل الفدائي وحده يمكن ان ينقذهم . . وينقذنا . .

وفي سيرك الامة العربية ، تم (تدجين) بعض اللاجئين طيلة عشرين عاما ، وتم غسل دماغهم من صفات انسانية كثيرة ، اهمها التحمس او التحفز لعمل شيء ما . . . انهم يروون مأساتهم ببساطة ، كما لو كانت درسا حفظوه ، ويرموننا بنظرات شبه حاقدة ومحتقرة تطل من عيون يصعب ان تلمح دموعها . . عيون كعيون المهرجين ، عميقة وغامضة وتخفي مأساتها كي تدفع ضريبة الحياة . . . لا ادري لماذا احسست ان اللاجيء انسان مجروح ، مجروح جدا من العرب ، والى حد انه لا ينبس بكلمة تشير الى ذلك . . . حينما يردون على اسئلتي ، اعرف سلفا ما سيقولون . . انهم لا يثقون بنا ، ويشعرون باننا لم نفهم مأساتهم ، واننا اسأنا لهم ، واننا لا نستحق ان يفتحوا قلوبهم لنا . . . انهم يقولون لنا بالضبط ما هو مطلوب سماعه عادة ! . . انهم يردون الينا بضاعتنا التي لم نمنحهم سواها . . . ولانهم يشتركون معنا (كعرب) في مرض الجهل وربما الامية ، لذا فان ذلك كله يتم بصمت ، ويعبرون عنه بصورة عفوية ربما دون ان يعوه تماما . . .

كان صوت المذياع يعلو في ازقة القرية . تلاوة القرآن قبل الافطار . . الاطفال يركضون . . . عشرات من الاطفال . . مئات من الاطفال . . كل رجل اقف لاحدثه تلتف حوله قبيلة من الاطفال وكلهم اولاده (ماذا سوى الجنس يهربون اليه في ليالي البرد والهزيمة والخيبة . . حينما تسكب السماء امطارها ، وتتسلل ريح الصقيع عبر النوافذ المحطمة ، ماذا سوى الجنس يخدرهم ؟ وحينما ينطفيء المصباح وتفوح رائحة الكاز في الظلمة ويسعل طفل الجيران ويموت تدريجيا كل امل في العودة ، وتنبح الذاكرة فتمزق النفس التي تحكمها قوى خارجة عن ارادتها وتعجز عن فهمها ، ماذا سوى جسد المرأة ، ذلك التخدير العجيب ، اللذة الوحيدة التي لم يفقدوها بعد في هذا العالم الوحشي ، بل ربما زادتها النكبات مدلولا وامتاعا) . .

وهكذا ، مع الجهل ، تدل الاحصاءات على تضاعف لا حد له في ارقام المواليد . . اجيال جديدة تفتح عينيها في مكان حزين اسمه مخيم الكرامة . .

تحدثت الى عدد كبير منهم . التقطت عشرات الصور . ارهقت مرافقي حتى الاعياء . . من هذا كله ، اختار جوابا واحدا نموذجيا لسؤال نموذجي . .

سألته : متى تعود ؟ . .

قال : حين يشاء الله . .

وتركني وانضم الى حلقة ينظم فيها احدهم ملحمة عن ضرورة الصيام . . . تمنيت لو يقول لهم انهم على سفر . . وانهم في حالة جهاد مقدس . . . وان بيوتهم خيام طينية . . تمنيت ان يفجر جراحهم بدلا من ان يساهم في تخديرها ، كأن يروي لهم مثلا هذه الحكاية : مر احد ائمة المسلمين باعرابي يصلي بحرارة والدموع تغطي وجهه . سأله . ما بك ؟ اجاب : ناقتي مريضة وانا اصلي كي يشفيها الله . . . ولما كانت الناقة مصابة بالجرب ، قال له الامام اطليها بالقار ثم صل .

ومع ذلك، كيف نلومهم ونحن لا نمنحهم الفرصة ليكونوا شيئاً آخر ، وليس لديهم لا ناقة ولا جمل ولا (قار) . ولماذا نبكيهم ؟ السنا مثلهم بطريقة ما . . اليست حياتنا النفسية صورة عن حياتهم سواء في صالونات (الستيل) او بيوت التنك ؟ .

مخيمات (المحدثين) النازحين

احساس واحد استولى علي وانا اطوف بالمخيمات هو ان ذلك يجب ان لا يحدث ، يجب تجنبه بأية طريقة ، وبأي ثمن . . .

المخيم مكان لاانساني . والشعب الفلسطيني يعاني فيه من عملية بطيئة هي عملية غسل الدماغ . . . ولن ينقذه منها غير العمل الفدائي . . . .

واذا كان اليهود قد لقوا من غرف الغاز والتعذيب ما لقوه في المانيا الهتلرية ، فان عرب فلسطين يلقون في هذه المخيمات ما هو اقسى من الموت تعذيبا او جوعا : انه تمويت اعصابهم ، انتزاعها من جسد فكرهم ، ومن مقوماتهم كبشر . . .

لقد اعتدنا ان نذهب الى المخيمات ، ونراهم ونشفق عليهم ، ونرضي ضميرنا بتبرع صغير، ثم نمضي في حياتنا اليومية كما لو كنا قد ادينا واجبنا. . . ولكن ذلك يجب ان يتوقف . لم اشعر بالشفقة في المخيمات . شعرت بالذنب والخزي ، لا كعربية ، وانما كانسانة ترقب مسرحية اذلال وتعذيب تجري طوال عشرات السنين وعلى جزء من شعب بأكمله . . .

لقد ضج العالم واحتجت جمعية الرفق بالحيوان على ارسال كلب الى القمر وتعريض حياته للخطر لانه روح حية لا حق للانسان بالتصرف فيها . . .

وتضج جمعيات الحفاظ على الحيوان من اية عملية ابادة لجنس من الاجناس ، وتنظر باستنكار الى ما يجري لفئران التجربة في المخابر . .

هنا شعب بأكمله يعاني من اكبر عملية غسل دماغ في التاريخ . . . يجريها العالم

على مرأى ومسمع من الجميع . . . . وحتى من الدول العربية التي لا تعي ذلك بما فيه الكفاية لتحد منه ، او لتؤ يد ايقافها له بالقوة .

مأساة شعب نصفه يعتصم بجبال الضفة الغربية يعيش في المغاور ليتابع المقاومة المسلحة ونصفه الآخر يقذف به الى المخيمات . . .

انا لا اخاف على اللاجئين من الموت جوعا . لم تثر شفقتي عوامل الحر والبرد والبؤ س المرير التي يتعرضون لها . . . وليست دموع اطفالهم هي التي تمزق قلبي . . .

اخاف عليهم من ارغامنا لهم على مد ايديهم لنا عند كل وجبة لتناولهم طعامهم .

اخاف عليهم من ذلك الاذلال اليومي . من التساؤ ل كلما ارتدوا سترة « ترى لمن كانت ؟ » . . اخاف عليهم من البطالة . من الضياع . من اللاهدف . . .

كل ذلك يجعلهم فريسة ضعف لا حد له . يجعلهم امواتا في الداخل ، اجسادهم توابيت متحركة بين الخيام .

المخيم مدينة رهيبة . انها بلا غد . بلا ارض . بلا ارادة . انها محرومة من حق تقرير المصير . (الثورة المسلحة وحدها يمكن ان تنقذهم وتنقذنا) . .

لم يشهدالعالم ايذاءً وحشياً طيلة تاريخه كاعتداء اليهود في فلسطين .

لا . لا اتحدث عن البيوت التي هدمت . لا ، ولا النساء والاعراض وبقية النغمات التقليدية . . عن شيء آخر اتحدث لم نشهده في غزوات هولاكو ولا شهدته حروبنا مع اوروبا ولا حتى في الحروب القديمة . . . وهو ترحيل الناس من ارضهم بالقوة ، وابادة شعب بأكمله لا عن طريق القتل .

ان ما حدث في مخيمات ١٩٤٨ يجب ان لا يتكرر هذه المرة . . ويجب ان نحول دون غسيل دماغ هذه الوجبة الجديدة من الشعب الفلسطيني الجريح ، ودون تحويلهم الى فرقة (حسب الله) لجمع التبرعات . . . يجب الا نعاملهم على انهم مرضى ، مشلولون ، عاجزون عن الحياة اذا لم نطعمهم والا قتلنا جيلهم الثاني في عصر اهم عناصر الحرب فيه : الزمن .

يجب ان نحاول انقاذهم من الامراض التي نعاني منها جميعاً . . من الافضل لنا ولهم تحويلهم الى فرقة حربية كبيرة قد تحمينا ذات يوم بدلا من ان ننوء بمطالبها . . .

عام ١٩٤٨ جمد اللاجئون بانتظار حل لم يجيىء . . .

هذه المرة ، يجب ان نعي هذه الحقيقة ، وان يعيها العالم الذي يغرس ـ دون ان يدري ـ في شعب جديد هو الشعب الفلسطيني بذور حقد ومرارة قد يحصد العالم حصيلتها ذات يوم .

عمان ١٢/ ١/ ٦٨

كمال ناصر : عهروا الصخرة . . يا ليتهم نسفوها

. . . والسؤ ال ما يزال ينبض : ماذا بعد ؟ . . .

خارج الخيام في الغور ، على طول نهر الاردن ، الليل عالم غامض من التوتر ، مشحـون بالترقـب والمفاجـأة . . . صمتـه من ذلك النـوع الـذي لا يعرفـه الا سكان الصحراء . . . لا بصيصاً من نور سوى النجوم ، واضواء ابراج المراقبة الاسرائيلية على الضفة الاخرى المحتلة للنهر . . . قناع الصمت يغلف الليل . . .

وفجأة ، سقط القنـاع ، وسمعنـا انفجـاراً كبـيراً وعـدداً من الطلقـات النـارية المتلاحقة ، ثم اضاءت المكان قذيفة من ذلك النوع الكشاف (ايتهـا الارض ، اعمـي عيونهم ، واحمي فدائييك) وهمس مرافقي : من المتوقع ان تشتد غارات الفدائيين في فترة العيد هذه . . . فلنمض . . هل تودين رؤ ية مزيد من المخيمات ؟ . .

أجبت وانا أتأمل الاضواء الكشافة تجوس ضفة النهر بعصبية وجنون : اريد ان اقابل فدائياً ! !

- من اين ، من اين نأتيك بفدائي . . . (اضاف ساخراً) ثم انهم ليسوا كالادباء ، وليس هنالك مقهى خاص يلتقون فيه . .

- فلنترك السيارة ولنسر الامتار الباقية الى ضفة النهر . . من يدري . . . ربما . . .

ظل المصور الكبير (ابو طلال) صامتا ، ولكن ارتسمت في عينيه صور اطفاله . مرافقي عاطف تحمس . السائق لم يعترض . كان واثقاً ان احدهـم سيعترض . .

أصيبت سيارتنا بعطل ! اضطـر « البعض » الى انقاذنـا بسياراتهـم . مكان مليء بالحركة والحياة . سيارات الكتيبة العراقية المرابطة ، وتحركات الجيش الاردنـي . الليل العجيب المليء بالاسرار . الليل العربي الحقيقي ، الذي تختفي فيه الخيام عن العيون وتبدأ النمور غاراتها . . . .

وبعد ساعة ونصف كنت في قاعدة ما ، والفدائي امامي احدثه . مرافقي يرقب ما يدور وهو لا يصدق ان المصادفة يمكن ان تقدم خدماتها لانسان الى هذا الحد .

الفدائي امامي .

يؤمن بالقليل الذي يقوله .

السؤال ما زال ينبض : وماذا بعد ؟ . الفدائي يرد . .

« عمري ٢١ سنة . نعم ! تدربت جيداً في مكان ما . آخر مرة نجوت فيها من الموت كانت منذ اسبوعين . ادين بولائي لشعب فلسطين . انتمي الى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . ما تسألين ؟ هل تساعدنا الجيوش العربية ؟ اننا نتقبل كل مساعدة غير مشروطة ! . . نعم ، اطلقت على النار مجندة اسرائيلية ، وندمت كثيرا لانني لم اقف في وجه ابي يوم منع اختي من متابعة دراستها . كنت صغيرا يومها على اية حال . نعم ، هنالك فدائيات نتعاون معهن ، لا ، لا يتقن اطلاق الرصاص ولكن لهن مهامهن . مثلاً ؟ وضع قنبلة موقوتة في سينما . . الموت ؟ طبعا اخافه . . لكنني لا اخاف شيئاً حينما اتسلل .

مرة وصلت الى داري القديمة في يافا . . شعرت براحة عميقة وانا اتسلل في الليل الى أرضي ، اشعر ان الارض معي وضد الاسرائيلي الذي يحاول اصطيادي ، اعرفها جيداً هذه الارض وافهمها . . اعرف كم يجب ان اضغط بقدمي وانا اتسلق التل كي لا تتحرك الحصى تحتها او يسقط حجر . . . الليل معي وضدهم . . . هم الخائفون لا انا .

نعم . . اؤمن بأن العمل الفدائي هو الخطوة الاولى والاساسية لاستعادة فلسطين . . بعد الهزيمة تفرغت لعملي الفدائي . »

لن نركع

مع خيوط الفجر الاولى كنت اطل على عمان ، وكانت ما تزال تبدو حزينة ولها كآبة جسد يتنفس برئة واحدة بعد ان فقد الرئة الثانية ، الضفة الغربية . . وكنت اشعر انني مثلها . .

وكنت ما ازال اردد « وماذا بعد » ، بدلا من تحية الصباح التقليدية ، حينما وجدتني وجها لوجه امام كمال ناصر .

لم اره قط كما رأيته هذه المرة . . . لا ، ما زال ثائراً وعفوياً ومتحمساً ومتوتراً ، ولكن ، للمرة الاولى ارى في عينيه تلك النظرة المفجوعة المكسورة . . . « تلا عليّ الاسرائيليون امر طردي من بلادي . . كنت احس ان تخاذلنا وجهلنا وتشتتنا كان يتلى عليّ عبر شفتي الاسرائيلي . . . وهكذا غادرت بيتي في بيرزيت . . . امي ؟ مسكينة . . . خلفتها هناك . . رفضت الهرب » . .

من قلب فلسطين العربية المحتلة ، حيث يعتصم الشبان بالجبال من اجل

الاستمرار بالمقاومة ، ويتابع الاسرائيليون مختلف عمليات التعسف والتجويع والافقار للتخلص من ابناء الارض ، يجيء كمال ناصر الشاعر العربي وفي كلماته ذاك العنفوان الجريح ما يزال حاراً ومتوهجاً كما كان لدى كل عربي منذ ستة اشهر ، ايام النكبة (بدأ الصدأ يكسو جراحنا ، لا يمكن لمن يعي هزيمته ان يتصرف كما نتصرف حكومات وافراداً) . . كمال يؤمن بما هو اكثر مرارة من ذلك . . يقول : « العالم العربي مطالب باعادة النظر في كل شيء . . يجب ان نتحول جميعاً الى مبشرين » . . .

في كلمات كمال ناصر التي استمعت اليها ، وكلمات الشاعرين « عمر عبدالرحيم » و « تيسير سبول » ما يشبه النبوءة . . كان صوته مكسراً كاصوات العرافين والانبياء . . محزونا حتى الشراسة . . . تابع كمال ناصر :

« يجب ان يتحرك العالم العربي فوراً . الحركات الشعبية يجب ان تفرض ارادتها ، والسلطات يجب ان تعبر عن هذه الارادة . . الناس في الضفة الغربية بحاجة الى المساعدة كي يقووا على الصمود . . وحدهم الآن في المعركة . . . التنظيم ؟ . نحن بحاجة الى عمل سياسي موحد ومنظم . . لقد ذبحوا وعذبوا ، وعهروا الصخرة ، ليتهم نسفوها ، ربما كنا وعينا معنى النكسة . . نعم ، انا قادم من هناك ومتحمس اذ ارى العالم العربي يغرق من جديد في مستنقع اللاوعي بمعنى ما يدور . . المطلوب عمل كبير لانقاذنا من تجربة الاذلال تلك .

من الضروري ان تتوقف هجرة الناس من الضفة الغربية . . يجب ان نوصل الاموال اليهم ، الجائع لن يقوى على الحرب بعد ايام عشرة من التجويع . . نعم ، سأتولى تقديم برنامج موجه الى سكان الضفة الغربية من اذاعة عمان . . اسمعي يا غادة . . عمان مهددة . . وكل شبر في الوطن العربي مهدد . . جو الاسترخاء الموجود لدى الجماهير العربية لا يجوز . . كل ما يدور في العالم العربي يجب ان يتبدل . . التهويد قائم في القدس على كل صعيد (تذكرت نجمة اسرائيل التي مزقها جندي اردني بسكينه عن حقيبة جلدية للاسعافات الاولية حملها احد النازحين معه . . اكتشفنا ان كل انسان هناك مجبر على شراء مثل هذه الحقيبة ، وكلها يحمل رمز « اسرائيل » ! . . .) يتابع كمال ناصر :مطلوب من العالم العربي ان يغضب عمليا . . نعم . اضراب المحامين ما زال قائما ، ولكنهم بدأوا يجوعون . . الوضع هناك شاذ جداً وغير محتمل . . المفجع اننا نتعذب على جبهتين عدوانهم هم ، واخطائنا نحن . . انهم يلعبون لعبة الحرب المجرمة بطريقة حضارية رهيبة . . مثلا ، ليس هنالك ضابط يركب سيارة صالون كما عندنا . . التماس

الحقيقي قائم بين الضابط وجنوده . . . انهم يعرفون بعضهم بعضا ، موشي ديان ينادونه باسمه . . إساءاتهم منصبة علينا . . لا ، لا امكانية ابدا للتعايش مع « اسرائيل » . . . عقدة الفي سنة تحولت الى عقدة عظمة وخيلاء .

مقاومتنا السلبية مذهلة . . .

الشعب العربي هناك ، انتفض بعد عشرة ايام وبدأ ينظم نفسه ويرفض الاحتلال . . . اننا نواجههم بجميع انواع العصيان الممكنة وعلى كل صعيد : اضراب في المدارس ، اضراب المحامين ، رفض دفع الضرائب ، كل ما يمكن ان يخطر لك من صور الرفض . . . الشعر ، محمود درويش وسميح القاسم وغيرهم . . . مختلف انواع الرفض تتصاعد لتصل الى حد العمل الفدائي . . . يمكن للدول العربية المجاورة ان تكون قاعدة لهذا العمل الكبير ، والمطلوب من العالم العربي ان يرعى هذا الصمود . . حسنا ، اني اؤمن بان التمسك بوحدة الضفتين شعار اساسي ، وقد استطاعت قيادة المقاومة السلبية ان تجهض قيام « الدولة الفلسطينية » لان قيامها بالشكل الهزلي الذي يطرحه اليهود عملية تهويد . . مندوب اشكول قام بعدة اتصالات بالسياسيين وباسلوب قذر ، كالقول : لقد خذلكم العرب ، تعالوا نتفق ! . . . رددناهم جميعاً . . . وهكذا يا غاده رموا بي على الجسر . . المهم الا يكتشفوا البقية كي يستمر العمل . .

الغزوة الاخيرة ابعدت السلام الى الابد . هذا استعمار من نوع جديد ، اقتلاع الانسان من جذوره امر لم يحدث من قبل في التاريخ . . العمل الفدائي اساسي في هذه المرحلة ، ومن الضروري توحيده . . . اكتب ؟ . . . غير مهم . . لقد فقدت الكلمة العربية ، محتواها واصالتها ، ولا يعيد لها شرفها غير المسدس والتوعية » .

وخلفت صديقي كمال ، النائب السابق ، الشاعر ، المواطن الفلسطيني المجبر على النزوح تحت (خيمة) نفسية .

الاعلام الموحد

ملايين الصرخات والاحداث ، من يوصل صوتها الى ضمير العالم (ان كان في غاب الحياة البشرية شيء كهذا) ؟ . .

ولما كانت مهمة السلطات الحاكمة ، تنفيذ رغبات الشعب المحكوم ، لذا سألت سلطات الاعلام عما فعلت بهذا الشأن . . .

وفوجئت بمجموعة من الكراسات الدعائية باللغات الاوروبية واكثرها جيد شكلا ومضمونا ويعبر عن فهم جديد للعقلية الاوروبية . . . الكلام فيها قليل ، والصور

كثيرة ، اعدت للاوروبي الذي يقرأ بينما يأكل الساندويتش في المترو ، او قبل النوم بينما هو يبتلع اقراصه المنومة ! . .

كما فوجئت بكتب مطولة للاقلية المثقفة لفت نظري بينها كتاب الاستاذ سامي هداوي (الحصاد المرير ـ فلسطين عام ١٩١٤ ـ ١٩٦٧) وهو باللغة الانكليزية ، ولم تسنح لي الفرصة لقراءته ، ورغم العرف اللاصحفي ، ـ الكتابة عن الكتب حتى قبل قراءتها لطفا ورداً للكرم ـ الا انني سأتريث في الكتابة عنه الى ما بعد قراءته . .)

اكسودس العرب ؟ لا

عن فيلم اعلامي شاهدته هناك اتحدث . اسمه « اكسودس ١٩٦٧ » . هو فيلم ناجح جداً من الناحية الفنية ، وذلك امر يسجل لمخرجه الاستاذ علي صيام .

وهو يتحدث عن الخروج الاخير للنازحين من اراضيهم . . والدمار الاقتصادي الذي حل بشعب الاردن بعد العدوان الاخير . . . والدمار البشري ، وجدري النابالم الذي اكل الوجوه . . . واللقطات في الفيلم جيدة وسريعة ، ومؤثرة بلا افتعال . .

وهو بلا شك اول فيلم في العالم ، يعلق على المشاهد فيه ملك . . . فالتعليق هو بصوت الملك حسين (ذلك امر ناجح من الناحية الدعائية في الخارج) خصوصا ان صوت الملك اذاعي وفيه رجولة حزينة غاضبة ومؤثرة .

ولكن الفيلم لم ينج من ثغرة كبيرة في نظري ، اذ انه يعبر عن وجهة نظر قطرية محلية بالنسبة لمأساة شاملة عربيا هي مأساة فلسطين . والفيلم يتجاوز الاشارة الى ذلك بحسن نية او بسوء نية لا يهم . المهم الا يحدث ذلك . . ثم ان وضع المأساة في اطار محلي جدا وتعتيم موقعها على الخارطة العربية السياسية ككل ، يضعف القضية بوجه عام ، ثم ان وضعها في اطارها العربي الكبير لا ينتقص من جهود الاردن في هذا المجال ونصيبه من المأساة . .

والمتفرج الاوروبي الجاهل بقضايانا قد يخرج من الفيلم وهو يتساءل ببراءة : اذن ما علاقة الجزائر بقضية فلسطين ـ الاردن ؟ . . .

وهذا خطأ اعلامي تقع فيه اكثر دولنا العربية . في الربيع الماضي شاهدت في باريس معرض توت عنخ آمون الذي اقيم في (القصر الصغير) . . . وهو يتحدث عن تاريخ مصر وعظمتها . . ولم يرد اي ذكر لمصر كدولة عربية ، ويومها كنت كعربية افخر بعظمة المتحف حين فوجئت بفرنسية تسألني ببراءة : ما علاقة العرب بالمتحف المصري هذا ؟ . . .

اعتقد ان توحيد الاعلام العربي سيساعدنا على تخطي عشرات من الامور المشابهة وعلى الفوز بمردود اكبر لاعلامنا . .

حذار من المفاتيح !

اسر كثيرة من فلسطين حملت معها مفاتيح ابوابها قبل ان تجبر على مغادرتها . . . كلهم علقوا المفاتيح في بيوتهم بانتظار العودة . . .

كذلك فعل العرب يوم غادروا الاندلس . . . ولاننا لا نريد لفلسطين ان تصبح بعد قرون اندلس اخرى .

علينا وبسرعة ان نجد جوابا لـ « وماذا بعد » . . .

هل علي ان اصرخ : الحرب . ما دام شرط الملك حسين : « السلام مع العدالة » غير ممكن التحقيق ؟؟ . .

عمان ١٩/ ١/ ٦٨

مـوتى بلا قبـور

وحينما يسقط جسد الليل الثقيل فوق صدر مدينة عمان ، وينفجر من احشائه نهر الكآبة ، يتسرب الى النفس احساس موجع بالضيق والمرارة والحاجة الى الانطلاق . . . ولـكن ، الى اين ؟ . . . دور السينما محـدودة ، والـزيارات العـائلية طقـوس متـكررة ممجوجـة ، والقـدس لم تعـد هنـاك ، لا ، ولا اريحـا ، ولـم تبـق الا شوارع عمان الحزينة . . .

ربما لذلك بالـذات ، سألـت ؛ هل هنـالك مسرح ؟ . . قالـوا : اسـألي هانـي صنوبر . . . لم اكن اجهل هاني صنوبر ، لكنني كنت احاول ان اعرف فيما اذا كان قد نزل الى الحلبة فارس جديد للمسرح . .

ولكن ، (وحتى اشعار آخر) ، يبدو ان هاني صنوبر ما يزال العمـود الفقـري الوحيد للحركة المسرحية في الاردن . . . (باستثناء المسرحيات الحية التي تقدم يوميا في دنيا الفكر والادب والسياسة ، وكلنا في الهم شرق) .

المسرح ،والامية الفكرية

وانا لا اؤمن بان المسرح نوع من الترف الفكري ، ولا اعتقد انه من الكماليات التي لما (نتطور) بما فيه الكفاية لنستحقها ، وانما اؤمن بان المسرح يمكن ان يكون مدرسـة شعبية لتلقين ابجدية الوعي والرقي . واؤمن بالفرق المسرحية الجوالة لا الارستقـراطية وحدها . وذلك ما نحن بامس الحاجة اليه في مرحلتنا الراهنـة . . . والانسـان الواعـي والمثقف يستطيع وحده ان يكون محاربا واعيا وعـالما واعيا وطبيبـا واعيا . . . والشعـب الواعي ، الذي يميز ما يريد ، وبالتالي يعرف كيف ينفذ ما يريد ، ويفرض ما يريد ، هو ما نفتقر اليه . . .

والمسرح من بعض وسائل اعداد الفرد العربي ليكون على مستوى معركته بان يعيها بابعادها كلها قوميا وانسانيا . .

لذا بحثت عن هاني صنوبر وفرقته : فرقة وزارة الاعلام الاردنية . . .

في بيت الاشباح .

ذهبت اليهم في مقر الفرقة .

لا ادري لماذا كنت اتخيل دوما ان اية فرقة مسرحية ، لا بد ان يتدرب افرادها في مكان غير عادي ، بطريقة ما . . .

ربما كانت تلك الفكرة المسبقة هي السبب الحقيقي الذي جعلني اصدم ، حينما وصلت الى مقر الفرقة ، ورأيته بناء آخر من تلك الابنية العادية المنتشرة كثيرا في مدننا والتي لا طابع لها . مجرد بناء آخر . ليس جميلا ولا بشعا . عادي حتى إثارة الغضب . تصعد في درج يمكن ان يؤدي الى بيت او عيادة طبيب .

ولكن حينما تصل الى منعطف درج الطبقة الثالثة ، تحس ان شيئا غير عادي يحتل البناء ، اذ على جدار الدرج تطل عليك لوحة ضخمة جدا ربما لا تميز ماذا رسم فيها بالضبط او تنساه بعد حين (كما حدث لي) ، المهم انك تشعر بان شيئا غير عادي يحتل المكان . .

واخيرا باب مفتوح . تلهث تعبا (ربما تلعن السجائر) . تتخطى العتبة . . . تقف مبهورا في الصالة .

صالة واسعة . لوحات تغطي الجدران كمعرض فني . لوحات بعضها دام يهذي . اضواء من النيون . الاثاث ؟ عدد من المقاعد المبعثرة . مجموعة من الشبان وثلاث فتيات . يثرثرون .

يضرب هاني بيده على مسند المقعد . على اظافره تموت اصواتهم . يهمس في اذني : (لا مسرح لدينا . اننا نتمرن هنا . البروفات كلها هنا) .

الوجوه التي كانت الى ما قبل لحظات ضاحكة وتثرثر ، وكنت اشعر بينها بالالفة ، انفصلت عنا تماما ، واستحالت اجساداً لآخرين ، لمجموعة من السجناء المناضلين الذين قرروا عدم الاستسلام او الاعتراف ، ومن حناجرهم ينطلق صوت سارتر في مسرحيته « موتى بلا قبور » . . .

صرخ احدهم « لماذا لا يقول احدكم شيئا ما » . . تدخل هاني صنوبر المخرج وقطع استرسالهم في البروفة قائلا : اطفئوا النيون . انه بشع ، ميت وكئيب . . .

بعد لحظات ، مات النيون ، ولم يبق سوى ضوء كشاف ، انساني القسوة والشحوب ، يشبه عينا واحدة بلا اهداب لاله مجهول . . .

بدأت المسرحية . . .

ومع اصواتهم المتكسرة ، المنتحبة ، الرافضة ، الممزقة ، كنت اسمع سارتر يثير عشرات الاسئلة : هل يقاوم الانسان من اجل القضية العامة حقا ام من اجل كرامته الفردية كانسان ؟ الى اي حد تمتزج الكرامة الشخصية بالقضايا الوطنية العامة ؟ التعذيب الجسدي الى اي حد يمزق الفدائي ؟ الا يمزق الجلاد ايضا ؟ من اجل ماذا نكافح ؟ الى اي حد نستطيع ان نقاوم ؟ . . . طفولة الرجل ، أليس فيها الكثير من المواقف البطولية ؟ هل الشجاعة تراها لحظة طفولة فكرية ، والوعي ، الا يقود الى العبث ؟ ام الى مزيد من اليقين ؟ . .

هذه الاسئلة كلها ، تطرحها مجموعة من الرجال وامرأة وصبي ، كلهم سجناء ، ينصتون الى الجنود يعذبون زميلا لهم لينتزعوا اعترافا منه ، وكل منهم ينتظر دوره .

الاسئلة التي طرحتها على المخرج هاني صنوبر في الغرفة المجاورة كانت اقل تعقيدا .

من يهمه ان يعرف بالضبط ماذا كانت اسئلتي ؟ . . . . المهم ما قاله هاني صنوبر . .

(لماذا اخترت هذه المسرحية بالذات ؟ . . لانه ليس بيننا من يعي فعلا معنى العنف والارهاب ، ومن الضروري ان نواجه ذلك . . لو كنا فعلا نعي معنى الحرب ، معناها الدموي الجسدي الموجع ، لما وصلنا الى هذا الحد من الهبوط النفسي ، ولما حصدت حرب التخويف آلافا من الناس الهاربين . . ولما كانت النكسة تنطوي على ذلك العار الكبير . . . اسمعي . . لقد اخترت مسرحية « موتى بلا قبور » المشحونة بالعنف والتمزق الجسدي والفكري لانني اعتقد انه من الضروري في هذه المرحلة بالذات ان نصارح الناس . . إن عليهم ان يتفهموا قضية الحرب والكفاح على الصعيد العملي الحقيقي ، لا على صعيد الشعارات فحسب . . يجب ان يطلع الناس على المعنى الحقيقي للمقاومة ، بكل ما فيها من شرف ومن ايلام . . .

سارتر لديه المقدرة على تخيل العذاب ، ولكن ، الا تعتقدين ان الناس الصامدين في الضفة الغربية يعانون من مزيد من العذاب وان من واجبنا ان نعي ذلك بلا قفازات) . . يتابع هاني صنوبر قائلاً :

(شيء آخر وجدته في « موتى بلا قبور » وآمنت بان مواطننا العربي بحاجة الى استيعابه : انه العلاقة بين الفردية وبين المواقف الوطنية . . سارتر يؤمن بالفردية ، لكنها دوما تذوب وتنصهر في الحدث العام ، والآخرين . في « موتى بلا قبور » ترتسم على شاشة انانيتنا صورة التضحية في اعنف حالاتها . . . وذلك ما نفتقر اليه . . . أنا ؟ . . .

خريج مدرسة الالم العربية ، ولكن تصادف انني ايضا احمل الماجستير من كلية الفنون في شيكاغو . . بدأت نشاطي في سوريا . . . قدمت ست مسرحيات للمسرح القومي هناك . . . انا فلسطيني من يافا ، عربي ، لكنني لم اخرج مسرحية عربية واحدة . . . فالكاتب المسرحي العربي لا يضع في اعتباره امكانيات التنفيذ بقدر ما يحاول ان يطرح موقفا فكريا ، وهو غالبا قاصر عن تحويل المواقف الفكرية الى نماذج حية حقيقية تعبر عن هذه المواقف بسلوكها وباحداث المسرحية . . توفيق الحكيم ؟ انا لا استثني توفيق الحكيم من هذا الرأي . . . ان مسرحياته قد تكون جميلة للقراءة ، ولكنها ليست مسرحيات كاملة من حيث الاداء !

قد يدهشك ما سأقوله ، لكن اهم المشكلات التي واجهتها في البداية كانت اجتذاب وجوه نسائية مثقفة ! . . . ان للعقبات الاجتماعية هنا قوة لا تقاوم) . .

(ترجمات) ما قبل الهزيمة

الشاعر عمر عبد الرحيم هو الذي اعاد ترجمة « موتى بلا قبور » . . لماذا هدر الطاقات وقد سبق لادباء كثيرين ترجمتها من قبل ؟ يقول ببساطة : (لأن الترجمات السابقة لم تكن امينة بما فيه الكفاية ،) . .

وبعد .

لا تستطيع ان تدرك مدى اهمية ان يكون للاردن او لاي بلد عربي آخر مسرح الا اذا نقلت اليك نموذجا من اسلوب النقد هناك ومستواه . . وحرفيا . . . كتب احدهم في احدى الصحف عن احدى مسرحيات هاني صنوبر (جو الرواية يستلزم الحشمة ، وأنا اقول لكل جماعتنا الرواد وللسيد هاني ، شعبنا محافظ ، واعطونا دائما هذا الديكور المحافظ حتى ولو استلزم الامر روايات تتطلب هذا الديكور بالذات . صدقوني وجربوا) !! . .

وانا ايضا ، (صدقوني) فقد نقلت النص حرفيا . .

وفي بلاد هذا بعض النقد فيها ، أليس بعض النقاد بحاجة الى مسرح للتثقيف والتوعية قبل الجمهور ؟ . . .

عمان ٢١/ ١/ ٦٨

حيَّ على الحرب !

اغمض عيني لارى بوضوح . . . واراها .

عمان ، مدينة الصخر والخيام والحزن .

صباح حزين . صمت . كل شيء صامت متحفز . عيون الرجال . الوجوه . الشوارع . الملاجىء .

اسد أذني لاسمع بوضوح . . . اسمع صوت صفارات الانذار تلعلع هناك . . .

يركض الجميع الى الملاجىء . يتكومون كالثياب العتيقة . النساء والاطفال والقطط والرجال .

في الشوارع تنزلق عربات الاسعاف . يصفر رجال الشرطة . يرهف السجناء السمع .

لكن الطائرات المعادية لا تحوم في سماء عمان ، ولا تبصق النار والحديد والشؤم . . .

انها هذه المرة تجربة لغارة جوية . بروفة على مسرحية الموت . . . تجارب على الغارات الجوية تجري في مدينة عمان . . .

ولكنها اهم من ذلك في نظري . . .

انها ليست بروفة للهرب بقدر ما هي ناقوس تذكير . . . وكما يقف الامام كل صباح ينادي في المصلين « حي على الصلاة » ، تقف صفارات الانذار بين الناس تنادي « حي على الحرب » . . .

وعمان ليست وحدها .

عواصمنا العربية كلها مهددة بالدرجة نفسها . . . وصيحة « حي على الحرب » يجب ان نطلقها جميعا بالدرجة نفسها . . .

واليوم ، وقد نسينا في الشتاء هزيمة الصيف ، وبدأنا نغرق من جديد في وحل مشاكلنا الداخلية ومستنقعات تشتتنا ، ليس كصفارات الانذار ما يوقظ وعينا بالنكبة ويجدد حسنا بالخطر . . . نحن ، اهل كهف التاريخ العربي ، ايقظونا كل صباح في كل مدينة

عربية على صفارات الانذار تصيح « حي على الحرب » . . .

كل صباح ، في كل مدينة عربية ، فلتطلق صفارات الانذار لتوقظنا . . .

ذلك كله قد يعيد الى اذهاننا الغائمة واقعنا العربي الحالي : سكان معسكر واحد كبير يمتد من المحيط الى الخليج ويستعد للحرب . . . اسكتوا الاغاني . اسكتوا كل الكلمات المطاطة اللزجة الغائمة المزيفة . وليسدِ الصمت والعمل طوال النهار .

وصيحة صفارات الانذار كل فجر « حي على الحرب » . . . فلربما حركت داخل رأس كل عربي منا صفارة انذاره المعطلة . . . صفارة الحس بالخطر ، والحس بالمسؤولية . . . .

فحرم على نفسه الاسترخاء الافيوني الذي عاد يبسط غيومه داخل ادمغتنا .

وحي على الحرب ! . . .

لندن ٥/ ٣/ ٦٨

من أجل اليكسي ايفانو فيتش : انقذوا الثورة من الأدب الثوري

هل قرأت « يوميات رجل مجنون » للكاتب الروسي « غوغول » ، او شاهدتها تمثل على « مسرح الدوقة » في لندن ، او مسارح برودواي في نيويورك ؟

من الافضل الا تكون قد فعلت ، لانني ساحدثك عنها على أية حال ! . . . سأحدثك عنها -

ليس لان أدب غوغول يلقى في الاشهر الاخيرة فترة احياء وتقدير لم يعرفها خلال حياته المعذبة . .

وليس لانها مسرحية هامة جدا من الناحية (التكنيكية) ، اذ ليس فيها خلال فصولها الثلاثة سوى ممثل واحد .

وليس لان هذا الممثل الواحد : نيكول وليامسون فاز بلقب « ممثل العالم في بريطانيا » ، وهو لقب لا يفوز به الممثل الا بعد (تصويت) جميع نقاد المملكة . .

وليس لانه فاز ايضا بجائزة نقاد نيويورك لاحسن ممثل مسرحي حينما عرضت « يوميات رجل مجنون » هناك .

وليس لان سين كونري المعروف باسم جيمس بوند دفع أجره عن فيلمه « وتحيا مرتين فقط » خصيصا لانتاج هذه المسرحية على نفقته . .

وليس لان نقاد لندن المحافظين جن جنونهم مؤخرا ، لان نجم المسرح البريطاني نيكول وليامسون خليفة لورانس اوليفييه ، انحدر الى درك الاشتراك مع جيمس بوند في شركة انتاج ، وربما الظهور معه في فيلم واحد !! . .

وليس لانني قابلت نيكول في لندن (الشاب المثقف الوسيم ابن الخامسة والثلاثين) بعد ان قدمني اليه صديق مشترك هو (جراهام تايار) رئيس القسم الافريقي في الاذاعة البريطانيةقائلا : تستطيعين الكتابة عنه ، وحتى الوقوع في غرامه ، فهو ليس يهوديا مثلي !! . . .

اتحدث عن هذه المسرحية لسبب لا يمت الى الاسباب المهمة الآنفة الذكر

بصلة !... ولها علاقة بالبواب العجوز ـ لمسرح الدوقة ، حيث عرضت المسرحية ـ اكثر مما لها علاقة بنيكول وليامسون نفسه ، ولها علاقة باديبنا العربي المعاصر اكثر مما لها علاقة بغوغول نفسه !..

فالى حكاية المسرحية أولا . للمسرحية فصول ثلاثة ، وبطل واحد .. نيكول وليامسون يتحدث وحده على المسرح طيلة ساعات ثلاث ، او يصمت ... لكنه عبر صمته وبوحه ونواحه وحماسه وسقوطه وسكينته ينقلنا الى عالم كامل وعبر نفسه البشرية المعذبة في روسيا القيصرية نطلع على عذابات ملايين النفوس البشرية في اكثر من عصر وعبر اي نظام يفتقر الى العدالة ..

يدور الفصلان الاول والثاني في غرفته والثالث في مستشفى المجانين .

يرفع الستار عن غرفة فقيرة ، ضيقة كالقفص ومعتمة بلا نوافذ .. غرفة موظف بسيط اسمه الكسي ايفانوفيتش . (لا لندن فحسب تضم الملايين من هذا النموذج بل كل مدينة في كل عصر) . يدخل رجل يمكن ان يشبه اي رجل بعد عودته من عمله الروتيني المحكوم به مؤبدا ... انه مشعث الشعر ومهمل الهندام ، متعب ووحيد ... فهو فقير وبلا اصدقاء ، والمفكرة هي الصديق الوحيد المجاني . لذا يسارع الى مذكراته ليكتب ، ليسكب احزانه ، ويحدث نفسه بصوت عال .

يبدأ : ٣ أكتوبر .. يروي احداث يومه هذا وهو يكتبها .. (إشارة الى انقضاء الايام ، كان الممثل يجمد على المسرح لبرهة تخفت الانوار فيها حتى تنطفىء ثم تضيء ، ويستمر كما لو كان قد مضى يوم باكمله) ... يتابع ٦ اكتوبر ... ٧ اكتوبر ... وهكذا نطلع على عالمه الداخلي الموجع ... عبر ما يخطه في يومياته بينما هو يدمدم ، ندرك انه فقير ، بلا امل ، بلا ضمان ، وتعيس في عمله . صاحب المكتب يعامله بقسوة كما لو كان حيوانا مهملا ... كان ذلك كله روتينيا موجعاً حتى جاء ما يفجر الازمة : الحب ... فهو قد شاهد ابنة صاحب المكتب لما جاءت تزور اباها ، وحينما سقط منديلها من يدها انحنى لالتقاطه وشم رائحة عطرها ... انها تشبه الكناري ، وهو يحبها ..

الحب جعله يطرح على نفسه آلاف الاسئلة : لماذا أنا مرفوض ؟.. ومهمل ، وبائس . بعد ذلك ، نلحظ انه بدأ يتحدث بصوت عال الى نفسه . احيانا يثور ، ويصرخ ثم يصمت فجأة حينما يتذكر ان صاحبة الدار قد تسمعه وتطرده من الغرفة اذ انها ستظن انه مجنون . انه غير مجنون ، لكنه بائس امام قوى لا يدري كيف يكافحها .. انه بلا صديق ، لا احد يستمع اليه . لا احد يزوره . الروتين يقتله . عجرفة صاحب

المكتب تمزق كبرياءه . انه يتساءل بمرارة : لماذا ؟ لماذا ؟ لا جواب . . لماذا (ماجي) لا تحبه ؟ لا احد يهتم به ؟ ألأنه فقير ؟ . . يقضي الساعات مطوفا حول قصر والدها . . يرقبها من بعيد. حينما تراه من خلف النافذة ترخي الستائر. انه تعيس ووحيد ومهزوم ومنبوذ . . وحينما يكتب مذكراته ، يفجر على المسرح عذابات النفس البشرية المقطوعة الجسور ، المعزولة في جزيرة الاهمال واللامبالاة والطبقية واللاعدالة . . روسيا القيصرية حيث كل شيء بالوراثة . . . وهو حينما يحب يعي وجوده فجأة ، ويمزقه اشمئزاز الحبيبة منه ، هو بالنسبة اليها ليس اكثر من صيغته الاجتماعية . . . لكن الصيغ الاجتماعية كلها هراء .

وهنا ينتهي الفصل الاول ، ولكن احدا لا يضحك . . . ان عذاباته التي ابدع غوغول في تصويرها ، تجعلنا نحس بان انحرافه الفكري ليس الا نتيجة للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية المنحرفة . . انه حصيلة اللاعدالة ، ومجرد دماغ مسكين انكسر تحت ثقل الضغوط كلها . . . في عصر تصادف انه عصر روسيا القيصرية . . .

ثم فجأة تتخذ هذه التساؤلات شكل تمرد عنيف ، حينما يكتشف ان ماجي تحب شابا ضابطاً من طبقتها !! وانها تتهكم من الموظف الصغير المخبول الذي يعمل في مكتب والدها ويمطرها بالنظرات (المرعبة !) كلما جاءت لزيارة والدها . . . تحب بذلة الضابط ، ولا تحس بانسانيته هو فثيابه مهترئة . وهنا تنفتح احزانه النفسية قروحا في منطقه السليم . يبدأ التساؤل والنشيج : لماذا يا الهي خلقته ضابطاً وانا فقير وحقير هكذا ؟ وتسوء حالته . يزداد هياجه وصراخه في الغرفة وينسى الجيران . ويذهب الى عمله يوما وينقطع اياماً واذا ذهب فانه يكتفي بالتفكير والحزن والمرارة . . . ويتشرد في الطرقات ، يسير ساعات في البرد القارس ثم يعود الى غرفته الفارغة ، ولا يجد سوى مذكراته يخاطبها ويبكي بمرارة . . ونراه نحيلا مغبر الوجه اشعث الشعر كفزاع طيور وعلى رأسه كومة من القش ، ومن وقت الى آخر تدوي صرخاته : « لا أحد معي . لا أحد . . ولكن لماذا هو ؟ . . وانا ايضا موجود . لماذا ينظرون الي ولا يرونني ؟ » . . .

لماذا لا يرونه ؟ . . . من هذه النقطة ينطلق جنونه .

اذن لا اهمية لما يقولونه ، عالمهم كله مهترىء وقيمهم واهية وسيخلق لنفسه عالماً خاصاً . . فهم لا يهتمون باكتشاف حقيقته ، ثم إنه عظيم وقوي وقادر على الحب لكن كل ما يرونه فيه هو الموظف الحقير . . هذا ما صنعوه منه ، اما هو . . . فهو ملك اسبانيا !! . . .

كيف ؟ لقد اشترى جريدة ، وعاد بها الى غرفته ، وبينما كان يقرأ الاخبار ، قرأ عن الثورة ، وعن هرب ملك اسبانيا . . . نعم ملك اسبانيا مختبىء هنا ، ولكنه انا . . ولا احد يعرف بعد . . . انا ملك اسبانيا المضطهد .

يخرج من غرفته وقد حمل معطفا جديدا كان قد اشتراه مؤخرا ثم يدخل وهو يصرخ : وداعا ايها الغموض . انا ملك اسبانيا . . . وهكذا يأخذ تمرده على المجتمع القيصري المهترىء شكل عقدة العظمة ، فهو لا يحس انه يختلف عنهم او عن اي انسان آخر الا بالصدفة والوراثة . .

اذ نعلم (بينما هو يخط مذكراته بصوت مرتفع) انه ذهب الى المكتب حيث لا يعرف احد انه ملك اسبانيا المختفي في شخصية الموظف المسكين (هو) ، وذهب بناء على الحاح زميل له بعث به المدير لجلبه . . وهناك وقد التفوا جميعا دون ان يدروا انهم في حضرة ملك اسبانيا ، قدم له المدير ورقة طرده ليوقعها ، وانهم جميعا ذهلوا حينما شاهدوا لا مبالاته واستهتاره ، وهنا امسك بالريشة ، ووقع باسمه الحقيقي : ملك اسبانيا ! . كم اسعده ذهولهم ! . وهكذا يعيش في معطفه الممزق بشكل وشاح امبراطوري ، على انه ملك اسبانيا . يصرخ ويهذي وحيدا بانتظار الرسل كي يعود الى ملكه وشعبه . . (الانسان العادي الوحيد منفي ، متى يدركون قيمته الانسانية وتكون له مملكته) .

في الفصل الثالث والاخير ، لا قلم ولا ورق ، ولكن ما الفرق ؟ انه على اية حال يخاطب نفسه : لقد اتى رسل شعبه اليه (ممرضو مستشفى المجانين طبعا) ليحملوه الى قصره . . . ونراه في (مستشفى المجانين) معتقدا بانه في قصره ، مبدياً ذهوله من تقاليدهم العجيبة في استقباله ، ومن غرابة اهل بلاطه ، فقد حلقوا شعره ، وضربوه حينما حاول ان يتمرد ، وحينما حاول ان يدعو بقية ابناء شعبه في البلاط الى الثورة والتمرد وضعوه هنا في السجن الانفرادي . . ترى اية مؤامرة تدور ضده ؟ ولماذا ؟ . . .

نراه الآن وحيدا في زنزانته الانفرادية ، حليق الشعر ، وليس في الغرفة اي اثاث . جدران بيض عالية بلا منفذ ولا كوة أمل يرى منها السماء (رمز لبئر السقوط النفسي) يتحدث وهو ينوح ويهذي ، انه يضرب كل من يقترب منه لأنه خائف وبائس ووحيد . إنه ارنب جريح في قفص الذئاب شبه محتضر.انه يحلم ، بأنه في مركبة ، تطير به المركبة ، وهنالك في قرية حلوة في روسيا يلقى بيته ويرى امه ، اواه كم سيشكو لها ـ كم عذبوه ـ وستغسل رأسه بدموعها ليشفى . . . والحلم الذي تنتهي به المسرحية هو لحظة الراحة والسعادة الوحيدة (وهي ترمز الى حلم غوغول بحل إنساني لملايين البشر الشبيهين

ببطله البائس) .

انتهت المسرحية . نيكول ابدع بلا شك طيلة ساعتين ، ويستحق التصفيق المدوي حتى ولو استمر لليوم التالي ، ولموعد العرض التالي ! . .

اتسلل خلف الكواليس لاقابل نيكول . اجلس مع حارس المسرح العجوز ، اتحدث اليه بانتظار ان يزيل نيكول ماكياجه وقناع المطاط الذي جعله يبدو (أقرع) ، ولحظتها ، لم يخطر لي لثانية ان موضوعي سيكون عن الحارس العجوز الطيب المجهول لا عن نيكولاس وليامسون المتربع على قمة المجد والاضواء . .

كنت قد رأيت الحارس الضئيل من قبل (دون ان اراه) ، كملايين الناس الذين دخلوا الى مسرح الدوقة طيلة الاربعين عاماً الماضية التي قضاها هذا الانسان قابعاً في الظلام حارسا للمسرح منذ لحظة افتتاحه وحتى يموت ! . .

سألته عن اسمه . خيل الي انه قال : « الكسي ايفانوفيتش » ، بريطاني ، القرن العشرين ، بواب مسرح الدوقة منذ افتتاحه وحتى أموت طبعا ! . .

وعبر قامته الضئيلة ، وصوته المرتجف ، ووجهه العتيق المحفور بالحزن المستسلم الصامد الذي يطل عادة من وجوه الذين كفوا منذ زمن طويل عن المقاومة والصراع ثم استسلموا . . عبر الكسي ايفانوفيتش حارس مسرح الدوقة رأيت ملايين من الكسي ايفانوفيتش المعاصرين العرب (وغير العرب) ، ورأيت بالتالي عبقرية غوغول وسر اعادة اكتشافه وخلوده .

ولم يضيء وجه « الكسي ايفانوفيتش » مسرح الدوقة ، الا حينما سألته عن رأيه بالمسرحية فقال بحماس دامع : مذهلة . . . مذهلة . . . كأن مؤلفها سرق مذكراتي ! . . .(وهو لا يعرف شيئاً عن المؤلف حتى ولا اسمه . .)

وحتى بعد ان خرج الي نيكول ، وغرقت معه في حديث أدبي عن بيكيت الذي يعرفه معرفة شخصية وتربطه به صداقة وثيقة منذ مثل دور استراغون في « بانتظار جودو » ، ورغم وصفه لقصر بيكيت العجيب اللامعقول هندسة وبناء واسلوب حياة ، والمحرم على الصحفيين الاقتراب من غابته في ضواحي باريس ، ورغم عشرات الاشياء المهمة الأخرى، وعبقرية نيكول وليامسون ونظريته الجديدة: «الممثل يجب ان يكون مثقفاً جداً وبقدر ثقافة الكاتب المسرحي ، كي يكون قادراً على وعي الاحساس بالانسانية في دوره ، واعادة خلقها داخل ذاته » . . . رغم الاشياء الكثيرة المهمة التي قالها ، وشهادة النقاد فيه ، وجدتني افكر بعيداً ، بأشياء اخرى عربية جدا عبر غوغول ، وعبر شهادة

حارس المسرح (الذي سرق الكاتب مذكراته !) . . .

بين غوغول ، و« دكتور زيفاجو » باسترناك !

هذه المسرحية بلا ريب ، تلقى رضى دعاة (الادب الموجه) . . . ولو نشرت بالعربية على انها للمفكر الماركسي فلان ، لما جرؤ احد في الشك بيسارية مؤلفها . . . وثوريته .

ويوم شاهدتها للمرة الاولى (واعترف انني لم اكن قد سمعت بمؤلفها رغم ولعي بالأدب الروسي) ، اعجبت بالتزامه الانساني اليساري . . وقررت ان أسأل عنه ، وخيل الي انه بلا شك ينال تكريم السلطات الروسية لما في نتاجه من انسجام مع الروح الشيوعية وتبشير بها . . واعتقدت انه يلقى منها الرعاية التي حرم منها مؤلف الدكتور زيفاجو بسبب موقفه السلبي من الثورة . .

وكانت المفاجأة التي زادتني اعجاباً بالمسرحية وايماناً بعبقرية غوغول : هي أن غوغول عاش قبل الثورة الشيوعية ، وانه لم ينتم الى اية مؤسسة سياسية نضالية ، وانه كتبها قبل الثورة في روسيا ، وقبل ماركس ، وقبل محاولة تحقيق العدالة الانسانية عبر الشيوعية والاشتراكية . وهو لم يكن بحاجة الى توجيه ونظام اعلامي مصفق ليهتف ضد الظلم القيصري وغير القيصري ، واي نظام لا يؤمن العدالة لملايين من الابرياء ، ولم يكن بحاجة الى قراءة نظريات ماركس ، ليكتشف الثورة الشيوعية ، وانما كان كأديب مبدع نبوءة للثورة ونذيراً لها صور نبوءته تلك في شكل الرؤيا . . (حلم الكسي في آخر المسرحية بالشمس والضياء ، وعربة تعود به الى قريته وامه وطفولته ، واعتبار حلمه هذا في ذروة لحظات عذابه كنبوءة بولادة الثورة عبر عذاب الملايين أمثاله) . . . أليس ذلك اجمل تصوير انساني لمعنى الثورة تلك من قبل أديب كتب عنها قبل أن تقوم ؟ (مات غوغول قبل قيام الثورة الروسية بحوالي ٦٥ عاماً) . . .

التزام لا الزام

غوغول ، الملتزم عبر وعيه الانساني ، اليساري الروح ، الثائر قبل مولد الثورة ، المحقق لهذا كله عبر عبقريته كأديب ، يعيد الى الاذهان بديهيات نسيها تماماً نقدنا وأدبنا الثوري المعاصر . . . منها مثلاً ضياع الخيط الرفيع الذي يفصل بين رؤيا الفنان المبدع الملتزم بالتالي إنسانيا ، وبين رؤيا المناضل والتزامه العقائدي . . . وفي غوغول الملتزم قبل ان يخترع المناضلون صيغهم للالتزام مثال على حقيقة دور الاديب ومكانته وموقعه من الثورة ، اية ثورة .

ادب الكليشيهات

الالتزام اليساري المعافى الاصيل لدى غوغول ، يذكرني ببعض الالتزام المريض لدينا ، وباختلاط مفهوم الالتزام والالزام في اذهان بعض نقادنا وادبائنا العرب المعاصرين .

ذلك مفجع ، لأن الثورة تجديد للحياة وللفكر ، والأدب العربي الذي سقط اكثره فريسة الضحالة في عصور الاستعمار ، وفريسة تسلط الاطر القديمة من سياسية واجتماعية وفكرية ، هذا الادب ، كان من المفروض ان يجد بعثه في الثورات التقدمية التي قامت في انحاء العالم العربي كله . .

فماذا حدث ؟ . . .

ولماذا عجز أي أديب عربي عن خلق الكسي ايفانوفيتش عربي ، وفي البلاد العربية ملايين منه ؟ . . .

هنالك اكثر من عامل ، لكن غوغول يلفت النظر الى عامل جديد اعتقد أنه سيضاف الى قائمة اهم اسباب تخلف ادبنا المعاصر .

هنالك نظرية قديمة تقول : الادب توأم للحياة . . . ومتى انفصل الاديب عن الآخرين وانطوى في برجه العاجي ، انتهى .

وهذا كلام صحيح تبنته الانظمة الثورية التقدمية . « الفن الخالد هو توأم الحياة » ، وسمي ذلك بعد تعميق مفاهيمه و« أنسنتها » بالالتزام .

وكان من الضروري اجراء نقل دم جديد لادباء الابراج العاجية ليعوا اهمية الانفتاح على عالم الآخرين ، وتحسس قضاياهم اي التزام الفنان بانسانيته .

لكن الدواء انقلب سما حينما ساءت طريقة العلاج ، وحين لعب عابرو سبيل الادب دور (الطبيب المداوي) . . وهكذا ، لاكثر من عامل ، استيقظنا فجأة ، لنجد استجابة ضحلة لدى كثير من الكتاب لمفهوم الالتزام والثورية . .

لاحظنا تغييرا في اللغة ، بادخال كليشيهات الثورية والتقدمية ، مع بقاء المضمون الفكري والموقف الانساني من الاحداث على ضحالته ، كل ما هنالك ان (ليلى بنت الاغنياء) صارت (ليلى بنت الفقراء) ، وظلت الحكاية هي نفسها . . والعلاقات الانسانية الرجعية المهلهلة ظلت على حالها مع تبدل بسيط ، هو ان البطل صار يقطع المغازلات التقليدية لبنت الجيران الثورية (العاطلة عن العمل لان حبيبها الثوري يريد ذلك) ! ، لنسمع خطبة من الحبيب الثوري تتضمن مقاطع من آخر بيان وزاري او

انقلابي . . وطبعا امتدت استعمالات « قاموس الالفاظ الثورية للروائع الادبية الفورية » الى لغة الشعر ، ولغة الاغاني . .

وعلى صعيد الاغاني كان النتاج مدهشاً لان تاريخ الفن قلما يمر بتراث (هجين) الى هذا الحد . . .

ظلت الموسيقى كما هي - الا فيما ندر - ، وتم ادخال كلمات مثل (الاشتراكية ، العامل ، الفلاح) بمناسبة وبلا مناسبة ، تبرئة لذمة الفن من ديونه (للثورية !) . وظل الاداء واحدا ، والموسيقى واحدة في الغناء عن (شلالات الشعر الحرير) أو (شلالات الفرات واسوان) ! وكأن تبديل عبارة « بنت الجيران » الى عبارة « ماركس اخوان » يحول اغنية الحب المبتذلة الى أغنية ثورية .

وهكذا بدأ يختلط في ذهن جيلنا الادبي الطالع الخيط الرفيع الذي يفصل بين الادب الثوري الحقيقي ، وبين ما يمكن ان ينتجه (توظيفه) لادبه لدى نظام ثوري ما ، مهما كان ايمانه به . .

ونتيجة لتمييع المفهوم الحقيقي للادب العظيم ومواصفاته ، وبالتالي معنى حرية الاديب ، فوجئنا بظواهر مفجعة على اكثر من صورة !

وبعد هزيمة ٥ حزيران ، صار الامر لا يطاق . . اذ ليس في العالم العربي من لا يؤمن بأن الثورية هي الدرب الوحيد لتحقيق النصر العربي ، وبأن الفكر العربي كان مسؤولا عن الهزيمة الى أبعد حد . . . مما ساعد على الخلط بين (البيان) الثوري (والأدب) الثوري . . .

وصار مجرد طرح المشكلة صعباً لانه يعرض الناقد الذي يريد حماية الأدب الثوري الحق الى الاتهام باللاثورية ! وبالنتيجة نلحظ :

١ - انتشار النتاج الضحل المتستر بالشعارات الاشتراكية التقدمية دون أي وعي حقيقي لمضمونها الانساني الفكري . . . مجرد ترجمة للاسلوب العتيق في التفكير الى لغة سياسية جديدة !

٢ - استغلال اصحاب الحس التجاري للمناسبات الوطنية وجوع الناس لنتاج ثوري . . فكان في سقوط القدس مناسبات لبيع مسرحيات تافهة عن القدس ، واغنيات عن القدس ، وصار في الفدائيين مناسبة لانتاج أناشيد عن الفدائيين وبيع صورهم وتحويل ثكناتهم الى « استديوهات الاغوار » !! متهمين كل من يهاجم ضحالتهم بأنه سلبي وغير ثوري ! . .

٣ ـ سوء فهم معنى الثورية لدى الجيل الجديد الطالع ، جعله يمعن اهمالاً واحتقاراً للادب العربي كتراث مع ان الثورية وتحقيق الذات عبر النتاج الثوري لا تلغي الماضي وانما تتفجر من جذوره ، من البديهيات التي يطرحها غوغول كيساري ثائر عبر التزامه الانساني : الأدب العظيم الخالد هو الادب الإنساني ، وانه ليس بالضرورة حصيلة الانظمة اليسارية الثورية فقط . وطالما ساهم الادب في التعجيل بتفجير الثورات واغنائها ، وغوغول ، وعشرات من الخالدين ، هم خالدون لانهم منذ اقدم العصور دافعوا عن المبادىءالانسانية التي طالما قامت الثورات والانظمة باسمها والتي كانت موجة الانظمة اليسارية المختلفة هي آخر تعبير عملي تنظيمي لهذه المحاولات حتى الآن . .

اذن الكاتب الاصيل يخلد لا لأنه يخدم أحد الانظمة (مختاراً اومرغماً) التي تهدف لتحقيق انسانية الانسان ، ولكنه يخلد لأنه هو الذي وعى الحاجة الى التبديل منذ اقدم العصور . . . ولهذا ايضا . . . يتجاوز الفنان في مجال الخلود الحاكم ، واذا كان الزمن قد تجاوز اسلوب نابليون في الحرب ، فانه لم يتجاوز رائعة تشايكوفسكي التي خلد فيها من خلال حرب نابليون مأساة الشعب الروسي ثم انتصاره على الغزو .

اذن ، الادب عظيم وخالد لأنه قد ينطلق من احداث ومواصفات تاريخية محددة ، لكنه ينتقل عبرها لايضاح حقائق ومواقف انسانية خالدة . . .

ولذا نلحظ أن روائع آداب مختلف الشعوب التي خلدت ، من دينية وفرويدية وسارترية وماركسية خلدت بقدر ما فيها من تحقيق لشروط العدالة الانسانية وكشف لحقيقة الانسان .

شكسبير ،ماركسي وعبثي . .

الاديب العربي يتعرض احياناً للتشويه والاضطهاد معاً مع كل تبدل في اوضاعنا السياسية ، لان مفهوم حرية الاديب والحرية الفكرية وماهية الادب واستقلاليته لما تعد بلورته لدينا . . .

. . . وبعد ٥ حزيران صار الاديب العربي واقعاً تحت تأثر عقدة الشعور بالذنب مما جعله مهادنا متأملاً وشبه مذهول واحياناً شبه مزايد على الشعارات الثورية التي يقرنها خطأ بشكل مرضي بالالتزام .

واذا كان شكسبير قد وجد من ينصفه في كل عصر ، ومن يعيد فهمه خلال كل اتجاه ، ويجعل منه اديباً اشتراكياً ، ومن يفسر مصرع روميو وجوليت على انه انتحار تقدمي اشتراكي ضد العشائرية ،واذا كان نقاد الغرب يعون جيداً انالأدب الانساني، اي

ادب انساني ، هو يساري بقدر ما في اليسار من انسانية ، فان اكثر نقادنا الجدد الثوريين وجدوا في الثورية مبررا قوميا جماهيريا لاعدام ما ليس ثوريا بنظرهم وهذا في رأيي خطأ كبير لا بحق التراث الادبي وانما بحق الثورة . . .

ففي ادبنا كما لدى الشعوب كلها حس انساني يبلغ احيانا درجة الثورية ، وامثلة ثورية واعية واكثر اصالة في ثوريتها من اكثر نتاج ادبنا المعاصر الهجين ، لضيق المجال ألفت النظر الى بعض النماذج القديمة : ابو ذر الغفاري المفكر العربي ، يقول قبل ماركس بعصور : اعجب لمن لا يجد القوت في بيته ، كيف لا يخرج شاهرا سيفه على الناس . .

وعنترة ، تراه كان عاشقاً لعبلة ، ام ان في اصراره على الفوز بها تعبيراً عن رفضه لمنطق (بنت العيلة) ،وتمرداً على الصيغ الاجتماعية المتوارثة ، ومحاولةللتعبير عن قيمته الانسانية بلغة عصره : لغة السيف والحرب والشجاعة . .

والشعراء الصعاليك العرب ، في الجاهلية ، أليسوا في روحهم اكثر اشتراكية من بعض موظفي دعاية الانظمة اليسارية المعاصرة في العالم ؟ . . .

وطرفة بن العبد ، الثائر على النظام القبلي ، أليس في تفجره حس عميق بالافتقار الى المساواة الانسانية في مجتمعه ؟

الثورات السياسية تغني الادب ولا توظفه

ما اود ايضاحه عبر مثال غوغول وغيره من الامثلة هو :

١ ـ الادب الثوري ليس بالضرورة ربيبا لنظام ثوري ما او عميلا له .

٢ ـ الادب الثوري يحرض ويساهم في خلق الثورات السياسية عمليا ، كما ان تبدل الحياة على أثر الثورات يؤثر في الادب من جديد . . وهكذا . . .

٣ ـ العلاقة بين الأدب والانظمة الثورية هي علاقة اخذ وعطاء وتبادل حيوي مستمر كي يغني أحدهما الآخر من اجل الانسانية . . . وليست استغلال احدهما للآخر .

٤ ـ يجب ان يتم ذلك في مناخ صحي من الحرية والاحترام المتبادل .

٥ ـ الالتزام في هذا الاطار ، هو وعي الاديب بالمدلول الانساني الخطير للثورة كحركة تبديل جذرية في النظام وبالتالي في حياة أكثر من مجتمع لاكثر من مرحلة ، ووعيه هذا يقوده حتميا ـ اذا كان مبدعا حقا ـ الى شحذ نظرته الى الوجود وتطويرها وزيادة ابعادها وربما تبديلها . .

المهم ان يحدث ذلك في داخله ، لا ان يرتدي قوالبها على جلد حروفه . .

٦ ـ اذن الثورة السياسية تبدل الاديب الحقيقي او تؤكد له مواقفه ، انها تهزه لكنها لا توظفه لديها والا قتلت ابداعه .

فالفن يرتبط بالاصل لا بالعرض (بفتح الراء) ، يرتبط بالغاية (الانسان) وليس عميلاً لاية وسيلة من الوسائل والانظمة التي تحقق الغاية عبرها الا بقدر الالتقاء بين انسانية الادب وانسانية النظام .

انقذوا الثورة من الأدب الثوري

كل المقالات النقدية تدور هذه الايام حول : ماذا (على الاديب) ان يفعل ، وما الشيء الذي (يجب) عليه ان يعبر عنه !؟ . . ولكن احدا لم يتحدث عن حرية الاديب ، والمقالات كلها محشوة بعبارات (الامبريالية ، البورجوازية ، العمال ، الثورة) حتى انها تكاد تجعل من الاديب آلة ذات مواصفات خاصة لتفقيس أدب ثوري ذي مقاييس محددة !

في هذه الحمى من عقدة الشعور بالذنب لدى الكبار ، (واستنسار البغاث) من الصغار ، ورواج تجارة المناسبات الوطنية ، وجعل الثورية الادبية مرادفة للثورية التنظيمية ، يخيل الي انه من الضروري التذكير بهذه الامور كلها .

لندن ٤/ ٩/ ٦٨

انتهت متعة الانبهار

لندن التي اعرف جيدا ، والتي احببت كثيرا وما زلت ، هي هذه المرة اداة تعذيب مستمر لا يرحم لانها اداة وعي ومحاسبة للذات . ومسامير تنغرس واحدا بعد الآخر في جسدي العقلي . .

فلندن التي صرت اعرفها جيدا بالمعنى الجغرافي والوصفي ، والتي طالما تلذذت بمتعة الانبهار باكتشافها لم تعد موجودة بالنسبة لي . . لم يتبدل عنصر انبهاري امامها فحسب ، وانما يبدو انني انا ايضا قد تبدلت . . لا اتحدث عن « انا » كفرد منعزل ، وانما اتحدث عن « انا » كفرد عربي ، وكجزء من الانا العربية الكبيرة .

وليست الهزيمة الاخيرة وحدها التي ايقظتنا ، فيقظتنا هي ايضا جزء من يقظة الانسان المقاتل في كل مكان ، وكفاحنا جزء من الكفاح الانساني الكلي افقيا وعموديا (اي في كل عصر وفي كل قطر) . . . وعبر هذه « الانا » كنت احاول ان ارى الاشياء . . . لقد انتهت الأيام التي استمتعت بها في مرحلة الانبهار والاكتشاف . .

لم اعد ارى الاشياء . صرت ارى ما تمثله ، واناقش مدلولها . لم يعد طُعْمُ الجمال شفيعاً لصنارة اللاانسانية . صار كل شيء جميلا في نظري بقدر ما هو عادل انساني .

صار كل ما في لندن يوقظ جرحي كعربية تنتمي الى شعب عظيم يمر بمرحلة تخلف مؤسفة .

كل ما في لندن من جمال ـ فنياً وانسانياً وسلوكياً ـ صارت تشوب استمتاعي به لذعة مرارة ، لان بلادي محرومة من هذا الجمال على ما فيها من مادة خام انسانياً وطبيعياً وتاريخياً .

بل ان (البشاعة) في لندن كانت تؤلمني اقل بكثير مما يؤلمني الجمال . اذ كنت اشعر ان فيها نوعا من لعنة التاريخ : فهي المرض الذي خلفه (العهر الاستعماري) للامبراطورية البريطانية الراحلة في جسد حاضرها . .

واذا لم يكن عدلا ان يضرس الابناء لان آباءهم اكلوا الحصرم ، فمن العدل كل العدل ان يضرس الابناء اذا ايدوا آباء آخرين يأكلون الحصرم ، او تمنوا ـ ولو ضمنا ـ لو

استمرت قدرتهم هم ايضا على اكل الحصرم الاستعماري كآبائهم . . وكان عليّ ان افهم الى اي حد هذا صحيح .

وهكذا لم استحم في مياه نيوكاسل المعدنية في شمال الجزيرة الانكليزية لانني جلست افكر بهدوء متحفز وبلا حزن . لماذا لم نعد نستطيع ان نستحم في مياه الحمة المعدنية وكيف تحتلها الآن اسرائيل في ارض بلدي : سورية . .

ولم اشهق امام جمال ماسة من اكبر ماسات العالم واسمها « نجمة الهند » لانني كنت أفكر : ما الذي جاء بها من الهند الى هنا لتكون جوهرة من جواهر التاج ؟ .

ومجاعة الهند اليوم ، ألا يجوع ابناؤ ها لان آخرين في بريطانيا اصيبوا بالتخمة منذ مئات السنين اذ اكلوا نصيبهم يومذاك !

ولم اصفق للمظاهرات الشابة التي خرجت تؤ يد الشعب التشيكوسلوفاكي ، وكفاح الشعب الفييتنامي ، والشعوب المكافحة الاخرى ، كما لم احقد لان اسم فلسطين لم يكن بينها ، وانما جلست احاول ان افهم وأفكر : لماذا . ولم يأسرني نظام المظاهرات وسلوك افرادها المتحضر العريق التهذيب وانما ايقظ في اعماقي مأساة اخرى اسمها مواكبنا ومظاهراتنا وكل ما يدور فيها من مهازل وهتافين بالايجار ومخربين مندسين ومحترفي تأييد . . (نكتة من بلادي عتيقة ولم تعد مضحكة إنما تؤرخ لجيل من محترفي الشغب والاضرابات . قال لنا استاذ علم الحيوان : درسنا اليوم عن « الصرصور » . يعيش الصرصور في . . . فقاطعناه : يعيش يعيش يعيش . . .)

تلك الحادثة الواقعية التي حدثت في الصف وانا تلميذة كانت اول مسرحية من مسرح اللامعقول اشهدها وقبل ان اسمع ببيكيت ويونيسكو . . . ويقولون اننا لسنا بحاجة الى استيراد مسرح اللامعقول ؟! ربما كان ذلك صحيحا اذ اننا اول من يصنعه محليا !

وعلى ذكر المسرح ، كانت عظمته في لندن وانعدامه عندنا من اشد المسامير انغراساً في تربتي العقلية . . وعلى ذكر التربة ، جسد الجزيرة البريطانية يعامل كجسد افرادها . . باحترام . . بتقديس . . . باستغلال لطاقاته . . . بعدل تام . . ان تضاء الانوار في بقعة من الوطن لحفلة ساهرة ماجنة بينما يدرس انسان آخر على ضوء الشمعة في طرف آخر من جسد الوطن حادثة غير موجودة هناك .

مسلة كليوباترة الفرعونية الرائعة المسروقة من مصر والمنصوبة على شاطىء نهر التايمز في اجمل مواقعه ـ بين الوستمينستر وجسر واترلوـ هذه المسلة حجبت عن عيني جمال

المشهد خلفها والنهر الحزين . . وحينما بدأت اقرأ ما كتب على قاعدتها (هدية من الخديوي !!!) . . هدية . . يسمونها هدية . . . استيقظ في نفسي تاريخ من (الثعلبة) البريطانية الامبراطورية ، ومن ثعلبة الحكام العرب وتواطئهم . ولم يوقظني من ألم استغراقي سوى وجه طيب وضاحك لانسان انكليزي مجهول يقول لي بأمانة منقطعة النظير : سيدتي . . هذه النقود سقطت من محفظتك !

انها مجرد حادثة اخرى صغيرة جسدت لي خطأ ردة الفعل التقليدية الحاقدة التي طالما احسسنا بها نحو انكلترا . الامور كلها بحاجة الى مزيد من التعميق ومحاولة الفهم والتطوير وربما التبديل . . .

وان مواجهة اخطائنا الذاتية ومسؤوليتنا اصعب من الحقد الرافض الاعمى . .

وهذه كلها مجرد امثلة عشتها في دقائق . . كلها خواطر لتداعيها سرعة انهيار شلال . . والشلال ظل منهمراً طيلة اسابيع وما يزال وحينما أعود من (اجازتي) سأكون بأمس الحاجة الى اجازة ! . .

بل ان كلمة (اجازة) صارت ملغاة من قاموسنا العربي المعاصر اردنا أم لم نرد . . . ان في اعماق كل منا تاريخاً من المهازل ننساه ما دمنا نعيش في شرنقة جونا اليومي الاليف ، لكنه يتفجر ويستيقظ ويتضح بجلاء حينما نراه على ضوء تجارب الشعوب الاخرى او نرى صورته في اعينها ، او نرى بقايا دمائنا على جدران متاحفها وعلى ساريات اعلامها . . . ونعي تاريخنا في الغياب عن التاريخ ، حين نرى جهلها بنا . . . وتزداد المسؤولية صعوبة حينما نواجه تقصيرنا ونصارح ذواتنا ، بدلا من اسلوبنا التقليدي في التهجم اللاعقلاني على كل ما لا نفهمه وهربنا من مواجهة المشكلة بالنواح والخطابة والوقوف على الاطلال في اسواق عكاظ تاريخنا . . .

تراه القدر رمى بي الى بعيد ، حيث الرؤيا اكثر وضوحا ، والحس بالمسؤولية هو بالتالي اشد شراسة والحاحاً ؟ تراه ادرك ان صدأ التدجين كاد يكسو جرحي ، وان الطحلب كاد ينمو فوق غدير محبرتي ، فأعادني الى هناك لتتم اعادة صلبي ، ولتتكأ المسامير الجديدة موضع المسامير القديمة ؟؟ . . . تراه ارادني ان أتحرر من اسطورة الشعراء، عن (الروتين والرتابة) وان أفهم ان لها مرادفاً عصرياً اسمه (النظام ـ الاستمرار) ، وان (ترويض الذات) ليس مرادفا للتدجين الاجتماعي ما دام من اجل العمل الجماعي، وان « روتين التخلف » عصورا لا يمحوه الا « روتين العمل » عصورا ؟ . لا ادري ، ولن ادري . . .

ها أنا في اجازة من تخدير روتين الالفة والعمل ، وحيدة الا من حقيقتي ، الى حيث لا أملك إلا أن أفكر . . وأعرف . . . وأجرب الجحيم الحقيقي الذي تستوعبه بكل ما فيه من هول وعذاب جمجمة صغيرة .

والى لقائي معك يا قارئي لتشاركني طعم المسامير في اسابيع صلبي الطويلة هنا في لندن . . .

لندن ٢٠/ ٩/ ٦٨ ليليان بنسون هول . (دار الجامعيات)

فلسطين الحرة

لوحة ، يحملها رجل مجنون ويدور بها في شوارع لندن دون ان يعترض احد طريقه ـ فالقانون يسمح بذلك ـ هذه اللوحة تلخص في نظري كل ما اود ان اكتبه في مقالي هذا .

اللوحة تقول : النهاية باتت قريبة .

. . . كان من العدل ان يدور هذا الرجل بلوحته في العواصم العربية . . فالنهاية باتت قريبة ، (اذا استمر الحال على هذا المنوال !) . . .

قبل ان اكتب عن (اي شيء) هنا في لندن من الطبيعي ان اكتب عن (اهم شيء) من وجهة نظرنا كعرب : فلسطين .

وحينما اقول « فلسطين » ، لا اعني بها ذلك الجزء من الارض العربية الذي تم ـ ويتم ـ استلابه على يدي اسرائيل اعتباراً من ١٩٤٨ ، فحسب ، وانما اعني ايضا كل ارض عربية مهددة بأن تكون فلسطين اخرى . . واعني ايضا المساحات الفكرية والانسانية في ذات كل مواطن عربي يجثم على طاقاته احتلال الجهل الذي خلفه الماضي ، واحتلال حكم حاضر يسلبه ارادته وحريته في اكثر من قطر عربي ـ بحسن نية او بسوء نية ـ ، محولا كل فرد فيه الى « فلسطين » اخرى مصغرة ، انقاذها هو الخطوة الاولى في درب انقاذ فلسطين الكبيرة .

تقريع الذات كالتبجح . . كلام بكلام . .

بعد هزيمة حزيران الاولى (الاولى لانه اذا ظل كل شيء على ما هو فاننا سنضطر الى التأريخ لحزيران ثانية وثالثة . . .) ، اقول بعد الهزيمة انتشرت على صعيد الحكام والافراد على السواء ظاهرة محاسبة الذات والاعتراف بالاخطاء . . . وهي ظاهرة هامة وضرورية لانها الخطوة التي لا مفر منها لافتتاح مرحلة جديدة بناءة في تاريخنا العربي . .

المفجع هو اننا توقفنا عند مرحلة محاسبة الذات والاعتراف بالاخطاء ، ولم ننتقل منها الى المرحلة الاهم : مرحلة التبديل الحقيقي . . .

من قال ان الاعتراف هو « المطهر » النهائي لحكامنا امام شعوبهم وامام التاريخ ؟
ومن قال ان الاعتراف بالخطأ يكفي اذا لم تعقبه مرحلة ترميم هذا الخطأ ؟ . .

منذ اكثر من عام ونغمة لا تنتهي تملأ صحفنا وادبنا واذاعاتنا ، نغمة تقريع الذات والندب الصوفي . .

وحتى الآن لم يعقب هذه المرحلة مرحلة تخطيط واقعي ، ومرحلة تنفيذ عملي . . . وصارت نغمة اللطم الذاتي ممجوجة كنغمة التبجح التي سبقتها . . لقد تبدلت نغمة الكلام الرسمي لكنها لم تتجاوز « مرحلة الكلام » بكل ما فيها من بيانات ومذكرات وتبادل للاتهامات . . وصار من الضروري بناء (غرفة اعتراف مقفلة) ملحقة بالدوائر الحاكمة يمارس فيها الرسميون طقوس الاعتراف واللطم لان الشعوب العربية ما تزال تتطلع الى ما بعد هذه المرحلة . . ولان بعض التنظيمات قد تجاوزتها منذ زمن طويل الى مرحلة العمل : كتنظيمات العمل الفدائي مثلا . . .

وفي معرض محاسبة الذات وتقريعها قيل الكثير وكتب الكثير حول اخطاء الدعاية العربية ومسؤوليتها عن الهزيمة . . وكنا قد توصلنا الى النقاط التالية :

١ ـ الشعوب الاوروبية ليست بأكملها استعمارية لا انسانية ، بدليل تبنيها العادل للقضايا الانسانية في اقطار اخرى ، كتأييدها لكفاح الشعب الفيتنامي ضد الاستعمار الاميركي .

٢ ـ خذلانها لنا ناتج ـ الى حد بعيد ـ عن انعدام دعايتنا العربية ، وعن خطئها اذا وجدت .

٣ ـ خطر الحرب الاقتصادية المنظمة التي تشنها المؤسسات الصهيونية العالمية وانعدام اي جهاز او تنظيم عربي يواجهها رسميا وعمليا ، رغم الامكانيات العربية البترولية واستعداد الاقطار العربية اياً كانت انظمتها للفداء . . .

عند هذه النقاط وقفنا في العام الماضي ، هذا بالاضافة الى توصيات بضرورة المسارعة في العمل . . فما الذي تم في هذا المجال في لندن مثلا ، وهي المركز الاعلامي العالمي الكبير ، وجاليتها العربية من اضخم الجاليات ؟!

ارتجالية ،وفردية ،واستعراضية . . .

صديق مثقف ، ومسؤول كبير في احدى السفارات العربية في لندن قال لي يرد على اسئلتي بعد مناقشة صاخبة :

ـ تريدين ان اتحدث اليك بصراحة ، اذن لا تذكري اسمي في مقالك ! (اليس

مفجعا ان اي رسمي عربي ما يزال لا يجرؤ على قول الصدق علنا الا اذا ضمن كتمان اسمه ؟ يبدو اننا لم نصل حتى الى مرحلة المصارحة الفعلية) .

قال : « ـ نعم . لم يتم اي شيء في نطاق تنظيم عمل السفارات العربية في لندن ، وتوحيد نشاطها الدعائي . . . ولم يتم اصدار اية نشرة او صحيفة ناطقة باسم العرب . . . في الحقيقة ، ازداد موظفو السفارات نشاطا واحساسا بالمسؤولية ، لكنهم ما زالوا يعملون ضمن الاطارات القديمة » .

ولعلي اظلم الرسميين الدبلوماسيين العرب اذا لم اعترف بالجهد غير العادي ، الذي يبذلونه في الآونة الاخيرة في نطاق قضايانا القومية والمصيرية . . لكن هذه الجهود تظلم نفسها بنفسها ، لانها لم تخرج عن نطاق النشاط الفردي والاجتهادات الشخصية . . والصدفة ، والارتجال . . ولم تتحول الى تخطيط منظم واضح يبقى بعد زوال الافراد ويفسح المجال لكل عربي في لندن لمزاولته ، والانسكاب ضمن اطاره . .

مثلا : صحفي بريطاني معروف يدعى مايكل آدمز ، كتب في « الجارديان » مقالا عادلا ذكر فيه حقائق مذهلة عن تصرفات اليهود ازاء السكان العرب في الاراضي المحتلة ، ومحوهم لقرى عربية عن بكرة ابيها واضطهادهم اللاانساني للعرب ، ذلك الاضطهاد الذي ما يزال الشعب الانكليزي يجهله . وبما انه ليس من مصلحة اسرائيل نشر اية حقائق عن قضيتنا ، لذا ثارت ثائرة الشركات اليهودية الصهيونية الثرية لما كتبه مايكل آدمز ، وتمت معاقبة « الجارديان » التي نشرت مقاله وتخويف الصحف الاخرى في الوقت نفسه ، اذ كفت هذه الشركات عن نشر اعلاناتها في « الجارديان » وقطعت عنها موردا اعلانيا ضخما كاد يؤدي الى توقفها . .

وقد اعترف مايكل آدمز بهذا الضغط في برنامج تلفزيوني يدعى (يور ويتنس ـ اي شاهدك) . . كما ايده في الاعتراف بذلك كريستوفر ماهيو عضو البرلمان البريطاني . . . وعلى الاثر تردد في الاوساط العربية الديبلوماسية ضرورة التعويض على الجارديان . . .

وانتهى الامر عند هذا الحد ! . .

(اتخيل عشرات من الاثرياء العرب يشربون الويسكي في « ملهى البلاي بوي » ويقسمون للصور العارية على جدرانه ولراقصاته المضيفات ولموائد القمار بالثأر « للجارديان » ويجدون في الحادث مناسبة للتحدث عن امجادهم الفردية وعن ثرائهم وقدرتهم على التعويض . . . ربما كتب بعضهم قصيدة حول ذلك . . وتم افراغ الشحنة العاطفية) .

المهم لم يحدث شيء رغم خطورة المناسبة وافساحها المجال أمام العرب للقيام بردة فعل تخفف من تخويف اليهود المالي لوسائل الاعلام الانكليزية من صحافة وتلفزيون . . . .

لكن ردة الفعل الوحيدة العربية الرسمية ، كانت فردية (سفر برلكيه) . لها طعم الاريحية الشخصية ، ولذا قوبلت بالرفض من قبل العقلية البريطانية التي ترفض الوعود والصدقات وتفضل اقامة علاقات عصرية واضحة منظمة .

فقد تصادف ان كان وزير اعلام المملكة الليبية يقوم بزيارة رسمية للندن وسمع بالحكاية بعد مرور اسابيع عليها . . . وهزته النخوة العربية فامتطى جواده واستل سيفه ، وبدلا من الاتصال بالسفارات العربية الاخرى ، وانشاء مكتب عربي مشترك منبثق عن السفارات العربية يتولى مواجهة مثل هذه الامور بصورة رسمية وعبر اشخاص يفهمون العقلية الغربية ومؤهلين للاحتكاك بها ، نجده اتصل مباشرة بالمسؤولين في « الجارديان » للتعويض عليها بنشر اعلانات بمبالغ طائلة جدا .

وكان الرد هو الرفض بإباء وشمم بريطاني ، والاباء البريطاني معناه انهم يفضلون علاقاتهم المنظمة والثابتة مع الشركات الصهيونية على النوبات الاريحية العربية غير المضمونة ماديا على صعيد الاستمرار . . .

والاباء البريطاني هو من انصار (ساقية جارية أفضل من نهر مقطوع) ، ومنطقه يشمئز من قبلية الاجراءات الفردية البطولية واستعراضها لعضلاتها على حسابهم . . (اي التنمير باللهجة اللبنانية) . .

وكانت فرصة اخرى خسرناها رغم كل ما سبق وقيل عن التخطيط والتضامن العربي ، ورغم كل النقود التي انفقت على مؤتمرات الاعلام العربي الموحد . . وظلت الارتجالية او اللاتخطيط الشيء الوحيد الذي يوحد الاعلام العربي .

هذه الفضيحة ليست الوحيدة ، لكنها الاخيرة التي ما تزال اوساط الجالية العربية تتناقلها بخجل . وهي باختصار صورة يمكن تعميمها على حال الاعلام العربي الرسمي ككل ، في مدينة الضباب التي لا ينافس ضبابها الا ضبابيتنا في العمل . . . والجديد الخطير الذي يمكن ان يقال في هذا المجال هو انه لا جديد !

وكما منذ عام ، يصطدم العربي في لندن وهو يشتري صحيفته كل صباح بصحف صهيونية تتصدر (كشك) مبيع المجلات وهي : « الجويش اوبزرفر » ، و « الجويش كرونيكل » . . . وحتى لو هرب من لندن الى اسكوتلندا او ويلز فسيجد صحفا صهيونية

اخرى محلية تنتظره مثل « صوت اسرائيل » و « اسرائيل اليوم » .

ورغم انقضاء عام على ترددادنا لحقيقة بديهية وهي انه ليس هنالك اي صوت عربي ينطق بوجهة نظرنا هناك ، فان (كشك) باعة الصحف ما يزال مفتقرا الى اية صحيفة انكليزية او غير انكليزية في متناول افراد الشعب تنطق باسمنا ، وتنقل للناس حقيقة ما يدور . . . وتحمل وجهة نظرنا . .

ربما لذلك ، كان اهتمامي كبيراً بالنشرة العربية الصوت الانكليزية اللغة « فلسطين الحرة » والتي شاهدتها بالصدفة مرمية بين الصحف والمجلات في الهوستل الجامعي (ليليان بنسون هول) حيث اقيم .

لم تكن هذه اول مرة ارى فيها هذه الصنحيفة الشهرية ، فقد سبق ان طالعت العدد الاول منها في مكتب « الحوادث » ببيروت . . . . ورحبنا بصدور تلك النشرة يومذاك . .

ولكن ، في لندن بالذات في هذا الجو المصاب بالخرس عربيا ، وبالفصاحة صهيونيا ، يصبح لاي صوت عربي اهميته وقيمته . . واذا كنت قد طالعت العدد الاول في بيروت وسجلت مآخذي على (الميزامباج) و (التحرير) وغير ذلك من التفاصيل ، فان رؤ ية المجلة هنا ، بعد اطلاعنا على مناخ صدورها يجعلنا نتجاوز الهنات في التفاصيل ايا كانت ونقدر مدلول هذا العمل واهميته وضرورة تطويره ، كما يجعلنا نقدر بطولة الذين يصدرونها في جو ارهابي صهيوني لا يتوانى عن استعمال اي اسلوب في سبيل اسكات اي صوت عربي . .

اذكر ايضا انني يوم طالعت العدد الاول من « فلسطين الحرة » في بيروت ، ساءني ان هيئة تحريرها مجهولة ولم يذكر فيها اسم اي مسؤ ول سوى اسم غامض هو « عزيز اليافي » . . وانها بلا عنوان سوى عنوان صندوقها البريدي . .

ولكنني هنا ، وبعد أعوام من امتصاص اجواء هذه المدينة واستيعاب مناخها المسمم صهيونيا ، استطيع ان اخمن ببساطة ان نشر عنوان مكاتب المجلة لن يكون سوى بطاقة دعوة لبرميل من الديناميت يتركه الصهاينة فورا امام بابها . . وان نشر اسم رئيس التحرير يعني رصاصة مجانية ومضمونة تطلق على جمجمته في الظلام . . .

وبعد ، الجديد في النشاط الرسمي العربي هناك هو : ان لا جديد . .

والجدير هو تبلور ظاهرة خطيرة تبلورا نهائيا ـ حتى هناك ـ . . وهذه الظاهرة هي اقتناع الشعوب العربية نهائيا بقصور اجهزتها الحاكمة عن استيعاب مطالبها القومية ، وتخلف

تلك الانظمة ، والاجهزة المنبثقة عنها عن التطور والنمو لتواجه الوعي العربي الجديد الراغب في العمل لا في الكلام .

وتصاعد نشاط هذه التجمعات غير الرسمية الفدائية واثباتها لوجودها ، هو الرد الشعبي العربي على الهزيمة باستقلاله في العمل عن اجهزة الحكم القاصرة ، و « فلسطين الحرة » هي من طلائع البديل عن صوفية ردود السفارات العربية وفرديتها . .

لندن ٢٧/ ٩/ ٦٨

الهيبيز : ثورة مراهقة ضد العقل الامبرطوري المتصابي

لندن قصر امبراطوري عتيق ، الكبار فيه يعيشون على ذكريات الماضي الذي ذهب ابدا ، وهم رغم فقرهم الحالي يصرون على البقاء في القصر ، وعلى ممارسة تقاليد ذلك الماضي بمظاهره كلها كما لو ان ذلك يعيده الى الحياة ، تماما كالارملة التي يصور لها مرضها النفسي ان زوجها لم يمت وهي تعجز عن تصديق التبدل وتحتفظ بجثمانه .

اما الصغار في القصر ، فقد انفجروا في الاعوام الثمانية الاخيرة مجانين من نوع آخر ، يحطمون الاثاث ، يفتحون النوافذ الصدئة وينثرون زهور الحدائق فوق الاثاث العفن ، ويعبثون ببذلات الكبار العسكرية يرتدونها للحب لا للحرب ويقطعون نياشينها باحتقار ، نافضين الغبار عن كل شيء ، مدمرين في ثورة جنونهم كل ما تصل اليه ايديهم . .

الكل مجنون في القصر . . كل على طريقته . هكذا تبدو لندن للوهلة الاولى ، للاسبوع الاول ، وربما طيلة السنة الاولى ، يراها الغريب مستشفى كبيراً للمجانين مقرها ذلك القصر العتيق الذي ظل مغلق الابواب والنوافذ ومسدل الستائر طيلة قرون بكل ما كان يحويه من اسرار وتاريخ . .

فالجنون اللندني لا يستوطن اقبيتها وازقتها الضيقة الخلفية وعالم ما بعد الثانية صباحا وادمغة بعض الشاذين والمعقدين فقط كما قد يخيل الينا ، وانما هو ظاهرة تجتاح الجزيرة الانكليزية بأكملها . . .

ظاهرة « الجنون » تلك نجدها في سوهو ، شلسي ، وكارنبي ستريت ، وترافلجار سكوير ، وبيكاديللي ، وبقية الاحياء اللندنية الهبية التحشيشية كما نجدها في داوننغ ستريت (مقر رئاسة الوزراة) والبكنغهام ستريت (المنحدر من القصر الملكي) وفليت ستريت (شارع الصحافة) وبقية احياء لندن الوقورة ، ونجدها في برايتون وليفربول (مسقط رأس البيتلز) كما في اية مدينة نائية في بريطانيا مثل نيوكاسل مثلا .

ونحن نظلم لندن اذا اعتبرناها وحدها مبدعة هذا الجنون ووكيلة تصديره الى ما وراء البحار ، كل ما في الامر ان شاشة لنـدن البشرية ، الهائلـة البانورامـا (٩ ملايين انسان) تعكس بوضوح هذا « الجنون » الذي استولى على الجزيرة البريطانية بأكملها . .

ففي (بلدة) نيوكاسل ـ أون تاين ـ في الشمال البعيدة عن لندن ، حيث ذهبت لقضاء اسبوع (هادىء) بعيدا عن هستيريا لندن ، أملت خيراً وانا ادخل القرية وقرأت لوحة « نورثمبرلند » وانا استعيد كل ما قرأتـه من اشعـار شيللي وتنيسـون عن الصفـاء والهدوء . . وكان من الصعب ان اصدق ان هذا الصمت الوقـور لم يكن الا من نوع الحشمة الانكليزية ، وان ملهى مررت به في احد شوارعها يحمل اسم 69 (وكان برنامجه اسما على مسمى !) منافسا بذلك اقبية ازقة سوهو المزروعة بالجنس .

مجرمون أم عباقرة ؟

هل هذا الجنون لعنة ابتلت الآلهـة بهـا اهـل الجـزيرة وخدهـم كما في الاساطـير الاغريقية ؟ ام ان ما نراه بوضوح هناك هو مرض العصر وتمرد انسانه ، وبريطـانيا هي السباقة في اوربا للتعبير عنه لاسباب تتعلق بتاريخها وظروفها الخاصة ؟

هل هناك صلة بين جنون الجيل الجديد في بريطانيا ، وبين مظاهر تمرد الجيل الجديد في اكثر من قطر وعلى اكثر من صورة ؟

هل هذا الجنون هو من صنع وتصدير معامل الهيبيز والبيتلز للميني جوب والميني حب والميني تقاليد ؟ هل هم (السبب) ؟

ام ان نجاح اولئك لم يكن الا (نتيجة) ، وصرعاتهم المتمردة التي انتشرت ، ما شاعت الا لانها تجسد عمليا شعورا عاما بالتمرد ؟

بعبارة اخرى ، لو اقدمت الملكة على اعدام البيتلز منذ البداية عام ١٩٦١ ، بدلاً من منحهم الاوسمة عام ١٩٦٦ هل كان ذلك يحول دون انتشار الوباء ؟

ام انها كانت ستجد نفسها امام بيتلز آخرين ، لانهم ليسوا مبدعي الجنون وانما هم الحنجرة والوتر اللذين تفجرت عبرهما صرخات تمرد جيل بأكمله ؟ . . .

هذا هو السؤ ال الذي طالما تردد منذ بداية الموجة الماريوانية التحشيشية الإسْـدّية (من ل . سي . د) الميني اخلاقية . واكثر من غريب وفضولي وصحفـي يحـاول الاجابـة عليه .

بين الالتزام بالحقيقة والالتزام بالترزمت

خلال عامي الاول في لندن ايقنت تماما انني اعيش في مستشفى كبـير للمجانـين

اصحاب الميني عقل والميني اخلاق . .

وخلال عامي الثاني بدأت رؤ يا جديدة للامور تتضح في مخيلتي وتكون خيوط « الحقيقة » - من وجهة نظري انا - ، او ربما التفسير الاقرب الى الحقيقة (كما اراها) .

وليس حديثي عن (جنون) لندن اللاملتزمة الا بجنونها على صفحات هذه المجلة (الملتزمة) من قبيل التسلية والاثارة ، وانما هو نتيجة « لالتزام » هذه المجلة بالحقيقة ، ولان معرفة ما يدور في تلك الجزيرة وبلا اقنعة تلك المعرفة هي الشرط الاساسي لتقرير مدى امكانية تفهم شعبها لقضايانا وبالتالي مناصرتنا عمليا . ثم مدى جدوى تلك المناصرة . . . . واول خطوة لتحقيق ذلك هي في محاولة رسم صورة جديدة لذلك الشعب . . . جديدة بمعنى انها :

١ - صورة متحررة من سيطرة الايحاءات السلبية التاريخية ونفورنا العفوي من شعب الامبراطورية الاستعمارية والرؤ يا التقليدية الناتجة عنها ، والتي يتهم بمقتضاها (باللاوطنية) كل من يجرؤ على ان يقول للناس ان عام ١٩٦٨ ليس عام ١٩٣٨ ، وانه لا مفر من تبديل الصورة العتيقة (ربما الى الاسوأ) . . المهم تقبل فكرة التجديد في افكارنا ، منتصرين على عقدنا التاريخية بحيث نميز بين بريطانيا « الامبراطورية الاستعمارية » (التي عانينا منها ما عانينا والتي تركت بسياستها الاستعمارية - وما تزال - آثاراً لا تنسى في جسد امتنا وجسد تاريخنا وتاريخ الشعوب المناضلة الاخرى) ان نميز بين بريطانيا هذه ، وبين جيل الشعب البريطاني الطالع وغير المسؤ ول عما كان (الا بقدر مؤ ازرته لاستمرار ما كان) . . .

صورة متحررة من ردة الفعل الاولى التي تصعق العقلية الشرقية وتغمر المراقب الشرقي بالقرف امام كثير من مظاهر الجنون الانكليزي .

قرف يبلغ حد الرفض سلفا والاستنكار ، بل وحتى تحريم اية محاولة لفهم جذوره ومدلوله والغوص الى قاعه . .

وفي عرضي لبعض مظاهر هذا الجنون لن اتقيد بالرفض الشرقي التقليدي وبمفهومه البالي الذي يخلط بين الرغبة في التفسير وبين التبرير ويتهم كل محاولة للتفسير بأنها محاولة للتبرير وبالتالي بأنها قبول ضمني . .

وهذا خطأ اساسي في العقلية العربية من الضروري محاولة تجاوزه بأي ثمن . . .

(تواليت) في موقف الباص

ذلك المشهد الذي كان اول ما وقعت عليه عيني هذا الاحد المشمس ، حينما فتحت

نافذتي واطليت على الشارع جعلني ـ عمليا ـ اشهق ، وافرك عيني غير مصدقة . . . انه بلا شك يثير استنكار اي انسان عاقل او حتى نصف عاقل (للوهلة الاولى على الاقل) . . ولولا الكاميرا التي سجلت بها ذلك المشهد لما صدقت انا في المستقبل انني شاهدته حقا ! .

لم يكن ما صعقني هو مشهد عشرات من الهيبيز الذين انتشروا على الرصيف بشعورهم الطويلة وازهارهم واجراسهم المتدلية من رقابهم والتي تقرع بصخب مواشي مزرعة في شتورا ، ثم يعسكر افرادها على الرصيف منشدين بطرب مع عزف جيتاراتهم .

لا ، ولا ذلك العناق الملتهب لاثنين استندا الى صندوق البريد وامامهما رجل حائر يريد ان يرمي برسالة في الصندوق ولا يدري ما يفعل . . . لا ، ولم يكن ايضا مشهد فتاة ترتدي ثياب القرن الثامن عشر وتبدو وكأنها قفزت للتو هاربة من بين دفتي كتاب تاريخي وبدأت تتجول في الشوارع وفي عينيها تلك النظرة (الافيونية) المذهولة بما تراه حولها . .

ليس لاي من هذه المشاهد كانت دهشتي فقد اعتدت عليها حتى لم تعد تلفت نظري ـ بل ان مشهد رجل يرتدي ربطة عنق او امرأة ترتدي ثيابها كلها هو الذي صار يلفت نظري ـ ! . .

كان المشهد هو (تواليت) .

طبعا لا غريب في مشهد (التواليت) لانه موجود في البيوت كلها وبصر كل انسان يقع عليه باستمرار .

ولكن التواليت انتقل هذه المرة الى الشارع ! . . بالضبط الى رصيف شارع 219 Ladbroke Grove W. 10 وامام موقف الباص الشهير ، رقم ١٥ (الذي كان يستقله « سيدني بواتييه » في فيلم الى سيدي مع حبي) .

ومن اللوحة التي تحمل رقم الباصات التي تمر بهذا الموقف كان يتدلى حبل عقد في آخره ليكون على شكل (سيفون) .

وقبل ان اغسل عيني لاصدق ما اراه حملت الكاميرا وهرولت لالتقط صورة ، ولارقب ما يدور .

جاءت فتاة ، ووقفت تنتظر الباص ببساطة كأنها لا ترى فيما يدور ما يستحق الاهتمام . . . ثم جاء شاب آخر انضم اليها ووقفا معا بسلام ينتظران الباص وربما يتحدثان عن الطقس ! .

ثم مرت سيدة متوسطة العمر تجر طفلها فشتمت المشهد ولكنها لم تستطع حرمان الطفل من الانتفاع بالمناسبة وعلى رؤوس الاشهاد . . طبعا جنون مقرف . هذا هو

الانطباع الاول . ثم تقاطر الناس واحدا بعد الآخر ، واصطفوا واحدا بعد الاخر في صف طويل بانتظار قدوم الباص كما هي العادة . . .

(ذلك المشهد الكئيب اللندني التقليدي لمئات من الناس يصطفون واحدا خلف الآخر في الامسيات الكئيبة القارسة او مع الفجر الرمادي الضباب ، يصطفون بوجوه حجرية صامتة ، لا احد يحدث الآخر ، كل يقرأ في جريدته ، او يغرس انظاره في الجدران المكسوة بالهباب ويفكر بأحزانه الصغيرة ، بانتظار دوره ليستقل الباص او المترو او الدخول الى المطعم او عيادة الطبيب . . ويتكرر ذلك كل يوم وعاما اثر عام . . . ذلك المشهد الحزين الذي لا يبدل منه مطر او ثلج او عاصفة ، والذي طالما شاهدته ، وطالما احسست بالوحشة وانا اتأمله ، وبالخوف وانا امارسه ، انفجرت امامه ضاحكة بشماتة ضمنية وانا ارى الناس مصطفين هذه المرة كما لو كانوا بانتظار التواليت كما لو ان الذي وضعه هنا اراد ان يقول لهم ان مشاغلهم التي يركضون اليها ليست اكثر اهمية من هذا ! .)

وهذه المرة ، لم يقرأ احد جريدته ، وكان واضحا انهم جميعا يحسون بالوضع الهزلي في وقفتهم . وربما دفع ذلك ببعضهم الى التفكير : اين الوضع السخيف ، في وجود التواليت ، ام في وقفتهم تلك عاما بعد عام ؟ . .

وبدا الارتباك على وجوه ذوي العمر المتوسط والمسنين والغبطة المتمردة على وجوه الصغار والفتيان وفرقة الهيبيز المعسكرة على الرصيف المتلصصة على ما يدور .

فقد كان المشهد مضحكا ، اذ بدوا جميعا وكأنهم قد اصطفوا بانتظار دورهم لامتطاء (التواليت) لا امتطاء (الباص) !

وتولى كهل آخر ازالة اثار العدوان عن الرصيف بينما كانت فرقة من الهيبيز تنشد له بسخرية مارشات عسكرية على ايقاع جيرك ! .

ثما جاء الباص ، وامتص القافلة وبقي الهيبيز على الرصيف ينشدون .

استعد للتجوال في شوارع لندن ، ومراقبة مزيد من جنونها الذي ينشرونه في الايام المشمسة لا على السطوح فحسب بل وفي الشوارع والساحات العامة وعلى الارصفة ، وكان لا مفر لي من سماع اناشيد فرقة الهيبيز المعسكرة تحت نافذتي المفتوحة . . . وبعد رحيل الباص بأفراد الجيل الماضي ، كفوا عن الغناء المسعور ، واستحال نغم الجيتار عنيفا بأصالة . ثم كانت دهشتي بلا حد حينما انطلق احدهم يغني بصوت حار متوهج وبشعر انكليزي فصيح رائع الصياغة هذه الابيات :

« الفن بات محتقرا
والخيال مرفوضا
والحرب تسود الامم !
فهبوا
ايها الفتيان الرجال لهذا العصر الجديد ،
ولتكن جباهكم سداً منيعاً ، ضد المأجورين الجهلة . . .
اذ يرتع المأجورون في معسكراتنا ، وفي بلاطنا ،
وفي جامعاتنا ،
والـذين يريدون ، ـ لو استطاعـوا ـ متابعـة ضغطهـم الفـكري علينـا ، وسائر ضغوطهم الى الابد .
والذين ـ لو استطاعوا ـ لمدوا عمر حربهم المادية ضد حياتنا الفكرية والروحية الى الابد » .

وكان بقية الهيبيز يرددون معه هذه الابيات كما لو كانت نشيدهم الوطني .

وكنت واثقة من انني سمعت هذه الابيات قبلا وكانت المفاجأة الثانية حينما تأكد لي انها من الشعر الانكليزي الكلاسيكي ، هذا اولا ، وانها للشاعر الكاهن ويليام بليك ، والذي ينتمي الى مدرسة الميتافيزيكل سكول . (ما وراء الطبيعة) الشعرية ، (مدرسة دون وهيريك وهربرت) التي ثارت منذ عشرات السنين على انحطاط الشعر والاخـلاق والمفـاهيم السائـدة والمجتمـع المتمسـك بتقـاليد تافهـة وكان لثورتهـم صورة ردة دينية مسيحية . . فما هو دين الهيبيز اليوم ، ومن هو إله ثورتهم المجنونة ؟ تلك الحادثة كانت بداية حواري معهم . . ومع كثيرين منهم . . وبعد ان كنت اكتفي بسد انفـي واذنـي (لرائحتهم وصخب موسيقاهم) حينما امر بهم صرت اسألهم تفسيرا لما يدور . . . واعتقد ان بعض ما قيل لي يستحق النشر والتفكير ايضا .

يقول صاحب الاغنية واسمه (المسيح !) ـ على حد اختياره ـ نحن ثائرون على التقاليد العجيبة التي نشأنا ووجدنا انها تكبلنا . . تخطط لنا سلفا اسلوب حياتنا ومكانها وطبقتنا الاجتماعية وبالتالي عالمنا ، وترسم لنا سلفا ما هو من المفروض ان نقوله وان نرتديه وان نأكله وان نعيش بالضبط كما هو مرسوم لنا وان نتصرف بالضبط كما هو متوقع منا . . . ذلك رهيب . . ثم اننا غـير قانعـين بأكداس من العـادات والتقـاليد والاطـر التـي من المفروض ان نتصرف ضمنها .

اننا نريد ان نكون . . . وجيلنا قرر ان يسمع صوته للكبار ، وان يريهم مدى بؤسهم الذي يجهلونه لانهم اعتادوه كما اعتادوا شاي بعد الظهر . . وادمنوه حتى صار موشوما على عيونهم وصار من المستحيل التفاهم معهم .

ما علاقة ذلك (بحادثة التواليت) . حسنا . اعترف . نحن دبرناها . . . انهم لا يرون بشاعة حياتهم ، كآبتها ورتابتها . . ولا يرون اصفرارهم الميت خلف صحف الصباح ، بلا ابتسام ولا فرح وازهار . . . وهم يرعبوننا لان هذا المصير ينتظرنا جميعا الا اذا تمردنا . . .

التواليت وحده جعلهم ولو لمرة يشعرون بالارتباك والخجل وبالتالي يلحظون عبر استنكارهم وقفتهم هذه ، ويعون انهم يمارسونها . هذه الحادثة مرآة تعكس لهم ولو للحظة واحدة وضعهم . . . تذكرهم ولو لمرة اين هم مدقوقون ، كالمسامير في صندوق عتيق ، عتيق . مسامير نسيت امجادها كمعدن خام ايام كانت ما تزال جزءا من الطبيعة قبل ان تصبح كذلك . . اعترف لك انها حادثة بشعة وقاسية وساخرة ، لكن الا يستعملون التيار الكهربائي احيانا لايقاظ الذين فقدوا ذاكرتهم ؟ . . . انهم جيل محنط داخل ضمادات تقاليد بالية ، وقد فقدوا ذاكرتهم انسانياً ، ونحن نحاول ان نردها اليهم ، او ننجو بأنفسنا على الاقل !

هذا الكلام يفسر بلا شك هذه الحادثة ، ويلقي الضوء على كثير من سواها . . . لكنني لا اظنه كافياً لتبريرها او لتبرير سواها . . وسواها كثير . . . وكلها يثبت امرا واحدا : هو ان تلك الثورة عامة وشاملة ، وان الجيل الجديد اعلن الحرب وتمرد نهائيا . .

سخرية وطفولة يسارية

وجنون هذه الموجة يتضمن كثيرا من السخرية بجيل الامبراطورية وبقاياها من مؤسسات وأطر اجتماعية ومواقف سياسية .

فقد اعلن الهيبيز مثلا عن اجتماع عام في الهايد بارك في موعد محدد يقومون خلاله باعدام كلب واشعال النار فيه . .

وكان للنبأ اثر هز الجميع ، وتقاطر الى المكان في الموعد المحدد مندوبون عن جمعية الرفق بالحيوان وعدد من متوسطي الاعمار الثائرين ومصوري الصحف ورجال البوليس والفضوليين امثالي .

وجاء الهيبيون بموسيقاهم وورودهم وضحكهم ، وجلسوا في حلقات مرحة يتأملون وجوه الجماهير التي هرعت لتحول دون ميتة كلب . . . وكانت المفاجأة انه لم

يكن هنالك كلب ولا ما يحزنون ، وانما رفعوا شعارات تؤ يد نضال الشعوب الحرة وتدعو الى وقف المذابح والحروب وتدهش (لعقل الكبار) الذي تهزه ميتة كلب ولا يفعل شيئا امام ميتة شعب !

وسألهم صحفي : هل انتم ماركسيون ؟ . . .

قالوا : نعم .

أليست الماركسية محاولة لنشر السعادة والفرح في العالم ؟ هذا ما نسعى اليه ايضا .

وقال : تسعون اليه بالمخدرات والموسيقى والورود واللاعنف النظري . . ماذا تفعلون لو هوجمتم مثلا . . اعني ان اقول لك ان الدبابة ليست دوما ضد الوردة . . انها احيانا اداة لحماية الوردة . . وضرورة .

ولم يناقش مثل كثيرين سواه الهيبيز . والحوار السياسي معهم يكشف ان موقفهم السياسي مراهق ويفتقر الى الاطلاع الفكري . . وان يسارية اكثرهم وعيا لم تتعد مرحلة الطفولة اليسارية التي تحدث عنها لينين في كتبه .

رفض للقيم السائدة كلها

وهكذا يعبث ابناء (الامبراطورية) بالميراث العتيق المهترىء . التمدد والعناق في الحدائق العامة صار مشهدا لا يثير الانتباه ! (الدراج ستور) الجديد الذي فتح ابوابه في شلسي جدرانه وسقفه من المرايا ، وارضه ايضا !.

في الكارنابي ستريت حيث البائعات يرقصن باستمرار والموسيقى تملأ المكان ، هبطت وصديقة ترافقني الى الميني كافيتريا الملحقة عادة بهذه الدكاكين العجيبة ، وطلبت من مرافقتي ان تجلس الى الطاولة الاقل زحاما قرب الفتاة الشقراء هناك ريثما احضر القهوة . . وعدت بالقهوة ، وقلت للفتاة وانا استأذنها للدخول الى موضعي من المقعد : عفوا يا آنسة . .

وحينما التفتت الي الآنسة وجدتها شابا ! .

وبعد قليل جاء شاب آخر انثوي الشعر جلس الى جانبي وفي فمه مصاصة اطفال يرضعها بشراهة ! .

وتذكرت التفسير الذي اورده توفيق الحكيم عن هذه الموجة حين قال : « جنوح شباب العالم اليوم الى ارتداء الملابس الزاهية واطلاق شعورهم الطويلة ليس تحللا او انحرافا انما هو ارتداد لعصور سابقة كانت اجمل واكثر سلاما » . ويقول : ان اطلاق الرجال لشعورهم او وضع باروكات شقراء وسمراء على رؤ وسهم ، وارتداء ملابس

مزركشة من الدانتيلا الرقيقة مما كان يقرب الفوارق بين مظهر الرجال ومظهر النساء كان هو الزي والسلوك المعترف به بين الرجال الممتازين في ذلك العصر وحتى بداية القرن التاسع عشر ! » .

ورغم قناعتي فكريا برأي الاستاذ توفيق الحكيم ورغم ان شعر نابليون كان طويلا ، الا ان منظر (المصاصة) مع الشعر الطويل كان يخلق ايحاءات اخرى بعيدة عن الرجولة وحتى عن الانوثة ايضا .

روميو وجولييت

وثورة تحطيم القوالب كلها امتدت حتى الى الأحذية . . . وصار مشهد الحفاة مألوفا . .

ويبدو ان بعض العشاق هناك قد سئموا العناق ، وابتكروا اسلوبا جديدا للتعبير عن الحب . . اذ تربط الفتاة قدمها اليمنى الى قدم حبيبها اليسرى ليكون منها ساقا واحدة يستعملانها معا في وقت واحد ، وبذلك يمشيان كما يقفز حامل العكاز على قدم واحد . . كأن كلاً منهما عكاز للآخر ، او كأنهما كائن واحد جديد بثلاثة قوائم فقط !

مايوه أم فستان . . .

في نادي الريفوليوشن (اي الثورة) بحي الماي فير الراقي فوجئت بدخول مجموعة من السكرتيرات بالبيكيني : اي بثوب مختزل جدا . .

وسمعت احد رجال الاعمال الوقورين يغازل احداهن بقوله : ثوبك جميل يا عزيزتي ! انت ماهرة في الاختزال في كل مجال ! .

هيبيز من القطط والكلام

ولما كان الكلاب والقطط من اهم سكان لندن ، كان لا بد للعدوى من ان تسري اليهم . . واطرف كلب هيبي شاهدته كان يرتدي احذية حمراء وقد زين رأسه بريش ديك فبدا حيوانا غريبا جعل قطة سيامية تطاره وتكشر عن انيابها غيظا . . وانسجاما مع منطق الاحداث هناك ، هرب الكلب من القطة مذعورا ! .

دينهم التخدير ،وضد الاديان

والهيبيز لا يؤمنون باله الا بالحشيش والماريوانا ورب الارباب جوبيتر المخدرات الـ « ال . اس . دي » .

وهم ينتهزون كل مناسبة للسخرية من الاديان السماوية ، واكثرهم لا يعرف عنها شيئا سوى ان امه كانت ترغمه على الذهاب الى الكنيسة .

واذا كان اللورد بروكواي الاب والنائب ما يزال يحافظ على المظاهر ولا ينسى شاي

بعد الظهر وشمسيته وقميصه المنشى ، فان ابنه كريستوفر فينر بروكواي لم يكتف باطالة لحيته وشعره وانما مارس هيبيته مستعينا ببقية العدة : مخدرات الكانابيز .

وقدم الى المحكمة لهذه التهمة وحينما سئل عن اسمه قال : ويليام شكسبير !

وحينما طلبوا منه اداء القسم على الانجيل رفض ، واعلن اسلامه ، واصر على القسم على القرآن ، وقال انه لا يرى مبرراً لان يكون مسيحيا بالوراثة ولمجرد ان والده مسيحي . وحينما حاولوا ارغامه على تشذيب لحيته التي بلغت كتفيه قال انه لن يفعل ذلك الا بعد ان يؤدي طقوس الحج الى مكة ! . الاب اللورد وابنه يمثلان جيلين تفصل بينهما هوة مرعبة ، فهل من سبيل لمد جسر بينهما ؟ . . .

- الحادثة عن جريدة الايفننج نيوز - ٩ آب (اغسطس) .

صحافة الهيبيز

وهكذا صار للهيبيز عالمهم وموسيقاهم وثيابهم وحتى صحفهم الخاصة التي تختلف تماما من حيث اللهجة والمضمون والمنطلقات الاساسية .

وصحفهم تمثلهم ابتداء من العنوان وانتهاء بالغلاف . . . اشهرها مثلا تدعى (ات - اي الضمير الغائب للشيء) واخرى (اوز) . وعلى الغلاف الاخير لـ (ات) اعلان على طريقة مطلوب حيا او ميتا . .

والغلاف يقول :

مكافأة لكل من يقدم معلومات تؤدي الى فهم المواطن يسوع المسيح . . .

وتلقي بعض الضوء على التهم الموجهة اليه وبينها العصيان الاجرامي والتآمر على السلطات والافكار السائدة .

صفاته : رث المظهر يقال انه يعمل نجاراً . يبدو مصابا بسوء التغذية . الكفار يعتقدون انه يهودي .

محترف اثارة .

لحيته حمراء .

العلامات الفارقة : آثار في يديه وقدميه خلفها اذى سببه له بعض الموظفين الرسميين والمسؤولين الشرعيين .

وقال لي احد محرريها ان المقصود من الغلاف هو تذكير الناس بأن السيد المسيح كان في عيون ابناء عصره (هيبي!) مثلهم . .

ابتذال

هذه المجلة التي لا تخلو من بعض المقالات الذكية الفكرية يبلغ اسفافها في

الصفحات الاخرى حداً لا يمكن وصفه ، ويستحيل نشره . . .

وهذه المجلات تزخر بالاعلانات عن (نوادي) اللذة وكثيرا ما تتخذ رموزا من الآلهة الهندية تعقبها هذه العبارة : هل تريد مزيدا من الاستمتاع بحياتك ؟ اتصل اذن بـ . . . والعناوين متوافرة، ومن حسن الحظ ان الغرباء لا يعرفون شيئا عن هذه المجلات ولا يتقدمون لشرائها لان اغلفتها لا تعكس بوهيميتها الجسدية بقدر ما تعكس بوهيميتها الفكرية والروحية . . .

وبعد،هذه الجولة الهبية اختمها بالعبارة العربية الكلاسيكية : هذا غيض من فيض . . .

فالاحداث والشواهد اكثر من ان تحصى . . . ومن الصعب ان تمر بقاعدة تمثال ولا تجد فتاة منتصبة عليه في دور تمثال . . ومن الصعب ان تمر بك سيارة من سياراتهم لا تحمل عبارة ساخرة ما . . ومن الصعب ان تقف لشراء بطاقة بريدية تحمل مشاهد لندن كما تلتقطها عدسة الكاميرا دون ان ترى الى جانبها البطاقات البريدية الهيبية التي تصور لندن عبر عدسة الرؤيا الهيبية لها . . ويا لها من صور ! . . اكثرها رصانة يحمل عبارة ، « حللوا كل شيء محرم » ! .

الشمس ام الدمار

الثورة على العقلية البريطانية التقليدية الفضفاضة جدا بالنسبة لجسد واقعها ، هذه الثورة قد تكون عادلة . بل وضرورية . . . وهي التي جسدتها ابيات الشاعر الكاهن القديم ويليام بليك . .

فمن حيث المبدأ ، يجسد الجيل الجديد :

١ ـ ردة بريطانية على استمرار تقاليد (البلاط) واطاراته وثورة على التحجر .

٢ ـ ردة على آلية العصر هي من بعض الردة العالمية التي تجتاح اكثر من قطر .

وثورتهم مزيج متكامل من هذين العنصرين ، تغذيها طبعا حرارة المراهقة وحماسها وسذاجتها ايضا .

ولكن وسائل هذه الثورة واساليب التعبير عنها ما تزال دون القضية التي يدعون الدفاع عنها . . اي ان ثوب اساليبهم يكاد لا يكسو الجسد الضخم لقضيتهم . .

انهم اقزام في دفاعهم عن القضية العملاقة التي يدعون انهم يحملون لواءها . ان (الميني احترام) للمؤسسات والقيم السائدة لم يعبروا عنه بأكثر من الميني جوب والميني حب . .

لكنهم رغم هذا الضياع ما زالوا يحملون بذور رقي انساني وحس اصيل بالديمقراطية والحرية وغيرها مما يوحي بأن هذه الحمى المسعورة يمكن ان تكون من نوع مقاومة الجسد للمرض ، وان استعمال الدواء المناسب قد يشفي ويزيدهم مناعة وقوة وعمقا .

ورغم كل شيء يظل الهيبيز ينشدون وينثرون الازهار والمحبة ويحاولون تجسيد هذا الاتجاه في صور فنية موسيقية وادبية وكانت ابرز هذه المحاولات هي محاولة البيتلز في فيلمهم الاخير الجديد العجيب : « الغواصة الصفراء » . . . وهم في هذا الفيلم يصورون الحرب القائمة ويحاولون مد الجسر بين الطرفين .

ولكن ، الى اين تتجه الغواصة الصفراء بملايينها : الى الدمار في قاع الغيبوبة ام إلى الشمس والدنيا المعافاة من جديد ؟ .

لندن ٤/ ١٠/ ٦٨

البيتلــز : عزل الشبيبــة عن التيارات الثـــوريةالحقيقية . . .

ثورة الهيبيز . . . تلك الثـورة العميقـة الجـذور ، الساذجـة الاسـاليب ، نجـح (البيتلز) نجاحهم الساحق لانهم كانوا التعبير الصادق عنها . . .

وباعوا حتى لحظة كتابة هذا التحقيق ٢١٠ مليارات اسطوانة لانهم انشدوا اغنية صغـار القصر العتيق الثائـرين على كل شيء . . . اغنية الثـورة والجنـون المنطلقــة من حناجرهم بينما هم يعبثون بمعتقات القصر من نوافذ صدئة واثاث عفن ورياش وستائـر ونياشين . . .

انشودة الجنون تلك لقيت صدى لدى ابناء الجيل في اكثر من قطر اذ التقت الردة البريطانية ضد اطارات البلاط المتحجرة التي تجرد الانسان من انسانيته ، مع الردة العالمية ضد آلية العصر التي تجرد الانسان من انسانيته ايضا ، وتحوله الى كائن ممزق يكافح بيأس ليسترد ذاته داخل غواصة صفراء تبحر به عبر الزمان والمكان والرؤ ى . . .

في احدى الحكايات يموت كل من على الغواصة وتنتهي الحياة ، وذلك بعد موت الارانب البيض بساعة واحدة (كانت الغواصات تحمل مع بحارتها ارانب بيض ، وبعد ان تنفق كلها ، يكون ذلك دليلا على ان الجميع سيموتون بعد ساعة واحـدة ، اي في الساعة الخامسة والعشرين ، فالى اي حد دنت تلك الساعة من عالمنا ؟)

وهل ماتت الارانب البيض للانسانية كلها ؟ وما تبقى من عمر الفرح والمحبة وقيم العالم القديم كلها لن يبقى من عمره اكثر من ساعة ؟

وما هي وسيلة البيتلز للعودة بركاب الغواصة الصفراء من بحار هستيريا التخدير والغيبوبة وقاع الدمار الى الشمس والدنيا المعافاة من جديد ؟ . .

وهل هم قادرون على ذلك ؟ انها على اية حال محاولة تستحق الدراسة . ولا بد من القاء نظرة سريعة على حياة البيتلز الاربعة .

أطفال بروليتاريا ،وتعساء .

كلهم من مدينة ليفربول ، كلهم ينتمي الى طبقة (بروليتاريا) . خلف كل منهم

مأساة عائلية ما ، أسرة مزقها الطلاق او الهجر او الخيانة . . . كل منهم طموح ، ومجنون بالموسيقى . . . هكذا بدأوا ايام مراهقتهم . . .

وهم (حسب ترتيب انضمامهم للفرقة) :

١ ـ جون لينون (٢٧ سنة) ، عازف جيتار وشاعر .

٢ ـ بول ماكارتني (٢٦ سنة) ، عازف جيتار ومطرب ، ورفيق جون لينون في المدرسة . . عزفا معا للمرة الاولى في حفلة مدرسية عام ١٩٥٦ .

٣ ـ جورج هاريسون (٢٥ سنة) ، وصديق « المهاريشي ماهيش يوجي » وهو صلة الوصل بينه وبين بقية رفاقه البيتلز .

٤ ـ رينغو ستار (٢٨ سنة) ، ضارب طبل . مطرب . وقد إنضم الى البيتلز عام ١٩٦٢ بعد ان (هجرهم) رابعهم واسمه (بايت بست) وهو اليوم يعيش بهدوء في ليفربول متابعا عمله كخباز (من يدري ، ربما كان على فقره اسعد حالا منهم) . .

على اية حال اسماؤهم لا تهم الا لانها تسهل سرد الاحداث ومناقشتها ، كان من الممكن ان يكون بول اي شاب بريطاني مرهف طموح وذكي وجيد الصحة ، وراغب في التعبير عن نفسه كأن يكون مثلا شابا اسمه ستو (ستيوارت سوتكليف) ، (ستو كان من اعضاء الفرقة عام ١٩٦١ حينما كان اسمها فرقة « كلاب القمر » ومات في المانيا بنزيف في الدماغ) . . . ولكن ، الى اي حد هذا الكلام صحيح ؟ وهل لنجاح البيتلز علاقة بعوامل كثيرة آخرها موهبتهم الفردية ؟ هل الفرق بينهم وبين سواهم هو مدير اعمالهم الذكي الراحل بريان ابشتاين ، وصرعاتهم المتجددة المتجاوبة مع البوصلة النفسية لجيل الستينات ، ام ماذا ؟ . .

اترك للاحق صحف الـ (اوبزرفر) والـ (صنداي تايمز) (حق) النزاع في كشف مجاهل ما خفي من حياة البيتلز واترك الصحف الاخرى تتدخل في كر وفر وهجوم ودفاع ، واكتفي بأن الفت النظر الى بعض بديهيات البيتلز :

١ ـ الذين وصلوا هم الذين استطاعوا الثبات حتى النهاية وطيلة عشر سنوات من الكفاح (بايت بست) مثلا هرب من اول الطريق ، و (ستوسوتكليف) كان صحيا اضعف من ان يتابع .

٢ ـ الموهوب ليس من طينة اخرى غير طينة البشر ، والحياة الخاصة ليست دليلا ـ مع الموهبة او ضدها . . وبودلير ورامبو لم يكونا من القديسين . . .

٣ ـ قدرة الانسان على ان يكون تعبيرا عن عصره منفعلا به هي بحد ذاتها

موهبة . . . قدرته على ان يكون فاعلا بعصره وذا موقف بالاضافة الى فهمه له وتعبيره عنه وبالاضافة الى تقييمه لهذا كله على ضوء القيم الانسانية الاساسية (ان لم نقل الخالدة) ، تلك القدرة هي الابداع .

ومحاولة التقييم للبيتلز ولاي مبدع تكون اقرب الى الحقيقة حينما تأخذ هذا العامل بعين الاعتبار وقبل اي عامل آخر . .

على اية حال ، سأشير بسرعة الى عوامل اخرى تشغل بال الصحافة الغربية هذه الايام (ربما كان اقترابهم الشديد من البيتلز يشوش لديهم سلامة الرؤ يا) . .

واول هذه الاعتبارات في دراستهم لظاهرة (بيتلمانيا) هي ان ثروة البيتلز قد بلغت اليوم ما يفوق مليون مليون باوند وانهم امبراطورية من الثراء والقوة . . . وان بين كبار الصحفيين من يؤلف الكتب عنهم صدر مؤخرا لـ (هانتر دايفيس) كتابه (البيتلز ٣٥٧ صفحة) ـ بايوجرافي مرخصة من قبلهم ـ كما صدر لـ (يوليوس فاست) كتابه (القصة الحقيقية للبيتلز) ويقول فاست انها (الحقيقية) لانها ليست مرخصة من قبلهم ولم تكن لديه الالتزامات التي تقيده امامهم عن قول الحقيقة (عن النيوزويك ـ عدد ٣٠ سبتمبر ١٩٦٨) . . .

وانهم قادرون على منح الشهرة لمن يشاؤ ون . . « ماري هوبكنز » مثلا ، كان يكفي ان (يزكيها) ويكتب لها اغنيتها الاولى (بول مكارثي) كي تشتهر وتنجح . . .

واوكو اونو ، الفنانة اليابانية ، كان اعجاب جون لينون وعلاقته بها كافيا لجلب الشهرة العالمية اليها ، واحتلالها لخمس من صفحات اللايف (عدد ١٦ سبتمبر) ، وبعد ان كانت حبة رز اخرى مجهولة بين الملايين امثالها ، اطلق عليها لقب (مدام باترفلاي) وصار هنالك من يهتم بقراءة اشعارها ! . . .

اشياء اخرى كثيرة ابرزتها الصحافة الغربية وحاولت تقييم (موهبة) البيتلز على ضوئها منها العلاقة (الغريبة) بين جورج هاريسون والمهاريشي ، ومنها (ثرثرة) زوجات البيتلز (وهن في نظري عادة « آخر من يعلم » عن موهبة الزوج) .

وهكذا صارت مورين ستاركي وباتي بويد زوجتا رينغو وجورج هاريسون مشهورتين ، وصار طلب (سينتيا) الطلاق من زوجها جون لينون لعلاقته باوكو اونو كافيا لتصدر الصحف طبعة اضافية ، اما العازب الوحيد بينهم بول مكارثي فهو اكثرهم وفاء لانثاه (!) وهي عارضة الازياء جين آشر . . .

وفي رأيي ان هذا كله هام بقدر ما يؤ ثر في نتاجهم فقط . علاقتهم مع المهاريشي

هامة بقدر ما كان لها من اثر (سلبيا او ايجابيا) على عطائهم الفني ، وعلى امتصاصهم لروح العصر وانفعالهم وفعلهم بها . . (علاقة الرحبانيين مع سعيد عقل مثلا) .

١ ـ الطبل ،ويه يه يه

بدأوا بالاحتجاج الصاخب . كانت اغانيهم الاولى زعيقا متواصلا (زعيق صغار يريدون تذكير الكبار بانهم هناك) . . وضربات طبل بدائي (بدائي ثائر على تعقيدات الحضارة) . . وكانت رقصاتهم دبكا متواصلا على الارض . . رقص قبيلة تحتفل بدفن تراث من الملاعق والشوك ، وتشهر خناجرها استعداداً لافتراس كل من يقول لا . كل من يرتدي قفازاته في الاكل او الحب . . . كل من يذكر قبيلة الاطفال الغاضبين الحفاة بالنظام والالتزام كالنياشين (الحرب) والاحذية (الانضباط) . . .

وكان ذلك الصخبَ الماجن الارعن فوق طاقتنا على الاحتمال كشرقيين ألفنا النـاي والقانون والمزمار ، والحزن العتيق الذي يترقرق بصمت وسرية كالينـابيع الخفية في ليل الغابات المنغلقة على نفسها . . وكانت ردة الفعل الاولى لدينا الرفض بحذر ، تماما كما نرفض عادة الاشياء التي نحس سلفا خطر الوقوع فيها ! . في تلك المرحلة ايضا ارعبتنا (تقاليدهم) الجديدة للطرب اكثر مما اخافتنا موسيقاهم . . فقد كان جيلهم الجديد يعبر عن استحسانـه للموسيقـى بتمـزيق الثياب وشد الشعـر والـزعيق والبـكاء وتحـطيم المقاعد . . . (رغم ان كبارنا وصغارنا يمارسون الشيء ذاته في لحظات طربهم . كلنا ، ودون ان نتحرك عن مقاعدنا ، نمارس في الداخل ، تمزقاً أفيونياً صامتاً لاننا شعب شرقي باطني ، وكبتنا صار من بعض جلدنا . . . وبراكيننا داخلية تنبع وتصب داخلنا . . . متى يجيء الزلزال ؟) . . .

وفي هذه المرحلة شاهدنا البيتلز مجموعة من المجانين الذين يعبرون عن بؤس اهل الغواصة الصفراء في فيلمهم الاول « ليلة يوم شاق » . . في الفيلم غضب (بروليتاري) ممزوج بمرارة لا حد لها ، لانه لا عزاء . . .

« لقد كانت ليلة يوم شاق عملت خلاله كالكلب . . . »

لماذا ؟

يقول :

« لاحضر النقود

« وابتاع لك اشياء واشياء »

وهو هنا لا يخاطب حبيبة ، تبتز نقوده ، المأساة اعمق . انه يخاطب مدينة بأكملها ،

حضارة باكملها . . اهل غواصة صفراء تتجه الى اعتم قيعان الضياع . . .

٢ ـ مرحلة الاستغاثة :

هذه المرحلة تعد في نظري بين ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ . . . انها مرحلة «Help!» كما سموا فيلمهم (النجدة !) .

لم يهدأ صخب «يه يه » والطبل في هذه المرحلة ، ولا زعيق الاحتجاج ، لكن شيئا جديدا تسرب الى النغم . . . انه الجوع الى يقين ، انه حاسة البحث الممزوجة بالاستغاثة . . انه الوعي بأن الساعة الخامسة والعشرين قد دنت ، والارانب البيض كلها نفقت . . . والاحتجاج وحده لم يعد يجدي . . . ولذا تسلل الى الحانهم وتر من الشحوب بين ضربات الاوتار الوحشية . . . وظل من شحوب أنين محتضر خلف ايقاع الطبل العدائي . . . وكثير من الجوع للحب . . . كثير من انغام الحب التي ترسم صورته الرومانتيكية ايام كان .

أيا كان السبب في هذا التطور ، اهو تأثير بول ماكارثي (المولع بالموسيقى الكلاسيكية والذي حاول ادخال جلالها الى الاغنية الشعبية) او انه تأثير مدير أعمالهم الذكي جدا (يقال انه العبقري الذي صنعهم . . يقال) بريان ابشتاين ، او انها حتمية تطورهم بحكم موهبتهم . . . ايا كان السبب .

عبرت الحانهم عن حزن انساني خفي متكبر مختبيء خلف زعيق اطفال الغواصة الصفراء وعويل احتجاجهم وتهديدهم . .

وبدأ العداء (العداء ضد الكبار ـ ضد المجتمع ومسلماته وتقاليده ـ ضد زحف الحضارة المادية) ، يعبر عن نفسه بمظاهر اقل ضراوة ، (كأن الصرخة صارت تعويضا عن ضربة السكين ما دام الهدف اصلا هو التنفيس) . والجدير بالملاحظة ان ظهور البيتلز في المرحلة الاولى بالجاكيتات الجلد والشعر (المنبوش) وغنائهم المتميز بالعنف كان مرافقا في تلك الفترة لظهور فئة من (شبان العنف) تحدثت الصحف عن افرادها (بجاكيتاتهم) الجلدية ودراجاتهم النارية وسكاكينهم وتمزيقهم لثياب المارة وشجارهم مع المواطنين العاديين بلا سبب . . . .

هذا المظهر تبدل في المرحلة الثانية ، وبدأ البيتلز يقتربون من شكلهم (الهيبي) الذي صار يميزهم . . فالحزن والشاعرية وصرختهم بلسان اهل الغواصة الصفراء (النجدة !) انعكس على مظهرهم ، وابتعدوا بالتالي عن صورة (المقاتل) او (الولد الجيمسبوندي) وبدأوا يقتربون من صورة (همشرية) (سواحة) فيها الكثير من التعب

والدروشة . . والتأمل . . . والاقتراب من المرحلة الهيبية .

وقد جسدوها في فيلمهم الاخير « الغواصة الصفراء » وفي أغانيه الـ ١٢ . . . وتبلور مظهرهم المميز : . . الشعر الطويل . . الورود . . الجاكيت الماوتسي تونغي او القفطان . . العودة الى الخواتم . . . (رينغو : سمي كذلك لانه اول من خرج ببدعة ارتداء خاتم في كل اصبع . . وقد سئل مرة لماذا يرتديها في اصابعه كلها فقال : لاني لا استطيع ارتداءها في رقبتي !) . .

وقد لعب (البيتلز) هذه المرة دوراً في بلورة الشكل الخارجي لموجة (الهيبي) ولم يكونوا مجرد انعكاس لها وانما اثروا في مجراها اذ انهم بشهرتهم وبما لهم من شعبية كانوا المثل الاعلى لجماهير المراهقين ، اي زي واية صرعة ، مثلا يقتدى بلا نقاش . . .

ومما لا شك فيه ان صداقة المهاريشي مع البيتلز كانت وسيلة مدهشة لترويج الالبسة والموسيقى والعقود الهندية وبقية ادوات (التأمل الروحي) لدى المستهلك الغربي المراهق . . . وهكذا تم للمرة الاولى تحويل اليوغا الهندية والفلسفات الروحية الشرقية (!) الى صناعة سياحية رائجة . .

وهكذا تمت ولادة صرعة الهيبي . . فالهيبي هو نفسه ذلك المراهق الرافض وان كان قد استبدل هذه المرة القفازات الحديدية الفتاكة في قبضة يده ، بالخواتم ، والجاكيت الجلدي بالقفطان الهندي ، وصرخات المعركة ، باغاني الحب والزهور ، والدراجة النارية بالجيتار ، ورائحة البارود بسحب البخور والتأمل الروحي . والازقة الخلفية بالحدائق العامة والشوارع ورابعة النهار !

اما وقد استتب الامر ـ نهائيا ـ (للهيبي) على صعيد المظهر من شعر طويل وتوابعه ، ومن شذوذ في السلوك الاجتماعي وتوابعه (مخدرات ، بخور . .) ، يحاول البيتلز في الغواصة الصفراء اسباغ البعد الثالث على شخصية الهيبي . . .

ويحاولون تفسير المظهر والسلوك الهيبي على ضوء فلسفة وجودية شرقية غربية ، بل ويحاولون ابرازها في صورة نظرة الى الوجود تحمل درب الخلاص . بعيدا عن صخب الشاشة وسحر الوانها والعبقرية الالكترونية في التصوير وبعيدا عن ثياب الهيبيز بالوانها الرائعة واغاني البيتلز المدهشة الاخراج . . ـ خارج هذا التجديد في الهيكل ـ يحس المتفرج بالخيبة اذ يجد ان شبكته الفكرية لم تعد بجديد ، بأي جديد . . . « كفلسفة » لم يأت البيتلز بجديد على الصعيد الانساني الابداعي ـ كما يدعون ـ . . تقول الأعلانات ان قصة الفيلم مبنية على قصة من تأليف (لي مينوف) وعلى اغنية بيتلية تأليف (جون

لينون) و (بول مكارثي) : « الحب هو كل ما انت بحاجة اليه » . .

ولكن قصة الفيلم كانت اصلا حكاية « اسطورة اورفيوس » الذي ذهب الى الجحيم وانقذ زوجته بغنائه العذب وموسيقاه المذهلة التي استطاع بها ان يجفف جداول النار في الجحيم ويعود بزوجته . . . وهي ايضا من بعض اسطورة ديونيسيوس . . . الجديد الوحيد الذي جاء به الفيلم في هذا المجال هو تصويره للفكرة الرئيسية بطريقة جميلة عصرية يدين البيتلز بها للتقدم التكنولوجي الفني . . . اذ صور لنا الفيلم الذبذبات الصوتية للموسيقى جسورا من نور تمتد بين البشر وتجعل الحب ممكنا والتفاهم حقيقة انسانية .

اما فكرة (الحب هو كل ما انت بحاجة اليه) وهو وحده الذي يمكن ان يعيد للعالم الآلي انسانيته ، هذه الفكرة ليست جديدة ولم يستوردها البيتلز من الشرق ولم يخترعها الهيبيون . . انها فلسفة اكثر من اديب وشاعر كلاسيكي قديم غربي وشرقي . كولريدج مثلا في قصيدته (الملاح العتيق) .

ـ رمز للانسان ـ يقتل الملاح العتيق طائراً حياً اسمه (الباتروس) ويحكم من قبل الآلهة بأن يظل معلقا في رقبته طول عمره (الخطيئة) وبعد هذه الجريمة يموت رفاقه على السفينة وتموت الاسماك والاصوات والبحر والالوان وكل شيء (اللعنة) ثم ينال الغفران لقاء لحظة (حب) واحدة صادقة يحس بها تجاه حيوان بحري صغير (حي) . . والباتروس في القصيدة رمز مسيحي ، والحب فيها مطروح بمعناه الفلسفي الشامل الذي طالما طرحه كبار الادباء والموسيقيين الخالدين . . وهكذا فالبيتلز بصفتهم ناطقين باسم الهيبيز اذن لا يبشرون بنظرة جديدة الى الحب والوجود ، وانما يصيغون قصيدة مراهقة جيدة عصرية الصرعات غريبة الكورس في مدح الحب . . .

بين ثوار المراهقة وثوار الفكر

البيتلز ، يقتربون من الثلاثين ، ولانه لم يعد بوسعهم ان يكونوا قادة (مراهقين) نجدهم يحاولون في فيلمهم هذا تحويل حركة الهيبيز من ثورة مراهقين الى ثورة انسانية .

انهم يحاولون توسيع أفق حركتهم وتعميق مدلولها بحيث تتحرر (الهيبية) من ان تكون صرعة مراهقين ، الى ان تكون المظهر المعاصر لثورة الانسان المعاصر . . . لقد حاولوا بهذا الفيلم ان يتحولوا من (شركة ثوار مراهقي بريطانيا ليمتد) الى (شركة ثوار في اي مكان وزمان) لهذا استعملوا رمز الاسطورة ـ وثوار اي زمان ومكان ترادف صيغة : (ابداع ـ عباقرة) . .

لكن البيتلز ، رغم وعيهم للتحدي الـذي كان عليهـم تجـاوزه فشلـوا في جعـل (الهيبيز) قضية انسانية .

(الهيبيز) يظلون في نظر المشاهد بعد ان يشاهد الفيلم كما كانوا . . . وهستيرياهم لا تحمل اليه وهج ثورة الانسان المكافح من اجل انسانيته في كل زمان وفي كل قطـر . وبالرغم من المحاولات كلهـا لتحـويل (الهيبيز) الى رمـوز للصراع الانساني وكفـاح الانسان من اجل الفرح فاننا نظل نراهم في الفيلم مجرد نماذج بشرية واراجوزات عصرية الالبسة والالوان ، محرومة من جلال العمق الانساني للشخصية الاسطورية ومحرومة من الامتداد الزمني للملحمة المنبثقة عن الاساطير . . . ونقرر : اذا كان البيتلز في هذا الفيلم يرسمون لنا كاريكاتور الثورة المثالية ، فاننا نظل نحس ان الهيبيز دخلاء عليها . .

وهكذا يفشل البيتلز في تحويل (الهيبـي) الى ثائـر ، ويفشلـون في دمـج ثورتـه المسطحة الملونة وجعلها جزءا من الثورات الانسانية على مر التاريخ .

ويظل الهيبي في نظرنا حتى بعد الفيلم ظلا باهتا مزيفاً للشخصيات الانسانية التي كافحت بحب من اجل اعادة الحب الى العالم . . . وهذا معناه ببساطة ان الاعوام القادمة ستشهد موت اسطورتهم : البيتلز والهيبيز معا . . .

الهيبي يذوب في الاطارات القائمة

وهكذا ، ورغم جهود البيتلز وكوكتيلهم الفلسفي الفكري الذي يفتح النفس على التأمل الروحي الافيوني ، تظل (الهيبيز) ظاهرة مقترنة بالسن . . .

وحينما يكبر الهيبي ، يندمج من جديد ضمن الاطارات القائمة ويذوب فيها .

وتظل موجة الهيبية اقرب الى كوكتيل فكري (نهشة من كل فلسفة فكرة من هنا ، ورأي من هناك) منها الى فلسفة متماسكة واضحة المعالم كما يحاول البيتلز تصويرها . . . مجرد صرعة قد تعيش اكثر من سواها لمجرد انها تعبر عن ارادة التجديد . لكنها ستنتهي ! وتظل هذه الموجة قاصرة عن استيعاب حاجة الفرد البريطاني الى التبديل ، وتظل قاصرة عن استيعاب حاجة الفرد المعاصر الى ما يواجه به عصر الآلة واللاعدالة . . . وتظل لا تخرج عن كونها صرخة احتجاج الافراد على الذوبان في الاطارات العتيقة . . .

بل ان ظاهرة الهيبيز قد تكون ضارة لانها تمتص فعاليات الشبان وارادة التغيير لديهم وتتولى تصريفها عبر قنوات غير عملية وغير منتجة وتعزلها عن التيارات الثورية الحقيقية للعالم، وتتولى تخدير الجيل الطالع بصرعاتها حين تجرف لديه ارادة التغيير وهدفه ريثما يكبر ويفقد الحماس فيعود لينسكب من جديد ضمن الاطارات العتيقـة . . وتظـل كل

مزاياه هي المزايا التقليدية الانكليزية .

وهذا هو على الاقل ما بدأ يحدث للبيتلز . .

مؤسسات رأسمالية للبيتلز . .

يقول جون لينون أحد البيتلـز « نحن مقاتلون ضد المؤسسات التقليدية ، وضد الجهل ، وضد القسوة من اي نوع » .

وهذا كلام جميل وفضفاض . . فالبيتلز اليوم قد حملوا حصيلة (قتالهم) إذ عادوا ليضيفوا الى المؤسسات القائمة (التي كانوا قد ثاروا ضدها) مؤسسة جديدة تفوق كل ما سبقهـا من مؤسسـات ثراء ورأسمالية : وهـي مؤسسـة « تفـاح » . . اسمهـا غريب طبعا . . . ولكنه ليس اغرب ما فيها . .

اسم الشركة تفاح . . والمكاتب جميلة وغامضة كالبيوت السرية . . والسكرتيرات فاتنات وشبه عاريات .

وخلف هذا القناع (التأملي الاستغراقي) هنالك ملايين الملايين من الجنيهات ، والادمغة المفكرة ، ومحاولة مضاعفتها على كل صعيد . . .

وعلى جدران مكاتب شركة (ابل ـ تفاح) في بيكرستريت الصق البيتلز منشوراتهم (بوسترز) الروحية التي تدعو لنبذ المادة والعودة الى عالم الروح ، وداخل المكاتب تخطط الـرؤوس لامبراطـورية جديدة للمال وركيزة اخـرى تقليدية تسانـد الركائـز الاخـرى القائمة . . . ولا شك في ان البيتلز احسوا ببعض الحرج لتحولهم الى رجال اعمال ، ولذا حاولوا تغطية خط الرجعة الفكري لاعمالهم بتصريح لبول قال فيه (هذه المؤسسة المقصود منها منح الشبان الموهوبين الفرصة التي حرمنا منهـا في شبابنـا . . . . اكتبـوا الينـا عن افكاركم الجديدة . . وتعالوا !) . . .

وقـال لي صديق انـكليزي يعـزف الجيتار : ذهبـت اليهـم ورفضـت الابـواب الالكترونية ان تسمح لي بالدخول !! . .

وربما كان اقصى طموحهم هو المشهد الذي سنراهم فيه بعد اعوام : اربعة لوردات محنطين في رولزرايس ، في طريقهم من ملعب الجولف الى تناول شاي بعد الظهر !!! . وقد اعتزلوا الغناء !

لندن ١١/ ١٠/ ٦٨

المواطن العادي هو . . الملك !

ليس بالـ (يه يه يه) وحدها يعبر الشعب البريطاني عن نقمته على المؤسسات المحنطة للقصر الامبراطوري العتيق ، وليست ظاهرة (الهيبيز) التعبير الوحيد عن ارادة التبديل ، لكنها التعبير الاكثر لفتا للانظار ، رغم المشاق التي يتطلبها حل رموزها من قبل طبيب نفساني ، او مجنون مثلهم . ولكن هنالك صيحات رفض كثيرة تمتاز بالوضوح والجلاء والوعي الكامل للمأساة . . هذه الصيحات لم تخل منها صحيفة او مجلة ، او ندوة تلفزيونية او اذاعية ، هذا بالاضافة الى الاحاديث الخاصة التي تدور في ارجاء الجامعات والاندية والبيوت .

البروفسور برادلي ، وهو شاب في الخامسة والثلاثين قال في مناقشة تلفزيونية « نحن مسؤ ولون عن جنوح مراهقينا وانغماسهم في تلك الحياة الرافضة اللامسؤولة واللامبالية . بريطانيا لم تعد امبراطورية ، لكن كل ما فيها من مؤسسات وتقاليد وحتى من سياسة خارجية ، ما يزال موروثاً من تلك النظرة المتعالية الاستعمارية العتيقة ، جيل الملكة فيكتوريا ما يزال يمارسها بحكم العادة وبحكم عجز شيخوخته عن مواجهة الواقع وما يتطلبه عصر الملكة اليزابيث من تبديل . ولذا فالجيل الجديد عاجز عن الانسجام مع زيف هذا الموقف ، وهو رافض له ، والخطر في رفضه هذا هو انحرافه في التعبير عن حقيقة مدلول رفضه .

ان تبديلا جذريا يجب ان يحدث وقبل فوات الاوان . . .

وصيحة البروفسور برادلي هذه نسمعها كل يوم منطلقة من فم مثقف او آخر ، ومن افواه المواطنين العاديين ، كل على طريقته . . . واذا كانت (الهيبية) كما يدعي البيتلز هي (الرفض) ، فان مثقفي بريطانيا يمارسون هيبيتهم مع احتفاظهم باتزان شكلهم الخارجي ووقار مظهرهم التقليدي ورصانة لغتهم وعنفها . . . انهم يفصلون تماما بين ثورة الشكل وبين ثورة المضمون ، ليس لان الثورة الخارجية ـ الصرعات ـ لا تكفي فحسب ، ولكن لانها تكاد تنمو حتى تطمس المضمون وتنحرف به وتشوهه . . . وهم يصرون على توضيح المشكلة عبر الابجدية ودون الاستعانة (بالماريوانا) والـ (ال . اس . دي) والحشيش ،

وتقول السيدة جانيت سميث - مربية اجتماعية لامعة - « رغم انني بكامل وعيي - وتلك حالة تافهة وغير مهيأة لاستيعاب قضايا الوجود ! - الا انني اسمح لنفسي بالقول ان جنوح شبابنا مرده الى جنوح دولتنا وتماديها في تجاهل ضرورة اعلان التبديل : الامبراطورية ذهبت ومعها يجب ان تذهب اشياء كثيرة ما نزال نرغم الجيل الصاعد على ان يكرس نفسه لها ، وهي لم تعد تصلح الا للمتاحف . . ان الافتقار الى الخطة الواضحة للامة يدفع بابنائنا الى هذا الضياع . . وحرام ان يخسر شعبنا مكاسبه الانسانية الرائعة التي تتمثل في الشخصية الانكليزية على الصعيد الفردي وحرام ان لا يتكامل نموها نمواً معاصراً ويمتد ليشمل الدنيا ، ويؤثر في تاريخ التطور الانساني للبشر على هذه الكرة الارضية . . . » . . .

وكلام السيدة جانيت على جانب كبير من الصحة والزائر الغريب هو بلا شك اكثر قدرة على التمييز . .

فالغريب ، عربياً كان او غير عربي ، يلحظ في بريطانيا امورا حضارية على المستوى الانساني تلفت نظره بل ودهشته وتثير غيرته . . . وأهمها . . .

الحرية ، الصدق ، الكرامة

المواطن البريطاني حر تقريباً ، وبما في الحرية من حس بالواجب ، ومن احترام لحرية الآخرين . وهو لذلك صادق غالباً لا نادراً كما عندنا ، لأنه ليس بحاجة للكذب كي يسرق حريته أو يمارسها . . .

وهو بالتالي يحس بكرامته كانسان لان علاقته مع دولته وعلاقة دولته معه مبنية على هذه الأسس بصورة رائعة تثير غيرة المواطن العربي وغير العربي . . .

(وعقدة العظمة والامبراطورية هي وحدها الثغرة بين المواطن وسياسة دولته وهي تقريباً سبب المأساة البريطانية المعاصرة) . . .

فالمواطن البريطاني هو نسبيا انسان حر في دولة حرة ، الأمر الذي لم يتوفر لاي مواطن عربي . . تقريباً !

فالمواطن العربي هو غالباً اما انسان غير حر في دولة حرة (اي غير مستعمرة من قبل الاجنبي) . او انه انسان غير حر في دولة غير حرة ارضها مستعمرة او واقعة تحت نفوذ ما . . . وهو ان لم يكن فريسة للاجنبي المحتل لارضه نجد حريته فريسة لاحتلال بني قومه المستثمرين او لاحتلال الجهل : اي لامتداد الاستعمار الماضي الطويل في حاضره . . .

وقد اتخذت الامم المتحدة قرارا باعتبار عام ١٩٦٨ السنة الدولية لاعلان حقوق الانسان وهي : حق الحياة ، حق الحرية ، حق الملكية ، حق السعادة ، حق المواطن في حكم نفسه . . . مع ما يقابل هذه الحقوق من واجبات ، ورفعت شعار العصر الانساني : كي يكون الانسان مواطنا حرا في دولة حرة ، وكي تكون دولته دولة حرة في عالم حر . . .

وعلى ضوء هذه النظرة نستطيع ان نقول : البريطاني مواطن حر في دولة شبه حرة ولكن في عالم غير حر . . .

كما لا نملك الا ان نقول : المواطن العربي مواطن غير حر في دولة شبه حرة او محتلة في عالم غير حر . . .

وقوى كثيرة تستعمر الفرد العربي وتشوه انسانيته في أكثر من قطر بعضها موروث يحمله في داخله ، والباقي يتخذ شكل قوى خارجية هو من بعضها . . . ورؤ ياه لها تتكون بوضوح حينما يلحظ نقيضها . . وحينما يرقب انساناً حراً كمواطن ابرز نماذجه المعاصرة : الفرد البريطاني . .

بريطانيا « هايد بارك » واحدة كبيرة

(هايد بارك) ليست وحدها حديقة الحرية هناك . . ان بريطانيا بأكملها هي هايد بارك واحدة كبيرة يتمتع فيها المواطن بالحرية نفسها ، وليست هايد بارك الا النموذج الذي تقدمه البلاد للسواح والزوار وتعرض فيه (عينة) عن الحرية الفردية فيها . . . . والدليل هو ان اكثر المتحدثين في الهايد بارك هم من الغرباء المحرومين من حق الكلام في بلادهم ! وانك تستطيع ان تقول خارج الحديقة على رصيفها الخارجي اي شيء تقوله داخلها دون ان يعاقبك القانون الا بتهمة عرقلة السير ، كما انك لا تستطيع ان تقول داخل الحديقة ما يحرمه القانون خارجها .

ان التهجم على الملكة (أي مبدأ الوطن في عرفهم) هو الشيء الوحيد المحرم قوله داخلها وخارجها . . . وعدا ذلك ، كل شيء مباح . . . والصحافة الفرنسية هي وحدها التي تعامل الاسرة المالكة الانكليزية كما تعامل نجوم السينما .

الصدق

ذات صباح كانت شمسه تضيء بشدة على غير عادة ، تفجرت اعماقي بالفرح والمحبة الغامضة ـ انا ابنة البلاد المشمسة ـ وبالحاجة الى مخاطبة انسان ما ، اي انسان . . .

ولما كنت استقل الباص ، لم يكن أمامي سوى جاري في المقعد . . . فاضت عواطفي نحوه فالتفت اليه وقد قررت التحرش به على الطريقة الانكليزية وقلت له : الشمس

ساطعة ، اليس كذلك ؟ . . .

لم يجب فوراً ، وانما ارسل بنظراته خارج نافذة الباص من حيث كانت تتدفق الشمس كما لم تفعل ابداً في لندن وابتسم بكل ما في طاقة اعوامه الثمانية والثمانين على الابتسام واجاب بتوءدة : أجل . اعتقد ذلك . . . «I should think So» والترجمة الحرفية لرده هي : من المفروض ان اعتقد ذلك . . والواقع ان هذا التركيب اللغوي الذي يستعمل باستمرار للرد بالايجاب لا يلفت النظر فحسب وانما يتضمن تفسيراً كلياً لما اعنيه حينما اتحدث عن « الصدق البريطاني » . . . انه لا يقول : نعم ، الشمس ساطعة كما هي صيغة الرد في اكثر اللغات وانما يسبقها بكلمة : اعتقد . .

من جديد تعمدت أن أسأل الرجل الجالس الى جواري : ما الساعة ؟

اجاب بعد ان نظر الى ساعته : اعتقد انها العاشرة والنصف . قلت له : هل أنت واثق . أجاب : من المفروض أن أعتقد كذلك . . .

ان في هذا التركيب الانكليزي التقليدي وعياً رائعاً بقضية الحقيقة ونسبيتها . . والشمس حتى الشمس ، لا يسمح لنفسه بتعميمها كحقيقة لمجرد انه يراها هو . وان الشمس ساطعة بالنسبة اليه لانه يراها ساطعة ! لكنه لا يفترض ان هذه (الحقيقة) ـ حتى هذه (الحقيقة) ـ سواه مرغم على ان يتبناها ! . .

وفي رده عن الساعة ، يأخذ بعين الاعتبار ان ساعته قد تكون على خطأ ، وانك قد لا تأخذ توقيت « بيغ بن » الذي اصلح ساعته وفقا له ، بعين الاعتبار ، اذ قد يكون لك انت توقيتك الخاص . . .

هذا الصدق العفوي الرائع الذي نجده في اكثر ما يتفوه به البريطاني او يقوم به ، والذي تنم عنه حتى تركيباته اللغوية ، هذا الصدق هو جزء من علاقة البريطاني بنفسه وبمؤسساته الحاكمة . . . وهو أمر يفتقر اليه العربي بنسب متفاوتة . . .

ففي امثالنا نقول : هذا الامر واضح مثل عين الشمس ، ونقول : الكذب ملح الرجال .

بالنسبة للبريطاني ، حتى (عين الشمس) لا تصلح حقيقة أنت مرغم على تعميمها ! . . وفي تغنينا بحب وطننا يقول الزجالون : من هون من سفح الجبل طرطشنا الدنيا علم . . .

والبريطاني الذي لا يقل عنا حبا لوطنه واعتزازا به كان من الممكن ان يقول : من هون من سفح الهايد بارك (اعتقد اننا) طرطشنا الدنيا علم . . .

وهذا التقديس الرائع للصدق يتضمن فهماً لا يقل روعة عن مفهوم الحرية وهو : ان حقيقتي ليست بالضرورة حقيقتك ، ومن حقك ان تعبر عنها بقدر ما من حقي ذلك . . وهذا الموقف العام نجده في كل نواحي الحياة البريطانية وبصورة خاصة في علاقة المواطن بالدولة : الحاكم لا يكذب بنظره على الاقل ، الوسائل الاعلانية لا تكذب ويصدقها . . .

(هذه الصفة الطيبة وعتها اسرائيل جيداً واستغلتها جيداً ، فالمواطن البريطاني الذي لا يكذب يؤمن تمام الايمان بما يقرأه في صحفه ولا يدور بخلده قط ان الاخبار ووجهات النظر الصهيونية المدسوسة هي كلها كاذبة) . . .

وفي بريطانيا ، طيلة العامين اللذين قضيتهما لم يستوقفني مرة رجل بوليس ليسألني عن هويتي أو أوراقي كما ان ذلك لا يحدث قط في هذه البلاد (منذ ايام الحرب العالمية الثانية) . . . نحن نعيش باستمرار في جو من حالة الطوارىء ، السير بدون الاوراق الشخصية ممنوع . الوطن من حيث الاصل حماية من الاحكام العرفية للغاب ، ونحن للاسف نعيش غالباً في ظل الاحكام العرفية للحكام ! . .

توقيف مواطن هناك بصورة اعتباطية ، مسؤولية يعاقب عليها المسؤول في حال اثبات المواطن لبراءته .

المواطن عندنا يوقف ويسجن وحينما يفرج عنه حياً يسبح بحمد السلطات فرحاً بنجاته ! . . بدلا من مقاضاتها كما يحدث هناك !

مثال آخر صغير على الاستهتار بالفرد عندنا ، ذلك الاستهتار الذي لا يمكن ان يحدث هناك . .

اذا تصادف لمناسبة ما ان كان ضروريا عرقلة السير من أجل مرور موكب رسمي ما ، يتم الاعلان عن ذلك قبل حين كي لا يتضرر اي مواطن من جراء ذلك وكي يعد للامر أهبته . . .

المواطن العربي لا يدهشه بل ولا يدعوه الى الاحتجاج ان يفاجأ بشرطي سير يأمره بتبديل وجهة سيره لان الطريق مقطوع بسبب مرور الرسمي (فلان) او سعادة (علان) . . .

حتى في الشتائم

والانسان العربي مضطهد غالباً وغير حر حتى في الاشياء التي يرتبط بها حبا . . انه مستعبد حتى في حبه !

فالشتائم في اللغة الانكليزية كلها موجهة نحو الفرد (المشتوم) . في اللغة العربية الشتائم منصبة على الاخت او الام مثلاً . . . اذا ترجمنا هذه الشتائم الى الانكليزية لا يشعر الانكليزي انك تشتمه اصلا ، وانما يشعر بانك تبدي وجهة نظرك نحو افراد أسرته وليس من شأنه او من حقه ان يؤكد او ينفي ذلك ! . . واقصى رد يمكن لك ان تسمعه في هذه الحالة هو انه (في حدود علمه) لا يعتقد بأن ما تقول صحيح
As far as I am concerned.

وهو تعبير رائع آخر (حتى على صعيد الشتيمة) عن احترام الفرد لفرديته ، وبالتالي لحدوده الانسانية . وحدود سواه . .

الحرية الفكرية :

وكنتيجة لهذا كله ، فالحرية الفكرية هناك حقيقة . . . التفاهات والقذارات والمجلات الخلاعية تلفت نظر الغريب للوهلة الاولى ، ولكن الشعب البريطاني المقيم يستمتع بالفضائل الباقية لهذه الحرية حتى الآن على الاقل . .

هنالك بلد عربي كان الى وقت قريب تحت الانتداب البريطاني . . وكانت هنالك صحيفة لبنانية عقائدية يسمح البريطانيون لها بالدخول رغم احتلالهم ورغم مساندتها للحركات العقائدية والمناوئة للاحتلال ، وقد منعوها مرة واحدة من الدخول لانها كذبت بنشرها خبراً ملفقاً وليس لانها ضدهم !! . . والمفجع انه يوم ذهب الانتداب وتسلمت مقاليد حكم البلاد أيد وطنية عربية ، تم منع الصحيفة نهائياً من الدخول لمجرد خلاف حزبي داخلي ! . . . .

والامثلة عندنا أكثر من أن تعد وتحصى . . .

الحس بالاسرة والضمان

هذه العلاقة الرائعة بين الحاكم والمحكوم ليست مفتعلة في مظاهرات تهريجية مأجورة وانما هي حقيقة متبادلة تتجلى في نواحي الحياة كلها .

ما نسميه نحن بدائرة الامن العام يسمونه هناك Home office أي « مديرية البيت » بدلا من « مديرية الشرطة » . . .

فالوطن بيت كبير ، والشرطة من أهل البيت ،والمساواة بالتالي ليست حتى موضوع نقاش وانما هي حقيقة عفوية . والمواطن لا يعيش مطارداً بحس الخطر والقلق واللااستقرار ، وبيته الكبير الوطن هو بيت بحق ، ومسؤ ولوه هم ملجأه لا لصوصه . . . اذا مرض فالدولة تداويه بالمجان . واذا كان عاطلاً عن العمل فهو يتجه الى

أقرب مركز بوليس مُبَلِغاً بذلك ، فتتولى الدولة منحه راتبا اسبوعيا ريثما تجد له عملاً !! انه ليس مهدداً قط بالفقر اي بالاذلال . . . وهو اذا اختار البطالة ، يكفي ان يبلغ عنه اي شخص كي يزج به في السجن بتهمة عدم العمل !! . . والبوليس حبيب الاطفال منذ صغرهم وتقام المعارض الطريفة خصيصا له ، وفيها اشياء كثيرة حلوة غير ادوات التعذيب وقضبان السجون . . .

مثال آخر رائع على ان الوطن أسرة حقيقية نجده في برامج الاذاعة . . هنالك محطة اذاعية تذيع محليا وهي اذاعة الاسرة . . . وفيها الحان وموسيقى ونشرات اخبار موجزة جدا وفيها برنامج جديد يبث للمفقودين فقط من أسرة المجتمع . . . كأن يقول المذيع فجأة : « اين أنت يا بول آدامز . أمك قلقة جدا ، اينما كنت ، كلنا بحاجة اليك ونهديك هذه الأغنية . . . »

وقد عاد عشرات المفقودين عبر هذه النداءات المفاجئة . . .

وفي أيام الطقس السيء جدا ، تتحول الاذاعة الى مرافق حنون لقادة السيارات وهكذا . . . يظل كل فرد ، محروماً من الاحساس بالاضطهاد . حتى اسنانك تهتم الدولة بحمايتها ، وتأتيك بطاقة (اتوماتيكيا) كل ستة اشهر من طبيب اسنانك المجاني يذكرك فيها بانك لم تزره بعد !! . . .

وهكذا فالدولة موجودة في كل مكان ومع المواطن في كل خطوة ، وليست ممثلة فقط في صورة رجل بوليس عبوس او سلطة تضطهده .

انها معه في الاذاعة والبيت والمدينة ، وحتى في سفره في انحاء البلاد . . . وحتى اذا تعطلت سيارته فالدولة موجودة بصورة علبة فيها هاتف كل عدة كيلومترات في اي طريق حيث يرفع الفرد سماعة الهاتف ويذكر اسمه ويحدد موقعه واين تعطلت به السيارة لتأتيه بعد لحظات فرقة الانقاذ . الانسان هناك مهم ، كل انسان . . . وآخر ابتكار في هذا المجال بُدىء بتطبيقه هو مراكز بوليس متحركة اسمها « مراكز السيطرة على المرور » بحيث لا يموت الناس من الاهمال في حال وقوع اي حادث مفاجىء .

ولذا فالشعب هناك هو الذي يختار الاشتراكية لانها تنظم علاقة افراد الاسرة ـ الوطن ، على نحو عادي وصحيح وبناء . . . انها حس اجتماعي قبل ان تكون صفة سياسية . . . انها محاولة للوصول الى الديمقراطية الحقة . . .

المفجع اننا في بعض البلاد العربية لم نعرف بعد من الاشتراكية الا استلاب الحرية ، والطبقة التي كانت تسرق الشعب باسم الرأسمالية قد استبدلت بطبقة اخرى

صارت تسرق الشعب وبالوسائل العتيقة نفسها ولكن تحت شعارات جديدة !

والسبب هو ان اشتراكية انكلترا هي حصيلة تطور انساني حقيقي وليست حصيلة تطبيق نظري ارغامي . .

وكل ما يدور حول المواطن البريطاني منذ طفولته يدفع به خطوات في طريق الرقي الانساني عبر وسائل رائعة : الموسيقى . الفن . الفكر . المتاحف . المعارض . المسرح .

لندن ،والفن مجانا كالخبز

زجاجات الحليب التي تترك امام الابواب كل صباح دون ان تمتد يد لسرقتها دلالة على انه لا أحد يموت في بريطانيا جوعاً الى الخبز او الحليب . . .

والحفلات الموسيقية المجانية في الحدائق العامة والهواء الطلق تدل على انه لا احد يموت ، من الجوع الفكري هناك ابداً . . . والمعارض اليومية المختلفة والمجانية . . والحدائق والبحيرات والفرح كلها بالمجان . . . وحتى جدران الهايد بارك الخارجية تغطي اسوارها اللوحات كل اسبوع . .

كأن الفن هو الذي يغلف الحرية . .

الفن يغلف الحرية ، والاسود يرسم الابيض . . وسفينة الاستعمار حيث يجب ان تكون فعلاً : مجرد ذكرى . فماذا تبقى ؟

الوجه الآخر للعملة

يبقى الوجه الآخر لحرية الامة والذي لا تصح حرية بدونه . . . وهو اعتبار هذه المكاسب الانسانية حقا للانسانية كلها من الواجب ليس تعميمها فحسب ، بل النظر الى بقية الشعوب على ضوئها . . .

وذلك لا يتم الا حين تتخلى بريطانيا عن نظرتها التقليدية الى الشعوب الاخرى والتي تتحكم فيها عقدة العظمة .

والمعرفة ، تراثها الوحيد الباقي توظفه في خدمة الانسانية بعد ان وظفته طويلاً في خدمة مطامعها اللاانسانية في امتصاص دم الشعوب . .

وبذلك وحده تظل بريطانيا عظيمة ولكن بمفهوم العصر الحديث الانساني .

وبذلك وحده تنقذ جيلها الطالع من الجنون ، وجيلها الباقي من ازدواج الشخصية .

لندن ١٨/ ١٠/ ٦٨

... ورجعت

« ايها الضمير الانساني ..
أيها المرمي كالنفاية عبر شوارع العالم .
تدوسك المركبات المسعورة
واحذية المومسات في ليل اوروبا وهونغ كونغ ونيويورك
أيها المنهك المتشرد .
أيها الجائع لكسرة خبز الحقيقة .
استيقظ
اني أصرخ فيك عبر المطر والريح
استيقظ ،
وضع يدك في يدي
لندفع معا من عالمنا رياح الظلام
التي تهب عليه الآن
من اقبية اللصوص ومجرمي الحرب
في « البنتاغون » و « ١٠ داوننغ ستريت » .
« للشاعر السوداني سيد احمد حردلو »

حتى أنت يا رجل البوليس ؟

كنا خمسة في مقهى « الدانمرك » بحي ساوث كنسنغتون . ونحمل خمس جنسيات مختلفة ... أكرم صالح فلسطيني ، ذكي ومرح وفي قاع ضحكاته يهدر ذلك الحزن الفلسطيني المعتق .. منى ، صديقة لبنانية .. كريستوفر ماندي ، انكليزي ، يحمل الماجستير في الهندسة من جامعة لندن ، هادىء وذكي ويتفهم القضايا العربية بحكم صداقاته الجامعية الحميمة للكثيرين منهم .. ورابعنا توني دورثي ، ايرلندي ، سنة ثانية هندسة ، وأنا سورية .

وكان الحديث يدور مرحا صافيا وأكرم يغسل الغبار عن وجوهنا بنكاته .. ثم تطور

الحوار ، وحدثنا توني عن اجازته المرتقبة في اسرائيل ! وهنا تلبد الجو وبدا الغضب ممزوجاً بالألم في وجه اكرم بينما صمتنا جميعا في انتظار ردة الفعل . . . وبدا لي انه يكافح كي يكبح غيظه . . ومما لا شك فيه انه نجح في ذلك اذ جاء صوته حين تحدث هادئا محباً ومقنع النبرات . . . واستمعنا مع توني الى اكرم وهو يشرح له تفاصيل القضية الفلسطينية . وفوجئنا بان توني كان فعلاً يجهل كل شيء عنها الا ما قرأه في الصحف وكل ما يكتب في الصحف هناك من وجهة النظر الصهيونية ومؤامراتها لاخفاء الحقيقة .

وطالت محاضرة اكرم ، وخشيت على توني من الضجر (فكرت ان حقن توني بالحقيقة يستحسن ان يكون على جرعات) ، ثم دق الجرس في العاشرة والنصف مؤذنا باغلاق المكان وكان لا بد من (قطع) المحاضرة . . .

وقررنا الذهاب الى دار الزميل مارون عقيقي لانه مزود باستمرار بالقهوة العربية التي نفتقدها في لندن وبلطف مارون .

وفي السيارة ، ادهشني ان توني عاد الى الاستفسار من اكرم عن بعض النقاط ، وعاود الحوار بشهية ، فهو صادق ، وهو يريد ان يعرف المزيد .وكنت اظنه .قد ضاق بما قيل .

وهبطنا جميعا من السيارة في (فينبورو رود) امام دار صديقنا مارون عقيقي وبدأنا نقرع الجرس بالحاح شديد دون اي جواب . . . وقررنا ايقاظه باي ثمن ، ومر بنا رجل البوليس فلم يعجبه المشهد . . . فالاجراس تستعمل عادة في لندن لمرة واحدة ، ولاعلان قدوم الضيف لا لايقاظ المضيف واهل الحي ! .

واقترب منا يسأل : ما الحكاية ؟ وبلا تردد (اشتكى) اكرم بمرحه المعهود من نوم صديقه وطلب من رجل البوليس مساعدته على فتح الباب لايقاظه (في بريطانيا لا يحق حتى للبوليس اقتحام دار شخص الا بعد اذن من المحكمة) ولذا لم يتذوق رجل البوليس النكتة واعتقد بأنه امام افراد عصابة . .

وهنا تفضلت الأخت منى بالحديث باللغة العربية مما زاد في حيرة رجل البوليس لانها شقراء وانكليزية المظهر . . ولذا سألنا بصرامة عن جنسياتنا وماذا نفعل هنا .

كريس قال : انكليزي جدا .

اكرم قال : فلسطيني .

وأنا قلت : سورية . . .

هنا قاطعنا رجل البوليس فجأة وكأنه اكتشف كذبة لا تطاق :

كيف ؟ الستما في حالة حرب ؟ اليست هنالك حرب بين سوريا وفلسطين . . . احذركما من انتحال الجنسية !! . . .

ورجل البوليس في بريطانيا متعلم اذ يشترط ان يكون حائزاً على الشهادة الثانوية بالاضافة الى ما يتعلمه في مدرسة البوليس . . . انه اذن يمثل الطبقة المتوسطة فكرياً وثقافياً ، لكنه يجهل الفرق بين اسرائيل وفلسطين . . .

وليلتها كان رجل البوليس بحاجة الى رجل بوليس يخلصه من براثن اكرم . . .

وقال توني في اخلاص شديد : لست وحدي جاهلاً بكم وبقضاياكم . . . كلنا كذلك . . فعلا . . .

والواقع انني لم التق بعربي في لندن الا وكانت لديه حكايا كثيرة مشابهة يرويها عن جهل الانكليز التام بكل شيء يتعلق بنا وبصفة خاصة جيلهم الجديد . . . فجيل (الامبراطورية) من البحارة والجنود المسنين يعرف ابناؤه الكثير عن العرب بحكم وجودهم في مصر والعراق والاردن ايام زمان . . . اما الجيل الجديد ، جيل ما بعد الحرب فلا يعرف عن تلك الاماكن حتى ولا اسمها . . واسرائيل هي وحدها الاسم البارز في خاطره ، والذي يحلم بقضاء اجازته فيها ، « مناخ اوروبي راق تضاف اليه متعة الشمس الساطعة » . .

بين اصدقاء مصالحهم ،واصدقاء قناعاتهم

ولكن ، أليس بين الانكليز جميعاً من يقف الىجانبنا ويؤ يدنا ؟ ثم اننا قد سمعنا الكثير عن مجلس تنمية التفاهم العربي البريطاني . . . وسمعنا الكثير عن النائبة مارغريت ماكاي الصديقة المحبة للعرب ، وعن كثيرين سواها ممن تجمعهم صداقات حميمة بالمسؤ ولين العرب . . . وعن موجة محاولة التفهم الاخيرة . .

وتساءلت ترى ما الذي يفعلونه غير تلبية الدعوات وردها والتحدث بحب الى ضيوفهم العرب خلال حفلات الشاي التي يقيمونها ؟؟ . . .

ومن اجل البحث عن جواب لجأت الى صديق عربي مقيم في لندن ، تربطه بتلك الاجواء صداقة قديمة وشبه زمالة عمل في هذه القضايا . . .

قال لي بصراحة : اصدقاء العرب من الانكليز يمكن تصنيفهم الى فئات ثلاث :

١ ـ الفئة الرومنطيقية : واكثرها من المتقدمين في السن من جيل الامبراطورية ورؤ ياها للعرب تحمل مفهوما رومانتيكيا تقليديا . . العرب يذكرونهم بماضيهم المجيد وهم يحبوننا كما يحبون صورهم التذكارية الحلوة ، يحبوننا كشعوب طيبة ومسكينة ومظلومة

ولا تقوى على الوقوف وحدها ، وحرام التخلي عنها لمستعمر آخر !! . .

٢ ـ فئة اليوتوليتاريا اي الفئة النفعية : واحسن نموذج لحبها هو حب (لورانس اوف آريبيا او لورانس الصحراء العربية) للعرب . . انه حبهم لمصالحهم في البلاد العربية التي يعرفون مدى غناها بالثروات الطبيعية وبالسذاجة السياسية . . انه حب الانياب لقطعة لحم شهية . .

٣ ـ فئة الشبان المثقفين : واكثرهم من الشبان الذين اتاحت لهم الظروف الجامعية او العملية فرصة الاحتكاك بشبان عرب ، واطلعوا عبرهم على الشخصية العربية وعلى وجهة النظر العربية التي يجهل كل شيء عنها من لم تتح له فرصة الاحتكاك المباشر بالعرب . (ليس بين وسائل الاعلام كلها ما هو حيادي ! كلهم ضدنا ، وذروة حيادهم هي تجاهلنا والصمت عنا !) . . .

واكثر افراد هذه الفئة يساريو التفكير ومتحررون من عقدة الامبراطورية وقادرون على النظر بتجرد الى قضايا الكفاح الانساني في اي قطر . .

واذا كان افراد الفئة الاولى والثانية من اصدقائنا هم اصدقاء لخيالاتهم او لمصالحهم فينا ، فان صداقة افراد الفئة الثالثة لنا اجدى واعمق لانهم يقفون معنا عبر صداقتهم الفكرية للحرية والعدالة . .

لو عرفوا حقا ،لفعلوا شيئا

ولكن ، هل يجدي ان يعرف البريطاني حقيقة ما يدور ؟ وهل يدفعه ذلك الى الوقوف علناً الى جانب العرب ؟ . . .

« انت ايها البريطاني المؤمن بعدالة قضيتنا ، ماذا فعلت ؟ » .

بشراسة طرحت هذا السؤال على كريستوفر ماندي (كريس) ، الشاب الذي عاش في المسكن الجامعي الداخلي سبعة اعوام مع اخي ومع شاب عربي مصري هو ادوارد نسيم ، وجميع اصدقائه وصديقاته من العرب .

سألته : « ايمانك بعدالة قضايانا . . . هل دفعك الى اتخاذ اي موقف ايجابي عملي بالاضافة الى تأييدك الصوفي لنا ؟ »

لم يرد ، وانما استأذنني لحظات بحث خلالها في ادراجه ثم ناولني نسخة عن رسالتين، الاولى موجهة منه الى الـB.B.C ، والثانية تحمل رد التلفزيون على رسالته . . وكانتا تدوران حول حادثة شهيرة ، كان الصدام العربي والصهيوني فيها علنيا ، والتحيز البريطاني سافراً . . . كان ذلك في برنامج تلفزيوني اسمه « يورويتنس » اي

« شاهدك » . وهو نصف شهري ، ويقدم على صورة محكمة محلفوها الثلاثون جميعا من المحامين . . . وتطرح قضية ما عبر شاهدين احدهما يؤ يد القضية والآخر ضدها . ويحق لكل منهما استدعاء شهوده واسماع المحلفين ما يشاء . . . وفي آخر البرنامج يصوت محلفوها المحامون لمن يقنعهم اكثر . . والمحاكمة علنية تلفزيونيا وعمليا اذ يحضرها جمهور حي ، تماما كما في اية محكمة .

وهكذا كان ان نطق كريستوفر ماهيو عضو البرلمان الانكليزي بوجهة نظر العرب . . . وكان شاهدهم بحق . اما الشاهد الآخر فكان جوجر يماند النائب ، والزعيم السابق للحزب الليبرالي مدافعا عن اسرائيل . . .

واحتد النقاش . . . وكان من بين شهود وجهة النظر العربية ذلك الاستاذ الجامعي اليهودي ومايكل آدامز . . . وقد اعترف مايكل آدامز في البرنامج بالضغط الذي تعرض له يوم كتب في « الجارديان » عن المعاملة اللاانسانية التي يلقاها العرب في اسرائيل المحتلة . . .

وكل من تابع البرنامج من العرب ومن الانكليز كان واثقا من ان اية هيئة تحكيم مفكرة وعادلة لا يمكن الا ان تصوت مع وجهة نظر العرب . . .

ولذا كانت مفاجأة للجميع حين صوت اكثرية المحامين لاسرائيل !! . . ويومها جن جنون الانكليز بمن فيهم كريس ، ليس حبا بالعرب ، وانما ثورة لكرامتهم . . . واذا اكتفى المتفرجون العرب بالقول ببساطة ان لجنة التحكيم عميلة ومهيئة سلفا وليس في الحكاية جديد ، فان الانكليز قد وجدوا في الحكاية اهانة شخصية لهم . .

بالنسبة اليهم انتصار اي من المتناقشين على الآخر ليس بالضرورة دليلا على عدالة قضيتهم بقدر ما قد يكون دليلاً على تفوقه في النقاش على خصمه . .

وكان رأي المتفرجين الانكليز الحياديين وبالاجماع ان (كريستوفر ماهيو ـ عُرْب) قد انتصر خلال النقاش على خصمه (اسرائيل) ، وانه كان من واجب المحلفين الاقرار بذلك ، الامر الذي حدث نقيضه ! . . .

و (كريس) الذي ثار لظاهرة « التحيز » تلك . . . وفوجىء بها كبريطاني يؤ من ايمانا اعمى بنزاهة وسائل اعلامه وحيادها الامثل لم يتمالك نفسه ، وكتب الى التلفزيون الرسالة التي عرض علي نسخة عنها طالبا فيها من مخرج البرنامج اسماء المحلفين ليتأكد من انه لم (يتصادف) ان كان اغلبهم من اليهود والصهاينة ـ كما يتهم اصدقاؤ ه العرب البرنامج ! ـ كما لم ينس ابداء (دهشته) لما وقع . .

وطبعا جاءه الرد خطياً وفيه ينفي مخرج البرنامج انتوني سميث التهمة ويعتذر عن ذكر اسماء المحلفين حرصا على (تقاليد) البرنامج .

ويختم كريس سرده لهذه الحادثة ذات المدلول الكبير بقوله : لا تلومي شعبنا . . . انك لا تستطيعين لوم الناس من اجل شيء يجهلونه . .

عالمهم المغلق ، ونحن

« لا نستطيع ان نلوم الناس من اجل شيء يجهلونه ! » . . . كنت اردد هذه العبارة وانا اتجول كعادتي في الشوارع اتأمل كل شيء . . . كل انسان هنا يمارس عمله باخلاص ، ويستغرق فيه تماما . . . العالم الخارجي ، خارج حدود جزيرته لا يلقى من اهتمامه الا بقدر ما له من مصالح مباشرة فيه . . . هذا مصور صحفي وموديله على حشائش الهايد بارك . . . ثم خمسة يستقلون (بسكليتا) واحدا بانسجام ونظام . . . كل انسان هنا غارق في دائرته الصغيرة . .

والصحف هي وحدها نافذته على العالم الخارجي . . . الفرد البريطاني العادي اليوم ليس متواطئاً . . . انه ضحية تجهيل الاخطبوط الصهيوني له اكثر مما هو جلادنا ـ عن سابق تصور وتصميم ـ .

اولئك الغارقون في عوالمهم الصغيرة الكبيرة ، واحزانهم وتوقهم ورفضهم وتمردهم ، من يصرخ في عالمهم بالحقيقة ولو لمرة . . .

اقرأ صحيفتي .

هنالك خمسة اخبار عن الكلاب . . . (يا الهي ، ليس فيها خبر عن فدائي واحد يموت الآن ، او يعذب الآن ، أو ينسف دار أسرته الآن !) . . .

غاظني بالذات خبر مطول عن ٥٠ ألف باوند تركتها سيدة كدخل سنوي لكلبها « بن » ، ثم صورة الكلب الثري .

فالمعرض الروسي الالكتروني المذهل الذي كنت قد شاهدته منذ ايام وعنوانه « الذرة والسلام » وفيه اشياء مذهلة عن الحياة السوفياتية الحديثة ، حتى هذا المعرض لم يفز من صفحات الجريدة باكثر مما فاز الكلب اياه . . . اما نحن . . . فلا شيء سوى تعليق الصحفي الصهيوني المسموم ، والذي يتهم العرب فيه بالتأهب لعدوان جديد على اسرائيل ، ويستشهد بأقوال من صحفنا بالذات !! (متى نكف عن التهويش والكلام ؟)

ومتى تصبح قضيتنا العادلة موضع اهتمام جيلهم الصاعد ، كقضية فيتنام ؟ ومتى يعرفون ان هنالك اكثر من غيفارا عربي عاش بصمت وتعذب ومات بصمت ؟

التشويه ما يزال مستمرا

قررت ان أشكر صديقي وصديق العرب كريس على الطريقة الانكليزية . . . اي خطياً وعلى بطاقة بريدية .

وفي اهم مكتبات (اوكسفورد ستريت) وجدت جناحاً خاصاً ببطاقات الميلاد وفقا للتقويم اليهودي . . وكانت كلها تحمل صوراً دعائية لاسرائيل . . . كانت كل بطاقة عدوانية ، وعدائية كرصاصة . . . .

أي عيد هو ذاك الذي اداة التهنئة فيه رصاصة ؟ واي شعب هو ذاك الذي أعياده غزوات عدوانية ؟ .

والى جانب هذه البطاقات التي تنقل صوراً رائعة (للاسف رائعة كقيمة فنية وكمهارة فوتوغرافية) عن (رقي) اسرائيل وتحضرها ، وجدت رفاً آخر من البطاقات البريدية الهزلية . . كلها يسخر من العرب ومن همجيتهم وبربريتهم . . وبينها مثلا صور تقليدية كاريكاتورية للبدوي العربي ، يدخل الى فندق انكليزي فخم حافيا ويقول لموظف الاستقبال : حينما تصل حقائبي الـ ٤٠/وزوجاتي الخمسون دعهن يلحقن بي الى طابقي الخاص !!!

أين المفر ؟!

ليلا والغم يأكلني ، قررت الهرب من كل شيء الى عوالم الموسيقى . . الى دار الاوبرا . . .

وحينما عزف النشيد الوطني البريطاني ووقف الجميع احسست بالشوق الى نشيد بلادي ، شوق محموم حار ودامع .

قررت : سأعود . .

بدأ العزف . . . موسيقى مذهلة . . .حزينة ثم وحشية عنيفة . . وميزت فيها (اكسودس) ، اكسودس التي تروي موسيقاها الرائعة حكاية « اسرائيل » . . .

من يقول للعامل ان اسطورة هذه الموسيقى الحزينة التي ينتحلونها هي اسطورتنا نحن ، وهي حكاية ابناء فلسطين الذين لم يشرد شعب كما شردوا ـ في وضح النهار ، ودون ان يدري احد بالحقيقة ! ـ . . .

من يقولها لهم موسيقى وادبا وعلى كل صعيد ؟ ومتى ؟ نحن نغني في هياج هستيري : اضرب اضرب اضرب . . . وهم يبدعون السمفونيات . .

فعلاً . ما نزال أسوأ محامين لأعدل قضية . .

حتى اشعار آخر ! . .

بعد هربي من الاوبرا الى الموت المؤقت (النوم) والى صحيفة اطالعها لتجلب لي النعاس ، (من يحق له أن ينام ؟) ، رأيت صورة اعلانية قتلت نعاسي ، وحتى حقي بأن أنام . . .

انها صورة اميركي نموذج توني كورتس (تيدي بوي دلوع) وقد هبط من طائرته الخاصة يعانق حسناء باحدى يديه وفي اليد الاخرى لكل منهما كأس من مشروب كحولي معين (لن اذكر اسم المشروب كي لا اسهم في الدعاية له ! . . .) ويركع على الارض أمامهما شاب عربي اللحية والوجه والملابس والعباءة ويقوم على خدمتهما حاملاً لهما صينية فيها زجاجة من ذلك (الرحيق الالهي) . . . في دور الخادم المثالي .

هنالك اكثر من اعلان (يكرس) صورتنا المتأخرة التقليدية ، بحسن نية ، وبسوء نية . . كهذا الاعلان الذي طالعته صدفة ولكن ، وبعد هذا كله ، هل نلومهم ؟

■ ■ ■

فتحت عيني مع الفجر . نظرت الى اخي : هل من رسائل لي اليوم ؟ قال : لا . نظرت الى النافذة . المطر والريح فقط . أغمضتهما من جديد .

قال اخي : هل سترحلين ؟ (يعرفني جيداً ، متى بدأت أسأل عن رسائل اصدقائي ، فذلك يعني انني سأعود اليهم) . لم أرد . ادار زر المذياع . انصت مغمضة العينين للاغنية الاولى من حيث المبيعات . تقول كلماتها : هالو ، صباح الخير ، أحبك ، وبالمناسبة ما اسمك ؟!

هذه الاغنية بكلماتها ، بلحنها اللامبالي لخصت لي كل ما احتج عليه من مطر وريح في العلاقات الانسانية هنا . . ظللت انصت صامتة التمزق . واخي الذي يعرفني جيدا قال لي بثقة قبل ان يغادر الدار : اذا رحلت قبل عودتي من دكان الحلاق المجاور ، بلغي سلامي للاهل وقولي لهم نحن بخير وطمنونا عنكم !! . . .

ورجعت ■

لندن ٢٥/ ١٠/ ١٩٦٨

الطيب صالح : أديب سيخلد

ارحل ، ارحل . .
واذا عدت ، فلأرحل من جديد .
عامان ،
وانا طلقة نارية شردت في ليل العالم الواسع . . . تخترق اجنحة طائرات يغسلها مطر الاعالي الوحشي ، تهيم في ضباب شوارع مدن مجهولة نائية ، تشرب غربتها مع قهوة الصباح ، وحيدة في مطارات حزينة لاتفهم حرفاً واحداً من لغة اهلها . . .
ثم لندن . . . ثم تعود .
دوما تعود .
وكلما عدت ، عاد سؤ الهم ـ اصدقائي واعدائي ـ لماذا ؟ لماذا . .
وكلما عدت ، وجدتهم أعدوا قائمة من الاسباب التي يفترضون انها دفعت بي الى الرحيل ، ومن بينها الجنون في ازقة سوهو ، والرحيل مع الـ (ل . س. دي) ، وغيرها من الاشياء المثيرة التي يحلمون بها شخصيا . .

السؤ ال المهم الوحيد الذي يسمرني عادة بعد كل رحلة هو : الا يفسد هذا الضياع المستمر قدرتك على الانتاج الادبي المنتظم والمستمر ؟ . . .

ولا اقول شيئاً لان ذلك قد يكون صحيحا . . . ولكن ، افكر باشياء اخرى كثيرة ، وتطل علي وجوه ووجوه لزملاء غربة ، ورفاق تشرد . . . واترك قصص حياتهم ، وحكاية نتاجهم مع الغربة ، تشف عن بعض ما يقذفني في ليل العالم الواسع من آن الى آخر طلقة نارية مجنونة . . . أقول : بعضها . . .

***

الطيب صالح

هل سمعت بهذا الاسم من قبل ؟ . . حتما ، اذا كنت من متتبعي شؤ ون ادبنا العربي المعاصر على الصعيد الحقيقي . . أي : غير الرسمي ، غير التهريجي ، غير الديبلوماسي ، غير الوصولي ، غير الانتهازي .

الطيب صالح ، وجه ابنوسي من السودان لما يظهر قط في مقاهي الحمراء والروشة ، وحفلات الكوكتيل في السفارات ولا الندوات التلفزيونية ولا الاذاعية ولا الاحاديث الصحفية ، وليس في ارشيف كثير من صحفنا ومجلاتنا صورة له (بما فيه ارشيف « الحوادث ») .

ومع ذلك ، ربما كان هو ، هو القابع في الظلمة والضباب ، من الادباء العرب المعاصرين القلائل الذين سيخلدون ، اي سيبقون حتى بعد انحسارهم عن مراكزهم ومقاهيهم ونواديهم . . .

عرفه العالم العربي مؤخرا ، عبر رواية قصيرة اسمها : « موسم الهجرة الى الشمال » ، وكتب عنها نقادنا العرب بلا محاباة ولا مداراة ، وقالوا : انه الروائي الاول الجديد . . وقالوا ذلك من اجل نتاجه ، ودون ان يعرفوا الكثير عن شخصه ، ربما لم ير اكثرهم حتى وجهه . . .

وجهه امامي . نجلس في بار صغير قرب دار الـ (بي . بي . سي) في لندن حيث يعمل . واولغا اوجريدي العراقية ، الانسانة الرائعة المثقفة ، والاديبة حتى الصمت . . والرفض . .

نتحدث ، بلا محاباة . بلا مداراة . يمر بنا الناس دون ان يلحظنا أحد ، لسنا سوى ثلاث نملات في عش يضم ٨ ملايين نملة . . . والطيب الصالح عاش هكذا طيلة سنواته العشر الأخيرة . . .

لماذا لا ينشر ؟ لا يدري ! . . انه مقل جداً . . . وتقول اولغا : النتاج الادبي ليس كولادة القطة ، (سبعة في بطن واحد) ، وليس من المفروض ان نطالب الاديب بما يطالب به الزوج الشرقي زوجته . والقضية اعمق من ذلك . . . وتصمت اولغا . واعرف ان خلف صمتها جدارا تغطيه الكتب ، وحياة حافلة بالعمق والمعرفة ، زواجها مع الشاعر الايرلندي الكبير اوجريدي ، استقلالها ، حروفها التي لم تر نور المطبعة ، وربما لن . . . فللأشياء هنا مقاييس اخرى . . .

ويتحدث الطيب الصالح . انه متواضع كالعشب ، ولا يدري كم هو مبدع . . . وبحق . . . وما تزال في ضحكته تلك البراءة الطفولية التي نجدها في قاع العباقرة عادة . . .

لماذا لا تنشر باستمرار ؟ . . يرد : انشر او لا أنشر ، موضوع آخر . . الأهم : ان اكتب . . .

والشهرة ؟ . . . يكاد لا يرد ! . . انه فعلا يجهل كم هو مبدع ، وقادر على المزيد . . .

يقول ونحن نغادر البار : ما زالت الدرب طويلة . . . امامي الكثير من القراءة والمعرفة . . الكثير .

وتشير نظرات اولغا الى عشرات من الاعلانات المضيئة على ابواب المسارح المحيطة بنا ، واكاد اسمع صمتها يقول كما قال جوته :

(عالم الفن شاسع ، لكن حياتنا قصيرة) .

ونحن ننحدر نحو التايمز كنت افكر : هنا في الغربة ، يدخل الاديب العربي عالم الابداع من الباب الضيق . . . انه هنا وحيد . . . بلا جمهور من المصفقين او الشتامين ، ومحاصر بالثقافة الراقية ، من القديمة الاغريقية حتى المعاصرة ، مرغم على ان ينضج شاء ام أبى . . فكرياً وانسانياً . . .

هنا ، لا يقرأ تفاهات تشجعه على اجهاض نتاجه قبل ان يكتمل . . . انه وحيد مع ضميره الفني والادبي . .

وحينما وقفنا على جسر واترلو ، واسندنا اذرعنا الى الحاجز الحجري المغسول بالمطر ، واسلمنا انفسنا للريح الباردة تتسلل عبر مسامنا وترغمها على ان تظل جسورنا مفتوحة على العالم الخارجي (بدلا من الانغلاق بوحل الغرور على عالم الذات ، ثم الصدأ والعفن) . . .

واستحالت لندن الى انابيب اصباغ فنان مجنون سكبها على شاشة النهر السوداء ، وكانت اصداء حوار طويل دار بيننا تنمو وتنمو . . فيها كثير من شظايا مرآة ارى فيها ذاتي . . . واحسست انني احسدهما ، الطيب صالح واولغا وكلهم ، اولئك الذين عايشوا مواجهة الذات تلك ، وبلا اقنعة ، وطيلة اعوام تفوق العشرة . . . احسد صمتهم ، وحزنهم العميق العميق كقاع هذا النهر ، وهدوءهم الثائر الضاج ، وعالمهم الانساني لا عالم الاراجوزات التي يجد الاديب نفسه في بلادي ساقطا فيه بطريقة أو بأخرى ، يجد خيوط الارجوازات مربوطة باصابعه . . . خيوطا اجتماعية ، وتقليدية ، وسياسية ، وارهابية . . . وكلها تحد من حريته ، من نموه نموا يعي فيه ذاته . . . اديبنا المعاصر بائس ، يكاد يصبح كحذاء الطنبوري اذا اصر على الاستمرار ، وتقلب مع تقلب السلطات والعهود ، وداری وساير ، وروض لحظات ثورته وتعلم يوما بعد يوم كيف يقدم تنازلات من شخصيته الحقيقية ـ ذاته المبدعة ـ اكثر واكثر ، حتى لا يبقى منه اكثر مما بقي

في حذاء الطنبوري من الاصل ، قبل ان يصبح مجموعة من الرقع . . .

اديبنا العربي ، لو اراد التكيف مع الظروف المعاصرة ، اي لو اراد ان يكون (مواطنا مقيما وصالحا) بالمفاهيم السائدة المهزوزة والمتناقضة ، هل يمكن له ان يحقق ذلك دون ان يرتدي على وجهه اكداسا واكداسا من الاقنعة . . .

ذلك ليس خطراً في البداية ، ولكن كما في إحدى الروايات ، قد يصطدم بذاته ، يرتطم بحقيقته ذات يوم ، ويقف أمام المرآة ليخلع أكداس الأقنعة باحثاً عن وجهه الحقيقي الذي يكاد ينساه .

وبعد ان ينتهي من خلع آخر قناع . . لا يجد وجهه ! . لا يجد له وجها . . لقد تعفن ، اهترأ ، مات . .

انه بلا وجه ، ولم يعد قادرا على ارتداء اقنعته من جديد . .

ويتمزق نهائيا . . . ويسقط في سماء ادبنا شهاب آخر من تلك الشهب التي لم يتوقف ناقد مرة ليقول : لماذا وكيف ؟ لماذا ينتهي مبدعونا بسرعة ؟

وبعد . .

يخيل الي ان للحادث الذي سأرويه مدلوله . . .

فقد عشت في لندن طيلة العام الماضي والذي سبقه ، وكان لقائي بالطيب خلاله كثيراً ، وعفوياً ، وطبيعياً . . كلقاء الناس جميعاً بالذين يعملون معهم في مكان واحد ، وتربطهم اجواء واحدة ، بالاضافة الى صداقة عميقة .

المرة الوحيدة التي بحثت فيها عن الطيب صالح كصحفية كانت خلال زيارتي الاخيرة . . بحثت عنه لاسأله الكثير . . وادهشني انني رغم صداقتنا الحميمة لم افكر بذلك من قبل . .

وفي هذه المرة الوحيدة ، هتفت الى الطيب ، ولم اجده . . .

وسألت عنه ، قلت لهم ، الصحافة تسأل عن الطيب . سكرتيرته الانكليزية ردت : انه في اجازة ! . .

وتذكرت ما قاله لي مرة عن اجازاته : اعيشها مع كتبي واوراقي وذاتي . .

وجدت في غيابه واجازته على ضوء هذه العبارة ابلغ حديث صحفي كان من الممكن ان يقوله . . .

انه في اجازة من كل شيء . . مع الشيء الوحيد الذي يجب ان يتفرغ له ، ليكون . وكان الطيب الصالح وسيكون . . .

العبودية ،ولكن

« في العالم العربي يستعبدني الشارع لانه يعرفني . يراقبني . يعاملني (بتهذيب اجتماعي) . . يغتالني .

هنا استطيع ان ارفع صوتي في وجه عامل المصعد وسائق التاكسي . استطيع ان اغازل حبيبتي في المترو .

استطيع ان اتشاجر واتسافه واعدو في الطرقات .

مجهول يتعامل بمجهول .

(تلك موهبتي الوحيدة) .

حين أعود وأحدق فيّ . . افرح .

لانني رجل عادي يتعامل مع العالم ببساطة .

ذلك هو الشعر » .

وكلمات الشاعر السوداني سيد احمد حردلو هذه انما تعبر عن نوع واحد من عبودية الفنان في وطنه ، وعن اقل (العبوديات) ايذاء وتفتيتا . . . فالاديب العربي المعاصر يتعرض في وطننا العربي لاكثر من محاولة استعباد واعية وغير واعية وعليه باستمرار ان يحافظ على (وعيه) وعلى التحامه الحقيقي ببقية المضطهدين .

فالوطن المتخلف تحكمة عادة سلطات غير متخلفة في فن الارهاب . . وهذه السلطات تعرف ان الكلمة المضيئة التي تحمل اهل الشارع وتطير بهم الى عوالم العدالة والحرية هذه الكلمة يجب ان تحارب او تدجن . . ولانه تصادف ان للاديب معدة ، تكون معدته وملحقاتها ـ جوع اطفاله وزوجته او من يعيل ـ سلاحاً مبدئياً . . . والا ، فهنالك (الكسف) الجزئي في مجالات الاعلام الرسمية وغير الرسمية . . . والا ، فهنالك الضغط المكشوف كالسجن ، وهو الاقل ايذاء للاديب عادة وهكذا فأديبنا العربي في بعض الاقطار العربية محكوم بالاعدام مع وقف التنفيذ فور صدور نتاجه الاول ! وعليه ان يختار عاجلاً او آجلاً بين الصمت ، او التكيف مع الظروف القائمة : ليكون اراجوزاً في بلاط التخلف .

والمفجع حقا ، ان اكثر الانظمة العربية الجديدة ، التي تحمل شعارات تقدمية ، ما تزال تعامل الفنان بالعقلية المتخلفة الرجعية نفسها والتي من المفروض ان الثورة قامت لتبديلها . . .

وكان الاديب مطالبا في الماضي بأن يظهر في ثياب المادح والمهرج في بلاط الحاكم ، وظل للاسف مطالباً باداء الدور نفسه ، مع تبديل طفيف في الديكور والكليشيهات .

والادب يستنزف من الانسان جهدا حقيقيا وطويلا اذا كان يريد النجاح بالمعنى الحقيقي : اي النجاح على صعيد الاجيال الانسانية القادمة ايضا لا على صعيد جيل واحد ، وبمقاييس نقاده وحدهم .

غربة واحدة تكفي . .

عن الغربة اتحدث ، وما حاجتي الى التقاط الامثلة القديمة من تاريخ سيرة الادباء الخالدين وعلاقة الرحيل بابداعهم واستمرارهم ، والامثلة حولي متوفرة ، والاسباب والدافع لا احتاج لاكثر من غمس يدي الى قاع نهر اعماقي ، لاخرج بكثير منها . .

وحينما افكر بلندن ، التقي بعشرات الوجوه العربية الباحثة عن شيء ما ، الهاربة من شيء ما . . وحينما اذهب اليها ، ونسير كلنا في الضباب قافلة من السنونوات الضائعة اللاضائعة لانني انا ايضا هاربة من شيء ما ، وباحثة عن شيء ما . . ولأنني . . . (ما جدوى ان اقول) . . يكفي ان اقول : اظل من رف السنونو الذي لا يملك الا ان يعود . . .

من ينسى

كلها ، الادمغة العربية والادبية هناك ، من مقيم ، ونازح ، وعابر سبيل ، وقادم بالصدفة . .

كلها ، لا ترحل حقا عن وطنها ، انها ترحل عنه لتحسن رحيلها اليه . .

والسنونو ابدا يعود . . .

والشاعر الحردلو ، الذكي البريء العفوي ، الوديع عادة ، اشتعل حماسا شرسا لما سألته ونحن جالسان على ارصفة نافورة ساحة البيكاديللي في تلك الامسية العجيبة المذهلة ، امسية سكبت فيها الطبيعة كل ما تملكه من سحر الالوان والظلال ساعة الغروب على مهرجان انساني لوجوه من الجنسيات كافة ، وبدا المكان احتفالا عفويا للعرق البشري على الأرض تعبيرا عن فرحته بالوجود ، (لن انسى ، تمنيت لحظتها لو استحيل والى الابد تمثالا في هذه الساحة) ، ولكنني فجأة ، تذكرت دمشق ، (دمشق يا دمشق من ينسى) وربما لذلك سألت سيد أحمد فجأة : والسودان ؟

رد بعذوبة :

والسودان ؟ ـ ما له !

ثم انفجر ؛ « شكرا غاده . .

كأنك غمست خنجراً فيّ كأنك دلقت النار في حلقي .

فجأة . تفتحت الشمس ونزل الصحو عندي .

فجأة . رميت امامي ملايين البيوت المضاءة بالحب والانتظار عبر غابات النخيل فجأة فجرت ملايين الاعين في قلبي .

اغفري لي . لا زلت افكر فيه بقلبي . فأنا فلاح ، تعرفين ، انا هنا لأتعلـم وسأتعلم !وسأكتب فيه قصيدتي الاخيرة . وبعدها سأهجر الشعر » .

وانا ايضا . . .

القاهرة ٢٧/ ١٢/ ٦٨

سينما مريضة ومسرح معافى

القاهرة . .

متحفزة وغاضبة كحدقة عين محارب . . . غامضة ثرية باسرارها المعتقة ، كطقوس قبيلة وثنية تغتال آلهتها . . دامية ، وبريئة ، كقطة تأكل اولادها . . كريمة ، كنزف جرح مفتوح . . رتيبة ومخدرة ، كدخان نارجيلة في حنجرة تكلست احزانها . . متناقضة ، كأسنان منشار . . غالية . . غالية . . كأنها دمشق ، مدينتي .

القاهرة . . .

وفي مقابلة تلفزيونية هناك ، سألتني المذيعة ذات الابتسامة المرحبة السؤال التقليدي : كيف وجدت القاهرة ؟ . . . كنت اعرف انه من المفروض ان ارتدي ابتسامة مشابهة وادلي آليا باحدى الاجابات التقليدية : كويسة خالص . حلوة قوي . . هايلة . .

لم استطع . ظللت صامتة . احسستني ابدو غبية ومتحدية . . ظللت صامتة وفية لخواطري . . . انطويت عليها باصرار محارة مغلقة . . فقد هجمت الى عيني آلاف الصور والاصوات والروائح . . . انزلق داخل رأسي شريط احداث سريع لمدينة مرآة تعكس صورة عن الواقع العربي : فعل المجابهة ورد العدوان ، والحس بالخطر وبالخيبة على السواء . . . وتعكس صورا اخرى غامضة ليس من السهل التسرع بفك رموزها . .

القاهرة ؟ . . .

انتصبت داخل جمجمتي متاريس الآجر والطوب التي شيدت امام مداخل العمارات ، كي يتم استخدامها كملاجىء في حالة الغارات الجوية وغير الجوية . . . ومع ذلك كتب بخط رديء على تلك المتاريس عبارات مثل « توكلت على الله » ! . . .

سمعت صوت رئيس البلاد يتحدث عن الغم الذي من الطبيعي ان يصيب شعبه « شعب في حالة حرب وغير قادر على ان يحارب » ، فرأيت المصابيح تنطفىء في الشوارع الطويلة ، والتماثيل تنوح والدموع تهطل من عيونها الحجرية ، والقمر المتفتح على وجه النيل زنابق من ضياء يهاجر عنا الى اعوام لا ندري متى تأتي . . . والمسحورون يكسرون طبولهم وينكسون عصيهم . . . الاطفال يتمتمون لعنات غامضة ، ويرمقون الكبار

بتأنيب النظرة الاخيرة لمحتضر ، يرمي بها في وجه قاتله . . .

اردت ان اقول لها ذلك كله . . . ان اقول لها ايضا انني كنت انسى احيانا جمال الطبيعة الاخاذ في القاهرة . . . اتجاوز قشرة المشاهد وجلدها ، الى لحمتها الانسانية . . . واتسلل داخل شرايينها ، واوردتها ، والتصق باعصابها المتوترة ، والتقط كهاربها ولحظات صمتها الغامضة . . واخرج من ذلك كله باحساس بقعة ضوء تتحرك على مسرح كبير مشحون بالتحدي والرفض (النيلي) الهادىء . . لكنه مسرح يمكن ان يستحيل بين لحظة واخرى الى ساح (نيلي) مفاجىء الطوفان . . وان ثلاثة ملايين انسان على ذلك المسرح العظيم يهدرون في وقت واحد ، كل على طريقته ، « يا بلدي . . . » . . . بعضهم يصرخ بها بحكمة انسان وعى ابعاد الصرخة كلها ، وبحرقته . . . بعضهم يقلد الصرخة الاصيلة منساقا ببغائية عمياء . . بعضهم يدور حول نفسه ، بانهزامية درويش مختبىء في ظل هذيان نوباته الصوفية من تأدية واجب تستتبعه صرخة « يا بلدي . . . » . . .

« بلدي يا بلدي . . . » كل يلهج بها . . . وكل على طريقته . . .

تماما كما في اية مدينة اخرى ، مهددة بالطوفان ، في ذلك الجزء من الارض الذي شهدت بقاعه بزوغ شمس اولى حضارات الانسانية . . من المحيط الى الخليج . . . قارة الحزن والغيلان والاطفال المحروقي الخدود . . .

بلـــدي يـــا بلـــدي

محمومة مدوية سمعتها تنطلق من « مسرح توفيق الحكيم » بالقاهرة ، عبر مسرحية للدكتور رشاد رشدي ، مستوعبة اكثر ابعاد الصرخة وكثافتها .

انها مسرحية (مصرية) بمعاني الكلمة كلها . .

بطلها هو السيد احمد البدوي ، المغربي المولد ، الحجازي الذي يتصل نسبه بجده الامام علي بن ابي طالب . المصري الاقامة ، حيث اقام في طنطا اماماً في التصوف والعلم ، واشترك في رد عدوان الصليبيين في موقعة حربية عند المنصورة عام ٦٤٧ هـ (أسر فيها الملك لويس التاسع ملك فرنسا) . . . ترى أهل مصر يقدسون الامام .

السلطان يجيء اليه للتبرك به . الامام يستحيل الى اسطورة . الاعداء يهاجمون مصر ، الناس يتكلون على (الله) وممثله (الامام) لرد العدوان ، مستشارو السلطان يقتتلون فيما بينهم من اجل السلطة . الفساد يسود البلاد . مصر ممزقة من الداخل وتعجز بالتالي عن صد العدوان الخارجي . القاضي العادل يموت فجأة بالسكتة قبل ان ينطق بالحكم بادانة المخربين . الجميع يهربون من ضعفهم وتخاذلهم الى اتكاليتهم على مظاهر

(الدين) ناسين جوهره ، وعلى (الامام) . . . ويهزم الجيش المصري ويضيع قسم من الارض فيخرج الامام من معتزله الى الناس مناديا للحرب ، ممزقا ملهوفا ، ولكن لا يستمع اليه احد ، ولا يراه احد ، اذ يكون الجميع مشغولين بالعبادة في مشهد للدراويش بطبولهم ودفوفهم وغيبوباتهم (الله الله الله ، يا سيدي الامام) . . . وعبثا يحدثهم . . . لا احد ينصت للامام واستغاثته لانهم مشغولون عنه في التسبيح بحمده ! . . مستشارو السلطان يتابعون بث الحشيش الفكري بين صفوفهم : الامام سيقتل الاعداء . . . السماء ستمطر حجارة من سجيل .

وتنتهي المسرحية ، بعجز الامام امام شعب مخدر بمفهومه الخاطىء للدين . . ومخدر باشياء اخرى كلها من بعض المأساة العربية الواحدة . . . . وتلك الحرب المزدوجة التي لا ترحم : حرب الانسان مع (المطلق) تحقيقا لتوقه الى الاقتراب من الحقيقة : الذات الالهية . . . وصموده امام قوة ما وراء الطبيعة التي يجهلها . . وحربه الاخرى ضد عدوان الطبيعة والبشر بصفته مواطنا ينتمي الى عصر معين وارض معينة . . فالمسرحية لا تنسى استعراض حرب الامام (الانسان) ضد شهواته ، وضد ملاذ الدنيا التي ترمز اليها (فاطمة بنت بري) . . . وحربه ضد الضعف البشري (الحمى) . . وحرب السلطان ضد حب التملك في ذاته . . . كلها معارك يعاني منها اي انسان واي حاكم في كل زمان ومكان . . . ونشهدها في اطار عربي محلي تكاد احداثه تكون معاصرة . . .

بل ان (التخلف) يكاد يكون الشخصية الثانية التي تشارك الامام بطولة المسرحية .

نرى التخلف في التفاف الناس على (الحاوي) . . . في تهافتهم على التلهي بالتفاهات . . . بالضرب في الودع . . بالسحر . . . بالرقص والتنبلة . . . بالزواج من اكثر من امرأة . . . بالتلهي بالتفاهات والهرب من مواجهة الواقع المرير . . .

والمسرحية ايضا تشير الى مأساة اخرى هامة يعاني منها عالمنا العربي ، ألا وهي الافتقار الى الفن الحقيقي ، الذي يلعب دور التوعية ، والفضح والادانة ، والشهادة . . . وقد وفق الكاتب الى حد مذهل في طرح هيكل تلك الفكرة المجردة بعد ان كساها بجسد ملائم من الاحداث الجاذبة للاهتمام والنابعة من صلب موضوع المسرحية في الوقت ذاته . . .

فبينما الارض تضيع ، وغزو الجراد (الاعداء) يأكل بيادرها واطرافها ، نجد الناس يتحدثون عن اي شيء الا عن مأساتهم الحقيقية . . . لقد أوكلوا بها الامام

والسلطان ، وانصرفوا لمراقبة احداث قصة عاطفية فردية تافهة تدور امام اعينهم . . .

وليست صدفة ان تكون تلك القصة التافهة موضوعا لفيلم مصري نجح ذات يوم نجاحا تجاريا على الصعيد العربي . . اتجاوز ذكر اسم الفيلم . . قصته كما تصورها المسرحية ، تدور حول (فطاطري) يبيع الفطير وزوجته الحسناء التي تساعده في عمله وصديقتها واسمها (زين ابوها) . . واهل البلد . . . يمر ابن الباشا فيعجب بجمال الزوجة ويختطفها ليعقد قرانه عليها !! . . .

وتهرب الزوجة (العفيفة) من الاسر . وتتنكر في زي رجل . تعمل اجيرا عند زوجها الفطاطري دون ان يدري ان خادمه الصبي هو زوجته التي بكي اللياليي بحثا عنها . . . اما الحسناء الاخرى (زين ابوها) التي تشاركه بيع الفطير فيقع اسير سحرها ودلالها ابن بلد متزوج (الحاوي) ويرغم زوجته (ضاربة الودع) على ان تعمل معه كي يجمع (مهرها) ! . . . واخيرا ، وبعد ان تنشد (الاخت) المتنكرة بزي شاب (موال) حب (على عادة الافلام التافهة المفتعلة الحكاية) وبعد ان ترقص (الاخت) الاخرى وتهز ببطنها . . . تكون المفاجأة ! الصبي امرأة ، وهي زوجته . و (زين البلد) التي يريد ابن البلد الزواج منها ، هي شاب متنكر بثياب فتاة . . ويعيش الجميع بعدها في ثبات ونبات . وترقص القرية (على واحدة ونصف) ، و (هز يا وز) و (الأرض طارت) وغزو الجراد أكل البلاد . . . والناس يحكمون بالصمت على اي صوت يواجههم بمأساتهم لانه يفسد على سطحيتهم استغراقها في التفاهات . . التخلف هو البطل الآخر في المسرحية . . انه ايضاً الصوت الكامن في اعماق كل فرد يقطن تلك الأراضي المهددة من المحيط الى الخليج . . .

وكما يلعب (الابله) في رائعة (فولكنر) ، (الصوت والغضب) دور (صوت الانسان) ، وكما يعكس نواحه وخرسه مأساة الانسان امام قسوة الوجود وقسوة الآخرين ، كذلك يطلع علينا بين وقت وآخر رجل يمثل الانسان المصري ان لم اقل الانسان العربي ، رجل يـ''ـه الجميع مجنونا لانه يصرخ باستمرار مناديا (بلدي يا بلدي) رغم انه في بلده . . . لقد رحلت (البلد) عن اهلها وعن عصرها . . . انه غريب في بلده . . يحس بانه لا يعرف احدا . . وهو بالتالي لم يعد يعرف من هو . . انه بلا هوية . .

والستار الاخير يسدل على صرخته الملهوفة المفجوعة : « بلدي يا بلدي . . . » . . ومجنون البلد هو عاقلها الوحيد . . .

هنالك نهضة تتفجر في عروق المسرح المصري المعاصر بأصالة كما لم تتفجر في اي قطر عربي آخر . . .

وليست « بلدي يا بلدي » الا نموذجا رائعا للمسرح المصري الحديث حيث نجد مسرحيات من نتاج مبدعين مصريين .

١ ـ تعالج القضايا الوطنية في اطار من السخرية ببعض الاوضاع التي ادت الى الهزيمة مثل مسرحيات نعمان عاشور : « بلاد بره » . « الناس اللي تحت » . « عيلة الدوغري » . ومسرحية « المسامير » لسعد الدين وهبة وغيرها . .

٢ ـ القالب المسرحي فيها مصري من حيث تبني التقاليد الشعبية « كالموال الدرامي » واستيحاء « السامر الشعبي » قالبا دراميا للمسرحية كما في « الفرافير »و«ليالي الحصاد » للدكتور يوسف ادريس و « آه يا ليل ، يا قمر » لنجيب سرور ،و « اتفرج يا سلام » و « بلدي يا بلدي » للدكتور رشاد رشدي .

٣ ـ واستلهام التراث الشعبي القديم والملحمي مثل « الزير سالم » و « حلاق بغداد » و « سليمان الحلبي » . وجولة في مسارح القاهرة تكشف عن جوانب اخرى من الخصب الفكري في مجال المسرح ، وما يثيره ذلك من جدل بناء .

اذ تعرض حاليا مثلا مسرحية « دائرة الطباشير » تأليف المسرحي العظيم برخت . . والجدل يدور حول ١٢ الف جنيه انفقت من اجل هذه المسرحية وحدها . .

وهنالك ايضا مسرحيات اخرى جيدة تعرض حاليا مثل « علي جناح وتابعه قفة » و « برعي بعد التحسينات » واخرى سيئة على ما فيها من جهد مثل « سيدتي الجميلة » ـ نسخة عصر الخديوي ، وقد فقدت ابعادها الفكرية (البرناردشوية) . . لكن المسرحيات في مجموعها تحقق خطوة الى الامام في تطور المسرح المصري . . هذا عن المسرح ، والسينما في واد آخر . . ما تزال تدور في فلك تفاهات (زين ابوها) و (شرف البنت زي عود الكبريت) دون ان تطرح ـ كالمسرح ـ مأساة الشعب العربي مع (شرف الارض) قبل (شرف البنت) وغير ذلك من المآسي الملاصقة للهزيمة والتي يعتبر الوعي بها وطرحها جزءا من محاولة استكمال ملامح الصيغة الصحيحة للرد على الهزيمة .

« عالم مضحك جدا » و « مراتي مجنونة جدا » و «شباب مجنون جدا » هي الذرية الحتمية لافلام مسلسل التفاهة وهي اسوأ خلف لاتفه سلف ! .

واذا استثنينا فيلمين لمخرج شاب مثقف وواع « حسين كمال » هما

« البوسطجي » ، و « المستحيل » فاننا نستطيع (براحة ضمير) ان نقرأ الفاتحة في مقبرة الفيلم المصري الذي ولد ميتا واستمر ميتا عشرين عاما لان المتفرج العربي كان يرى ولا يبصر . .

ولكن عام ١٩٦٨ لم يعد يسمح بذلك . .

١٩٦٨ واعادة النظر

١٩٦٨ لم يكن عاما ككل الاعوام ، كان الصفحة الاولى في كتاب الرد على الهزيمة . . هزيمة الفرد العربي بأقسى مظاهرها في االنصف الثاني من ١٩٦٧ . . يصرخ بصمت ، « بلدي » ، وقد اذهلته المصيبة ، وشلت قدرة كتابه على استرداد انفاس ابجديتهم . . ولم يلتقط الجميع انفاسهم وافكارهم الا مع بداية ١٩٦٨ . .

عام ١٩٦٨ كان عام محاولة فهم اسباب الهزيمة وبالتالي مجابهتها ، وعلى كل صعيد . . عسكريا واقتصاديا وفكريا . وفي كل قطر عربي . .

وهكذا كانت مشاركة ثقافة ١٩٦٨ في المسؤولية امرا محتوما . . ثم ان الجماهير لم تعد تتسامح كثيرا في مستوى ما يقدم لها ، فالهزيمة التي تهدد (عيش) الانسان العادي ارغمته على محاولة البحث عن ذاته ووجوده في مرآة الفنون من مسرح وسينما وشعر . . وجعلته بطريقة ما يتقزز من الافكار والمستويات التي شاركت في هزيمته ، وفي تهديده بمزيد من الهزيمة والاذلال .

الجدية على كل صعيد

لذا ، لم تكن صدفة ان يمتاز النتاج الثقافي العربي ١٩٦٨ بالجدية . . وباقبال الناس على الدراسات حول (كاسترو) و (جيفارا) و (هوشي منه) و (الثورة العربية الكبرى في فلسطين) و (يوميات هرتزل) وكل ادب يكتب بالسكين مقاوما عبر الفداء (محمود درويش مثلاً) ومقاوما على اكثر من جبهة (غسان كنفاني) ونتاجه القصصي (عن الرجال والبنادق) ودراساته (في الادب الصهيوني) و (ادب المقاومة في فلسطين المحتلة) . .

المسرح . . ونسغ حياتنا

ولان المسرح انطلق من اسس واقعية عميقة الجذور في الواقع المصري والعربي والانساني ومنفتح في الوقت ذاته على التيارات العالمية ، لذا فقد نما نموا اصيلا ورفدته الهزيمة بمزيد من الرغبة في التحدي والمقاومة . .

ولذا ، كان من الطبيعي ان تسقط السينما وتعلن افلاسها ، لانها كانت منذ البداية

مزيفة ، مقلدة ، هجينة ، تحكمها اطماع المستغلين لسذاجة الجمهور . .

وهكذا من يزرع التفاهة ، يحصد الفشل .

واسدل الستار بانتظار دم جديد للسينما المصرية . . دم ، اسمه الثقافة ، يحارب تخلف مخرجها وممثلها ومطربها وارجوزها ومحترفي النواح وهز البطن والارداف ومطلقي الخطب الاخلاقية .

وربما كان « نادي السينما » الذي اسس مؤخرا وتعرض فيه نخبة من روائع الافلام الاجنبية والتجريبية المدرسة الضرورية لتثقيف (بتوع السينما) . . وحبذا لو نظمت دورة تدريبية ارغامية لكل من له علاقة بالسينما هناك ، من المخرج والكومبارس الى قاطع التذاكر ! .

المقاومة والتفسخ

هل كان من الضروري ان يأتي علينا يوم كالخامس من حزيران كي نلحظ بأن الارض تحت اقدامنا مستنقع رمال . هياكلنا تتداعى . بيوتنا نكاد نفقدها . آلهتنا لم تعد تقنعنا . الجراد يأكل بيادرنا وعيون اطفالنا . الجراد يزحف علينا على طول حدودنا . الجراد يتوالد من داخلنا ايضا . من ادمغتنا ، من شاشات السينما لدينا من اغاني مطربينا . من اقلامنا . من اذاعاتنا .

هل كان من الضروري ان يأتي يوم كهذا كي نصرخ بذعر « بلدي يا بلدي » ونلتف حول « مسرح المقاومة » ونشيح باشمئزاز عن « سينما التفسخ » ، وكي نبحث عن اية كلمة محفورة بالسكين ما دام فيها صورة من صور استكمال صيغة الرد على العدوان (وعلى عدوان التخلف على ذواتنا) ، وكي ندين كل تفاهة علنية اسميت ظلما وعدوانا (فنا) ونكافحها بشراسة لانها من بعض ذلك الجراد ، ومن بعض فئران (التخدير) التي قرضت على مر القرون جذورنا في تربة اصالتنا وتاريخنا ؟ . . .

ايتها القاهرة ، بلدي يا بلدي ، يا دمشق .

الاسماعيلية ـ السويس ـ ٢٩/ ١٢/ ١٩٦٨

فدائيون خلف الكواليس

ذلك الفجر الربيعي الجميل ، وانا اغادر القاهرة ، بسيارة مركز الصحافة في وزارة الارشاد ، لتقلني الى الخطوط الامامية في السويس والاسماعيلية ، لم اكن ادري انني سأجد نفسي بعد اقل من ساعات وسط ساحة قتال . . وسط القنابل المسعورة الانفجار ، وازيز الرصاص ورائحة النيران والهشيم . . .

ولم يدر بخلدي انني سأقضي عشرات الدقائق في قبو احد الملاجىء ، ـ وتماما كما يحدث في افلام المغامرات ومسلسلات الحرب ـ ارهف السمع للانفجارات وانا اتساءل : ترى في جسد من استقرت تلك القذيفة . . وهل تكون القذيفة التالية من نصيبي ؟ . .

لكن شاءت الصدفة ، ولأقل حظي غير العاثر ـ صحفيا ـ ، ان اشهد معركة من المعارك شبه اليومية لعدوان اسرائيل على الاسماعيلية والسويس وغيرها من المواقع المصرية ، ورد القوات المصرية عليها . . واذا كنت قد وجدت فيما حدث (مفاجأة) ان لم اقل ـ مغامرة ـ فان مثل هذه الاعتداءات صارت امرا مألوفا لاهالي تلك المنطقة ، امرا لا يثير الخوف او الذعر وانما يتصرفون ازاءه بهدوء ووعي كما لو كانوا يشهدون (تجربة غارة) ، لا غارة حقيقية بالذخيرة الحية القاتلة . .

الريف الطيب ،والحرب

الى الاسماعيلية . والسيارة تبحر بي وسط بحر شاسع من الخضرة والخصب . النخيل يمتد جسورا بين زرقة السماء وزرقة الترعة . الوجوه الطيبة تملأ الحقول ، تطل من خلف اشجار المانجا وضحكات الاطفال تغسل اشرعة الزوارق الصغيرة . . واكوام من الخس والبرتقال تواكب جانبي الطريق . كانت هنالك طيور بيض تقفز فوق سطح الماء ، واخرى تحلق عاليا حتى تختفي وسط سحابة كسول لدخان مصنع ما . . . لوحات اليفة تنبض براءة وصفاء كانت تنزلق واحدة تلو الاخرى على عيني وتغسل عنهما اية صورة للعنف والقسوة والبشاعة . .

وحتى حينما حدثني مرافقي النقيب عن عدوان الصهاينة على بيوت المدنيين وحقولهم ، كان من الصعب ان استوعب معنى كلمة (عدوان) بكل ما فيها من (بشاعة) ومن اساءة للقيم الانسانية وهدر للحب أي الخير اي الجمال ، كان من الصعب

ان أعيها بكل فظاعتها وسط هذا المهرجان من الحب والخير والجمال الذي غزا به الريف المصري حواسي طيلة الطريق الى الاسماعيلية . ظللت انطق بوحي مما أرى ، وكان يرد بوحي مما يعرف .

قلت له : هذه طيور (فري) . هل الصيد مسموح ؟

قال : الصيد ؟ أجل . فرقنا القناصة توالي صيد (ضباطهم) عن بعد . اننا (نصطاد) لندافع عن بقائنا .

قلت : كثيرة هي ابراج الحمام في الريف .

قال : كثيرة هي ابراج المراقبة الراصدة لتحركات الاسرائيليين المريبة . . .

قلت : هل يصطادون السمك في الترعة ؟

قال : وفي بحيرة التمساح ، والبحيرات المرة عند القنال . . . ورغم قواربهم الحربية التي تعترض زوارق صيادينا الطيبين .

ويصمت . كأنه قرر ان يترك ، مشاهد الاسماعيلية والسويس تروي لي اية مأساة تشهدها تلك الارض الطيبة .

وتتوالى اسماء مختلفة لمشاهد أليفة ريفية متكررة : يلبيس ـ العباسية ـ الزقازيق ـ التل الكبير ـ اسوار ـ قصاصين ، نفيشيه ـ ونتوغل في الدلتا الشرقية حتى الاسماعيلية . . .

الاسماعيلية أم مدينة الاسطورة العربية العتيقة ؟؟ . . يا لهول ما ارى . . .

كان يا ما كان . . . تقول الاسطورة : كانت هنالك مدينة سعيدة ، اصابتها لعنة ساحرة شريرة ، مست كل ما في المدينة بعصاها فتحجر الجميع . . . وصمتت الاصوات . . . وتوقفت الحياة ونما العشب على اسوار البيوت وفي حدائقها . . . وغطت الطحالب نوافذها الموصدة واقفرت السوق واغلقت ابوابها . . . واختفى اطفالها وقططها وانطفأ الضحك والنجوم .

هكذا بدت لي الاسماعيلية للوهلة الاولى . . .

شوارع مقفرة . دكاكين موصدة . بيوت مهجورة لا أثر للحياة فيها . من وقت الى آخر تمر بي سيارة او عربة تحمل اثاث بيت ما ، ووجوه شاحبة النظرات ترافقها او تواكب انحسارها . . . لا ضجيج في المدينة ، وانما صمت حزين متوتر يتفجر من احجار البيوت والارصفة . . . صمت يروي ببلاغة مأساة اهل المدينة المهجورة . . .

يقول مرافقي باقتضاب : كان يقطن هذه المدينة ٣٤ الف مواطن . صار عددهم

الآن ١٤ الفاً ، واكثر من تبقى في طريقه الى النزوح !

ولم اكن بحاجة الى الشرح والارقام لافهم . كان كل ما في المدينة ينطق . يهذي . يؤنب . كانت آثار القنابل قد تركت في جدران كل بيت بصمات اظلافها ، وهدمت بعضها الآخر بأكمله . . .

شاهدت بناء من خمس طوابق وقد انهار بأكمله ، وبقيت منه لوحة معلقة على بقايا اساس البيت بين اصابع الحديد والاسمنت المجرحة العارية وقد كتب عليها (نزل الشامي) . . . واغمضت عيني هولا فقد قفزت اليهما صور عشرات من نزلاء الفندق الذين ربما كانوا ينامون بسلام حينما انسكب على رؤوسهم شلال النار وشظايا السقف والجدران . . . اكثر البيوت ـ بلا مبالغة ـ كانت تحمل بصمات القصف اللاانساني الذي تمارسه اسرائيل ضد بيوت المدنيين ومصانعهم ومعابدهم . . .

امتلأ حلقي نقمة على (اعلامنا العربي) . الفرد العادي في العالم العربي لا يعرف شيئا عن حقيقة ما يدور هنا . . . . واكثر اعلامنا العربي ما يزال يعطي العالم صورة خاطئة عنا ويظهرنا بمظهر المعتدين على الحمل المسكين اسرائيل (اسرائيل حريصة على هذه الصورة طبعا لتكسب عطف الرأي العام العالمي) . . . اننا نملأ الدنيا صراخا كلما نسفنا لهم دارا او مخزنا (وهم يشاركوننا الاعلان عن ذلك والصراخ) ، ونتكتم على مآسينا ولا نذيع اخبارها الحقيقية ـ ربما بحجة المحافظة على الروح المعنوية لشعوبنا . . .

صرت مؤمنة بأن الاعلام العربي بصورة عامة مطالب في هذه المرحلة بالذات بالكف عن (الخطابية التقليدية) ونغمة التبجح والافتراس الكاذب التي الفنا مواجهة مآسينا بها . . . (المحافظة على الروح المعنوية للشعوب العربية) صارت حجة باطلة فما دامت هزيمة الخامس من حزيران لم تحبط من عزيمة الشعب العربي ، وانما استطاع ان يتجاوزها ، صار من الضروري ان لا يكرر الاعلام العربي احد الاخطاء التي قادت الى الهزيمة : « كاموفلاج » الاعلام في الداخل وقصوره و (عثمانيته) في الخارج . ان اي انسان في أي مكان وأي عصر يشهد ما اصاب المدنيين من سكان هذه المدينة ، لن يملك الا ان يستنكر بشاعة العدوان الاسرائيلي وتطاوله على ابسط المبادىء الانسانية التي تعارف العالم عليها واعتبرها الفرد المعاصر من بدهيات الوجود الانساني .

الزمن الضائع

ساعة المدينة التي تتوسط الاسماعيلية كانت متوقفة . عقاربها ماتت على احرف تشير الى الثالثة والربع (تراها ماتت نهارا او ليلا ؟) وسألت النقيب الآخر الذي انضم الينا في

الاسماعيلية : هل ماتت ليلا ام نهارا ؟

قال دون ان يسأل (من) هي التي ماتت : لا فرق . انهم يبدأون قصفهم ظهرا أو ليلا أو مع الفجر . . . أم انك تظنين انهم يراعون مواعيد (الزيارات) !! . . .

ساحة المدينة كانت ايضا ميتة ككل شيء ، او هكذا خيل إليّ في البداية ، وانا ارى كل شيء خاويا ، ورصيف موقف الباص لا يحمل اي راكب ولا يمر به أي باص وتقبع فوق احجاره بصمت قطة حزينة العينين . . .

ومرت بي قافلة جديدة من سيارات الاهالي النازحين محملة بأثاثهم . (قفزت الى عيني صورة النازحين الذي شاهدتهم منذ عام في الاردن يعبرون جسر الملك حسين من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية . أية مأساة كان النزوح ، اي خطأ وأية جريمة) . . . قلت : عشرون الف نازح من هذه المدينة . هذا شيء مرعب ، من المفروض ان يبقى فيها اهلها ، وان يدافعوا عن حقهم فيها .

قال : « هذا نزوح (مرحلي) تفرضه طبيعة المعركة . فالعدو يوالي قصف المدينة بالمدافع البعيدة المدى، والاهالي العزل لا يملكون في هذه الحالة سوى التساقط تحت امطار القنابل واحدا تلو الآخر . ان انسحاب المدنيين لا يعني استسلام العسكريين . مع ذلك ، هنالك كثيرون ممن قرروا البقاء بأي ثمن » . . .

وكان ذلك صحيحا . . . فأمام دكان مخلوعة الباب ، وقد تقعر حديدها الى الداخل بسبب (التفريغ) في ضغط الهواء الذي ولده انفجار لا بد أنه كان مروعا ، قبع بائع متجول ، تلتمع عيناه الرماديتان ببريق متحد صامد . قال : « لن اغادر داري وارضي ما دمت حيا سأدافع عنها حتى اموت » . . . مثل هذه العبارة سمعتها من كل من لقيته . . . في الكنيسة المارونية ، كان (أبونا) يصلي وحيدا صامدا . لن يغادر الكنيسة رغم آثار القنابل في احد جدرانها . سيبقى . انه مؤمن بإله هذه الارض وبشعبها . سيبقى ، رغم الجدران المثقوبة في الدار المقابلة ، والتي تطل عبر فجوتها صورة قديس معلقة داخل الغرفة تنظر الينا بصمت معبر مرعب ، وتحف بها بقايا اثاث الحجرة ولوحاتها . . . (لا بد ان نزوح الاهالي هو جزء من خطة للدفاع منطقية وعقلانية وبعيدة عن الخطابة . . . المدني لا يستطيع ان يحارب مدفعا ببندقية . هذا عصر التكنولوجيا ، والحماس وحده لم يعد كافيا) .

ومع ذلك فعلى مشارف الاسماعيلية لم يفت كل عابر ان يلفت نظري الى انه صامد . وحتى ركاب سيارة (نازحة) استوقفتها ، لم يفتهم ان يؤكدوا لي بعيون تقطر

حقدا وتحرقا للمواجهة : سنعود .

المصانـع أيضـا ..

شركة نصر للسيارات . مصنـع الالبـان . فنالتـكس . مصنـع الاسماعيلية للترانزستور . . . وغيرها من المصانع كانت هدفا لقصف المدفعية الأسرائيلية .

ورغم كل شيء لم يتوقف العمل فيها ، ولن . . . عمالها ، من بعض فدائيي هذا الوطن العربي : فدائيون وراء الكواليس ! . . . اذن ، ساعة المدينة لم تمت ، تحجرت برهة ، ريثما ينجح فتى الاسطورة الفارس في فك رصد الشر عن المدينة .

السويس ترحب بكم

لوحة كبيرة عند مفترق الطرق تقول : السويس ترحب بكم ! ولم أكد اقرأ العبارة حتى انفجر شلال من قصف مدفعية ما . (يا الهي ! اي ترحاب وأية تحية) . هنـالك غارة . الكل يركض ليؤدي عمله المرسـوم له . الجنـود يأمروننـا بايقاف السيارة بعيدا (حذار من تجميع السيارات في مكان واحد والا كانت هدفا مغريا للقصف !) . جنود يتحركون بسرعة ونظام . مدنيون يركضون باتجاه الملجأ والقصف يزداد عنفا وضراوة . الارض ترتجف تحت الاقدام . هنـالك طلقـات متقطعـة اقـل عنفـا . الرصـاص يمـلأ الفضـاء . رصـاص حقيقـي . ربمـا للمـرة الاولى لا اسمعـه يلعلـع بمناسبـة عرس او (انقلاب) او جناز . . . هنالك محطة بنزين نبعد سيارتنا عنها . . . يقودني المرافق نحـو بناء صغير عليه لوحة (نقطة مرور العوايد) . اهبط درجا ضيقة الى الملجأ . الملجأ قبـو ضيقة فيها عشرات من الاطفال والنساء وبعض المسنين . اشعر بالذنب وبالخجل . تدخل خلفي امرأة وقد لفت نفسها بعباءة وغطت وجهها ، وهي تتعثر بأطراف ثوبها (التقليدي) وتكاد تقع على الأرض (مكاني ليس هنا. النساء كلهن، وهذه المرأة التي تتعثر بأهداف « الفضيلة المحتشمة » يد الرجل التي تساعدها يجب ان تكون طليقة تحمل بندقية . ويدها ايضا) . . .

اجلس في الملجأ والقصف يهز الارض . . . يقول مرافقي مطمئنا : هذه مدفعيتنا ترد عليهم .

ـ وكيف عرفت ؟

ـ من صوت الطلقة . . . الطلقة التي تهز الارض وتخيفك هي الانفجار الـذي يولده انطلاق القنبلة ساعة اطلاقها . . .

(اذن حياتي وحياتهم في خطر . اذن من الممكن ببساطة ان يتوقف كل شيء الآن .

يا لوحشية ما يدور . هنالك فرق مذهل بين ان نتخيل المواقف وبين ان نعيشها ، بين ان نقرأ في جريدة الصباح عبارة « تجددت الاشتباكات » او نسمعها في الترانزستور بينما نسوك اسناننا ، وبين ان نعايش الاشتباك الحي حقا) . . .

هبط الى الملجأ عدد من الشبان يبدو من ملابسهم انهم من العمال يقودهم ضابط يرغمهم على الدخول . . . انهم لا يريدون الجلوس في الملجأ . . . لم تعد الغارات المتكررة تخيفهم . . . يجلسون ، ويملأون جو المكان مرحا . يطردون اشباح الموت والذعر . لم اسمع طيلة حياتي (نكتة) مصرية اصيلة وفكاهة ذكية كالتي سمعتها في الملجأ ، بينما القصف يدمي آذان السماء . . .

بعد قليل دخلت جماعة اخرى الى الملجأ بهدوء . بهدوء رجل يدخل الى المقهى . بروتينية مدمن على السينما ، بلا مبالاة رجل يتثاءب .

قال لي كهل تصادف ان جلست الى جانبه : لقد اعتدنا غاراتهم . صارت من برامجنا اليومية المألوفة . . لكن ذلك لن يدوم طويلاً . . . القصف يهدأ . يتفجر ثانية . سألت أحدهم : كم ستطول الغارة ؟ (سؤال سخيف طبعاً ، لكنني كنت بحاجة لأن اقول اي شيء) . . .

رد بدعابة حلوة : مين يعرف . . . يوم . . . اثنين . . . سنة . . سنتين . . . جرى ايه يا بنت ! . .

أغمضت عيني لارى اعماقي التي كانت تغلي ثم تهدأ لتتبلور فيها اشياء واشياء . . .

انزلق داخلي شريط سريع لايامي . . بوضوح ، بصفاء لم اعرفه منذ اعوام وجدتني اعي احداثها . . . حقائق طالما دفنتها في داخلي في اهرامات التجاهل ، عادت تتضح كما يخرج المارد من القمقم المسحور . . . لم يكن دماغي قط قادرا على المواجهة وعلى الفهم والحياد كما كان في تلك اللحظة بينما جمجمتي مهددة بشظية تطيح بها وتمسح كل شيء ربما الى الابد . ولم اشعر قط بمعنى الحرب وبمعنى الحياة الا وانا مهددة بفقدها .

ما تزال الشمس تشرق

لا ادري كم من الوقت انقضى . المرافق العسكري اختفى (ربما ذهب يقاتل) . قلت لمرافقي الآخر المدني : اريد ان اخرج ، وان ارى ما يدور ، واكتب . قال : انا مكلف بالمحافظة على سلامتك ، لا استطيع السماح بذلك .

عدت اغمض عيني لارى بوضوح (رأيت تلال الحمة والقنيطرة في وطني سوريا .

القصف . سقطت الارض . لا . اغرس اظافري في تراب ارض الملجأ ، ويسري في اصابعي ذلك الجوع الى الامساك ببندقية) .

هدأ القصف فجأة كما بدأ . الساعة تقول ان اكثر من ساعتين قد انقضتا . نغادر الكهف . ما تزال الشمس تشرق . تضيء الحقول ، تنعكس على صف من الابنية ـ المساكن الشعبية ـ التي تبدو فارغة من السكان تماما . وخلفها نار مشتعلة ودخان كثيف . يقول احد الشبان : الزيتية اشتعلت .

دقائق . احدق في الشمس التي فشلوا في اغتيالها . . احدق في عشرات العمال يعودون الى مراكز عملهم بهدوء ، بوجوه لفحها التصميم والغضب المكبوت (هؤلاء الرجال كان القصف يبتغي تكويمهم هرما من الجثث والاشلاء . . . اية وحشية !) . . .

السيارات تعود الى الحركة . المرافق الضابط يعود الينا . يقول لي : لا خسائر في الارواح . وحدة من وحدات الزيتية كما ترين قد شبت النار فيها . هذا كل شيء . . . كان رد مدفعيتنا عنيفا . . . وقناصتنا كان صيدهم موفقا . . .

ـ اريد ان ارى المدينة . . ماذا حدث . . .

من مركز (العوايد) يأتي الينا العريف ويقول : هناك اوامر باعادة الصحفيين حرصا على حياتهم . . .

واعادوني ، ولم يدروا انني مت اسفا وحزنا وعارا . . . ان يدور ذلك ، وان اكون عربية ، وان لا اقاتل . . اية مهزلة .

لوكاندة ناصر للنوم

في طريق العودة ، دار نسفت للتو وما زالت جدرانها تتابع الانهيار . . الناس يركضون صوبها ، يساعدون اهلها على الخروج . . . يبدو انني الوحيدة المذهولة هنا . . . لقد ألفوا لعبة الموت . . . ولكن الشعب المصري اليوم نمر جريح . . جريح الكبرياء . . .

نتابع العودة . . . احاول ان اتلهى بقراءة اللافتات كلها . . . اقرأ لافتة على باب فندق « لوكاندة ناصر للنوم » . . . واجدني انفجر ضاحكة فجأة ، بأعلى صوتي ، وبعنف ، حتى ظن مرافقاي ان بي مسا من الجنون المفاجىء . . .

يسألانني : ماذا جرى ؟ أضحك بكل ما في صدري من مشاعر متناقضة حبيسة ومخاوف مجهضة . . .

ـ ست غادة ، جرى ايه ؟ . .

ـ « لوكاندة ناصر للنوم » ، يا للتسمية الطريفة . . . تسمية الاشياء بأضدادها . ناصر ، والنوم ؟ يا الهي ! جاء هذا الرجل الكبير لينتزع نوم اهل الكهف من عيون البشر والارض العربية . . . جاء ليحرض على الثورة ضد النوم والاسترخاء والعبودية . . .

منذ جاء، والوطن العربي كله لوكاندة لا تعرف النوم، وانما تحاول اليقظة الكاملة فكريا وانسانيا لتنهض على قدميها وتدافع عن بقائها . . . « لوكاندة ناصر للنوم » ! . . . واشعر بحزن غامض لا ادري له مبررا !! . . . ترى كم من اهل لوكاندة العروبة فهموا رسالة ناصر الحقيقية ؟؟ . . .

٤/٤/ ٦٩

. . . وبلغ الجرح سن الرشد

طويت جريدتي ، وهمت على وجهي في شوارعك يا قاهرة . . يا افريقية الغموض والبراءة ، كدغل استوائي . .

يا متوترة ، كعضلات ملاكم في الحلبة . .

يا مشرعة الانياب ، كلبوة اغتال الصيادون احد اشبالها . .

يا نابضة ، كتفجر دم شريان قطع للتو . .

يا مدينة الثأر . . كل ما فيك يقرع طبول الحرب . . كل ما فيك يشحذ سكاكينه وذاكرته واحقاده وكبرياءه الجريح . .

القاهرة . .

كل ما فيك يقرع طبول الحرب . . في السويس ، في الاسماعيلية ، كانت المدافع لا تهدأ . . وطلقات النار تتلاحق حتى تأكل كل طلقة صدى الطلقة السابقة . .

وحينما عدت اليك يا قاهرة ، وجدتني ما ازال في ساح المعركة . .

كل ما فيك يقرع طبول الحرب . .

كل ما فيك يشكل امتدادا للجبهة . . عبثاً ينسى فيك الانسان العربي انه مهدد ، ومطالب باداء الواجب . .

***

مصابيح الشوارع مطلية بالدهان الازرق (مصباح النكتة المصرية يضيء - يقول الرجل بينما يدخن سيجارته لرجل آخر يدهن اضواء سيارته باللون الازرق : والنبي تدهن لي رأس السيجارة الوالع بالازرق ، قبل ما تبتدي الغارة !!) . .

القاهرة غارقة في اللون الازرق الشاحب . . مصابيح البيوت والشوارع ، والمخازن ، كلها تنزف ضوءا رمادي الزرقة ، شاحب الحزن ، للونها الخافت صوت نواح صفارات الانذار ، للونها الخافت رائحة حريق وهشيم ورماد . .

اكياس الرمل تغطي مداخل الابنية . . اكياس الرمل تغطي مداخل العيون . . المتاريس في الشوارع ، وفي النظرات ، وفي الصدور . .

ورياح الخماسين تهب . . حارة ، غبارها يعمي العيون . . تهبب كسحابة من النار والدخان في ارض المعركة . .

واهرب الى السينما . . وادرك ان الهرب اضحى مستحيلا ، فقد كان اول مشهد على شاشتها هو تنبيهات الى المواطنين عما يتوجب عليهم القيام به لضمان سلامتهم في حال وقوع غارة جوية !! . . اركن سيارتك . اطفيء لفافتك . سارع الى اقرب ملجأ . لا تستعمل الترانزيستور . في حال انفجار قنبلة انبطح الى جانب الرصيف وغط رأسك بذراعك . .

واغطي رأسي بذراعي ، واهرب من السينما قبل بدء الفيلم . .

اعود الى ذاتي في شوارعك الزرق النابضة المتوترة يا قاهرة . .

فيك يستطيع الانسان ان يخلع ثيابه لكنه لا يستطيع ان يخلع رأسه . .

فيك يصبح لكل خبر مذاق آخر . .

فيك يا ساحة الحرب ـ مع وقف التنفيذ ـ يصبح الفداء حلا لا مفر منه !

فيك اشعر اكثر من اية لحظة مرت ، ان العالم العربي بحاجة الى من يقول الصدق في كل لحظة ، وبأي ثمن ، ولو اتهم بأنه يهذي . . فلأهذ . .

***

جريدتي التي طويتها اقلب صفحاتها من جديد . لن اصمت لن اهيم على وجهي . كل ما فيك يا قاهرة يرغمني على اداء واجبي : ان اقول الحقيقة بأي ثمن . . وسأقول اشياء لا تقال ، وليقولوا انني اهذي .

***

اقرأ خبرا عن الفدائيين العرب . يقول الخبر : ان مدفعا رشاشا لاحد الفدائيين اسقط طائرة ميراج !! . .

لا . لا .

هنالك من يجب ان يقول لا لموجة المبالغة التي صارت تصبغ اخبارنا عن العمل الفدائي ، حتى كدنا ان نقول : العمل الفدائي (صلى الله عليه وسلم !!) . .

العمل الفدائي هو اصلا بذرة الصدق التي نبتت من جذور الاصالة العربية في تربة الهزيمة والعار . .

العمل الفدائي هو اصلا العمل الوحيد الصادق الذي تبقى لنا . . فكيف نزيف اخباره . . ونهولها . . ونستغلها . . المتاجرة بالعمل الفدائي بحجة ارضاء الجماهير

جريمة .

العمل الفدائي هو الثمرة الوحيدة (الصادقة) للهزيمة ، فكيف نعالج قضاياه (بزيف) ؟ . .

***

يا قاهرة . .

كل ما فيك يقول انك تعين جيدا ان الحرب لا مفر منها . لا لك وحدك ، وانما لنا جميعا ، نحن الذين نقطن ارضا دق في صدرها لغم اسمه اسرائيل . . كل عاصمة عربية لن تملك الا ان تدرك عاجلا او آجلا انها قاهرة اخرى . . يا دمشق . . يا بيروت . . اصبغي مصابيحك بالازرق . . كل مدينة عربية قاهرة . .

***

نيسان في بيروت . لذا يستعد ابناء الطبقة التي يستحم افرادها بماء ايفيان ويغسلون سيارتهم بالشمبانيا للاحتفال بالربيع باجراء حفلة « نيسان في بيروت » . .

سيخرج (نجوم المجتمع المخملي) على طبيعتهم في الحفلة . . سيخلعون اقنعتهم اذ سيغنون ويرقصون ويهرجون ، سيلعبون دور مطربات وممثلات لليلة . .

الشاب الذي نظّم الحفلة خبيث وذكي . . لقد (حك على جرحهم) فطلع عليهم بفتوى هي ان ريع الحفلة للاعمال الخيرية ـ ربما الفدائية ! . . .

ما كان الخبر ليهزني كثيرا لو لم اقرأ الى جانبه خبرا آخر عن الذكرى الواحدة والعشرين لمذبحة دير ياسين التي يتصادف حلولها مع سهرات نيسان في بيروت . .

بيروت يا (قاهرة) شئت ام ابيت . . يا غالية . . حذار من رياح الخماسين فقد صار عمرها واحدا وعشرين عاما !! . . وبلغ الجرح سن الرشد .

***

يا قاهرة . . اتابع قراءة جريدتي يقولون انهم يحتفلون بعيد الام . . يبكي الاطفال الايتام ، لان المناسبة تذكرهم بأنهم بلا أم . .

ايها الشعب العربي من المحيط الى الخليج . الام الحقيقية هي النظام . . النظام هو مجموعة مؤ سسات (الاب وحده لا يكفي) . .

أيها الشعب العربي . . يا يتيم العصر . . فلنبك كلنا . . يا قاهرة . . علمينا انشودة حنان . . اغسلي وجوهنا التي شققها الضياع بشلال يقين . .

يا قاهرة . . نحن ايتام العصر . .

***

وبعد ،

هل تستطيع يا اخي العربي ان تقرأ جريدتك في ضوء المصباح الازرق في القاهرة ، دون ان تثور ، وتهذي ، وترفع الى القاهرة اغنية ، رقيقة كحد خنجر ، ثائرة كطبل افريقي يقرع في دغل ناء منذ قرون . .

اغنية هي من بعض انشودة الصمت في الحقول قبل بدء المعركة ؟ ! . .

القاهرة ٢٨/ ١١/ ٦٩

اهل القرية كلها يبدعون فناً

هاربان من مدينة الدمار/ ووجهها الأصم كالجدار/ تصوري لا يصمتون في الاصيل لا يبهجون للصباح في رؤى موكبه الجميل/ لهفي عليه فوق زحمة الرصيف كقشة في موجة المخيف/

« للشاعر جيلي عبد الرحمن »

والمدينة في نظر الفنان كائن خرافي ينخر اعصابه كما ينخر نقار الخشب في احشاء السنديان . . . المدينة ، يراها الفنان وجها اصم كالجدار . . . واهلها قافلة من المتكالبين على الدنيا ، يثرثرون في محافل البيع والشراء ، ولا يصمتون حتى لحظة الاصيل حزنا على موت نهار ، وربما صلاة امام جمال الغسق وجلاله . . . والصباح في المدينة حادث لا يتوقف احد لحظة ليرقبه ، وانما يتابع الجميع ركضهم المسعور على الارصفة ، ويمزقونه كريشة في موج الاحذية المتلاطم . . .

الفنان عدو (للمدينة) . . وهذه العداوة ليست سرا ، وانما نجد كثيرا من الفنانين من شعراء وموسيقيين ورسامين قد عبروا عن هذا العداء الذي يتراوح بين الرفض المطلق بالعودة الى الطبيعة (كما هي الحال لدى الشعراء الرومانسيين) ، او بالبقاء في المدينة ومحاولة التكيف معها عبثا ، تلك المحاولة التي تقود الى نقدها بشراسة احيانا ، (كما فعل شتاينبيك في رائعته «شارع السردين المعلب») ، وكما في ديوان «مدينة بلا قلب» للشاعر العربي عبد المعطي حجازي (وديوان « غابة الحجارة » لرفيق خوري التي يقصد بها بيروت) والى الانهيار العصبي بصمت . . وربما الانتحار كما فعل « فيتز جيرالد » معاصر همينغواي . . .

وربما كانت هذه العداوة التقليدية بين الفنان والمدينة هي السبب الاساسي لوجود حي خاص بالفنانين في كل مدينة ، يهربون اليه مثل « حي مونمارتر » في باريس مثلا ، وحي « غرينيتش فيليدج » في نيويورك . . .

والواقع ان حي مونمارتر في باريس لم يكن قبل نصف قرن سوى ضاحية باريس التي (هرب) اليها الفنانون من زحام المدينة . . ولم تلبث باريس ان اتسعت حتى

صارت ضاحية مونمارتر على رأس التلة جزءا من المدينة ، لكنها ظلت جزءا متمردا ، يحكمه الفنانون ، ويزرعونه بلوحاتهم واغانيهم وتماثيلهم وحاناتهم وقوانينهم الخاصة بالحب والحرية . . .

و « غرينتش فيليدج » في نيويورك كانت ايضا « قرية غرينتش » المستقلة في ضاحية نيويورك والتي (طفش) اليها الفنانون من ناطحات سحاب نيويورك التي تغطي وجه السماء ، وشوارع السردين المعلب فيها ، ولكن نيويورك اتسعت حتى صارت قرية غرينتش ضاحية من ضواحيها ثم حيا من احيائها لكنه حي يحكمه الفنانون ويمثل هناك ما تمثله مونمارتر في باريس . . .

وربما كانت قرية « الحرانية » التي تبعد عن القاهرة حوالي اربع كيلومترات والتي يقطنها اليوم بعض الفنانين المصريين الذين يتكاثرون بسرعة وتزداد هجرتهم اليها هي النواة الاولى لمونمارتر القاهرة . . . مونمارتر ، ولكن ليس على الطريقة الباريسية السارترية ، ولا على الطريقة الاميركية الهيبية ، ولكن على الطريقة المصرية الاصيلة العريقة الجذور في الحضارة الفرعونية ، والممتدة الفروع في الحضارة العربية ، والمعبرة عن روح الثورة الحالية وروح الحضارة العتيقة الخالدة . وقد لا تمضي اعوام الا وتتسع القاهرة وتصبح (الحرانية فيليدج) حيا من احيائها بعد ان كانت قرية في ضواحي الجيزة . . . ولكن مونمارتر القاهرة هذه ، ستظل تحمل مميزاتها الخاصة التي تنبع من روح الفنان المصري المعاصر وتعبر عنه تعبيرا حقيقيا مثيرا . . .

هاربان في الحرانية

« هاربان من مدينة الدمار
ووجهها الاصم كالجدار » . . .

وكنا يومها اكثر من هارب من زحام القاهرة التي صارت تضم ما يفوق الاربعة ملايين انسان خلال النهار . . . وصار زحامها قبل الغروب في رمضان ، وزعيق ابواق سياراتها ، يذكر بساعة (الراش اور) في لندن وباريس ونيويورك او اية « غابة حجارة » اخرى . . .

لذا لم اتردد لحظة في قبول الفكرة ، فكرة الخروج من القاهرة الى مكان هادىء . . . وازددت حماسا حينما علمت ان هذا المكان الهادىء هو قرية تقع بين اهرامات الجيزة وهرم سقارة ، وان عددا من الفنانين قد نزحوا اليها من القاهرة ، وان استاذ جيل من الفنانين هو رمسيس واصف قد تبرع بهندسة بيوت الفنانين هناك (رمسيس واصف

يقام الآن متحف في القاهرة يحمل اسمه ، وهو استاذ في كلية الفنون الجميلة ، وصاحب نظرية استطاع تطبيقها عمليا في قرية الحرانية تلك ، نظرية ترمي الى تفجير الطاقات الفنية لدى الفرد المصري العادي الموهوب وغير (المثقف) فنيا ، مثل زوجة الخفير والطفل والفلاح والعامل) . . .

ومما لا شك فيه انه نجح في خلق نواة لمستعمرة فنية ريفية ، ونموذج خاص يندر مثاله . . . هذا ما استطعت ان اقدره منذ الوهلة الاولى ، منذ قطعت بنا السيارة اربعة كيلومترات في طريق فرعية عن طريق هرم الجيزة ، ولاح خلف الترعة الريفية واشجار النخيل عدد من البيوت المثيرة للفضول بقبابها الطينية وهندستها الخاصة النوبية ونوافذها وشرفاتها الصغيرة الخشبية الافريز التي تذاكر بشرفة روميو وجولييت . . وبعد لوحة عليها اسم : « عش رمسيس » لوحة تحمل اسم « الحرانية » ، وطريق ترابية تمتد امام هذه البيوت الاسطورية المناخ ، والصعيدية الطبيعة ، والتي يمنحها مشهد الاهرامات عند الافق مذاقا تاريخيا فرعونيا كثيف الايحاءات والرؤ ى . . .

وتتوقف بنا السيارة امام احد البيوت ويقول الصديق القاهري : ما رأيك بزيارة آدم وزوجته ؟ . انه رسام ونحات وأحد المبدعين المصريين . . . ولم ارد . وقفت جامدة اتأمل الدار الصغيرة . . . كانت مبنية من الطين والطوب كالاكواخ ، وعلى جانب كبير من جمال الهندسة وبساطتها . . تحيط بها حديقة مزدهرة الخضرة ، ليس لها سور ، وتلوح في آخرها الاهرامات كأنها من بعض معالم الحديقة . . كانت هنالك بقرة وعنزة وتنور لخبز (المرقوق) وفلاحة تغفو على جانب الترعة تحت نخلة . . . وكلب تقدم مني وهو يهز بذيله مرحبا وهنا لم اتردد في الدخول ، تابع الصديق : صمم هندسة هذه الدار الفنان رمسيس واصف كهدية ، وبناها الفنان بيديه . . وحينما صافحت يد الفنان وكانت قوية وخشنة صدقت انه هو الذي بنى هذه الدار ، . . . تابع الصديق : هذا آدم . . وهو يعيش هنا وحيدا مع زوجته السيدة عفاف الديب .

ولم اكد اتقدم خطوات في الحديقة وانا في طريقي الى داخل الدار حتى وجدتني اقف مذهولة . . . فقد اكتشفت فجأة ان البيت مأهول بأكثر من آدم وحوائه . . . وحينما صرت في الداخل تأكدت ان خمسين مخلوقا على الاقل يعيشون في هذه الدار بما فيهم آدم وزوجته ! فعلى تلة صغيرة من التراب والحشيش جلس رجل جلسة انتظار وترقب ، ووضع كلتا يديه حول احدى عينيه ليكون اكثر قدرة على الرؤ ية . . . وقبع هكذا

جامدا . . . ولم اسأله من ينتظر ؟ وظهور ماذا يترقب ؟ كان واضحا انه يرقب باصرار كل قادم . . . انه انسان آخر « في انتظار جودو » . . . ولكن . . . من هو جودو في نظره . . . كان من الصعب ان انتظر جوابا ، لانه رغم ان كل ما فيه كان ينطق بالحياة الا انني لم انس انني امام تمثال رائع النحت . . . كان في الحديقة ايضا كلب آخر ينطق بالحياة لكنه لا يتحرك من مكانه لانه مخلوق من الحجر . . كان هنال صبي يشرب الماء من (قلة) . . وكان هنالك رأس ضخم لرجل حارس متربص في حقل الملفوف . . وسرير نوبي مصنوع من الجريد يدعى « العنقريب » يرتفع فوق اربع قوائم وتعجز العقارب عن الوصول الى النائم فيه كما قال لي آدم . . ورجل عيناه مسمرتان على الاهرامات وتعابير وجهه تنطق بالصبر والحزن العميق غير السلبي ، كحزن الطبيعة قبل لحظة انفجار بركان ما . . وكان في عيون التماثيل كلها ما يشبه دمعة لا تنحدر ولا تجف ، دمعة محملة بالغضب كالمطر الذي ينهمر قبل الزلزال . . واحسست بحنجرتي تجف . . كانت تلك المخلوقات الصامتة تصرخ ، تهذي ، تروي حكايات تاريخية مذهلة . . وطلبت ماء . . وانحنى آدم على مضخة ريفية يدوية يستخرج المياه من البئر ، بينما تعلقت نظراتي بكائن آخر عجيب ، كائن بحري ابيض كبقية التماثيل اظن انه نوع من الاسفنج الكلسي المرجاني ، وسألت آدم : « هل خلقت هذا ايضاً » ؟ قال : « لا . . هذا من نحته هو (واشار الى السماء) ، ثم اضاف : انه هو أيضاً نحات ماهر ورسام عظيم .

الباب يذكرني ببيوت زقاقات دمشق العتيقة ، مثلها منخفض واعلاه قوس ، في الداخل رطوبة لا تطالها الشمس ، يستقبلني فتى بلون البن ، اسمر وجميل مثل حقول الكستناء وقد وقف على السلم الذي يقود الى الطابق الثاني حيث غرف النوم والحمام . في الطابق الارضي استديو الفنان ، وهو آية في فن الهندسة بقبابه الجميلة التي تذكرني بالبيوت التونسية ونوافذه الصغيرة التي تحمي المكان من حر الشمس وتوفر له النور . . يتوسط المرسم التمثال الاخير للفنان آدم . . تمثال رائع مذهل . . اسمه : الرجل والدرع . . (من منا لا يحمل درعا ، بل دروعا في وجه القدر والمجتمع وبقية القوى المعادية غالبا للانسان) . . الرجل يواجه مصيره . يتنكب درعه بشجاعة . لا يرتدي قناعا . آدم يكره الاقنعة . . هنالك لوحة (المرأة واليويو) تمثل ثورة ساخرة على مجتمع لابسات الاقنعة . . هنالك امرأة تمثل نموذجا (لتانتات) المجتمع ووجهها اقرب الى القناع منه الى الوجه الانساني ، و (اليويو) في يدها رمز الى وجودها الطفيلي البورجوازي اللامجدي الذي يقوم على استهلاكها لطاقات الغير . . هنالك ايضا طيور تقترب منها فلا

تهرب وتمسك بها فتدهشك نعومة ملمسها الحي وتتأملها فيخيل اليك انها تنبض بالدفء والحياة ، وتعيدها الى مكانها ويدهشك انها لا تطير . . هنالك فأر قرب العتبة لا يهرب . . هنالك سمكة صغيرة يخرجها آدم من جيبه ويعبث بها . . كلها لا يهرب ولا يصرخ . . كلها خلقها آدم من الحجر . . وادخل الى المطبخ ، ارافق زوجته السيدة عفاف التي تعد الشاي ، وفي المطبخ صبية حجرية (ممسوحة) البطن ، يبدو عليها الجوع كأنها في انتظار انتهاء اعداد وجبة الطعام . . وهنالك سجادة معلقة على الجدار رائعة الرسوم تحمل طابعا مصريا فرعوني الرسوم متطور الاداء وتقول السيدة عفاف : اسم هذه البنت النحيلة الجائعة (وجيدة) . . . واما السجادة فهي من صنع محلي . . انها من صنع فنان مصري جار لنا ، بالضبط هو الذي يرسمها بينما يقوم بعض اهل القرية الموهوبين بصنعها . . زوجة الغفير الفلاحة فنانة مدهشة في هذا المجال . . انها طبعا لا تقرأ ولا تكتب ولكن استخراج الموهبة من الناس العاديين هو ما نرمي اليه في هذا المكان ، وهو ما سيجعل من الحرانية بعد اعوام مركزا فنيا شعبيا مدهشا . .

تابعت وهي تسكب الشاي في اكواب خزفية غريبة الالوان والرسوم ، مصرية الطابع : هذه الفناجين والصحون مثلا من صنع محيي حسين الخزاف وورشته وهو الذي يقطن الدار المجاورة لنا . . ويعمل معه فريق من اهل (الحرانية) الموهوبين . .

وأسألها : عفاف ، الا تشعرين بالضجر من الوحدة . . وبدت في نظرتها الدهشة . . احسستها تريد ان ترد علي بسؤال مماثل كأن تقول لي : وانت ، الا تصابين بالانهيار العصبي او الجنون من الزحام ؟

وعفاف سيدة مثقفة (ليسانس فلسفة من جامعة عين شمس . ماجستير انتروبولوجي من الجامعة الاميركية . سنتان لتحضير الدكتوراه في لندن مدينة الثمانية ملايين) . لم تتابع دراستها في لندن لاصابتها « بانزلاق غضروفي » في ظهرها وعادت الى القاهرة حيث التقت بآدم واصيبت « بانزلاق عاطفي » . . ثم ها هي هنا في (الحرانية) وحيدة مع آدم . . تقطر السعادة من عينيها الجميلتين . .

لا . ليسا وحيدين . يقطن الدار الرائعة بالاضافة اليهما ما يقارب الخمسين مخلوقا بينهم البشر والقطط والكلاب والفئران وكلها من الحجر وكلها رائعة تنبض بالحياة حتى بدأت اسأل عن اسمائها ، (في الليل بعد ان ينام آدم وحواؤه ، لا بد ان هذه التماثيل تتبادل الحوار بل وتتجول في الدار وربما في الحديقة ولكنها لا تتشاجر لانه لا يبدو على اي منها آثار خدوش او بقع دم على الارض) . .

وجه آدم يشبه وجوه تماثيله . . وجه مصري أصيل ، بريء ، ذكي وصلب الملامح . . لم يرتد كرافتة وبنطلونا (محزقا) قبل ان يقف امام الكاميرا وانما وقف كما هو ببساطة وبثياب العمل ، كأن تماثيله ليست محفوظة في متاحف اميركا واوروبا . . (كان من الطبيعي ان يهجر القاهرة واجواءها ، وان يهجر عمله السابق في روز اليوسف وحتى اسمه السابق صمويل آدامز ، ليأتي الى احضان الطبيعة ، كرجل نبت في قلب الصخر ، وليكون مثالا لآدم المصري الجديد الذي سيصنع نهضة مصر الجديدة) . .

وأسأله قبل ان اغادره لاتجول في بقية انحاء القرية : لماذا لا تسور حديقتك ؟

يرد ببساطة : لانني احس ان الصحراء جزء منها . . وان الاهرامات تقع ضمن حديقتي انا !! . . .

مونمارتر

ليس في الحرانية (مونمارتر القاهرة) خمارة ، ولا دار لهو . . انها قرية وادعة تفيض فنا وبساطة وتنبض بروح العلم والابداع . . أهلها بسطاء وطيبون كالنخيل ، كالبيوت . . بيوت الفنانين التي رسمها رمسيس آية من آيات الفن الهندسي (بيت اسماعيل نافع . . بيت الفنانة زينب . . ومحيي حسين الخزاف . .) . . ومحتوى البيوت كل منها متحف ابداع قائم بذاته . . ونواة لComunity (ليس لدينا نحن العرب سوى قبائل وعشائر ولكن ليس لدينا ترجمة لكلمة تجمع :كوميونيتي) ومن هنا اهمية هذا (التجمع الخلاق) . .

تجربة جديرة بالاهتمام

رغم التجربة الفنية المثيرة التي تلعب فيها القرية دور المختبر ، ورغم كل ما شاهدت في القرية ظلت تماثيل هذا المبدع ، آدم ، تلاحقني بوجوهها النوبية الحزن ، وصلابتها التي تذكر بفلاحي اسوان والصعيد حيث عاش الفنان اربع سنوات من عمره بينهم . .

وكما كنت اضيع في الدار بين مخلوقاته . . واحار فيما اذا كانت من صخر ام من لحم ودم . . كذلك وانا اغادر القرية ساعة الغروب ، شاهدت عربة وسط ظلال المساء يجرها حمار وقد تربع فوقها رجلان . . واطلت النظر اليهما ، وعبثا استطعت ان اميز فيما اذا كانا من التماثيل ام البشر . . وحينما رفع احدهما يده ليبعد ذبابة عن وجهه تأكدت من انهما تمثالان ! . .

القاهرة ٥/ ١٢/ ٦٩

أين المعنى الاصلي لرمضان ؟

القاهرة في رمضان امرأة كسول ، تلعب (اليويو) طوال النهار ، وتتثاءب ، وتكحل صحون الأكل ، وحينما لا تطبخ ، تغفو لتحلم بالياميش والكعك والمكسرات والنقوع . . .

امرأة مرهقة ، تشتم الجوع والعطش وتعبث بمسبحتها ، لا تقرأ ولا تكتب ولا تسمع . . . وان قرأت ففي كتاب ادعية لرمضان ، وان كتبت فأدعية وكتب تعليم الطبخ ، بما فيه الاصناف المنسية من (الاذاذ) حتى (اللوزينج) ، وربما مانشيتات الصحف عن رد العدوان . . . ثم الصفحات الدينية الخاصة بهذا الشهر . . .

وحينما تدنو ساعة الافطار ، تركض القاهرة مجنونة بين سنابك الزحام . . . ثم ، مع ضربة مدفع ، تخلو الشوارع ، ويخيم عليها سكون عجيب لا يسمع خلاله سوى صوت اصطكاك الاسنان والملاعق والصحون والبطون . . . وهكذا لمدة شهر في كل عام ، البلاد في حالة حرب ، ونسبة الانتاج تتدنى حتى لتكاد البلاد تخسر من دخلها ما نسبته ١/ ١٢ من مجموع الدخل العام طيلة اشهر السنة . . . هذا بالاضافة الى مبلغ خيالي ينفق كل عام من الدخل القومي في شراء مستلزمات الصوم التقليدية من كعك وياميش ومأكولات غير صحية ، وبالتالي فواتير للاطباء وثمن أدوية . . . ووقت مهدور . . . والعدو متربص على الباب . . .

رمضان كريم ؟ . . .

رمضان كريم ؟ ربما . . . ربما لو ظل رمضان محتفظاً بمعناه الاصلي وبالمدلول الحقيقي لطقوسه . . . اما حينما يصبح رمضان مجرد شهر يجوّع فيه الانسان نفسه ، من اجل مزيد من الاستمتاع بلذة الطعام ، وحينما يحشد لهذه الغاية (الحسية) جميع طاقاته المادية وطاقات اسرته المطبخية ، حينئذ نصبح امام ظاهرة من الابيقورية الدينية تستحق الدراسة . . .

والواقع ان تحول أكثر مظاهر العبادة (والصيام من ابرزها) الى مجردمظاهرة طقوس تقليدية مجردة من مضمونها الفكري والروحي السامي ليست ظاهرة تختص بها مصر وحدها

وانما هي ظاهرة منتشرة من رصيف المحيط الى رصيف الخليج ، ونجدها في اكثر من مدينة أو قرية عربية بنسب مختلفة . . . ولكنها في القاهرة ، اكبر مدينة عربية تتخذ شكلاً بانورامياً أكثر وضوحاً ، ويصير شهر رمضان معبراً عن الصدامات التاريخية داخل المجتمع المصري ومسرحاً لها (ان لم نقل الصدامات التاريخية داخل كل بيت مصري) . . .

حي الحسين

مسجد الحسين او (سيدي الحسين) كما يسمونه يتوسط الحي المسمى باسمه والذي يصير في رمضان دنيا من الحركة والبيع والشراء ، وكرنفالا عجيبا من السياح والفضوليين واصحاب الطرق الدينية والشيوخ والمصلين والعلماء والعوالم وابناء البلد والفقراء والنشالين والـ (خواجات) و (الفنانين الشعبيين) وغيرهم . . .

تزدحم الازقة الضيقة بالناس . . . قليلون جاءوا بقصد الشراء من السوق ، التي تظل مفتوحة الدكاكين وقائمة البسطات حتى مطلع الفجر . . . وكثيرون جاؤوا بدافع الفضول والرغبة في رؤ ية ما يدور . . . وما يدور يثير الفضول حقاً . . .

بسطات الباعة الجوالين تكاد تسد الازقة الضيقة حول باحات المسجد ، ويتدفق الناس حولها كالسيل حول صخور ضخمة تعيق مجراه . . . ومن البسطات تشتري البخور والاحجبة والتمائم كما تشتري السمك والخضار والفواكه . . . وتستطيع ايضا ان تضع قرشاً في ثقب آلة وتختار احد الازرار وتضغط عليه ليبتسم خلف الآلة وجه صاحبها ، ولتسقط لك ورقة مطبوع عليها ما هو مكتوب لك بالغيب في مستقبل حياتك (وهو طبعاً أمر مخالف لتعاليم الدين الاسلامي) ويناولك الورقة صاحب (الكومبيوتر المنجم) وهو يقول لك : كل رمضان وانت بخير ! . . .

ويندر ان يمر يوم ما من ايام رمضان دون ان تمر بسرادق من السجاد والبسط اقيم في مكان ما من حي الحسين تتجه اليه قافلة كبيرة من الرجال تحمل الاعلام والرايات ، ولافتات كتب عليها مثلا « السادة اصحاب الطريقة الرفاعية » أو « طريقة السادة الحامدية الشاذلية » . . .

لحقت بأصحاب احدى (الطرق) الى سرادقهم . . . وقفوا في صفين طويلين وبدأ كل منهم يقذف برأسه الى الامام والخلف والجانبين (كما يفعل راقص الجيرك) وهو يردد بصوت هستيري غيبوي مع كل قذفة رأس : « الله الله الله » . . . واتلفت حولي فأجد ان هدر الطاقات الجماعية هذا والاستعراضية الدينية هي أبعد ما تكون عن روح

الاسلام ، الاسلام دين العمل لا الهذيان ، دين الذود عن حياض الوطن لا الهرب من الواجب الى طقوس خارجية لا تنفع احداً . . . لا أبالغ اذا قلت ان حفلة الزار هذه ، وابطالها بعيونهم الجاحظة نصف المغمضة ، وحركاتهم الهستيرية ، ذكرتني بحفلات جرع الماريوانا والـ (الي . اس . دي) في لندن . . . كلاهما تخدير ، وغياب عن الواقع وهرب منه . . . أين الصرخة التي تحذرنا من تحويل ديننا من قوة ضارية في وجه العدو الاثيم الى افيون مخدر يحالف عدونا علينا ؟ . .

سرادق للصحـــو

اسمع سائحة تسأل أخرى بالانكليزية وهي تراقب الزار مثلي : « هل هم تحت تأثير مخدر ما ؟ سمعت ان الحشيش متوافر هنا . . .

وهنا يمتلىء قلبي غماً ، واتساءل : الى اين يمضي شعب ، الشخص (المثالي) فيه هو رجل يقف ساعتين في طابور وهو يهذي ! وأشعر بأن المطلوب هو حل جذري كبير ، بينما تزوغ نظراتي حولي بحثاً عن دواء لهذه الخزعبلات الجماعية . . .

وفي مواجهة هذا السرادق ، « سرادق التخدير » يطالعني « سرادق للصحو » . . . بالضبط سرادق أقامته الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر لبيع الكتب الفكرية والادبية . . . ادخل الى السرادق الذي يتوسط حي الحسين . الزوار كثيرون (اي ان المقبلين على الدواء كثيرون . المهم فتح مزيد من « الصيدليات الفكرية » لابناء الشعب . . . كتب عربية ومترجمة مختلفة . . . رف الكتب الدينية لا يطغى على سواه ولا يمحي تماماً ، وانما يأخذ حجمه الطبيعي) .

الدكتورة سهير القلماوي ، صاحبة هذه الفكرة الناجحة والمشرفة على تنفيذها بحكم عملها كرئيسة مجلس ادارة الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر في ج . ع . م تحكي لي فكرة السرادق : « هذا شبه معرض للكتاب . نقيمه في كل مكان يقام فيه مهرجان ديني او شعبي ، يقام هنا خلال شهر رمضان كما يقام الى جانب مظاهر الاحتفال بمولد الامام السيد البدوي . . . وغيره . . . نسبة البيع مرتفعة . الاقبال كبير على الكتب المترجمة مثل شكسبير مثلا عكس توقعات الكثيرين . . . الشعب المصري يحب ان يقرأ ، ويقبل على القراءات الفكرية والادبية والنقدية لا الدينية فقط . . . » .

ومما لا شك فيه ان الدكتورة سهير القلماوي تقدم جهوداً جبارة في هذا المجال ، وتشارك في حملة التثقيف والتوعية التي (تحدثنا) عنها طويلا و (فعلنا) قليلاً . . . انها تقف في طليعة العاملين على نشر العلم الحديث والتكنولوجيا ، والمنهج العلمي في التفكير

والتخطيط واعداد النفس ، وغير ذلك من الدعوات التي اطلقت في اعقاب هزيمة حزيران . . . ولكن جهودها تظل مثالا نادرا من امثلة العمل المبدع داخل الاطار الرسمي ، وتظل أقرب الى مبادرة فردية منها الى موقف عام شامل لدى الجميع .

ففي احدى الصحف الرسمية التي تتخذ شعاراً لها عبارة (حرية . اشتراكية . ثورة) قرأت في الصفحة الدينية فتوى لشيخ بمناسبة سؤ اله : هل يحق للمرأة ان تقرأ القرآن ؟ والفتوى هي على رأي الشيخ الجليل : صوت المرأة عورة !! . . .

هذا كلام اقرؤه في النصف الثاني من القرن العشرين ، وبعد هزيمة حزيران ! صوت المرأة عورة ! وعلى المجلة عبارة (حرية . اشتراكية . ثورة) ، وفي ذلك تناقض لا حد له . فالمعروف ان نظرة الاشتراكية والماركسية واليسارية الى المرأة تختلف عن هذه النظرة (الجاهلية) المتحجرة ، والمعروف ان ماركس يقيس مدى رقي الشعوب بنظرة هذه الشعوب الى المرأة ومكانتها ! . . والمعروف ان السيدة أم كلثوم التي تحمل أرقى وسام رسمي في ج . ع . م كانت ترتل القرآن . . . فما معنى هذا التناقض ؟

وهل يطالب سماحة الشيخ بسجن السيدة ام كلثوم لانها كشفت (عورتها) الصوتية ! . . . مهزلة . . .

والواقع ان الصفحات الدينية في هذه الصحف (الثورية) مليئة بهذه التناقضات . . . وهذه التناقضات ليست الا انعكاسا لشخصية الفرد العربي المتناقضة . . . اذ ما يزال الفرد العربي فريسة للطلاق بين فكره التقدمي وسلوكه الجاهلي ! . . بين ما يدعيه من تقدمية ويسارية ، وبين ما يتفوه به من آراء رجعية . . . هذا الطلاق بين الفكر والسلوك هو مأساتنا جميعا . . . ومن المذهل ان نجد اكثر اليساريين سياسيا رجعيين في مواقفهم الاجتماعية . . . وان نجد كثيراً من الرجعيين سياسيا تقدميين في سلوكهم الاجتماعي واليومي . . .

وبعد . . .

فان مواقف افراد واعين امثال الدكتورة سهير القلماوي (التي صوتها عورة على رأي سماحة الشيخ) في مواقف اولئك الافراد مبادرات تظل فردية . . . ومما لا شك فيه ان وجودها خير من عدمه . . . بل انها بداية طريق ، واشارة الى الحل الصواب . . .

ولكن تظل الحاجة ماسة الى حل جدي جماعي وسلوك رسمي تقدم عليه المؤسسات الرسمية كافة وبايعاز من المصادر العليا جميعا . . .

المطرب الشعبي ضد المجتمع

ويظل اجمل ما في ليالي رمضان في حي الحسين هو المطرب الشعبي الجماهيري ومطربات السرادق الفقيرة. . . . (٥) صاغ اجرة الدخول مع المشروب ..وتدخل الى سرادق ارضه من التراب و جدرانه من السجاد ، وصوت المطرب الشعبي ينقل الاغاني الصعيدية الشعبية والاسكندرانية وغيرها . . . المطربة الشعبية « الحاجة عزيزة الاسكندرانية وفرقتها » هي التي تصادف ان غنت في السرادق الذي ساقتني قدماي اليه . . . وصوتها يشبه صوت مطربة منبعثا من فونوغراف عتيق واسطوانة من ايام زمان عمرها ٣٠ سنة لكنه صوت جميل وحزين . . .

واخيرا يستولي على المسرح المهرجون . . .

ويجهرون بكل ما نبطن من سخرية . . . يسخرون من كل شيء . . من كل الناس . . . من (فخذ بلان) الى الآلهة . . . مرورا بالتلفزيون والاذاعة وشؤون السياسة . . . وحدهم صمام امان النفس الجياشة بالغضب . . . ومعهم نضحك نضحك حتى تسيل دموعنا . . . ولا ندري هل هي دموع الضحك ام دموع حزن لا نستطيع ان نواجهه او نبوح حتى لانفسنا بأسبابه . . .

القاهرة ١٩/ ١٢/ ٦٩

محاولة اغتيال يوسف ادريس

يوليوس قيصر : احذركم من كاسيوس فهو رجل لا يحب الموسيقى ! . .
شكسبير ـ من مسرحية « يوليوس قيصر » . . .

في نظر شكسبير ، الانسان الذي لا تهتز اعماقه للموسيقى هو رجل عاجز عن الحب ، والرجل العاجز عن الحب رجل خطر ، خطر كرجل دولة وخطر كمواطن ما دام عاجزا عن حب أيٍّ سواه كوطنه وكشعبه . . . فالموسيقى كالفنون كافة وعلى رأسها المسرح والرسم ، لا تكشف عن معدن الانسان فحسب ، وانما تعريه امام ذاته ، وتصقل هذه الذات وتهذبها وتغرس فيها أنبل المشاعر الانسانية ، وتوسع نظرة صاحبها الى الوجود والحياة . .

والمسرح في نظري من ابرز الفنون الجميلة القادرة على (خض) الجماهير، وعلى (صعقهم)وتفجير اعماقهم ، والتعبير عما يتأجج في نفوسهم من غضب كظيم او حزن عميق غامض الجذور .

ولذا كان اهتمامي به كبيرا ، وفي القاهرة بالذات ، انا التي شهدت في رمضان الماضي في القاهرة نهضة مسرحية مذهلة ، اذ كانت مسارح القاهرة تعرض في وقت واحد مسرحية الدكتور رشاد رشدي (بلدي يا بلدي) ومسرحية (علي جناح التبريزي وتابعه قفه) للاستاذ الفريد فرج ومسرحية (دائرة الطباشير القوقازية) لبرخت من اخراج الفنان سعد اردش وغيرها من المسرحيات الناجحة التي خلقت مناخا فكريا رفيع المستوى وجوا للحوار الخصب البناء . .

ويومها كتبت مقالي « نجح المسرح المصري وسقطت السينما » وكنت التهب حماسا للمسرح المصري . . وللعودة اليه ومتابعته . . ولذا ، كان اول ما فعلته هذا العام لحظة وصولي الى القاهرة في رمضان بعد غيبة عام عنها ، هو البحث في زاوية الصحف « اين تذهب هذا المساء » عبثا عن مسرحية جيدة . . كانت هناك اعلانات عن مسرحيات امثال (النحلة والدبور) و (البطة والخنشور) . . ومسرحيات اخرى مشابهة ميلودرامية خفيفة هدفها اضحاك الجمهور بأية وسيلة . اسفت لذلك . . . وسرت في طريق سليمان باشا حيث الكرنفال الرمضاني بعد المغرب وعيناي تتملصان من الزحام ، تزحفان على

الاعلانات الملونة المضاءة بحثا عن مسرحية تستحق الاهتمام او تلفت الانتباه . . عبثا . . واخيرا . . التقت نظراتي بلافتة اعلانات تعلن عن افتتاح مسرحية « المخططين » من تأليف الدكتور يوسف ادريس . . وفرحت . . وهرولت باتجاه المسرح رغم انني كنت اعرف سلفا ان التذاكر لا بد وان تكون قد نفدت . . قررت ان أجرب حظي في السوق السوداء . . وحينما وصلت الى الباب فوجئت بمنظر مؤسف . . كان هنالك زحام ، استطعت ان اميز خلاله عددا من ادباء مصر وصحفييها والعاملين في حقل الفكر بها ، وعلى وجوههم حزن عميق كأنهم عادوا للتو من جنازة طفل غال ، ثم اكتشفت انهم قد عادوا فعلا للتو من جنازة طفل غال ، اذ تم دفن المسرحية قبل ان تولد بساعات . . بالضبط ، اغتيالها . . اغتالها (رقيب) . . وكانت تسري بين الجميع همهمة اسى مكتومة وتفوح رائحة الاثارة والخشية والقلق . . كانوا تماما كجمهور شهد للتو جريمة علنية وما تزال جثة القتيل التي تنزف دما حارا وبغزارة ، مكومة في زاوية ما من زوايا الشارع . . ودرت حول المسرح ابحث عبثا عن القتيل فلم اجده . . لكنني شاهدت الدكتور يوسف ادريس يسير مترنحا كمن اغمد في صدره خنجر غير مرئي ! .

لا يا رقيب ! . . .

لا . لن يتم اغتيال يوسف ادريس و (عصابته) من المبدعين والمفكرين وبهذه البساطة ! . . لا . ان تنفق مؤسسة المسرح حوالى ٣٥٠٠ جنيه على اخراج المسرحية ، وتذهب كلها هدرا،وان يعمل المخرج الجاد سعد اردش ثلاثة اشهر ونصف مع فريق كبير من المع الممثلين ، ثم يذهب ذلك كله هدرا امر لا يحق لنا المرور به على عجل . . ولا بد لنا كمواطنين عرب ادمنوا المسرح المصري واحبوه وعايشوا نهضته الرائدة في عهد الثورة ، لا بد لنا من كلمة نقولها في هذا المجال . . لا بد من صرخة : لا . . نطلقها بأعلى حناجر اقلامنا . . وقبل ان اصرخ لا على المبدأ ، مبدأ الرقابة على النتاج الفني اصلا ، لا بد من كلمة تقال حول هذه المسرحية بالذات ، التي ذهبت جهود العاملين فيها هدرا . . وذهبت كلها بالاضافة الى ٣٥٠٠ جنيه من اموال الدولة ضحية لخطأ احد اجهزة الدولة ربما المستحدثة . . لقد تقصيت وبحثت في امر هذه المسرحية ، ليس لان الدكتور يوسف ادريس احد كبار المسرحيين العرب وأحد اعمدة المسرح العربي الطليعي هو كاتبها فحسب ، وليس لان سعد اردش هو مخرجها . .

ولكن . لانه من حيث المبدأ كان لا مفر من ان اسأل واتقصى عما يمكن ان يبرر هدر طاقات خمسين فنانا بين ممثل وفنان وديكور واحراق كوم من الاوراق النقدية وقدره ٣٥٠٠

جنيه واتلافه مع اعصابهم واعصاب كاتبها ومخرجها . . وعن الجهاز الذي يمكن ان يرتكب مثل هذه الخطيئة . . ومن وكيف ولماذا ؟ . .

صديقة لبنانية التقيت بها على الباب في جنازة (المخططين) الصلمتة قالت لي : المأساة انه سبق للرقابة الفنيةان وافقت على عرض هذه المسرحية منذ اشهر ، وانطلاقا من هذه الموافقة بدأت مؤسسة المسرح (الرسمية التابعة للدولة) بالاستعداد لتقديمها مع الموسم الجديد ، وانه انطلاقا من هذا ايضا تم انفاق ٣٥٠٠ الى ٤٠٠٠ جنيه كأجور ممثلين ونفقات اخراج ، وسار كل شيء في طريقه المرسوم له حتى كان مساء حزين قبل افتتاح المسرحية بيومين ، حين تدخل رقيب ليمارس عمله ، وقام هذا الرقيب بمنع المسرحية التي بلغت النضج وتقمصت شخصياتها نفوس الممثلين ولم يبق الا ان يتحركوا احياء ينطقون على المسرح . . ولكن . . والسؤال هنا : هل سلطة الرقيب الجديد (رجعية) المفعول ؟ بعبارة اخرى هل سلطة الرقيب تشمل ما كانت قد تمت الموافقة عليه من قبل ؟! . . وان لا ، فكيف يحق له منع مسرحية هي بحكم المنتهية وبموافقة رسمية من السلطات التي كانت مسؤولة يومئذ ؟ وان تكن، سلطة الرقيب رجعية المفعول ، فهل يصح تقديم يوسف ادريس مثلا الى المحاكمة لان اجتهاد الرقيب الجديد يرى انها تستحق المنع ولم تمر من خرم ابرة مقاييس الرقيب الفكرية ؟ . . هذه الازدواجية في الصلاحية لا يجوز ان يذهب الفنان المبدع ضحية لها . . ويجب ان لا نسى انه من الممكن تعيين رقيب كل يوم بمرسوم جمهوري لكنّه من المستحيل (تعيين) فنان مبدع كل يوم بمرسوم جمهوري . . . ويوسف ادريس كأي مبدع آخر هو ثروة قومية تفخر به العروبة قبل ان يفخر به قطره الشقيق مصر ، ولذا فان الصدام بين الفنان والرقيب امر خطير لا يجوز الاستهانة به ، ولا يجوز تسليم الرقيب صلاحية تدمير اعصاب كائن حساس وضفيرة من الاعصاب اسمها فنان ، ببساطة ، ودون الوقوف طويلا عند مثل هذه البادرة . .

لقد روت لي صديقتي اللبنانية ان وجه الدكتور يوسف ادريس ليلة منع المسرحية (اعدامها) ظل جامدا كقناع ، صلبا ولكن كالقشرة الارضية لبركان حي قد ينفجر في اية لحظة . . اما بقية الفنانين من اعضاء الفرقة فقد واجهوا الموقف في البداية بصلابة مثل صلابته ، بل انهم رفضوا ان يصدقوا ان القرار قد صدق حقا ، وان حكم الاعدام قد تقرر نهائيا على شخصياتهم (المتقمصة) ، وانهم قرروا متابعة (البروفه) ، مثلوا المسرحية بلا جمهور ، وفي البداية كانت اصواتهم قوية وشرسة ، ثم اخذت تخفت وتخفت وتتحشرج بالدموع كأصوات حنجرة يتم خنق انفاسها ثم انفجر الجميع في بكاء موجع

اليم . . .

تلك كانت المسرحية التي اختارها الرقيب بدلا من (المخططين) والتي لا يحق لنا اسدال الستار عليها ببساطة كما فعل الدكتور يوسف الذي ظل صامتا ، والذي شاهدته ينسل من المسرح ، بوجهه القناع الصلد ، مترنحا كرجل مطعون بخنجر غير مرئي استقر في احشائه . .

وبعد ، لا بد من التكرار انه من الخطأ معالجة المسرح على انه اداة اعلام او نشرة اخبار ، فالمسرح المصري الحالي هو ثروة قومية لمصر تتطلع اليه عيون العرب في كل قطر باعجاب ، وتغبط تطوره الكبير خلال سنوات الثورة المصرية الاخيرة . . ومن هنا كان منع مسرحية يوسف ادريس مفاجأة ان لم أقل بادرة خطيرة . . واني واثقة من ان هذا الخطأ ، الناتج عن (الحول الرقابي) أمر سيتم تلافيه . . . وستعرض المسرحية . .

ثم اقترح عليّ بعض الاصدقاء الذهاب الى قرية أريمون بمحافظة كفر الشيخ لمشاهدة مسرحية (الهلافيت) تأليف محمود دياب ،واخراج احمد عبد الهاوي ، والتي تعتبر ثورة في الشكل والمضون . . .

وقد وجد مخرج المسرحية احمد عبد الهادي في هذا النص فرصة ذهبية لتجربة ما يسمونه الشكل المسرحي القومي . . وقرر ان يقدمها في ساحة قرية اريمون متخذا من البيوت وابراج الحمام كواليس وديكورات . . ومن المتفرجين الحقيقيين عنصرا فنيا يمثلون أهل القرية في المسرحية .

وكان هدف التجربة النهائي ألا يشعر المتفرجون انهم متفرجون . . بل أن يندمجوا رويدا رويدا حتى يحسوا انفسهم طرفا في الصراع الدائر على الخشبة التي لم تكن موجودة فقد حلت محلها مصطبة عالية نوعا عن الساحة التي يجلس عليها المتفرجون متربعين .

لكنني لم اذهب اخيرا الى اريمون ، وانما ذهبت الى محافظة اخرى ومكان آخر سعيا وراء مسرحية سبق لي ان شهدتها !! . . .

انها مسرحية « بلدي يا بلدي » التي يعاد عرضها خلال شهر رمضان والشهر الذي سبقه في الارياف . . وتتنقل الفرقة لتنقل الى الجماهير رؤيا مؤلفها رشاد رشدي ونظرته الجديدة الى مفهوم الدين والعبادة وكيف تصبح شعائر الدين اذا فرغت من مضمونها مجرد تأدية تقليدية لمواقف محنطة مكرسة دون تفكير ولا شعور . . وكيف ترغم الجماهير الغبية حاكمها على ان يكون ديكتاتورا وممثلا لله على الارض، وهي كي تستريح من عناء المسؤولية تفضل ان تكون علاقتها بالحاكم علاقة طاعة بدلا من علاقة تفاهم ومشاركة .

عدن ٢/ ١/ ٧٠

بلد الاساطير والمعاصرة

في البداية ، ظننتني في عالم آخر تماما .

فقد غادرت بيروت وليل خريفي بارد يحتل مطارها ، ورياح الشتاء المقبل تقرع نوافذ طائراتها . . .

وحين هبطت في عدن مع الفجر ، كان الصيف المشرق في انتظاري على سلم الطائرة . وكانت هنالك ايضا ابتسامة مشرقة مرحبة لوجه عربي شاب هو الاستاذ عبد الله الخامري المستشار في رئاسة الجمهورية . وحين رافقته من الطائرة الى مبنى المطار لفت نظري امام المبنى مشهد لم ار مثله من قبل في اي من المطارات الاوروبية والعربية التي سبقت لي زيارتها . . . كانت هنالك حديقة صغيرة غناء شجيراتها غامقة الخضرة وازهارها الاستوائية غزيرة الجمال حارة الالوان ، وقد تناثرت بينها طاولات ومقاعد لان هذه الحديقة ليست سوى مقهى المطار . . (ومقاهي الترانزيت في المطارات هي عادة مكان كئيب . . في احدى الردهات الداخلية ، يحتسي المسافرون الضباب والبرد والغربة مع قهوة الصباح) . . . أما هنا فالشتاء صيف دائم . . وانفاس الفجر الحارة توحي بأنني في عالم آخر . . .

وحتى بعد ان غادرت المطار وسارت بنا سيارة الاخ عبد الله في الطريق الى عدن ظللت احس انني في عالم آخر . . .

فقد كانت الجبال السوداء ، بركانية ، وحشية الجمال والصخور ، ورياح الفجر البحرية الدافئة التي تهب منها ومن البحر خلفها تحمل رائحة خاصة وايحاءات عجيبة . . . تذكرني بأنني في ارض الاساطير والبخور والعاج والذهب والحرير وبلقيس وسد مأرب و . . . وقبل ان اتحدث عن الطقس وعن هذا كله سبقني الاخ عبد الله فحدثني عن . . . الثورة ! . . . وهنا تأكدت اني لست في عالم آخر . . . وانني في ارض عربية اخرى ثائرة . . . وان اختلاف لون جلد الجبال والتربة وانفاس الطقس ، لا يبدلان شيئا من الحقيقة الواحدة التي تدور داخل جسد كل قطر عربي : الثورة . . .

والسيارة تمضي بنا ، اشار الى صف من الابنية البيضاء النظيفة ذات الطراز

الانكليزي جدا في البناء وقال : كانوا يقطنون فيها ، ويتركون لابناء الشعب احقر الاكواخ ، شأنهم في ذلك شأن اي مستعمر . .(وها قد رحلوا اليوم وخلفوها لكم ببياضها الناصع لتسكنوها انتم) . . . وأضاف بحزن صادق : لدينا ازمة سكان لا ازمة سكن ! أجل ! ربما كنا البلد العربي الوحيد الذي يعاني من هذه الازمة !

مررنا بشارع المعلى في قلب مدينة عدن . . الابنية فخمة ولكن بطانة الشارع او لنقل واجهته الاخرى هي حي فقير من اكواخ التنك والخشب . . قال : وهنا ايضا . . . كان الشارع الرئيسي الفخم لهم ، والاكواخ التي لا تبعد عنه امتارا لأبناء شعبنا . هذه صورة من صور الاستعمار يا سيدتي . . وستشاهدين المزيد . . .

ولم احدثه عن الصور الكثيرة المشابهة والمتشابهة التي خلفها الاستعمار في قطري العربي وفي كل قطر عربي ، وانما اكتفيت بالصمت وغمرني احساس غامض بأنني ـ رغم اختلاف جسد الجبال هنا ولون لحم التربة ـ في دمشق ، في بيروت ، في القاهرة ، في أية عاصمة عربية قاست من الاستعمار طويلا . . . وهل هنالك منا من لم يعان ؟ . . . .

الاسبوع المختزل

اسبوع في عدن . . . مع كل يوم كنت اكتشف شيئاً جديداً ، وكنت أكتشف في الوقت ذاته ان هنالك الكثير الذي ما زلت اجهله . . وان ما اجهله هو اكثر بكثير مما اكتشفه . . .

اسبوع ، تجولت خلاله خارج عدن الى ريف اليمن الجنوبية الشعبية . . . ذهبت الى أبين والى جعار ، والى زنجبار ، وتحدثت الى رفاق ثوار فوق تلال حصن خنفر وتحدثت الى الفلاحين والبسطاء والاطفال وحتى الصخور والآثار . . . وكنت كلما فهمت شيئا ادركت كم هنالك ما اجهله . . . وكنت كلما قال لي صديق (مرحبا) ، ومرحبا هناك معناها (اجل واتفقنا ، وحاضر ، وأهلا ووداعا) ، كلما قالها صديق احسها تحفر في اعماقي وشما من جمر محبة ، وربما بعضا من حزن غامض لانني اعرف انني لن املك الا ان اقول مرحبا يا عدن ، ووداعا يا عدن ، وسأقولها قبل ان اعيش في عدن ما فيه الكفاية ليفسر قلمي (منطقيا) مجموعة من الاعتقادات والانطباعات التي خرجت بها عن اليمن الجنوبية الشعبية في فترة قصيرة كهذه . . . انطباعات قد تبدو لذلك (عاطفية) المنشأ ، لكنني آمنت دوما بأن (الحدس) على غموضه هو اقدر احيانا من العقل على التقاط الحقيقة . . . و (أنتيناته) المشرعة قد تكون مرهفة اكثر من عدادات اي كومبيوتر . . . وعلى أية حال ، انقل اليكم انطباعاتي التي ارتسمت على شاشة حدسي ، ومعها اعترافي

بأنني حرصت على الموضوعية رغم انجذابي عاطفيا لذلك القطر العربي الشقيق ، اليمن ، الجمرة الملتهبة ثورة وحياة وتمردا . . .

المرأة العربية في القرن الواحد والعشرين

اعترف بأن اول امرأة شاهدتها في عدن اثارت خوفي ، ثم دهشتي .

كانت شيئا ملفوفا بملاءة سوداء ، يتحرك على الرصيف مثل ملايين الكائنات الانثوية المهدورة الطاقات على رصيف عالمنا العربي الممتد من المحيط الى الخليج . . . وحينما ادارت وجهها الي شعرت بالخوف . . . فعلى وجهها منديل اسود شبه شفاف ، لكنه ليس اسود فقط وانما هو مرقط ببعض الالوان الحمراء والزرقاء والخضراء ، وفيه رسوم وبقع عجيبة يبدو خلفها وجه المرأة كما لو كان مشوها . . هذا بالنسبة لمن يراه للمرة الاولى . . . هذا الحجاب (المريع) لم يعد يخيفني في المرات التالية ، وانما صار يذكرني بانكلترا . . ربما لأن رسومه الملونة هي بطريقة ما رسوم (هيبية) ، وربما لأن الحجاب بحد ذاته صورة من صور التخلف ، والفضل الاول في التخلف يعود دوما للمستعمر . . استعمرت هذه الارض العربية ما يقارب قرنا ونصف قرن تركت فيه من بصمات التخلف ما تركت ، كما حافظت على المؤسسات التي وجدتها متخلفة وحرصت عليها ضد التطور . . .

حقدي هذا على الملاية اللف التي توحي لي بأن المرأة داخلها ما تزال داخل شرنقة القرن السابع عشر (يسمون الملاية اللف هناك الدرع) ، هذا الحقد تضاءل حينما سمعت بما (للدرع) من اياد بيضاء على الثورة والثوار في اليمن . . . فقد سألت الاخت عايدة يافعي (من اعضاء اتحاد نساء اليمن) ، لماذا ترتدي والاخوات (الدرع) رغم انهن غير محجبات وحاسرات الرأس ، وهنا روت لي والاخت فوزية محمد جعفر حكاية الملاية اللف حين تصير درعا حقا . . . (نحن نعتبر عام ١٩٥٤ نقطة تحول هامة في حياة المرأة لدينا فقد خرجت ذلك العام في مظاهرة عنيفة تعبيرا لرفضها المطلق لواقع بلدها المتخلف الرازح تحت كابوس الوجود الانجلوسلاطيني . . . منذ ذلك اليوم لم تعد المرأة في الملاية اللف بالضرورة حزمة من التفاهة واللامبالاة وانما احيانا حزمة من الاسلحة والمتفجرات والمنشورات . . بالضبط ، كنا نقوم بتهريب الاسلحة للثوار وبتهريب المناشير وغيرها تحت الملاءة اللف التي لا تثير ريبة العسكري الانكليزي . . . ثم كان لا بد وان يقبض على بعضنا . . . وغالبا ما كان المستعمر يطلق سراحنا كي لا يبرز دور المرأة في تحرير بلادها وكي لا تسري العدوى بين بقية النساء . .) . . .

- ناريمان وانيسة اعتقلتا ايضا . . . وانت يا عايدة ؟ . .

ـ انا لم اعتقل . كنت احسن حظا منهن لسوء حظي!!. ناريمان خليفة.

أنيسة الصايغ . فوزية محمد جعفر . عايدة يافعي . أربع صبايا في مقتبل العمر ، جميلات ومثقفات ، وليس بينهن من لم تعتقل لمناسبة او لأخرى . . كل منهن تمثل نموذجا حيا . . . للنشاط النسائي ، وهو هنا ليس (نسائيا) بمعنى التخلف عن ركب (النشاط الرجالي) كما هي الحال في اغلب الاقطار العربية الاخرى . . . ان من يتحدث اليهن ويسمع الدور الذي لعبنه سواء في استقلال بلادهن او في تطوير الاحداث التي قادت الى حركة يونيو ١٩٦٩ يشعر بأنه أمام نموذج متطور من النماذج الثورية :

١ ـ قام الاتحاد بتدريب مجموعات من اعضائه على حمل الاسلحة وكيفيةَ استعمالها كما تم تخريج الدفعة الاولى . . . وكما يقول التقرير الاخير لاتحاد نساء اليمن : يقوم الاتحاد بتدريب مجموعات من اعضائه على حمل الاسلحة وكيفية استعمالها ايمانا منا بأن المرأة يجب ان تناضل جنبا الى جنب مع الرجل ضد كل الاعداء الطبقيين لثورتنا الشعبية مستوحية هذا الشعور من المقولة الثورية : النضال بيد ، والبناء بيد اخرى .

٢ ـ استطاع الاتحاد ان يجند كل اعضائه في خدمة محو الامية .

٣ ـ عمل الاتحاد على توعية المرأة فكريا من خلال الندوات والمحاضرات لاكسابها نوعا جديدا في اسلوب التفكير والعمل .

اما على الصعيد الخارجي :

١ ـ دخول الاتحاد كعضو رسمي في الاتحاد النسائي العربي . .

٢ ـ دخول الاتحاد في الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي .

٣ ـ استطاع الاتحاد عبر ممارسته اليومية ان ينقل العمل النسوي من المدينة الى الريف من خلال فتح فروع له في المحافظات . . .

والواقع ان كل ما في التقرير منبثق ومنسجم مع روح ما جاء في الميثاق الوطني للجبهة القومية ومع قرارات المؤتمر الرابع وخطة العمل الوطني الديمقراطي الواحد . . . ولكن ليس في التقرير ما ينسجم وروح ما عرفت به بعض (النشاطات النسائية العربية) من حفلات تنم عن الميول الاستعراضية وتناحر على سرقة الاضواء والكاميرا وتحويل (العمل النسائي) الى كرنفال نسائي لاستعراض آخر فستان وآخر تسريحة وآخر فضيحة .

هذه شهادة حق في نشاط اتحاد نسائي عربي مثالي ، اعضاؤه يعشن في القرن الواحد والعشرين حضاريا ، وهن بذلك الامل الاول في جر بقية نساء الشعب من مواقعهن في القرن السابع عشر . . . ان نساء اليمن المواطنات الواعيات هن نصف الوقود الانساني

الذي يلهب جمرة اليمن .

موسيقى عربية بلا نواح

لا ادري لماذا يذكرني الحديث عن المرأة اليمنية الجنوبية بالاستطراد حول موسيقاهم . .

ربما لان الموسيقى والاغاني المحلية التي سمعتها هناك كانت بطريقة ما كالحركة النسائية الفتية : عربية اصيلة خالية من النواح ، فيها تأثيرات افريقية تجعلها مليئة بالحياة والحركة . .

وربما لان الرفيقات عايدة وفوزية وانيسة كن اللواتي رافقنني الى حفل اقيم في الملعب البلدي في حي كريتر لاسمع للمرة الاولى موسيقاهم واغانيهم الحديثة والفولكورية . . وقد احببت ما سمعت وطربت له ، ليس لان الليل كان دافئا وملمس الرمل تحت اقدامي على ارض الملعب كان طريا وموحيا ، وكلما هبت الريح البحرية ، المعطرة بالملوحة ورائحة ازهار غامضة ، احسستني اركض في شواطىء مقمرة عتيقة عرفت امجاد صيادي اللؤلؤ والحقيقة في قاع بحر الوجود ، وما تزال اصداء مجاذيفهم واغانيهم تتماوج بين الصخور . . .

ليس لاي من هذه الايحاءات الجانبية لتلك الليلة المسحورة ، وليس لكرم ضيافة اهل الحفل ، ولكن لما دار في الحفل بالذات .

غنى (عبد الحليم حافظ) اليمن ، المطرب احمد قاسم ليلتها . . . وقد اظلمه حينما اسميه عبد الحليم حافظ اليمن لان اغنيته كانت خالية من (النواح) الذي تتميز به الاغنية (الحافظية) بوجه عام . . . كان فيها حيوية افريقية ، وقرعات طبل انساني البداءة . . . وقد وجدت الموسيقى اليمنية من اقرب الالحان العربية الى الاذن العالمية ليس لخلوها من التطويل والنواح فحسب وانما لحيويتها وسرعة حركتها مع غناها بعنصر (الميلودي) . . . وربما لان الموسيقى العالمية تستلهم الافريقية ايضا بايقاعها وحركتها . . .

وغنى بعد (ابن الجنوب) احمد قاسم ، المطرب احمد عبده زيدي وكان اسم اغنيته « حبيب العمر » ، واظن ان لفريد الاطرش اغنية بهذا الاسم ، مما فرض علي المقارنة بينهما ، وكانت « حبيب العمر » اليمنية خالية تماما من الذل والنواح متوترة ونزقة وأصيلة كنزف شريان قطع للتو ، ونبض شفة جرحه .

لفت نظري ان(الكورس) في الاغنية الوطنية هو دائما من الاطفال ، وهو ابتكار جميل له ما يبرره في صلب موضوع الاغنية الوطنية لانه ليس كالاطفال نقاء وصفاء وبراءة

وبالتالي جدارة بالتغني بالوطن .

واليمن بركان يغلي بالثورة ، كأن طبيعة الشعب الثائرة هي امتداد للجبال البركانية الوحشية الجبال ، والثورة هي المحرك الاساسي لحياتهم ، وحتى اذا غنوا فهم يغنون بها ولها ومن اجلها . . . والحفل الذي حضرته لم يكن المقصود منه (التطريب) فحسب ، ولا شرب (النراجيل) وابخرة الدخان مع ابخرة الآهات ، وانما كان حفلا اقامته اللجنة المركزية لمياه الشرب وذلك من اجل انقاذ ٣٠٠ الف مواطن من عنائهم في الحصول على مياه للشرب . . . وقد افتتح الحفل بمقطع مناسب من خطاب مسجل للرئيس جمال عبد الناصر مع اخراج موسيقي جيد !

الأطفال عراة ، والسيارات مكسوة !

ان اية جولة في ريف اليمن الجنوبي مهما قصرت تؤكد حقيقة واحدة : ضرورة الثورة ، بل وحتميتها للخروج بجماهير اليمن من وهاد الفقر والتخلف .

الاطفال في الريف شبه عراة . . . والسيارة التي حلت محل (الدابة) ما تزال في نظر الناس (دابة) وان كانت (دابة من حديد اسرع بكثير) هذا كل ما في الامر ، وهي لا تمثل رمزا حضاريا ولا محرضا ولا أي شيء آخر اكثر من (دابة حديدية) بدليل ان السرج الذي كان يكسو الدابة انتقل ليكسو السيارة وليغطي ابوابها بألوانه المزركشة واقمشته المختلفة ! . . .

ومما لا شك فيه ان الاستعمار البريطاني لعدن بذل كل ما في وسعه لاستغلال امكاناتها دون ان يكلف نفسه عناء حتى شق طريق واحدة تصل بينها وبين بقية المحافظات . . . وهكذا كان علي كي اذهب الى أبين وزنجبار ان إركب سيارة (لاندروفر) تمضي بي تحت رحمة المد والجزر في طريق موازية لشاطىء البحر ، وهي ليست من الطريق في شيء الا بأن السيارات تسير عليها في مغامرة مستديمة على رمل الشاطىء وبين كثبانه . . .

وفي فرع المقر العام لتنظيم الجبهة القومية في أبين التقيت بمجموعة من الرفاق الجبليين الاشداء ، ابناء جبل يافع ، وجلسنا تحيط بنا صور الثوريين العالميين امثال كاسترو وغيفارا وماوتسي تونغ نتحدث . . وكان في المقر عدد من المقاعد المتواضعة و (كنبة) واحدة ضخمة من (الستيل) لفتت نظري لانها بدت نافرة وفي غير موضعها ، مثل رموش مستعارة على وجه راهبة زاهدة ، وسألت عن سر مقعد الستيل الفخم هذا والذي تتربع فوقه صورة لماوتسي تونغ ، وعلمت انه كان كرسي احد السلاطين .

وحدثوني طويلا عن حكاية الصراع الداخلي الذي لم يفسح مجالا للتفرغ الى قضايا هامة تتطلب حلولا جذرية كالقضايا الـزراعية . . . وكيف ان قضية الخـوف من نزعـة الرهبنة الكلاسيكية في الحكم هي المبعث الاول للصراع الـداخلي منـذ الاستقـلال . . . وكيف ان الارياف وحضرموت ظلت خاضعة للقيادات الشابة ، وكيف ان قيادات عدن قبل التبديل (يونيو ١٩٦٩) كانت خالية الا من النوايا الطيبة . . وان تبديل الاطارات الفوقية كان ضرورة لا مفر منها . .

وسألتهم عن أبين ، التي بدت لي بعد رحلة الطريق الشاقة بين الرمال مثل واحة غناء في قلب الربع الخالي . . وروى لي الشبان كيف كانت ثلاثة ارباع هذه المنطقة ملكا لاقل من ثلاثة اشخاص . وكيف كانـت قرى بأكملهـا وبـكل ما تحـويه ملـكا خاصـا للسلاطين .

ـ وهل تبدلت حال الفـلاح الفقـير بعـد قانـون الاصـلاح الـذي صدر عقـب الاستقلال ؟

ـ لم يتبدل شيء في حال الفلاح المسكين . كان يعمل من قبل لمؤسسة السلطان الفردية ، وصار اليوم يعمل لمؤسسة الدولة ولكن ضمن الشروط البائسة نفسها . . .

كانت العلاقة غير عادلة بين السلطان والفلاح ولكن العلاقة ما تزال غير عادلة بين الدولة والفلاح ، وكان لا بد من اصلاح قانون الاصلاح الزراعي بسرعة . وقال لي احد الرفاق بحزن : الفقير هنا هو من يملك قطعة ارض !! (وذلك للافتقار الى التعاونيات الزراعية والى امكانيات تسويق الانتاج والى الري) . . . أية مهزلة ان تشكو اول بلاد في العالم اتقنت التحكم في مياه الفيضانات والري من الافتقار الى وسائل الري ؟ . . أية مأساة ان تشكو وديان سد مأرب من الافتقار الى الماء وبعد ما ينوف على الألفي عام منذ اقيم سد مأرب للمرة الاولى ؟ . . .

وغادرت الرفاق بعد ان درت معهم في الريف بقدر ما يسمح وقتي الضيق ، وتركتهم يذهبون الى بيوتهم يتابعون شجارهم مع اسرهم لانهم لا يصومون رمضان . . . تركت الشبان يجمعون انفسهم لحضور محاضرة مهندس شاب عاد مؤخرا من الخارج هو بو بكر المعلم ، وودعت الرفاق جاعم وعثمان وعبد الباري واحمد وكان حديث الوداع بعد عودتنا من قرية المخزن وتخوم زنجبار وقرية الحصن وحصن خنفر طويلا وكثيفا . . . حدثوني عن المرأة في الريف (لا تعرف الحجاب ولا الكسل . ان المرأة في تعز تعمل طوال النهار ثم تهبط لتبيع منتوجاتها الزراعية في المدينة ، وتعود من المدينة الى قريتها ليلا) . .

رقصة الشرح

ومررنا بلوحة اعلانات . . . ولاحظت ان لوحات الاعلان في اليمن هي بحد ذاتها لوحات فنية فولكلورية بألوانها وخطوطها وتشبه الى حد بعيد معارض رسوم الاطفال . . . وسألت : ماذا عن فنونكم المحلية ؟ صنع شباك الصيد مثلا . . . وحياكة الملابس ؟ . . .

- كلها تم الاجهاز عليها بفضل اهمال المستعمر لها ! . .
- ورقصاتكم الفولكلورية . .
- لدينا رقصة الشرح (أي الانشراح) ، ورقصة اللوعة ، (وهي الدبكة اليافعية) ، ورقصة السمرا . . . والطبل دوما ركن اساسي في رقصاتنا كما في افريقيا . . .

وعدت الى عدن من جبال يافع البركانية الخامدة وانا قانعة بأن البركان الذي خمد في احشاء الارض قد استعر في نفوس ابناء الارض . . . وان الثورة في اليمن ليست موضة ولا احتراف ثوار مقاهٍ واغا هي التعبير الحي عن وجود لا يكون الا بالثورة . . . ومنذ آلاف الاعوام كانت اليمن ثائرة على التخلف ، وكانت لها حضارة انسانية مذهلة ما تزال تروى الاساطير عنها ، وما تزال آثارها ماثلة . . .

الماضي العظيم

الاخ عوض عبد الله الجعيدي مساعد ضابط الآثار تكرم بمرافقتي الى متاحف عدن ، وروى لي الكثير عن آثار اليمن واطلعني على صورها ومواقعها حتى احسست اليمن بأكملها متحفا رائعا غير مسور ولم يكشف التراب بعد عن أروع آثار امجاده . . . حدثني عن معبد القمر في حياضة ، وعن حصن الغراب بينما نحن نطوف اركان متحف كريتر . . . متحف صغير على بابه مدفع عتيق نائم وقد نام فوقه حارس عجوز بدا لي كأنه والمدفع الاثري من جيل واحد ، وكأنهما صمتا معا وناما منذ زمن طويل . . . متحف كريتر صغير . . . انه قاعة واحدة كبيرة الحقت بها قاعتان صغيرتان جدا . انه فقير المظهر غني المضمون وفيه آثار مثيرة رائعة هي ما تبقى لاهل البلد بعد ان غرف الانكليز منها ما غرفوا ونقلوا ما شاؤوا الى متاحفهم . . . وبعد متحف كريتر رافقني الى متحف التواهي . . . وكان المتحف فارغا من الزوار - الا من حارسه محمد حسين - وكان مليئا بالتحف الرائعة الجيدة العرض ، وكان واضحا ان المتحف قد بني حديثا ، وانه يصلح نواة لمتحف رائع شكلا ومضمونا . . . وبعد جولة بين التماثيل القديمة والكتابات الاثرية والتحف الفنية الرائعة قررت ان موضوع الآثار يستحق وحده بحثا كاملا ويستحق شهرا كاملا من التجوال في اليمن . . . وكنت في يومي الخامس من اسبوعي اليتيم في عدن . . . لذا

ودعت الاخ عوض عبد الله الجعيدي الذي استطاع ان يثير فضولي ، واستطاع ان يجعلني حزينة وآسفة لانني لم اكن قادرة على اكتشاف المزيد من الثروة الاثرية الضائعة في الدوامة الكبيرة التي تعصف باليمن كله . . .

فندق روك . . نكتة انكليزية

ليلتي الاخيرة في عدن دعاني احد الاصدقاء للسهر في روف فندق روك ، اكبر فنادق عدن . . . والليل في عدن انشودة مسحورة آسرة ؛ و (الروف) يطل على الميناء المشلول الذي نامت فيه السفن القليلة الباقية منذ مأساة قناة السويس بحزن . . . وحول الميناء بدت عدن حفنة من الاضواء الملونة المرشوشة بين الجبال وخلف الخلجان . . . كانت تبدو من الجدار الزجاجي جميلة وبريئة وثائرة وغاضبة وتلفت حولي ، وفوجئت بدخول اسرة انكليزية جدا . . . مظهرا وشكلا وسلوكا . . . وكانت الاوركسترا تعزف بحماس مصطنع ، وديكور الجدران اقنعة ذهبية مختلفة معلقة . . . واحسست بحاجة لان انهض واصرخ : سادتي سقطت الاقنعة فغيروا الديكور . . وظلت الاسرة الانكليزية مصرة على تناول وجبتها بكامل اقنعتها وتقاليدها ، وظللت أتأملها دونما محبة ، ان اسبوعا في عدن غنيا بمشاهدة مجموعات من مخلفات الاستعمار البريطاني يكفي ليصاب الانسان بحساسية خاصة ضد (الانكليز) لفترة لا بأس بها . . . وبهذه (الحساسية) كنت اتأمل الاسرة البريطانية السعيدة تتناول عشاءها واتذكر اسرة فقيرة شاهدتها في الريف تنام دونما عشاء . . . وكان اطفالها يحملون الى كوخهم حزم الخشب الثقيلة بدلا من دمى العيد . . .

ثم دخلت الى المكان مجموعة من الشبيبة العدنية ، بالثياب المحلية والقمصان السبور وخيل الي ان الخناجر الحادة تتدلى من تنانيرهم المحلية وجلسوا كومة واحدة من الصلابة حجزت عن عيني نهائيا مشهد الأسرة الانكليزية الضحية : ضحية حساسيتي وحقدي ! . . واحسست بأن الاقنعة الذهبية على الجدران تتساقط كالاسنان العتيقة . . وان موسيقى الاوركسترا تكف عن موسيقاها الهجينة ، وان أيدياً غامضة ترمي بآلاتها الموسيقية الى مياه خليج عدن . . . وان الجرسونات يخلعون ثيابهم المنشاة ليرتدوا ازياءهم المحلية والبسة الميدان . وان الشمس تطلع . . . وان سواعد قوية تحرك السفن النائمة في الخليج . . . وان اغنية بركانية صاخبة تتعالى من ارجاء جمرات الصخور والرمال والشواطىء الملتهبة وان السفن في الخليج تتحرك بجنون ذاهبة آتية . . . وان اليمن ، قد استيقظت كلها حقا على قرع طبول الثورة . . .

القاهرة ١٩/ ٢/ ٧١

قراءات في عيون القاهرة من خلال مسرحيتين !

واعود الى القاهرة . . .

القاهرة المتحفزة للحرب كرمح افريقي . . . الجائعة للسلام كعيون الاطفال . . . القاهرة المتوترة كقرعات طبل بدائي عبر المتاريس . . . البريئة كذكرى عرس قروي في الصعيد . . . الغامضة كالشفاه المطبقة لتماثيلها الفرعونية . . . الصريحة كشراع ابيض في صحو النيل . . . القاهرة الرقيقة كحد شفرة ، والقاطعة كحد شفرة . . .

القاهرة الغالية التي لا تشبهها في تناقضاتها واصالتها وخصبها الانساني مدينة في عالمنا العربي . . .

وامامي اربعة ايام فقط اقضيها في مدينة الاربعة ملايين انسان ، اسافر بعدها الى نسيان ما . . . فمن اين ابدأ؟ . . . وماذا ارى وكل ما فيها ينادي ؟ وماذا افعل وانا الشرهة المصرة على رؤية كل شيء (لـو استطعـت ، لتسللـت خلف جدران بيوتهـا جدارا جدارا . . . ولعشت مع كل ما يدور في كل زقاق فيها . . . لو . . .) ولكن . . . اربعة ايام فقط . . . فكيف اختزل القاهرة كلها لاعيشها في اربعة ايام فقط ؟ . . . وقررت :

المسرح هو الحل الوحيد . . .

انه ، وخلال ساعات فقط ، وعلى خشبة محدودة صغيرة ، يستطيع ان يحمـل الي مناخ القاهرة النفسي والفكري ، ويطوف بي عوالمها الانسانية دون ان اغادر مقعدي . . .

ولـدي يـاسيـن

هنالك عشر مسرحيات تعرض الان على مسارح القاهرة ونصفها على الاقل يستحق الاكتشاف ويثير الشهية الفكرية .

وقررت ان ابدأ باوبريت « ولدي ياسين » (فرقة تحية كاريوكا ـ شكري سرحان ـ الحان بليغ حمدي ـ غناء عفاف راضي ـ تأليف فايز حلاوة ـ اخراج كرم مطاوع) بعد ان قرأت نقدا للدكتور لويس عوض (جريدة الاهرام) يصفها فيه بقوله : « اننا ازاء عمل فني كبير وخطير ، اولا لانه بداية اصيلة للمسرح السياسي في مصر لم تستجلـب وانما صنعت للمصريين من طينـة مصر ، وثانيا لانها بداية اصيلة للمسرح الغنائي في مصر » .

ويقول: « ياسين هو جمال عبد الناصر الذي كتبت المسرحية في تأبينه ، ومع ذلك فموضوع المسرحية ليس هذا البشير ولكن بشارته » ، وقد « اقيمت الصلاة في حب الوطن في بيت هذه السيدة الفريدة تحية كاريوكا » ويختم مقاله « انا اطالب بجائزة لهذا العمل الكبير » . . .

وذهبت لارى هذا « العمل الكبير » ، ولن اخفي ابدا خيبتي الكبيرة اثر مشاهدتي له ، خيبتي التي تعادل في كبرها تماما اعجاب لويس عوض بهذا العمل . . .

رغم الضربات الموسيقية الرائعة التي بدأت المسرحية بها بكل ما في المسرح الاغريقي من جلال . . . ورغم لحن « يا بلدي يا بلدي يا مصر » . . . ورغم حضور تحية كاريوكا المسرحي الحسن . الذي لم اكن اتوقعه لانني للمرة الاولى اراها كممثلة ـ ، ورغم وجهها المصري الاصيل وعينيها الشرستي الالتماع ، السوداوين العميقتين كبئرين فرعونيتين مليئتين بالاسرار . . . ورغم ذكاء النص وبراعته في وصف حال الفقر والبؤس التي يعيشها الفلاحون (البسطاء ولكن الاذكياء) ، ورغم نجاح الاخراج احيانا في تحويلها الى لوحات ، ورغم الفكاهة التي هزت الصالة الممتلئة ضحكا من الانتهازيين الذين يندسون بين الثوار ويسرقون مكاسبهم . . . رغم ذلك كله ، ورغم التسلية التي قد توفرها موسيقى بليغ حمدي وصوت عفاف وحضور تحية واخراج مطاوع ونص حلاوة ،

فإن العمل بمجمله ـ ان كان بداية للمسرح السياسي والغنائي ـ فهو بداية خاطئة ، وهو ـ بنظري ـ يحمل للمتفرج الجاد سقوطا مفجعا . . . لماذا ؟

لأنه في نظري امتداد للفهم الخاطىء للالتزام في الفن ، ذلك الفهم الخاطىء الذي تجلى في خطابية الكورس وفي خطابية كل ما قاله شكري سرحان (الذي يفترض انه يمثل دور جمال عبد الناصر) . . . بوضوح اكثر ، كان صوت عفاف راضي المشرق الشفاف وهي تغني « يا بلدي يا بلدي يا مصر » تعبر بجمال فني عن كل ما تود المسرحية ان تقوله ، وفجأة يقطعها ترداد خطابي مطول ممل لعبارات يرددها شكري سرحان ومن بعده الكورس بلهجة واعظ في كنيسة القرية ! . . . وتتناثر كلمات (الاشتراكية . . . الوطن . . . العمال . . . الفلاحين . . .) واحس بأن المسرح امتلأ لافتات دعائية ، وبأنني استمع الى تعليق على نشرات الانباء لمذيع فاشل مختص باستعمال كليشيهات الثورية وحب الوطن ، كليشيهات غارقة في السذاجة والخطابية والسجع والتكرار مثل محفوظات قصائد الاطفال في مدرسة عثمانية ! . . . بصراحة ، في هذا العمل هنات كثيرة اذكر بعضها على سبيل المثال (يقول شكري سرحان على لسان البطل القومي المصري ـ عبد الناصر او

سواه ـ والكورس يردد من ورائه ما معناه ان طريق الثورة المفروشة بالاشواك مكتوب علينا ان نسيرها . . . ونلاحظ ترداد كلمة (مكتوب علينا) ، ونلاحظ استعمالها لا بمعنى ان الثورة امر حتمي يخلقه الانسان ، ولكن بمعنى ان ما حدث وما سيحدث هو مكتوب علينا بالمعنى القدري للكلمة ، الامر الذي يجرد عبد-الناصر او الثائر ايا كان من قيمته كانسان عادي ويحوله الى كائن ميتافيزيكي اختارته قوى ما وراء الطبيعة وكتبت عليه ان يكون ما كان . . .(تلك هي النظرة الاتكالية التي تمثل الخطر الاول على الثورة ، وعلى الثوار ايضا ـ حينما يجعلون من زعيمهم وثنا جديدا يرمون عليه بأثقال مآسيهم ويحملونه وحده مسؤولية الخروج بهم من مآزقهم) والغريب ان المسرحية نفسها تُحَذِّرُ في مواضع اخرى من هذه النظرة ـ لكنها تسقط بمجملها في هذا الفخ . . . وحتى تحذيرها من هذه النظرة نجده في مواقف خطابية باهتة غير نابع عن جوهر الاحداث بل عن انتفاضة خطابية ميلودرامية . . . ويتضح مدى (قدرية) المسرحية وميلها الى عبادة الفرد حين يتلو الكورس اقوالا من القرآن فالانجيل فمقاطع من اقوال الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ! . . . ولست من حيث المبدأ ضد ان اشهد عملا فنيا يدور حول (القدرية) وحول ان البطل الوطني نبي ارسلته السماء قدره (مكتوب في اللوح المحفوظ) لكن « ولدي ياسين » لم تأتنا بنظرة جديدة الى (القدرية) كما لم تسكبها في قالب جديد وانما كانت مجرد تكرار ساذج لما سبق وقيل حول هذا الموضوع منذ عصور وعصور . . .

انها فشلت في هذا كما فشلت في تصوير شخصية الثائر الغيفاري بالمفهوم الجديد لكلمة ثائر . . . وشكري سرحان (الذي كان يطوف على المسرح شبه منوم مغناطيسيا يردد كلمات خطابية مملة ، هو اسوأ نموذج لأسوأ مفهوم عن الثورية . . . انه لم يستطع نصا وتمثيلاً ان يرقى الى مستوى الشعر وبالتالي الاسطورة كما انه لم يكن ثائراً غيفارياً حديثاً ولا ثائراً عتيقاً ـ اي نبياً ـ . . . ولم نستطع ايضا ان نرى عبره ذلك النسيج الانساني المسمى بالثورية الذي تمتد خيوطه الواحدة لتجمع بين جميع الثوار في كل عصر . .)
اجل ، لن اتوقف طويلا عند هذه الهنات وسواها في المسرحية ـ مثلا ثياب الذين يفترض انهم يمثلون الشعب المصري كانت كأزياء « الموجيك » الذي كان يلبسه فلاحو تولستوي ! . . الحان بليغ حمدي في بعض المواضع التي يفترض انها تصور الثورة كانت مأخوذة عن الزار الذي يصور اقسى حالات الاستلاب الفكري ولا تشفع له هنا فولكلوريته لعدم تمشيه مع النص . . . ـ اتجاوز هذه (الهنات الهينات) كلها ، واتجاوز النقد اللاذع الموجه الى شعب لبنان والمحشور حشراً في سياق المسرحية دون ان يؤثر حذفه

او تحويره ضد اسرائيل مثلا على المعنى ككل ـ او حتى كجزء ! ـ واتجاوز ايضا الغمز واللمز حول زراعة الحشيش بلبنان ، اتجاوز هذا لاقول ان الفخ الاساسي الذي سقطت فيه المسرحية ـ الاوبريت هو الخطابية . انهم لم يقدموا لنا مسرحية ولم يتركوا بليغ حمدي يقدم لنا اوبريت . . . ومن آن الى آخر يشعر المتفرج بأنه في طائرة تشكو من خلل . . . لا يكاد يستقيم لها الطيران حتى تهوي من عل في مطب يكاد يودي بها الى الدمار . . . وهو في نظري قد اودى بها الى الدمار . . . واسم هذا المطب كما ذكرت : سوء الفهم لمعنى الالتزام في العمل الفني . . .

توقفت طويلا عند هذه النقطة المشكلة لانها مرض لا تعاني منه هذه المسرحية وحدها ، بل ظاهرة وبائية تفشت في النتاج العربي منذ كانت الثورات التقدمية . وباء هو نتيجة مباشرة للفهم الخاطىء للفكر الثوري . . . ونتيجة مباشرة لالصاق الشعارات على مضمون رجعي . . . بعبارة اخرى ، ان تضمين مسرحية ما مقاطع ثورية من خطب اي ثوري مثل جمال عبد الناصر او غيفارا لا يجعل منها مسرحية ثورية . . . وان ذكر اسم مصر بخشوع قد يصنع صلاة في محراب مصر لكنه لا يكفي لخلق عمل فني ناجح عن مصر وثوارها . . .

والواقع ان الفهم العربي العام للفن قد ساء كثيراً لاننا صرنا نقيس الاعمال الفنية بقيم لا تمت الى الادب بصلة . . . ومن الامانة العلمية ان اعترف الدكتور لويس عوض في معرض نقده لهذه المسرحية : « ربما كنت لا اكتب نقداً لمسرحية ياسين ولدي لاني منحاز لمصر والمنحاز اسير هواه » ، ومن الامانة العلمية ان اقر انا ايضا انني منحازة للفن اكثر من انحيازي لاي شيء اخر وانني لذلك قد اكون تحاملت على هذا العمل بقدر ما هادنه الدكتور عوض .

ولكنني وجدت ان من واجبي ان اعيد الى الاذهان اهمية تقييم العمل الفني من حيث هو صالح للبقاء كعمل فني ام لا ايا كان الموضوع الذي يطرقه . . . صيحة ايا كان ، وليس بالحب الاعمى وحده ولا بالالتزام اللفظي يكون الابداع . . .

الجنس الثالث : تأليف يوسف أدريس

اهمية هذه المسرحية هي في انها عمل فني جيد . هذا اولا . فقد استطاعت المسرحية ان تنجو من المزلق السابق الذي سقطت فيه « ياسين ولدي » والذي يسقط فيه معظم نتاجنا العربي الفني المعاصر . مسرحية « الجنس الثالث » لا تتوكأ على شعارات فلسطينية او غير فلسطينية ، ولا تركب الموجة الحالية الرائجة : موجة النقد السياسي . . .

انها تدور حول ذلك الموضوع الازلي القائم ابداً في الثورات وفي الحرب وفي السلم . . . انه موضوع (الحب ـ الحياة) . . . واقدام فنان على معالجة موضوع (الحب ـ الحياة) ليس جديدا ولا يستحق التهليل عادة ، لكنه في توقيته الحالي يسجل ظاهرة معافاة فنية تستحق التوقف عندها . . .

فبالاضافة الى سوء فهم معنى الفكر الثوري والالتزام جاءت هزيمة حزيران لتزيد من التشويش . . . واقر بعدها أهل الفكر والفن بأن مسؤ ولياتهم عن الهزيمة تعود الى نتاجهم غير (الملتزم) . . . وهنا ازداد سوء الفهم الخاطىء لكلمة ملتزم ، وظن كل من يحمل قلماً ان الالتزام يعني تطعيم نتاجه بكلمات ثورية ووطنية . . . وقلائل ادركوا ان الالتزام يعني التزام الصدق والتزام البحث عن الحقيقة وقولها ، وليس التزام تكرار الشعارات تكراراً ببغائياً يحول الفنان الى استاذ فاشل في مدرسة يهرب طلابها . . .

وهكذا كنا قبل هزيمة حزيران غارقين في نتاج اكثره تافه يدور حول الحب فصرنا بعدها غارقين في نتاج اكثره تافه يدورحول الوطن. . .والنتاج التافه يظل تافها ولا يشفع لتفاهته الموضوع الذي يطرقه . . .

وهكذا تأتي « الجنس الثالث » لتذكرنا بأن العمل الناجح فنيا هو مطلبنا الاول ، وانه وان لم يحم حول فلسطين وسيناء والحرب ، لكنه لما فيه من نبش للانسان كانسان يجعل المواطن اكثر قدرة على فهم ذاته وعلى تحديد موقعه من مجتمعه وعالمه ، وبالتالي يساعده على ان يكون ثائراً واعياً مفكراً دون ان يعظه ودون ان يثير ملله . . . (من المؤسف ان يتردى حال الفكر لدينا حتى اجدني امتدح الاديب بالبديهيات التي يفترض ان تكون فيه . . . تماما كما قد نمتدح الموظف بأنه لا يرتشي والجندي بأنه لم يفر من القتال !) . . .

ويظل أهم ما في المسرحية ـ في نظري ـ هو انها مسرحية جيدة كعمل فني . . . انها تتضمن رؤ يا جديدة لموضوع ازلي (الارادة ـ الحياة ـ الحب) دون ان تنفصل عن عصرنا الحالي عصر الانزيمات (واختراعات اعادة الحياة للموتى) ، ودون ان تنفصل ايضا عن كونها مصرية اصيلة (ألم يكن موضوع اعادة الحياة الى الموتى شاغل الفراعنة ويقينهم الذي عبروا عنه بلغة عصرهم في صورة التحنيط؟ ألم تكن الاهرامات المخابر الاولى في التاريخ المعدة لاستقبال العائدين الى الحياة ؟) . . .

تدور المسرحية حول عالم شاب هو آدم (للاسم دلالة رمزية ـ انه رمز لجنسنا البشري المعروف) ومساعدته ناره ، آدم يعمل من اجل اختراع (انزيم الحياة) . . . فهو يؤ من بان الموت هو عملية ارادية . . . وبأن الانسان يفقد تدريجيا رغبته في الحياة فيتكون

في جسده انزيم الموت حتى يقتله . . . وآدم يحاول ان يكتشف الانزيم المضاد ليحقن به البشر ويعيد الحياة الى الموتى . . .

وفي نهاية المسرحية نجده يكتشف الانزيم، ويعيد به «ناره» الى الحياة (كما اعاد اورفيوس زوجته الى الحياة من ارض الموت بانزيم اسمه الموسيقى) واسم هذا الانزيم « الحب » وهو لا يصنع بالعمل وحده وانما ايضا بالارادة وبالادراك لاهم اسرار الوجود : الحب . . . وآدم حتى يصل الى هذه المعرفة يمر باهوال كتلك التي مر بها (فاوست - جوته) حين باع دمه للشيطان كي يشتري المعرفة الكلية باسرار الوجود . . . لكن « فاوست » يوسف ادريس المدعو آدم ، لا يبيع روحه للشيطان وانما يكتشف اسرار الوجود على يدي قابيل (الذي قتل اخاه هابيل) ومن يومها وهو نادم ومن يومها وهو يبحث عن طريقة لخلاص العالم بعد ان ابيد منه الجنس الثاني الطيب ، جنس هابيل القتيل (رمز الخير والحب) . . . الانقاذ الوحيد يكون بتوالد (جنس ثالث) يختلف عن الجنس البشري القائم . . . اهم صفات هذا الجنس الثالث هو الحب (القدرة على استقبال الحب واعطائه) . . . ومن اجل ذلك كان لا بد من محاولات كثيرة . . . (الرسل والثوار والفنانون الكبار ليسوا الا مبعوثين من عالم الجنس الآخر المليء بالحب . . . باختصار كلهم افراد في « جمعية تحضير الانسان » لا « تحضير الارواح » . . . ان استحضار الانسان من داخل ذاته ، الانسان بالمعنى الحقيقي للكلمة لا يتم الا عبر الحب (ايضا بالمعنى الشامل للكلمة) . . . في نظر يوسف ادريس الحب هو خلاص هذا العالم (مثل كولريدج في رائعته البحار العتيق ، حيث يروي لنا حكاية بحار يرتكب جريمة قتل اذ يقتل احدى مخلوقات الطبيعة (طير الباتروس) فيعاقب باللعنة الكبرى ويموت بحارة مركبه ويصير البحر جثة ويعوم هو وحيدا في المركب التابوت المتحرك حتى يكفر عن خطيئته حينما يحس بومضة حب تجاه احدى مخلوقات البحر الدقيقة الصغيرة) . . . المهم لحظة حب صادقة ومجانية . . . آدم هو « البحار العتيق » عند يوسف أدريس ، وكما يعود الى الحياة جميع بحارة المركب حينما يحس البحّار العجوز بلحظة الحب وتسقط من عنقه جثة طائر الباتروس التي علقت هناك منذ الجريمة (سقوطها رمز الى خلاصه وخلاص العالم الذي يمثله رجال سفينته النوحية) ، كذلك فان « آدم » يوسف ادريس اذ يجد خلاصه ، لا يمثل خلاصاً فردياً ، واتحاده بناره لا يمثل اتحاداً شخصياً وانما هو رمز لخلاص البشر جميعا عبر اختراعه (انزيم الحياة) ، وما انزيم الحياة هذا الا (الحياة بحب) اي لحياة عمراً قد لا يكون أطول لكنه أعمق مشاعر واكثر نبلاً . . . . انها حياة لا مجرد عيش . . . .

والمسرحية تحمل خيوط فلسفة تكاد تكون متكاملة وقد يتضح نسيجها بجلاء في الاعمال المقبلة ليوسف ادريس . . . في « الجنس الثالث » رؤ يا جديدة « للمدينة الفاضلة » . . . وليوتوبيا يصنعها « الجنس الثالث » . . . والجنس الثالث لديه هو (السوبرمان) المطلوب من الانسان ان يتطور اليه . . . لكن (السوبرمان) عنده ليس رجلاً آلياً من كومبيوتر عصر الفضاء ولا من سكان كوكب جديد ، وانما هو ردة الى الانسان الاول ، الانسان الحقيقي قبل ان تكون الخطيئة والجريمة والشر . . .

« الجنس الثالث » عند يوسف ادريس لا يشبه سوبرمان برناردشو ، ولا يمت بصلة الى سوبرمان نيتشه اللاإنساني الوسائل ، كما انه بريء من سوبرمان اسبارطة (كانوا في اسبارطه يغطسون الطفل المولود حديثاً في دن من النبيذ ليموت ان لم يكن قوي البنية جسديا) . . . صحيح ان حلم يوسف ادريس بالانسان الافضل والعالم الافضل ليس جديدا ، وان وسيلته ليست جديدة (الحب) ، لكن رؤ ياه لمفهوم الحب والارادة جديد . . . وصحيح ان مفهوم الحب لديه يقترب من المفهوم المسيحي لكنه يتجاوزه كما يتجاوز الرؤ يا الدينية للحب التي تجعل منه سببا للثواب او العقاب . . . ففي معبد (السوبرمان) يقول كائن يوسف ادريس (اننا نعبد بعضنا بعضا . . . كل شيء او كائن فينا يعبد الآخر) وهو في هذا قد يلتقي بالفلسفة الوجودية او حتى بالرؤ يا (الهبية) المعاصرة ، الا ان يوسف ادريس يظل فريداً في رؤ ياه لانه لا يلغي اثر الارادة . . . في المسرحية يتمكن آدم من الطيران تماما كالطيور لمجرد انه اراد ان يطير ، وحينما يبدأ بالشك في ارادته يعود الى الاقتراب من الارض . . . وفي المسرحية نجد آدم حينما يكاد يموت جوعا يتعلم من (الجنس الاكثر رقياً انسانياً) كيف يستعمل ارادته لاستحضار الطعام والاكل (اي خلق حس بالشبع عبر الارادة) . . . ونراه على المسرح وهو يأكل الدجاجة الوهمية ويمضغها والجمهور لا يرى دجاجة ولا حساء . . . هذا المشهد يذكرنا بفيلم (بلو اب ـ الانفجار ـ لانطونيوني) الا انه ليس تقليدا له . . . ففي فيلم انطونيوني نرى البطل يلعب التنس بكرة وهمية كما أكل آدم فرخة وهمية ـ لكن مدلول لعبة التنس الوهمية هي هنا (الحقيقة مثل الوهم . . . لا فرق . . . كل شيء سراب بسراب . .) اما فرخة آدم الوهمية فترمز الى ان « الحقيقة هي الارادة » وهذا الالحاح على الارادة (العمر ارادة) هو في نظري (توعية ثورية) اكثر من عشرات المناشير وخطابات الحث على العمل المليئة بالكليشيهات . . .

وقبل ان اختم حديثي عن هذه المسرحية احب ان انوه بالرؤ يا الجديدة للحب التي

ابدعتها رؤ يا يوسف ادريس الفنان حيث جعل ناره تحب ارنب الاختبار الـذي تجـري تجاربها عليه ، وتنشأ بينهما علاقة وجودية عميقة . . .

هذه الرؤ يا في نظري جديدة لم يأت بها اي فنان عربي او غربي من قبل (هنالك قصة الراهب الذي عشق عنزته وعاشرها لكن مدلول العشقين يختلف تماماً) . . . حب ناره للارنب امكانية درامية مذهلة لم يعن بها ما فيه الكفاية المؤلف وربما المخرج .كلاهما سقط في فخ اضحاك الجمهور من العلاقة (الممثلة بشكل خاص اساءت ايضا التعبير عن ذلك فبالغت في الاضحاك في البداية ، مما جعل انتحارها في النهاية لاجل مصرع الارنب يبدو ميلودراميا ومفتعلاً . . .)

ان علاقة ناره والارنب كانت في نظري اصدق واعمق علاقة حب في المسرحية تعبر عن وجهة نظر الكاتب نفسه (انها ضمناً ردة الى مبدأ وحدة الوجود وزواج شعاع الشمس مع زهرة الفل . . . الذي لا تخلو منه المسرحية) . . . هذه العلاقة الهامة لا ادري لماذا مر بها الجميع (من مؤ لف ومخرج وممثلة وبالتالي الجمهور) مرور جيش هولاكو في حقل من السنابل . . .

وهذا يقودنا الى الحديث عن الاخـراج . . سعـد اردش مخـرج مبـدع اكثـر مما يجب . . . وبقدر ما اعني كلمة مبدع اعني كلمة اكثر مما يجب . . . لماذا مثـلا تطـويل مشهد الباليه ورقص الشجر حتى اكل الرقص مدة نصف ساعة تقريبا من الفصل الاول بلا مبـرر ، وكان الـرقص يتـراوح بـين البـاليه والـرقص البلـدي (هـزي وسطـك يا شجرة . . .) ؟ هل خاف سعد اردش من الجمهور فأحـب ان يرشـوه بالخصر النحيل والقوام الجميل وهز يا وز ؟ تراه على حق في مخاوفه ؟ ايا كانت الاعذار اكره دوماً ان ينحر الفن على اي مذبح كان ، لذا سألت الدكتور يوسف ادريس عن مبرر التطويل (غـير الموجود في النص اصلا) فقال : انت لا تعرفين جمهـور مصر . . . انـه يأتـي دومـا الى المسرحية بعـدنصف ساعتهـا الاولى ، لذا نقـدم الـرقص كي لا يفوتـه شيء ! . . . رد عجيب . . . ترى هل يعاقب سعد اردش المتفرج الجاد الذي يأتي مبـكرا بهـذه البـاليه (البلدي)؟ . . . ام انه يحاول ان يجتذب المتفرج المتأخر ؟ . . . واذا كان هذا هو المقصود ، لماذا لا يعلنون عن وصلة رقص بلدي تقدم قبل بدء المسرحية بدلا من حشرها في سياق عمل جاد كمسرحية يوسف ادريس .

وبعد ،

تحدثت عن مسرحيتين ، تعكسان الشيء الكثير مما يدور في القاهرة وفي سماء الفكر

في اية عاصمة عربية اخرى . . . (كأن ابرز ما في الوحدة العربية هو وحدة مشاكلهـا وامراضهـا) . . . وفي يقينـي ان في كل عاصمـة عربية تدور الآن مسرحيتان كهاتــين المسرحيتين «ولدي ياسين» التي تضم قاموسا لغويا ثوريا ناحرة الفن على مذبح الخطابة التعليمية . . . و« الجنس الثالث » التي لا تضم كليشيه ثورية واحدة ، لكنها عمل فني ثوري حقيقي ناجح يطرق بجرأة موضوعات المسرح العالمي ويحلق فيها . . . وهو بذلك يقدم خدمة حقيقية لمصر والوطن العربي . . . فالابداع هو الالتزام والالتزام هو الابداع وكلاهما لا ينفصل كالتوائم الملتصقة . . .

لندن ١٨/ ٦/ ٧١

قصة رعب حقيقية

ربما لان العاشق يعود دوما الى الشوارع والمدن التي عايشت حبه الكبير العتيق ، يلملم عن ارصفتها بقايا ماكان .

وربما لان المجرم يعود دوما الى مكان جريمته ، وربما لأسباب اخرى أعيشها واجهلها ، اجدني دوما اعود الى لندن بحنين العاشق وشراسة المجرم .

جون . ناتالي . كريستوفر . جوانا . هنري . وجوه تقفز بين الغيوم وعلى جناح الطائرة وانا في طريقي الى لندن. اسماء رفاقي الذين عشت واياهم طيلة عامين خلال اقامتي في لندن . كنا نعيش في دار واحدة ، وكانوا من الهيبيز ، وكنت امرأة من الشرق تعايشهم قليلا ، وتراقبهم كثيرا . طيلة هذين العامين عجزت عن ان اكون هيبية محترفة . . . كنت سائحة في دنياهم الهيبية ، يربطني اليهم افتقاري الى اي شيء يربطني بأي شيء آخر ! . . . عايشتهم لانني كنت ابحث عن انتماء فكري غير الانتماءات التقليدية الموروثة والتي كان من المفروض ان تنتقل الي بفعل قانون الوراثة الآلي (السائد في عالمنا العربي كما في كل المجتمعات النامية والمتخلفة) ، والذي رفضته ، وانطلقت في العالم الواسع بحثا عن هويتي الحقيقية ، وعن بديل فكري . وطبعا لم اجد البديل لدى رفاقي الهيبيين هنري . جون . ناتالي . كريستوفر . . . ولكني لم اجد غرفة فارغة للايجار الا في دار تصادف ان ضمتني واياهم ، وكان كل منا يقطن احدى غرفها . رفضتهم فكريا (بل انهم كانوا يثيرون سخريتي وحتى شفقتي في بعض الاحيان خصوصا بعد حفلات المخدرات مثل الماريوانا و « أل . اس . دي » حين كان كريستوفر يبكي وجوانا تحاول الانتحار وهنري يرفض استعمال اللغة ويصر على العواء مثل ذئب وحيد تائه في الصحراء وناتالي ترقص مسعورة لتطرد روحا شريرة تؤمن بأنها قد تقمصتها ثم ترجو جون ان يجلدها ليساهم في طرد الروح الشريرة منها ، وجون يتقمص دور الكاهن الاكبر ويمارس عقدة العظمة والسادية لديه ببسط سلطانه على رفاقه الماسوكيين . . . وانا وحيدة مكومة في احدى الزوايا جامدة مثل تمثال بوذا ارقب العذاب البشري والانهيار الداخلي في اكثر صوره ايلاماً ، ثم اهرب من هذا كله لاسير طويلاً في الشوارع اغتسل بالمطر والريح) .

ومع ذلك احببتهم رفاقي الهيبيين رغم رفضي الفكري لهم . كانوا نماذج انسانية ممزقة ضالة . ويوم غادرت لندن ، حملت معي مفتاح باب دارنا المشتركة في لندن ، واحتفظت به كذكرى .

وصلت الطائرة الى مطار لندن ووصلت انا الى قرار : سوف ارمي حقائبي في الفندق واذهب اليهم مباشرة وافاجئهم بقدومي ، وساستخدم المتفاح الذي ما زلت احتفظ به .

وفي الطريق اليهم بدأت اتخيل كيف سأجدهم ؟ وتصورت كل ما لا يخطر ببال . . . كأن اجد جون النمرود وقد صار موظفاً في بنك ، وناتالي متزوجة وحاملا وكريستوفر حارسا ليليا وجوانا راهبة وقد جلسوا جميعا الى مائدة العشاء الانكليزية التقليدية يتمتمون بصلاة الشكر ، وحينما افاجئهم بالدخول يتابعون صلاتهم بكل وقار ثم يحيونني بكل برود ورصانة ويطالبونني باعادة المفتاح لان في دخولي هذا خرقاً لقواعد البروتوكول . . . اجل . حتى هذا توقعته . بل توقعت ان اجدهم قد رحلوا او انتحروا وان اجد في الدار غرباء لا اعرفهم . . . ولكنني لم اتوقع ان اجدهم كما وجدتهم ! . .

غرفة الضياع

رميت بحقائبي في الفندق ، وذهبت الى الدار اياها ،أدرت المفتاح في ثقب الباب بحذر سارق يتسلل . كان هدوء مريب يخيم على الشقة ، وعتمة شاملة تغرق الردهة المؤدية الى غرفة الجلوس حيث كنا نجتمع فيما مضى. ولانني لم اسمع صوتا ،ولم الح نوراً، كدت اغلق الباب واعود لولا الرائحة القوية التي كانت تفوح في الردهة والبيت كله. في البداية ظننتها غازاً هيبيا سرياً خاصاً بالانتحار ، ثم تبينت فيها مزيجاً قوياً من البخور والحشيش . . . تقدمت من الصالة ، ورأيتهم جميعا ومعهم اشخاص ـ لم اتبينهم ـ في النور الاحمر المعتم والخافت . كانوا جالسين في حلقة وايديهم ممدودة الى الامام ومسترخية وعيونهم مغلقة . . . ربما كان ذلك النور الدامي كلون الدم المخثر ، وربما كان ذلك التعبير النابض بالتوتر والذعر والانتظار المرتسم في وجوههم هو الذي جعلني اراهم وكأنهم جثث مغسولة بالدم . . . رأيت كل ما في الغرفة مغسولا بالدم . . . الستائر التي تغطي الجدران والتي لم تكن هناك من قبل ، وآلة التسجيل التي كانت تصدر أصواتاً هي أقرب الى صرير أبواب المقابر الصدئة منها الى الموسيقى . . . والزهور الكبيرة الحجم التي كانت تتوسط حلقتهم . . . والرسوم العجيبة على اجسادهم شبه العارية وعلى الجدران . . . بعضها تشبه أبجدية العصور الحجرية (اكتشفت فيما بعد أنه من المفروض أنها ابجدية الأرواح !) وبعضها صور غريبة عجيبة لم أتبينها وهي مغسولة بالدم هكذا

(اكتشفت فيما بعد أنها نسخ عن صور فنية ثمينة تحتفظ بها متاحف اوروبا بعضها يصور ساحرات العصور الوسطى أثناء اعدامهن حرقاً ، وهو العقاب المعروف للساحرات خلال العصور الوسطى) . . .

لم ادر كم طالت وقفتي وصمتهم ، ثم سمعت صوت جون يتمتم بلغة اقرب الى اللاتينية منها الى الانكليزية وبصوت منخفض ، وفهمت من لهجته انه ينادي شخصا ما برقة الدراكولا (مصاص الدماء) حينما يقترب بشفتيه من رقبة ضحيته . ثم تبينت ان الاسم الذي كان يناديه هو اسمي انا . ولما كنت متأكدة من انه لم يرني وانا في وقفتي الذاهلة امام الباب ، كما لم يرني احد منهم ـ وكلهم مغمض العينين ـ ، احسست برعب حقيقي وبرغبة في الهرب، . . . لكن الدهشة والرعب سمراني في مكاني ، والرائحة النفاذة كادت تخنقني ووجدتني عبثا اغالب سعالي . . . لم يفتح احد عينيه وانا أسعل . ناتالي فقط (وكان وجهها مقابلا للباب حيث وقفت) فتحت عينيها ببطء ، اتسعتا فجأة وهي تراني وندت عنها صرخة مروعة ثم سقطت على الارض وقد اغمي عليها . لم يتحرك احد ليسعفها ، فقط فتحوا اعينهم وطبعاً رأوني . ولكن احدا لم يتحرك من مكانه . ايديهم بدأت بالارتجاف بشدة ، وبدا في عيني جون بريق النصر . . . وقال بصوت حازم لكنه ناء ولاهث مثل لهبة شمعة امام جثة مسجاة في كنيسة قديمة متآكلة الجدران : يا روح غادة . . . يا روح غادة . . . نناديك . . . (وهنا وعيت الحقيقة المذهلة : انهم يستحضرون الارواح . . . وروحي انا بالذات ! يا لسخرية المصادفات) تابع : منذ شهرين نناديك كما ننادي ارواح احبائنا الاحياء والاموات . . . (احسست برغبة مفاجئة في ان انفجر ضاحكة . ضحك مرادف للبكاء ! . . .) .

تابع جون بالصوت نفسه : يا روح غادة اين انت الآن ؟ ومتى رحلت عن هذا العالم ؟

ـ انا هنا . معكم كما ترون . لم امت بعد .

ولكنهم كانوا متأكدين من ان شبحي هو الذي معهم ! اذ ان احدا منهم لم ينهض لتحيتي وانما اغمضوا جميعا اعينهم وازدادوا خشوعاً وتابع جون :

ـ اين تقيم روحك الآن ؟

ـ في بيروت مع زوجي وطفلي !

ـ كيف جئت الينا من العالم الآخر ؟

ـ بطائرات الميدل ايست ! . . .

ـ ايتها الروح لا تهزئي بنا . قولي لنا ماذا تفعلين الآن ؟ .
ـ عدت للاقامة بلندن اراسل مجلة « الحوادث » !
ـ ايتها الروح لا تسخري منا اخبرينا على الاقل ، هل حللت في جسد جديد أم بعد ؟ ام ان هذا لن يحدث ؟ هل انت الآن هرة ام صخرة ام طفل ؟
وانفجرت : انا الآن غبية تنصت الى ترهاتكم .

وسارعت الى زر النور الذي ما زلت اعرف مكانه . . . ادرته وانا اتوقع ان اضيء الغرفة . بدلا من ذلك ، انصبت من السقف اضواء (بسيكيداليك) ، بيضاء ، زرقاء ، صفراء ، حمراء ، تضيء وتنطفيء متلاحقة مجنونة ، وفي نورها المتقطع الحاد والعتمة التي تليها احسست ان اولئك الذين امامي هم حلقة من الارواح الشريرة المخيفة التي فقدت رشدها ، وانا التي استحضرتها حين ادرت المفتاح الذي اغتصبته في قفل باب لم يعد لي . . . واقتحمت عالما ليس عالمي . . . سمعت صراخاً ما . . . شعرت بما يشبه الزلزال ، كان واضحاً انهم تحت تأثير مخدر ما ، وانهم لا يعرفون ما يفعلون ، وانهم لن يصدقوا انني ما زلت احيا وان ما يقف امامهم هو انا وليس شبحي . . . انهم ببساطة يعتقدون ان روحاً شريرة تحتلني او شيئاً من هذا القبيل . . . وكدت اقترب منهم واحداً واحداً وألمسهم ليتأكدوا من كتلتي الفيزيولوجية وحضوري الجسدي ، لكنني خشيت ان يفسروا ذلك على انه تقمص في جسد يريد بهم شراً . . . ومن يدري ، فقد يغرسون في رقبتي سكينا او يجلدون جسدي ظانين انهم بذلك يحررون روحي من اسرها . . . وبسرعة قررت ان هذا الوقت ليس افضل الاوقات للتفاهم . . . وهربت مذعورة . . . وانطلقت اركض من الدار كالمجنونة وقد تركت الباب مفتوحاً . . .

لم اتصل بهم في اليوم التالي . كنت ما ازال تحت تأثير الصدمة ـ اكثر منهم ! ـ بعد هذه الحادثة بخمسة ايام اتصلت بهم تليفونيا اولا لاقناعهم بانني لست روحا (فالارواح لا تستعمل الهاتف في الساعة التاسعة صباحا) . . . وكم كان ذهولي حين ردت علي ناتالي وهتفت بحرارة : لقد استحضرنا روحك منذ ايام . اغمي علي حين ظهورك لكن بقية الرفاق سيحدثونك عما دار . . . متى وصلت الى لندن ؟ . . .
باستسلام اجبت : منذ دقائق ! . . . وانا قادمة الآن لزيارتكم .

في طريقي اليهم رميت بمفتاحي في نهر التايمز . واشتريت سندويشا وقرعت جرس الدار وانا اقضم السندويش زيادة في التأكيد (فالارواح لا تأكل السندويش) . . .
كانوا جميعا في انتظاري وقد استيقظوا ـ رغم ان الساعة لما تبلغ العاشرة صباحا ـ بل

ان كريستوفر غسل وجهه اكراماً لي وجوانا مشطت شعرها . . .

اما هنري فقد كان يكرر بذهول : اما قلت لكم ان الكومبيوتر ضروري لتحضير روحها ! (وهنري كان طالبا سابقا في جامعة لندن واختصاصيا في الكومبيوتر قبل ان ينكبه الدهر بالهيبية) . الكومبيوتر وتحضير الارواح ؟ . . . الكومبيوتر ذروة التقدم العلمي ، وتحضير الارواح ذروة الردة الى عصور ما قبل الآلة . . . ماذا يمكن ان يربط بينهما ؟ . . . بل من يجرؤ على ذلك غير الهيبيز ؟ (ام ان هنالك علاقة مبهمة بين ذروة البدائية وذروة الحضارة ، نقطة التقاء على محيط دائرة الحياة ؟) رد هنري بثقة : بمعونة صديق لي استطعت استعمال كومبيوتر الجامعة واستشرته في افضل الاوقات لاستحضارك . وقال انه بين ١٥ ايار و١٥ اب . وقد صدق .

ما هي المعلومات التي اعطاها للكومبيوتر ؟

انها مواعيد رحلاتي السابقة الى لندن واقامتي . وهنا سألته بالحاح : هل سألت الآلة حرفيا متى تستحضرون روحي ؟ قال : ليس تماما . في المرة الاولى سألتها ذلك ، فاجابت : السؤال غير واضح . واضطررت لتحويره من « استحضار » الى « حضور » وكلاهما « واحد »

(طبعا ليس صحيحا ان كليهما واحد . فالكومبيوتر اجاب عن موعد « حضوري » بناء على المعلومات التي القمته اياها عن سوابقي وهو بريء من حكاية استحضاري) . . .

وتحدثنا طويلا . . . وغادرتهم لاكتشف لندن جديدة لم تكن هناك ايام اقامتي فيها : انها لندن تحضير الارواح ! . وذهبت الى اكثر من حفلة لتحضير الارواح بعضها على الطريقة الهيبية وعلى الطريقة التقليدية . . . وخرجت منها بالنشرة الاخبارية الروحية التالية . .

الارواح بين الهيبية والكلاسيكية

تحضير الارواح في لندن هو اليوم موضوع الساعة اكثر من السوق الاوروبية المشتركة وتبديل العملة .

وقد ساعدني احد الاصدقاء المقيمين في لندن على حضور حفلة تحضير ارواح على الطريقة الكلاسيكية (في بيت بحي هامر سميث) لاقارن بينها وبين الطريقة الهيبية . . . تحضير الارواح الكلاسيكي وقور ، هادىء ، لا مخدرات فيه ولا عري ولا هستيريا اضواء ولا موسيقى جماجمية . . . لم تنتقل اليه عدوى الطريقة الهيبية الا في احضار الزهور والاكثار منها في القاعة . ولا يتم فيها الا استحضار ارواح الاموات . والروح تتحدث

عبر كتابة تخطها .كأس تتحرك تحت يد الوسيط او سلة او قلم (من المفروض انها هي التي تحرك يد الوسيط وان الروح هي التي تحركهـا . . في هذه الجلسة حدث شيء مثير (يجب ان يكون له تفسير علمي ما . . ،اذ استحضروا روح صديق لهم مات منذ مدة اسمه « برنار » كانوا يدلعونه باسم « بيف » . وقد نادى الوسيط على برنار ، وحينما حضرت الروح - اي تحركت الكأس - سألها الوسيط : ايتها الروح ، من انت ؟ كتبت الكأس وسط ذهـول الجميع حروف اسم « بيف » . . .)والجدير بالذكر ان الوسيط لم يكن يعرف ان « بيف » هو اسم الدلع الذي كانوا ينادون به برنار .

المهم ، فسروا لي ذلك كله فيما بعد وتظاهرت بالذهول كي لا اغضبهم وكي يتابعوا معي جولة اكتشاف كاباريهات استحضار الارواح . . .

اما الهيبيز ، فلديهم طريقة اخرى جديدة . . . فهم يسخرون العلم وغير العلم لاغراضهم .

وبعد ان استخدم الهيبيز الكومبيوتر ليختار لهم حبيبات وليلعب دور الخاطبة ، جاء دوره ليلعب دور وسيط الارواح . انهم يستشيرونه في توقيت استحضارها ، وفي اختيار الروح التي يحتمل حضورها اكثر من سواها ، ثم استخدموا اختراع الكهرباء الذي من المفروض انه وجد ليطرد الظلام : ظلام الليل وظلام الخرافات ، فجعلـوا منـه اضـاءة (بسيكيداليك) هستيرية تثير الاعصاب وتزيد في استعداد الانسان نفسيا للهلوسة . . . وهنا يأتي دور المخدرات التي تستخدم - في رأيهم - كواسطة لنقلهم الى منتصف الطريق بين الحياة والموت ليقابلوا الروح هناك . . . فالمخدرات في نظرهم تساعد الانسـان على التخلص من جسده المادي (الحقير) ، وتطلق روحه في عوالم ما وراء الطبيعة ، ويقدر بواسطتها على التحليق الى تلك الاصقاع الغامضة حيث الحدود ، بين الموت والحياة . . . وفي ذلك اللقاء على الحدود ، بينما اسوار الحياة تفصل بين المتحاورين (هم ، والـروح التي يخاطبونها) ، صحيح ان اللقاء يتم كالاحلام شاحبـاً ومشوشـاً والحـديث يصعـب التقاطه ، مثل محاولة التقاط محطة اذاعية من عالم آخر لا نعرف على اية موجة تبث ومع ذلك فهم يجدون في المخدرات ما يساعدهم على هذا الاقتراب الى حد ظهور شبح الروح مجسداً ! . . . (كما ظهرت انا !) . . .

والتفسير المنطقي الواعي لذلك هو ان المخدرات وما تخلقه من هلوسات تجعلهـم يتخيلون ان الروح المستحضرة قد حضرت فعلا . . . ويتوهمون انهم يرونها فعلا . وعبر المخدرات (طوروا) استحضار الارواح من الطريقة الكلاسيكية (الروح لا تظهر وانما

تقدم ما يدل على حضورها ـ ارواح الاحياء لا تستحضر) الى طريقتهم الجديدة : شبح الروح يظهر شخصياً ، ويمكن ان تظهر ارواح الاحياء ! . . . فالمخدرات وهلوساتها تهيئهم لهذا التطور الحاسم في مختبراتهم لتحضير الارواح . . . وان كانت ارواح الأحياء تظهر نادرا جدا ، ويكون صاحب العلاقة خلالها نائما او بالاحرى بين الموت والنوم !

سألتهم :لماذا العري ؟ . . .

ـ لان الروح قادمة من عالم الروح حيث لا ثياب . . . ان ذلك يجعلها تشعر بمزيد من الالفة معنا ، ويزيدنا اقترابا من اجوائها التي لا تعرف رجس الثياب وانما طهارة العري ! . . .

القتل ،أو استحضار الارواح

ليلة وصولي الى لندن ووقوفي في غرفة تحضير الارواح وجماعة الهيبيين تستحضر روحي ، وجون يخاطب شبحي ، ظننت انني امام حادثة فردية لا تستحق التسجيل الا على سبيل النكتة . . .

لكنني فوجئت في الايام التالية ، وانا انتقل من دار لتحضير الارواح الى اخرى ، ومن كهف الى آخر ، بأنني امام ظاهرة جماعية تستحق الرصد . وتحضير الارواح (والسحر وغيرهما من وسائل تخطي ما وراء الطبيعة) ليس اختراعاً هيبياً ، ونحن نجده متفشياً في المجتمعات المختلفة (وبصورة خاصة في المجتمعات القديمة ، او المعاصرة المتخلفة) . . . واذا كان قدماء الاغريق والرومان يستشيرون عرافات دلفي عن موعد البدء باطلاق نبالهم وتوقيت حروبهم ، ففي ايامنا المعاصرة نجد ايضا مسؤ ولين يرجعون الى وسيط الارواح اكثر من رجوعهم الى الرادار .

ولكن ، ماذا يريد الهيبيز من الارواح ؟ وما الذي اوصلهم الى الارواح ؟ . بدأت الحركة الهيبية بشكل حركة عصيان شابة انفجرت منذ سبعة اعوام . . . حركة تطالب برد الاعتبار للفرد بعد ان سحقته الآلية والبيروقراطية والطبقية وسيطرة المؤسسات القديمة المتعفنة ووحشية الحياة الصناعية المعاصرة . هذه كلها حولت الانسان الى مجرد رقم ، ورمت به بين انياب المدينة الكبيرة التي لا ترحم ، حيث قانون الغاب يسود في غاب معاصر جديد : غاب من الابنية والحجارة والآلات والاطر المهيأة سلفاً لكل فرد . (هذا الرفض عبر عنه ايضا كبار الادباء المعاصرين امثال فولكز وت . س . اليوت،وشتاينبيك وكافكا وغيرهم ، ولكنهم عبروا عنه بصورة مبدعة خالدة) .

اذن ثار الهيبيز في محاولة لايقاف هستيريا التقدم التكنولوجي على حساب الانسان

والتذكير بان الانسان ما يزال انساناً وان اعصابه عاجزة عن احتمال هذه الضغوط الرهيبة التي يدفعها ثمنا لهستيريا العلم . . . هستيريا التسلح . . . هستيريا الذرة . . . هستيريا الرحيل الى القمر . . . ثار الهيبيز في محاولة لتذكير هذا العالم المجنون اللامبالي بالفرد ، بأن المدنيّة والعلم وجدا لخدمة الانسان ، وليس العكس . . . وبان الحروب (الجشعية) يجب ان تتوقف . . . وبان الحضارة الحقيقية هي في اكتشاف مجاهل اعماق الانسان ومبعث آلامه ومداواتها ، قبل اكتشاف اعماق البحار او مجاهل القمر . . .

من هنا انطلقت حركة الهيبيز في الغرب : من دوافع انسانية رائعة . . . ولكنهم كانوا ـ للاسف ـ اسوأ محامين لأعدل قضية . . .

منذ البداية لم يكن هنالك اي تطابق بين سلوكهم الذاتي وبين المبادىء التي يدعون اليها . . .

نادوا بالردة الى الطبيعة الام ، لكنهم لوثوا الطبيعة حين جعلوا منها ديكورا لمسرحياتهم الانفلاتية الهستيرية (جنس غير مسؤ ول . مخدرات . وحتى جريمة !) . ونادوا بالتحرر من قذارة المداهنات الاجتماعية ، لكنهم رفعوا راية العداء ضد الماء والصابون . نادوا برفض الصالونية التقليدية في المظاهر ، لكنهم في رفضهم تبنوا بديلاً تقليديا آخر : هو الشارعية التقليدية بدلا من الصالونية .

نادوا بالحب ، لكنهم ناصبوا العالم العداء . . . بل ناصبوا انفسهم العداء ، اذ انحدروا بالذات الانسانية ـ التي ادعوا تكريمها ـ الى احط درجات البهيمية . . .

ورغم ذلك كله امتدت امبراطوريتهم لتغطي وجه اكثر من قارة . . . ولتنقل عدوى الوباء الى اكثر من مكان . . .

ومرت الايام . . .

ولكن حركة الرفض العادلة هذه لم تتبلور ضمن اطار فلسفي واضح المعالم وانما ازدادت انحرافاً عن منطلقاتها .

لم يكن للهيبيز خط تحرك واضح . . . ولا هدف واضح . . . وسقطوا في الهوة القائمة بين فكرهم وسلوكهم . . . تلك الهوة التي تفصل عادة بين الثوار والمهرجين . . . وصارت كلمة « هيبي » تذكر فوراً بسلوك لا مسؤول لا واع ، مائع ومهزوز كزئبق بلا وعاء . . .

رفضهم لسقوط العالم في هوة الآلية كان عادلاً . لكنه كان رفضاً سقط بدوره في هوة الرخص ، وافترسه الحشيش والتخدير والانحلال الخلقي والاستخفاف بالمبادىء

الانسانية الاساسية . . . وهكذا كانوا « صرعة » بدلاً من « ثورة » . . . يقتاتون كل عام بصرعة جديدة . . .

صحيح انهم قطعوا علاقتهم مع العالم القائم (التقليدي البشع) ولكنهم ايضا فشلوا في خلق بديل جديد له . . . ووجدوا انفسهم يهرولون في طريق مسدود بدأت تصبح رتيبة بل وحتى تقليدية . . . وهذا العام حمل الينا تيارين هيبيين اساسيين حاولا تجديد السلوك الهيبي : ١ ـ الجريمة ، ٢ ـ تحضير الارواح .

تيار الجريمة هو المحاولة الاولى لتخطي الطريق المسدود لامبراطورية الهيبيين عبر العنف . ويمثل هذا التيار تشارلز مانسون بطل مجزرة (شارون تيت والمجموعة) . . . فقد احس الهيبيون بأنهم صاروا مثل روبنسن كروزو المعزول في جزيرته . صاروا معزولين في جزيرة رفضهم للعالم الخارجي ، ولكنه رفض سلبي لم يبدل في الامور شيئاً ، بل على العكس ، كان على كل هيبي يبلغ الثلاثين (دون ان ينتحر او توصله المخدرات الى احد المصحات) ان يعود للاندماج في المجتمع عبر البحث عن عمل ، والزواج والاستقرار والاستعداد لكهولته ضمن الاطارات التقليدية القائمة التي لم يستطيعوا ايام هيبيتهم اختراع مؤسسات بديلة لها . . . (مؤسسة « الجنس الجماعي » فشلت في ان تكون بديلاً عن مؤسسة الزواج مثلاً) . . . وهكذا فان « روبنسن كروزو الهيبي » خرج من جزيرته وقرر ان يكون قرصاناً ليدمر بالعنف ما فشل في تدميره بالحب) ! . . .

اما المخرج الثاني للهيبيز من طريقهم المسدود فكان عبر تحضير الارواح ! . . . فهم بعد ان هجروا العالم الخارجي وهجرهم ، قرروا ان يتعاملوا مع نوع آخر من البشر . . . بالضبط : مع الارواح ! . . . لقد عجزوا عن التعايش مع (قذارة) المجتمع حولهم ، فقرروا التعايش مع مجتمع بشري آخر هو مجتمع الارواح . . . وهكذا فان روبنسن كروزو لن يقبع وحيداً في جزيرته ، ولن يصير قرصانا يواجه العالم الخارجي بالعنف ، لكنه بكل بساطة (سيخلق) لنفسه مجتمعاً جديداً يستحضره . . . هو مجتمع الارواح الذي لم تعد حقارات المؤسسات والمصالح تدنسه ! . . . ربما كان في هذا تفسير لانتشار تحضير الارواح المفاجىء في الاجواء الهيبية . . . وربما كان هنالك تفسير آخر ، وهو ببساطة ان الهيبيز الذين سئموا ممارسة حياتهم الرتيبة (جنس . مخدرات . ازياء عجيبة غريبة . رقص مجنون . مهرجانات جماعية مثل وودستوك في اميركا وسولزبيري في بريطانيا) . وهذه كلها صارت تقليدية بعد انقضاء اعوام طويلة على تكرارها ، وجدوا في

تطعيم هذه الحياة بحكاية الارواح نكهة جديدة مثيرة للخيال تستطيع ان تحميهم من السأم والتكرار فترة لا بأس بها ريثما يجدون صرعة جديدة يطلعون بها . . . (ويؤكد ذلك ان تحضير الارواح على الطريقة الهيبية هو حفلة تعرية وحشيش وجنس . انهم يعاملون الارواح وكأنها زبائن في كاباريه) .

ولكن ترى هل تكون هذه الصرعة هي آخر صرعات الهيبيين ؟ . . . كل الدلائل تشير الى سقوط امبراطورية الهيبيين نهائيا . . . لقد قطعوا آخر خيط كان يمكن ان يربطهم بالحياة اليومية ومصير الفرد العادي والانسانية . . . لقد رموا عن اكتافهم نهائيا المسؤ ولية التي تحتمها عليهم مبادئهم (التي ادعوها) ، ورحلوا عن ذلك كله لينتهي بعضهم على الكرسي الكهربائي وبعضهم الآخر وسيطاً مزيفاً لتحضير ارواح مزيفة . . .

وحتى الصبغة اليسارية والتقدمية التي طالما ادعوها ، لم تكن الا من بعض صرعاتهم المزاجية ، التي كشف الزمن زيفها ، وصورة تشي غيفارا التي كانت معلقة في غرفة تحضير الارواح خيل الي ان الدموع تنحدر من عينيها . . . وان اسنان غيفارا التي تكشف عنها ضحكته صارت مخالب غيظ وانياب استياء . . .

ان من يزور لندن اليوم يشاهد في واجهاتها مجلات جديدة تتحدث عن السحر وعوالم ما وراء الطبيعة ، مجلات تروج اليوم كما راجت قبلها مجلات الجنس والمخدرات . . . فالسحر هو الموضة الجديدة ، وتحضير الارواح هو صرعة الموسم . . . والطريف ان بين هذه المجلات مجلة عميقة وجيدة اسمها « الانسان ـ الايمان ـ السحر » وهي دراسة فنية وتاريخية قيمة عن علاقة الانسان بما وراء الطبيعة منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا ، ويشرف على تحريرها طائفة من اساتذة الجامعات ! . . .

وداعا أيها الهيبيز

وبعد ،

ذهبت لازور رفاقي القدامى الهيبيز لأرى الى اين وصلوا . . . واي جديد في الوجود اكتشفوا . . . فوجدتهم قد هاجروا نهائياً عن عالم الواقع الى عالم الارواح ، وهم الذين انطلقوا ذات يوم من محاولة تبديله ! . . . ويا قارئي العزيز ، اذا زرت لندن هذه الايام ، لا تظن ان الدليل يسخر منك اذا سألك : هل تحب ان تقضي سهرتك في المسرح ، ام في تحضير الارواح ! . . .

لندن ٢٥/ ٦/ ٧١

العري « تقدمي »والمسرحية رجعية

رغم ان تحضير الارواح وفقا للطقوس الهيبية هو الصرعة اللندنية لهذا الموسم الا ان لندن لم تصبح بعد قاعة مغلقة لتحضير الارواح . . . وتظل لندن الثقافية ذلك المركز الفكري الغني بمختلف النشاطات الفنية التي تتفجر في شرايين حياتها الانسانية . . . ويظل اهم ما يميز لندن هو ذلك الالق والتنوع في مختلف الاتجاهات المعاصرة والكلاسيكية . . .

ففي مسرح جديد في هولبورن يقدم مسرحية (اوه كالكوتا) ١٢ شابا وفتاة وكلهم حفاة عراة على المسرح ، وعلى بعد مئة متر منهم على خشبة مسرح (الاولدويتش) يقام مهرجان لمسرحيات شكسبير بكل ما فيها من وقار الكلاسيكية (وحشمتها) . . . وكل ذلك في شارع واحد وعصر واحد وليلة واحدة .

ورغم ان تحضير الارواح على الطريقة الهيبية هو في نظري مسرح وسينما واستعراض عجيب غريب تمتزج فيه الطرافة بالمأساة ، وخواء الواقع المعاش بالخرافة ، الا ان خمس ليال قضيتها متنقلة بين كهف وآخر كانت كافية لاشباع فضولي . . . ولعل ما شدني الى جلسات تحضير الارواح الهيبية هو المفارقة الكبيرة التي تتضمنها هذه الاحتفالات . . . فقد كنت اخرج من غرف مليئة بعدة السحر وصرخات الوسطاء وتمتمات الارواح واجواء العصور الوسطى لاجد نفسي فجأة في اجواء شارع لندني حديث ، كل ما فيه يرفع صوته بآخر الصيحات الحديثة في القرن العشرين ، وكأنني ركبت آلة الزمن (التي خلقتها مخيلة ج .هـ .ويلز)وقضيت سهراتي متنقلة عبر التاريخ اقفز من قرن الى آخر كلما قفزت عن عتبة غرفة تحضير الارواح الى الشارع . . .

ولكن خمس ليال كانت كافية لاستنفاد حتى هذه الطرافة ، ووجدتني اعود الى قواعدي سالمة ، ابحث عن الوجه الآخر للندن . . . الوجه الحقيقي والاصيل الذي هو وحده في النهاية يمنحها تلك القيمة الانسانية المعاصرة . . . لندن التنوع الفكري والخصب الفني .

انطلقنا ـ اسرة عربية مقيمة هناك وأنا ـ الى مسرح (اولدويتش) سعياً وراء

شكسبير فوجدنا الانكليز كعادتهم مقبلين على حضور كاهنهم المبدع وعلى الباب لافتة : لم تبق محلات .

وسرنا بضع خطوات ووجدنا انفسنا صدفة امام مسرح مجاور يقدم مسرحية (اوه كالكوتا) الشهيرة . . . وبسهولة استطعنا ان نشتري بطاقات للمسرحية (هذا ليس اعتذارا عن حضور المسرحية ، وانما هو تسجيل لواقع فاجأني : وهو ان جمهور شكسبير ما يزال اكبر من جمهور العري والصرعات بدليل وجود مقاعد فارغة في (اوه كالكوتا) قبل رفع الستارة بدقائق ، ونفادها في مسرح شكسبير قبل موعد تقديمها بأيام ! . . .) .

والواقع انني قرأت الكثير عن (اوه كالكوتا !) وسمعت الكثير عنها وعن شقيقتها مسرحية (هير) ، واذا كانت (اوه كالكوتا) قد حظيت ببعض اعجاب الغرب ، الا انها لم تظفر بكاتب عربي واحد يدافع عنها ويؤيدها . . . ربما كان ذلك بالذات ابرز ما حفزني لحضورها . . . فقد خيل الي ان الذين كتبوا عنها من العرب ربما هاجموها احتراما للشعور العربي العام المحافظ ، وانهم شتموها في صحفنا هنا بعد ان كانوا قد صفقوا لها طويلا هناك ! . . ولكنني بعد ان شاهدتها بت اعتقد انهم كانوا في غاية الاعتدال في هجومهم عليها . فقد هاجموا العري في المسرحية والابتذال الجسدي ونسوا ان يحاربوا الرخص الفكري فيها الى حد خلوها من اية لمعة فكرية مبدعة . (اوه كالكوتا) ليست مسرحية (ولم يدع ذلك مؤلفها على اية حال) ، وانما هي استكشات استعراضية موسيقية كتبها اكثر من فنان وناقد وجمعها ونظمها الناقد المسرحي البريطاني المعروف كينيث تينان . والمقصود من المسرحية متابعة خطى مسرحية (هير) في هزها للاخلاقية التقليدية الزائفة والمؤسسات العفنة التي تكرسها . . . هذا بالاضافة الى (قضاء سهرة مثيرة لا هي بسهرة تهريجية رخيصة ولا هي بسهرة في الكاباريه غالية التكاليف) . . .

هذا ما تقوله مقدمة الكتاب الذي طبع فيما بعد والذي (يشرح) الاستعراض ويرويه ! . . . لكن الاستعراض لا يقول شيئا من هذا كله في كافة مقاطعه ، استثني من ذلك مقطعا واحدا لم يتجاوز العشر دقائق من مجموع الاسكتشات الطويلة المملة ،وفيه نرى (بنت العيلة) تشجع خاطفها على اغتصابها بأسلوب يجسد مراوغات وزيف طبقة معينة من الفتيات تدعي البراءة والطهارة التقليدية بينما هي في اعماقها غانية وسلعة (نموذج موجود في بلادنا العربية بكثرة) .

اما بقية مشاهد الاستعراض فنستطيع ان نسمع افضل من نكاتها واحلى من موسيقاها في اي (كاباريه) درجة ثانية في لندن . والسكتش الذي يمارس فيه الممثلون

الجنس على المسرح (عمليا : لا رمزيا على طريقة عصام محفوظ) هو اسوأ اجزاء الاستعراض المسرحي بسبب سخافة نكاته وسماجتها وبلادة الحوار ورخصه . . .

وباختصار (اوه كالكوتا) هي بمثابة مسرح اختبار جنسي للهواة ! . . . وتنتهي المسرحية كما تبدأ (١٢ شابا وفتاة على خشبة المسرح عارين تماما) بينما تسلط الانوار الكاشفة على اجسادهم لتجردها حتى من الظلال وتكشف عنها بتحد رخيص ، ويفقد الجسد البشري ذلك النبل الذي وضعه فيه كبار النحاتين الاغريق والرومان وسواهم على طول التاريخ ، كما يفقد حتى جمال العري الحيواني وجلاله الذي نراه في اجساد النمور والفهود ولا يبقى امامنا على المسرح سوى عري (شارعي) تافه الايحاءات .

وكما ان (اوه كالكوتا) تنتهي كما تبدأ ، كذلك يخرج المتفرج منها كما دخل ، دون ان يكتسب خبرة انسانية جديدة اوحتى مجرد التسلية العابرة . . . ويخرج وكله قرف واشمئزاز بل ويخرج منها متمسكا بثيابه فعلا (لانهم في اخر بعض الحفلات يقومون بحمل احد المتفرجين من الصالة الى المسرح ليؤدي وصلة ستربتيز اجبارية !) ويخرج المتفرج ايضا متمسكا بثيابه فكريا لان المسرحية سيئة الى حد يحول المتفرج التقدمي الى رجعي بدلا من ان يحول الرجعي الى تقدمي ! . باختصار ، (اوه كالكوتا) بكل ما فيها من عري وجنس رجعية جدا ، وغير تقدمية ابدا ، رغم انها محسوبة على التقدمية والثورة الجنسية ! . . . فهي لتفاهتها تحبب الى نفوسنا حتى الاخلاق التقليدية ـ بكل ما فيها من مهازل ـ ما دام البديل الذي تقدمه لها هو الرخص الذي شهدناه على المسرح . . .

في مسرحية (هير) مثلا احببت ظهور الابطال عارين على المسرح ، فقد كان في نص المسرحية وروحها طرح جديد لقضية الجسد يستدعي ذلك العري ، هذا اولا ، ثم ان العري كان جميلا في مسرحية (هير) فالاضاءة الملونة والشاحبة حولت الاجساد امامنا على المسرح الى تماثيل اغريقية بعثت الى الحياة . . . المهم في العري على المسرح او في اللوحات او التماثيل ان يكون ذلك العري فنيا . . . (كمثال على ما اعنيه بالعري الفني اذكر القارىء بلوحة (خلق الكون) التي رسمها مايكل أنجلو على سقف وجدران (محراب السيستينا) احدى كنائس الفاتيكان والتي يحج اليها كل يوم عشرات من رجال الدين وعشاق الفن . . . ورغم ان اللوحة تتضمن اكثر من ٣٠٠ جسد عار لامرأة ورجل وطفل ، الا انه عري لا يذكر الانسان بالجنس ، واذا فعل فانه لا يضخمه على حساب بقية الحقائق الانسانية التي يمثلها جسد الانسان وروحه وفكره : اي الذات الانسانية المسكوبة في قالب الجسد) .

ومسرحية (هير) كانت اكثر قربا الى هذا المفهوم ، بالاضافة الى روعة موسيقاها وجمال اغانيها والفاظها غير النابية ـ اذا قيست بأوه كالكوتا ـ . وفي نظري ان اقدام كتاب معروفين على كتابة نصوصها امثال (جون ليندون . جوليانا باري . وسماح بيكيت لهم باستغلال بعض حواره) لا يبدل شيئا في حقيقة صارخة : تفاهة بعض هذه النصوص ، وتفاهة اسلوب تقديم بعضها الآخر .

ترى ما هو سبب الاقبال الجماهيري على هذه المسرحية ؟ . . . .

العري ؟ يجده الفرد الاوروبي (الذي لا يشكو من الكبت) بمزيد من التسهيلات في اية صالة ستربتيز .

ممارسة الجنس ؟ لم تعد جديدة على المتفرج الغربي ، وما شاهدناه في هذا المسرح يشاهد الاوروبي اكثر منه بكثير في دور سينما سوهو وغيرها .

النكات الاباحية ؟ موجودة في اي كاباريه .

اعتقد ان سر نجاحها هو في انها نقلت الكاباريه الى االمسرح والى الاوبرا . وان كبار البورجوازيين الذين لا يجرؤ ون على ان يشاهدهم الناس في كباريه ، يسعدهم ان يذهبوا الى دار اوبرا ليشاهدوا فيها ما كان عليهم ان يتسللوا ويتلصصوا لمشاهدته في الكاباريه . . .

ففي هامبورغ قدمت (اوه كالكوتا) في (اوبراتنهاوس) وللمرة الاولى تكسر تقاليد دار للاوبرا وتستحيل خشبتها الى (وكر ملذات) ! . . . (اوه كالكوتا) تمسح عن المسرح قداسته ، وتغمره بتلك الموجة التي اضاعت الخيط بين الثورة الجنسية الحقة وبين الاباحية الحيوانية . . . واذا كانت مسرحية (هير) هي بداية الموجة ، والعري فيها طفولي وخجول ، فان (اوه كالكوتا) تمثل الوجه الشرس الفجور للموجة ، وهي بالتالي (الرائدة !) الاولى في نقل الفراش وما يدور فيه الى المسرح . . .

ولكنني رغم رأيي السلبي جدا في (اوه كالكوتا) وجدت ان من واجبي ان اتحدث عنها لقارئي العربي ، لان المسرحيات الفاشلة تعلم الانسان احيانا اكثر مما تعلمه المسرحية الناجحة . . . وفي بلادنا العربية صيحات كثيرة تنادي بضرورة ثورة الانسان الغربي لأجل انتزاع حرياته كلها بما فيها حريته الجنسية ، واعتقد ان مسرحية مثل (اوه كالتوكا) تلفت انظارنا الى ان الثورة الجنسية على الصعيد العربي قد تكون ضرورية ، ولكن الاهم هو الا نضيع ذلك الخيط الرفيع الذي يفصل بين الحرية وبين الاباحية . الحرية كاداة لانسنة الجنس ، والاباحية كانحطاط به الى درك اسوأ من درك الاخلاق

المرائية ! . . .

ثم ان (اوه كالكوتا) شئنا ام ابينا استعراض مسرحي شاهده حتى الآن ما يفوق المليون متفرج اميركي وغربي ، وقدم على مسارح نيويورك وهامبورغ وباريس ولندن ، ومن الضروري ان نعرف عن هذه المسرحية شيئا ما ، على الاقل كي لا نتحسر على عدم عرضها في مسارحنا ! . . .

ويظل شكسبير يشرق

« فأما الزبد فيذهب جفاء . . . واما ما ينفع النـاس فيمكث في الارض » . . . ذلك ينطبق ايضا على المسرح . . . وشكسبير ما زال في مسارح العالم كله منذ كان ، وسيظل . . .

والمخرجون البريطانيون يتفننون كل عام في ابراز زوايا جديدة في اعمال شكسبير لم تكن لتخطر ببال . وفي السنوات الاخيرة يلح المخرجون على ان اعمال شكسبير كلها هي ايضا من مسرح اللامعقول (بصورة خاصة مسرحية الملك لير وحلم ليلة صيف) ، وان شكسبير هو ابو اللامعقول . ولكن مهرجان شكسبير في مسرح الاولدويتش لهذا العام كان محتفظا بالطابع الكلاسيكي في الرؤية الاخراجية وفي التقديم ، وكان مهرجانا رائعا لم يخل ليلة تقديم مسرحية (تاجر البندقية) من الشغب الصهيوني - بطل مسرحية تاجر البندقية نموذج لتاجر يهودي بخيل جشع حتى الجريمة - . . .

ويظل شكسبير العظيم هو شكسبير سواء قدم في اطار اللامعقول او المعقول . . . وتظل الكتابة عنه في رسالة سريعة امراً مستحيلا ، فهو اكبر من كل العجالات ، ويستعصي على التلخيص . . . الكتابة عن شكسبير تعني اصدار ملحق خاص به . (وهو امر متعذر في هذه اللحظة !) ويكفي لندن الثقافية مجدا ان لا تخلو مسارحها طوال السنة من عمل شكسبيري يقدم للجائعين الى الابداع والجلال الفني الخالد .

حتى التلفزيون ،ابـداع فنـي

بعد ليال غنية بالمسرح والسينما (فيلم كين راسل عن تشايكوفسكي) وبعد مناخات مسرحية متعددة ، من جو الاثارة والتشويق في مسرحية (مصيدة الفئران) لاجاثا كريستي التي تعرض على مسارح لندن منذ ١٥ سنة ! ، وجو المرح الضاحك في مسرحية (هناك فتاة في حسائي) ، وجو الغضب الذي غمرنا ونحن نشاهد مسرحية (العازف على السطح) الجيدة (للاسف) والمليئة بالدعاية الصهيونية ، وبعد زيارة (تيت جاليري وغيره من المتاحف والمعارض الفنية والدورية والدائمة في لندن ، كان لا بد من امسية

نرتمي فيها اعياء ، ونسكت فيها جميعا ونترك التلفزيون يتحدث .

وحتى التلفزيون هنا هو اداة حضارية وفنية رائعة . . . فقد شاهدنا ندوة مع المخرج السينمائي كين راسل (الذي اخرج رواية د . هـ . لورانس : نساء عاشقات . واخرج مؤخرا فيلمه عن حياة تشايكوفسكي : عشاق الموسيقى) .كانت ندوة فكرية بحق ودار الحديث فيها حول فيلمه الاخير (عشاق الموسيقى) الذي سبب هزة في الاوساط الفكرية البريطانية وانقسم النقاد حوله بين اقصى التأييد واقصى النقد . . .

ولم تدر الندوة على الطريقة « الحنكشية » ، ولم يقل حنكش انكليزي للمخرج كين راسل (يا تقبرني يا حياتي يا سلام) ، اذ لا مكان في تلفزيون لندن الذي يحترم نفسه ويحترم مشاهديه لهذا النوع من المجاملات الشخصية التي تعبر عن رأي صاحبها وحده ، ولا تهم احدا سواه ! . . . لقد جاؤوا الى التلفزيون بالنقاد الذين هاجموا فيلمه ـ لا الذين ايدوه ـ واقاموا بينهم وبين كين راسل حوارا علنيا وكرروا فيه اتهاماتهم ورد هو عليهم . . . وكان في ذلك نموذج لبرنامج تلفزيوني يخرج فيه الانسان بما ينفعه . . . برنامج بعيد عن الرخص والتفاهة والافتعال وحشر اصحاب غير الاختصاص مع اصحاب الاختصاص في حوار هو مثل حوار الطرشان كل يغني فيه على ليلاه . . . وتذكرت بحسرة تلفزيوننا الكريم في لبنان.

أيها الفنان ،لماذا لندن ؟

كل فنان عربي يعيش في لندن هو بحد ذاته نموذج فكري يستحق نتاجه كثيرا من التأمل لانه يرد على كثير من الاسئلة المطروحة حول الابداع والمناخ الانساني والحرية الفكرية وغير ذلك . . . ولان احمد عثمان كان امامي تلك الليلة ، اخترته موضوعا لتأملات كهذه .

واحمد عثمان كاتب مسرحي شاب ، في الخامسة والثلاثين من عمره ويبدو في الخامسة والعشرين من عمره .

بدأ حياته الادبية بمسرحية (بيت الفنانين) التي اثارت ضجة كبيرة في مصر في اوائل الستينات ، وقال يومئذ توفيق الحكيم عن احمد عثمان : هذا الشاب سيخلفني في المسرح . . .

ولكن خليفة توفيق الحكيم لملم اوراقه وذاته وسافر مع زوجته نجلاء مدحت عاصم الى الكويت للعمل . . وبعد بضعة اشهر طارا فجأة الى لندن وما زالا هناك منذ ٦ سنوات . . . سافرا لقضاء عام دراسي هناك ، ولم يعودا . . . وقد لا يعودان . . . من

يدري ؟ . . .

في لندن يعمل احمد لكسب عيشه في اي حقل . . . وجهه الشرقي الملامح استطاع ان يكون من بعض موارد رزقه، فصار نجما للاعلانات ، تزين صوره اغلفة المجلات وجدران المترو ! . . . وفي هذه الاثناء يتابع نشاطه المسرحي . « ثقب في السماء » مسرحيته التي كتبها بالعربية وترجمها الى الانكليزية قدمت بنجاح على المسرح هناك ولفتت انظار النقاد والمخرجين . . . في الوقت نفسه يتابع دراسته في الجامعة ، وفي الشوارع ايضا ، حيث النماذج البشرية تعج بها شواراع لندن وكأن كل رصيف هو مسرح حي بحد ذاته . . . وزوجته نجلاء تابعت دراستها في الفن وتماثيلها تملأ دارهما حيث جلسنا نتحدث ، وتطل علينا عبرها وجوه اليفة محببة : وجه والدها . . . وجه جمال عبد الناصر . . . الطيب صالح . . . ووجوه صديقات لندنيات . . . ونجلاء ترسم ايضا ، لكنها كنحاتة في نظري افضل منها كرسامة . . . انها نحاتة من الطراز الاول ، قادرة على نقل التعابير والملامح بصورة مدهشة . . .

ونعود الى احمد . . . ماذا يفعل هذه الايام ؟ . . .

ادار شريطا مسجلا ، واستمعنا الى مسرحية تدعى (اليعازر) بصوت فنان محترف .

قال لي احمد : هذه اول مسرحية اكتبها مباشرة باللغة الانكليزية . بعد جهد سنوات استطعت ان اتوصل الى الكتابة بالانكليزية مباشرة .

قلت له : حسنا . . . وماذا بعد ؟ . . . هل قررت الاستقرار هنا ، والكتابة بالانكليزية ، وهل تستطيع ان تكون صمويل بيكيت آخر ؟ الا ترى معي ان العودة محتومة ، وان الوقت قد حان لترجع الى القاهرة او الى اي بلد عربي ؟ . . .

قال لي : كنت انوي العودة ، ولكنني تلقيت هذه الرسالة مؤخرا .

ناولني رسالة من المخرج البريطاني الكبير (بيتر بروك) وفيها يطلب من احمد العمل معه في مؤسسة جديدة اسمها : (انترناشيونال سنتر اوف تياتر ريسورتش) اي : المركز العالمي للابحاث المسرحية . وما تزال الاتصالات تدور حاليا بين احمد عثمان وبين معاون بيتر بروك : جيوفري ريفز .

المركز دونما شك مغر . ولكن هل هذا هو السبب الحقيقي لبقاء احمد عثمان في لندن ؟ . . . (اتحدث هنا عن احمد عثمان واتحدث عبره عن كل فنان عربي ـ وما اكثرهم ـ عرف نوعا من الهجرة الى عاصمة اوروبية ما واستقر فيها لاقامة طويلة او قصيرة

او دائمة) .

ترى هل يبقى هناك لانه لا يريد ان يواجه المشاكل التي يعيشها الفنان في بلادنا وابرزها افتقاره الى حرية الفكر بمعناها الحق ، وتحت ظل اكثر الحكومات التقدمية وغير التقدمية ؟ . ام تراه لا يعود بعد ان صار اسير الغنى الثقافي والحياة الفنية الرائعة في لندن ، وهل الفن في لندن مثل الميدوزا كل من ينظر اليها يستحيل الى تمثال من الحجر لا يغادر ارضها ابدا ؟

لا ادري . كل ما ادريه هو ان الفنان في الغربة ـ وفي لندن بالذات ـ يتحرر من كثير من الدوامات الجانبية واجواء المهاترات التي يعيشها الانسان في بلادنا . . . يبتعد مثلا عن جو الالحاح عليه بالنشر (الطيب صالح لم ينشر حتى الآن سوى كتابين ولو كان في بلدنا لارهقناه بملاحقته : لماذا لم تنشر هذا العام كتابا ؟ ، يريدون هنا من الفنان كتابا في كل شهر وربما كل اسبوع ليجددوا له المبايعة !) . ويبتعد ايضا عن الجو السياسي الذي ما يزال ينظر الى الفنان على انه اداة سياسية مسخرة لكتابة النشرات الحزبية ، ويجبرونه على كتابة الشعارات تحت سوط اتهامهم له بعدم الالتزام . . . هذه كلها مؤثرات يتخلص الفنان منها نهائيا في لندن ، ويجد الفرصة ليغوص داخل ذاته وليقول فقط ما يرغب في قوله وليذهب كل شيء الى الجحيم ـ الا صدقه ـ .

وبعد ،

فان لندن بقسوتها وشراستها ، وغربة الانسان فيها ، وبغناها الفني والفكري ، تقتل الفنان العربي او تعيد خلقه . . .

ولكن الفنان الاصيل هو طائر الفينيق الذي كلما احترق ونشر رائحة العنبر اعيد خلقه ليحترق من جديد . . . وليستمد من احتراقه بعثا جديدا وحياة جديدة . . . ويعود من الغربة وقد بعث من جديد .

روما ٢/ ٧/ ٧١

ممنوع الكتابة على الجماجم !! . .

اتراه كان الحقد هو الذي جعل تلك المرأة تبعث بي الى نادي الموت الجهنمي هذا ، لأقضي يومي الاول في روما مع ٤٠٠٠ هيكل عظمي بشري ولافتات مكتوب عليها : ممنوع الكتابة على الجماجم ؟ . . . ام تراه كان اعجابا فنيا خالصا من جانبها بهذا المتحف المرعب ؟ . . .

وفي الطائرة ، وانا في طريقي من لندن الى روما ، كانت سعادة داخلية تتفجر في اعماقي كعادتي كلما كنت مقدمة على اكتشاف شيء جديد . مدينة جديدة . انسان جديد . فتح صندوق مغلق . فتح رسالة مجهولة المصدر .

ولعل سعادتي لم تكن سراً ، ولعلي كنت ابدو كتمثال شفاف اشتعل في داخله فجأة مصباح قوي ، فتوهج دفئا وحياة ، والا ، فلماذا كانت تلك المرأة التي يحتلها خريف اعوامها الستين تحدق في وجهي باستنكار مغتاظ ؟ . . .

سألتني بحقد امرأة تشتهي الحياة ولم تجرؤ على ان تحيا مرة : هل هي زيارتك الاولى لروما حتى تبدي سعيدة هكذا ؟ . . .

قلت لها : تقريبا . هل هنالك مكان معين تنصحينني بمشاهدته ؟

ودون تردد ، اخرجت ورقة وكتبت عليها عنوان كنيسة اسمها «القديسة مريم الحامل» وقالت : اذهبي اليها غدا صباحا . انت بحاجة الى مشاهدتها قبل اي شيء آخر في هذا العالم . وبينما كانت تخط العنوان ، التمع في عينيها بريق شرس وغامض ، كما لو كانت توقع صك الحكم باعدامي .

وكالمنومة مغناطيسيا وجدتني اسارع في اليوم التالي الى العنوان الذي سطرته تلك السيدة بخط راجف كخط الساحرات . وفوجئت حين وجدت نفسي في كنيسة صغيرة . صحنها مقفر الا من الثريات الذهبية ، والقديس ميشيل يسحق في صمت رأس تنين الشر داخل احدى اللوحات . كانت تبدو مثل اية كنيسة اخرى نصف متواضعة . اقتربت من راهب كبوشي لاستوضحه : هل في هذه الكنيسة شيء خاص ؟ يبدو انه اعتاد السؤال ، فقد كان واضحا انه لا يفهم حرفاً واحداً من اللغة الانكليزية ، ولكنه اشار بأصبعه الى

درج صغير يقود الى قبو تحت الارض .

وهبطت الدرجات ووجدت نفسي في اغرب مكان من هذا العالم . كانت هنالك اربع غرف ، جدرانها ومحاريبها ونقوشها وتماثيلها وصلبانها وكل ما فيها مصنوع من مادة لا تخطر ببال : من عظام الاموات وجماجمهم . . . من اقفاصهم الصدرية واكتافهم وسواعدهم وامشاطهم العظمية . . . كل قطعة عظم في جسد الانسان وجدت فنانا يستعملها كمادة خام (بدلا من الاحجار او الفيسفساء او الرخام او الاسمنت !) ويصنع منها حتى تماثيل بل وثريات تتدلى من السقف . وقفت اتأمل في هلع هذا المشهد : ثريا تتدلى من السقف بسلاسل وتتألف من مجموعة من عظام الساق على شكل حزمة ! . . . تمثال ملاك ، جسده جمجمة وجناحاه عظما الكتف ! . . . هنالك سرير مصنوع من العظام ، وامامه هيكل عظمي لصاحب السرير وقد ارتدى قماشا من الخيش ! . . . في ارض الغرفة تراب جيء به من فلسطين ، الارض المقدسة .

شهقت سائحة اميركية وبدا عليها انها تتحفز لوصلة من الاغماء ، وعريسها الذي امسك بها بدا اكثر صفرة منها كأنه مات لتوه . وخيل الي ان خفاشا لا يرى هو الموت يطير فوق رؤوسنا ويحوم حاملا منجله التقليدي متوعداً . . .

ركعت على الارض امرأة وبدأت ترتجف وتصلي . اما انا فقد انجلت عني تماما الصدمة الاولى التي يحس بها الانسان امام الموت المتجسد في مقبرة او ساحة حرب .

ان النظرة الاولى الى هذا المكان ينجم عنها حس اكيد بالخوف المشوب بالقرف (بسبب رائحة عظام الـ ٤٠٠٠ راهب الذين نبشت قبورهم وجيء بعظامهم لتكون مادة لبناء هذا الهيكل العجيب) . . . خوف يشبه خوف السندباد حين وجد نفسه في جزيرة الجماجم . . . لكنني سرعان ما الفت المكان حولي ، وتخدرت اعصابي الشمية ، وبدأت ارى في تلك الجماجم والعظام رموزا لقضايا طالما هربنا من مواجهتها . . . وتذكرت ما كتبه سارتر حينما شاهد هذه الكنيسة للمرة الاولى واسماها « قبو الكبوشين » . . . كتب يقول بغضب :

اتساءل عن السبب الذي دفع بالكبوشيين الى تحطيم دورة الازوت والى صيانة هذه المنتجات العضوية من الانحلال ؟ ترى اكانوا يريدون ان يبينوا ان كل شيء يتغنى بمجد الله ؟ ليس هو الله الذي نجده في هذه المعابد ، انما نجد صورة ناد جهنمي : استغلال الميت من قبل الميت . . . ليس من المسيحية في شيء اللعب بعظام الاموات على هذه الصورة . اغتصاب القبور . السادية . نبش الجثث : حقا انه لانتهاك فاضح

للقدسيات . ـ عن فرانس اوبسرفاتور ـ العدد ١١٥ ـ ترجمة جورج طرابيشي) . . .

ترى هل كان سارتر غاضبا امام هذا المشهد غيرة منه على (المقدسات) التي لا يؤمن هو اصلا بانها مقدسات ما دام يؤمن بان الموت هو نهاية كل شيء ؟ . . . ام تراه كان غاضبا لان قبو الكبوشيين هذا يضعه امام الموت ويذكره به كما لا يمكن لاي شيء آخر في العالم ان يذكره به ؟ تراه يرفض حتى ان يواجه ذاته بهذا الخوف ، فيفلسفه ، ويحوله الى خطبة للدفاع عن جثث الذين نبشت قبورهم (وهو الذي لم يحزن للاحياء الفلسطينيين الذين هدمت بيوتهم ووقف منهم موقفا شبه عدواني عام ١٩٦٧) ؟ . لا ادري . . . كل ما ادريه هو انني لم اشعر بأي خوف في هذا المكان . . . بعد عدة دقائق شعرت بما يشبه الالفة الحزينة ، كأنني ولد ضال اعادوه الى والده الشرعي الذي لا يعرفه والذي يدعى الموت . . . كم هو ذكاء ان تبنى كنيسة من عظام الموتى ، اليس الموت والمجهول وبقية القوى التي يقف الانسان امامها عاجزاً وضعيفاً هي التي دفعت به الى اكتشاف الله في ذاته ؟ . . . اليس ضعف الانسان وعجزه امام الموت ووقفته الذليلة امام اسرار ما وراء الموت من الدوافع الانانية الاساسية التي تجعله يتمسك بفكرة الله ؟ . . .

ولكن ذلك المكان جعلني اتمسك بفكرة الحياة . . . وانا اجيل الطرف في ما حولي ، وكل ما حولي عليه بصمات الموت وراياته ، احسست اي كنز عظيم املك في هذه اللحظة : كنز اسمه الحياة . . . وبدلا من ان اكتئب احسست بأنه ليس هناك وقت لكآبة فالحياة جميلة بقدر ما هي هشة وسريعة الانكسار . . . وما اراه امامي سيجيء مهما فعلت . . . لن تبعد منجله عني اية كآبة او خوف او هلع . . .

فلأحيا . . .

وغادرت القبو وكلي شهية الى الحياة !

وتذكرت تلك المرأة التي ارسلت بي الى هذا المكان ، وتذكرت حقدها على فرحي المجاني بالوجود . . . لقد بعثت بي الى كهف الموت لاحزن ولاكتئب ولاصير مثلها ومثل كثيرين سواها : صفراء حاقدة ومسمومة وجبانة جبن امرأة تشتهي ان تغتصب بالقوة لانها لا تريد ان تحمل مسؤ ولية استمتاعها ! . . .

الى هذه السيدة اينما كانت جزيل شكري . . . فقد جعلتني التهم لحظات عمري في روما التهاماً ، واعيش كلا منها وكأنها آخر لحظاتي . . .

وانا اغادر تلك الكنيسة العجيبة مددت يدي الى جيبي لاخرج منها الورقة التي كتبت فيها العنوان بخطها ، ولم اجدها . . . كانت قد اختفت ! . . . بحثت عنها في

حقيبتي وبقية جيوبي ولم اجدها ! . . .

ولكنني لم اسمح لنفسي بالاعتقاد ان هذه المرأة كانت شبحا يدعوني لزيارته ، (اذ ربما كانت عظامها من بعض جدران وسقف تلك الكنيسة العجيبة) ! . . .

متحف الهذيان ام الفن الحديث

« بيكاسو لو رأى هذه الكنيسة لذهل امامها ولاحبها . والحق ان هذه الرائعة الفنية تكمن قيمتها في مادتها اكثر مما تكمن في شكلها ـ سارتر في المقال نفسه » . . . وهذا انطباع لا اشك في انه يراود كل من رآها . . . انها دونما شك تحفة في الفن السوريالي ، و (تفتح النفس) على رؤ ية الفن الحديث . . . انها رغم انتمائها الى القرن التاسع عشر . حديثة ومعاصرة الى حد جعلني اتوق الى رؤ ية وسائل تعبير حديثة في الفن . . . وسائل للتعبير عبر واسطة مبتكرة غير الصخر الذي منه تماثيل شوارع روما وقصورها ومتاحفها ، وغير الرسوم بالريشة والاصباغ . . . وهكذا كان لا بد من ان اتجه الى شارع « فالي جيليا » حيث متحف الفن الحديث . . .

ومتحف الفن الحديث هو بحد ذاته كبناء وكطريقة في العرض ، تحفة من تحف الفن الحديث . . . الاضاءة مدهشة ، وكل ما فيه مرتب وفقا لترتيب زمني ، واقدم ما فيه لا يرجع الى اكثر من نصف قرن ، وهو فعلاً يضم احدث الصيحات الانسانية في الفن . . . ولكن اكثر احدث الصيحات في الفن هي للاسف هذيان مشوش رافض وليس صيحة واضحة الاسباب والمطالب والاهداف . وقبل ان ابدو وكأنني اتحامل على الفن الحديث ، اسارع لاروي اية (اهوال) لقيت في هذا المتحف .

امام مدخل المتحف كانت هنالك لافتة قماشية طويلة تحمل اسم : « مانزوني » وتشير الى انه يحتل صالة المعارض بالمتحف حيث يعرض احتفالا بذكرى وفاته الرابعة . . .

وسألت الدليل : من هو مانزوني ؟ . فصعق ، ونظر الي بدهشة واستنكار كما لو كنت قد اكلت امامه طفلاً نيئاً : كيف لا تعرفين مانزوني ؟ . . . وجرني لأشتري كراسا عن « مانزوني » . وهنا ازددت خجلاً لجهلي ، وسارعت بالدخول الى قاعة العرض وكلي خشوع ! الكراس يقول ان الفنان مانزوني مات في الثلاثين من عمره ، وانه من رواد الفن الحديث ، وانه اثار طيلة حياته الفنية القصيرة ضجة في اوروبا ، وان من تلامذته روبرت روشونبرغ الذي فاز بجائزة فيينا للفنون عام ١٩٦٤ . وقال الناقد درنا كوريل ان « مانزوني » هو الاول في التاريخ الذي اكتشف جمال الانسجة والوبر ، وانه . .

وانه . . .

ولم اعد استطيع الانتظار فاغلقت الكراس وسارعت لاشاهد المعروضات بنفسي ، وليتني ما فعلت ! . . . ابرز تحف (مانزوني) واهم لوحاته وتماثيله هي ما يلي : عشر بيضات دجاج ، على كل بيضة بصمة اصبع هي اصبع المبجل مانزوني بعد ان غمسها بالاصباغ . علب كونسروة تم تعليبها واغلاقها في ايار ١٩٦١ ، والكتابة عليها تشير ايضا الى وزن محتوياتها : ٢٠ غرام . ومحتوياتها : (روث) الفنان ! - عذراً من قارئي ، ولكن هذا فعلا ما وجدت في المتحف الحديث ! - . والعلب مرقمة ، بيع اكثرها والمتحف يفاخر بأنه استطاع الاحتفاظ بعينة منها ! . بل هنالك على الجدار خلف علب (روث) الفنان صورة كبيرة بالحجم الطبيعي له وهو في حمام بيته اثناء (عملية الخلق) تلك ! . . .

اما لوحاته التي تعتبر فتحا في عالم الاكتشافات الفنية فهي : عشر ضمادات من الشاش الملفوف وقد الصق بعضها الى الآخر في قعر علبة . ولوحة اخرى هي عبارة عن طرد بريدي مختوم بالشمع الاحمر وصل للفنان ولم يفض اختامه وانما اعتبره لوحة او تمثالاً والله اعلم ! . . وهنالك ايضا مجموعة من قطع (الموكيت) ذات الوبر الطويل ، مثل العينات التي نجدها لدى اي بائع من باعة السجاد والموكيت ، والمفروض ان نعتبرها لوحات ، بل وآثاراً فنية خالدة . اما تمثاله الخالد ، فهو قاعدة تمثال ليس عليها اي تمثال ، وانما عليها نعلا حذاء لامرأة (المفروض ان التمثال كان حياً حتى انه خلع حذاءه وغادر قاعدته مخلفا لنا الحذاء ! . . . وصور الفنان التي تغطي جدران قاعة العرض والتي هي بالحجم الطبيعي ومن المفروض انها تمثله اثناء(خلقه) لروائعه ، ترينا فتاة جميلة عارية تماماً واقفة على قاعدة التمثال والمرحوم مانزوني يوقع امضاءه على (مكان ما) في جسدها ! . . . اليس من المفروض ان يوقع الفنان على انتاجه ؟ . . .

وبعض روائع هذا الفنان حذاء عتيق جدا وقع عليه مانزوني ، والى جانبه ورقة شهادة ابراء كتب عليها :

انا الفنان العظيم مانزوني وقعت على هذا الحذاء ولذا فهو قطعة من الفن (اوتنتيك) واصيلة بشهادتي !

هنالك ايضا سنانير لصيد السمك ومسامير وحطام سيارات وكل ما نجده عادة في درج جداتنا العتيق من مختلف البقايا و (الكراكيب) . . . والمفروض انها لوحات . . . هنالك اقمشة بيضاء للوحات لم يرسم عليها شيئاً لكنه عرضها على انها لوحات . وهنالك ايضا لوحة فيها صور حيوانات منوية لها اجساد رجال الفضاء (وهي وحدها لا بأس بها في

هذا المعرض) والى جانبها لوحة هي عبارة عن كتلة من القطن العادي ، ولوحة اخرى تتألف من عدة بنسات عتيقة .

والجدير بالذكر ان مانزوني باع من صرعاته هذه الكثير وجنى شهرة في اوروبا بعيدة المدى ، ومن الواضح انه انسان ساخر وذكي ، ولكن رفضه تجسد في اطار الصرعة وعجز عن البلوغ الى مرتبة الفن الذي يبقى .

بعد قاعة عرض « مانزوني » لم يعد في متحف الفن الحديث ما يمكنه ان يدهشني .

كانت هنالك صفائح رقيقة من البلاستيك معلقة في الفضاء بخيوط من المفروض انها لوحة ، وكانت هنالك صفائح من التوتياء تصير (لوحة) اذا نفخت عليها اذ انها حينما تتحرك ، تتراقص الاضواء عليها وتتلاحق الالتماعات . . . كانت هنالك مرآة بعيدة في آخر دهليز طويل ترى فيها نفسك قزماً والمفروض انك في هذه الحالة ـ تمثل اللوحة ! . . هنالك غرفة مظلمة داخل جدرانها احواض مضيئة مثل احواض الاكواريوم في حدائق الحيوانات وداخل هذه الواجهات المضيئة تتحرك نقاط مضيئة ، وتتراكض وتضيء وتنطفيء ، والمفروض ان كلا منها لوحة ، وهنالك اخيرا غرفة المرايا التي من المفروض انها فن حديث ، وهي غرفة من الدهاليز يصرخ اكثر من يدخل اليها ـ الا اذا كانت اعصابه في حالة تحسد عليها ـ فهي غرفة معتمة ، ما تكاد تدخل اليها حتى يغلق خلفك الباب . ويفتح امامك باب . وتجد نفسك في سلسلة من الدهاليز ، وسقف الدهاليز ، وابوابها وجدرانها من المرايا . وتتحرك وتحاول ان تسير فتضيع ، ولا تميز بين الباب المفتوح حقا ، وانعكاسه بالمرآة ، وتبدأ بالتعثر والاصطدام بالجدران المرايا ، ويتم ذلك كله بينما اضواء حمراء وزرقاء معتمة تتلاحق تضيء وتنطفيء ثم تنصب عليك اضاءة مخططة رمادية وبنية فبنفسجية وصفراء ، وكل هذا يتم ، بينما انت لا تسمع سوى صوت نواح الآلات وازيز الحديد الذي يفتحَ الابواب ويغلقها والمفاتيح التي تبدل اوتوماتيكيا الاضاءة . . . وسقف المكان واطيء ، وجدرانه خانقة ، وباختصار تشعر داخلها بأنك تعيش كابوسا لا نهاية له ، هو مثل كابوس الحياة ، ووجهك يطالعك في عشرات المرايا فتكاد لا تعرف وجهك الحقيقي من وجهك الزائف ، وتجد نفسك اكثر من شخص واحد تماما كما انت في حياتك المعقدة في مجتمعاتنا المعاصرة المعقدة . . . هذه الغرفة هي دونما شك اختصار لما يحسه الانسان من عذاب في التكيف مع مجتمعاتنا غير العادلة ، والحياة في اجواء الحياة المعاصرة المزيفة والمخنوقة . . . وحينما يدخل اثنان الى الغرفة تختلط عليهما الامور وتزداد صعوبة ويخيل اليهما انهما سيصطدمان كيفما تحركا لان انعكاساتهما في المرايا تزيد في حيرتهما

وتيههما ويضيق المكان بهما فيشعر كل بانه لا مكان له ولزميله في آن واحد . . . تلك هي حياتنا المعاصرة بكل معاني الكلمة. لا افق وانما دهاليز. لا وجه واحداً وانما عشرات الوجوه وعشرات الادوار حتى ليضيع الانسان ذاته الحقيقية ووجهه الحقيقي . ووسط ضجيج الالات يتعذر الحوار ، ويسقط الانسان في دوار من الضيق الشديد وبعضهم يصرخ . . . ويقال ان كثيرين اصيبوا بانهيار عصبي في هذه الغرفة ، وربما كان ذلك تفسير الحارس الذي يشبه ممرضي المستشفيات العقلية والواقف امام باب الغرفة ، والمقعد الكبير الشبيه بالفراش المجاور لها ! . . . هذه الغرفة تؤرخ دونما شك لكابوس القرن العشرين وهي في نظري (فن) . انها ليست لوحة وليست تمثالاً ولكنها (فن حديث) بكل معاني الكلمة لانها سخرت الاختراعات العلمية الحديثة كمادة خام ، واستطاعت عبرها ان تنقل للإنسان ، لاي انسان ، الشعور بالضيق والحزن والضياع والغثيان والوحشة . . . شعور جيل القرن العشرين . . . والغرفة من تصميم الفنان دافيد بورياني .

اذن انا لست ضد الفن الحديث لمجرد انه (حديث) . في رأيي ان هنالك (فنا) او (لا فن) ، وليس هنالك (فن قديم) و (فن حديث) من هذه الزاوية . فكل (حديث) سيصير قديما ، وما هو اليوم (فن قديم كلاسيكي) كان يوم ظهوره فنا حديثا . . . وانا ضد التصفيق لشيء ما لمجرد انه حديث او التصفير لاخر لمجرد انه قديم . . . ولنعد الآن الى حديث المتحف . . .

هنالك ايضا قماش لوحات ابيض وبدل من ان يرسم على القماش شيء ما نجد فيه طعنات سكاكين وشقوقاً احدثتها خناجر .

نجد ايضا هياكل سيارات كاملة وقد حطمها اصطدام ما . نجد اشكالا بلاستيكية عجيبة غريبة وقد اشاح حارس المتحف بوجهه عنها الى النافذة ووقف يتأمل عبرها السماء الزرقاء وازهار الحديقة . . .

واذا استثنينا من المعرض بعض لوحات نادرة لفان كوغ وموديلياني وتماثيل جياكوميتي وقليلين غيرهم فاننا نخرج من متحف الفن الحديث في روما بانطباع عام حزين . . . نشعر بان الفنان الحديث هو انسان ساخر ، متألم ، لا يؤمن بجدوى اي شيء ، ولا يجد الخلاص في اي شيء حتى في الفن ذاته ، انه مثل اخر انسان في مدينة احالتها القنبلة الهيدروجينية الى هشيم وبقي فيها وحده مع ذكريات حلوة وواقع من الكوابيس والآلام . . . ربما لذلك نجد الفنان المعاصر شرسا في رفضه الى حد

الاسفاف . . . فما نزوني الذي وضع (روثه) في علب مكتوب عليها «داخل هذه العلبة تجد الـ . . . المعبأة وهي طازجة» . . . مكتوبة بثلاث لغات ، انما يحاول تحقير العالم حوله والسخرية منه تماماً كما يحاول ذلك اولئك الذين يخرجون على المسرح عراة تماماً (في اوه كالكوتا مثلا) ، ولكن وسيلتهم الى الرفض هزيلة وطفولية وغير واعية وبالتالي ليست من نوع الفن الذي يخلد . . .

هذا الاحساس ازداد لدي حينما شاهدت ما انتجه فنانو روما وغير روما منذ آلاف السنين قبل الميلاد حتى اواخر القرن السابق . . .

في « البانتيون » . . . في متاحف الفاتيكان . . . في الكنائس . . . في الشوارع والساحات . . . في قصور البورغيزي وبورجيا وغيرها . . . في كل مكان نجد ان الفنان القديم كان يؤمن بشيء ما . . . كانت لوحاته تمجد الله او تمجد الانسان او تمجد الفنان . . . اما ما شاهدته في متحف الفن الحديث فقد كان يمجد الدمار . . . ويسخر من الاله ومن الانسان ومن الفنان . . . هنالك مثلاً تمثال « دافيد » المشهور الذي نحته اكثر من فنان قديم وكان في نسخهم عملاقاً جميلاً ، نجده في متحف الفن الحديث وقد نحته فنان معاصر هو ميركو باسلديللا ، وجعل منه قزماً كاريكاتوري الهيئة مصابا بالعرج والتواء الساق وفي يده سيف من الكرتون ! والفرق شاسع بينه وبين (دافيد) مايكل انجلو الذي شاهدته في فلورنسا وذهلت امام عظمته وشموخه .

وكمثال آخر ، نجد تمثال افروديت في متحف الفن الحديث كما نحتها « لونسلو ليوناردي » امرأة طولها اقل من متر ، صلعاء ، قبيحة ، وشاذة ايضا ! . . . بينما نجد افروديت كما نحتها برنيني (معروضة في قصر البورغيزي) عملاقة جميلة كل ما فيها ينطق بالسحر والجمال والقوة . . .

والامثلة اكثر من ان تحصى . . . وليست صدفة ان يعرض فنان ما حطام سيارة معجونة على انها تمثاله المفضل . . . مما لا شك فيه ان الفنان المعاصر يمر اليوم بمرحلة انتقالية ، قد لا يبدع خلالها شيئاً يبقى، لكنه يمهد لظهور فنانين جدد لهم صوت جديد واضح ومفهوم ورسالة تعرف ماذا تريد ان تقول . . . متى يظهر هذا الجيل ؟ . . . فلننتظر او فلينتظر احفادنا . . .

هيبية على الطريقة الايطالية

بينما نجد امبراطورية الهيبيين في اميركا وبريطانيا تنحدر الى هوة التخدير والجريمة

وتحضير الارواح نجد موجة من (الرينيسانس) الهيبية تتفجر في روما . . . وتتمركز في نقطتين رئيسيتين : في ساحة في قلب روما القديمة اسمها سانتا ماريا دي تراستيفري ، وارضها مرصوفة باحجار رومانية وتتوسطها بركة مياه وتماثيل جميلة وممنوع مرور السيارات بها وتحيط بالساحة مجموعة من مقاهي الارصفة ، والمركز الثاني في مكان آخر مشهور سياحيا واسمه « الدرج الاسباني » وقد صممه الفنان برنيني وهو ايضا من اجمل مواقع روما . . .

وفي ساحة سانتا ماريا دي تراستيفري ، وعلى درجات السلم الاسبانية ، نجد جيلاً جديداً من الهيبيين الابرياء يترعرع . . . ما زالوا مثل هيبيز لندن عام ١٩٦٤ ، فهم ابرياء ، بسطاء ، اقل قذارة من المعتاد ، وشعرهم نصف طويل ولحاهم المرسلة تحيط بها ابتسامة شبه خجول . . . ولا تشم رائحة المخدرات في سجائرهم ولا ترى في وجوههم الحلوة المشرقة اية اثار لتعاطي الماريوانا وال . اس . دي .

انهم ما زالوا في مرحلة الهيبية الحلوة . هيبية ما قبل السقوط. هيبية الرفض الجميل البريء قبل ان يقع فريسة في انياب الاباحية التخديرية . .

ويبدأ اليوم في روما عرض مسرحية (هير) ، وينتظر ان تتطور الحركة الهيبية بعد هذه (الدورة التدريبية) تطورا حاسما ! . . . ونجد ايضا ملصقات على الجدران تقول : « نون فياتشيا لاجيرا . . . فياتشو لاموري » اي (لا تصنعوا الحرب ، اصنعوا الحب) . ولكن هيبيي بلدهم مثل هيبيي بلدنا، ما زالوا واقعين تحت سيطرة المؤسسات القوية من كنسية ودينية وعائلية . . فايطاليا رغم انها جزء من قارة اوروبا ، الا انها تنتمي اجتماعيا وحضاريا الى دول حوض البحر المتوسط اكثر مما تنتمي الى اوروبا . وقد يشعر الاوروبي في روما بالغربة لكن العربي سيشعر بانه في بلاده ، خصوصا حينما يتشاجر الناس في الشوارع بصوت عال دونما سبب او يلاطفونه مجانا او يتطفلون عليه ويدسون بأنوفهم في شؤونه وكل ذلك بطريقة ذكية محببة . . . والسائح الاميركي في روما هو الزوج المخدوع ، يبيعونه باسعار خيالية اساور من المفروض انها تعود الى عصر تعذيب المسيحيين وحتى قطعا خشبية لا ترى بالعين المجردة من المفروض انها من صليب المسيح . . . والعجيب ان السائح يخرج دائما وقد فرغت جيوبه من النقود وعلى وجهه ابتسامة رضى عميقة بالصفقة ! . . . الشخصية الايطالية قريبة جدا من الشخصية العربية . . . يتحدثون بصوت عال ويخالفون قواعد المرور ويتشاجرون في الشارع ويرضون بسرعة

ويحبون الحياة ويتباهون (بالشطارة) ويغازلون الفتيات في المقاهي ، وحتى رجل البوليس لديهم يتخلى عن صف طويل من السيارات ذات الزمامير المحتجة اكراما لشورت فتاة جميلة تعبر الشارع ، وقد يرميها بكلمة غزل من خلف صفارته . انه شعب مرح ، لا ينام ، في الليل خيل الي ان في روما كل ليلة كرنفالا من طقوس الرقص في الشوارع والغناء وعرقلة السير واصطدام السيارات حيث يتحول الغناء الى وصلات من الشتائم بين المتصادمين وسرعان ما تمتد الرؤوس من النوافذ ويستحيل الشارع الى ساحة حرب ويتصايح الجميع في آن واحد وقبل ان يسارع غريب مثلي لطلب البوليس يعم السكون فجأة ويختفي الجميع من الشارع ! . . .

روما ،وفنانونا

كنوز ايطاليا الفنية لا يستطيع الانسان مشاهدتها في اقل من عام ، الا اذا تبنى طريقة السياح الاميركان الذين يحملون الكاميرا ويتصورون على ابواب المتاحف ، على كل باب صورة ، وينتهي الامر ! . . .

ان قاعة واحدة من قاعات الفاتيكان هي السيستيناشابل التي ابدع رسمها مايكل انجلو تحتاج وحدها الى ما يقارب الشهر من الاستلقاء على الارض وتأمل رسوم السقف وحده . . . روما . . . نابولي . . . فينيسيا . . . كلها تضم كنوزاً رائعة ، لا للمشاهير امثال ليوناردو دافنتشي وانجلو ورفاييل فحسب ، بل لمئات اخرين من المبدعين المجهولين وغير المجهولين .

وليس غريبا ان تكون ايطاليا كعبة الفنانين يأتون اليها من جميع انحاء العالم . . . وبين كبار فنانينا الذين عاشوا ودرسوا في روما فترات طالت او قصرت : رفيق شرف . عارف الريس . سيتا مانوكيان . منير نجم . ناديا صيقلي . وكثيرون سواهم ممن لا تحضرني اسماؤهم في هذه اللحظة . . .

وداعا يا روما

تجولت طويلا في حدائق البورغيزي ، ووقفت امام تماثيل بايرون وشكسبير وغيرهما من عباقرة الادب في انحاء الارض قاطبة ، وبينهم تمثال لاحمد شوقي . وسقط المساء فوق الحديقة والشوارع وانا اسير . . . ووجدت نفسي على مرتفع يطل على روما باسرها ، والغروب وقد بدأ يغرس راياته فيها . . . من بعيد تبدو روما كما تبدو جميع المدن في الليل ومن بعيد . . . جميلة وبريئة وساحرة . . . ولكن روما هي المدينة الوحيدة في العالم التي تبدو في النهار اجمل مما هي في الليل . . .

في الليل اخاف من روما ، المدينة التي يقطنها عدد من التماثيل ربما يفوق عدد سكانها . . . في الليل ، يخيل الي ان تماثيل روما كلها تعود الى الحياة . .

وسرت نصف مسحورة ، ونصف خائفة . . . ومررت بتمثال ، وخيل الي انه يهمس باسمي . . . ويناديني . . . وتذكرت كلمات سارتر : يجب ان يكون رأس الانسان صلبا كي يميز في روما بين الدين والسحر . ووجدتني اتمتم : وكي يميز بين الفن والسحر ! . . .

بغداد ٤/ ٢/ ٧٢

منتهى الرعاية او قصر النهاية !

اغمض عيني واتذكر بارهاق لذيذ كل ما كان . . .

واترك ابجديتي تهذي . . . وتهذي . . .

فأنا عائدة من العراق . . . ولا يمكن لفضولي مثلي ، يقضي ستة ايام فقط في زيارته الاولى للعراق ـ ويريد خلالها ان يرى كل شيء ويفهم كل شيء وبلا اقنعة ! ـ الا ان يعود مثلي . . . منهكا . . . كمن قضى سبعة ايام يحاول ان يغرف البحر في صدفة . . . او يلخص سيمفونية الرياح العاصفة في اغنية للاطفال ، او تحقيق صحافي ! . . .

ستة ايام ، وانا زوبعة من الرغبة في الاكتشاف والمعرفة ، زوبعة طارت الى فنانيهم وكتابهم . (فشهروا) على حبهم (وأغمدوه) في قلبي (وسحلوني) برعايتهم وحملوني وركضوا بي ليل نهار في اسواق بغداد ومتاحفها ومعارضها ومسارحها وشوارعها ، ثم طاروا بي في ليلها وتاريخها وموسيقاها واشعارها . . .

اني متعبة . . . متعبة .

فنحن لم نركب على بساط السندباد ونطر به في ليل مزروع بالنجوم والغيوم الملونة والترانيم الاسطورية ، ولكننا كنا نركض في ارض حقيقية فيها اناس حقيقيون يكافحون وحدثوني طويلا عن اناس مزقوا باسنانهم بساط السندباد . . . وكسروا مصباح علاء الدين باظافرهم والمارد تحرر ولم يعد يقول : لبيك ، عبدك بين يديك . . . قالوا لي ان المارد يحاول اليوم ان يستعيد هويته الحقيقية وحنجرته الحقيقية وصوته ولغته وانتصاره . . . ورأيت ان بغداد لم تعد مدينة الف ليلة وليلة كما تسميها الكراسات الدعائية . صارت مدينة ما بعد الف ليلة وليلة . . . مدينة الف ليلة وليلتين على الاقل . . . (اقترح تغيير اسمها فوراً في الكراسات الدعائية الرسمية وجعلها مدينة ما بعد الف ليلة وليلة !) .

ستة ايام في بغداد . لم اذهب اليها بدعوة رسمية ، بل بدعوة زوجية . رافقت زوجي اليها (لأستجم) ! . . . وكان استجماما عدت منه وانا احوج ما اكون للاستجمام ! عدت مثقلة بعشرات الكتب والمسرحيات ودواوين الاشعار ، عشرات الوجوه والاصوات والالوان والروائح . . . عشرات لحظات النقاش مع الرفاق ، والغليان . . . عشرات

القضايا التي نُبشت والتي تذرو طبيعة الحياة في بيروت احيانا رماد الخدر على جمرها ، ها هي تبعث حية بشكل معايشة يومية . . .

ان ما يطرح في العراق من قضايا فكرية وادبية هو من بعض ما يدور في اعماق كل مواطن عربي . . . لكن ارتسامه على شاشة الفرد العراقي هو اشد حدة وعنفاً . . .

قلت لصديق عراقي شاعر غمرني بمحبته ورفقته : ما سر هذه (الحدية) في الطبع العراقي بوجه عام ؟ . . . لديكم يلقى الانسان (منتهى الرعاية) او (قصر النهاية) ودون وجود (منطقة وسطى ما بين الجنة والنار) . . .

رد علي برقة قاطعة تماماً كرقة حد الشفرة : سيدتي . هناك اعتبارات كثيرة من تاريخية وغيرها تجعل منا ما ترين . لنبدأ بالمناخ (الحدي) لدينا مثلاً . . . درجة الحرارة في الشتاء تهبط الى ما تحت الصفر ، وفي الصيف تعلو الى ما فوق الخمسين ، فكيف تريدين ان نكون ؟ . . .

وتابع بحنان شرس : لدي الآن انا سؤال اطرحه : كيف جرؤت على زيارة العراق ؟ . . .

وقلت له : ولماذا احرم من تسعة ملايين عراقي لمجرد ان خلافا فكريا وقع بيني وبين اقل من تسعة من رفاق القلم ؟ وصحيح انه دار بيننا نقاش لا يخلو من التوتر والحدة ، ولكن من قال ان الخلاف في الرأي « يفسد للود قضية » خصوصا اننا نتحدث من ارضية واحدة وموقع واحد . ؟ . . . ان الخلاف في الرأي يقود الى مزيد من النقاش والى مزيد من الخلاف في الرأي او الى الالتقاء في الرأي . وعلى اية حال فان نقاشنا حول مفهوم كل منا (لحرية الفكر) وفضائل تلك الحرية او مساوئها لم ينته . وسنتابعه ولكن على (موجة) مختلفة . . . فأنا ان كنت قد استنكفت عن الرد ، فلأن اكثر الردود ـ ولا استثني سوى رد او اثنين ـ قد تعرض لشخصي ـ غير الكريم ـ بالذات ، اكثر مما حمل رداً على القضية الفكرية ـ الكريمة ـ التي كنا نتحدث عنها . . . وهو اسلوب في الحوار الفكري لا اتقنه .

* * *

ان اي عربي لا يستطيع ان يمر بالعراق (ترانزيت) الا اذا كان على درجة يحسد عليها من بلادة الحس . . . فالعراق مرجل يغلي . . . كل ما فيه يغلي بطريقة ما . . . وانا حاولت في ايامي الستة ان ارصد الغليان المبدع في حقول الفن التشكيلي والمسرح والرواية والشعر . . . ولدي الكثير اقوله ، عن القليل الذي استطعت ان اراه في بغداد خلال ستة ايام . . .

ولدي الكثير من الحب اقابل به طوفان الحب العراقي الذي التهمني والذي وجدته لدى الرفاق من شعراء ورسامين واذاعيين وصحافيين وكتاب ومسرحيين كما وجدته لدى سائق التاكسي وحارس المتحف وبائع الحلوى وعامل المصعد . . .

وربما كان بالحب وحده يحيا الفنان ، ولكن ليس بالحب وحده يكتب الفنان . . .

لذا ألجأ الى « استراحة المحارب » لاستريح من (الحب) لا من (الحرب) . . . فأنا اريد ان اكتب عن ايامي الستة في العراق بصدق . . . وكل صدق ينبع من قلبي ولا يمر بطريق رأسي ليس صدقاً موضوعياً حيادياً من النوع الذي يرضى قلمي بتسجيله وحمل مسؤ وليته . فالرصاصة التي تطلق لا تسترد ، وكذلك الكلمة . انني ببساطة اريد ان اكتب عن العراق ولا اريد ان اغازل العراق ولا ان اناكفه. اريد ان اصف ما شاهدت دون تصفيق او تصفير. . . ولذا اقول لقارئي، الى لقاء مع العراق في الاسبوع المقبل. . . ريثما اقرأ كل ما حملته من مخطوطات وانظم في رأسي طوفان الوجوه والاصوات والمشاهد والنقاشات . . . واحاول لململة افكاري ، اركض خلفها وتركض خلفي ، تذكرني بتلك الصورة الشعرية البديعة في اغنية عراقية (اظن ان اسمها نجمة) تتحدث عن شوق العاشق الباحث عن حبه ، بحث امرأة ثكلى تبحث عن طفلها على شواطىء الانهار . . . بحرصها وصدقها ، سأحاول ان الملم كل ما سجلته في ذاكرتي وفي أوراقي طيلة هذه الايام الستة على شطآن الذاكرة . . .

وبعد يا قارئي العزيز . . . هكذا يكتب الانسان حينما يقضي ست ليال بلا نوم . يسقط النوم ! . . .

بغداد ١١/ ٢/ ٧٢

العناق بين التراث والعصر !

ليل والطائرة تحوم فوق بغداد .

اراها عبر النافذة ، بيدراً من الاضواء ، جميلة ووديعة ككل المدن حينما تطل عليها في الليل عبر كوة طائرة ، متألقة كما لو غسلتها الدموع . . . تبدأ الطائرة هبوطها ، ويتبدل صوت هدير محركاتها الداخلية ، كذلك يتبدل هدير محركاتي الداخلية ـ ولا اقول قلبي ـ لأنني احس عادة لحظة الوصول الى مدينة جديدة بأنني صرت عنقوداً من القلوب . . . كله يخفق بشراسة متطلعاً الى اكتشاف الجديد . . .

مدينة جديدة لم أطأها من قبل ! . . . ان ذلك رائع بحد ذاته . انها نشوة تفوق نشوة فتح صندوق أزلي مغلق فوق قمة جبل لم تطأه من قبل . . . انها نشوة « بروميثيوس » ولعنته . . .

وما كدت استقر في التاكسي حتى استحال هديري الداخلي المتشوق ، الملتهب فضولا ، الى نغمة واحدة : بغداد من أين أبدأ اكتشافك . . . من اين ابدأ . . . من أين ابدأ . . . والتاكسي يركض بي في شارع مستقيم طويل مزروع بالاضواء المنتظمة الابعاد . . . احسست بالراحة تغمرني . . . فأنا احب الخط المستقيم شارعاً وسلوكاً . . . اكره اللحظات التي يدور فيها التاكسي في زواريب ضيقة معتمة ، واشعر بالحذر والكآبة . . .

وطال الشارع المستقيم ، واغمضت عيني واسترخيت وانا اتساءل : بغداد . . . بغداد . . . من اين ابدأ . . . وحين فتحتهما وجدت الجواب منتصبا امامي يسبح في النور الاصفر كما في الاحلام والرؤى . . . كان الجواب هائلاً ، يمتد على قاعدة طولها خمسون متراً . . . وفي الاعلى تماثيل برونزية ضخمة تشكل نصباً لم يسبق لي ان شاهدت آخر بمثل ضخامته في اي بلد عربي معاصر زرته . . . وسألت السائق عنه فقال : انه نصب الحرية . . .

ربما كان الليل وظلاله ، وربما كانت مهارة النحات ، او مزيجا من ذلك كله ،

ولكنني شاهدت الرجال البرونزيين يتحركون ، وسمعت صوت تكسير قيود وسلاسل حديدية ، وخيِّل الي ان جميع اشخاص النصب ينطقون بلغة ليست غريبة عني وانني اكاد اتبين اصواتهم . . . وانهم يروون حكاية طويلة ، بل خيِّل اليَّ ان رائحة دم ملايين الشهداء من اجل الحرية في كل زمان ومكان تفوح من النصب مع رائحة البارود وتكاد قطرات منه تنزف على ارض الشارع . . . وكدت اطلب الى السائق ان يتوقف قليلاً امام النصب لأتحاور مع أشخاصه ، ولاشم رائحته وأسمع صوته؛ (بالنسبة الي ، المنحوتات الجيدة لها رائحة ونبض وحنجرة وصوت) ، ولكنني لم اقل شيئاً لانني لا اريد ان يلقى القبض علي في ليلتي الاولى في العراق بتهمة الجنون ! . . .

حينما علمت في اليوم التالي أن نحات هذا النصب الملفت لانظار كل قادم الى بغداد هو فنان عراقي (المرحوم جواد سليم) دهشت قليلاً ولم أدهش كثيراً . . . فقد سبق لي الالتقاء بنماذج للفن العراقي عبر معارض الفنانين العراقيين التي اقيمت في بيروت اكثر من مرة . . . وسبق لي ان أبديت إعجابي ودهشتي بها شفهيا وعمليا !

وحين ذهبت لارى نصب سليم في النهار لم اصب بخيبة امل كما كنت اتوقع . . . (فالرؤية الليلية للاشياء تضفي عليها دوما سحراً شاعرياً قد تجردها منه الرؤية النهارية العقلانية) . . . ولكن اللقاء مع جواد سليم في ضوء الشمس كان فرحة اكتشاف . ولا بد لي هنا من الاقرار بأن الدراسة القيمة التي اعدها الاستاذ عباس الصراف واسمها (جواد سليم ، من رسالة دكتوراه في النقد الفني) منحتني وجهة نظر جمالية قيمة في فهم تفاصيل (سيمفونية جواد سليم البرونزية الخالدة التي تجسد مراحل الشقاء الانساني . . . وتروي قصة العذاب الدنيوي الذي تتطهر بموجبه الروح الانسانية من اوزارها وتؤدي بمقتضاه ثمن وجودها . وربما كان عناء الانسان هو شرط وجوده ، وشرط سائر اعماله رغبة في الخلاص وتحقيقا للطموح) . . .

وعبر نصب جواد الذي طالعني ليلة وصولي ـ عند منتصف الليل تماماً كما في الاساطير ـ ، استيقظ في صدري ذلك الحب القديم للقليل الذي شاهدته من الفن العراقي في بيروت . . . وقررت ان ابدأ من هنا ، وان اكتشف ما استطيع اكتشافه من الفن التشكيلي المعاصر في العراق خلال اقامتي المحدودة جداً ـ ستة ايام ـ . . . ولم اذهب مباشرة الى متحف الفن الحديث ، وانما قررت ان ابدأ منذ البداية الحقيقية . . . اي من متحف الفن القديم القديم الذي يلخص لي المناخات الحضارية التي تعاقبت على ارض العراق والتي هي دونما شك المادة الخام في لا وعي الفنان العراقي ـ بل وفي وعيه ـ يستلهمها

ويرسل جذوره الجديدة في تربتها القديمة الثرية انسانياً .

وهكذا ، من المتحف العراقي الذي يضم آثار آلاف من السنين الغابرة بدأت ، يرافقني صديق فنان . . . واذا كان المتحف على درجة جيدة من التنظيم والترتيب الزمني وحسن العرض فان ما يذهل حقا هو آثار العراق من الناحية الفنية . . .

امام تماثيل من الحجر وجدت في معابد تل اسمر في منطقة « ديالي » تعود بتاريخها الى ٢٦٠٠ سنة قبل الميلاد وجدتني اتساءل : هل انا في معرض معاصر في أحد ازقة روما ؟ .

وامام تمثال من النحاس وجد في « نينوى » ويعود تاريخه الى الحقبة البابلية تساءلت : ترى هل عاش « جياكوميتي » (الفنان الكبير المعاصر) في « نينوى » آلاف السنين ما قبل الميلادوهل بعث حياً في اوروبا بشخصه الحالي ؟ . وعلى اية حال فاني اميل الى الاعتقاد (بتناسخ الفن) اكثر من الاعتقاد (بتناسخ الارواح) . . .

اما المجوهرات والقلائد من المقبرة الملكية في « اور » (٢٤٥٠ قبل الميلاد) فقد اذهلتني بعقودها (الهيبية جداً) المعاصرة الروح والالوان والاشكال . . .

اما تلك الفخاريات التي تعود بتاريخها الى منتصف واواخر الالف الخامس قبل الميلاد فقد بدت لي الام الشرعية للفخاريات الشعبية ولفن السيراميك الحالي من حيث الشكل والتكوين وحتى الافاريز التزينية فيها . .

ترى هل كان بيكاسو آشورياً ؟ الح عليَّ هذا الهاجس وانا في جناح المنحوتات الاشورية الهائلة الحجم ، امام تمثال لثور مجنح هو نموذج معاصر لما حاول بيكاسو خلقه في لوحاته من حيث (وحدة الرؤ ية) . . . ها هو الثور المجنح ، اذا درنا حوله واحصينا قوائمه نجدها خمساً ، ولكن اذا وقفنا ونظرنا اليه من أية نقطة ثابتة واحصيناها نظل نجدها اربعاً فقط ! ! . . .

ها هي الازياء الاشورية والسومرية والبابلية القديمة تفوق بجمال تصميمها واصالتها الفنية معارض الازياء المعاصرة . . . قلت ذلك لصديقي الفنان ولم ادهش حينما علمت ان مجموعة من الفنانين هم : ضياء العزاوي ـ رافع الناصري ـ امل بورتر ـ يوسف الصايغ ـ هاشم سمرجي ـ سميرة ابو الصوف ـ قد صمموا ازياء معاصرة مستوحاة من الازياء الاشورية والسومرية والبابلية القديمة ومن الكردية والبدوية وغيرها . . . وبذلك كان حفل عرض هذه الازياء بادرة فريدة في هذا المجال وتظاهرة فنية اصيلة ، لا كرنفالاً بورجوازياً كما هي العادة في حفلات عرض الازياء . . .

ان من يدخل هذا المتحف لا بد وان يخرج منه معجباً بالتنوع والاصالة الفنية المعاصرة لنتاج الحضارات التي تعاقبت على هذه الارض ، وبالقدرة المدهشة لدى تلك الاقوام على التفرد والخلق الفني الغني بالعاطفة ، وعلى سبيل المثال ، اتخذ من ذلك التابوت الحضري شاهداً على ما اقول .

لقد شاهدت في متاحف روما وباريس وبريطانيا والقاهرة و . . . و . . . توابيت لا حصر لها من حيث التنوع او الضخامة او الفخامة او دقة الحفر او غيرها . . . ولكنني لم اشاهد في حياتي تابوتاً هزني انسانياً مثل ذلك التابوت في متحف بغداد ـ الذي يعود تاريخه الى المرحلة الحضرية ٤٠٠ سنة قبل الميلاد والذي كان له شكل الرحم . . . تابوت على شكل الرحم . . . انها قصيدة شعرية منحوتة في الحجر . . . من الرحم الى الرحم . . . من رحم الام الحنون الى رحم الموت الحنون . . . من المجهول الى المجهول . . . مدهش ذلك التابوت الصغير المتواضع . . . تلك القصيدة الانسانية المذهلة الصفاء ، المعبرة عن ذروة المصالحة مع الوجود ، وذروة التفاؤل الانساني في تابوت ! . . .

قبل ان اغادر المتحف عدت لاقف ثانية امام جمجمة وهيكل عظمي لانسان عمره ٤٥ الف سنة (انسان نياندرتال) وآخر عمره ٦٠ الف سنة . . . وقد وضعا في قفصين زجاجيين متجاورين تخيلتهما يتحاوران بعد ان يذهب الناس والحراس . . . ترى ماذا يقولان ؟ سيقول الاول للثاني انه قيل له ذات يوم : ستكون نهاية العالم بعد اعوام وابعث من جديد فماذا حدث ؟ وسيرد عليه الآخر : قيل لي قبل ان اموت انا ايضا انني بعد الف سنة سأبعث من جديد ! .

وها هما مسترخيان في قفصيهما الزجاجيين في المتحف وهما ينتظران منذ ٤٥ ـ ٦٠ الف سنة . . . وينتظران وينتظران وينتظران . . . وما زالا .

وسوف . . .

ترى هل ؟ . . .

وترى هل تقف فتاة ما بعد ٦٠ الف سنة ـ كما وقفت انا اليوم ـ امام قفص زجاجي يضم جمجمتي انا وهيكلي العظمي لتفكر بالشيء ذاته . . . ام باشياء اكثر صراحة ووضوحاً لانه لن يضطر احد بعد ٦٠ الف سنة اخرى الى تمويه ما يمر بباله من خواطر ؟ ! . . . سوف ادري قريبا (اي بعد ٦٠ الف سنة) . . .

وغادرت المتحف . . . وفوجئت ببوابة قائمة بالقرب منه ، بوابة بلا بناء . بوابة فقط ، مفتوحة على الريح والعراء . . . يمكن ان تكون بوابة لليل . . . للتاريخ . . .

لبيوت مدفونة تحت الارض . . . بوابة لشيء تاريخي سري . . .

وسألت عن هذه البوابة الضخمة القائمة دونما بناء خلفها ودون ان تقود الى مكان معين فقيل لي :

سبق ان بنيت لتكون بوابة للمتحف ثم الغيت الفكرة وبقيت البوابة . . . إذن فلنقل انني زرت متحفين . . . متحفا مرئيا . . . وآخر له بوابة ، وحدوده المجهول ، ودليله اناشيد الرياح ، وقاعاته ساحات الخيال ، ومعروضاته هي كل ما لا نعرفه عن التاريخ . . . ـ اي اكثره ! ـ .

معرض الفن الحديث

لولا صديقي الفنان الذي رافقني الى معرض الفن الحديث لضعت . . . فلوحات المعرض تفتقر الى بطاقة صغيرة توضع بجانب كل لوحة لتبين اسم الفنان واسم اللوحة وتاريخ رسمها لمساعدة الزائر الغريب مثلي الذي لا يسعده الحظ بدليل كدليلي . . . صحيح ان اللوحات موقعة ، ولكن توقيع الفنانين داخل لوحاتهم هو الشيء الوحيد المشترك بينهم وبين الاطباء حينما يكتبون وصفاتهم الطبية (الراشتات) ، كلاهما يكتبها بخط غير مفهوم . . . (اتمنى على ذلك المتحف الجيد والمهم ان يتلافى هذا النقص البسيط) . . .

تجولت في ارجاء المتحف ، ونادتني لوحاته . نادتني اولاً اللوحات التي اعرف بصمات اصحابها فيها قبل ان اقرأ تواقيعهم .

ضياء العزاوي

لست بحاجة الى بطاقة لاعرف لوحات ضياء العزاوي . ان من يراها مرة كما رأيتها في احد معارض بيروت لا يستطيع ابدا ان ينسى تلك الزخارف والتهاويل التي تحمل مزيجاً مدهشاً من الفنون الاسلامية والفنون السومرية والتي استطاع ان يعيد خلقها في رؤى تجريدية حديثة لها شفافية الحلم وكثافة الواقع . . . لوحاته نسيج حي ، الوانها تتنفس بشدة وتنبض كما الشريان النازف تحت الشمس الحارة المتدفقة من كوة قبة سرية حاملة معها بشراسة حقائق انسانية موجعة ومنبهة .

ان هذا الفنان منتج بصورة مذهلة ، والمذهل فيه ليس الكثرة وانما قدرته على المحافظة على المستوى رغم الكثرة ، انه نبتة اسطورية متعددة المواسم ، جذورها مغروسة بشدة في روحانية قومه وتاريخ ارضه والرموز والاساطير في الحياة الشعبية العراقية . . . وهو رغم مهارة الصانع الزخرفي (الحرفي) فيه يظل اولاً وهو الاهم فنانا موهوباً كل لوحة

لديه سنبلة تحمل وعداً ببيدر . . . اعجبني ضياء العزاوي في لوحاته كما اعجبني في تخطيطاته(إلاستريشنز) لعديد من الكتب والقصائد . . . اننا مدينون لهذا الشاب مع هاشم السمرجي وغيرهما لتطويرهم شكل الكتاب العربي الى درجة متناهية من الفنية والجمالية والذوق الرفيع بحيث يتم التزاوج بين شكل الكتاب ومضمونه . . . ويصير الاتحاد كاملاً ووحدة فنية لا تنفصم . ونرى ذروة هذا الاتجاه ممثلة في الكتاب ـ اللوحة « انتظريني عند تخوم البحر » مثلا وهو شعر يوسف الصائغ ورسوم ضياء العزاوي .

والكتاب قطعة فنية قصائدها لوحات ولوحاتها قصائد وكلها وحدة تخلق مناخاً موسيقياً خاصاً . . . انها اسطوانة ، متعددة الصفحات انغامها مرسومة (بنوتة) ابجدية يوسف الصايغ وتعازيم ورقى ضياء العزاوي . . .

رافع الناصري

في المتحف لوحتان لفنان عراقي آخر احببت اعماله منذ التقيت بها في بيروت عام ١٩٦٩ . . . وهو الآخر استطيع ان اميز لوحاته وسبقت لي معايشتها . في معرض الفن الحديث شاهدت لوحتين وادهشني تطوره السريع منذ عام ١٩٦٩ حتى اليوم . . . ان هذا الفنان الموهوب ـ الموهوب برهافة مذهلة كما لو كانت موهبته ابرة مغروزة في نخاعه ـ يتمتع بإخلاص رهباني لفنه يذكر بالرهبان البوذيين . . . لوحاته الاخيرة صارت نتاجاً فريداً لانصهار الدقة الجرافيكية الصينية (درس في الصين الشعبية) وحتى تأثره بالاسلوب التقليدي في تقديم (بريزنتيشن) اللوحة الصينية (ونجد هذا التأثر داخلاً في بنائه لتكويناته التجريدية ، هذا بالاضافة الى قدرته على الضبط الصارم للجرافيك* . وتقنيته المذهلة في اللعب بالطبقات اللونية للون الواحد مع الاحتفاظ بصفاء لوني تفوح منه رائحة غابة غسلها المطر طوال الليل ثم كف عن الهطول تماماً لحظة الفجر . . .) . الوان رافع تحمل كثيراً من حزنها وضيائها وصفائها وتوحدها وعزلتها المترفعة وجوعها الى الاخذ والعطاء . . . ويلفت النظر لدى رافع كما لدى الكثير من الفنانين العراقيين الشبان ادخالهم للحروف العربية في اللوحة والخروج بها نهائيا من مرحلة التزيين الافريزي ومرحلة المعنى الحرفي الى مرحلة تفجير طاقاتها الايحائية والى اختراق للحس التاريخي عبر الحرف نفسه . . .

واذا صح ان في لوحات رافع الناصري هاجس الخروج نحو الآخر ، هاجس الشوق نحو التوحد من اجل الخلاص ، فانني أحس أن فيها في الوقت ذاته هاجس

---

* فاز رافع الناصري بجائزة عالمية للجرافيك وذلك عام ١٩٧٨

الرفض للتوحد مع الآخر . . وهاجس الرفض للخروج نحو الآخر . . . الرفض والرغبة قطبان ، والفنان رافع بينهما كوتر مشدود عنيف الايقاع ، شراسة الرفض لديه تعادل شراسة الرغبة . . . وربما كان ذلك ابرز ما في أصالته . . . فالفن لديه مغامرة كبرى اهم ما فيها دائما الخطوة التي لم يخطها بعد .

فن أصيل ومتفرد ومتنوع

تابعت جولتي في معرض الفن الحديث الذي يضم نماذج من اعمال ابرز فناني العراق فخرجت منها بشعور من شرب من ماء البحر وازداد عطشاً . . .

عشرات من اللوحات والمنحوتات لمختلف الفنانين اثارت رغبتي في رؤ ية المزيد ومعرفة المزيد . . .

هناك ثلاث لوحات لنوري الراوي (للاسف ليس له في المعرض سواها) احببتها (انا شخصيا) واحببتها حقا ، أن فيها قدرة خارقة على خلق اجواء الاحلام ، انها ليست وقوفاً على اطلال الذكريات وانما هي هذه الذكريات مجسدة . . . فيها شحنة عجيبة من الحنين والشفافية تجتذبك ، وفجأة تكف عن ان تكون واقفاً على قدميك خارج اللوحة ، تعبر في داخلها راكضاً في احد ازقتها ، راكضاً بين تلالها الرمادية ومنازلها المهجورة ، راكضاً بحثاً عن وجهك الذي كان . . . وحبك الذي كان . . . ولكن مناخها لا يدفع بك الى الندب ، ولا الى الخدر الصوفي وانما الى ركض لا متناه في دروبها البعيدة حيث تغيب داخل اللوحة ولا يجدك اصدقاؤك بعدها ابداً . . . لوحات نوري الراوي الثلاث تفجر في الاعماق احاسيس لا يعرف الانسان كيف يترجمها لكنها تعيش هناك في مغارة النفس البشرية ودهاليزها ويظل صوتها يعلو رغم عشرات الاكفان التي نلفها بها سراً كما نلف اطفال الخطيئة السريين الذين هم احب الاطفال واشقاهم . . .

وتابعت جولتي في معرض الفن الحديث . . .

بغداد ١٨/ ٢/ ٧٢

لقاء بيكاسو والواسطي
بعيداً عن « الصالونية »

قبل ان اتابع جولتي في معرض الفن الحديث ببغداد ، اجد انه من الامانة العلمية ان اسوق الملاحظة التالية : -اعرف انني توقفت طويلاً في مقالي الماضي امام لوحات ضياء العزاوي ورافع الناصري وكتبت عنها بشيء من التفصيل . هل يعني ذلك انه ليس في العراق سواهما؟ طبعاً لا . ذكرتهما على سبيل المثال لا الحصر . فقد تصادف ان اطلعت على اعمالهما اكثر مما شاهدت اعمال اي من بقية الفنانين العراقيين ... شاهدتهما في مرسمهما الخاص ، في بيتيهما وشاهدت اجمل لوحاتهما في بيت الفنان جبرا ابراهيم جبرا (بالمناسبة في بيته متحف خاص رائع) وفي الوثائق التي تفضلا بتزويدي بها عن فنهما وعن الفن العراقي بوجه عام ... بل وشاهدت ما هو مبعثر من لوحاتهما في مراحلهما المختلفة ببيوت الاصدقاء ... وكنت اتمنى باخلاص ان تسمح لي الظروف بممارسة الدراسة ذاتها بالنسبة لعدد كبير من الفنانين الذين خطفت انتباهي نماذج من اعمالهم شاهدتها في المعرض او قرأت عنها في الدراسات الفنية المختصة والمجلات ولكن اللوم لا يقع علي او عليهم وانما على اقامتي المختزلة جداً في العراق ...

بيكاسو والواسطي

اتابع جولتي في معرض الفن العراقي الحديث . امام تمثال الام لجواد سليم وقفت . تذكرت قول الكاتب المبدع جبرا ابراهيم جبرا فيه (انه يمثل الحركة الفنية العراقية الحديثة على اروعها . بنظرياته حول الدمج بين التراث والتجديد ، بين العراقي والعالمي ... فقد جمع بين الموهبة الفطرية والمعرفة الجادة ، بين الحس التاريخي والنظرة المنفتحة ، جامعا في تأملاته واعماله بين منحوتات سومر وآشور ورسوم يحيى الواسطي والنحاسيات العباسية مع شتى نظريات الفن الحديث ...) والواقع ان جواد سليم ليس وحده الذي (يستقصي امكانيات التخطيط بوحي من يحيى الواسطي العباسي من ناحية وبيكاسو من ناحية اخرى) بل ان ذلك ينطبق بصورة عامة على الحركة الفنية الحديثة في العراق بنسب

متفاوتة مع اختلاف الفنانين . . . هنالك ذلك العناق الرائع بين التراث وبين العصر وهو أمر لا يقوى على صهره الا الابداع النادر . . . شيء آخر يلفت النظر في حركة الفن العراقي وهو تجددها ورفدها الدائم بدم فكري جديد وثورية دائمة وعدم وقوعها في وثنية الاسماء الفنية او المواقف الفنية ، وانما التجاوز المستمر لكل ابداع بآخر اكثر حداثة . . . انها بهذا المعنى نهر مياه دائمة التجدد . . .

امام لوحة لجواد سليم وقفت ، واحسست انها ليست لوحة بقدر ما هي تخطيط لتمثال ! . . . ان رؤ ية هذا الفنان في نظري نحتية . . . والقليل جدا جدا من لوحاته التي رأيتها جعلتني اميل كثيرا الى الاعتقاد برأي جواد سليم في نفسه (وهو الرأي الذي عبر عنه ذات يوم في مذكراته يوم قال انه يشعر بأن سره يكمن في النحت لا في الرسم) وعلى اية حال لا يمكنني اطلاق رأي نهائي . . .

وقفت طويلا امام لوحات حافظ الدروبي وفائق حسن . . . رغم قلتها في المعرض لا يمكنك ان تمر بها دون ان تتسمر امامها . . . انها تمثل بابداع مرحلة مهمة من تاريخ تطور الفن العراقي . . وبدونها لا نستطيع ان نفهم المرحلة الحالية بكل ايجابياتها وسلبياتها . . . وقد لاحظت ان الدراسات النقدية منصبة على جواد سليم رغم ان رفاق الامس لا يقلون عنه موهبة ، وربما كان مرد ذلك الى ان مثقفينا في بلادنا العربية يميلون بصورة عامة الى تكريم مبدعينا بعد تأبينهم . (تذكرت لوحة رائعة اسمها بغداد لفائق حسن شاهدتها عام ١٩٦٦ تزين غلاف مجلة لبنانية فلفتت نظري واحتفظت بها وما تزال عندي) .

اتابع جولتي في المعرض . اطير من جدار الى آخر من لوحة الى اخرى دون تنظيم . احب ان اتصرف في المعارض الفنية كفراشة (وهو امر تحرمنا منه المعارض الاوروبية حيث الزحام يحتم علينا السير في صف منظم كما لو كنا مسيرة كشفية !) . . .

ها هو صالح الجميعي . فنان آخر مميز الاسلوب لا تحتاج لرؤ ية توقيعه لتعرف لوحاته . . . قال لي دليلي الفنان إن لوحته في هذا المعرض هي من اجمل لوحاته . أتأملها ، فتذكرني بالجدران القديمة التي أكلها الزمن بينما هو يرسم عليها احاجيه وحكاياه ، فملأها بالجروح ، ومسح عنها بعضا من رسوم الاطفال ورسائلهم التي كانوا يكتبونها للسماء . . . وذهب الجميع وبقي الجدار ، صار شيئا حيا مجرحا ينزف حكاياه بنغمة عراقية مميزة . . . والجميعي قادر على خلق هذا الايحاء عبر اسلوبه المميز في بناء اللوحة بكتل متنافرة والوان وحشية الانسجام وصفائح من المعدن . . . تأملت اللوحة عن قرب

ولاحظت فوق صفيحة صغيرة رسوما تذكر بالايقونات العتيقة في كنيسة بيزنطية راعشة الشموع . . .

وخطفت ابصاري ايضا منحوتة خشبية لمحمد غني - عام ١٩٦٥ - لذا توقفت طويلا (بعد خروجي من المتحف) امام تمثاله الذي توسط احدى الساحات في بغداد والذي يمثل مرجانة وخوابي الزيت (من قصة علي بابا والاربعين حرامي) حيث الماء ينسكب من الخابية التي تحملها بيديها الى بقية الخوابي . . . اعجبني التمثال جدا لفكرته المبتكرة والمستوحاة من الاساطير الشعبية العراقية ، تخيلت مثلا في موضعه ، احدى نافورات (برنيني) النحات الايطالي الشهير التي ملأ بها ساحات روما بصدفتها المميزة وجمال نسائها « الفينوسي » . . . لو أن فنانا استورد فكرة « الصدفة » الى بغداد - حتى ولو كان ناحتها هو برنيني نفسه - لكانت أمرا مصطنعا بين النخيل والرمال ، وها هو محمد غني يبتكر في بغداد نوعا جديدا من النوافير ، جميل بحد ذاته كفن أصيل مستوحى من المناخ الشعبي ومنبثق من الجو العراقي . . . وتنفيذ التمثال جيد لأنه خيل الي انني اسمع همسات الاربعين حرامي في الساحة (وتلفت حولي طويلا ولم ار أحدا منهم !!) . . .

اتابع جولتي في معرض الفن الحديث . . . كاظم حيدر رائع في ملحمة الشهيد - ٦٥-٦٦ - . شاهدت جزءا بسيطا منها وتكون لدي انطباع عن الزخم العاطفي المأساوي الانساني فيها . . . وملحمة الشهيد مجموعة من اربعين لوحة صور فيها ملحمة متصلة الاطراف استلهم فيها استشهاد الحسين بن علي في كربلاء . . . انها من بعض حكاية الانسان في كل مكان ومقارعته للقوى التي تكبل انسانيته ، وهي ايضا تمثل سموه لحظة مصرعه ، وتجسد استمرارية قضيته . . .

استوقفتني ايضا شاعرية اسماعيل الشيخلي . . واحببت اللوحة اليتيمة لسوزان الشيخلي ورؤ ياها الخاصة الملونة لما حولها . .

لفتت انظاري لوحة وقعها فنان شاب هو (يحيى الشيخ) وهي عبارة عن بصمة كف - ربما كانت كفه - . . . وذكرني ذلك بالفنان الايطالي المعاصر جدا مانزوني الذي توفي منذ اعوام قليلة واقيم له معرض شاهدته في متحف الفن الحديث بروما . . . وكانت تحفته بصمة اصبعه على بيضة ! . . ولعله كان يهدف من نتاجه ككل الى خدش العين البورجوازية والرؤ ية الصالونية للفن .

. . . المهم ان مانزوني في محاولته لخدش العين البورجوازية كان وقحا اكثر مما كان

فنانا ، واستطاع ان يصل الى غرضه ولكن على حساب الفن . . . والرائع في الفن العراقي الحديث بعده الاصيل عن الصالونية وخدشه العفوي والتلقائي للعين البورجوازية دونما اي افتعال او استيراد للصرعات . . . الرائع ان تأثر الفن العراقي الحديث بالتيارات الغربية المعاصرة هو تأثر معاق وشديد الوعي . . . انه يهضم التيارات المختلفة ويفيد منها ولكنه ايضا يتجاوزها ليظل محتفظا بهويته الخاصة الاصيلة . . . ويظل محتفظا بحقه ايضا في حرية الحركة ابدا نحو مزيد من الابداع . . . ان في الكراس الذي اصدره فرسان ستة من الرسامين الشبان ذروة التجسيد لهذا الاتجاه ، ودلالة على وعي فني جاد ثوري - بالمعنى الحقيقي الفني العميق لكلمة ثوري - واسم هذا الكراس « نحو الرؤ يا الجديدة » وقد وقعه : اسماعيل فتاح - صالح الجميعي - ضياء العزاوي - رافع الناصري - محمد مهر الدين - هاشم سمرجي . . . وكنت اتمنى من قلبي كله ان اعيد نشره حرفا حرفا لولا ضيق المجال . . . واسماء اخرى كثيرة كان علي ان الاحق اعمالها لولا ضيق الوقت وقصر اقامتي هناك . . . حافظ الدروبي . . فائق حسن . . جواد سليم . . سعاد العطار . . لورنا سليم . . كاظم حيدر . . خالد الرحال . . نادرة عزوز . . شاكر حسن . . نوري الراوي . . سلمان عباس . . صالح الجميعي . . راكان دبدوب . . محمد مهر الدين . . غازي السعودي . . هاشم السمرجي . . غانم الدباغ . . ابراهيم زاير . . سعد الطائي . . نزيه سليم . . رسول علوان . . خضير الشاكرجي . . طالب العلاق وستار لقمان . . . شاهدت اعمال قلائل منهم ، وقرأت عن البعض الاخر في دراسات متعددة ومما لا شك فيه ان مسحا كاملا للحياة الفنية هناك يحتاج الى اقامة طويلة لا الى زيارة عابرة . . . وما اسطره في مقالي هنا ليس دراسة ، وانما هو انطباع خرجت به حول الحركة الفنية العراقية بصورة عامة : وهو انها حركة حية ، جادة ، اصيلة ، غنية بالمواهب والطاقات ، بعيدة كل البعد عن الزيف والصالونية ، وتثبت وجودها على اكثر من صعيد . . . على صعيد المعارض المتنقلة في البلدان العربية والاوروبية . . وعلى صعيد الكتب العراقية والملصقات الجدرانية وحتى على صعيد تصميم الازياء وغيره . . . وتبرز آثارها في كل شارع من شوارع بغداد وكل ساحة بصورة تمثال او نصب ، كلها من صنع فنانين عراقيين وكلها تخلد رجال الفكر العرب . . .

نقد واع وبناء

أمر آخر يلفت انظار الراصد للحركة الفنية في العراق وهو حركة النقد الواعي التي تواكبها . . . والاعداد الخاصة التي تصدرها المجلات الفكرية حول ذلك . . .

لقد وجدت في مجلة « المثقف العربي » العدد الرابع الخاص بالفنون التشكيلية مرجعا فنيا من الطراز الاول يرتفع الى مستوى الشهادة الفكرية التاريخية . . . وهو ليس مهماً فقط بالنسبة (لغريبة) مثلي تريد ان تفهم شيئا عن الفن التشكيلي هناك ، بل هو ايضا ـ وأولا ـ مهم بالنسبة للفنانين العراقيين جميعا لانه يساعدهم على الغوص في ذواتهم وعلى التقاط اول الدرب الصحيح ومتابعة شقه . . .

الشيء ذاته ينطبق على اكثر الدراسات الفنية والكتب التي صدرت والتي لولاها لما استطعت في أيامي الستة ان اكون شبه تخطيط للحركة الفنية هناك ، واني لمدينة لها ، لتلك السلسلة الفنية بالذات : الاطروحة الفنتازية لعلي الشوك ، والفن المعاصر في العراق ـ حركة الرسم تأليف جبرا ابراهيم جبرا ـ مقدمة في تاريخ الفن العراقي والفن التشكيلي المعاصر في العراق ـ شوكت الربيعي ـ جواد سليم تأليف عباس الصراف ـ البعد الواحد ـ شاكر حسن آل سعيد ـ الملابس الشعبية في العراق والملابس والحلي عند الاشوريين للدكتور وليد الجادر .

الطائرة المعرض

رأيي في الفن التشكيلي العراقي عبرت عنه عمليا قبل ان اخط هذه السطور . . .

فنان عراقي اعجبت ـ بل اغرمت ـ باحدى لوحاته* ، فرفعها ببساطة عن الجدار وقدمها بكل الكرم العراقي هدية لي ليلة سفري . . . وكانت لوحة كبيرة توازيني طولا وتكاد تحجبني حينما احملها وامشي بها ، بل تبدو مثل لوحة صار لها ساقان تسير بهما ! . . وابقيتها في اطارها خوفا عليها من اي تخريب . . . ولما لم تتسع حقائبي لها حملتها بكل بساطة وذهبت بها الى المطار . . . ويبدو ان مشهدي كان طريفا وانا احمل لوحة فنية بين عشرات المسافرين الذين يحملون (عدة السفر) كعلب الحلوى والكاميرات والمعاطف وغيرها . . . واكلتني نظرات الفضول . وأخيرا صعدت بها الى الطائرة فعبست المضيفة وقالت ممنوع . واستنجدت بالشبان المضيفين فكانوا كالعادة اكثر رقة وسمحوا لي بادخالها شرط ان اجد لها مكانا في الطائرة . . . وبعد طول عناء تم تثبيتها على الجدار الخلفي للطائرة الذي يفصل بين غرفة الركاب ومدخل الطائرة . . . واجتذبت اللوحة الانظار . وتجمهر الركاب ، خصوصا الاجانب منهم ـ وهو امر سرني ـ . . . ظنوا انني انا رسمتها ، واعترفت لهم ـ بحسرة ـ انني لست صاحبتها . . . وعرض علي مسافر اوروبي

---

*كانت اللوحة للفنان العراقي رافع الناصري الذي فاز بجائزة عالمية وقد نجت من حريق مكتبتي بالحرب اللبنانية الاهلية وهي حتى هذه اللحظة بحوزتي !

مبلغا لا يصدق ثمنا لها . . . وطبعا لم أقبل . ولكنني احسست ان الفن العراقي المعاصر يجب ان يطير الى العالم كله . . . لقد تكونت لدي قناعة عقلية بعيدة عن المجاملات ـ التي امقتها ـ ان الفن العراقي قادر على ان يطير الى شعوب العالم كله . . . وان يقول لها الشيء الكثير . . .

من يدري . . . قد يأتي يوم تفاجأ فيه الطائرات بكل راكب قادم من بغداد ومعه لوحة . . . وربما تمثال ! . . أو نصب ! . .

٢٥/٢/٧٢

المسرح : شريحة مبدعة من حياة الشعب

يومي الثاني في بغداد: . . أسير في السوق شبه مذهولة. . . فالضباب قد احتل المدينة وهي المرة الاولى التي أرى فيها الضباب يشرنق أشجار النخيل والمآذن الملونة والقباب المنقوشة ، وهي المرة الاولى التي يمتزج فيها الضباب بروائح الفلفل والكاري والصابون والشمع الملون وغيرها من الروائح المميزة العجيبة لأسواق بغداد . . . كأنها رائحة التاريخ ، رائحة حكايا طويلة ، رائحة سفن قادمة من الشرق البعيد محملة بالطيب تلمع عليها أسنة سيوف بيض عربية . . . انها المرة الاولى التي أرى فيها الضباب يشرنق الالوان الزاهية لسوق عربية قديمة . . . رأيت الضباب في لندن فأحسسته دوما بعضا منها ، أحسسته هناك امتداداً لاشخاصها ، لسلوكهم في الحياة ومواقفهم من الناس ، وكنت أراه يسيل من العيون والشفاه ومن النوافذ الموصدة وابواب المترو وشارات المرور في الشوارع المزدحمة ، وينسكب جداول من ضبابات البرودة والغموض والكآبة . . . فالضباب في لندن صناعة محلية ، او افراز طبيعي للاشياء ، اما في بغداد فغزو الضباب مشهد يثير الذهول ، تماما كما لو احتلت الصحراء والمدينة كائنات قادمة من كوكب آخر ، لتحجب عني الرؤ ية الواضحة . . .

ربما كان ذلك بالذات ما دفعني للذهاب الى المسرح والبحث عن المسرح العراقي . . . . ففي المسرح نجد دوما شريحة من حياة الشعب وقد سلطت عليها اضواء الوضوح دونما عازل من ضباب . . .

وانا لا أذهب الى مدينة الا وابحث عن المسرح فيها ، ليس لأن اختصاصي الدراسي هو المسرح فحسب ، بل لأن المسرح يلخص المناخ الفكري والثقافي للبلد ، وعبر مستواه من حيث اختيار المسرحيات ووجود النصوص المحلية او فقدانها ووجود الممثل الجيد او الافتقار اليه واساليب الاخراج ، تستطيع ان تكون اوضح صورة ممكنة فكرية واجتماعية وانسانية وسياسية عن البلد الذي انت فيه ، وفي أقل وقت ممكن .

■ فرقة المسرح الفني الحديث ■

لم اسأل شخصا في بغداد عن المسرح الا وذكر لي اسم يوسف العاني . وكما انهم

في بيروت يسمون (المسرح الوطني) بمسرح شوشو ، فانهم في بغداد يسمون « فرقة المسرح الفني الحديث » « بمسرح العاني » ! .

وذهبت الى « مسرح العاني » لكنني وجدت ان هنالك ايضا « فرقة للمسرح الفني الحديث » بمعاني الكلمة كلها ـ الى حد بعيد ـ ، وان حركة مسرحية صحية جماعية تقوم على اكتاف مجموعة من الشبان تتعاون والعاني على خلق مسرح عراقي عربي أصيل .

وفي مسرح بغداد حيث ذهبت لمشاهدة يوسف العاني فوجئت بان الفرقة تقدم ثلاث مسرحيات متتالية في كل ليلة ! . . .

بدأ الاحتفال المسرحي بمسرحية « حكاية مرض اسنان » تأليف اوزفالدو دراكون ، وهو كاتب تقدمي ارجنتيني شاب يقوم بترجمته قاسم محمد ويرجع اليه فضل اكتشافه وتقديمه الى الجمهور العربي . تروي المسرحية مأساة فرد عادي من افراد المجتمع هو بائع « الشوكولاته » الجزال في الشوارع الذي يعيش وزوجته حياة كفاف قانعين . وتبدأ المأساة يوم يصاب البائع بألم في ضرسه وهو ايضا حادث عادي يحدث لكل شخص ، ولكن هذا الحادث العادي يمكن أن يدمر حياة فرد في مجتمع استهلاكي لا يجد فيه من جشع بعض الاشخاص قانون او نظام . . . وهكذا يسقط بائع (الشوكولاته) المسكين (روميو يوسف) وزوجته (ناهدة الرماحي) فريسة جشع الطبيب (قاسم محمد) الذي يمثل الطبقة المستغلة ويقضي ايامه يحصي ذهبه . . . وتنتهي المسرحية بالبائع المسكين وقد باع حتى اثاثه وهو يدور في الشوارع صارخا (آه يا ضرسي) . . . بل ان المسرحية لا تنتهي هنا . . . انها في الواقع تبدأ هنا ، تبدأ في ضمير المشاهد وتنخر في اعماقه ببساطة ، وتجعلنا جميعا نقف امام تماثيل (الحكام العظام) في الشوارع ونسألهم كما سألهم هو بحرقة عما فعلوه من اجل آلام الفرد العادي المسحوق .

اخرج المسرحية سامي عبد الحميد بابسط الطرق واكثرها حداثة . ليس هنالك ديكور مسرحي بالمعنى التقليدي (حتى مرور المترو على المسرح يمثله اشخاصها حيث ينتظمون في صف ويركضون وهم يصرخون توت تشك ـ تشك . . كما يفعل (الاطفال) ، والحكاية باكملها يقصها علينا الممثلون الذين يجابهون الجمهور ويتحدثون اليه مباشرة في بدايتها ، على طريقة (الحكواتي) الجوال . . .

لقد كان احتفالا مسرحيا يتميز بالبساطة الى جانب العمق ويتميز باكتشاف احدث التيارات الفنية العالمية التقدمية التي تطرح نموذجا ابداعيا بعيدا كل البعد عن الخطابية الجوفاء والشعارات الطنانة التي يتوهم كتابنا احيانا انهم بالصاق بعض عباراتها (على

المضمون الرجعي لاعمالهم) يستطيعون تأبط لقب اديب تقدمي ! . .

■ يوسف العاني يتوهج على المسرح ■

استراحة قصيرة ، ويبدأ بعدها الاحتفال المسرحي الثاني بتقديم مسرحية « لويش ، شلون ، المن ؟ » ـ هذا باللهجة العراقية ومعناها ـ لماذا ، كيف ، لمن ؟ .

وهي حكاية تشبه الى حد بعيد حكاية مسرحية « جحا في القرى الامامية » التي (لقيت نجاحا كبيرا في بيروت في الموسم الماضي) . . . ويلعب يوسف العاني دور شخصية عراقية مثل شخصية « جحا في القرى الامامية » ولكن على الطريقة العراقية . . . انه يمثل شخصية شعبية بسيطة وطيبة وذكية دونما خبث ـ أي نموذج لابن الشعب العادي ـ (في كل بلد عربي يوجد هذا النموذج . . . انه ابن الشعب الذي يحكم الحكام باسمه ويتم غالبا امتصاص دمه باساليب مختلفة هي مزيج من التخلف المحلي وقوى الاستعمار التي لقبها الرسمي الامبريالية العالمية . . .) . . .

وقصة (لويش ؟ شلون ؟ المن ؟) بسيطة ايضا بساطة بطلها مصلح الاحذية وابن الشعب الذي يحاول وسيط شراءه لحساب (غانغستر) رجل عصابات امريكي يرمز للاستعمار .

والمسرحية في بعض مواضعها تمتاز بطاقة درامية ممتازة ، خصوصا حينما يستدعي الوسيط مصلح الاحذية الى مكتبه واذا بمصلح الاحذية يظن ببراءة ان (الوسيط) بحاجة الى تصليح حذائه . فينحني على حذائه ويتأمله ويقول له انه حذاء فخم لم يشهد مثله من قبل . وعبثا يحاول الوسيط ان يدخل معه في حوار حول موضوع (العمالة) ، اذ ان مصلح الاحذية يصر على تصليح حذاء الوسيط ولو بالقوة ! . . .

يوسف العاني يمتاز على المسرح بما يمتاز به الممثلون الكبار الموهوبون حقا . انه يشرقط على المسرح ويتوهج . . . انه لا يمثل وانما يعيش دوره ويتحد به ، انه دونما شك يملك حضورا مسرحيا آسرا وما يكاد يطأ الخشبة حتى تسري في القاعة كهارب سرية تشد المتفرج ، انها الكهارب التي لا يمكن ان يخلقها سوى حضور الممثل المبدع . . . وهو لكثرة ما يعيش دوره بصدق ، يفاجئك اذا لقيته بعد المسرحية مرتديا ثيابه العادية ووجهه العادي وحديثه الذي قد يلتقي مع اسلوب حديث (ابن البلد العادي) بصراحته ، ولكنه دونما شك يختلف عن حديث الناس العاديين بأن له نظرياته الخاصة في المسرح وآراءه السياسية ، ودراساته ، وكتبه وعطاءاته المتعددة الجوانب ـ وحينما يتحدث انسان عن

المسرح في العراق فانه ملزم بحكم الواقع التاريخي ـ ان لم يكن بحكم اعجابه ـ ان يتوقف طويلا عند يوسف العاني الذي يقترن اسم المسرح باسمه في اذهان الجماهير في العراق . . .

■ الأغنيـة الاخـيرة . . . ■

استراحة قصيرة وبعدها الاحتفال المسرحي الثالث . . . مسرحية « الاغنية الاخيرة » تأليف تشيكوف واخراج قاسم محمد وتمثيل سامي عبد الحميد . هذه المسرحية يقوم بتمثيلها بأكملها ممثل واحد (مثل مسرحية يوميات رجل مجنون تأليف غوغول الروسي ايضا) . . .

والمسرحيات التي يقدمها فرد واحد خطرة . . . فهي اما ان تنجح نجاحا باهرا او تسقط سقوطا باهرا . . . وهي لذلك تثير فضولي . وحكاية « الاغنية الاخيرة » هي مثل سائر اعمال تشيكوف ، غاية في بساطة الطرح ، وغاية في عمق التأثير والتلاعب بمختلف اوتار النفس البشرية في كل مكان وفي كل زمان . . . (الكلاسيكية الشمولية لا الكلاسيكية المحنطة) . . .

وهي تروي حكاية ممثل عجوز ثمل ، أدى نمرته التهريجية على المسرح ثم ذهب ليعب الخمرة كعادته في غرفة تغيير الملابس والماكياج وغرق في سكرته وغادر الجميع المسرح واقفلوا الباب وبقي وحيدا . . . وها هو ماضيه يتفجر ،ها هو وحيد تحيط به الدمى المسرحية الباردة البلهاء النائية عنه تحدق فيه بعيونها الزجاجية دون ان تملك له شيئا ، كذلك جمهوره ، لقد منحه التصفيق والاعجاب ولكنه لم يمنحه الدفء والحنان الذي هو بأمس الحاجة اليهما وهو في هذه السن . . . ها هو يقف امام المرآة . . . يمسح ماكياجه ويرى في تجاعيد وجهه آبارا من ذكريات الآلام يسقط فيها بئرا تلو الآخر ويتابع شربه . . . احزانه لا يمكن الا أن تفجر في اعماق اي مشاهد اصداء لها . . . احزانه على الصعيد الوجودي لا حل لها : الشيخوخة ، الموت الذي يتربص بنا ، ووحشة الانسان وغربته . . . ولكن هنالك احزانه الاخرى التي تقع على صعيد المعايشة اليومية : فتاته التي رفضت ان تتزوج منه لأنه ممثل في مجتمع طبقي ينظر الى الممثل نظرة متخلفة انسانيا ، ويحرمه ـ كما يحرم سواه ـ من ضمانات الشيخوخة التي يفترض ان تتوفر في المجتمعات العادلة . . . وهكذا فالمسرحية بشكل غير مباشر صرخة اتهام ليس على صعيد الوجود العبثي فقط ، بل هي أيضا صرخة اتهام في وجه نوع من المجتمعات الاستهلاكية التي تلفظ الانسان بعد ان تستنفده كما ترمي بعلبة الكونسروة (المعلبات) بعد التهامها . انها صرخة

ضد كل نظام يكون فيه الانسان سلعة .

وتنتهي المسرحية بموت الممثل العجوز وبالتهاب اكف الناس بالتصفيق وحناجرهم بالدموع التي تمطر بصمت كما تنزف جدران المغاور الحجرية المعتمة . فسامي عبد الحميد يبلغ قمة الاداء فيها . . . وكما في مسرحية تشيكوف يغادر الناس جميعا المسرح ويبقى الممثلون مع ارهاقهم ومعي . . .

■ ٧٠٠٠ سنة مسرح ■

في غرفة صغيرة يتوسطها موقد ـ كدت اجلس عليه انا لشدة البرد ـ رحب بي الاخوان الممثلون . . . ارتموا على مقاعدهم منهكين ، وكان من المفروض انني أريد ان اتحدث اليهم حديثا (صحافيا !) لذا جلسوا صامتين ينتظرون اسئلتي وفي عيونهم ترحيب كريم ونظرة كلها محبة . . . وظللت صامتة . لم يعد لدي ما أقوله . . . (سيغمرني احساس بالذنب فيما لو اضطررتهم الى قول كلمة واحدة ! انهم في غاية الارهاق . ثم لماذا اسأل بعد ان شاهدت ما شاهدت . . . لماذا لا يهدأ « وسواسي الخناس » ـ اي فضولي ـ ولو ليلة ، فيتركني أريح واستريح ؟) . . .

وكانوا اكثر كرما مما توقعت . . . وتحدثوا الي طويلا عن عملهم . . . عن كفاحهم . . . عن حبهم للمسرح ، وعن المسرح كتجربة تعود أصولها في العراق الى ما قبل ٧٠٠٠ سنة ايام كانت تمثل قصة الخليقة طوال ثلاثة ايام احتفالات اعياد رأس السنة البابلية . . .

رغم حديثهم الشيق عجزت عن الدخول في حوار حقيقي . كنت ما ازال ساقطة تحت تأثير « الاغنية الاخيرة » لتشيكوف ، أتأمل وجه ممثلها الشاب سامي عبد الحميد وقد غسل عن وجهه الماكياج المسرحي العجوز ، ومع ذلك ظلت في ملامحه الى حد بعيد احزان دوره . . . واحسست ان في كل مسرح في العالم بعضا من مسرح تشيكوف ووراء كواليس اي مسرح ممثلا يغني بعضا من « الاغنية الاخيرة » . . .

قاسم محمد ومسرح الاطفال

في اليوم التالي كان لي لقاء مع قاسم محمد . لم اخف عليه سروري بالاحتفال المسرحي الثلاثي الذي شاهدت . انهم بتقديمهم لمختلف الاساليب المسرحية في احتفال واحد يساهمون بتثقيف الجمهور مسرحيا بصورة غير مباشرة . . سألته أن يحدثني عن نفسه بعد ان لفت نظري اسلوبه في الاخراج ، واختياره لترجماته الذي يعني اطلاعا على النتاج العصري ومثابرة . لا يبدو انه يحب كثيرا ان يروي قصة حياته ومع ذلك قال لي (أنا

خريج معهد الفنون الجميلة في بغداد قسم المسرح ١٩٦٢ . تابعت دراستي في موسكو وتخرجت عام ١٩٦٨ . ذهبت لادرس التمثيل فتخصصت في الاخراج . اعمل صباحاً في الفرقة القومية « مسرح الطفل » . في العالم الماضي قدمنا مسرحية « طير السعد » للاطفال وهي اسطورة عراقية لقيت نجاحاً واثبتت امكانية وضرورة تأسيس مسرح للطفل. نعم - اعتقد ان الفولكلور الشعبي العراقي غني جدا بالامكانيات الدارمية) . . الأخ لؤ ي القاضي الذي رافقه في زيارته الي يحدثنا عن فيلم عراقي خاص بالاطفال يعده مع قاسم محمد (لؤ ي القاضي شاب سينمائي درس في برلين وعاد من مدة قريبة ليتابع مع رفاقه المثقفين مهمة بناء فن عراقي حديث وأصيل في ارض كانت لها ايام وتراث . .) لفت نظري تركيزهما على نبش القضايا الفولكلورية الشعبية مع اعادة النظر فيها . . انهما سيقدمان مثلا اسطورة علاء الدين والمصباح السحري ولكن هذه المرة سيتحرر المارد من المصباح ولن يعود اليه عبدا وانما سيخطمه . . . ووجدت انني التقي معهما في اهتمامهما بمسرح الاطفال وتذكرت رأيا جيدا لسميرة حسن قرأته في احد أعداد مجلة (المسرح والسينما) حيث توضح انه من المهم العمل على (خلق جمهور من الصغار هم نواة لجمهور مسرحي ثابت وهذا بالضبط ما ينقص المسرح في قطرنا فنحن نفتقر الى احد العناصر المهمة في المسرح الا وهو الجمهور المسرحي الثابت والذي يأتي الى المسرح لا لمشاهدة وجوه معينة او فرقة معينة انما الى المسرح لكونه مسرحا اعتاد عليه . بالاضافة الى ما تقدم فان مسرح الاطفال يمكن ان يربي النشء تربية صحيحة ولن يتكامل المسرح في بلد ما دون هذا الجانب المهم والحيوي من جوانب الفن المسرحي) .

وقبل ان يغادرني قاسم محمد ترك بين يدي نصاً مسرحياً اسمه (انا ضمير المتكلم الذي التحم بالفعل الماضي الناقص) ، وقد قرأته فيا بعد واعجبت به . . ان قاسم محمد في رأيي موهبة ذات طاقة مدهشة على العمل وان كنت اخشى عليه من التشتت بين مختلف الفعاليات الابداعية التي يمارسها . لؤ ي القاضي وحديثه عن السينما العراقية وازمتها زادني احساسا بانني اغرف من البحر بصدفة . وبعد أن مضيا تذكرت كم نتحدث عن الوحدة العربية ونصفق لها ونتغزل بها ونقف على اطلالها وننظم المعلقات في التباهي بها ونحن لم نحقق بعد الحد الادنى منها وهو الوحدة الثقافية ، بل اننا في كل قطر نكاد نجهل جهلا تاما ما يدور في الاقطار العربية الاخرى من نشاط فني وثقافي وفكري ، وانه بات من الضروري ان نطلق شعار « اعرف نفسك » مع شعار « اعرف عدوك » .

يوسف العاني

اسم راسخ في المسرح العراقي ، له مفهمومه الواضح ، وخطه الصريح العلني الذي يسير على هديه . يكتب مسرحيات ودراسات ويمثل ويبدع في كافة المجالات . . له فضل كبير على تطور المسرح العراقي ١٩٥٢ بعد تخرجه من معهد الفنون الجميلة في العراق فرع التمثيل والاخراج ، أسس مع عدد من المثقفين فرقة المسرح الحديث . وكتب للمسرح منذ عام ١٩٥٠ عددا من المسرحيات القصيرة طبع منها (رأس الشلة) و (مسرحياتي) - بجزأين - . ومن الكتب التي ألفها : شعبنا - لوحات تمثيلية من ثورات الشعب العراقي - بين المسرح والسينما - افلام العالم . مسرحية الخرابة . . وله ايضا نشاط سينمائي ليس بزخم نشاطه المسرحي (كتب قصة وسيناريو فيلم وداعا يا لبنان ومثل دور العراقي فيه عام ١٩٦٦ - ١٩٦٧) . ويشغل الآن منصب المستشار الفني لمصلحة السينما والمسرح في وزارة الثقافة والاعلام في العراق كما كلف اخيرا بمهمة المدير لمديرية السينما - في مصلحة السينما والمسرح في وزارة الاعلام . .

وقد اهداني مسرحيته (الخرابة) التي رغم اهتمامي بقراءتها لا استطيع كتابة كلمة عنها لأنها مكتوبة باللهجة الشعبية العراقية التي لست ضالعة فيها واعتقد ان قضية (اللهجات) في المسرح يجب اعادة طرحها على ضوء منظار الرغبة الجادة في وحدة ثقافية عربية .

ناهدة الرماحي . . .

سيدة جادة . ممثلة جادة . ليس فيها شيء من الخلاعة التقليدية التي التصقت خلال عصور انحطاط الفن بكلمة ممثلة . انها ممثلة بالمعنى الثوري الحق للكلمة ، فهي امرأة عاملة وموهوبة وزوجة وام وموظفة . . لم ارها الا مهرولة . . . على المسرح وخارج المسرح . . . راكضة ابدا كي تمنح المزيد . . . تمنيت ان ارى ايضا ممثلة سمعت عنها واسمها زينب وقيل لي انها وناهدة الرماحي من افضل الممثلات العراقيات . . سألتها عما تفعله ، فروت لي الكثير من نشاطها السينمائي الحالي (فيلم العطش) والمسرحي (مسرحية الخرابة) وختمته بعبارة احببتها (ما زلت اتعلم واتعلم واتعلم . . .)

مسرح مصلحة السينما والمسرح

ليلة رحيلي انعقد الغيم في السماء عنيدا لا يمطر ولا يرحل . . احسسته مثل كل بداياتنا الثقافية التي انعقدت في سمائنا غيما يبشر بعطاء عالمي متكامل ولا يمطر . . ولا يمطر . .

ورافقت صديقين فنانين الى افتتاح مسرحية (فيت روك) التي يقدمها قسم الفنون المسرحية في اكاديمية الفنون الجميلة . المسرح حديث وفخم يختلف تماما عن (مسرح بغداد) الشعبي ولكن المسرحية التي شاهدتها في ذلك المسرح المتواضع كانت افضل (فنيا) من مسرحية الخريجين . . . ربما كان السبب يعود الى انني شاهدت المسرحية ليلة افتتاحها ، وجميع الممثلين الناشئين يقدمون دوما اسوأ ما عندهم ليلة الافتتاح بسبب حالتهم النفسية وارتباكهم (وهو أمر طبيعي) . . .

كان الجيد في مسرحية (فيت روك) هو اختيارها لانها تقدم للجمهور العراقي والعربي خطا حديثا في المسرح يقوم على (تحريك المجاميع) المسرحية لا على (البطل الفرد) والمسرحية تدين الحروب العداونية والاعتداء على الشعوب الآمنة من خلال ادانتها للحرب العدوانية التي تشنها اميركا في فيتنام .

وغادرنا المسرح ، وكانت سماء العراق قد سئمت الضباب والغيوم وانفجر المطر . . . متى ينعقد ضباب المسرح العراقي مطرا مبدعا ويتجاوز مشكلاته ؟ . .

تمطر . تمطر . نتجول في شوارع بغداد ، أتأمل تماثيلها في الليل والعاصفة ويخيل الي انها تتحرك راكضة نحو الارصفة لتحتمي بمداخل البيوت من البرد . نتحدث عن المسرح . اقول لصديقي انني اتمنى ان اشاهد المزيد من اعمال سامي عبد الحميد . يرد احدهما : انة من اكثر المخرجين موهبةفي العالم العربي وانه برهن على ذلك يوم اخرج مسرحية (بانتظار جودو) ومثل احد ادوارها . . يقول صديقي الآخر : هناك كاتب مسرحي هو طه سالم يجب ان تقرئي له . لديه نزعة سوريالية، ويعبر عن الحياة بشكل مشحون بالرموز ولكنه يحافظ في الوقت نفسه على القصة المسلية . . . انه يستقي مصادره من المواضيع الشعبية ويطرح من خلالها مواضيع عصرية . . . يجب ان تقرأي له . . . ويجب . . . ويجب . . . . واتذكر كم هي كثيرة الاشياء التي يجب ان افعلها . . . والاشياء التي اتمنى ان افعلها . .

ولكن . .

ولكن اعود من العراق .

لم يبق امامي سوى مراجع قليلة استطعت جمعها عن المسرح ، وابرزها العدد الخاص من « المثقف العربي » حول المسرح ، ودراسة بعنوان (البحث عن شخصية المسرح العراقي) كتبها الاستاذ ياسين النصير ، واعداد من مجلة المسرح والسينما العراقية ، وكتب الاستاذ يوسف العاني ومحاضرته (تجربتي في المسرح العراقي) . . .

وكلها تتضمن دراسات قيمة عن مشكلات المسرح العراقي و (المطبات) التي تحول دون تحليقه على صعيد الافتقار الى النص والتقاليد المسرحية والحرية والممثل والجمهور واللغة و . . . و . . . وفكرت في أن ألخصها . . . ولكن لماذا افعل ؟ . . . انها باختصار المشاكل نفسها ـ مع بعض الفروق النوعية الضئيلة ـ التي يعاني منها المسرح العربي بصورة عامة في كل قطر من اقطارنا . يكفي ان يتطلع كل قارىء عربي الى مآسي المسرح حوله ليدري بمآسيه في الاقطار الأخرى .

ورغم كل شيء . . تظل هنالك مواهب تضيء في ليل انتظارنا لفجر ، وتتألق مثل النجوم التي تبدد وحشة الانتظار ، بعضها ينتظم في درب محددة المعالم مثل درب المجرة وبعضها الآخر يضيء لبرهة ثم يلتهب ويسقط كاحتراق الشهب . . . وكل يمنح على طريقته . . . والفجر لم يعد بعيدا . . . أم تراه . . . ؟

لندن ٣١/ ٣/ ٧٢

في مدينة الشموع السود

لندن . وتهبط بي الطائرة في حقل الضباب الازلي . . . لندن . . .

وكانت لندن هذه المرة مدينة اخرى . . مدينة الشموع السود الغارقة في ثوبها المعتم المرشوش بالثلوج .

لندن . . .

جئتها احمل بيدي قلبا نزفه على الورق سطوراً وكلمات ، ابحث عن غرفة دافئة مضيئة اتكور فيها قرب الموقد واكتب . . . ووجدتني في قرية بلا كهرباء ولا تدفئة ، يقطنها ما يزيد عن ١٢ مليون انسان ، يهربون جميعا ، حينما تغيب الشمس ، الى جحورهم ، أو يسيرون في الشوارع المعتمة جماعات ، وحينما يسير فيها انسان وحيدا ـ مثلي ـ ، تجده يتلفت حوله بحذر كما في الغاب ويحاول عبثا ان يندس في رحم الازقة الحجرية خوفا من طعنة خنجر تمتد بها يد سارق او مجنون دموي . . فقد تزايدت حوادث العنف في فترة الاظلام الاجبارية هذه . . .

بدأت الحكاية حينما اضرب عمال المناجم في بريطانيا ـ الذين يزيدون على المليون ونصف المليون عامل ـ مطالبين بزيادة اجورهم . . وكانت النتيجة الحتمية للاضراب فقدان الطاقة الكهربائية وكل ما توفره من ضياء وتدفئة ... ورغم انني كنت قد سمعت بأنباء الاضراب قبل سفري ، الا أنني ظننتها كالعادة تحمل كثيرا من المبالغة من حيث نتائج الاضراب . . . وفوجئت بأن الانباء اقل مبالغة من الواقع . . . وبأن لندن غارقة تماما في بحر الظلام والصقيع ، كأنها غواصة واحدة كبيرة تمخر في ليل الوجود الى حيث لا أحد يدري ، وركابها يرتعدون بردا وخوفا . .

وها هي لندن تضيء كل مساء شموعها السود . . والشعب البريطاني يتابع حياته دونما تذمر بمسلكية مدهشة النضج والهدوء تثير اعجاب الغريب . .

وها انا ارقب كل ليلة غروب الشمس بخوف . . واقرأ في الصحف عن توقعات زيادة النسل بعد تسعة اشهر بسبب (رومانتيكية) ليل لندن ووحشته التي يهرب منها المتزوجون ـ وغيرهم ـ الى فراش الحنان مبكرين . . . واقرأ في ـ « الديلي ميرور » ـ عن

نشاط الـ ٤٠ الف ساحر الذين يزاولون نشاطهم في بريطانيا . . . ثم أهرب من هذا كله ، كل مساء ، الى مسارح لندن ودور السينما فيها التي حرصت في اعلانات الصحف على ابراز وجود محركات كهربائية خاصة في دورها تستطيع ان تؤمن التدفئة والنور متى شاءت . . .

عازف الكمان فوق القرميد

هو اسم لمسرحية غنائية صهيونية شاهدها ٣٥ مليون شخص منذ افتتاحها الاول في ٢٢ سبتمبر ١٩٦٤ في نيويورك وفي العروض الكثيرة التي قدمت لها في ٣٢ دولة ! . . وها هي المسرحية تصير فيلما كبيرا يعرض في احدى دور سينما (الوست اند) ، في حي (توتنهام كورت رود) قرب مقهى (الهورس شو) بلندن . . .

وها انا اجلس في مقعدي اتأمل الفيلم الجيد ، واختنق في حلقي صرخة ألم مريرة . .

ها هو الفيلم يجسد ذكاء الدعاية الصهيونية . . وإبداعها . . . وقدرتها المدهشة على التضليل . . ويذكرني بتخلف اعلامنا العربي على الصعيد العالمي ـ حيث يجب ان يثبت وجوده ـ ، وبإطنابه في الثرثرة على الصعيد العربي الداخلي ، على صعيد المزايدات الكلامية والانتصارات الخطابية ، حيث لا حاجة لنا به ، لانه ليس هنالك عربي بحاجة الى الاقتناع بجرائم اسرائيل وبمأساة الشعب الفلسطيني .

يعتمد الفيلم اولا على ممثل مبدع ـ للاسف ـ اسمه « توبول » ، وهو اسرائيلي من مواليد تل ابيب عام ١٩٤٣ . وهو يمثل في المسرحية ـ الفيلم دور بائع حليب يهودي فقير في احدى قرى روسيا القيصرية ، متزوج وله خمس بنات اكبرهن في السادسة عشرة . . . وهو نسخة يهودية عن (زوربا اليوناني) ، فهو يحب الحياة رغم فقره ، ومثل (زوربا اليوناني) يعبر عن حبه للحياة بشربه للخمرة وبرقصة تمجيد للارض وللوجود يؤديها وهو ثمل (مثل انتوني كوين في فيلم زوربا الاغريقي) على الحان شبح يعزف على الكمان فوق سطوح اهل القرية اليهودية وقرميد بيوتها . .

واحداث الفيلم ـ بالاضافة الى شخصية الممثل الموهوب ـ تهدف كلها الى (تحبيب) الجمهور بشخصية بائع الحليب الذي من المفروض انه يمثل الشخصية اليهودية التاريخية . . . فهو متعلق بالتراث اليهودي اذ يقول في الفيلم (بدون التراث تصبح حياتنا مزلزلة مثل عازف كمان فوق السطوح) ، وهو يرتدي الثياب اليهودية التقليدية ويمارس الشعائر الدينية التي يعرضها الفيلم بشكل مقنع وخفيف الدم ، وهو ـ وهنا

المهم ـ مضطهد في المجتمع الذي يعيش فيه لمجرد انه يهودي . . .

وبعد ان يسرق الفيلم مشاعر المتفرجين وشفقتهم عبر حكايا حب تعيشها بنات بائع الحليب مع شبان فقراء ، وترفض كبراهن الزواج من أغنى رجل في القرية كي تتزوج من خياط فقير تحبه (هنا يضمن الفيلم مشاعر الرومانتيكيين) والبنت الثانية تصر على الزواج من شاب شيوعي وتلحق به الى سيبيريا حيث ينفيه القيصر (هنا يتسول الفيلم مشاعر اليساريين) ، وبعد حواره الحميم مع الإله (هنا يضمن الفيلم مشاعر المتدينين) ، وبعد ان يكاد يمس الجماهير على اختلاف مشاربهم (كما فعل فيلم صوت الموسيقى) وحتى مشاعر الليبراليين والفنانين يهزها عن طريق موسيقى الفيلم الجيدة واغانيه الجميلة ، بعد هذا كله تبدأ عقدة العقد التي هي الهدف الأساسي للفيلم : اثارة شفقة المتفرج الاوروبي وغرس مشاعر الاحساس بالذنب العالمي نحو اليهود المساكين المضطهدين في كل اقطار العالم ! . . فالنصف الثاني من الفيلم يرسم (وحشية) القياصرة في طرد بائع الحليب وعشيرته من قريتهم ومن بيوتهم ، وتشريدهم في الارض (بعد ان استهلك تماما موضوع اضطهاد النازيين لليهود ، رأى حكماؤهم ضرورة استبدال هذا الوتر بآخر مشابه) وينتهي الفيلم ببطله وهو يمشي في الثلوج حاملا على كاهله متاعه القليل ، وخلفه زوجته وبناته يسيرون بحثا عن قرية لا يطردون منها . . . وطبعا المقصود من نهاية الفيلم استجداء شعور العالم بضرورة وجود اسرائيل حيث يعود اليهودي الى (بيته الاول) الذي شرد منه طريدا في انحاء الارض . .

والفيلم ذكي جدا لانه في قسمه الاول ينجح في جعل بائع الحليب ممثلا للطيبين في الارض ، الرجال البسطاء الذين حياتهم كلها حب وعفوية ، حب لاسرتهم ، ولتراثهم ، ولرفاقهم ، وللطبيعة ، وحتى لاحصنتهم الكسيحة . . . وبعد ان يضمن المخرج الذكي للفيلم (سبق له اخراج فيلم : « الروس قادمون » و « في حر الليل » ، تمثيل سيدني بواتييه ورود شتايغر و « عملية توماس كراون » تمثيل ستيف ماكوين) حب الناس لاهل (الضيعة) اليهودية ، يرسم طريقة تشريدها بطريقة لا يملك امامها المتفرج الاوروبي الا التعاطف مع نموذج اليهودي المشرد المسكين .

ولو لم اكن عربية ، اعرف الكثير عن المذابح الاسرائيلية من قبل دير ياسين الى ما بعد جنوب لبنان ، لكان من السهل ان تخدعني لعبة الفيلم الذكية . . . اللعبة نفسها تمارسها الصهيونية الذكية على اكثر من صعيد في كل العواصم الاوروبية . . . نبيل المهايني كتب من روما في مقال له بعنوان (رد على الاتهامات الصهيونية) ينبهنا فيه الى ان :

(الحاجة الآن ماسة اكثر من اي وقت مضى الى مضاعفة الجهود العربية في مجال الدعاية في العالم) .

وفي دراسة قيمة لاحمد محمد عطية بعنوان (الرواية الصهيونية اعلاميا . . من الحلم الصهيوني الى الحرب التوسعية) . نجده يقول : (الرواية الاسرائيلية مهتمة اساسا بوظيفتها الاعلامية والدعائية في تشويه الحقيقة لصالح الصهيونية ، وفي غسل مخ العالم ، وخلق وتشكيل الوجدان الاسرائيلي خلقا عنصريا وعدوانيا ، وهي في كل هذا انما تتطابق تماما مع اهداف السياسة الاسرائيلية والاعلام الاسرائيلي) . . . وهنا احب ان انوه لقارئي بأن أصل مسرحية ثم فيلم (عازف الكمان فوق السطح) مجموعة قصص ألفها (شولوم الايخيم) الصهيوني وتنطبق عليها المواصفات المذكورة اعلاه كلها . . ولما كانت الصرخات لتوحيد جهود الاعلام العربي وتصعيدها الى مستوى جاد كثيرة ، شبعنا من ترددها ، اكتفي بهذا القدر من ايراد واقع الاعلام الاسرائيلي الناشط والذكي، واسوقه (الى من يهمه الامر) ، اي الى الجميع .

أقذر استعراض في المدينة

مسرحية غنائية اسمها « أقذر استعراض في المدينة » وهي بلا شك (اسم على مسمى) ان لم تكن كثيرة التواضع في تقديرها لمدى قذارتها ، وهي تعرض في مسرح (الدوقة) في حي (الاولدويتش) ، القلب النابض لمسارح وصالات لندن . . . ليس فيها شيء من المسرحية او الغنائية . . . كل ما فيها ان ابطالها يظهرون على المسرح عارين تماما (كما في مسرحية هير) التي بدأت هذه البدعة مع اغنيات جميلة واستعراض مسرحي جميل ، ثم مسرحية (اوه كلكوتا) البذيئة التي جمعت العري الجسدي مع الرخص والتعهير للذوق وللحس الانساني ، و(هير) ما تزال تعرض في لندن منذ اربع سنوات ، اما (اوه كلكوتا) فما تزال تعرض منذ عام ونصف . وفي « اقذر استعراض في المدينة » مزايدة على العري والانحطاط الى درك حيواني يمجه الذوق السليم وحتى غير السليم . . ففي (هير) كان هنالك عري بريء كعري اطفال القطط في الغاب ، عري تلفه غلالات من الاضاءة المسرحية الذكية الملونة الظلال . . . ثم جاءت (اوه كلكوتا) تزايد على (هير) بعري وقح ، عار من غلالات الفن . . .

وها هي مغناة « اقذر استعراض في المدينة » تقدم لنا العري ببشاعة حيوانية بالاضافة الى ممارسة الممثلين على المسرح لما تمارسه القطط في الشوارع المعتمة في شهر شباط ، وبكل معاني الكلمة وامام عيوننا !! . . .

ان الوجودية واليمينية واليسارية والدراوينية والماركنتلية والشوفينية والكافكية والابيقورية وكل ما يمكن ان يخطر بالبال من تسميات بريئة كل البراءة من تلك السوقية المسرحية التي لا علاقة لها الا بشيء واحد اسمه الرغبة في الكسب المادي . . . واية مناقشة جادة لهذا الاستعراض (البيولوجي) ، للعلاقة بين الذكر والانثى تسبغ عليها اهمية لا تستحقها . . . ولا اجد ما اصفها به الا كلمة الدكتور يوسف ادريس الذي رافقني الى المسرح مدفوعا بفضوله مثلي وخرج يقول ببساطة : « قرف » . . . وحزنت انا لخشبة المسرح هذه التي شاهدت على رقعتها بالذات الممثل الكبير نيكول وليامسون في دور مجنون غوغول (مسرحية يوميات رجل مجنون) ، ومزقت صرخته أذني منذ اربعة اعوام ـ وما تزال ـ وهو يصيح في وجه المؤسسات الاستهلاكية التي تمتص شبابه : اني وحيد وضائع . . . وحدقت في العمل البهيمي الذي يمارس امامي الآن على الخشبة نفسها وتساءلت :هل هذا هو الحل الذي يقترحه كاتب المسرحية وأحد ابناء مسرح (لا ماما) الاميركي ، لمآسينا الانسانية ؟ طبعا لا . انه ببساطة الحل الذي وجده لمشاكله المادية !

أجمل استعراض في المدينة

حديثي عن « اقذر استعراض في المدينة » يذكرني « بأجمل استعراض في المدينة » شاهدته في لندن . . . انه طريقة الشعب البريطاني في تقبل حرمانه من الكهرباء والتدفئة طيلة شهر كامل بسبب اضراب عمال المناجم . . . لقد تفهم الناس حق العمال في التعبير بحرية عن مطالبهم ، مع احتفاظهم ـ أي الناس ـ بحقهم في حرية الرأي حول مبررات هذا الاضراب او توقيته . .

اما بالنسبة الي انا الغريبة ، فقد كان اطفاء التيار الكهربائي حافزا يوميا للهرب الى الاماكن الوحيدة المضاءة باستمرار : المسارح والسينما والمستشفيات . . . وطبعا لم أجد ما افعله في المستشفيات ، وكان لا مفر من ان اقع على مسرحيات وافلام كثيرة بعضها رائع وبعضها فظيع . . . وسأتابع حديثي عن قلة منها لضيق المجال . . . ولا بد لي من ان اخص المسرحية الغنائية (كانتربري تيلز) ببعض السطور لان فيها مثالا رائعا لمعنى الافادة من التراث وبعثه في رداء عصري مشوق ، وفيها نموذج راق فكريا لما يسمى بالمسرح الغنائي الذي كثر الحديث حوله في بلادنا بعد ان أطلقه على مسارحنا الرحابنة (عاصي ومنصور الرحباني) واحبه الناس .

أحياء « تشوسر » بعد ستة قرون

مغناة (كانتربري تيلز) التي تقدم بنجاح منذ اربعة اعوام على مسرح (فوينكس)

بحي (شيرنغ كروس) بلندن مستقاة اصلا من عمل شعري ملحمي كتبه في القرون الوسطى شاعر انكليزي عظيم هو جيوفري تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠) وهو نوع من حكايا الف ليلة وليلة على الطريقة الانكليزية ! . . . وفيه يروي حكاية الحج الى دير « كانتربري » ، وحكايا الحجاج المختلفة التي يروونها لينسوا مشقة الطريق ، وفي هذه الحكايا تصوير حي لعصره كما فيها تصوير مدهش للطبيعة البشرية في كل عصر . .

ولما كانت هذه الحكاية الشعرية مكتوبة بلغة ذلك العصر - اي بلغة القرن الرابع عشر - فان قلة من دارسي اللغة الانكليزية والمختصين باصولها يلمون بهذا العمل او يقدرون على فهمه . . . وها هي المغناة تقدم للجماهير ذلك العمل الفني الخالد بلغة عصرية ، وفي اطار حي متحرك غنائي . . . وتتوفر بذلك للمغناة تسهيلات الحياة التكنيكية المسرحية مع غنى التراث ، ويتم بذلك تعريف الناس بكنوز تراثهم في اطار مشوق ينطق بلغة العصر لا بلغة الكتب الصفر . .

لقد اصدر (مارتن ستاركي) و (نيفيل كوغيل) كتاباً تضمن مختارات من قصص تشوسر هذه ، بعد ان اعادا كتابتها بلغة مقروءة حديثة ومفهومة ، كما ان اختيارهما للقصص مبني على رؤ ية عصرية عملية وواقعية . . ثم عاد « مارتن ستاركي » فأخرجها في هذه المغناة الناجحة . . .

ونحن ، متى ننتهي من مرحلة تحنيط التراث العربي ، فنعود الى كنوزه لنكتبها بلغة العصر ونخرجها للناس في مسرحياتنا واستعراضاتنا ونشاهدها على مسارحنا وشاشات تلفزيوننا ونكف عن التعامل معها كأنها مومياءات في متحف التاريخ ، لا تمس ، ولكن لا تفيد ولا تضر احداً ؟ . اقول هذا وفي ذهني عشرات الامثلة والصور من تراثنا الغني بالحكايا والاساطير : الاغاني للاصفهاني . . . حكايا ابن المقفع . . . مقامات الحريري والهمذاني وغيرها . . . كتب المبرد . . . حكايا الف ليلة وليلة . . . حكايا الجاحظ . . . وتاريخنا الادبي لا يضن علينا بالامثلة . . . من يبدأ ؟ . . . ومتى ؟

« كين راسل » والعنف الرخيص

مرة ثانية انتقل من المسرح الى السينما . . . واختار من بين عشرات الافلام التي شاهدتها الفيلمين الاخيرين للمخرج كين راسل اتحدث عنهما . . . لماذا كين راسل ؟ . . . لانه مخرج موهوب استطاع منذ فيلمه الاول (نساء عاشقات - عن قصة د . هـ . لورانس) ان يشد اليه انظار العالم من متفرجين ونقاد ، وفيلمه الثاني (عشاق الموسيقى) - الذي شاهدته بيروت ايضا في الموسم الماضي - وهو يتحدث عن حياة

الموسيقار تشايكوفسكي لقي ايضا نجاحا مماثلا رفع اسم كين راسل بسرعة الى مصاف كبار مخرجي العالم امثال برجمان وفلليني ولوزي وغيرهم . . .

بعد كل نجاح سريع وكبير كبير ، يكبر السؤ ال على شفاه المتفرجين وهواة السينما : وماذا بعد ؟ . . .

لذا ذهبت لأشاهد فيلميه الجديدين اللذين يعرضان في وقت واحد بلندن ـ اظن ان احدهما سيمنع عرضه في بيروت ـ واولهما اسمه (ذي بوي فريند) اي (الصديق) والآخر (ذي ديفلز) اي « الشياطين » . الاول اختار له بطلة « عارضة الازياء الشهيرة « تويغي » التي تظهر لاول مرة على الشاشة . . . وجعل منها بطلة استعراضية ترقص وتغني في الفيلم . . . وقدم لنا فيلما استعراضيا سيئا بدأه بسخرية ذكية من الافلام الاستعراضية السيئة ، ثم سقط بعد نصف الساعة الاولى من العرض في الفخ الذي كان يسخر منه . . . اي تحول فيلمه الى فيلم استعراضي آخر يحوي جميع المساوىء التي كان ينقدها في اول الفيلم ! . . . و « تويغي » كانت رائعة حينما تصمت ولا تتحرك وتجمد كتماثيل واجهات مخازن الازياء . . . وكانت سيئة بالمقدار نفسه حينما تحاول ان تتحرك او ترقص او تغني . . .وتلك صفة لاتسيء كثيراً الى عارضة ازياء ، لكنها كارثة حينما تتصف بها النجمة الاولى لفيلم من المفروض انه استعراضي . . .

ولكن الكارثة الحقيقية هي فيلم (الشياطين) الذي اتوقع ان يمنع في بيروت ـ وان كنت ارجو مخلصة الا يمنع كي يعرض الناس عنه بانفسهم كما اعرضوا عنه في لندن وكاد الصمت يلفه لو لم تنقذه اشاعة عن منعه الوشيك . . . والشياطين (تمثيل فينيسا ريدغريف التي شاهدها جمهور بيروت في احلى افلامها « ايزادورا » وفيه تمثل دور الراقصة الشهيرة ايزادورا دنكان) فيلم كتبه واخرجه كين راسل ، ويقول انه استقاه حرفياً من قصة تاريخية واقعية . . . وهو يروي حكاية رجل دين شاب ووسيم تقع في حبه رئيسة دير للراهبات ويستحوذ حبه عليها وتهيم به كما هام قيس بليلى وجن . . . لكن جنونها على طريقة (كين راسل) كان مختلفا عن الجنون على الطريقة العربية القيسية . . . انها تحلم به ، وتضيع الخيط الرفيع بين الحقيقة واحلام اليقظة المشتهاة (اي تجن) وتعلن بأنه يأتي كل ليلة الى مخدعها . . . تتهمه باغتصابها . وتعاقب الراهبة علنا بحقنة فيها ماء مغلي في احشائها لتطهرها من الرجس ، ويتم ذلك امام جمهور من الراهبات والرهبان والرسميين وامام متفرجي السينما المساكين ايضا الذين يفرض عليهم مشهد سادي لا مبرر له يدوم اكثر من نصف ساعة . . . وتتوالى المشاهد السادية . . . نساء يعذبن بوضع العقارب في

جروحهن . . . وكيهن في اماكن حساسة ـ وكل ما في الجسد حساس للالم والتعذيب ـ ونرى اكداس الجثث في الشوارع ونسمع الانين والصراخ ، واخيرا تصبح راهبات الدير مسرحا لاستعراض سادي شاذ مروع .

ثم يتابع كين راسل وليمته الرهيبة بمشهد رجل الدين البريء وهو يعذب بتهمة كاذبة هي التسلط على الراهبات بالسحر ، ويبدأ التعذيب بثقب لسانه ثم بتحطيم عظامه بالمطرقة واخيرا بربطه الى عمود واحراقه حيا . ويختم كين راسل فيلمه الفظيع بتركيز عدسة السينما وعيون المتفرجين المساكين على الرجل وهو يحترق كي لا تفوتنا ابدا التفاصيل البيولوجية لاحراقه ، والقلائل الذين يبقون الى آخر الفيلم (كانت الصالة نصف فارغة حينما دخلنا وكانت فارغة تماما آخر الفيلم) يقفون بعد اشعال الاضواء دون ان يفهموا قصد كين راسل من ملحمته الميلودرامية السادية تلك ، ويظلون صامتين شاعرين بانهم خدعوا وأُسيء اليهم بلا مبرر ، واذا نطق احدهم فسيقول تماماً كما قال لي الدكتور يوسف ادريس بعد انتهاء الفيلم : « قرف . لا علاقة للفن الحقيقي بذلك كله . قرف ايضاً » .

والواقع ان إعراض الجمهور عن الفيلم هو خير ادانة له ، فهو يستجدي الجمهور بميلودرامية رخيصة فارغة من اية شحنة فكرية او مضمون انساني يبرر فظاعات العري وعمليات التعذيب . . .

وقلت للدكتور يوسف ادريس : كم انا مسرورة لانهم لم يمنعوا هذا الفيلم الفظيع . انه بحالته الراهنة سيموت تلقائياً ، ولكن في حال منعه سيصنع من كين راسل شهيداً . . . ولكن في اليوم التالي قرأت في صحيفة « الديلي ميرور » ان طلبا رسميا قدمه الاهالي وبعض الجمعيات والفئات لمنع هذا الفيلم السادي الفظيع (وهم على حق في وصفهم للفيلم لكنهم على غير حق في اختيارهم للعلاج) . . والدليل ؟ . . الدليل انني ليلة صدور الخبر في الجريدة قررت ان اقوم بتجربة عملية : ذهبت الى دار السينما في (بيكر ستريت) حيث يعرض الفيلم لاحاول قطع تذكرة ولم افاجأ حين علمت بأن المقاعد كلها مباعة (كومبليه) لقد جاء الناس وازدحموا لمشاهدته بعد ان تسربت انباء احتمالات منعه حتى نفذت التذاكر ، مع ان دار السينما كانت شبه فارغة قبل ذلك بيوم واحد . . .

انني ازداد يوما بعد يوم ايمانا بان مساوىء اطلاق حرية الفكر هي اقل من مساوىء كبحها . وهذه قناعة احب ان اعلنها واسجلها .

غواصة الشموع السود يحكمها السحرة

وقد زاد نشاط السحرة في لندن بعد ان هيأ لهم انقطاع التيار الكهربائي جوا مناسبا . . . وازدهرت جلسات تحضير الارواح ، وقد وجدت في زيارة بعض السحرة نوعا من المسرح الحي الذي لا يقل تسلية وعرضا لشؤ ون الحياة عن المسرح (المسرحي) . . .

والمعروف انه في بريطانيا اليوم ٤٠ الف ساحر وساحرة (وهو رقم استقيته من تحقيق صحافي هناك) ، وان ٣٠ الفا من اولئك السحرة هم سحرة (بيض) بمعنى انهم يعترفون بان الاله هو سيد الكون ، و ١٠ آلاف سحرة (سود) يعبدون (ساتان) الشيطان اله الظلام . . . ويقول (راي بوجارت) وهو من كهنة الشيطان مفسراً (شعوذته) : الشيطان(ساتان)هو ابن الاله ، وقد اوكل الاله شؤ ون الارض اليه ، وعلينا بالتالي ان نستقي منه القوة ، وانا من بعض كهنته ! . . .

وعن طقوس السحر الاسود ، التي سمعنا بان اهمها تقديم الذبائح الحية البشرية ، يقول :

اننا لا نقدم الذبائح البشرية ، لكننا احيانا نقدم ذبائح حية ـ في حالات خاصة جدا واضطرارية جدا ! ـ مثل الحمام والدجاج فقط ، وذبحها يتم بخنجر خاص بالطقوس ، وبجز رقبتها على المذبح على الطريقة القديمة . . . لكننا لا نقدم ابدا ذبائح من القطط او الكلاب (وهي حيوانات مدللة في بريطانيا اكثر من البشر) . . . فقط حمام ودجاج ! . . .

وبيت هذا الساحر وزوجته كاهنة الشيطان ايضا واسمها « جين » عادي وحياتهما مع طفلهما عادية ، لولا تلك الغرفة غير العادية التي يكسو جدرانها وسقفها لونان هما الاسود والاحمر . . . وفي احدى زواياها قدر كبير هو قدر السحرة الشهير . . . وهنالك خناجر خاصة بالطقوس الدموية . . . وهنالك خارطة لبريطانيا علقت قرب الباب وغرست في بعض مناطقها دبابيس فيها اعلام صغيرة حمراء ويقول الساحر انها تشير الى مناطق عبادة الشيطان الحالية (منظر الخارطة يذكر بالمهارة الحربية وبالجنرالات خلف خرائطهم ايام المعارك) والطقوس التي تدور في هذه الغرف كثيرة وعجيبة غريبة ، ولا ينفي (راي بوجارت) ان من بعضها التعري وممارسة الجنس مع الكاهن الاكبر وان كان ينفي ان ذلك يتم على مشهد من الجميع ! . .

ولعل اكبردليل على مدى انتشار موجة السحر في بريطانيا وايمان الناس بها ، هو تصريح احد رجال الدين بلندن وهوالاب كريستوفر نيل سميث (٥١ سنة)كاهن كنيسة في

حي هامستيد ، الذي اعلن بان عددا من السحرة جاءوا اليه وتابوا على يده بعد ان أجرى طقوسا دينية لطرد الارواح الشريرة منهم ، وهو يتحدث عن تجربته هذه فيقول انه يشعر بان الارواح الشريرة التي تستحوذ على السحرة ، تخرج منهم عبره ، وهو لذلك يصاب باعياء شديد وارهاق ويكده العرق بينما هو يطردهم مسلحا بكلمات الانجيل ! . . .

وربما كان من اطرف مظاهر الايمان بالسحر والمنجمين والابراج ان بعض ممثلي احدى المسرحيات طبعوا اسماءهم في الكراس الخاص بذلك والى جانب كل اسم ذكر كل ممثل برجه كنوع من التعريف بنفسه! . . .

وقد يأتي يوم نجد فيه الناس بلندن وقد طبعوا ابراجهم الى جانب اسمائهم في بطاقاتهم الشخصية ، وربما أيضاً في تذاكر اوراقهم الثبوتية وشهادات ميلادهم ودليل الهاتف . . .

لندن الغنية بتناقضاتها

هذه بعض حكايا لندنية عايشتها خلال شهري المنصرم في لندن ، واحسست عبرها ان لندن هي نفسها في ضوء الكهرباء وفي ضوء الشموع وفي ضوء الظلام . . . لندن الغنية بتناقضاتها . . . لندن الغواصة المجنونة الراكضة في بحر الشموع السود من حيث لا تدري والى حيث لا تدري ، وكل ما ومن فيها يصرخ على طريقته وينزف على طريقته . . . وبعد ، اليست الحياة هي « تلك البرهة القصيرة التي تفصل بين لحظتي الولادة والموت » ؟ . . . تلك الرحلة السريعة في غواصة أسرار الوجود بين ما لا ندريه عن ما قبل الولادة ، وما لا ندريه عن ما بعد الموت ؟

ولماذا يدهشنا بعد ذلك اي من تصرف ركاب الغواصة المجنونة اللندنية الضائعة او سواها ؟ . . .

زوريخ ١٢/ ٥/ ٧٢

مشردة في محطة الليل

واخيرا توقف القطار في « محطة الليل » وكان اسم الزمان « زوريخ » . . . وهبطت على رصيف الليل وحيدة ، احمل حقيبة شبه فارغة ، وفي جيبي نقود قليلة ، وفي اعماقي توق ثري للحياة والمفاجآت واكتشاف مدينة لم أعرفها جيداً من قبل تصادف ان اسمها هذه المرة « زوريخ » .

لم اكن اعرف احدا في المدينة . لم اكن اعرف لغة اهلها . كل ما اعرفه هو ان قلبي لم يكن مجرد مضخة . كان ارغنا مشدود الاوتار يمنح نفسه باخلاص لأصابع المجهول والمغامرة والليالي الغامضة كي تعزف على اوتاره الدامية رقصة الحياة الغجرية المجنونة الملتهبة . . .

وذهبت الى مكتب استعلامات « محطة الليل » وسألت عن مكان ابيت فيه . . . وارشدني رجل الاستعلامات الاعمى الى بيت للتلامذة (يوث هوستل) يؤوي امثالي من عشاق اكتشاف المدن والمجهول بثمن بخس . . . وبأي ثمن ! . . .

وبعد ضياع ممتع بين الباص والترام ، لا ادري كم طال ، وصلت الى بناء في ضاحية منعزلة هو ضالتي ، وقرعت الباب الكبير الموصد ، وطال انتظاري دونما جواب ، واخيراً اطلت المشرفة من نافذة سرية كما في القلاع وسألتني :

- ماذا تريدين ؟

- طبعا اريد ان انام .

قالت : هل تعرفين كم الساعة ؟

- طبعا لا ، لأنني لا استعمل ساعة ، وكل رحيلي هو رفض لعالم توقيته الوحيد ضربات الساعة لا ضربات قلبه .

قالت : ابواب « البنسيون » تغلق في الحادية عشرة تماما ولا يمكن تسجيل احد بعد هذا الوقت . وهي الآن الحادية عشرة وثلاث دقائق . تعالي غدا صباحا في السادسة حيث تفتح الابواب . واوصدت نافذتها ونافذة الحوار .

وكان الليل جميل البرد ، وبتعبير اصح كان ليلي انا جميلاً . . . وكنت سعيدة

بحريتي ، سعيدة بتشردي الاختياري ، سعيدة لمجرد انني احيا واجرؤ على ان اكتشف هذا العالم الواسع المذهل . . . بدت لي زوريخ من التلة الصغيرة حيث (دار الشبان) مسكبة من الازهار المضيئة الملونة ، والنهر يخترقها في الوسط كسيف تاريخي عريق مطعم بالجواهر على حديه . . . سيف يسحر دون ان يقطع . . . وجلست على حقيبتي اتأمل بصمت هذا الكون المدهش ، والسماء المضيئة بالنجوم بعد ان كف الثلج تماما عن الهطول ، وسمعت ما يشبه عواء الذئاب والثعالب ، واحسست بالألفة معها . . . ومع كل ما تضمه هذه الطبيعة العظيمة من مخلوقات . وكما ينام اكثرها في العراء ، وجدتني افتح حقيبة سفري ، واستخرج منها كيس النوم الخاص (سليبينغ باج) - وهو لحاف مبطن بالصوف وله شكل الكيس يدخل النائم فيه ويشد سحابه الحديدي ليغلقه وينام بداخله متمتعاً بالدفء . . . ودخلت الى حقيبة سفري ورددت علي غطاءها واستسلمت للتعب اللذيذ والراحة الداخلية موجة تحملني الى عالم الخدر العظيم (والموت المؤقت) الذي خلده شكسبير في اشعاره ، واسمه النوم . . .

نمت كما لم انم قط من قبل . لم يكن هنالك سقف . لا يد تمسك بيدي . لا موقد . لا جدران . لا حراس . ولا جرس منبه . ولكن كان هنالك النوم العريق ، الممتع ، العميق ، المجدد ، ينبع من اعماقي نهرا من الغبطة والنشوة استرخي لامواجه وارحل معها الى حيث لا ادري .

واستيقظت صباحا على اصوات ضحك الشبان والفتيات الخارجين باكرا للتزلج على الجليد . . . ووجدتني قد نمت طوال الليل فوق بركة من جليد . . . وحينما حاولت الخروج من كيس النوم عجزت لان الهواء الرطب الماطر تجمد داخل مسننات (السحاب) وصار من المتعذر فتحه . . . ووسط غيمة من الضحك والهتاف باللغة الالمانية التي لا افقه منها شيئاً استطاع الشبان تخليصي من الرحم الجليدي الذي وجدتني سجينة فيه . . . وعبثا حاولت اقناعهم بان فراش الجليد هذا هو اعظم من اي فراش (سليب كونفورت) نام عليه اي امبراطور، وان النوم ينبع من الداخل نهراً من الاسترخاء لا من ريش النعام الخارجي . . .

تذكرت فراشي الجليدي هذا وانا اقرأ اليوم في احدى المجلات الاجنبية عن فضائل ومحاسن الاختراع الحضاري الاخير العظيم (فراش الماء) كوسيلة لدحر مرض (الارق) مرض العصر . . . وعن انتشاره في اميركا . . .

وانه بعد اختراع الحبوب المنومة والمهدئة وارتفاع مبيعاتها في السنوات الاخيرة الى ارقام خيالية ، طلع علينا العلماء (اي المنتفعون من عجز انسان العصر عن النوم بعد ان

سببوا له الارق بانفسهم ، باختراع جديد هو (فراش الماء) . . . وهو عبارة عن فراش بلاستيكي يملأ بالماء بدرجة ضغط معينة ، ويقال ان له مفعولاً عجيباً في مساعدة الجسد على الاسترخاء . . . وقد يطلعون علينا ايضا باختراع فراش الزئبق ، وفراش الهـواء ، وفراش الحصى (شاهدت اريكة من هذا النوع في بيت الاديب جبرا ابـراهيم جبـرا في بغداد) وهي تأخذ شكل الجسد وتحنو عليه كيفما تحرك لتملأ اي فراغ يخلفه جسده على الاريكة وتمنحه حسا بالعناق والطمأنينة كفراش الماء . . . ضحكت طويلاً وانا اقرأ حكاية (فراش الماء) هذا واتذكر (فراش الجليد) اختراعي الخاص .

ها هو انسان العصر يركض في شوارع الزمن مرهقاً ممزقاً باحثاً عن « النوم العذب » (كما يسميه شكسبير) ، والعلماء يركضون خلفه بالاقراص المنومة والمهدئة وبفراش الماء المقطـر . . . كلهـم يداوي الارق من الخـارج . . . كلهـم نسي ان النـوم هو نبـع الماء السحري الذي يجب ان يتفجر من داخل الانسان ومن اعماقه المنسية ، لا بفراش من الماء يزودونه به من الخارج . . .

كلهم نسي ان انسان العصر ربما قد اغتال النوم (كما اغتال ماكبث النوم يوم اغتال انسانيته) .

ترى هل اغتال انسان العصر النوم نهائياً ؟ . . .

وهل نجد في المتاحف بعد مئة عام تمثالا لانسان دخل التاريخ لانه استطاع ان ينام كل حياته دون ان يتناول قرصا مهدئاً واحداً ؟ .

والعلم الذي استطاع ايصال انسان الى سطح القمر هل يقدر على أن يجعل ذلك الإنسان ينام فوق سطح القمر بملء جفنيه دونما عقاقير منومة ومهدئة . . . ذلك النوم العتيق العظيم الذي اكتشفه الانسان في مغاوره الحجرية وضيعه اليوم على دروب القمر ؟ . . .

فيينا ٢٥/ ٨/ ٧٢

لؤلؤة الدهشة !

ربما لانها المرة الاولى التي ازور فيها فيينا ، وكل « مرة اولى » مسكونة بالدهشة .

وربما لان فييناهي نفسها لؤلؤة الدهشة الدائمة في صدفة التاريخ ، وجدتني اقضي ايامي في فيينا كمن به مس . . . ادور في حدائقها ، في متاحفهـا ، في معارضهـا الفنية الفائقة الغنى ، انصت الى احـاديث آثار مبدعيهـا امثـال جوتـه وشيللـر وشوبـرت وموزار . . . حتى الجدران في فيينا تنطق . . . وانقل اليكم على سبيل المثال حوارا سمعت اصداءه ترددها جدران السلم الضيق الذي عليك ان ترتقيه كي تصل الى بيت كان يسكنه بيتهوفن العظيم ـ شكسبير الموسيقي الخالد ـ وشقة بيتهوفن تقع في بناء متعدد الطبقات وما زالت بقية شقق البناء مسكونة بحمام وخياط وحلاق شعر . . . واحجار السلـم مهترئـة متآكلة ، وعليك ان تصعد عشرات منهـا حتـى تصـل الى بيت بيتهوفـن ـ اذا لـم يغـم عليك . . . وحينما تتذكر ان بيتهوفن الذي كان عليه ان يصعد هذا السلم مرة في اليوم على الاقل كان مريضا ، يخترق قلبك سهم من الحزن من اجل ذلك العبقري . . .

وتظل تصعد في السلم الدائري كسلم منارة ، ويخفق قلبك : تقترب منك الجدران وتكاد تطبق عليك وتسمعها تنزف الحوار التالي الذي لا بد وانه دار عشرات المرات بين بيتهوفن (المستأجر)وصاحب هذا البناء . . .

صاحب الدار الملاك يصرخ بالمستأجر الفقير المتسلل الى شقته : بيتهوفن . . . متى تدفع اجرة شقتك ؟ . . . لي عندك اجرة اسابيع عديدة ، واذا لم تدفع قذفت بك الى الشارع . يسعل بيتهوفن . انه مرهق وقد بذل كل جهد كي لا يسمع صاحب البيت لهاثه وهو يتسلل الى شقته ويردد متعبا : عذرا . . . لكنني نسيت كل شيء عن النقود . . . فأنا مشغول بكتابة السيمفونية التاسعة . . . ويصرخ به صاحب الدار : لا تهمني السيمفونية التاسعة او العاشرة . . . اذا لم تحضر غدابين التاسعة والعاشرة لدفع الايجار ، سأتصل بالبوليس ليرمي بك وبأوراقك القذرة من النافذة . . .

سمعت هذا الحوار . . . وسمعت عشرات مثله في شوارع فيينا . . . اليكم هذا المثل الآخر . . .

شاهدت جنازة مرت فوق احجار الشارع القائم امام « متحف موزار » منذ اكثر من قرن.بالضبط شاهدتها عام ١٧٩١ . . . وسمعت رجلاً في الطريق يسأل آخر : مسكين هذا الرجل الميت . . . لا ريب في انه مجرم او قاطع طريق او ابله معتوه لانني لا ارى في جنازته اكثر من ثلاثة اشخاص . . .

ويرد الآخر : اظن انها جنازة شخص يدعى موزار وهو رجل ظل عاطلاً عن العمل طول حياته يتسلى بعزف تلك الآلة . . . ما اسمها . . . اجل . . . البيانو . . .

سمعت عشرات مثل هذا الحوار في كل مكان تكرم فيه فيينا خالديها وما اكثرهم . . .

موزار الذي لم يسر في جنازته اكثر من عدة اشخاص ينتصب اليوم تمثالا في احدى الساحات . . . ومتحفاً يطل على الساحة ، وعشرات من الفنادق والمطاعم سميت باسمه في كل ارجاء فيينا . . .

اذن ظاهرة اضطهاد الخالدين خلال حياتهم - على الاقل اهمالهم - ثم (توثينهم) بعد مماتهم ليست ظاهرة عربية فقط ، وانما هي ظاهرة عالمية وتقليد قديم . . .

ربما كان السبب ان الفنان هو بحكم طبيعته كفنان عاجز عن صب نفسه في القوالب الاجتماعية المرغوبة والصيغ الوظيفية التي قد تدر عليه نقوداً . . . انه متمرد ، جامح ، مدمر للأطر القائمة ، شديد الحساسية امام اوبئتها ، ولكن الطبيعة ، لا تزود الفنان بجسد خاص التكوين - كما تفعل مع ملكة النحل التي اعدتها للعب دور خاص - وهكذا نجد الفنان محملاً برسالة غير اعتيادية وخارقة ، ولكن دماغه المختلف مركب على جسد كأجساد الآخرين . . . وينهار الجسد وسط معركة رفضه ورفض الآخرين له . . .

وبعد ان يمضي جسده . . . وتنتهي مسيرته في درب الآلام ، يبدأون بعملية تخليده . . .

الفنان دوما مرفوض خلال حياته . . . والفنان يلقى دوما من يكرمه بعد مماته ، (كأنهم فرحون بخلاصهم منه ! !) . .

اقول ذلك ، وفي ذهني عشرات السطور التي كتبها كثيرون حول كاتب قصة فلسطيني لقي مصرعه مؤخرا . . . ولم يكتب ايهم كلمة طيبة في فنه خلال حياته . . . ولو طلب اليهم ان يكتبوا عنه قبل ان يعرفوا بمصرعه لكتبوا اشياء مختلفة تماماً . . .

كم هو طريف ذلك الكائن من فصيلة « الهوموسابيان » الذي يلقب نفسه

بالانسان . . . كم هو مضحك ومخز في مواقفه من عباقرته الذين استطاعوا بفكرهم تجاوز (فصيلتهم) ولكن جسدهم ما زال عاجزاً عن التحرر من قيود الجوع والمرض وبالتالي ديكتاتورية ذلك الورق الملون المسمى بالنقود والذي يتحكم في تجوله او (منع تجوله) عن جيوب البعض ، اشخاص بعيدون عن تفهم الفنان وعن عوالمه وعظمته . . . اشخاص يرون في الفنان ما يهدد وجودهم المكرس . . . اليس كل فنان حقيقي ثائراً بالضرورة ؟ . . .

***

حين يهاجم الحر فيينا يفقد اهلها صوابهم . (واعني هنا بالحر طقس مثل طقس بيروت خلال الصيف ، وهو امر يحدث نادرا في فيينا) . . ولكنه حين يقع ، تجد نفسك في حمام سباحة كبير . . . اذ تمتلىء الشوارع بالناس وقد ارتدوا جميعا ـ نساء ورجالاً ـ ثياب البحر ، ان كانوا محافظين ، او ورقة توت (كروشيه) مليئة بالثقوب كأنما التهمتها دودة قز مشرفة على الموت جوعا .

والغريب ان الطقس يتبدل بسرعة هناك كأن السماء لا ترضى عن تحول فيينا الى ناد كبير للعراة ويبدأ المطر في الهطول . . وتجد نفسك فجأة في مدينة اهلها عراة وسماؤها تمطر . . . اطرف ما في هذا المشهد منظر امرأة شبه عارية في المطر يرافقها كلبها ، وقد حرصت على ان تحمل مظلة له هو . . . والمظلات الخاصة بالكلاب ـ للمرة الاولى اراها هناك ـ مثل مظلات البشر لكن مقبضها في الجهة المعاكسة بحيث يستطيع الانسان حملها من الاعلى وتوجيهها نحو الاسفل حيث يتحرك الكلب السعيد . . .

■ ارتميت على الحشائش في (شتاد بارك) وخيل الي أنني أحيا حلما خرافيا . . .

فعلى الحشائش حولي مئات من الناس ، كلهم يستمع الى الموسيقى التي تعزفها اوركسترا جيدة كل ليلة في هذه الحديقة العامة وفي بقية حدائق فيينا . . . ومجانا . . .

غبطت اطفالهم الذين يتعلمون منذ صغرهم الانصات الى روائع بيتهوفن وهايدن وفاجنر وباخ وحزنت من اجل اطفالنا الذين يفتحون عيونهم على اغاني مثل (الطشت قلي قومي استحمي) و (عالبطاطا البطاطا) .

■ في قصر (شونبرون(الامبراطوري الذي هو الآن متحف، هنالك قاعة واسعة هي التي عقد فيها « كونغرس فيينا » حيث تقرر مصير العالم بعد هزيمة نابليون . . . في السقف ثلاث لوحات مرسومة ، واحدة تمجد السلم . . . واخرى تمجد الحرب . . . .

ومن غريب الصدف انه اثناء الحرب سقطت على السقف قنبلة دمرت فقط اللوحة

التي تمجد الحرب !! . . .

■ بعد فيينا قضيت مزيداً من أيام التشرد في أوروبا ، وحينما عدت الى بيروت وجدت رسالة في انتظاري ويدل طابعها انها من فيينا . . .

كانت رسالة من الفندق الذي اقمت فيه هناك ، تعتذر مني لخطأ في الحساب وتعيد الي مبلغا من المال تقاضوه مني دون حق . . .

غضبت كثيرا لظاهرة الامانة هذه ، التي ذكرتني بحدة انني من شعب اعتاد على ان يسرقوه ، وحاميه حراميه ، حتى صار يجد في الامانة ما يدهش ، وما ينكأ جروحه .

واعدت اليهم المبلغ مع رسالة تأنيب على امانتهم !! . . .

لندن ١٣/ ٧/ ٧٣

التعذيب بالموسيقى

لندن من جديد .

لندن عروس الضباب المعمدة بدم المراهقين ، المقتولين بسكين الضياع فوق مذبحها . لندن خابية اللهو التي انكسرت وتركت في الشفاه جراح حطامها . . . لندن ذات القلب المعلب الذي يضم في جوفه ١٢ مليون سردينة بشرية معذبة بالوحشة والشهوانية وموت الحب . . .

لندن من جديد . . .

والطائرة تجتاز فرنسا ومضيق « المانش » والشمس التي كانت تقطن جانحها الفضي طوال الطريق تختفي . ندخل في شرنقة الضباب التي تلف لندن ابدا ، لتساهم في تكريسها كوكبا قائما بذاته له جنونه الخاص وحتى غلافه الفضائي الخاص الذي عبثا يخفي عن العيون ما يدور في تلك المدينة التي فقدت رشدها حين بلغت سن الرشد .

الضباب تصطدم به بطائرتك في سماء لندن ، وتصطدم به كيفما تحركت في شوارعها واقبيتها وكهوفها . . انه يغلف العلاقات البشرية هناك بالغموض والبرود . . . انه يتربص بك عند منعطف كل قضية انسانية تلاحقها ليكشف لك ان دربا اخرى تكمن خلف الدرب التي ظننتها خاتمة المطاف . . .

الشيء المشترك بين الحقيقة المطلقة ولندن هو الضباب . . كلتاهما تقطن في رحم الضباب وتحس امامهابالعجز عن الامساك بحفنة واحدة نهائية من المعرفة . . .

ومعرفة لندن امر مستحيل . . . انها غنية بالمظاهر البشرية المتعددة التي تستحيل الاحاطة النهائية بها . . . وكل ما يملكه انسان مثلي اقام فيها سنوات ويعود اليها كلما سنحت له الظروف هو ان يرصد بعض مظاهرها المتناقضة ، الثرية العرض للمهزلة الانسانية ، وان يحاول اكتشاف المزيد من وجهه الحقيقي الممزق في مرآتها المحطمة . . .

وفي لندن دائما (جديد) تستطيع ان تزودك به . . جديد عن الفن ، عن الفضيحة ، وعن ذاتك . . .

جديد الموسيقى الالكترونية هو تكريسها شبه النهائي كجزء من الموسيقى

الكلاسيكية العالمية . . .

هل استمعت الى الموسيقى الالكترونية المعاصرة والى «الكلاسيكية الحديثة » ؟ . . . الى « بيلا بارتوك » مثلا كبداية ، ثم الى « روبرتو جيرهارد » ؟ . . . لا ؟ ولا انا . تعال معي الى قاعة (رويال فستيفال هول) نستمع اليها . . . في البرنامج مقطوعة جيرهارد (متيامورفوسز) ثم السيمفونية الثانية لتشايكوفسكي وبعدها كونشرتو رقم ٣ لبيتهوفن . . واذا لم تعجبنا الموسيقى الالكترونية يظل لنا في بيتهوفن خير عزاء . . .

وبدأ العزف او ما يدعى مجازاً بالعزف . . وجدتني في الحقيقة مثل شخص دخل خطأ الى دكان حداد نشيط يهوى استعمال المطرقة . . هكذا بدأت (سيمفونية) (الميتامورفوسز) . . ومع (الحركة الثانية) للسمفونية شعرت بأنني في مستشفى للمجانين اهدوا كل مجنون فيها طبلا وصنجا . . . اصوات متنافرة وضجيج يصم الآذان حتى لتظن ان هنالك تواطؤاً بين اطباء الاذن والموسيقار من اجل زيادة زبائنهم . . . والعرق يتدفق من وجوه العازفين ومن وجوهنا ألماً . (ألم يخطر لاحد من زبانية المخابرات والتعذيب استعمال الموسيقى « الاولترادمودرن » كوسيلة فعالة لانتزاع الاعترافات ؟) ثم يهدأ اللحن قليلاً ـ ربما كي يستريح (عمال) العزف ـ ونسمع اصواتا تشبه سقوط قطرات الماء من حنفية جهنمية منسية ، اصواتا تذكر بنزف شريان هائل في الظلام ، ونسمع اصواتا (ولا اقول موسيقى) مثل تحطيم آنية زجاجية كأن ثورا هائجا انطلق في مخزن صيني للخزف مدمراً كل شيء تحت حوافره . . ثم تعوي الابواق وتذكرني بجار لي كان يحاول عبثا ان يتعلم العزف على (الترومبيت) واكاد اظنه بينهم ثم تعوم اصوات شبحية نشازية . . ويقول الناقد «دافيد درو» ان في اعمال «جيرهارد» (مؤلف نوبة الهستيريا المسماة سيمفونية) اصداء الرياح في الغابات . . وفي الحقيقة لم اسمع شيئاً من هذا ولست خجلة من الاعتراف بذلك (بل اشتهيت ان اسمع في تلك اللحظة اغنية قديمة قديمة لعبد الوهاب اسمها : « انا هويت وانتهيت » بدلا من كل هذا الزعيق « الحضاري ») . .

وخرجت في الاستراحة الى شرفة (الرويال فستيفال هول) بحثا عن السكينة . كان نهر « التايمز » مثل نهر من الرماد ، المنصهر كالذكريات الحارة الراكضة الى بحيرات النسيان . وعند الشاطىء الاخر للنهر بدا في الغروب الشاحب (سيلويت) لندن القديمة الجميلة بقبابها المدببة وابنيتها الادواردية والاليزابيتية الرشيقة . وبدا جسر « واترلو » حيث تبادل اثنان من عشاق التاريخ (اللورد نيلسون وحبيبته) اشهر قبلة في دفتر الحب . .

ولكن الابنية الحديثة الاسمنتية الهائلة الضخامة والبشاعة كانت تحاصر ذلك العالم الشفاف القديم كله ، تحاصره وتأكل اطرافه وعما قريب تأتي عليه بأكمله . . « جيرهارد » يحاول اكل بيتهوفن ، ولندن عصر « الهيبيز » تأكل لندن « نيلسون » ، والغروب يأكل يوماً آخر . . . واهرب من ذلك كله لاتأمل مدخنة فضية هائلة الحجم غريبة الشكل بشعة وتذكرت رشاقة المداخن القديمة الخارجة من سطوح القرميد ، وفاجأني الصديق الذي كان يرافقني مشيراً الى المدخنة قائلاً : هل يعجبك هذا التمثال ؟! . .

وسكت وانا أذكر بحسرة رشاقة اعمال «مايكل انجلو» و «برنيني» وتساءلت بهلع : الفن الجديث ، المعاصر ، هل هو فقاعة غضب ام تراه يخلد ؟ . .

فقد سألني صديقي عن رأيي في موسيقى « جيرهارد » التي سمعناها للتو ، وكدت اقول له فوراً : « انها رهيبة . . مزعجة . . مليئة بضجيج سخيف مفتعل » . .

ولكنني تذكرت ان النقاد استخدموا هذه العبارات حين هاجموا منذ قرن ونصف القرن موسيقى بيتهوفن ، بالضبط سيمفونيته الثالثة (هيروييكا) ، ورشقه الجمهور يوم الافتتاح بالبيض والبندورة والشتائم . . نحن اليوم نستمع الى تلك السيمفونية الخالدة ولا نشبع ، فقد كان كل ذنب بيتهوفن يومها انه سبق عصره بقرن من الزمن . . ترى هل « جيرهارد » من هذا النوع ؟ . .

وهنا وعيت بشدة قصور الناقد في احكامه وجزئية عملية النقد وعدم اكتمالها حتى في اكثر الحالات حياداً ـ فالناقد مثل قاض يحكم في قضية اهم عناصرها غير متوفر وهو عنصر الزمن . . الزمن وحده هو الذي يغربل العطاء ، وهو وحده الحكم النهائي . . تذكرت ان كونشرتو الكمان (رقم ١) لتشايكوفسكي التي تعتبر اليوم اجمل اعماله واكثر الاسطوانات الكلاسيكية شعبية في العالم ، قال عنها صديق تشايكوفسكي (الحميم) « نيقولاي روبنشتاين » حين رفض عزفها عام ١٨٧٤ : « انها بلا اية قيمة ولا تستحق مجرد العزف . انها سيئة ، تافهة ، سوقية ، مفككة ، فقيرة فنياً » . . . واليوم تسحر انغامها العالم ويسخر الناس من اقوال روبنشتاين (الصديق) . . .

ربما لذلك صمت ولم اقل شيئاً عن رأيي في موسيقى « جيرهارد » (توفي عام ١٩٧٠ ويعتبر من رواد الموسيقى الالكترونية المعاصرة وله حالياً تلامذة كثيرون يتابعون خطه ومدرسته) . . ولذا أحب ان اذكر قارئي بأنني ادون (انطباعاتي الشخصية) عن الموسيقى الالكترونية التي قد تكون خاطئة بعد مئة سنة . . . فالعدالة هاجسي ، ومن هنا

ارفض اطلاق الاحكام النهائية . . . والزمن هو في نظري الناقد الوحيد العادل .

واذا كانت لندن مدينة المكتبات والمعاهد والمسارح والمتاحف فهي ايضا مدينة الفضائح . . .

ويبدو ان لندن نسيت بسرعة فضيحة لورداتها مع فتياتهم وبدأت بنشر غسيل قذر جديد على حبال صحفها . . .

الفضيحة التي انفجرت مؤخراً هي فضيحة « صالونات المساج » . . .

فقد ذهبت منذ اليوم التالي لوصولي الى مكان كتب على بابه (سونا ومساج) بعد ان تذكرت ان اول واخر « مساج » (التدليك) لي كان منذ خمسة اعوام حين كنت ما ازال اقطن لندن ، وتذكرت انامل (الماسور) المختص الاعمى التي عرفت كيف تمتص الارهاق من جسدي ودماغي كما الابر الصينية . . دخلت وقد فوجئت بتبديل هائل في المكان والديكور . استقبلتني فتاة ترتدي ثياباً (رمزية) لا تخفي شيئاً من جسدها وانما تشير الى مواطن (الثقل) فيه ، وسألتها عن الرجل الاعمى القديم فقالت انه ذهب والادارة تبدلت . وقلت لها : حسنا ، سأرضى بالموجود . نظرت الي بدهشة كأنني اطلب شراء شحنة من المخدرات ، وظننتها تستنكر نحولي الذي ليس بحاجة الى « سونا » وانما الى فيتامينات ووجبة دسمة . واعتذرت مني بلطف قائلة ان النهار كله محجوز . وخرجت بسرعة حين لاحظت ان في ركن المكان (قبضاي) ازاح قبعته الى الوراء وتفرس بي بعينين (مافيتين) فيهما تهديد سري كما لو كنت جاسوسة . . او صحافية . . . .

وهربت من كهارب الشر التي كانت تتفجر من المكان الذي يفترض انه وجد لإراحة الاعصاب والجسد . .

وفي اليوم التالي ، قرأت في الصنداي تايمز تحقيقا من اربع صفحات كتبه صحافي (فدائي) اسمه « راسل ميللر » وكشف فيه حقيقة ما يجري في هذه الصالونات ، وتجرأ على ان يعلن في الصحف ما يعرفه الجميع في « سوهو » ولندن ويتكتمون عليه خوفاً من « المافيا » التي تدير اموره . . . فبعد تجارة الرقيق الابيض والمخدرات والسموم بدأت تجارة السونا ، وصارت مراكز « للاشعاع » الجنسي وغير ذلك . . . تحدث المقال عن « مافيا » الجنس في حمامات السونا ، وان كل ٥ من ستة صالونات سونا ومساج ضالعة في حكايا الرذيلة . . وقد ذهب الصحافي بنفسه الى اكثرها المتمركزة في سوهو . على الباب تدفع (٢ باوند) اجرة دخول . ثم تأتي (فتاة التدليك) وهنا تطلب منها تدليكا خاصا اسمه المهذب : « تدليك استرخاء » . . . وتطلب منك اجرا يتفاوت بين ١٠ و ٦٥ باوند

وفقا لمؤهلاتها الجمالية وخبرتها ، ويتناسب اجرها عكساً مع حجم ثيابها . . يكبر اذا تضاءلت وشفت . . واذا كنت من رجال البوليس فان ادارة (الصالون) سترفض الاعتراف بتواطئها مع الفتاة وستدعي ان تصرفها فردي ويتم طردها فعلا من الصالون ، وفي الحقيقة يتم نقلها الى صالون آخر من الشبكة الجهنمية المتغلغلة في لندن . .

واذا تحدثت على باب الصالون عن الجنس مباشرة رفضوا الحوار معك . ولكن بعد ان تدخل تستطيع التفاهم مع فتاة « المساج » مباشرة . وبذلك ينجون من البوليس ويتحايلون على القانون . . .

ويروي الصحافي انه تحدث الى ممثلة سابقة اسمها « ساندي دورس » على الهاتف بعد ان علم انها تعمل في حقل المساج وانها ابدت له قرفها وهلعها مما انغمست فيه وضربت له موعدا لليوم التالي . ولما ذهب اليها في اليوم التالي وجد انها اختفت ، ولما سأل عنها قالت له (مديرة) المكان انها لا تعرف فتاة بهذا الاسم . وحين جابهها بأنه حاورها تلفونياً في اليوم السابق فقط على رقم صالونهم ، حينئذ فقط تراجعت قائلة : آه . . . تلك الشقراء . . لقد نسيتها . . . على اية حال لقد تركت العمل هذا الصباح ولا نعرف عنوانها ويضيف الصحفي : وربما كانت راقدة في اعماق « التايمز » بصمت ابدي وقد ربط الى جسدها حجر ثقيل ! .

. . . وربات البيوت

والفساد حين يصيب ثمرة ، لا بد وان يصيب بالعدوى بقية الثمار . .

وفي حين نجد (الصنداي تايمز) تقود الحملة على (سونا الجنس) في لندن ، نجد (الصنداي ميرور) تستعين براقصة تعرية (ستربتيز) لتعطي دروسا للزوجات والفتيات في كيفية خلع ثيابهن باغراء واثارة ! . . وبعد ان كنا نقرأ في صفحات المرأة وصفات لكيفية صنع الطبق المفضل للزوج او العناية بالاطفال ، وبعد ان كانت تستضيف اديبة او ربة منزل او استاذة جامعية صارت هذه الصحف تستضيف راقصة « ستربتيز » من سوهو لتلعب دور بروفسورة الجيل . . .

ومن الطبيعي ان تخرج سوهو مركز (السونا الجنسية) بروفسورات في هذه المجالات . . .

غادرت سوهو المليئة بالف ضوء نيون مشع ، وآلاف العيون المنطفئة ، وعند مدخلها لاحظت وجود مقبرة اسمها (سانت آن شيرش يارد) وحولها سور معتم ، واحسست بأن السور يجب ان يعاد بناؤه بحيث يضم المقبرة الكبيرة بأكملها : سوهو . .

وفي (بيكاديللي سيركس) تتوالى مواكب التيه . . .

ها هو صف طويل من الناس امـام باب سينما ، وقـد وقف شاب يعـزف مكونـا اوركسترا كاملة . . . ربط ذراع الطبل الى قدمه الاولى يقرع الطبل حين يحركها ، ويعزف بالاكورديون ويرافق ذلك ضربات صنج مربوط الى قدمه الاخرى . . ويزداد احساسك بانك في مدينة الجنون حين تمر بك كوكبة من الفتيان الشقر هم من اتباع (كريشنا) يغنون هالي كريشنا ويعزفون على آلات هندية ويرتدون « الساري » ويسيرون حفاة وقد حلقوا شعرهم تماما ما عدا خصلة تتدلى من الخلف مربوطة من الاعلى ، وهنالك فتيات ثقبن انوفهن ووضعن فيها حلقات كالهنـديات القديمـات وبعض فلاحـات بلادنـا . . وهـم يسيرون ويرقصون في شبه غيبوبة كالدراويش بينما وقفت مجموعة من السياح الهنود في ثيابهم الاوروبية تتأمل ما يدور بدهشـة وذهـول ! . . . وبعدهـم تمر مظاهـرة تحمـل اللافتات وقد كتب عليها (جمعية رامـا . . الاطفـال الجـدد . . لعالـم جديد . . لحياة جديدة) . . وانت لا تعرف ما هي الجدة التي يعنونها ، فهم مثل كل الهيبيز تفوح من جسدهم رائحة القذارة ونقاشهم الفكري مشتت . . انهم على حق في كل احتجاجاتهم على جنون العالم المعاصر وحقارة عدوانية الدول المتسلطة والاستعمار . . انهم على حق في ثورتهم على جنون التسلح ، وجنـون الحضـارة الآلية وافتقـار الانسـان في هذا العالـم الميكانيكي الوحش الى سلام روحي داخلي وحنان عاطفي وعلاقات انسـانية متوازنـة ، ولكن المفجع في الهيبيز في الستينات وفي اطفال راما كريشنا وغيرها من الاسماء الجديدة التي يتخذها المراهقون في السبعينات انهم لا يملكون اي حل او اقتراح حل للمشكلة . . كل ما يفعلونه هو الهرب . . الهرب الى الجنون الذي وجدوا هم اصلا احتجاجا عليه : الم ينشأ الهيبيز احتجاجا على جنون العالم ؟ . . وبعد مرورهم عاد البائع العجوز الى تعبئة كلابه الدمى الصغيرة البيضاء التي عادت تقفز بجنون على ارض الشارع ، ورأيت الناس (المهندمين) والبشر غير الهيبيين يركضون في الشوارع مثلها . . . تماما مثل دمى عبثت (زنبركاتها) ، دمى موجهة تركض بينما تخطط لقدرها مؤسسات جشعة بشعة . . . وفكرت : ما أحلى غضب الشباب الذي لم يتشوه بعد ، ولكن ما اسوأ طريقته في حل المأساة !

لم اشاهد هذه المرة امرأة ورجلاً يتعانقان في الشارع او يقبل احدهما الآخر كما في الستينات . . شاهدت فقـط سكيرين في (شافتسبري افنيو) يلاحقـان صبيا في عتمـة الشارع . .

وفي لندن معارض اسبوعية للجنون . صباح السبت في (البورتوبيلو رود) . مساء السبت في كينغز رود ، حيث الباحثات عن الشهرة يرتدين فساتين من (الشبك) ويسقطن في شباك مخرجي السينما المزعومين . . . فتيات في غاية الجمال ، يشبهن الدمى ، عيونهن زجاجية كعيون الدمى ايضا ، تطل منها تلك النظرة التي نراها في عيون المنومين مغناطيسيا والمسلوبي الارادة . . انها نظرة مراهقي السبعينات في اوروبا ولندن بالذات . . وتذهب يوم الاحد الى حي (هامستيد) حيث يوجد معرض اسبوعي فني على رصيفها الطويل الممتد حتى بركتها وحدائقها . . هناك ترى آخر صيحات الفن الحديث . . . رأيت لوحة احزنتني : انها تمثل رجلاً منشوراً على حبل الغسيل وقد تدلت يداه كأنه قميص فارغ . . لقد فرغته المجتمعات الاستهلاكية من دماغه ودمه وشبابه ولم يبق منه الا ذلك الجسد المصلوب على حبل غسيل . . .

والمعرض الفني الآخر الدائم هو على جدار (الهايد بارك) ، حديقة لندن الشاسعة . . وانت تحار هل تتأمل اللوحات والتماثيل ام التماثيل البشرية التي تمر بك وهي تعبر عما تفعله المدنية المعاصرة القاحلة انسانيا بالفرد المعاصر . . وفي (ركن المتحدثين) بالهايد بارك ، صار التشابك بالايدي مشهدا مألوفاً بعد ان كان النقاش هو وحده الهدف . . . ان العنف يتسلل الى كل مكان . . . في عالم لا يرحم ، العنف هو الحوار الوحيد الممكن ولكنه ايضا الحوار الاخرس والحوار المستحيل (حين تذكرت ان « التواليت ـ المرحاض » الذي استعملته الملكة فكتوريا ذات مرة في محطة فكتوريا ما يزال محفوظاً في المتحف انفجرت اضحك طويلاً طويلاً . . انه عالم مجنون مجنون متناقض) .

الهرب الى الارواح

في احد مراكز تجمعات (الهيبيز الجدد) في البيكاديللي ، اعلان يقول : بنت ضائعة اهلها يكادون يفقدون صوابهم ، اسمها آن بيركلي ، عمرها ١٤ سنة وتبدو في الثامنة عشرة من عمرها ،طولها . . . (وهنالك صورة ضاحكة لها) ، الرجاء ممن يعرف شيئاً عنها ان يتصل بنا . . .

واحسست بأن هذا الاعلان لا يخص « آن بيركلي » وحدها ، بل يخص جيل السبعينات الذي ورث عن مراهقي الستينات كل جنونهم وضياعهم وحيرتهم وفاقه عنفاً وضراوة وتمردا ولكنه لم يأت بحل . . (ولكن هل هنالك حل ؟) . . .

يبدو ان الحل الموقت ، الذي بدأ زبائنه يتعاظمون ،هو الهرب الى عالم الارواح والكواكب والسحر . . .

وتصدر في لندن مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات الروحية التي تناقش هذه الموضوعات وتلقى اقبالاً هائلاً . . وصديقتي الانكليزية (كانت زميلتي في الجامعة هناك عام ١٩٦٧) وسبق ان ذكرت في تحقيق سابق انها تحولت الى محضرة ارواح ، صارت اليوم امرأة ثرية لها سلطتها واتباعها ، وقد دعتني لحضور احدى جلساتها (مجانا) اكراما لصداقتنا القديمة . . . وقد فعلت ، ووجدت انها اضافت الى (العدة) القديمة مؤثرات صوتية حديثة صارت تستعين بالكومبيوتر لتحديد ايام (الخصب) الروحي استناداً الى ابراج (المرحومين) الصادرة بحقهم (مذكرات جلب) من عالم الارواح . .

وحتى المجلات النسائية بدأت تصدر مجلات نسائية روحية بينها مجلة اسبوعية اسمها (نجومك) . . .

وهنالك مجلة اخرى راقية تدعى (بريديكشن) اي (النبوءة) وهي تعنى بدراسة (القوى الخفية) التي تسير حياة الانسان . . . ونموذج مما يضمه عدد واحد منها يعطينا فكرة عن (المناخ الروحي) الذي تعيشه لندن ربما هربا من المناخ الجنسي والعالمي وكل ما هو مجنون وآلي ومادي في عصرنا . . ان قراءة الخط والكف عادت الى النشاط ، وصار يردّ على بريد القراء رجل مختص بحركات النجوم والافلاك وتأثيرها على البشر ، وصار يلعب دور الكاهن الذي يقول للناس ماذا يفعلون وكيف يحلون مشاكلهم . . ولم يعد الزواج بحاجة الى كاهن وطبيب فتطبل الى ساحر او عراف يقرر صلاحية العروسين (الكوكبية) ومدى انسجام ابراجهما . . حتى سوق المجوهرات تدخل في شؤونه العرافون لإنتقاء الحجر المناسب لكل شخصية فالمعروف في السحر ان للاحجار الكريمة مغناطيسية وكهارب تؤثر في لابسها ، ولكل حجره وفقاً لبرجه ! . .

واذا كانت الكتب السياسية صاحبة الرواج الاول في بلادنا فان الكتب الروحية وكتب السحر والتقمص تحتل في اوروبا واميركا اليوم مركز المبيعات الاول . . (الكتاب الذي يشغل لندن اليوم هو عن الخانات المسكونة بالارواح في بريطانيا !) .

وتفسير الاحلام بدأ يصير علما ينافس كل الدراسات الاجتماعية والعلمية الاخرى . . هنالك كل مظاهر الهرب الى عالم الروح والردة الى عالم الذات بعد ذلك الانفلاش المروع لانسان العصر الذي ضيع مجتمع الرقي الالكتروني هويته . . . ان الفرد في اوروبا متحمس اليوم لمعرفة برجه وتأثيرات الافلاك على حياته اكثر من حماسه لمعرفة الاحداث العلمية الواقعية عن هذه الكواكب مثل الهبوط على سطح القمر ومشاريع الهبوط على بقية الكواكب . . .

وهكذا فان الاعلانات عن المنجمين وتحضير الارواح في لندن هي وحدها تنافس عدد الاعلانات عن صالونات سونا الجنس والتدليك . . . والناس يهربون الى خدر صالون تحضير الارواح او الى خدر صالون السونا . . ويتخذ المخدران الجديدان مكانهما الى جانب المخدرات الشهيرة (ال . إس . دي . الافيون ـ الحشيش) . . .

ان العالم متعب متعب ، بحاجة الى الحب والحنان والايمان . . وكل يوم يمضي يمعن ابحاراً بنا في بحار الضياع حيث لا نجم يقين يضيء . . .

ولكن هل ضياع الانسان المعاصر النهائي محتوم ؟ هل هي مرحلة النزع الاخيرة التي تسبق موت الانسان النهائي (انسانيا) وتحوله الى آلة كالروبوط تخدم المؤسسات الجهنمية التي تخطط لمجتمعات استهلاكية راقيةعلمياًوالكترونياً ، ولا بد من موت انسانية الانسان كي يستطيع الانسجام داخلها وخدمتها والقبول بها ؟ . . هل قتل انسانية الانسان ممكن ؟ . . .

في احد الدهاليز التي تقود الى المترو بلندن عازف مقعد جلس وسط جنون المدينة يعزف على كمانه العتيقة لحنا روحياً شفافاً لـ « باخ » . . ومر المترو . . وداس على الحانه . . ومزقها . . . ثم مضى وانحسر وبقي العازف العجوز وبقي باخ وبقي اللحن الروحي الشفاف . . . (ومثله سيبقى الانسان) . . .

وقبلت العازف العجوز فرحة . . ومضيت . .

لندن ١٩/ ٧/ ٧٣

حرية ما

آخر يوم في لندن قضيت بعضه في حديقة حيوانات فريدة تقع في ضاحية « وندسور » ، واسمها « سفاري كامب » . .

تضم الحديقة مجموعة هائلة من الاسود والنمور والزرافات والقردة وغيرها من كائنات الطبيعة . . وقد يكون في حديقة لندن او نيويورك للحيوانات عدد اكبر مما في هذه الحديقة بكثير ، ولكن هذه تتميز بصفة فريدة جديدة . . . فالحيوانات هي الطليقة في الحديقة ، والناس الذين يتفرجون عليها هم السجناء داخل اقفاص زجاجية متحركة (اسمها السيارات) تتيح لهم رؤ ية ما يدور في تلك الغابة البدائية الاصطناعية . . .

انك تدخل الى الحديقة بسيارتك وسط شارات (خطر الموت . احذر فتح النافذة . لا تحرك سيارتك بسرعة لئلا يغضب « سكان » الغابة . حذار من المزاح القاتل . . . الخ) . . وتمشي بسيارتك لترى الاسد بكل جلاله ومهابته والنمر بكل رشاقته يرقبك بفضول وانت سجين داخل (قفصك) الزجاجي النوافذ . . وترى الحراس المسلحين في ابراجهم يرقبون اية اشارة (عدم كرم ضيافة) تبدر عن « اهل الغابة » للتدخل فوراً وحماية الزوار . . .

واحياناً يستبد الطرب بالقردة فتقفز على السيارات ، وتبالغ في ابداء فرحها بالضيوف فتكسر (مساحات) السيارة و (انتيناتها) ، وتمد السنتها للكبار ويفرح الصغار شامتين .

في هذه الغابة حيث الحيوانات حرة طليقة (نسبيا) اكتشفت انني ارى للمرة الاولى الاسد والنمر والذئب وبقية كائنات الطبيعة العظيمة . اجل ! سبق لي ان شاهدتها في اقفاص الحيوانات التقليدية . . ولكنني اعترف ان منظر الاسد كان دوما يدهشني . . فقد كان يبدو لي كسولاً بليداً مطفأ العينين ، والنمر كان يتحرك في قفصه مثل عجوز مصاب بشلل الاطفال منذ عهد بعيد حتى صار التشويه من بعضه . . . كنت اتذكر ما قرأته عن الاسد من اشعار ومن حكايات ، فاعتقد ان في الامر تزويراً ما . . كيف لم يخطر ببالي من قبل ان الاسد داخل القفص ليس اسداً وانما هو جسد اسد محشو بالقهر والذل ، وان

النمر بلا حرية يصير مجرد قط كبير ويفقد كل خصائصه وصفاته وحواسه ؟

وانا اتجول في (سفاري كامب) وارى كيف ان تلك الكائنات ذات الحرية النسبية تشبه ذاتها . . وانه كلما ازدادت حريتها كلها برزت مزاياها الحقيقية وتفجرت طاقاتها ، تذكرت الانسان العربي . . تذكرت عصور كبت الحرية التي توالت عليه ، والتي لم تقتل اصالته لكنها بلا ريب شوهته واصابته بعاهة الصبر (ان لم اقل السكوت) على الانتهاك لانسانيته . . . (والا فما معنى بقاء اسرائيل طيلة هذه الاعوام سكيناً في وجودنا العربي؟) . .

الحرية . الحرية . الحرية . تلك الكلمة التي لا شيء اثمن منها . . نتغزل بها ، نلون شعاراتنا بها ، نتحدث عنها في المقاهي ، ولكن متى نمارسها ؟

الى اي مدى هي متوفرة لانساننا العربي ؟ والى اي مدى يعي اكثر زعمائنا مدلولها حينما يستعملون اللفظة (الحرية) في خطبهم واحاديثهم الصحافية ؟ . . .

ها هو الليل يحيط بي من كل جانب . اني افكر بأهل « السفاري كامب » وبحريتهم النسبية ، ما دامت الاسوار تحيط بغابتهم من كل جانب . . .

لا ريب في انه في هذه اللحظة بالذات يوجد حيوان واحد ، واحد على الاقل يدور برأسه حول سور الحديقة بحثاً عن منفذ الى مزيد من الحرية . . لعله في هذه اللحظة يضرب رأسه بالسور حتى يفتح فيه ثغرة او يموت . .

متى نفتح ثغرة في ليلنا الطويل ؟ . . .

باريس ٢٠/ ٧/ ٧٣

القطار دهس الفيلم !

ثمة مدن كالنبيذ ، يجب ان (تتعاطاها) بدرجة حرارة معينة ، واذا زادت هذه الدرجة فسد النبيذ وضاعت نكهته . . .

ولندن قارورة نبيذ من النوع الذي يجب ان يظل مثلجاً . . . وحينما تطلع الشمس في لندن وترتفع درجة الحرارة ويرحل عنها الضباب يرحل عنها السحر . . .

وحين طلعت الشمس ذلك الصباح وارتفعت درجة الحرارة ، فاحت من أزقة لندن رائحة النفايات والاجساد الهيبية المعروقة المضربة عن الاستحمام ، ادركت انه قد حان وقت الجلاء عنها الى اي مكان آخر .

لندن في الشمس مدينة اخرى ، ازقتها مثل وجه غانية ، يجب ان تراه باستمرار مع الاضاءة الخافتة ، وحين تعريه لسياط الشمس تفتضح كل اسراره . . .

لندن المزدحمة بما يفوق ١٢ مليون انسان ، تفوح منها رائحة عفونة بشرية ممزوجة بملايين الروائح المنبعثة من صفائح الطعام المعلب . . . يصير الزحام لزجاً وخانقاً كأن الاجساد كلها تمددت والشوارع ضاقت والسماء صارت مكواة من الفولاذ المحمى معلقة فوق صدر المدينة ، وقد تهوي فوق رأسك لتسحقه في اية لحظة . . .

وتجد نفسك راكضاً الى حديقة « الهايدبارك » كما يفعل اهل لندن حين تطلع الشمس ، وتمشي بين ملايين الاجساد المستلقية على العشب بما (قل ودل) او بثياب الاستحمام - للاسر المحافظة !

ورغم كل شيء يظل احساسك بالسماء الفولاذية يعذبك كأن الحر في لندن كهارب شريرة تملأ الجو وتصعق الغريب الذي لم يألفها . .

وتجد نفسك راكضاً الى اول شركة طيران لتحجز لنفسك مقعداً في اول طائرة . .

التانغو « الاول » في باريس

حين اصابت لوثة الاباحية لندن منذ عشر سنوات وخلعت عنها ملابس الراهبة وركضت الى شاطىء التاريخ تمارس في ليله كل شذوذ وغريب ، ظلت باريس مدينة متحررة دون تبذل ، مرحة دونما هستيريا ، مشرقة دونما (ال . . اس . دي) . . .

ولكنني شاهدت باريس تحترق هذه المرةوتلتهب .كانت تحترق حراً ايضاً ، وتحترق جنوناً . . . ففي مسابحها على ضفاف نهر « االسين » ، وحتى في الضواحي (شانتيي مثلاً) فوجئت بعدد كبير من السابحاتالعاريات الصدر تماماً . . . ظننتهن للوهلة الاولى مصابات بالسهو وبنسيان ارتداء بقية المايوه ، ولكن يبدو انها موضة باريس لهذا العام تزايد بها على لندن ، كأنها تحاول استعادة سمعتها (السيئة) في الثلاثينات حين كانت ام (الكانكان) والحرية وكانت لندن ما تزال غارقة في اقنعة المحافظة .

وتقدمت من احدى السيداتالعاريات الصدر ، وكانت تتمدد مسترخية في الشمس وسألتها : الا تشعرين بأي حرج وانت شبه عارية هكذا ؟ . . .

قالت : ولماذا اشعر بالحرج ،؟ ان الاسماك والقطط والغزلان لا ترتدي ثيابا ! واننا نأتي من ملكوت الله عارين ، نوجد في الرحم عارين ونولد هكذا . . . ثم صاحت بي بحدة : الا تشعرين انت بالخجل لأنك ترتدين كل ثيابك في هذا الحر اللاهب والعرق يقطر منك ؟

كان ذلك (اول تانغو) في باريس شاهدته يوم وصولي ، ومع المساء كنت اقف في صف طويل من انبشر لمشاهدة (التانغو الاخير في باريس) ،الفيلم الذي سمعت وقرأت الكثيرعنه . . . وهو فيلم صدم العالم ، ففيه يمارس مارلون براندو لقاء جنسيا كاملا على الشاشة وامام الحضور جميعاً . .

وفوجئت بأن ما صدمني في الفيلم لم يكن الجنس ، وانما كان شيئاً آخر . . .

قصة الفيلم ؟ لا ادري . شقة شبه مقفلة . امرأة ورجل (مارلون براندو) يمارسان الجنس ، مرة بثيابهما كاملة ، ثم بدون ثياب ، ثم يوفر المخرج تكاليف نصف الفيلم حيث نقضي هذا النصف دون ديكورات في غرفة عارية الا من فراش ، ومارلون براندو و (الاخت) البطلة يستعرضان ما ورد ذكره في (الكوماسوترا) من اوضاع . . واعترف بأن ما ضايقني في الفيلم لم يكن الجنس وانما استغلال الثقافة لستر الجنس الذي قدمه لنا الفيلم . خرجت غاضبة لا من اجل الاخلاق ، ولكن من اجل الفكر . فمخرج هذا الفيلم هو « برتولوتشي » الايطالي ، وهو مخرج جيد سبق لي ان شاهدت له فيلما سياسيا ملتزما عن قصة لالبرتو مورافيا اسمه (ذي كونفورميست ـ اي التقليدي) . . . فوجئت به في فيلم (التانغو الأخير في باريس) يحاول ان يستعمل علمه وثقافته ليكسو الجنس المبتذل في الفيلم بقشرة هشة من الاحاجي الفكرية . انه يحاول ان يتملق ، ويحاول ان يرشو اليساريين بايهامهم ان (تانغو) قنبلة يفجرها في المجتمع

البورجوازي . . . لكن فيلمه في الحقيقة هو ضد اليمين واليسار وضد المثقف والجاهل لانه فيلم عادي . انه يحاول ان يقطع مشاهد الجنس بكليشيهات سينمائية ثقافية ملطوشة من لغة سينمائيين كبار آخرين ، امثال انغمار برجمان وفليني وغيرهما . . .

فقبل مشهد الجنس الاول في الفيلم يطالعنا بمشهد للقطار - او المترو - الراكض بجنون امام شقة الحب الباريسية . . . ورمز القطار صار مستهلكاً شاهدناه في عشرات الافلام ، وشاهدناه مقترناً بالجنس في فيلم كين راسل عن تشايكوفسكي - غليندا جاسكون - حيث تمارس الحب الخائب في القطار مع زوجها . وقد فجر يومها المخرج كين راسل كل الايحاءات الابداعية في فكرة القطار مقترناً بالجنس والزمن . وشاهدناه ايضا في فيلم (ذات قطار ، ذات مساء - مع انوك ايميه) وفيه كان القطار رمزاً للوجود الانساني والزمن الهارب . . وشاهدناه في فيلم (كباريه - ليزا مانيللي) التي تركض اليه لتدفن في جلبته كل جراح حنجرة قلبها ولتصرخ وتصرخ وتغسل نفسها من مسرحية الابتسام للآخرين والقبول المتواصل للقرف الذي يحاصرنا في حياتنا بالكاباريه الكبير : الكرة الارضية .

وفي مسرحية تنيسي وليامز التي تحولت الى فيلم مثله كل من (ناتالي وود - شارلز برونسون) كانت سكة القطار المهجورة رمزاً ثرياً بالايحاءات واصداء قطار الزمن الهارب تسمع طوال الفيلم مع اصداء قطار العصر الذي يرتجف له البيت ارتجافاً . . ومع ذلك جاء برتولوتشي في فيلم (التانغو الاخير في باريس) واثبت استخفافه بالمثقفين واحتقاره لهم حين قدم لهم رمز القطار المستهلك دون ان يحمله اي مضمون جديد . . . والذي يغيظ في فيلم (التانغو الاخير) ان المخرج يحاول قبل كل عملية جنسية (مثل التي نراها في اي فيلم جنسي عادي من التي تعرض في الصالات السرية) ، نجده يحاول رشوة المتفرج المثقف بكمية من الرموز الفكرية المزيفة الغرض منها ايهامه بأن هنالك (ابعاداً) فكرية تكمن وراء ما يدور . . اما بالنسبة للمتفرج العادي ، فان «برتولوتشي»(المخرج) يظن ان هذه (البوزات) الفكرية سوف (تضبعه) ، وتجعله يتوهم ان الفيلم اعمق من ان يفهمه .

فمشهد الجنس الاول مثلاً في غاية الافتعال . وتصوروا معي امرأة تلتقي فجأة برجل في شقة فارغة وقبل ان يقول احدهما للآخر صباح الخير ينقض الرجل على المرأة ليمتلكها على بلاط الغرفة ، دون ان تغضب او تصرخ او حتى تبدو الدهشة على وجهها مثلاً ! . .

ولكن المخرج يغطي سذاجة الموقف برمز (فكري) ، فالفتاة ترتـدي معطفـاً من الفراء الابيض وهو يمتلكها وهي ما تزال ترتديه لتبدو بعد العملية مكومة على البلاط مثل قطة بيضاء منبوشة الفرو ، ويخيل اليك انك تسمع صوت المخرج يصيح : انظر ما ابدع هذا الرمز . لقد قدمت لكم الآن الجنس الحيوانـي واوحيت لكم بذلك من خلال فراء البطلة الابيض ! . . . يبدو ان المخرج فرح جداً بهذا الرمز لأنه كرره في الفيلم اكثر من مرة ولم يسمح لبطلته بخلع معطفها الا في منتصف الفيلم حين تذكر انه من المناسب ـ حرصاً على الزبائن ـ ان تتعرى ، واذا انها عارية تماما تحت المعطف . وتدور الاحـداث بصمت مطبق حتى لتظن ان سراً عظيماً يهيمن على البطلين (القطين) ، ثم تكتشف ان السر هو ببساطة انه لا يوجد سيناريو للفيلم ! . . ففي الحوار الاول الـذي يدور بـين البطلين قرب نهاية الفيلم وبعد معاشرة طويلة ينهر مارلون براندو البطلة لانها سألته عن اسمه ! . . يقول لها ان الاسماء لا تهم ! . . يا له من رمز بدائي آخر مستهلك يذكرنا فيه المخرج بمزايا « الجنس للجنس » على طريقة « الفن للفن » ! . .

ولان (موضة العصر) اقتران الجنس بالعنف ، كان لا بد « لبرتولوتشي » من حشر بعض العنف في فيلمه . . . عنف جسدي جنسي مارسه مارلون براندو بالشهية التي كسر بها فك مصور صحفي حاول التقاط صورة له منذ اسبوع (خارج السينما ـ ولعل مارلون براندو ضرب الصحفي لانه حاول تصويره في الشارع وهو بكامل ثيابه !) كما ان هنالك مشهد عنف (وجودي) نفهمه من بكاء الام التي انتحرت ابنتها بسبب البطل . . وهنا ايضا يحاول المخرج استرضاء المثقف بتقديم رمز الشموع ، والدماء ـ التي تغطـي بانيو الانتحار ـ . . ويكاد المخرج ينزلق في تقديم فيلم بوليسي ولكنه يعود فيتذكر ان الجنس تجارة اكثر ربحاً ، فيمسح ما يكون قد علق بذهننا بمشهد جنسي أخير . . وتخـرج من الفيلم دون ان تهتز في جسدك عضلة شهوة واحدة ـ الا الشهوة الى ضرب المخرج ـ لأنه مارس (استغباءه) لك الى ابعد مدى . . .

من الواضح ان المخرج قرر ما يلي : انا بحاجة الى نقود . سأقنع ممثلاً مشهـوراً بممارسة الجنس امام الجمهور ونقتسم الارباح ! . . . وبعد ان انطلق من هذه النقطة ، حاول لملمة بعض (الكليشيهات) الثقافية والصاقها بين مشاهد الجنس ، فجاء (تانغوه) اكثر رداءة من رقصة جيرك يؤديها شيخ في التسعين مصاب بديسك في ظهره ! . .

وحتى اسم الفيلم (التانغو الاخير في باريس) يبدو انه وقع الاختيار عليه لمجرد انه جذاب ودون ان تكون له اية علاقة بالفيلم ، وحين ينتهي الفيلم ويصبح معداً للعرض ،

يتنبه المخرج الى ذلك ، فيلصق بالفيلم مشهداً اخيرا لا علاقة له بالاحداث (غير الموجودة اصلا) ولكن له علاقة بالتانغو وبباريس ! . . ها هي فئة بورجوازية ترقص التانغو التقليدي بطريقة كاريكاتورية بالغة السخف ، وها هو مارلون براندو يخرج فجأة ليرقص التانغو على طريقته ـ اي .بينما هو يخلع ثيابه في البيست ـ وتزعق (تانتات) المجتمع وتخدش انظار نجمات الطبقة المخملية المهترئة . . المشهد وحده جيد وممتع ، ولكن لا علاقة له بالفيلم ، والتزييف الفكري فيه واضح . . فشخصية براندو التي نراها طوال الفيلم هي شخصية بعيدة عن روح الفكاهة ، وهو طوال الفيلم يتحدث ببطء ويتحرك بسماجة اين منها سماجة (البورجوازيين) . . واذا به في آخر الفيلم يتحول دون اي مبرر منطقي في الاحداث الى شاب خفيف الظل وصاحب نكتة عملية على طريقة (وودي آلن) . .

من يرى هذا الفيلم لا بد وان ينذر العفة ، ولا يمارس الجنس الحيواني لفترة طويلة ! . .

في الفيلم (البرتقالة الالية) الرائع الممنوع عندنا للأسف ، نرى ان الفيلم يخترع علاجاً جديداً للجريمة يتلخص فيما يلي : كل من ارتكب جريمة ، يخضع لعلاج خاص يقتل فيه كل قدرة على العنف ، ويتلخص هذا العلاج بارغام القاتل على مشاهدة افلام من العنف البشع حتى تتكون في عقله الباطن مناعة ضد العنف وقرف لا حد له من القتل . . والى درجة انه يعجز عن ممارسة العنف ، ومشهد السكين او المسدس يدفع به الى التقيؤ . .

انطلاقاً من هذا المبدأ اطالب بعرض (التانغو الاخير في باريس) على شبيبتنا كنوع من (اللقاح) ضد التورط في الجنس الحيواني البشع ، وتذكيراً بحقيقة اساسية وهي ان لا شيء في العالم يشبه جمال الجنس الصحي السوي الانساني اي النابع عن الحب والرافض للابتذال ولكل اشكال الاستعراض والتكسب والتحقير .

التانغو الأخير . . . للنقاد

ولأن السينما تجر السينما ، فقد شاهدت فيلماً آخر اسمه « مسرح الدم » يتوكأ مخرجه على عكازة الربح المادي الثانية : العنف . . فكما الجنس رائج ، كذلك الدم . .

وفي الفيلم نشاهد مصرع عشرة اشخاص بالتفصيل مع الحرص على تسليط الكاميرا على الجرح الذي يتفجر منه الدم وكيفية تمزق العظلات وكسر العظام واقتلاع العيون وانتزاع قلب بشري من التفصص الصدري .

والذي يربط بين فيلم (التانغو الاخير في باريس) وهذا الفيلم (مسرح الدم) هو اعتماد المخرجين على قشرة ثقافية زائفة لرشوة المتفرج . . وعلى باب السينما حيث يعرض (مسرح الدم) لوحة عليها اقوال كبار النقاد في امتداح الفيلم (ولعلهم فعلوا ذلك تحت تأثير خوفهم من التهديد الضمني للنقاد الذي تتضمنه قصة الفيلم) .

فهي حكاية ممثل يلعب ادوار شكسبير على المسرح . وذات يوم يرشح نفسه لنيل جائزة مسرحية كبيرة ، ولكن لجنة مكونة من كبار النقاد تحجب عنه الجائزة بالاجماع ، فيرمي بنفسه في نهر « التايمز » ويظنه الجميع قد مات . . لكنه لم يمت ، وانما قذفت به المياه الى الشاطىء ونجا . وتعلن الصحف نبأ موته ، ويختبىء هو في اطلال مسرحه المقفل ، وهناك يكون فرقة من الممثلين الفاشلين الذين يقررون عرض مسرحيات حية من نوع خاص تحدث فيها الميتات المسرحية عملياً . . . ويبدأ انتقامه . . . يأتي بالناقد الذي سبق له وانتقده في مسرحية تاجر البندقية ، فيقتله على طريقة شيلوك وذلك بقص (اوقية) من اللحم من صدره كما ينص العقد ، ويتم القتل اثناء تأدية المسرحية . . . والناقد الذي انتقد دوره في عطيل يقتل كما انتهى عطيل : بدفعه الى قتل زوجته ثم الانتحار . .

وناقد آخر يذبح في فراشه . . واخر يربط الى ذيل حصان بعد قتله ويرسل به الى جنازة ناقد آخر سبق قتله خنقاً . . وهكذا ينبش الكاتب (انتوني جريفيل بل) والمخرج (دوغلاس هيكوك) كل وسائل القتل الشكسبيرية المذكورة في مسرحياته . . ولكن ، رغم هذه القشرة الزائفة من الثقافة ، يظل الفيلم تافها ولعل الخطب الرنانة فيه ضد النقاد الذين يقتلون المواهب بجرة قلم ، ارعبت النقاد حقا حتى جاؤوا يمتدحون الفيلم . . .

ان هذين الفيلمين يمثلان ظاهرة ارتداء قناع الثقافة لستر التفاهة والضحالة . . . ومن هنا خطرها الحقيقي لان الابرياء وانصاف المثقفين قد يأخذون ما يدور امامهما على محمل الجد . . . ذلك هو دس الدسم في السم ـ لا العكس ـ ! . .

باريس . . تانغو الحياة

ولكن ليس كل ما في باريس مزيفاً ساقطاً في ظاهرة الدجل (والجلاجلا) الفكري . . تظل باريس ثرية بعطائها الفني الاصيل والجاد . . .

احزنني انه تصادف وجودي مع اضراب عمال متاحفها ، وفي متاحفها خلاصة ثرية للعطاء الانساني على مر الاعوام . . . لكن ذلك اتاح لي فرصة الاستمتاع من جديد بالمتحف العفوي الحي الكبير المسمى شوارع باريس . . . ان الثقافة هنا تحاصرك ، وتدخل الى عينيك وتنفذ اليك رغماً عنك . . . المعارض الفنية على جانبي نهر السين لا

تخلو من الابداع . . الغاليريهات في (الريف غوش) وفي ازقة الحي اللاتيني . . .

جلسة في مقهى مع مثقفين لا تعرفهم تغنيك انسانيا اكثر من محاضرة مخططة،لها بطاقات دعوة وفلاشات تصوير . . .

كتاب ليلى خالد الاخير يحتل اكثر الحوار . . اخبار منعه واسباب هذا المنع وشرعية اختطاف الطائرات ، ودفاع الشبيبة عنها بحرارة . قال لي يساري متحمس : لا حق لأحد بالتصدي لكتابها او عرقلة انتشاره . . لقد احتضنت فرنسا الكاتب « بابيون » الذي يروي في مذكراته حكاية جرائمه ، فلماذا تمنع فتاة تناضل من اجل وطنها من سرد تفاصيل احداث نضالها ؟ . . .

وقالت جانين الفرنسية الحلوة خريجة السوربون : يقال ان الصهيونية سوف تشتري كل النسخ وتبيدها . . هذا عظيم ، فستربحون المال ، وسيعاد طبع الكتاب ويظل يعاد طبعه . .

ان اموال الصهيونية كلها عاجزة عن شراء كلمة حرة . . فالكلمة وحش اسطوري لا يقوى على قمعه بنك اوف اميركا او اي بنك آخر . . .

ان الضجة التي تثيرها ليلى خالد في اوروبا بكتابها ، تؤكد من جديد للمشككين في بلادي اهمية الحرف كسلاح ، وأن المحبرة لا تقل فعاليتها عن القنبلة اليدوية .

روما ٢٧/ ٧/ ٧٣

متحف ام نكتة !

فيينا مثل كلمة « وداعا » . . حزينة وشفافة . نصف دامعة . صمتها مجزرة كلمات . . . هكذا شاهدتها حين وصلت مساء ـ كأني رحلت من الصيف الى الشتاء ـ فقد كانت ريح خريفية خافتة تنفخ في اوصال شوارعها ، ومطر هادىء كثيب يقطر من عيون الليل دونما صخب . . . وخلف المطر بدت فيينا بأضوائها المرتجفة ، زائغة شبه هاربة . . . والمطر يطاردها . . . بينما بقية اوروبا غارقة في احضان الشمس . .

ولكن من يعرف فيينا جيداً ، لا يملك الا ان يتذكر هذه العبارة : « اذا احتفظت في قلبي دائما بغصن اخضر ، فان طائرا ما لا بد ان يقف عليه » . . .

فالانطباع الاول عن حزن فيينا ليس خاطئا . . . ولكنه ناقص . . . وعلى الشجرة اليابسة لاحزانها غصن اخضر يعود اليه دائما طائر الحياة . . .

فيينا مدينة قديمة قديمة ، يرجع تاريخها الى ما قبل الف سنة قبل الميلاد . . . وككل المدن القديمة ، تظل تحوم في جوها كل المآسي التي شهدتها احجارها واشجارها . . . فيها عراقة وتاريخ . . . وفيها كآبة مدينة عرفت السقوط اكثر من مرة ، وهدمت اكثر من مرة ، واستطاعت ان تقف على قدميها مرة بعد اخرى وقد زادت الاحزان في نكهتها الخاصة ، وفي تفجير طاقاتها البشرية الابداعية . . . والى ما قبل ربع قرن ، تدمرت فيينا في الحرب العالمية الثانية ، وحصد الموت عشرات الالاف من اهلها وكانت العاصمة الاوروبية الوحيدة التي تناقص عدد سكانها في السنوات الاخيرة بدلا من ان يزيد . . . ولكن ذلك ـ للاسف ـ امر يمتع السائح . . .

فالحزن الذي يقطر من فيينا الجريح المتعبة حزن نبيل ومبدع ، ومناخه الهادىء النقي يريح الاعصاب التي مزقها جنون لندن وباريس . . . ثم انه لا ازدحام في فيينا . . . ولا مشكلة سير ولا جنون سيارات . . . انها شاسعة كامبراطورية ، وهادئة كقرية . . . والناس فيها لطفاء وكرماء ولديهم الوقت لارشادك الى الطريق مثلا ، لا كما في لندن حيث يركضون مثل الآلات في الشوارع ويبتلعون سندويشاتهم في الزحام وليس لديهم لحظة يلتقطون فيها أنفاسهم ليردوا على استفسار سائح ضال مثلا . . .

كتب البابا بيوس الثاني (١٤٠٥ ـ ١٤٦٤) رسالة الى صديق ، تحدث فيها عن

فيينا ، واصفا جمال طبيعتها وشدو طيورها ، وحاناتها التي تكاد تكون مدينة اخرى تحت الارض مسكونة بالغناء والرقص والشقراوات الجميلات . . . وقال في رسالته « اكثر الفتيات في فيينا يخترن ازواجهن دون معرفة الاهل . والارامل يتزوجن سراً خلال العام الاول من الحداد ! » . . .

وكلام البابا بيوس الثاني الذي يصف به ارامل فيينا يكاد ينطبق على المدينة ككل . . . فيينا ارملة الفرح المقتول في الحرب العالمية الثانية ، عادت ترمم نفسها كأن شيئاً لم يكن ، فالغصن الاخضر في قلبها لا شيء يحرقه . ولذا يعاود زيارتها دائما طائر الحياة . . .

ولكن ما هو غصنها الاخضر ؟ ما سرها ؟ .

عظمة فيينا تكمن في كنز الابداع الانساني الذي تحتفظ به ، لا في متاحفها فحسب بل وفي تكوينها البشري . . . ان هذه المدينة تنضح فنا ورقيا ببساطة كما ينضح جسد الفلاح بالعرق ! لست بحاجة للبحث عن سر فيينا ، انه يطاردك . . . اذا ذهبت الى احدى حدائقها العامة طاردتك تماثيل الخالدين المزروعين فيها ، وفاجأتك فرقة موسيقية (اوركسترا كاملة) تجيء لتعزف في الحدائق مجانا الحان شتراوس وموزار وشوبرت وبيتهوفن . . . الموسيقى هناك كالشمس عندنا ، مجانا وللاطفال وللجميع . . .

متاحف فيينا غنية بالتراث الانساني . . . ولعل في بُعد فيينا عن مناخ التهريج الدعائي ، وفي طبيعة الحياة البسيطة فيها ما هيأ مناخا تلحظ العين فيه كل ابداع دونما افكار مسبقة . . . ومن هنا كان إحياء فيينا لعدد كبير من العباقرة شبه المغمورين ، واعادتهم الى العيون والقلوب ، امثال الرسام العظيم بوش .

سيأتي يوم يصير فيه « جيرونموس بوش » في بلادنا اسما معروفا كاسم سلفادور دالي وبيكاسو وغيرهما . . . (مع الفارق فنيا لصالحه) .

عظمة بوش انه عاش في القرن الخامس عشر الا ان اعماله معاصرة وسوريالية اكثر من اعمال اي فنان معاصر . . . انه الاب الشرعي والاول للسوريالية ، ومن يقف امام لوحاته في متحف فيينا يدهش لقدرته على الرؤ يا المستقبلية ، والرمزية المتفجرة دونما ادعاءات . . . وما يدهش النقاد في بوش الذي لم يرحل قط من قريته ، هو انه تيار قائم بذاته . . . فليس في المدرسة الفلمنغية ولا في اية مدرسة اوروبية معاصرة له ما يشبه تياره الابداعي الفذ . . . وحياة بوش مثل حياة شكسبير ، يحوطها الغموض ، ولكن ايا كان راسم هذه اللوحات الفريدة ، فانه عبقري كبير . . .

وفي نطاق دراسة اعماله ، شاهدت في فيينا معرضا خاصا لها عرضت فيه نسخ عن لوحاته المبعثرة بين متاحف مدريد وباريس ونيويورك وروما مما يسهل لعشاق فنه اكتشافه بامعان . . . انك حين ترى لوحات بوش لا تملك الا ان تشتم سلفادور دالي الذي سرق اهرام بوش وقلده . . . لا بل قلد اجزاء صغيرة من لوحاته الملحمية الشاسعة التي تقول رسما ما قاله تشوسر ودانتي شعراً . . .ثم ان الاطلاع على اعمال بوش يملؤك احساسا بقصر نَفَس الفنان المعاصر . . . في اعمال بوش يتعانق الابداع مع صبر « الصنايعي » ومنحه للفن كل ذاته ووقته . . .

واذا خرجت من متاحف فيينا ، (وشوارعها وابنيتها العتيقة متاحف حية) لاحقك الفن وحاصرك وتدفق الى اذنيك مع الهواء الذي تتنفسه . . . موزار . شتراوس . برامز . شوبرت . بيتهوفن . جوستاف مالر . كلهم اقاموا في فيينا ، وتحس بأن الحانهم ليست سوى موسيقى المناخ الانساني والابداعي في فيينا ، وان كل ما فعلوه هو التقاط هذه الموسيقى وكتابتها بشكل نوطة وتدوينها واعادة عزفها . . .

واذا ذهبت الى حي جرينزينغ ، اتيح لك ان تعيش يوما كاليوم الذي قضاه بيتهوفن او موزار فيه . . وجرينزينغ حي قديم مبني على مرتفع مطل على فيينا . . انه بمثابة مونتمارتر في باريس : حي الفنانين .. يقيمون بين اشجاره وادغاله ، والبيوت العتيقة تحولت فيه الى مطاعم سياحية فولكلورية ، والليل هناك اسطورة ، وامرأة جسدها « ابل سترودل » (حلوى التفاح المحلية) ؛ ونبيذ ، واغنية نمساوية قديمة على اوتار آلة تشبه آلة (القانون) العربية . . .

ليل فيينا اكثر طهرا وبراءة من اي ليل اوروبي سياحي . . . وهي رغم زحف العصر عليها ما تزال محتفظة بطابعها الخاص في الجوهر . . . فقد تصادف ان دخلت احد مطاعمها ، واذا به يوغسلافي ، تعزف فيه موسيقى شبه شرقية ، ويقدم فيه طعام اندونيسي !! . . ولكن وسط هذا الخليط ، جلس عاشقان نمساويان يتغازلان على الطريقة النمساوية : بحيوية ومرح ودونما ابتذال كما الطيور . وفي فيينا ظاهرة نجدها في اوروبا كلها وهي حسن استغلال الاماكن الاثرية والبيوت القديمة وتحويلها الى مناطق سياحية من الدرجة الاولى ، بدلا من الخرائب كما يحدث في بلادنا . . وليل حي جرينزينغ في فيينا يذكرني بليل حي « تراستيفري » - اي : ما وراء النهر في روما . فالبيوت المحيطة بكنيسة « سانتا ماريادي تراستيفري » في روما هي بيوت من عصر النهضة الاوروبية . . . ساعدت الدولة اهلها في المحافظة عليها ، وعلى ازقتها الضيقة الرومانية الرصف ،

ومنعت السيارات من افساد مناخها التاريخي الساحر . . وحتى الدراجات النارية ممنوعة من التجول هناك . . . وفي كل ليلة تتحول ازقة « التراستيفري » الى مقاه ، ولكل مقهى تاريخه واساطيره ، « وجرسوناتـه » يرتـدون الثياب التـاريخية من رومـانية واغـريقية ، والفرق الموسيقية تعزف في ليله على طريقة الشعراء الجوالين وتلتهب آهات المغنين باللغة الايطالية التي تشعر ان مفرداتها تقتصر على الغزل ويطير السواح في هذا الليل المسحور مثل الفراشات المضيئة اشعاعا بالسعادة ويدفعون « الفواتير المغشوشة » دونما اسف ولا ندم لانهم استمتعوا بالاجازة وتجددوا . . . ذكرني ذلك كله بمدننا التاريخية واحيائنا الشعبية المهملة ، التي لا تلقى من السلطات عونا الا في حالات الهدم وارسال الحفارات . . .

متحف الفن الحديث

روما تنافس فيينا من حيث ثرواتها الفنية القديمة . .

وفي الفاتيكان وحده كنوز ثقافية قديمة لا تحصى . . . ولكن القادم اليها من فيينا يشعر بأنه اكتفى من ابداع الماضي ولم يعد قادراً على امتصاص المزيد ، مثل اسفنجة مثقلة بماء البحر ، وعبثاً تغرف المزيد من المحيط .

ولذا ذهبت في روما لأزور من جديد متحف الفن الحديث (خلف قصر وحديقة البورغيزي) وهو متحف كبير دائم مخصص للفن الحديث ، ويقـام في احـدى قاعاتـه معـرض دوري لفنـان معـاصر . . . في المرة السابقـة تعرفـت فيه الى الفنـان المعـاصر (مانزوني) الذي مات شابا منذ اعوام ، وشاهدت يومها « صرعاته » الفنية . . .

احتـل القاعـة هذه المرة الفنان موراندي الذي مات ايضا منذ اعوام وكان انطباعيا كلاسيكيا رغم معاصرته . جولة بين لوحاته الباهتة الميتة تجعلك تحس بأزمة الفنان المعاصر امام انتاج عباقرة امثـال بوش ومـايكل انجلـو ودافنتشي . . فالمقلد للـكلاسيكية مثـل موراندي يظل باهتا في عصرنا وتافها ، والخارج عنها على طريقة مانروني يتحول من فنان الى صاحب صرعات .

وانا رغم تعلقي بكل جديد ، وركضي خلف كل غريب اعترف بخيبتي في متحف الفن الحديث اذا قارنت ما فيه ببعض ما تخلقه فيك المتاحف القديمة من احاسيس محرضة خلاقة .

متحف الفن الحديث اقرب الى النكتة العملية منه الى المكان الجاد . كل ما فيه ـ ما عدا اعمال فان كوخ وجياكوميتي ومانيه ومودلياني ـ تحسهـا من عمـل اشخـاص يريدون (الصرعة) لا الابداع . . . وكما ذكرت في مقالي الاول عنه ، هنالك قطعة قماش ممزقة

من المفروض انها لوحة . ومرآة رسم عليها رجل وامرأة في دهليز تظنهما للوهلة الاولى انت ومرافقتك ، هي الاخرى يفترض انها لوحة . . ومرايا مقعرة ومحدبة يتحول وجهك فيها الى بشاعات . . كذلك من المفروض انها لوحات . .

هنالك حزم من المسامير وهياكل سيارات محطمة وعجلات من المفروض انها تماثيل ايضا ! وغيرها وغيرها من المهازل . . .

ولكن الزيارة تظل مثمرة ومحرضة . . يكفي ان يكون في المتحف مبدع واحد كي يكون هذا العصر منحنا شيئا . . . ومودلياني وجياكومتي المبدعان المعاصران يملآنك بالعزاء عما لقيته من اهوال في متحف الفن الحديث . . .

وتذكرت رسامينا العرب التشكيليين المعاصرين وازددت اعجابا بهم . . . ان في العراق وفي لبنان وسوريا والسودان ومصر اعمالا ـ سمحت لي الظروف بالاطلاع عليها ـ تضاهي ما شاهدته من (فن) في متحف الفن الحديث بروما . . . (ولعل في بقية البلدان العربية التي لم اطلع على نتاج فنانيها ابداعا اكبر) . . .

اقترح اقامة معرض للفن العربي المعاصر

. . . نطير به الى اوروبا بعد ان نختار من كل بلد نماذج لكبار فنانيه (غير الرسميين) وانا واثقة من انه سيكون واجهة حضارية نفخر بها . . اقول هذا انا المهووسة بالفن وقد قضيت نصف وقتي اركض بين متاحف العالم القديمة والمعاصرة عاماً بعد عام . . .

ان الفن العربي التشكيلي ـ في نظري ـ معاصر بل متفوق .

روما ٢/ ٨/ ٧٣

لمسة حنان

طعنة خنجر ،

أم لوحة اعلانية منسية ؟

مقص يفتح جرحا ، ام دعـاية سياحية ؟ . . . هذا ما كان يغلي به رأسي ، حين تعثرت بهذه اللافتة السياحية في شارع من اهم شوارع روما (الساحة المواجهة لفندق برنيني قرب فيافينيتو) . . .

اللافتة تقول : زوروا الاردن ، والقـدس ، المدينـة المقدسـة ـ اتصلـوا بمكتـب السياحة الاردني . وفي اللافتة عنوان المكتب ورقم هاتفه ! . .

توقفت امامها طويلا وتساءلت : ترى الم يسمع مكتب السياحـة الاردنـي بسقـوط القدس عام ١٩٦٧ ؟ . . أم تراني أنا ركبت آلة الزمن ، ورجعت بي الايام الى ما قبل الحرب ، ما قبل ضياع القدس ؟

تخيلت سائحا يتصل هاتفيا بالرقم الذي تعلن عنه اللافتة ويقول : انا سائـح ، واود زيارة القدس فهل يمكن ان تنظمـوا لي ذلك ؟ . . بمـاذا ترد عليه الموظفـة الاردنية المختصة في المكتب السياحي ؟ . . وهل ستقول له : عذرا لقد نسينا ان الاحتلال يغرس رماحه المتوجة بالجماجم فوق هضاب المدينة المقدسة ! . . نسينا . .

هذه اللافتة المنسية في شارع روما تلخص المأساة كلهـا : مأسـاة الاهمال . عدم التنظيم . عدم التخطيط . انها تذكر بالوجع العظيم : سقوط القدس ، ولكنهـا ايضـا تلخص ابرز اسبابه ، وتكشف مدى الاهمال الاعلاني في الخارج ، فاللوحة منسية منذ ستة اعوام على الاقل . .

ستة اعوام ونحن ندعو لزيارة اسرائيل ، وتكاليف الدعاية ندفعها نحن ! . .

لوحة منسية ، اهمال من المكتب السياحي الاردني ؟ . .

ربما لا . . . فلنحسن الظن ، ولنجد تفسيرا فيه « لمسة حنان » . . . لنقل مثلا ان السياحة الاردنية لم تنتزع اللوحة من مكانها ، تفاؤ لا منها بأن القدس ستعود عربية قبل ان ينتهي العمال من فك مسامير اللافتة اياها . . . وانها تركتها هناكْ من باب « تفاءلوا بالخير

تجدوه » ! . .

ولكن ليس بالتفاؤ ل وحده نحرر الوطن الضائع . . .

لنقل ان السياحة الاردنية تركت اللافتة هناك عمدا ، كي تذكر السواح العرب بأنه لا حق لهم في السياحة واللهو بينما الوطن يحترق والقدس ضاعت . .

لنقل اي شيء (تمويهي) آخر . . لكننا لن نملك الا ان نقول : انزلوا اللوحة المنسية من مكانها ، واعيدوا الوطن المنسي الى وطنه .

لندن ١٢/ ٩/ ٧٣

الحلول الفردية لا تجدي

أكتب وجسدي ما يزال يرتجف قهرا وغضبا مثل أرنب جلد للتو ، وقد انسحبت منذ دقائق من قاعة (رويال ألبرت هول) الموسيقية .

كنت هناك ، جالسة في مقعدي استمع الى الحان تشايكوفسكي بعد ان قاسيت الكثير للحصول على بطاقة . . لا ، لم أكن جالسة في مقعدي . . . بل حولتني الالحان المسحورة الى كومة من الريش الملون المضيء ، ونفختني في سماء القاعة المستديرة كبئر الاساطير ، وطرت من بين آلاف الجالسين المسحورين مثلي ، وخرجت من كوة في اعلى السقف قرب النجفة الى الفضاء الواسع . . . رحلت الى امكنة بعيدة وعانقت وجوهاً هربت مني في شوارع الزمن واختفت . . . والى مغاور ذاتي عدت وقد بدأت انبش عنها الصدأ لاستخرج من اعماقي اردية الحب التي طال هجري لارتدائها . .

وفجأة ، حانت مني نظرة الى برنامج الحفل الموسيقي وفوجئت بأن قائد الفرقة الموسيقية اسرائيلي . اسمه « يواف تالمي » ومن مواليد اسرائيل كما يقول الكراس .

وهويت من شاهق متعتي الى أرض الواقع والحقيقة . . . ان من يقرأ تاريخ حياة « يواف تالمي » والفرص التي توافرت له والجوائز التي تم منحها له يدرك مدى دعم الصهيونية العالمية لتصنيع جيل من قادة الاوركسترا الاسرائيليين وزرعهم في مختلف اصقاع العالم كجزء من لعبتهم الاعلامية وخديعتهم للعالم بادعاء التحضر والرقي الفني ، في حين تمارس اسرائيل في بلادنا عدوانيتها واعتداءاتها على ابسط القيم الانسانية . . . وها هو « يواف تالمي » يقود الاوركسترا الفلهرمونية الجديدة البريطانية . . وفي الاسبوع نفسه يقود الاسرائيلي « آفي اوسترويسكي » الفرقة السمفونية البرمنغهامية البريطانية ، ونظرة سريعة الى تاريخه الموسيقي تؤكد مدى الدعم المخطط الذي لقيه من مراكز القوى الصهيونية لاحلاله ورفيقه الاسرائيلي الآخر في هذا المركز الحضاري ، ليمارسا امام الشعوب لعبة الرقي ، بينما يمارسون في بلادنا ابشع وسائل العدوان .

ووجدتني انسحب من الحفل ، ولكن ما جدوى ذلك ؟ . . عشرات الآلاف من

الحضور قد قرأوا الكراس كما فعلت وانطلت عليهم الكذبة ، ورسخ في اذهانهم لا شعوريا ان في اسرائيل رقيا انسانيا سلميا بدليل انجاب قادة اوركسترا وهو أمر له اعتباره العظيم في اوروبا . . . وذكرني انسحابي البائس من الحفل بذلك الطبيب الياباني الذي قرر أن خطر التلوث يهدد العالم ، فدمر سيارته ، وابتاع حمارا وصار يستعمله في تنقلاته بدلا من السيارة وذلك كي يساهم في حل مشكلة التلوث ! . .

ان الحلول الفردية لا تجدي . انها تظل أقرب الى صرخات احتجاج الاطفال ، وخطب مجانين (الهايد بارك) الذين يريدون تغيير العالم بخطبة . . .

وما اشبه موقفي ، وموقف الطبيب الياباني وحماره بموقف عدد كبير من زعمائنا العرب . . . يغضبون . يهددون ، يحزنون . يخطبون . لكنهم لا يملكون خطة موحدة ولا حتى تصور خطة موحدة لمواجهة اغتصاب أرض وتشريد شعب .

وحتى تلم شعث تمزقاتنا العاطفية خطة . . ستظل مواقفنا من اسرائيل من حيث جدواها كموقف الطبيب الياباني من حكاية التلوث !!

٧٣/١٢/٢٤

حكايات الى الأمير الصغير

الى بشار . ع

حين ركبت الطائرة في مطار بغداد ، بعد رحلتي الخاطفة اليها ، كان صدري مليئا بالاصوات والصور والالوان العراقية ، وقلبي يخفق مثل حمام زاجل يمتعه ان يطير بالكلمة في الصحو والمطر . . وقررت : هذا الاسبوع سأروي لقرائي حكاية عراقية حلوة ، عريقة عراقة الصحراء بين كربلاء والنجف ، مضيئة كالمآذن والقباب الذهبية في مقر (قمر بني هاشم) ، ملتهبة مثل افران الطابوق (الآجر) على جانبي الدرب ، أليفه وملونة مثل البرتقال تحت المطر في كربلاء ، شفافة مثل اسراب الطيور التي كانت تحلق في افق بادية العراق مواكبة سيارتنا . . وحين حلقت الطائرة فوق لبنان ثم البحر ، كانت خيوط « مقالي » قد تجمعت نهائيا في صدري ولم يبق غير ان افرغها على الورق لاستريح .

ولكن . .

منذ بدأت الطائرة تحليقها فوق بيروت بدأ الوجع . . الوجع الذي ينسي الانسان كل الكلمات الحلوة كما ألم الضرس يسلب من فم العاشق كل قصائد الحب . ولم يكن وجعي فيزيولوجيا ، ولذا فانه لم يكن متركزا في عضو واحد وانما كان وجع الروح والنفس ، الذي يستولي على الجسد بأكمله ، وعلى الذاكرة . . .

فمن الطائرة شاهدت مرفأ بيروت مزدحما كالعادة بالسفن التي تنتظر دورها لتفريغ حمولتها ، ازدحاما هائلا جشعا لان بيروت تحب ان تستأثر بأرباح المرفأ وتصر على ان تكون الميناء الوحيد في لبنان في حين تغمر البطالة ميناءها الثاني المهمل المنسي في طرابلس . . . طرابلس قلب العروبة النابض في لبنان ، المدينة التي يسكنها المناضلون والطيبون والتي عبثا تغطي رائحة زهر الليمون فيها رائحة الفضائح التي يرتكبها الحكام في حقها !

تذكرت « المعرض الدولي في طرابلس » الذي اهترأت ابنيته ولم يتم افتتاحه ، والميناء المقهور المحروم من كل اهتمام رسمي او تحسينات انشائية حديثة بحيث يكف مرفأ بيروت عن الاصابة بالتخمة في حين يذوي مرفأ طرابلس جوعا . . . وتذكرت كم وكم كتبت وكتب سواي عن طرابلس الرائعة المهملة ، وكيف تضيع ابدا صرخاتنا في مهرجان

بيع الوطن بالمزاد العلني !

وغمرني احساس موجع ! ان اصبع الديناميت هو الحل . وهو في اليد أمضى من قلم الحبر في هذا الزمن الرديء .

***

الطائرة تحوم فوق بيروت . .

هاهي غابة من الحجارة تنتظرنا في الأرض لتتلقفنا باسنانها التي تضغط باستمرار على صدغينا . ها هي بيروت مدينة تختنق ، فالمساحات الخضر داخل المدينة تتضاءل وتتضاءل وتلتهمها الابنية . ليس في المدينة حديقة عامة واحدة تذكر . هنالك رقعة شبه مخضرة وفسيحة وفارغة من الابنية . ربما كان ذلك هو ميدان السبق الذي رصدت ملايين الليرات لاصلاحه ! لماذا لا يحول هذا المكان « الشرير » الى حديقة عامة يتنفس فيها سكان المدينة قبل ان يختنقوا نهائيا ؟ .

ليس في الدنيا كلها مدينة حديثة بلا حديقة عامة غير بيروت . ومن هنا كان سبب رواج الاطباء النفسيين في بيروت . فيينا التي أحرقتها الحرب (والتي متوسط دخلها القومي فقير كمتوسط دخلنا) اصلحت حدائقها العامة بعد الحرب قبل ان تصلح بيوتها . لندن التي تضم حوالي ١٠ ملايين شخص تعتبر حديقتها العامة « هايد بارك » مقدسة .لماذا لدينا كل فظاعات الحياة المعاصرة ، من زحام سير وكاباريهات وحبوب منومة ومنبهة وعشرين دار سينما وغلاء وقسوة حياتية ورخص انساني يتزايد يوما فيوما على حساب قيمنا الروحية ، من دون اي من مزايا الحياة المعاصرة ؟ لماذا نستورد كل امراض الحضارة ولا ننعم بشيء من مزاياها ؟ اننا نختنق واطفالنا يختنقو ن ، وها هي الطائرة تهبط بي في مطار بيروت ، واقرر : سأنسى ذلك كله لاكتب عن العراق !

ولكن . .

***

المظاهرات تملأ الشوارع . . . والتاكسي الذي يحملني من المطار الى البيت عبثا يجد طريقه . . والشعب الغاضب خرج الى الشوارع من اجل الحرية واللقمة والعدالة والكرامة . . . انها الحكاية القديمة نفسها التي تكررها الشعوب باستمرار ويعجز حكامهم عن فهمها الا بعد فوات الاوان . . (ترى هل استطاع لويس السادس عشر ان يفهم لماذا ثار شعبه غير لحظة مست المقصلة عنقه ؟ وهل وعى دماغه معنى ما دار في فرنسا غير لحظة طار رأسه تحت المقصلة ؟؟ .)

لبنان يلتهب . . ورأسي يلتهب . . وعبثا اعيد الى قلبي ذلك الشعـور العميق بالسلام والسكينة (شعور من دفن وجهه في صدر تاريخه وبدأ يشمه ويتحسسـه) وانـا ارقب النخيل والخضرة بين بغداد وكربلاء . واسراب الابل تعدو في الساحات الشاسعة ، والمطر يغسل كل شيء كمن ينفض غبار الزمن عن كتاب تاريخي عريق ، والضباب يلف البادية والخضرة بشفافية مؤثرة فيبدو كل شيء مسحورا مثل حلم داخل الكرة البلورية لساحرة تستحضر الماضي العظيم ! . . غابات النخيل وبيوت الشعر وجزر الرمال في المطر و « سيلويت » الرعاة على الافق . . صور كثيرة طالما شاهدتها على غلاف علبة تبغ فضية اهديت الينا ذات مرة من العراق وكانت تسحرني في صغري . وها هي الصور تنبعث حية امامي في المدى الشاسع ، وها انا جالسة اكتب . . احاول عبثا استحضار اصوات تلك الرحلة وحكاياها الحلوة العذبة ولكن رأسي يلتهب لان لبنان يكاد يلتهب . وهنا لك من ينشد أنغام الغضب الساطع والانفجار المحتوم .

***

الى « الامير الصغير » في بغداد اكتب هذه الكلمات . . . ورغم احزاني كلها اكتب اليك لانني وعدت بذلك ولا استطيع ان اخلف وعدا مع اعوامك العشرة المليئة بالنبل والصفاء والتي لما تلوثها قذارة هذا العالم ، عالم الكبار . . .

كانت عيناك بركتي عسل وشعرك من ذهب وانت تقول ببراءة : « انت التي ارى صورتك في المجلة ! . . اكتبي عني . . قولي اي شيء . . »

يا صغيري الامير الذهبي ، يا اميري القادم من كوكب اخر (امير قصة سانت اكزوبري) ، الكبار يريدون مني ان اكتب عنهم لكن احدا لا يقول لي ذلك صراحة ! كلهم يراوغون ،يداورون ، يصلون الى اغراضهم بوسائل ملتوية كثيرة .وحدها الطفولة تقول ما تعنيه ، وتعني ما تريد . وتريد ما تريد !

يا اميري الصغير ، كنا في نادي الصيد في بغداد ، مجموعة من الكبار اكلنا الزمن وسحلنا في دروبه ، ومجموعة من الصغار (انت واخوتك) بكل نقاء الطفولـة ونبضهـا ووعدها بالعطاء ، وحولنا كانت هنالك حيوانات محنطة نادرة هي من معروضـات نادي الصيد . . فما اشبهنا نحن الكبار بتلك الطيور والذئاب المحنطة المحيطة بنا ! اجنحتنا مثل اجنحتها لن ترف بعد اليوم . . . . عيوننا مثلها تثبتت نظرتها في اتجاه واحد ولم تعد قادرة على سبر غور الافاق البعيدة في كل الاتجاهات لاكتشاف حقائق جديدة . . وكما هي مثبتة على حواملها ، كذلك نحن الكبار تثبتنا نهائيا في اطاراتنـا الاجتماعية والتزاماتنـا

وصارت تحركاتنا محددة اكثر من تحركات حتى دمى المسرح !

يا اميري الصغير . .

كنا في احد النوادي ، كبار سقطوا في شرك الحياة ولم يعد في وسعهم مطاردة غزال الحقيقة المراوغ الراكض في غابات الابدية ، وصغار ـ انت واخوتك ـ لكم وحدكم امكانية متابعة صيد الفرح في عالمنا الحزين . . يا اميري الصغير الذي عيناه عسل وشعره ذهب وضحكته مهرجان ونكاته محاولة نبيلة لدفع الدم في عالم الكبارالمحنط. اريد ان اسر اليك بحكاية صغيرة . .

في العراق كلمتان ، بقدر ما احببت احداهما بقدر ما كرهت الاخرى . .

احببت كلمة « عيني » يقولونها لك باستمرار ، يكسرون بها عنك شرنقة الغربة التي نحسها نحن الكبار في عالمنا الذي فقد الوان قوس القزح الذي يلون عالمكم . . « صباح الخير » عيني ـ اهلا عيني ـ حاضر عيوني ـ هالو عيني تسمعها من عاملة الهاتف في الفندق التي لم تر لها وجهاً ، فتحس بان العراق يفتح قلبه لك ويمنحك اغلى ما لدى الانسان : عينه .

والكلمة التي كرهتها هي كلمة « الجهال » . انهم يسمون الاطفال في العراق« بالجهال » ، ولو انصفوا يا اميري الصغير لاسموا كل من تجاوز سن الطفولة « بالجهال » فالمآسي التي تدور في عالمنا العربي يصنعها الكبار« الجهال » لا الاطفال النبلاء مثلك . . . ولكن الكبار ،كعادتهم، يتحاملون على كل ما لا يشبههم ولا وقت لديهم لفهمه ، فاغفر لهم . وانا اعرف انك ستفعل ، فالطفولة وحدها تملك النسيان والغفران ،

والى اللقاء يا اميري الصغير حين تكبر وتصير فعلا من « الجهال » واغفر لحكاياتي الحزينة ، لكن قيثارة جيلنا مجرحة . ونفسي حزينة حتى الموت !.

بغداد ١/ ٣/ ٧٤

في بينال بغداد

حينما يستولي الليل على مدينة بغداد ؛ ويجلو الناس عنها الى مدن النوم ، وتفرغ الشوارع تماما ، يصير في وسعك ان تلحظ الحياة تدب في تماثيلها المنصوبة في الساحات ، وفي هدأة الليل تنحسر عن عينيك غشاوة مشاغلك اليومية والركض والزحام . . . ويصير في وسعك ان ترى ما تبصر . . . وتسمع همس التماثيل وصراخها .

ها هي مرجانة ، مرجانة علي بابا والاربعين حرامي ، مرجانة الاساطير العربية وخوابيها الاربعين ، تتوسط احدى الساحات ، وتسكب من خوابيها العسل ؟ لا ، بل حكايا التراث العربي الغابر . . . فاذا انصت جيدا ستسمع شفتي التمثال المتقن الصنع (ابدعه العراقي محمد غني) ترويان لك الحكاية القديمة . . . وقد تسند رأسها الى صدرك وتبكي قليلا اذا كنت حنونا ! (كان علي بابا يحب المال اكثر من حبه لها ؟!)

تابع المسير مع النواسيين والشعراء المشردين وعشاق الليل الدراويش . .

ها هو ابو نواس على ضفة دجلة يروي اشعاره . . اجلس امام قدمي التمثال واغمض عينيك وانصت . . واذا دعاك لتناول الشاي معه (على طريقته الخاصة) فاذهب ولا تحص الاقداح ! . .

تابع المسير الى ساحة التحرير . ها هو نصب الحرية يسبح امام عينيك في الضوء الاصفر مثل الرؤيا . . . على قاعدة طولها خمسون مترا سترى حكاية الرجال المكافحين من اجل الحرية على مر التاريخ . رجال من البرونز ابدعهم فنان العراق الراحل جواد سليم في اضخم نصب نحتي في بغداد منذ ٢٥ قرنا . . سترى ملحمة الانسان من اجل الخلاص ، ستسمع اصواتهم ، وقد تسيل على وجهك قطرات من عرقهم ودمهم . .

وحتى اذا كنت مسافرا ، سيطالعك عباس بن فرناس في دربك الى المطار . . سيطير عن قاعدته الحجرية ويحلق في الجو دون ان يسقط او ينكسر جانحاه . . سيحلق ، ومعه ستحلق في اجواء العطاء الرفيع للفن العراقي المعاصر .

حتى عابر السبيل في بغداد لا يملك الا ان يشعر بحركة الفن التشكيلي المعاصرة الناهضة فيها .

ستطارده تماثيلها في الشوارع طوال الليل ، وستتسلل الى دروب احلامه . وفي الصباح سيجد نفسه مساقا ، ولو بدافع الفضول ، للبحث عن متاحفها . . . ولن يخيب امله .

أبجدية الفن العراقي

قد يكون من الافضل ان نبدأ الحكاية من اولها . . ان نبدأ من متحف اثارها القديمة القديمة ، خلاصة المناخات الحضارية التي تعاقبت على ارض العراق والتي هي دونما شك المادة الخام في لا وعي الفنان العراقي - بل وفي وعيه - يستلهمها ويرسل جذوره الجديدة في تربتها القديمة الثرية انسانيا . سترى الاثار السومرية والاكادية والبابلية والكلدانية والاشورية والاسلامية والعباسية ، وستتساءل معي : ترى هل كان بيكاسو اشوريا ؟ ففي جناح المنحوتات الاشورية ، الهائلة الحجم ، ستقف معي امام الثور المجنح لتجده نموذجا لما حاول بيكاسو خلقه في لوحاته من حيث « وحدة الرؤ ية » . . .

وامام تمثال من النحاس وجد في نينوى (الحقبة البابلية) وجدتني اتساءل : ترى هل عاش جياكوميتي ، الفنان الكبير المعاصر ، منذ الاف السنين في نينوى ثم بعث حيا في اوروبا بشخصه الحالي ؟ هل هو « تناسخ الارواح » مثلا ؟! .

المجوهرات والقلائد من المقبرة الملكية في اور (٢٤٥٠ قبل الميلاد) ستذهلك بمعاصرتها من حيث الروح والالوان والاشكال ، حتى لكأنها « هيبية » ! . .

ولن ننسى ابدا ذلك التابوت الذي له شكل الرحم (٤٠٠ قبل الميلاد) . انه قصيدة شعرية منحوتة في الصخر يلخص الحكاية كلها ، من الرحم الى الرحم . . من رحم الام الى رحم الموت . . . من الغموض الى الغموض .

باختصار ، ان من يدخل متحف بغداد لا بد وان يخرج منه واعيا مدى التنوع والاصالة الفنية لنتاج الحضارات التي تعاقبت على ارض العراق ومعجبا بالقدرة المدهشة لدى تلك الاقوام على التفرد والخلق الفني المبدع حتى المعاصرة ، تلك الارضية التراثية الغنية التي ينبت في تربتها عطاء الفنان العراقي المعاصر .

بينال العراق . .

حينما تغادر المتحف الذي يضم قديم العراق ، ستبحث عن المتحف الذي يضم حديثها لترى ماذا فعل الفنان العراقي المعاصر بنفسه وبتراثه .

ستتجه الى معرض كولبنكيان حيث تجد عادة صالة عرض دائمة للفن العراقي المعاصر الى جانب معرض دوري لاحد الفنانين .

لكنك اليوم ستجد تظاهرة فنية عربية ضخمة هي بينال العراق او « معرض السنتين العربي الاول في بغداد » ، وهو معرض دوري يقام كل سنتين مرة ـ « بينال » ـ وصار تقليدا دوليا . « انه يقام للمرة الاولى في بلد عربي » ، وقد انبثق عن مؤتمر الفنانين التشكيليين العرب الذي عقد في العراق في العام الماضي (١٩٧٣) .

يشترك في المعرض لهذا العام اكثر الدول العربية : فلسطين ، سورية ، لبنان ، مصر ، الجزائر ، الكويت ، تونس وغيرها . . . وقد وجهت الدعوة الى عدد كبير من النقاد العالميين المعاصرين ورؤساء تحرير كبريات المجلات الثقافية لمشاهدة هذه التظاهرة العربية .

متحف . . . لي وحدي

شاءت الظروف ان ازور المعرض قبل افتتاحه . الجناح العراقي وحده كان كاملا ، اما بقية اللوحات العربية فكان بعضها ما زال ملفوفا « بثياب السفر » . وقد استثارت فضولي هذه اللوحات المغلفة كثيرا ، واحسستها مثل عالم سري يختبىء في داخل صندوق مقفل .

متحف لي وحدي ! . .

وانا اتجول في القاعة الهائلة بين نتاج ١٠٥ فنانين عراقيين شعرت بالذنب ، مثل انسان يستأثر بوليمة هائلة . . وحده !

والذي يريد ان يعبر الى عالم الفن العراقي المعاصر لا بد له من المرور بالجسر الذي اسمه تراثها ، اي لا بد له من المرور بمتحفها القديم القديم ، فعظمة الفن العراقي المعاصر تكمن في استيحائه الاصيل للتراث . وتأثره الحديث بالتيارات الغربية والمعاصرة هو تأثر معافى وشديد الوعي والحذر . فهذا الفن يهضم التيارات المختلفة ويفيد منها ، ولكنه ايضا يتجاوزها ليظل محتفظا بهويته الخاصة الاصلية . كما انه يمتاز ببعده الاصيل عن الصالونية والضحالة . لقد نجح الفنان العراقي ، بصورة عامة ، في الدمج بين التراث والتجديد ، بين العراقي والعالمي . ونحن نجد في اعمال الفنانين العراقيين تأثيرات اشورية وبابلية واسلامية الى جانب تأثيرات معاصرة اخاذة .

هذا بصورة عامة . . والمعرض يضم نماذج لرواد الفن العراقي المعاصر ، امثال حافظ الدروبي ونوري الراوي وخالد الجادر وشاكر حسن ونزار سليم ونزيهه سليم (اشقاء فنان العراق الخالد جواد سليم) وغيرهم .

ولكن ، لنتجول في الجناح العراقي بتمهل . . انه يستحق ذلك .

ابرز ما في المعرض ان الشرط الاساسي له هو ان تكون الاعمال المعروضة فيه جديدة تمثل الفنانين في مراحلهم الحالية ، في لوحة او ثلاث لوحات .

تتوالى اللوحات والاسماء المعروضة :

فرج عبو الذي شهدته بيروت في معرض مستقل فيها .

تركي عبد الامير وعالمه الصحراوي .

لوحة لخالد الجادر ، نقيب الفنانين . لم ينته منها ، ولا بد ان تشعر بالغصة امامها لان مرض القلب جعل الاطباء يحرمون عليه اتمامها . . . وها هي كسيمفونية غير منتهية امامك تذكرك بالفنان العزيز المريض .

تتوقف طويلا امام لوحات حافظ الدروبي وتتذكر تاريخه الطويل مع العطاء . .

تتوالى اللوحات والاسماء . .

محمد علي شكر واحساسه اللوني الحاد المذاق . . .

اسماعيل الشيخلي والريف العراقي و « كونتراست » الملابس القروية الملونة مع خضرة الارض او حمرة التربة كالدم النابض داخل قماش اللوحة . .

نزار سليم والملامح البغدادية والعطاء الذي يذكرك بابداع شقيقه العظيم . .

ما هود احمد سيلفت نظرك بعناق التراث في لوحاته مع ملامح العصر الحادة : عوارض حديدية وبراغ . .

شاكر الشادي الذي بدأ اسلوبه يتضح ويتميز برموز حضارية يتعانق فيها الماضي بالحاضر . . تقف طويلا امام الدوامة ، لوحة الشاعر شفيق الكمالي . خضرتها حزينة وقاتمة وتحار هل هي خضرة الربيع ام الدمن !؟ . .

وهذه السلاسل التي تكبل المرأة العربية في اللوحة تحسها تضغط على عنقك . تكاد تشهق اختناقا لولا بصيص نور في قاع اللوحة : خيوط ضوء تشق طريقها اليك وسط الغاز السام للقيود وترى عبرها بسمة تفاؤ ل . . . شفيق الكمالي الشاعر هو شاعر في رسمه ايضا ، ولوحته قصيدة مكتوبة بالالوان ، ورؤ ية شعرية القى القبض عليها داخل لوحة .

توقفت امام اعمال محمد عارف واحببت لون الفجر فيها وتطلعاتها الملحمية ، والبومة فيها (وانا اعشق البوم) . .

ستار لقمان وشجرة الخطيئة وامرأتان ، ورؤ ياه المميزة . .

حسن عبد علوان تقطر من رموزه الشعبية الف ليلة وليلة وما بعد الف ليلة وليلة في

شفافية حالمة . . .

فؤاد جهاد نجح في مزج التأثرات الواسطية بالبيزنطية . .

ليلى العطار حققت في المعرض تطورا من رسومها للجسد العاري الى رسمها للقلب العاري والموت العاري وما زالت محافظة على خصوصيتها اللونية الاخاذة . .

صادق سميسم يطالعك برؤ ياه السريالية . وفي احدى لوحاته سيف عربي (السيف العربي الشهير الذي قرأنا عنه في الكتب والاشعار) وقد تدلت منه ورقة كتب عليها : « للبيع » !.

ها هو راكان دبدوب باسلوبه المميز الذي يستوقفك فتتمنى لو رأيت له من قبل . .

سعاد العطار حققت ايضا تطورا عن اعمالها السابقة ، وامرأتها المختبئة في الغابات لا تجدها للوهلة الاولى ثم تلحظ انها هي الشجرة ! في لوحتها البنية ـ العسلية حزن وشفافية . وتطورها نحو حلم متقشف وصلب ، نحو الصلابة الشرسة والالم المضيء ، يستحق التوقف . .

ويدهشك سعدي الكعبي بمهارته اللونية حتى لتظن اللوحة « سيراميك » ! .

وعلي طالب بابعاده الجوية وشفافيته

وعامر العبيدي بصحرائه البيضاء وتقنيته في استعمال اللون الابيض وتفجيره لامكاناته وطاقاته . . .

وصلاح جياد بنخلته الاشورية وفلاحيه . . .

وجودت حسيب بلوحته السوداء الشرسة المأساوية الرفض . .

والدكتور طارق مظلوم بمسائله الميثولوجية : جلقامش واسطوريات عراقية في عالم خصب الوجوه . .

هنا فيصل اللعيبي وانطباعيته الماهرة . . ومنحوتة للفنان المدهش خالد الرحال ، المقيم في روما . .

ونوري الراوي ، الذي احببت اعماله القديمة ذات المناخ القروي الاسطوري يعرض لوحات تمثل تطوره وتجاربه الحالية : مسائل فضائية تتضمن تطويرا في الاسلوب لمواضيعه السابقة . وتظل تجد في لوحاته الرموز الشعبية كالحمام على جثة الشهيد ، والقمر الاسود حدادا ، والاحمر الدامي الذي يذكرك بالاستشهاد . . .

شاكر حسن ، من الرواد في الفن العراقي ، يعرض هذه المرة تكوينات الجدرانيات وعالمها الخاص الذي هو مرآة للحياة حولها . . . والى جانبها اكثر من لوحة رقيقة فيها

صوفية رقيقة . . .

اسماعيل خياط . . جعفر علي الزنك . . رزاق العزاوي . . شوكت الربيعي . . . غازي السعودي . . . الدكتور خالد القصاب . . . سليمان البصري . . سالم الدباغ . . اسماء واعمال تثير فضولك . . .

يحيى الشيخلي تتذكر انك رأيت بعض رسومه قبلا ثم تتذكر ان ذلك كان في ديوان البياتي الجديد « سيرة ذاتية لسارق النار » . .

فائق حسين ، المقيم في اسبانيا والذي استطاع ان يكون لنفسه هناك مكانة فنية جيدة ، تتمنى ان ترى المزيد له ، فيعدونك بمعرض خاص يعده مباشرة بعد « البينال » وتستطيع عبر لوحاته الخمس ان تلحظ مأساوية انسان العصر وغربته الموحشة . . .

عبد الاله السياب كربلائي المناخ . .

نزيهة سليم مدهشة في تزجيج اللون على النحاس .

أين الناصري والعزاوي

رغم هذه التظاهرات الفنية الضخمة عدديا لا تملك الا ان تلحظ غياب رافع الناصري وضياء العزاوي والسمرجي والجميعي ، ذلك الفراغ الذي لا يعوض لان اصحابه في طليعة المبدعين العراقيين ولان لكل منهم اسلوبه المميز وعطاءه العملاق . وتقرر ان تسأل عن سبب الغياب ــ ثم تقرر ان غيابهم خسارة ايا كانت الاسباب !

منحوتات العراق

جناح المنحوتات اصغر حجما واقل عددا من اللوحات ، لكنه يمتاز بكثافة ابداعية (ومتى كان الابداع كماً لا كيفاً) ؟! .

ستجد عمالقة العراق في النحت : محمد غني وخالد الرحال واسماعيل فتاح وكاظم حيدر . وسيلفت نظرك عمل شرس لصالح القرغولي ، مادته الاولية من خيوط بيوت الشعر (الخيام) ـ وهي مادة محلية صرفة ترمز الى التراث ـ ممزوجة برماح حادة مدببة حديدية في تكوين شديد القوة . .

مؤيد الناصر له منحوتات مرمرية متميزة جدا . .

ولعبلة العزاوي تكوين شفاف ومبتكر ومريح للعين . .

كاظم حيدر ، الذي عرى الزمن ولعب باجزاء من ساعات قديمة ، اعاد تنظيمه ودمر رتابته . .

وهنالك ايضا منحوتة لمحمد الحسيني ، خشبية تبدو كما لو انها جاءت من قلب

الغابة بعد ان نحتتها يد الطبيعة .

حميد العطار يحطم الجدار بين الرسم والنحت في تراجيدياته وملاحمه . . .

محمد مهر الدين تلفتك قدرته على خلق جو الاستشهاد والتضحية والمأساوية .

« السيراميك » العراقي يستحق التوقف ايضا ، ولا سيا امام اعمال سعد شاكر ومقبل الزهاوي (مقيم في جنيف) وقريش داود (مقيم في لندن) وغيرهم . . .

ولعل ابرز ما في تظاهرة العراق هو انها تضم اعمالا لفنانين عراقيين موجودين في الخارج (وقد ساعدهم بلدهم ماديا على شحن اعمالهم) مما يغني العطاء العراقي ويرفده بمنابع ابداعية هامة . .

فلسطين ! . .

« بينال » العراق لا تستطيع ان تراه دفعة واحدة . جناح العراق وحده يستحق اكثر من زيارة . . ولكن الظروف التي حتمت علي زيارته قبل الافتتاح هي نفسها التي اضطرتني الى مشاهدة كل شيء في يوم واحد . .

وسألت عن جناح سورية ولم يكن قد وصل بعد واسفت لذلك .

جناح فلسطين وصل ولم يعلق بعد ، وها هي اللوحات على الارض تضطرك الى الانحناء لتراها ، وقد تركع امام بعضها ! لوحات لجمانة بيازيد باسلوبها المتميز البديع ، ولوحات جيدة لليلى الشوا وتمام الاكحل واسماعيل شموط ، وهذان الاخيران لم ار اعمالهما منذ زمن بعيد واشتقت اليها . .

لبنان . . اين ؟

وجناح لبنان يتضمن لوحات لوجيه نحلة ، عارف الريس ، هيلين الخال ، حسين ماضي ، موسى طيبا ، حسن جوني ، حليم جرداق . . . وكلهم من الاسماء اللبنانية الجيدة ، ولكنني افتقدت اسماء اخرى احسست ان وجودها كان ضروريا لتمثيل الفن في لبنان تمثيلا اكمل واشمل . .

الكويت توقفت طويلا امام لوحاتها واحزنني انها المرة الاولى التي اطلع فيها على اعمال كويتية ! لفتت نظري اعمال يوسف القطامي واحمد عبد الرضى ، محمد الصالح وعبد الله القصار ، وعيسى صقر وابراهيم اسماعيل وامين محمد احمد الصالح ، وتمنيت لو ارى المزيد من نماذج اعمالهم لاكون قادرة على النفاذ اليها والتواصل بها .

أهمية « البينال »

انها اول مرة ارى فيها اعمالا كويتية ، وعدنية ، ومغربية ، وجزائرية ، وغيرها من

الاعمال الفنية العربية مجتمعة . . ولست الوحيدة طبعا . ومن هنا يتخذ مهرجان « البينال » في بغداد اهميته القصوى . انه يساعد على تعريف المثقفين العرب بما يدور في بقية الاقطار . انه خطوة عملية حقيقية في درب الوحدة الثقافية .

ثم ان العراق قام بدعوة ابرز النقاد العالميين لتعريفهم بالفن التشكيلي العربي الذي لا يقل اصالة وابداعا عنه في اقطار العالم الاخرى ومن خلال الجيد من لوحاتنا سيتلمسون ملامح الانسان العربي الجديد وقضاياه وكفاحه وجدارته ، وبذلك يقدم العراق للعالم العربي الفني مناسبة لا تعوض لتثبيت وجود عربي فني ضمن تيارات الفن العالمية والتجارب المعاصرة .

الجمعيات . . .
والفنانون العرب

« بينال » العراق ساهم بصورة غير مباشرة في تفجير النزاعات بين الفنانين والاتحادات الفنية (او الجمعيات او النقابات) في اكثر الاقطار العربية . . .

فقد وجهت العراق الدعوة الى مختلف الفنانين العرب عن طريق هيئاتهم التي يفترض انها تمثلهم (جمعية الفنانين او اتحادهم او نقابتهم) وهو امر اعترض عليه بعض الفنانين العراقيين ايضا وكانت وجهة نظرهم ان عددا كبيرا من المبدعين العرب قد لا يكون منتميا الى الاتحادات .

نوري الراوي ، مدير المعرض في بغداد وأحد اعضاء لجنة « بينال » بغداد ، يرد بقوله : « اضطررنا الى توجيه الدعوة الى الاتحادات لان المشاكل القطرية بين الفنانين العرب ليست من اختصاصنا نحن » .

قال فنان عراقي مبدع لديه اعتراضات على « بينال » العراق : « كان من المفروض ان ندعو الفنانيين العرب المبدعين وان لا نبالي بالاتحادات حين تريد معرضا ذا مستوى جيد يجب الا تهتم بالصيغ الرسمية . »

يرد الراوي : « هذا غير ممكن بالنسبة الى الاقطار العربية ، فقد كادت تحدث ازمة بيننا وبين بلد عربي ، وكاد ينسحب وفدها باكمله (وارسلوا لنا اربع برقيات احتجاج متأزمة !) لمجرد اننا فكرنا في دعوة شخص معين ! اننا لا نستطيع ان نخسر دولة بسبب فنان ، وليس ذنبنا اذا وجدت في الاقطار الاخرى حساسيات وتأزمات . نحن البلد المضيف ، وقد فتحنا قلبنا لكل الاقطار العربية » . قلت للراوي : «هنالك اعتراض على الكثرة العددية للوحات العراقية ، وهنالك رأي كان يفضل ان يكون جناح العراق معادلا

من حيث العدد لاي جناح عربي آخر . ما رأيك ؟ » .

قال : « في « بينالة » فينيسيا كانت الاجنحة الايطالية تعادل بل تفوق كل اجنحة بقية الدول المشتركة . هذا تقليد تتبعه كل الدول المضيفة للمهرجان . اننا لم نقدم كثرة عددية فنية وانما تم اختيار اللوحات انطلاقا من مقاييس فنية صارمة . ليس ذنبنا اذا كانت حركة الفنون التشكيلية في العراق مزدهرة والمبدعون كثر . . . وعلى اية حال قد نقع في اخطاء جزئية مرحلية ، لكن المهم هو ان البادرة ككل ايجابية وهامة وضرورية ، وقد استطعنا تنفيذها » .

الفنان العربي . . . والسلطة

قد يكون من اهم منجزات « بينال » العراق هو تفجير الخلافات بين الفنانين والسلطة في مختلف الاقطار العربية ، وتحريك الماء الراكد بين بعض تجمعات الفنانين وبقية المبدعين « المستقلين » . . .

اعتقد بان « بينال » العراق ستكون له ذيول فنية في مختلف الاقطار العربية ، وسيؤدي الى نسف بعض الاتحادات او الى تقوية روابطها مع « المستقلين » ، حسب صلاحيتها للبقاء وامكانية اصلاحها او عزلها النهائي ـ وهذا امر جيد وضروري . واسوأ ما يمكن أن يحدث هو ان لا تتبدل الاشياء وان يتحجّر المبدعون و« بينال » العراق تجديد للدم الفني العربي وللصراع الفني العربي . . . والصراع دوما محفز ومنشط .

« بينال » عربي دائم

المهم ان يستمر هذا المهرجان الفني في السنوات المقبلة ، وان تتكامل هذه الظاهرة الايجابية التي تبناها العراق هذا العام ، وان يجد الفنان العربي دوما مكانا لائقا يضمه وناقدا يفهمه ومتفرجا يحبه . . . يدخل الى لوحاته ولا يخرج منها . . يسمع نبضها وصراخها ويشم رائحة عالمها . . .

فالدم في حاجة الى شريان . . .

واللوحة في حاجة الى جدار . . .

والفن العربي في حاجة الى « بينال » عربية دائمة .

برلين ٩/ ٣/ ٧٤

سمكة وحيدة

عالم ما تحت الماء هو الامل الـوحيد المتبقي للانسان .
« جول فيرن » .

ماذا تفعل حين تجد نفسك وحيدا في مدينة اوروبية ، وقد قذفت بك ظروف العمل في وسطها دون انذار ، وحيدا وحيدا مثل دمعة ؟ . .

ستفعل مثلي . . .

ستتسكع طويلا . ستمر بك الاف الوجوه التي لا تعرفها . ستحدق بك النوافذ المغلقة المعادية ، وستحس ان خلف كل نافذة عشرات الناس والحـكايا ولكنـك مرمـي خارجها . . . مقذوف عن مدارات اهلها ، واذا سقطت فجأة ميتا فلن يتوقف امامك احد غير السيارة التي تنوح وهي تكنس الموتى من الشوارع .

برلين . . .

وانا وحيدة كأمنية مستحيلة التحقيق .

سرت طويلا في الشوارع ، وكان المطر يجلد كل شيء . لم امر قط في برلين الا وكان المطر لي بالمرصاد ، واذا شاهدت هذه المدينة ذات مرة في اشعة الشمس فلن اعرفهـا ، ستبدو لي مثل مدينة جديدة ، مثل وجه لم اره قط الا عابسا يبسم لي للمرة الاولى .

برلين . . .

ها انا جالسة في المقهى اتظاهر بالانشغال عن وحشتي بتصليح عيار السكر في قدح قهوتي . . . الواجهات المزروعة في وسط الشارع تعرض مايوهـات الصيف ، ومشهـد المايوهات المصنوعة للشمس ، والمطر يغسلها والضباب يرتديها طريف !

تمر بي نساء غارقات في الضحك وكلابهن في ثياب ملونة مزركشة . برلين ، مدينة الكلاب والمظلات والرجال الشديدي الوسامة ، تمضي امام عيني وانـا عبثـا اتسـلل الى ايقاعها المرح . .

حينما اكون وحدي في مقهى تقفز ذاكرتي لتحتل المقعد المواجه لي وتنبش حساباتها معي . . . تنفجر اشياء العقل الباحث عن حقيقة ، والقلب الباحث عن حب . . .

واهرب الى الشارع يخترقني المطر ببطء ولكن باستمرار ، يستولي علي ببطء ولكن باستمرار ، الجلد اولا ثم اللحم فالعظم ثم يستولي تماما على دهاليز روحي . . .

واهرب . . .

اقرر ان اهرب الى عالم آخر . . . الى اي مكان ارفع فيه « كابلات » دماغي ، واغلق ادراج الذاكرة ، ومثل ملاح طموح متعب ارمي بمرساتي لانام استعدادا لرحيل اطول . .

اين اهرب الى غير اعماق البحر ؟ . اهجر عالمنا الارضي وامضي الى عالم تحت الماء المسحور ؟ . .

في برلين ، اكثر من اية مدينة اوروبية اخرى ، هذا متوفر بفضل « الاكواريوم » او مجموعتها المدهشة للاحياء المائية .

مدينة الاسماك

المفروض انني في حديقة حيوانات مختصة بالاحياء المائية « اكواريوم » .

لم اشعر بانني في حديقة حيوانات . . . فالمكان شبه مظلم ، وداخل احواض مائية تعوم الاسماك على مختلف انواعها بصمت مثير . واحسست انني اعوم مثلها في ظلام القاعة ، اتلصص عليها ولكنها هي ايضا تتأملني وتتلصص علي وتفعل ذلك مجانا ! داخل الاحواض المائية المضاءة والمدفأة تسبح مختلف انواع الاسماك بصمت رائع ، وفي عيونها سلام خرافي الهدوء ، وفي الخارج يقع عالم الضوضاء والكبار والصغارمن زوار المعرض . امشي واتأمل عظمة الطبيعة وتنوعها في تنوع الاسماك . . .

والاسماك كالبشر . . .

بعضها يشبه الخنازير ، وبعضها يشبه الفراش ، ملون وشفاف كاحلامنا عن الملائكة . . .

وداخل الاقفاص ، يدور ما يشبه مشاهد حياتنا : اسماك تتلاصق ، تتعانق ، يحب بعضها بعضا ، واخرى تتنافر ، تتصارع ، يسكنها الحقد والطمع . . . اتأمل قتال بعضها . . . فيه وضوح وصراحة ، ولا يشبه غدر البشر واتقانهم لذلك في حالات الصداقة ! .

وقبل ان اتابع جولتي في المكان المسحور ، جلست قرب احد المصابيح اقلب كراس المتحف والخص لكم اهم ما ورد فيه (بنظري !) :

يقول الكراس

« تم انشاء احواض السمك التابعة لحديقة الحيوان في برلين الغربية في شهر آب (اغسطس) من العام ١٩١٣ . وقد انشئت هذه الاحواض تحت اشراف خبير الاسماك وحيوانات البحر الدكتور العالم الفريد بريهم . وفي البداية كانت الاحواض تحتوي على اسماك مختلفة الانواع : ثعابين بحرية ، ضفادع وبعض انواع التماسيح . وكانت الاحواض تحتوي على نوعين من المياه ، اي مياه البحر المالحة والمياه العذبة ، كي تتمكن من العيش فيها مختلف انواع الحيوانات المائية وكانت المياه العذبة تضخ من مكان قريب منها بينما مياه البحر تنقل من مدينة هامبورغ الى برلين . وفي الواقع فقد كانت احواض السمك في حديقة برلين تحتوي على حوالى ٤٠٠ من انواع السمك والحيوانات البحرية ، وكانت بذلك من اهم احواض السمك في العالم كله . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، وفي يومي ٢٢ و ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ١٩٤٣ انهالت القنابل من طائرات الحلفاء على احواض السمك فتم تخريبها كليا (واستشهاد) جميع الحيوانات الموجودة فيها .

وبعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب بدأ العمل في تصميم جديد لاحواض السمك في حديقة حيوان برلين تحت اشراف خبراء اميركيين والمان . وفي العام ١٩٥٢ انتهى العمل في الاحواض الجديدة ، لكنها لم تكن تحتوي على اكثر من مئة نوع من الاسماك والحيوانات المائية . غير ان طموح المسؤولين في حديقة حيوان برلين لم يكتف بهذا الانجاز وكانت التحسينات التقنية والفنية تتم بصورة متواصلة في الاعوام التي تلت الافتتاح . وفي هذه الاعوام اقيمت مصاف ضخمة تستطيع ان تنقي كمية من مياه البحر والمياه العذبة مقدارها ٢٨٥ الف ليتر . كذلك اقيمت الات خاصة للتحكم بحرارة المياه و اكراما لعيون الحيوانات المائية الاستوائية والقطبية .

وبعد التحسينات المتواصلة اصبحت اليوم احواس السمك في حديقة حيوان برلين تحتوي على معظم انواع الحيوانات المائية ، ابتداء من السمك الصغير الحجم جدا وانتهاء بانواع الحيتان والتماسيح الكبيرة ويقدر عدد هذه الانواع بحوالي ١٤٠٠ نوع تعيش في ٤٤٠ حوضا مائيا مختلفا ، فلا تتأثر بذلك لكونها تعيش في اماكن واحواض مكيفة بالطرق الفنية حتى تشابه اماكن عيش هذه الحيوانات الاصلية . »

فلنغلق الكراس ، ولنتابع جولتنا في المكان معا . . . في الظلمة والدفء ، نسبح في جو الدهاليز كما تسبح احياء هذا المكان . . .

ها هي سمكة ملونة لها عين حقيقية في رأسها الذي يشبه المهماز ، وعين مزيفة في ذيلها العريض (طورتها الطبيعة بهذه الصورة كي تحار السمكة الكبيرة من اين تبتلعها واي الطرفين هو رأسها) .

وها هي السمكة « الانف » التي سميت هكذا لأن لرأسها شكل الانف البشري .

ها هي سمكة « الحصان » التي تسبح منتصبة كما يمشي الرجل وتفوح من مظهرها وحركتها الخرافية روائح اساطير الاغريق ومناخهم . . .

نقطع ممرا ،

وربما ننتقل طابقا ، ها هي عظاية شبيهة بأغوانة المكسيك وقد اشتق اسمها « بازليك » من اسم وحش اسطوري ناتج عن بيضة ديك حضنها ضفدع ! ثم عظاية اخرى تتبدل الوانها الزاهية وفق المحيط ويدعونها بالعامية « مخدة الحية » .

ها هو علجوم صغير جميل ولطيف تفرز حبيبات ظهره الملونة مادة سامة لدى الخطر .

الجو الأدبي ؟ . .

لسبب اجهله توقفت امام احد اقفاص الافاعي . . . كان فيه ما ذكرني بالجو الادبي في بلادي . . . افاع تتعانق تارة ، ثم يفح بعضها في وجه الاخر بحنق مرعب (ام تراهما يتغازلان بشكل فني ؟ !) ومع ذلك ففي القفص المجاور مجموعة من الافاعي والسلاحف معا ، يضمها « بيت » واحد ، ويبدو انها تتعايش معا بشكل جيد . متى يكتشف البشر لغتها فيتوصلوا الى بعض من التعايش السلمي حتى بين افراد المدينة الواحدة ؟!

هنالك ايضا مجموعة من السلاحف المتعايشة مع التماسيح . تأملتها طويلا وتساءلت : ترى هل سر سعادتها هو بلادة السلاحف وبطؤها؟ هل التناقض المطلق احيانا يوحد بين الناس ؟ . .

في القفص المجاور اسماك ضخمة وقد رمي اليها للتو بوجبتها . واتأمل وجبة طعامها واذا هي مؤلفة من الاسماك الكبيرة ! وبدأت الاسماك الكبيرة تأكل الاسماك الصغيرة ، تماما كما يحدث في عالمنا السياسي والبشري وحتى العاطفي . وبدأت الذاكرة تعود الى فعاليتها في دماغي وتفتح كل نوافذها لتطل منها وجوه ووجوه ، احداث واوجاع سياسية عامة وفردية خاصة . . .

السمك الكبير يلتهم الصغير !

في قفص قريب ارى الافا من الاسماك الصغيرة الصغيرة التي تكاد واحدتها تعادل

رأس الدبوس . . . اتأملها جيداً : كل سمكة منها كوكب قائم بذاته . . كون من الفرادة والالوان والحركة المميزة . . اولئك هم الناس العاديون ، ملح البشر ، لا شيء فيهم عاديا سوى كثرتهم ، وكل منهم رائع ومتفرد بلا ضجة ولا اعلانات ولا استعراضات (اولئك هم احبابي) .

ها انا امام غابة ضخمة استوائية مسورة بالزجاج ، وفي الداخل تفور تماسيح مرعبة ومن الزجاج تفوح الحرارة . تمساح يقترب من الزجاج الذي يفصل بيننا ، يتأملني ثم يفتح شدقيه مبتسما لي بود ، وانا ارد تحيته بمثلها ويضحك مني الاوروبيون ! . .

هنالك اقفاص ومشاهد تدور فيها مشاهد نادرة من الحب ومشاهد هائلة من العنف ، يزعق امامها حتى الاوروبيون الكبار (كما لو ان ما يدور خارج « الاكواريوم » اقل عنفا ! كأن الحيوان هو وحده الحيوان . . . اما نحن . . يا نحن ! . .)

عالم الماء أجمل من عالم التراب

بعد الطابق الاول المخصص للاسماك المختلفة والساحر الظلمة والصمت ، وبعد الطابق الثاني حيث الغابات الاستوائية ، انتقل الى الطابق الثالث حيث الحشرات .

والحشرات بشعة . . .

عالمها مرعب . صراصير الكونغو وحشرات تونس تفور في اقفاصها ، والعقارب والرتيلاء وام ٤٤ والعناكب والجراد الافريقي كلها يقذف بك الى عالم صحراوي الرعب والقسوة والافتراس . وتحس حلقك جافا وقلبك شديد الوحشة كأنك يتيم حتى من « الام السراب » ! تقارن بين حشرات افريقيا واوروبا ، فتجد الافريقية تمتاز عن الاوروبية بالوضوح . . . ابرتها اللاسعة اكثر وضوحا واكثر بروزاً ، سوداء اللون بلا « كاموفلاج » ولا اقنعة . الحشرة الاوروبية الوانها اقل تخويفا لكنها غادرة وتتقن اخفاء اسلحتها . . .

ولكنك تحس بالحنين الى عالم ما تحت الماء . . . فالاسماك اجمل من الحشرات وعالمها اكثر مهابة . . . عالم ما تحت الماء مسحور ومدهش لا كعالم ما فوق التراب . . وتتذكر بغصة حكاية العبقري جول فيرن في قصته « الجزيرة الغامضة » حين قال على لسان بطله : « عالم ما تحت الماء هو الامل الوحيد الباقي للانسان » ، وتشعر بحنين للرحيل الى رحم الماء اللزج الدافىء الذي عرفناه ذات يوم قبل ان يقذف بنا الى وجه التراب ، بعيدا عن الفرح الى الابد . .

يضيق صدري واهرب من جديد الى مدينة الاسماك . . . ادور بينها . . .

لبعضها شوارب وزعانف ملونة كأنها ترتدي قمصانا مزخرفة وكأن كل ما يفعله

الانسان هو ان يقلد الحيوان .

واتأمل وجوه الاسماك واجسادها وارى فيها وجوه اصدقائي واعدائي وكل معارفي : خنازير وفراشات . وجوه غاضبة . ووجوه متسامحة . وجوه خبيثة . شرسة . بريئة . لئيمة . اجتماعية . برية . ووجوه ووجوه . . واحس بانني لم اسافر ، ولم ارحل ، ولم ادخل الى مدينة الاسماك وانما دخلت الى مدينة والتقيت فيها كل الذين التقيت بهم على طول ايامي وعرضها . . .

اين انا ؟ ايهم انا ؟ . .

اخرج من حقيبتي مرآتي ، وحين انظر فيها ارى وجه سمكة وحيدة ! . .

برلين ١١/ ٣/ ٧٤

ولو فتشوا رأسي لصادروه

برلين الغربية .

السادسة والنصف من صباح الاحد ، وانا اتجه الى مطار « تمبلهوف » والنعاس ما يزال يمتلكني . . . حتى زخات المطر عبر نافذة التاكسي المفتوحة لم تفلح في ايقاظي . . .

كانت ساعاتي في برلين حلما سريعا ، ولم اكن انوي ان اصحو منها بسرعة . . . كنت في طريقي الى فرانكفورت . . . فلماذا لا يستمر الحلم خلال فترة الطيران القصيرة بين برلين وفرانكفورت ؟

وفي ذلك الصباح المبكر بدا كل شيء وديا واليفا . . . الوردة البرية التي قدمها لي صبي المصعد في فندق « كمبينسكي » مودعا ، رائحة تبغ السائق ، وابتسامة الحمال ، وترحيب موظف شركة الطيران بزبونة الصباح الأولى في المطار. . . وتلفت حولي . كان استرخاء عام يلف جو المطار في تلك الساعة المبكرة ، والتثاؤب المرتسم على الافواه يجعل كل شيء مطمئنا بعيدا عن التوتر الاوروبي المشهور . . .

ولكن ،

حين تناول موظف « بان اميركان » جواز سفري ، وقرأ انني عربية لبنانية قطع تثاؤبه ، وبدا عليه انه استيقظ تماما . وحين قرأ انني من مواليد دمشق ، وسورية الجنسية قبل زواجي ، جحظت عيناه واستيقظ الهاتف الموضوع امامه كما لو كان اسم سورية اصبع ديناميت مشتعل الفتيل ! ونطق ببعض كلمات بالالمانية التي اجهلها ، وكانت له لهجة انسان يبلغ عن وقوع حريق او لهجة شخص يتسلق شرفته رجل ملثم ! . . وكما لو انفجرت قنبلة توتر في المكان ، انطلقت كهارب التوتر من الذين حولي . . . وبلمح البرق احاط بي عملاقان جرمانيان بملابس مدنية ، تنبيء عضلاتهما المفتولة عن طبيعة مهنتهما ، وانقض الاول على حقيبتي واوراقي وآلة تصويري لتفتيشهما بينما تولى الآخر حراستي ! . . وانصبت العيون كلها على شعري الاسود وبشرتي السمراء التي تعلن هويتي « العربية » ، ترقبني بفضول وتحفز . . .

وحدث ذلك كله بسرعة تكنولوجية مدهشة ، وتهذيب بارد .

وتحول نعاسي كله الى دهشة . اجل دهشة . وبكل بساطة ، اخرجت المرآة من حقيبتي لأتأمل وجهي . . . هل فيه ما يستدعي هذا « الاستفسار » ؟ ! . لم تكن لي اية اسنان طويلة متدلية كمصاصي الدماء ، ولا مخالب ، ولم اكن اعقد شعري بعظمة بشرية كما يفعل آكلو لحوم البشر ، ولم اشاهد في المرآة سوى وجه كملايين الوجوه العربية السمر . . . ولعل الشرطي اعتبر اخراج المرآة في مثل هذا الموقف نوعا من الاستخفاف بحضورة وبرودا لا يليق بالواقفين بين يديه ، لذا تقدم مني لتفتيش حقيبتي اليدوية . . . وكان فيها القلم الذي اكتب الآن به (اصبع ديناميتي الخاص) ولكنه لم يلحظه ولم يصادره ! . . وكان فيها بطاقتي الصحافية ولم يلحظها .

وبالتهذيب نفسه ، اخذ احدهم جواز سفري ومضى به الى غرفة ما . . . لقد فتشوا حقيبتي ولم يجدوا فيها شيئا ، لكنهم لم يفتشوا رأسي . (ولو فعلوا لصادروه فورا) . وعاد الرجل بعد دقائق بجواز سفري واعاده الي بكل لطف . . . وما كادا ينسحبان حتى جاء رجل شرطة ، بالملابس الرسمية هذه المرة ، طالبا ايضا جواز سفري . . . ومضى به الى غرفة تعج برجال الشرطة . . .

وشعرت بالفرح . . . بفرح حقيقي طاغ ! ... لقد تجولت في اوروبا بعد هزيمة ١٩٦٧ طويلا ، وكنت اشعر في المطارات بخجل عظيم حينما يفتح موظف الامن جواز سفري ليجد انني عربية ، ويتم ختمه بلامبالاة ودون اهتمام ، كما لو كنا ذبابا يعبر الحدود . . . بل كان بعضهم يتعمد تذكيري بهزيمة اسرائيل لنا في ستة ايام ، وكان من الصعب ان اقول له في تلك الظروف ان الشعب العربي لم يحارب يومئذ اصلا كي يهزم ! . .

وها هو أي جواز سفر عربي اليوم كفيل باثارة التوتر في اي مطار غربي . . . واخذت اروح جيئة وذهابا امام باب غرفة الشرطة ، والشرطة في الداخل ، وجواز سفري معهم ، وتلفونات تقرع واخرى تصمت ، وكانت ابتسامة عريضة تملأ وجهي . . ابتسامة فخر وفرح . . . (ربما كانوا يظنونني اخفي بابتسامي خطة جهنمية لخطف طائرة مثلا ، فازدادت شكوكهم وتحرياتهم . ربما ظنوا برودي هذا ستاراً من قوة الاعصاب ، ولكن كيف اشرح لهم انني كنت سعيدة حقا لمعاملتهم هذه وفخورة بها) ؟ ! .

وحتى حينما بدأت حفلة التفتيش او (الستربتيز الرسمي) قبل الصعود الى الطائرة ، لم يضايقني ان الشرطية الموكل اليها امر ذلك اخذت توقيع (اوتوغراف) كاتبة المانية كانت تقف امامي ، دون ان تفتشها ، لكنها حرصت على تفتيشي باتقان بحفلة

تعرية (ستربتيز) شبه كاملة ! . .

وحتى لحظة الصعود الى الطائرة ظلت « عين حارسة » ترصدني . . كنت ابدو فرحة اكثر من اللازم ، مثل شخص نجح في تهريب سلاح فتاك ، وكانوا بطريقة ما على حق . . . فقد كنت عربية نجحت رغم سنوات من القهر والتشكيك والاذلال في « تهريب » شعورها بالعزة والكرامة ، والمحافظة على ثقتها بنفسها وبشعبها العربي العظيم . . .

ذلك هو السلاح الذي استطعنا تهريبه من بين ايدي الجميع . . . انه سلاح الشعب العربي كله ، سلاح العزل وغير العزل . . . سلاح الايمان بامكانات الشعب العربي .

وشكرا برلين لوعيك بوجود هذا السلاح . . . وشكرا لتذكيرنا به حتى في لحظات النعاس الصباحية . . . وشكرا لذاكرتي السيئة . . . فلولاها لتذكرت شراء مسدس - لعبة من البلاستيك - لطفلي (اوصاني به قبل سفري بكل ما في اعوامه الثلاثة من قدرة على الاصرار) ، ولو فعلت لوجدت نفسي في ورطة حقيقية . . .

اذ يبدو ان المسدس في يد دمشقية حدث خطير في مطارات اوروبا !! . . . حتى ولو كان مسدس اطفال !

فرانكفورت ١/ ٧/ ٧٤

في البيت بيت لا أكثر، وفي القلب غوته

استقبلتني فرانكفورت بشمس ودية كأنها تستغفرني عن امطار برلين وكآبتها . .
كانت خلابة وهي تغسل الاشجار والمساحات الخضر الشاسعة بين المطار والمدينة . . .

ها هي فرانكفورت صباح ذلك الاحد المشمس،وديعة كشاب وسيم نصف نائم على ذراعي . اجراس الكنائس تمتزج مع اصوات الاطفال في كورس الحياة المعافاة، ويدهشك ان الحرب مرت ذات يوم من هنا ، اجمل ما في فرانكفورت ابنيتها العتيقة الجرمانية التي حافظت على نفسها رغم الحرب ، ورغم بشاعة ناطحات السحاب الاميركية التي تقوم الى جانبها . . وإذا كانت القنابل الاميركية قد دمرت عددا كبيرا من بيوت العالم المعاصر وخلفتها اطلالا بشعة ، فان الذوق الهندسي الاميركي تكفل ببناء بشاعاته العصرية التي لا عراقة فيها ولا تراث ، وبدت ناطحات سحابه قرب العراقة الجرمانية مثل ديناصور خرافي بشع من الحديد والاسمنت ! . .

محطة فرانكفورت

لا يمر احد بفرانكفورت دون ان يلحظ محطتها المشهورة . . . في مقهى مجاور جلست ، وفي لحظة مفاجئة تذكرت ان فرانكفورت كانت اول مدينة اوروبية ازورها في حياتي . كانت محطتي الاولى الى عمر من الرحيل واكتشاف المجهول والشهية الى المعرفة . وها انا اعود بعد عشر سنوات . . . وخلف زجاج المقهى لم اعد ارى المارة ، وانما مرت امام عيني سنواتي العشر المجنونة من الركض في العالم ، والاشياء الكثيرة الرائعة التي عرفتها ـ الضحكات والغصات ايضا ـ مرت امامي وجوه الكثيرين ممن عبروا ايامي في السنوات العشر الماضية ، وسمعت صدى صوت فيروز يصرخ في المدى « وينن . . وينن وين وجوهن . . . وين صواتن . . . صار في وادي بيني وبينن . . . وينن ؟ » ولم احزن انما شعرت بغبطة عظيمة . لقد عشت ذلك كله . امتلكته بكل متعاته واوجاعه ، واستطعت ان استمر . وها انا اجلس بعد عشرة اعوام من مغادرتي لبيتي الوديع (مغارة الياسمين) في دمشق ، وفي قلبي لا تزال تشتعل تلك النار المتعطشة ابدا لاكتشاف المزيد والمعرفة

والركض فوق الجسور من عالم الى اخر ، ومن مرحلة الى اخرى . . .

بهذا الشعور بالغبطة تجولت في فرانكفورت ، وبهذا الشعور بالانتاء الى كل ما ارتكبته في الماضي (والمستقبل) من نجاح او اثام وجدتني اذهب لزيارة صديق فنان عظيم كانت زيارته اول شيء فعلته في فرانكفورت منذ عشرة اعوام . . . واليوم ايضا .

غوتــه الخالــد

صديقي يسكن في الجزء القديم العريق من فرانكفورت . فقد ولد عام ١٧٤٩ . بيته جميل وفيه مكتبة كبيرة . نسيت ان اذكر لكم اسمه : انه وولفجانغ غوته . لا يمكن الا ان تكونوا قد سمعتم به .

عمره : ربما الى الابد . سيظل غوته حيا في خاطر البشر ما دام هنالك انسان واحد يقرأه ويتذوقه . . .

تعرف الموسوعة البريطانية غوته بأنه احد عمالقة الادب العالمي ، وآخر اوروبي من شخصيات « الرينيسانس » (عصر النهضة) حين كانت للمفكر شخصية انسانية وفعاليات فكرية متعددة .

وغوته بالنسبة الى الالمان كشكسبير بالنسبة الى الانكليز ، وهو في نظر كل المثقفين كاتب عظيم وشاعر مرهف ، لا ينسى . . . كان ناقدا وصحافيا ورساما ورجل دولة ومدير مسرح وفيلسوفا .

ضخامة نتاجه تلفت النظر . كتاباته حول العلم تقع وحدها في ١٤ مجلدا . تنوع اعماله ثري الى حد المعجزة ، ثم ان عمله الشعري الملحمي المسرحي « فاوست » يعتبر من معجزات الادب . . .

ستقولون لي : « حسنا ، انه فنان عظيم ، ولكن لماذا تأخذيننا لزيارته ، او بالحري لزيارة البيت الذي ولد وعاش فيه ما دام هو قد مات عام ١٨٣٢ ؟ ! »

« وما حب الديار شغلن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا! »

وكما كان الاعرابي يقف على اطلال الحبيبة ، اذهب انا العربية المتحدرة من نسل الاعرابي لاقف على أطلال أحب الشخصيات الادبية الى قلبي ، غوته ، (ألا تذهب مرات الى أماكن حبك الاولى ؟!) وأفاجأ بأن عادة الوقوف على الاطلال العربية القديمة قد انتقلت الى العالم المعاصر ، فالمكان مزدحم بالزوار وبينهم وجوه من العالم الصيني

والياباني . واطلال غوته ليست اطلالا بل هي بيت من عدة طبقات ، جميل ومرتب ، حولته السلطات الى متحف ومحجة لكل عاشق لابداع غوته .

صديقي اللبناني ذهب بي الى بيت غوته دونما أية صعوبة . كان كمن ألف الدرب اليه ، وفي وسعه ان يقود سيارته الى هناك حتى ولو كان ثملا او معصوب العينين . وسألته مسرورة بالتقائنا الفكري : « هل تحب غوته الى هذا الحد ؟ » ولم يجب وانما ضحكت عيناه ، وحين وصلنا الى بيت غوته لاحظت وجود مقهى ليلي كبير على الرصيف المقابل تماما . غوته على رصيف والكاباريه على الرصيف الآخر ! والتقت عيناي بعيني صديقي وانفجرنا نضحك . فقد ادركت سر معرفته العظيمة بموقع بيت غوته ! وهكذا يفصل الشارع بين عالمين لكل منهما رعاياه . ويخطىء من يظنهما منفصلين تمام الانفصال ، فقد كانت اول امرأة احبها غوته فتاة بار ، ولعل روحه ترفرف كل ليلة من غرفة مكتبه الى الرصيف الثاني حيث البار ، فتبارك فتيات الليل كلهن لاجل محبوبته الاولى !

قبل ان نتجول في الدار احدثكم بايجاز شديد (قدر الامكان) عن غوته .

استطيع مثلا ان الخص قصة حياته بقولي : ولد ، وتعذب ، ومات .

فالى ايجاز اقل ايجازا :

عاش غوته ٨٢ سنة مليئة بالعطاء . اكسبته الحياة حكمة فغدا كأرباب الاغريق ولكنه ظل حتى نهاية حياته ـ مثلهم ـ قادرا على ان يهزه الحب والحزن حتى اعمق جذوره .

حياته كانت منظمة ، اي فيها روتين يحميه من الفوضى . اعظم ما انتجه هو ملحمته الشعرية المسرحية « فاوست » التي اخذت منه ٤٠ سنة من العمل الدائب فاستطاع ان ينهيها قبل موته بأشهر ، كأنه كان يدري انه لم يبق وقت .

« فاوست » اسطورة اوروبية قديمة تناولها اكثر من مبدع ،مثل مارلو البريطاني، وهي تروي حكاية انسان باع حياته للشيطان وكتب له صكا بدمه مقابل ان يمتلك كل ما يشاء في العالم من معرفة وقوة وشباب ابدي .

كانت رؤ يا غوته للمرأة رؤ يا معاصرة . كان يرى في المرأة ندا للرجل ومحركا للحياة والحضارة ومركزا لاسمى ما في الانسانية الخلاقة من روح وفكر . . .

ككل الفنانين احب امرأة متزوجة (!) وكتب لها حوالى ١٥٠٠ رسالة (لعل الفنانين يعشقون الحب المستحيل كي تظل استحالته محركا لابداعهم كسكين في القلب !) ككل الناس تزوج وانجب ومات بعض اولاده وترمل ثم مات هو شخصيا . ذلك كله لا يهم الا بقدر تأثيره في نتاجه . . .

ومن هنا اني اعتبر مرضه عام ١٧٦٨ ، اثر عودته من ليبزيغ ، اهم من زواجه مثلا . ففي ذلك العام مرت به عاصفة نفسية من الكآبة والمرض والغـم ، فانـكب على دراسة السحر والكيمياء السحرية والفلكية وفلسفة ما وراء الطبيعة واستحضار الارواح . وظهر اثـر تلك المرحلـة واضحـا ورائعـا في « فاوسـت » : مشهـد استحضـار فاوسـت للشيطان ، مشهد ليلة اجتماع الساحرات على قمة الجبل وغيرها . . .

صداقته الحميمة مع شيللر كان لها اثر مهم في نتاجه ، بل وكان لها اثر في دفعه الى اكمال عمله الخالد « فاوست » (صداقات اهل الفكر معدومة لدينا فاذا وجدت فان كلا منا يستعملها معولا لتدمير صاحبه !)

و « فاوست » عمل غير مشهور جدا في بلادنا . فأكثرنا قد قرأ لغوته « آلام فرتر » وبكى لها في مراهقته ، لكن اعظم نتاجه غير مترجم على حد علمي ، وارجو ان اكون مخطئة . (ايها القراء ، ان كان بينكم من قرأ ترجمـة عربية لـ « فاوسـت » فليصحـح لي معلوماتي .)

بيت غوته ككل البيوت ، لكن صاحبه لم يكن رجلا ككل الرجال . فابداعه شمل كل المجالات ، حتى علم النبات . وكتابه « محاولة لتفسير تحولات النباتات » ذو قيمة لا لخطورة اكتشافاته العلمية ولكن لدراساته حول « التفكير العلمي » ، وكيفية ممارستـه ، وضرورة توحيد « معرفة الذات » مع « معرفة العالم الخارجي » . وابحاثه حول الضوء والفيزياء تثير الاهتمام أيضا (هكذا يقولون لانني لم اقرأها ولا أفهـم في الفيزياء ولا في الضوء كظاهرة علمية !) .

وتلفت النظر ايضا كتاباته الموسيقية الرائعة ، وازدياد اهتمامه بالموسيقى كلما تكاثرت عليه الاحزان . وقد كتب احدى مقطوعات موزار الموسيقية شعرا ، وقال ان موزار هو المثالي لتحويل « فاوست » الى موسيقى .

(لو استطعت ايصال صوتي اليه ، لنصحته ببيتهوفن بدلا من موزار . بيتهوفن هو الاعظم وربما الوحيد القادر على تحويل « فاوست » الى موسيقى) .

كل هذه الخواطر هاجمتني وأنا أخطو عتبة بيت غوته . قاطع البطاقات أعادني الى عالم المادة الذي يقطع استغراق الزائر في دنيا أحلامه . الوقوف على الاطـلال على الطريقـة العربية اكثر صدقا ومهابة . عندنا صوت الريح هو قاطع التذاكر ، وأشباح الماضي هي الدليل . . . تذكرة الدخول في يدي لفتت نظري الى الصيغ الرسمية للاشياء ، فتذكرت ان غوته كان محاميا وعاش في (فايمار) مقربا من الحكام ومستشارا . وتضايقت .

أطوف بالدار . . .

أقف أمام مرآة تعود بتاريخها الى القرن السابع عشر. في هذه المرآة حيث يرتسم وجهي طالما ارتسم وجه غوته ! وأحرك وجهي فوق صفحة المرآة كلها ، فينتابني احساس مثير باللقاء الغامض ، وأتذكر ان غوته كان يكره هذه المرآة (كما في مذكرات الذين حوله) . ذهب وجهه وبقيت المرآة

(ترى هل تسكن داخل المرايا كل الوجوه التي وقفت أمامها ؟ سأحمل معي حين أرحل مرآة حبيبي ، فقد يظل وجهه سجينا داخلها !)

بعض الاثاث يعود بعصره الى أيام غوته ومنه ما لا يزال يحمل بصمات الكاتب أو ذكرى بصماته ، ومنه ما هو تقدمة من الاسرة التي شغلته بعد أسرة غوته وقبل استعادة السلطات للدار لتحويلها الى متحف .

حكاية حياة الفنان ، كما نعرفها ، هي كمحتويات هذه الدار . بعضها له وبعضها اضافات خارجية .

وحقيقة الفنان الوحيدة الممكن الاعتماد عليها هي نتاجه . . .

أقف أمام البئر التي حفرها والد غوته يوم مولده . . . ما يزال الماء في البئر ، كعطاء لاينضب. هنالك أيضا شجرة الحامض التي زرعها الوالد في عيد ميلاد الابن غوته في حديقة الفناء عام ١٨٢٥ . لا تزال الشجرة خضراء تنمو وتكبر كعطاء غوته .

في البيت لوحات . في البيت مطبخ . في البيت جدران . في البيت بيت لا أكثر ، وفي القلب غوته وفي الذاكرة وفي الكتب . . . وكل ما تفعله الزيارة هي انها تنعش الذاكرة وتحرض الانسان على العودة الى نتاج ذلك المبدع .

وأغادر الدار وعيوني معلقة على مكتبة غوته وخيل الي انها المكتبة نفسها التي وصفها في كتابه « فاوست » والتي دارت فيها أحداث طرد الشيطان واستحضاره . ترى الى أي حد يدخل الديكور الفعلي للفنان ديكورا لاحداث أبطاله ؟ . .

نغادر الدار ، وحين يدعوني صديقي الى زيارة « البيت » المقابل لغوته ، ذي الدوام الليلي ، أقبل ، فأنا أنتمي الى عالم الضفتين ، الفن والحياة معا .

لندن ٥/ ٨/ ٧٤

شجرة الملكة ليست ملكة الشجر !

حملة شديدة في لندن ضد التدخين تستخدم فيها ملصقات مختلفة ذكية وطريفة ، منها مثلا صورة طفل بريء وتحتها تعليق : « كم سيجارة يدخن ابنك في اليوم » ؟ ! .

ملصق اخر لرجل حامل وتحتها تعليق : « هل كنت تصير اكثر حذرا لو كنت انت الذي سيحمل الاطفال » ؟ ! .

والغريب انه كان لهذه الملصقات تأثير عكسي تماما علي . فأنا قلما ادخن عادة ، ولكنني صرت كلما شاهدت أحد هذه الملصقات ضد التدخين اجد يدي قد امتدت بحركة لا شعورية الى علبة سجائري ! . . ونتيجة لتأثير هذه الملصقات ازداد تدخيني في لندن حتى الضعف . وابتعت ذات يوم علبة سجائر انكليزية ، وفوجئت بأن السلطات أرغمت الشركة على طبع العبارة التالية فوق العلبة : « تحذير : التدخين قد يضر بصحتك » ! . ويومها لاحظت انني دخنت العلبة بأكملها دفعة واحدة . وصرت اختار شراء علب السجائر التي تحمل هذا التحذير ! . .

ان على علماء النفس الذين يفتون باستخدام قوى الزجر ان يفكروا بردات الفعل العكسية التي قد تتفجر من الطبيعة البشرية . .

مثال اخر : حين كانت تجارة الخمور محرمة في أميركا كان أصحابها يجنون ارباحا هائلة ، ولكن حين سمح ببيع الخمور هبطت نسبة المبيع ! كأن الناس لا يعشقون الاشياء فحسب ، بل ويعشقون صعوبة الحصول عليها او الخطر الكامن فيها . فكلما ازداد الخطر استيقظت في الانسان غريزة المغامرة وشهية التجربة .

ويبدو ان القوى الزاجرة ليست دوما الحل الامثل ، بل انها احيانا تلعب دور المحرض الاساسي والاغراء الاضافي في مجال المحرمات . . .

ونحن العرب نميل بصورة عامة الى تبني سياسة المنع والزجر . . . ويخيل الي ان مزيدا من الحرية في كل المجالات اقل ايذاء من مزيد من الكبت . وهذا الكلام لا ينطبق

على موضوع المشروبات والتدخين ، بأنواعها ، بل على بقية الحريات الاشد اهمية ، من سياسية وفكرية وحتى عاطفية . . .

وربما لذلك كان الحب المستحيل هو اعنف انواع الحب واشرسها لدى العرب قبل غيرهم من الشعوب !

* * *

■ الصفحات الاولى في الجرائد اللندنية مكرسة اليوم للحديث عن العالم الذري الروسي الكبير زاخاروف ، وذلك بمناسبة الخلاف بينه وبين سلطات بلده . للمرة الثانية خلال أشهر تفرد « الصنداي تايمز » صفحاتها للتركيز على خلاف عبقرية روسية مع حكام بلدها ، وكما اتخذت من سولجنتسين ذات يوم ذريعة لابراز « الظلم » في روسيا تتخذ اليوم من زاخاروف مادة لذلك .

الغريب في الامر ان الصحافة الانكليزية ، بصورة عامة ، راقية وذكية ، والمفروض ان لا تقع في هذا المطب التقليدي حول اسطورة الستار الحديدي والقهر في روسيا . . .

فلم يعد سرا ان الحرية التي قد تكون (او لا تكون) مفقودة في روسيا ، ليست على اية حال من نباتات البلاد الرأسمالية ، ولم يعد هناك في عصرنا من يتوهم ان الغرب الرأسمالي هو بلد حرية الفرد ونقيض «الاستبداد» الروسي . . .

هذه الصورة التقليدية الخاطئة صارت من مخلفات الماضي ، وقد استطاع السينمائيون والروائيون والفنانون الاحرار في اوروبا وامريكا فضح انظمتهم وكشف الوسائل « الراقية » التي تمارس هناك في كبت حريات المواطنين . فالحرية ، في نظري ، لا تزال مواطنا سائحا يبحث عن جنسية في عصرنا الشرس ، والانسان في كل مكان لا يزال يناضل من أجل حريته . وأما تمثال الحرية في نيويورك ، فان الدماء تقطر من أصابعه ليلا ويمسحها عمال التنظيفات سراً مع الفجر .

* * *

■ في حديقة « ريجنت » في لندن ، المسكونة بكافة أنواع الازهار والاشجار العملاقة ، لفتت نظري شجرة نحيلة ضعيفة الصحة والبنية ، وقد افرد لها مكان خاص فلم تزرع في دائرة قطرها مئة متر أية شجرة اخرى ، لتأمين الشمس لها . وامام الشجرة حجر كشاهد القبر . . .

أثارت الشجرة فضولي ، فتقدمت منها وقرأت على الحجر : شجرة التوليب هذه زرعتها صاحبة الجلالة الملكة ماري عام ١٩٣٧ بمناسبة التتويج ! . .

كانت هذه الشجرة الملكية هزيلة بالقياس الى بقية الاشجار التي زرعها البستاني والفلاح العادي . كأن الطبيعة ارادت ان تلقن البشر درسا . . . كأنها تصرخ في الجميع : « شجرة الملكة ليست بالضرورة ملكة الشجر ! »

لندن ٥/ ٨/ ١٩٧٤

كيف تصبح مليونيراً ـ بقلم مفلسة . . .

شاهدتهم للمرة الاولى من نافذة السيارة التي اقلتني من مطار « هيثرو » الى لندن .

كانوا مجموعة من الشبان والفتيات يرقصون على الرصيف . الشبان حليقو الرأس تماما الا من خصلة تترية تتدلى من مؤخرة الرأس وقد ربطت كذيل حصان . وعلى وجوههم أصباغ ملونة وهم لا يرتدون الثياب الاوروبية وانما يلتفون بساري هندي . يقرعون الطبول ويغنون ويقفزون فوق الرصيف راقصين في ايقاع مجنون . . .

ظننتهم مجموعة من « هيبيي » لندن الذين سئموا الشعر الطويل وقرروا التجديد بحلاقة الشعر تماما . الشيء ثم نقيضه . امر عادي لا يستدعي التأمل . . .

وذلك المساء نسيتهم تماما . . .

ولكن المصادفات شاءت ان ترمي بي في طريقهم . . . ففي اليوم التالي، بينما كنت عائدة من المتحف البريطاني الى فندقي « بونيغتون » في شارع « شاوثمبتون رو » فوجئت بالمجموعة نفسها (ربما سواها ولكن بالازياء نفسها والطبول والدفوف والرؤوس الحليقة) تخرج من أحد البيوت القريبة من فندقي . وقرأت فوق البيت لافتة « معبد كريشنا » . وصرت احوم حولهم ثم عدت الى فندقي . وفي اليوم التالي تكرر الامر نفسه . وكذلك في اليوم الثالث ! واقتربت منهم وظللت أحوم حولهم وأحوم ، وانصت الى ما يقوله شاب رقيق الوجه بينهم لاحظ اشتعال الفضول في وجهي فقال لي بعذوبة ، وقد فتح الباب لي : « أراك تحومين هنا كثيرا ، هل تحبين الدخول ؟ . . . » ولما كنت اجهل كل شيء عما تخفيه الجدران ، واسمع القصص الكثيرة عن عبادات مختلفة تقدم ذبائح بشرية وطقوسا دموية ، ازداد فضولي ـ الذي أعجز دوما عن مقاومته ـ فدخلت ! . . . قال لي : « اخلعي حذاءك وادخلي حافية . »

وفعلت . . . وتذكرت عبارة دانتي المكتوبة على باب الجحيم في رائعته « الفردوس المفقود » والتي يقول فيها : « أنت يا من تدخل الى هذا المكان ، تخل عن كل أمل ورجاء ! » دخلت وكلي أمل في اكتشاف المزيد من أسرار هذا العالم المذهل بتنوعه وخصبه بالغرائب !

■ داخل معبد كريشنا ■

بعد ممشى قصير وضيق ، وجدت نفسي داخل غرفة واسعة أرضها مفروشة بالمطاط كي لا يسمع فيها حتى وقع الاقدام العارية . لا أثاث فيها وانما مجموعة من الرجال والفتيات في ملابسهم الغريبة تلك . كانت النوافذ محكمة الاغلاق والستائر مسدلة ، ورغم الاضاءة القوية من « نيون » متعدد الالوان غمرني شعور من هو داخل نفق . . . لم تكن في الغرفة اية مقاعد سوى مقعد كبير جدا تجلس عليه « صورة » رجل هندي ، والكل جلوس على الأرض . . . وفي الناحية المقابلة للمقعد «الصورة» كان هنالك مشهد مثير : دمية كبيرة مزينة بالزهور والثياب المزركشة ، وحولها مجموعة اخرى من الدمى الجميلة الانيقة جالسة في محفل مزين بالذهب والازهار ، شديد الاضاءة تماما كما العروس في اعراسنا الدمشقية (تجلس فوق الاسكي) . . . وجلست على الارض كالباقين ، وتركت رائحة البخور التي تملأ المكان تستولي علي وتخدر رغبتي المفاجئة في الهرب . ودخل بعدي شابان ركعا امام الدمى وسجدا ثم اتخذا لهما مجلسا على الارض . وبدأ أحد الشبان يقرأ من كتاب مفتوح امامه تعاليم دينية تحرض على رفض الحياة المادية الدنيوية وعلى عبادة كريشنا . . . وشعرت بانني في حلم غريب ! كان من الصعب ان أصدق ان هذا يحدث في قلب لندن في القرن العشرين ! والتفت الى صديقي « الكريشناوي » لاطلب منه الخروج ، ففوجئت به في شبه غيبوبة ومن وجهه تفيض امارات السعادة والبشر . . . كان شابا صغيرا لا يتجاوز العشرين من عمره ، وديع الملامح رقيقا ، ولا ادري لماذا وجدتني افكر في أمه في أسى (ترى هل تعرف اين هو ، ام تراها تبكي هذه اللحظة اختفاءه ؟ !)

وكان صوت « المعلم » يأتيني بلكنة هندية ، وبصوت يعلو وينخفض (ام تراني شعرت بالدوار ؟ !) وكان لا يقطعه الا صوت طنين نحلة عملاقة . والتفت فوجدت ان صوت النحلة هو صوت شاب الى جانبي يتلو صلاته باستمرار مثل طنين نحله . وعرفت فيما بعد انه يقول باستمرار : « انا سعيد . انا سعيد سعادة ازلية . هارا كريشنا . هارا كريشنا . هارا راما . هارا راما . هارا راما » على اعتبار ان ترداد هذه الالفاظ السحرية يسبب السعادة !

وتابع المعلم درسه : ان مأساة عالمنا هي في الركض خلف الاشياء المادية . ان تعاسة البشر سببها بعدهم عن الله والمحبة . . .

كان كلامه جميلا . كلام تردده الاديان كلها . على اني لم اجد مبررا للوثن الساذج

الذي كانوا يركعون أمامه كالاطفال .

وانتهزت فرصة صمت المعلم لرشف الماء ، وايقظت صديقي « الكريشناوي » من « سعادته الازلية » لانني أريد العودة الى « فندقي الفاني » .

ودعني الى الباب وسألني : هل انت سائحة او صحافية ؟

وكذبت . قلت له : لا . انا مقيمة واعمل في لندن . (ليست كذبة كبيرة لاني كنت فعلا كذلك منذ اعوام .)

سألني : هل انت تعيسة تبحثين عن خلاص ؟ قلت له : نعم . (ولم اكن اكذب هذه المرة ، وان كنت واثقة من ان خلاصي ليس عندهم .)

قال لي : « تعالي معي ! . . . »

جرني من يدي ببراءة مؤمن يريد انقاذ كافر من جحيمه ، وأعطاني مجموعة من الكتب والكراسات . وقال لي : « اقرأيها في الليل ثم تعالي غدا في موعد الصلاة ، وستجدين ما يسعدك . »

سألته : متى موعد الصلاة ؟

قال : في الرابعة والنصف .

قلت : بعد الظهر ؟

قال : في الرابعة والنصف صباحا مع الفجر ! . .

قلت : هذا مبكر جدا . لا استطيع .

قال : تعالي ! . . ستنسين احزانك وستكتشفين عالما جديدا وأصدقاء وفرحا لا ينتهي . . .

في قبضة « مافيا الهستيريا »

في الفندق وجدت في انتظاري صديقة عراقية مثقفة جدا تعمل في القسم العربي في الاذاعة البريطانية (أولغا جويده) . سألتني حين شاهدتني احمل منشورات الكريشناويين : « هل هذا جنونك الجديد ؟ هل لعبوا بعقلك ؟ »

قلت لها : « لا اعرف شيئا عنهم ، انني مجرد فضولية ! »

قالت : « ان بدعة كريشنا خطيرة تهدد شبان بريطانيا واميركا . . . وبدأت هذه البدعة في اوائل السبعينات وهي تنتشر بصورة هائلة . »

زعيم الحركة رجل هندي اسمه بختيفيدانتا سوامي برابوبادا المهاريشي ، والمفروض انه قديس منحدر من أصل الهي ! . . ولما كانت الستينات قد تميزت بجنون

شبيبة اوروبا واقبالهم على تدمير كل القيم ، وحتى على تدمير انفسهم واجسادهم بالمخدرات والعبث والجنون ، لذا جاء هذا الهندي ووجد تربة صالحة لصرخة العودة الى الروحانيات وترك العالم المادي . وهو طبعا لم يناد بالعودة الى الاديان الموجودة كالاسلام والمسيحية ، وانما نقل اليهم « كوكتيلا » دينيا هنديا مما يوفر له ولبقية زعماء هذه « المافيا الهستيرية » دخلا محترما ، و « شاليهات » في سويسرا ويخوتا وقصورا في الريف و « كاديلاكات » و « رولز رويس » وحسابات في المصارف . . .

قلت لصديقتي : لقد رأيت مجموعة من الشبان الانكليز نصف المذعورين نصف المخدرين بوهم السعادة . ولكنني لم أشم رائحة شيء خطر الى هذا الحد ! . .

قالت : ولكن الصحافة هنا اشتمت الخطر . . . والتلفزيون والاذاعة ايضا . وفي مقابلة تلفزيونية مع « قديسهم » سأل المذيع البريطاني المهاريشي : هل صحيح ان دخلكم السنوي هو ٢٠ مليون استرليني ؟

ورد المهاريشي بهدوء امام ملايين المشاهدين : اذا صح ذلك ، فانه قليل جدا ! . .

وتابعت صديقتي العراقية حملتها الشديدة : هذا الهندي استطاع ان يوقظ جوع الشباب الى الروحانيات وضيقهم بمجتمعاتهم الآلية المادية ، واستطاع ان ينشيء لنفسه حزبا ضخما وعدة معابد في لندن وفي اميركا ، وخرج عليهم بفكرة « التأمل » و « اليوغا » و « السعادة الازلية » . . . كان يمكن لأي حركة ان تحتويهم ، وها هو يحقق ذلك ! . .

سألتها : ومن اين تتدفق هذه النقود على الرجل الهندي ؟

قالت : كل من ينضم اليهم يتعهد بدفع ربع راتبه لهم طوال العمر . هذا بالاضافة الى مساعدة مؤسسات لها مصلحة في « هبل » الشبيبة . وحتى « البيتلز » يمولون حركة « الكريشنا » هذه لان مبيع اسطواناتهم ارتفع كثيرا بسببها ! حين ترينهم يغنون ويرقصون في الشوارع ويقفزون حول انفسهم كالدراويش ، يكونون في شبه غيبوبة من السعادة الازلية ، وهم يكررون باستمرار عبارة واحدة معناها « انت سعيد أزليا، لا شيء يهم . » وفي ندوة تلفزيونية مع « كريشناوية » تعيش في مزرعة جماعية خاصة بهم ، قالت : انني الآن في اوائل العقد الرابع من عمري . . . في الستينات كنت « هيبية » في العشرين ، عشت في مزارع « هيبية » وحملت من اكثر من رجل ، ودمرت المخدرات والكحول صحتي ، واجهضت اكثر من مرة، وهلكت، ثم جاء خلاصي مع تلك الفئة من الطيبين والضائعين امثالي .

وتابعت صديقتي تقول : الفقر العاطفي والجوع الروحي هنا يجعل الشبيبة عرضة

للسقوط في اية موضة فكرية . . . وها هم يفتتحون مؤخرا مراكز ومعابد في برمنغهام ، ألاباما ، بوينوس ايرس ، كيب تاون ، كاراكاس ،اوتاوا، بورتوريكو ، سانتو دومنغو ، ستوكهولم،وجنيف !!! .

ساعة الذئب !

استيقظت فجر اليوم التالي بلا منبه . غادرت الفندق في الرابعة والنصف تماما . كانت الشوارع مظلمة . ولحق بي البواب محذرا من اللصوص والقتلة . سرت دقائق وقلبي يرتجف استمتاعا باكتشاف الجديد ، ووصلت الى المعبد . . . الصلاة عندهم تُبدأ مع الفجر ، وهي وصلة من الرقص المجنون على صوت الطبول والدفوف والناي والمزامير . واستقبلوا بود (الرفيقة اللاحقة) ، وكانوا يدعونني للغناء معهم . . . وكانت رائحة البخور تطفو على كل شيء . ثم جاء دور طعام الصباح الذي فرش على الارض . . . كان مؤلفا من الاعشاب والحشائش والخبز . وحين سألت صديقي « الكريشناوي » عن البيض او الجبن قال لي : معتقدنا يحرم علينا القتل ، ولذا فنحن نباتيون ، لا نأكل اللحوم ولا بيوض الحيوانات ! . . وفهمت سبب نحولهم الشديد ، وشحوب بشراتهم التي توحي بفقر الدم . وفي طقس بارد كطقس لندن لا استطيع ان افهم كيف يستطيع الانسان ان يعيش اذا لم يفترس بقرة في اليوم مثلا ! . . وشيء اخر لا استطيع فهمه هو ذلك الركوع امام اوثان هي في غاية السذاجة ومجردة حتى من الجمال الفني ! . ولكن الفتيات والشبان لطفاء وغير عدوانيين (ربما من سوء التغذية !)

التعاليم « الكريشناوية » تحرم الجنس الا بالزواج ولاجل انجاب الاولاد ، عكس « هيبية » الستينات ، وكذلك تحرم الكحول والمخدرات والمقامرة وكل ضروب العنف ، ومع ذلك شاهدت شبها داخليا بين « هيبيي» الستينات و « كريشناويي » السبعينات ، ألا وهو الانفصام التام عن الواقع المحيط بهم والتمرد عليه ورفضه علنا ، والهرب للعيش في عالم خيالي ووهمي سواء على أجنحة المخدرات في الستينات او على اجنحة بدع فكرية مستوردة من الهند في السبعينات !

الاستعمار الهندي ؟!

وهكذا وبعد ان استعمرت بريطانيا شبيبة الهند طويلا ، ترد لها الهند الضربة فتستعمر الشبيبة البريطانية . . . وبعد ان تسببت الامبراطورية البريطانية في سير الهنود حفاة وشبه عراة وجياعا طيلة اعوام ، تعود الهند الى بريطانيا فتجوع شبابها وتجعلهم يسيرون حفاة وشبه عراة ، يدفعون الجزية (ربع راتبهم) حتى الموت ، وكل ذلك

باختيارهم وتحت ستار الوهم . . . والاستعمار على الطريقة الهندية اشد خطرا لانه استعمار لرقعة النفس البشرية لا استعمار للارض فحسب ، ولانه يتم برضى الطرف الاخر واستسلامه الكامل . فهل نحن أمام « مافيا هستيرية » لرجل هندي ذكي وظف جوع الشبيبة الى الروحانيات كي يشبع جوعه الى الماديات ؟ ام تراه يصدق حقا انه المهدي المنتظر ؟ هل هو محتال ام مجنون عظمة ؟ ! .

لا ادري ! كل ما ادريه هو انني عدت الى فندقي في الثامنة صباحا جائعة وافترست اسماكا وبيوضا وكل ما تحرمه « الكريشناوية » ، ثم عدت الى النوم دون ان احلم بهم . . .

وحدها رائحة البخور بقيت في صدري ، وبها افتتحت رحلتي اللندنية . . .

تحويل الروحانيات الى مشاريع تجارية

ليس المهاريشي بختيفيدانتا سوامي برابوبادا وحده هو الذي حول جوع شبيبة لندن الى الروحانيات الى مشروع تجاري ناجح عن طريق دغدغة المشاعر الدينية . هنالك ايضا مسرحيتا « المسيح ، سوبر نجم » (!) و« جودسبل » . في المسرحية الغنائية « المسيح سوبر ستار » نجد يسوع « هيبيا » يرقص ويغني ، ويهوذا زنجياً أسود (عنصرية حتى النهاية !) ، واغنيات جميلة ذات كلمات ساذجة تجتذب الجمهور وتستقطب جوعه الى الروحانيات وتقدم له وجبة دسمة من الرقص العاري في الوقت نفسه . . .

والصحف الانكليزية تعي مدى اهتمام الفرد البريطاني المعاصر بالخرافات والروحانيات ، وتنشر باستمرار آخر أخبارها في مختلف الاقطار . وفي أحد الاعداد الاخيرة لملحق « الاوبزرفر » صورة مروعة لاعضاء اجساد بشرية تتدلى من سقف احدى الكنائس ! وتزول دهشتك حين تعلم ان هذه السيقان والايدي المعلقة لم تقص من الاجساد وانما هي مصنوعة من الشمع ، والسبب في ذلك ان اكثر المرضى في البرازيل يذهبون الى كنيسة « سانت جودا تادو » حاملين عضوا من الشمع يماثل احد اعضاءهم المريضة ، ويعلقون النسخة الشمعية في الكنيسة ايمانا منهم بان ذلك سيشفي اوجاعهم بقوة خارقة ! . .

وفيلم « طارد الشياطين » ـ عن قصة وليم بلاتي ـ الذي يعرض في لندن حاليا يلقى اقبالا هائلا من المؤمنين بالعفاريت والارواح الشريرة والشياطين . ورغم موت بعض المتفرجين بالسكتة القلبية اثناء الفيلم (ثلاث حوادث حتى الآن) واكتفاء البعض الاخر بنوبات زعيق ، لا يزال الفيلم يجد روادا كثيرين . وقد ذهبت الى دار السينما ووجدت

الرواية افضل كثيرا من الفيلم ، حتى من حيث طاقتها على « التخـويف » . وفي اليوم التالي لم أفاجأ حين قرأت في أحدى الصحف خبرا حول رجل اغتصب فتاة ثم ادعى انه ليس مسؤ ولا عما فعله لان روحا شريرة احتلته واملت عليه عملية الاغتصاب رغما عن ارادته ! وطلب احضار كاهنه الى المحكمة كشاهد رئيسي ، بصفته يعالجـه من احتـلال الروح الشريرة له ! . . والمعروف أنه في فيلم « طارد الارواح » ترتكب الفتاة التي تحتلها روح الشيطان جريمتي قتل ، ومع ذلك لا يعتبرهـا المؤلف مسؤ ولـة عن جرائمهـا بل المسؤ ول هو الشيطان الذي احتلها وعطل ارادتها !!! واذا قبل القاضي شهادة الكاهن واعتبر الرجل غير مسؤ ول عن عملية الاغتصاب التي قام بها فانه من المتوقع ان ترتفع نسبة جرائم القتل والاغتصاب التي سيقوم بها شياطين يحتلون اجساد الرجال الابرياء . . . ولا تزال المحكمة تنظر في القضية ، والجمهور ينتظر النتيجة باهتمام . . . وعذارى بريطانيا يتطلعن بترقب . . .

ويلاحظ ايضا اقبال الناس على افلام الرعب والجنس التـي تعـرض في دور سينما ساحتي « البيكاديللي » و« ليستر » ، وامام كل دار سينما من هذا النوع صف طويل من الناس(كيو) ينتظر دوره للدخول . . اما السينما المجاورة التي تعرض فيلم « هاكلبري فين » ، عن قصة مارك توين للاطفال ، فلا أحد يقف على رصيفها غير البواب . . . . وأنا ! . .

لندن ١٢/ ٨/ ١٩٧٤

والحضارات ترحل إليك ! . .

يظل أعظم ما في لندن هو تنوع الفعاليات الثقافية والابداعية فيها . . .

في لندن ، تسافر الحضارات إليك ، وتقبع في اروقة المتاحف والمعارض تنتظرك . .

فن الاسكيمو مثلا . ألم تشعر قط بالفضول لمعرفة ماذا يرسم الناس الذين يقضون حياتهم في القطب في بيوت من الثلج ؟ وهل ينحتون ؟ وماذا ينحتون ؟ وما هي رؤ ياهم للعالم ؟ . .

إذا كنت مثلي تحب ان تعرف شيئا عن فنهم ، تعال معي الى شارع مونمارت في لندن ، حيث يقام معرض دائم لفن الاسكيمو في « غاليري انثروبوس » .

اول ما يلفت النظر في نحت الاسكيمو هو المادة التي تصنع منها التماثيل ، وهي في حد ذاتها مادة محرضة للخيال وموحية . . . تصور منحوتة مثلا اسمها « روح اسلافي » محفورة من عظام الحوت المتحجرة التي لا يقل عمرها عن آلاف السنين . . . ان الرخام الفلورنسي الملون جميل ، ولكن النحت في مادة اصلها حي امر يثير الخيال حقا ويحمل طاقة ايحائية شديدة لانها كانت ذات يوم جزءا من جسد كائن يتنفس ويتألم ويموت ، وحملت طيلة آلاف السنين في جوفها حكايا الارض والتاريخ حتى تحجرت وتحولت الى منحوتة في متحف ، اي عادت الى الحياة بعد آلاف السنين بفعل الفن والابداع . كل أحجار المنحوتات خاصة وغريبة . بينها صوان يعبر بقسوته ومظهره الشرس عن شراسة الحياة في القطب وقسوتها . (ستتخيل الشرر الذي تفجر لحظة النحت !)

جميلة جدا هي أعمال اسكيمو كندا وكيوبيك . فيها بساطة بدائية مذهلة الصراحة والعمق ، وهي تعبر بصدق عن مشاعر ناحتيها . ليست تماثيل تجريدية وانما شبه تجريدية انطباعية بدائية ، الهم الاساسي فيها هو الصراع مع الطبيعة وما وراء الطبيعة .

ففي الصراع مع الطبيعة نرى تمثالا لانسان يقتل حيوانا اصغر منه بينما انحنى عليه حيوان اكبر منه ليقتله بدوره . انها دورة الطبيعة وقانون الغاب . هنالك تمثال لكائن نصفه انسان ونصفه الآخر دب قطبي (انها ثنائية الوجود) ! وآخر لرجال يحملون اثقالا ،

يقاتلون ، يموتون ، يتألمون . وجوه متعبة ، أيد متجلدة ، عيون متحدية . الصيد هو الهم الاساسي ، وحيوانات الفقمة والبوم القطبي والدب والطيور والاسماك تتردد بكثرة . . .

اما في مجال هموم ما وراء الطبيعة ، فان الاسكيمو ينحتون ارواح اسلافهم ، يحاولون تجسيد الروح في الحجر !

ومن اطرف منحوتات المتحف فقرة متحجرة من عظم حوت عمره آلاف السنين وقد نحت فيها وجه انسان ، فكأنها صك تذكاري لانتصار الانسان على الطبيعة وقهره حتى للزمن .

وتجد نفسك منساقا الى معرفة المزيد عن فنون بلاد نكاد نجهل تماما حركتها الفنية . وتمضي معي الى منطقة « الماي فير » في لندن حيث يقام معرض للفن النرويجي وايسلندا . . .

اكثر رسوم النرويجي كيث جرانت تتحدث ايضا عن الطبيعة عن جبروتها وقسوتها وصراع الانسان امام قواها . . .

والرسوم هنا اكثر تعقيدا من رسوم الاسكيمو ، عاكسة بذلك واقع الحياة الاجتماعية المحيطة بالفنان . ولعل اجمل ما في لوحاته هو ذلك الاحساس بأن البحر متجلد كالمرآة ، وهكذا فالفنان يرسم كل شيء وظله المقابل له على صفحة الماء المتجمدة . . .

الالوان شرسة وتعكس عدوانية الطبيعة الجبارة التي يقابلها الفنان بطاعة تتأرجح بين الحب والكراهية . . .

موضوعات الفن النرويجي والايسلندي هي ، على سبيل المثال ، سماء صافية وثلج . مطر . الفجر . المطر يخفي شمس منتصف الليل . الغيوم فوق القمم . نجم المساء . شروق الشمس في ايسلندا . وكلها اعمال جميلة متميزة الالوان تخلق لدى المتفرج المداري انطباعا عن عالـَم الثلوج والبرد والطبيعة الملونة الجبارة . الملاحظة الاساسية التي نخرج بها من هذين المعرضين هي مدى التصاق الفنانين هناك بواقعهم وعكسهم اياه بصدق ، وهو امر لا يزال ينقص اكثر الفنانين العرب (ما عدا العراقيين التشكيليين وقلة من اقطار عربية اخرى) . فكثير من اللوحات العربية لا تحمل شيئا من بصمات المجتمع حولها .

معرض الحياة الوحشية !

حينما اذهب الى معرض فني اجدني ساقطة في سلسلة لا نهاية لها من زيارات

المتاحف . وحينما ابدأ يومي في لندن بالذهاب الى « غاليري » فني اعرف انني سأكون آخر النهار منهكة على رصيف آخر « غاليري » تمكن مشاهدته قبل ان تغلق المعارض ابوابها ! وهكذا كان . . .

غادرت متحف الفن النرويجي ، وقررت الذهاب الى شارع مول حيث يقام في « غاليري مول » المعرض السنوي لفناني الحياة الوحشية ، اي الذين تخصصوا في رسم حيوانات الطبيعة غير الاليفة . . .

استوقفت « تاكسي » يقوده عجوز جدا وقلت له عنوان « الغاليري » ، فقال لي انه على بعد خطوات . « ولا حاجة بك الى تاكسي » . وفعلا كان المتحف على بعد خطوات ولكن على بعد مئة الف خطوة ! وانهكني المسير ، وفي منتصف الطريق امام القصر الملكي وجدتني اجلس على الرصيف متعبة . . . ولكن لندن جاءت تسليني ، اذ فوجئت بمسرحية تجري امامي فجأة . . . فجأة خرج فرسان يرتدون ثياب العصور الوسطى ، ويعزفون على آلات موسيقية أثرية ، ويقومون بطقوس غريبة من تبادل الرماح والاقواس بينما تلتمع رياش قبعاتهم ومخمل ياقاتهم . . . وفوجئت بأن هذه الطقوس تقام مرة كل اربع سنوات عندما تستعرض الملكة حرسها الخاص الذي انشىء عام ١٤٨٥ وما زال حتى اليوم يرتدي الثياب نفسها ويقدم طقوس الولاء نفسها . وكانت مصادفة غريبة ،وشعرت بأنني «أليس في بلاد العجائب » ، وعند كل منعطف شارع تنتظرني مفاجأة لتسليني ! . . والتقطت صورا لما يدور امامي فقط لاتأكد من انني لم ارجع في الحلم خمسة قرون الى الوراء ! . .

هذه هي لندن . تنوع ومفاجئات ولحظات من الماضي السحيق تتبعها لحظات عصر الذرة . . . واكاد انسى انني كنت في طريقي الى « غاليري مول » .

البوم ملك الموسم

في جاليري مول وجدتني امام معرض دوري يقام في لندن كل عام . تعده جمعية فنانين متخصصين في رسم كائنات الطبيعة غير الداجنة وتضم ١٠٨ فنانين . المعرض قفزة ساحرة الى عالم يكاد يكون منسيا ! ففي مدننا الحجرية وشوارعنا الاسفلتية قلما نلتقي بغير الكلاب والقطط المرفهة والتي اضاعت بالتالي حواس الصيد والرهافة ، او نلتقي بالحيوانات الكاسرة في حدائق الحيوانات حيث الذل يطفىء العيون فيتغير الشكل الحقيقي للحيوان عما هو حين يكون حرا في الطبيعة . . .

في هذا المعرض نرى كائنات الطبيعة في وجهها الحقيقي لا في اقنعتها التي أرغمها الانسان على ارتدائها . نرى خيولا وحشية . طيورا غريبة . هررا برية . قنافذ وسحالي

وثعابين وغيرها من كائنات الطبيعة المدهشة التنوع والجمال . . . ولعل نجم المعرض هو البوم . ليس بين الفنانين من لم يرسم بومة ، واجمل ما في المعرض لوحة تضم كل انواع البوم الـ ٢٤ في داخلها . . .

هذا معرض يريح الاعصاب ، تشم فيه عبق الغابات والتراب ، وتشعر بالاقتراب من الطبيعة العظيمة ومن « اخواننا » فيها . . .

ابرز ما في معارض لندن هو اخذها بمبدأ الاختصاص ، وذلك يجعلها اقرب الى المؤسسات الثقافية منها الى دكاكين فنية عشوائية العرض (كما هي اكثر غاليرياتنا) !

متحف الهواء الطلق !

اذا لم تكن من رواد صالونات « السونا » اللندنية التي تحولت الى اوكار لممارسة كل شيء ما عدا « السونا » ، واذا لم تكن من الذين يسترشدون بالاعلانات الكثيرة التي تحمل ارقام الهاتف لدليلات سياحيات (وهن فتيات مستعدات لارشاد السياح الى أي شيء ما عدا المعالم السياحية في لندن لان السياحة تتم بأكملها في شقتهن) ، واذا كنت من هواة التسكع البريء في الشوارع ، فانك ستجد نفسك في مهرجان فني يوم الاحد . . . ومتحف في الهواء الطلق . . .

يوم الاحد يخرج الفنانون من جحورهم في لندن (مدينة الـ ١٢ مليون سردينة بشرية محشورة في غرف ضيقة) ، ويحملون لوحاتهم ويطلعون بها الى حديقة « هامستيد » او « هايد بارك » . . . وهناك تسير ، والى جانب الطريق مهرجان فني مذهل تتراوح اعماله بين المدهش والسيء ، لكنك تكون قد اطلعت بصورة عامة على ما يدور في اوروبا الفنية المعاصرة . ويغيظني كثيرا ان اصف اللوحات ، فاللوحة رؤيا لا تستوعبها الكلمات وبالتالي فان صاحبها قد لجأ الى الالوان ، فكيف اعود انا الى كتابة الالوان ؟ ومع ذلك ، انقل اليكم صورة « مشوهة » عن لوحات جيدة خطفت انتباهي وهي تحمل افكارا تجريدية في غاية الطرافة والعمق . (اسماء اصحابها لا تهم حاليا ولكن من الممكن ان يكون بين آلاف اللوحات تلك، لوحة ـ لوحة واحدة على الاقل ـ ستعلق ذات يوم ويخلد اسم صاحبها وتباع بملايين الجنيهات . اما الان فكلها رخيص الثمن نسبيا) . هناك فنان صنع من الجماجم أواني لتربية النباتات ، وها هي الحشائش والنباتات تخرج من فتحات العيون والانف والفم ، وتتدلى من فجوة الاذن وردة ساخرة مضحكة ومروعة ! . . وهكذا حين يفرغ الهيكل العظمي من الجسد الحي يستطيع ان يحل محله ببساطة شيء حي آخر هو النبات . فالجسد ليس اكثر من وعاء للروح ، وعاء يصلح لتربية الحشائش اكثر

من تربية اللحم والكروش !

هـناك ايضـا لوحـة لشـاب يعـزف على قيثارتـه في المدينـة وحولـه في الشـوارع ديناصورات وحيوانات ما قبل التاريخ تتجول . . . ولا انسان سواه . انه يعبر بذلك عن غربته ، وعـن احساسـه بأن الانسـان لا يزال يعيش عصره الحجـري ، وان البشر هم ديناصورات عالمنا المعاصر الخالي من الانسانية ! . .

فنان آخر رسم زجاجة « بيبسي كولا » ، ورجل يمتص محتوياتها بعظمة بدلا من « شاليمو » . هنالك ايضا قفص عصافير ، وبدل العصافير تتدلى في داخله نساء مشنوقات مصنوعات من دمى صغيرة ، وهذا القفص يعبر عن وضع المرأة البائس واستعباد الرجل وشرائعه لها . (بصورة عامة) .

ثم نأتي الى أشياء اكثر جنونا ، لوحات صنعت بأكملها من مواد كانت حية (من النبات) واستعمل الفنان في تركيبها حبات البـن والفاصـوليا والفـول والحمص والقش والخيطان بدلا من الاصباغ . وهنالك آخر اضاف الى المواد السابقة كلها اغطية زجاجات « السفـن أب » وخراطيش طلقات فارغة ومقابض مسدسات .

وبينما الناس في حدائق « هامستيد » يتأملون اللوحات تنصرف الكلاب الى السباحة في احدى بحيراتها ، وفي الماء يبدو الكلب مثل لوحة لرأس مقطوع صغير يعوم وخلفـه ذنب صغير . وتعوم هاربة منه بطة بيضاء ، ويلحق بهما قارب دمية من تلك القوارب الموجهة ، ليفسد اللوحة الطبيعية بضربة عصرية واحدة !

الاشجار هناك لا تموت واقفة !

على جدران « الهايد بارك » المهرجان الفني نفسه ، والتنوع نفسه ، بالاضافة الى فنان متخصص في فك آلات الساعات القديمة وتحويل احشائها الى لوحات غريبة المذاق توحي بعصرنا الآلي الاهوج الفارغ . وهنالك ايضا فنانة تتخـذ من ريش الـطيور مادة للوحاتها بدلا من الاصباغ ، وتصل الى ركن الخطباء في « الهـايد بارك » . . . انهـم لا ينتهون من الكلام ابدا ، كأنهم رجل واحد غاضب ثرثار لا يسكت ولا يتبدل !

وتتعب ، وتهرب الى داخل « الهايد بارك » . تتوغل . اله الحب قد رحل ، ولـم تعد الحديقة تعج بالعشاق الذين يتبادلون القبل .

منذ وصولي الى لندن لم أر زوجا واحدا من العشاق في حالـة عنـاق ، كما منـذ اعوام ، وسألت احد حراس الحديقة العجائز عن « الوضع العاطفي » للحديقة فقال لي بحسرة ، متحدثـا عن احزانـه الخاصـة وكأنـه لم يسمـع سؤالي (تمامـا كما في مسرح

اللامعقول) : ان اشجاري تموت فجأة بالسكتة . . . تصوري ! . . هذا العام انهارت عشر شجرات ضخمة . سقطت فجأة على الارض ميتة .

قلت له : غريب ! . . الاشجار عندنا تموت واقفة

قال : انها لعنة من السماء ان تهوي الاشجار كما يهوي الرجال المصابون بالذبحة . انها لعنة من السماء على جيل « الهيبيز » ! وتركته يبكي اشجاره ومضيت اتابع جولتي في لندن السبعينات ، حيث الاسعار تتابع الارتفاع ، وتنانير الفتيات تتابع الانخفاض ، وهما أمران لا يسر لهما السياح كثيرا ! . .

مسرح الهواء الطلق

احلى الافكار اللندنية فكرة مسرح الهواء الطلق . ففي حديقة « ريجنت » الكبيرة نفذت هذه الفكرة المدهشة . بين الازهار والاشجار والخضرة وضعت المقاعد ، وتحولت الغابات الى « ديكور » طبيعي لمسرحيات عالمية . . . شاهدت مسرحية شكسبير « حلم منتصف ليلة الصيف » واحداثها تدور اصلا في غابة ، لذا كان الديكور الطبيعي امتداداً عفويا لصلب الاحداث . وللحظة خيل الي ان الممثلين هم الذين يعيشون قصتهم حقا واننا نحن المتفرجين في مقاعدنا دخلاء على المكان « نمثل » وجودنا . . . كأنهم هم الحقيقة ونحن الوهم . . . هم الحياة ونحن المسرحية ! . .

وفي رقعة منبسطة من الارض ، الى جانب خيمة اخرى ، شاهدت مسرحية ليوجين يونيسكو ، وكان المكان معدا على طريقة « البيكنيك » حيث تشتري السندويش والمرطبات وتستطيع استئجار وسائد وبطانيات ، وحتى خيمة ، او تجلس الى طاولتك وسط الحديقة وتتمتع في الوقت نفسه بشحنة فكرية محرضة اذ يقوم الممثلون بأداء ادوارهم بين المتفرجين ! الفكرة رائعة وتناسب طقس بلادنا اكثر من طقسهم المتقلب ، فقد حدث في منتصف المسرحية ان امطرت السماء عكسا لما هو وارد في « سيناريو » المؤلف المفروض انه يدور في شمس لاهبة ، وخرجت الطبيعة عن ديكور المسرحية غير مبالية برغبة المؤلف ! ولكن التجربة تستحق النقل والتحقيق في بلادنا (هذا بعد انشاء حديقة عامة في بيروت اولا !)* .

نجمـة اسـرائيل

اكثر دكاكين التذكارات تبيع نجمة اسرائيل . وذلك لا يمكن ان يكون مصادفة وانما

* وايضاً بعد وقف اطلاق النار ! ٢٠/ ١١/ ١٩٧٨

وفقا لخطة اعلامية . وذات مساء امتلأ قلبي حنقا لكثرة ما شاهدت تلك النجمة بزخارف مختلفة . فالعربي لا يستطيع ان يراها الا والدم يقطر منها (دمنا نحن) .

الفنون الفـولكلورية العربية ومنتجاتها تباع في لندن على انها تراث اسرائيلي ! . . انهم لم يسرقوا ارضنا فحسب . بل انهم يسرقون تاريخنا وفولكلورنا ويقدمونه للغرب على انه من صنعهم . . . واذا استمر غيابنا الاعلامي النسبي ، واغترابنـا عن جوهـر قضية فلسطين وخطورتها ، فقد يبيعون جثثنا ذات يوم في سوق اللحم الانكليزي على انها لحوم ابقار اسرائيلية ! . .

باريس ١٩/ ٨/ ٧٤

دكان توابيت . . الحب !!

في المتحف الوطني للفن الحديث بباريس ، كنت اتجول بين (فظاعات) الاعمال غير الفنية واسطر على دفتري بعض الملحوظات بالعربية وبالطبع كنت اكتب من اليمين الى اليسار (عكس الكتابة الفرنسية) . . . لاحظ ذلك احد حراس المتحف وبدأ يطاردني من ركن الى آخر ليتفرج على الطريقة التي بها اكتب . . . وبدا لي مهتاجا وهستيريا ثم اصر على ان اسطر ملحوظاته هو ونقده الخاص ، وكانت كلها من نوع الشتائم لما يضمه المتحف . . وبدا لي غير متوازن عقليا ، ويستطيع ان يكون خطرا ومؤذيا اذا لم يعامل برقة مثل كافة المجانين . . . وفعلا تظاهرت بتسطير كل « النقد » الذي يمليه علي وكنت اتحرك بهدوء ريثما خرجت من القاعة الفارغة الى قاعة اخرى تعج بالناس . . وهربت . . .

وصرت حين ادخل متحفا للفن الحديث ، ارقب حراسه اكثر مما ارقب لوحاته . . وكانت تبدو على اكثرهم اعراض عصبية حادة . . . وادهشني انني لم اجد في اي متحف رسما « لحارس متحف » . . . الفنانون يرسمون كل شيء في الدنيا الا ذلك المخلوق الحزين الكئيب الواقف على قدميه طوال النهار لحراسة اعمالهم التي قد تستحق التكسير اكثر من الصيانة . . . الشعراء والقصاصون كتبوا عن الفلاحين والعمال وقاطعي التذاكر وكل المسحوقين ، ولم يفكر احد باولئك الذين مهمتهم في الحياة حماية انتاجنا . . . (البكوات) يهتمون (بالقبضايات) الذين يحرسونهم ويعنون بهم ، والفنانون الذي يفترض انهم مرهفو الحس ، لا يلحظون ابدا تلك الاشباح في المتاحف التي تحرس ما هو اهم من حياة الفنان (اي نتاجه) ! . .

ترى هل اكثر حراس متاحف (الفن الحديث) مجانين بفضل الأعمال المروعة التي يتلخص عملهم في حراستها ، وهم مرغمون على مشاهدتها ليل نهار . . . والى حد يدفع بهم للجنون ؟ . . . وهل حالتهم النفسية هي افضل مقال نقدي عملي حول اكثر الفن الحديث الهستيري ؟

ام تراهم يتمزقون لان الناس يمرون بهم باستمرار لاهين عنهم بلوحات على

الجدران ، وتماثيل في الاركان ، دون ان يكلفوا انفسهم حتى عناء النظر في تلك الوجوه البشرية المسحوقة ، المحرومة من الشمس ، التي تقضي نهارها في حراسة كل شيء ، ولا احد يحرسها من الغربة ولو بنظرة ؟ . .

لا ادري . . كل ما ادريه هو انني صرت اقضي نصف وقتي في المتاحف في تأمل ما تضم ، والنصف الباقي في الابتسام للحراس ! . .

***

اهانة الجمهور وتحقيره والسخرية منه هي الظاهرة المشتركة بين الفرق المسرحية الطليعية في لندن وباريس . . . وحتى كتاب المسرح الطليعيون يساهمون في ذلك بتزويد الفرقة بمسرحيات تتضمن (مقالب) عملية للسخرية بين الجمهور . ففي احدى المشاهد التي كتبها يوجين يونيسكو ، تبدأ المسرحية بالنشيد الملكي البريطاني (وهي عادة كانت متبعة الى ما قبل سنوات) . وطبعا يقف الجمهور نصف مدهوش من العودة الى هذا التقليد بينما يتلكأ البعض الآخر ، المهم ما يكاد اكثر الحضور يقفون حتى تتحول المعزوفة الملكية الجليلة الى زعيق ديك يقول (كوكو) ساخرا ثم موسيقى جيرك صاخبة . . . وطبعا يشعر الجميع بالارتباك والخجل الاجتماعي ويضحكون في قهر مكتوم وهم يعودون الى الجلوس .

وتنتهي المسرحية بأحد الممثلين وهو يقف مشيرا الى الجمهور قائلا : ماذا يفعل هؤلاء الحيوانات هنا ؟ ! ,

ولا (ينهق) احد احتجاجا ! . .

وفي باريس في مسرح « دورساي» لم تكتف الفرقة بتوجيه اهانات لفظية للجمهور المسكين ، وانما تعدت ذلك الى الايذاء الجسدي وتوسيخ الثياب . . . فقد كان الممثلون يبصقون في وجه المتفرجين ، وكانوا يخرجون من الكواليس الى المسرح لا سيرا على السلم وانما سيرا على اجساد المتفرجين ، وفي حالات ملاطفة جمهورهم كانوا يرمونه بالسمك الفاسد ، و (لتدليعه) يطلقون عليه قطا شرسا او يغطون رؤوس البعض ببساط قذر خانق من اجل تحويلهم الى ديكور صحراء مثلا !! .

من زمان كان المتفرج هو الذي يرمي الممثل الذي لا يعجبه بالبيض والسمك الفاسد ، اما اليوم فالممثل هو الذي يرمي جمهوره المعجب به بالسمك والبيض الفاسد ! . . . وقد لاحظت نوعا من المازوشية الجماعية (التلذذ بالعذاب والاذلال) في تقبل هذه الاهانات الجماعية الى حد الاستمتاع بها . . .

هل صارت الشخصية الاوروبية المثقفة اليوم معقدة الى حد يدفع الفرق المسرحية والكتاب لاستخدام وسائل نفسية ملتوية لامتاع نزواتها المازوشية والسادية ؟ .. وهل انتقلت ظاهرة (السادو ـ مازوشيست) من صعيد العلاقات الجنسية في كهوف سوهو والبيغال ، الى صعيد الثقافة ومسارح النخبة لترضي شذوذهم على حساب الفن ؟ . .

وهل كان المركيز دوساد يفوز بجائزة الاوسكار لو عاد اليوم حيا واشتغل بالاخراج ؟؟

***

اسم الدكان « حرفة الحب » ويقع قرب « توتنهام كورت رود » بلندن . . . واذا كان حس الفضول لديك اقوى من حس الخجل ، فانك ستدخل لتتفرج على البضائع . . . كراسات جنسية . صور عارية مختلفة لحيوانات بشرية تمارس اللعبة اياها . . . ادوات عصرية للمساهمة في ذلك ، تعمل بالبطاريات زيادة في التكنولوجيا . . . اما البائعات فوجوههن قاسية وصارمة مثل وجوه موظفات المتحف البريطاني بعد ٢٠ سنة من الخدمة الجادة ! . . . بالنسبة للدكان ، الجنس سلعة كأية سلعة اخرى ، لذا فقد تغير شكل دكاكين بيع الجنس الخجولة المختبئة ذات الابواب نصف المفتوحة والاضاءة السرية .

هنا الباب مفتوح حتى اخره كما في أي دكان . والرصيف امامها يزخر بالناس ، والاضاءة قوية كما في دار الكتب الوطنية ! . .

وفي الركن تمثال لامرأة من المطاط منفوخ بالهواء . فما دام الحب قد مات ، وما دامت كل نساء العالم يتساوين في الظلام ، فان الدمى المطاطية ايضا تستطيع المنافسة في هذا المجال . تأملت الدمية وشعرت بأنني امام جثة ! جثة الحب في هذا العصر . . .

وتجولت في المكان كمن يتجول في دكان لبيع التوابيت . . .

لقد مات الحب ، وها هم قد باشروا فتح دكاكين التعيش من طقوس دفنه . وتذكرت قول الشاعر العربي العاشق لحبيبته :

لو مر سيف بيننا   لم أدر هل اجرى دمي أم دمك !

بالنسبة لعصرنا ، هذا كلام مكتوب بلغة هيروغليفية لم يعد يفهمها احد هناك ! . .

باريس ٢١/ ٨/ ٧٤

الغجرية تلتف بعباءة الجنون الملونة

حين تسافر في يوم واحد من اقصى الشمال في اسكوتلندا ، حيث الطبيعة في ذروة الجمال والهدوء والسكينة ، لتصل مساء الى اكثر ازقة الحي اللاتيني جنونا بباريس تشعر كأنك انتقلت من عصر الى آخر . . . ولكن حين يتم ذلك السفر المرهق ، ليلة ١٤ تموز حيث تحتفل المدينة بكل جنونها المكبوت بعيدها القومي ، فان انتقالك يصير له طعم الصدمة ، كمن اخرجوه من نومه فوق بحيرة متجمدة في القطب ، ليركب فوق جسد تمساح في بحيرة استوائية الهيجان ! . . .

وهكذا بعد رحلة بدأت منذ الفجر بالقطار الى لندن ، ثم مباشرة بالباص الى مطار هيثرو ثم بالطائرة الى مطار شارل ديغول بباريس ، وجدتني ليلا في مدينة غجرية تلتف بعباءة الجنون الملونة الشفافة وتركض على شواطىء السين ، وشعرها المنثور في السماء العاب نارية ووقع خطاها فراقيع العيد . . . وشعرت بأنني احلم ، فالارهاق الجسدي زعزع احساسي بصلابة الاشياء وباريس ليلتها دعوة الى الجنون ، الى الصراخ او الغناء او الذهول ، ومن كان مسكونا بالجنون لا يستطيع ان يرفض دعوة كهذه . . . ومع ذلك لم يفارقني احساسي بأنني احلم الا حين هتف باسمي صوت اليف هو صوت صديقة لبنانية لمحتني في الشارع رغم الزحام .

ليلة ١٤ تموز باريس قارب ، ربانه مجنون . وبحره هائج ، وركابه ثمالى ! . . حين رموا بالالعاب النارية والفراقيع تحت اقدامي استيقظت جيدا . . حين هاجمني احدهم بقناعه المرعب صرخت خوفا وشمت بي هو ورفاقه ضاحكين (كم هو مريح ان تجد عذراً لتصرخ بملء حنجرتك في الشارع احيانا !) . واخيرا وجدتني اجلس على مقعد حجري في ساحة النجمة بباريس. (تذكرت) بحنين موجع بيتي العتيق في ساحة النجمة بدمشق وصرت ادندن اغنية فيروز : « يا هوى يا اهل الهوى خدني على بلادي » . وبدأت اتأمل ما يدور . . .

مرت بي جماعة من الشبان العرب تغني : يا جارة الوادي ! . . لقد خرج غرباء باريس من كل الشعوب الى الشوارع وكل يغني على ليلاه ويحتفل على طريقته ، ويخرج

عقله الباطن ليرقص في الشارع بحرية . . او يبكي !

شاب صيني الملامح كان اكثر الجميع هيجانا . كان مزودا بذخيرة من الفراقيع وبشحنة هائلة من الرغبة في تخويف الجميع . . . اقترب من فتاة فرنسية حسناء في ثوب مختصر مفيد ، وبدأ يتحسس ظهرها ويقول لها : لماذا لا ترتدين ثيابك في هذا الطقس البارد ؟ وهربت الفتاة من شغبه ومعها رفاقها الشبان الصغار . . . وتعب الصيني الملامح من تحويل « ساحة النجمة » الى « ساحة حرب » ، فجلس الى جانبي على المقعد ليستريح . كانت الاقنعة والزمامير والفراقيع تتدلى من جيوبه ورقبته ووجهه في حالة « يوفوريا » ، فقررت ان صورته تصلح للتعبير عن حالة باريس ليلة العيد . . . وحين سألني بكل عذوبته الممكنة السؤال التقليدي : من اي بلد انت ؟ قررت ان الفرصة سنحت لانقض عليه بالكاميرا والفلاش . وقلت له انني صحافية واود تصويره . . .

وكأنني شهرت عليه قنبلة يدوية . امتنع . وامتقع وخاف وطارت الخمرة من رأسه وبدا في حالة رعب حقيقية . قال : لا . ارجوك . لا تصوير . لا تصوير . لا اريد متاعب . . .

ـ ولم المتاعب؟ من حقك ان تجن قليلا في اوقات فراغك . هل انت صيني ؟ ياباني ؟ كوري .

قال : انا ايراني (وكانت ملامح وجهه التي لا يمكن تزويرها تشهد بأنه غير ذلك) . واعترف بانه من بلد (ثوري) ، وانه بالتالي يخاف من نشر صورته ومن سفارته . وختم اعترافه بالهرب فورا مني ! . . . اولئك الاطفال الثوريون . لماذا يظنون ان الضحك والمرح هما ضد الثورية ؟ وهل الثورية ضد الطبيعة البشرية ؟ اولئك الذين لم يفهموا من الثورية غير قناع عابس متجهم يسيئون لها اكثر من اية حملة دعائية منظمة ضدها . . .

والمفجع ان اكثر الادباء عندنا الذين يحتكرون كتابة « الفن الثوري » يكرسون هذه الصورة الخاطئة والمتجهمة عن الفرد الثائر . . . يرسمونه ثقيل الدم جسده تابوت متحرك من الجدية المبالغة والهم المقيم . . . يرسمون الضحك خطيئة والحب تفاهة والمشاعر اليومية العادية وردود الفعل البسيطة خيانة وطنية ! . .

واجتاحتني اصوات الذين ينشدون احتفالا بتحطيم الباستيل وكل ما ترمز اليه تلك الثورة من تحرير للانسان . . . وتساءلت ترى متى يتحرر الانسان حقا ؟ . . متى تستحق البشرية عيدا ؟ . .

باريس ،وفن العذوبة

بعد ليلة الجنون تلك ، تستعيد باريس رشدها . . . وعذوبتها . .

وبعد لندن ، المدينة الشديدة الزحام والشراسة . تبدو باريس وديعة كقرية كبيرة . . . والناس فيها اقل جنونا وعدوانية وسكانها اقل عددا بثلاث مرات على الاقل . . . ففي السنوات الاخيرة صارت المناطق السياحية بلندن اشبه بمتحف للامراض العقلية . في ساحة البيكاديللي مثلا تمر بك وجوه تظنها خارجة للتو من المشرحة ، ترى على الرصيف رجالا زرق الوجوه كأنهم ماتوا منذ ساعات ولم يلحظ احد ذلك ، يعبر بك اشخاص يتحدثون لوحدهم ، والكآبة الحادة كالسكين تقطر من شفاههم ! في لندن دكان قرب شارع الستراند اسماه صاحبه Smile shop اي « دكان الابتسام » كان مقفلا طيلة اقامتي بلندن ، ربما صار مقفلا الى الابد . . . في عدد الدايلي ميرور يوم ٩ - ٧ - ٧٤ كتب احد القراء محتجا على حال الفتاة الانكليزية وقال : « فتيات اليوم قاسيات العيون خشنات اللهجة » . ولكن نسي ان حال الرجال ليست افضل ! . .

باريس تحاول ان تزايد على لندن في مجال الابتسام للسائح ، وفي الشانزليزيه دكان وضع على واجهته لافتة تعد المشتري بابتسامة وتقول : البائعات في دكاننا سعيدات ويبتسمن !! . . . (ولكن بائعاته كلهن من جيل الحرب الاولى !) . .

وباريس ما تزال تتقن فن العذوبة . في الفندق ما تزال تجد على فراشك غطاء عتيقا نظيفا من الدانتيل وتلك اللمسة الصغيرة الصغيرة التي تميز بين عالم الالة ، وعالم الحنان . . . ولكنها لمسة حنان تنقرض ، فقد تصادف ان ركبت واصدقائي في تاكسي سائقته حسناء جدا . وفكرت في ان اسألها عن مضايقات الرجال لها ، لكنني حين سمعت صوتها وهي تستفسر منا عن وجهتنا . وكيف تقطر ملامحها رجولة حين تتحدث بصوت اجش كأصوات المكنات الحاسبة صرفت النظر عن السؤال ، بل كدت اسألها سؤالا معاكسا !! . . .

السؤال الذي يطرح نفسه بشراسة في اوروبا هو : ألا تستطيع المرأة العاملة ان تحتفظ بعذوبتها ؟ . . . ام ان طبيعة الحياة والعمل لا بد ان تبدل من صفاتها النفسية وحتى البيولوجية ؟ هل العذوبة في المرأة غريزة حقيقية مثل النعومة في جلد القطط ، ام انها صفة مكتسبة مرافقة لايام عبودية المرأة حين كان عليها ان تتزلف للرجل كي يطعمها ؟ . .

بشاعة ديغوليـة

وعلى ذكر الافتقار الى العذوبة والذوق ، لابد لي من تسجيل بشاعة مطار شارل ديغول الجديد الذي افتتح منذ اشهر واشادت وسائل الاعلام في وصف روعته وطبلت له الاقلام وزمرت . انه بشع بشع .

عندما تدخله تحس انك سجين احشاء حيوان جهنمي من حيوانات الفضاء . . . لا ريب في ان مهندسه مهم ومشهور ، ولكن ذلك خارج الموضوع !! . . . انه مطار يحاول ان يكون مستقبليا ، كله ابراج وممرات وقباب شفافة ، ولكنك تحس انه لا علاقة له بفرنسا التراث والفن . . . انه مطار اميركي جدا وليس فرنسيا ، واذا هبطت فيه دون ان تعرف اين انت فلن تحدس ذلك ابدا فليس فيه شيء فرنسي غير اسمه ! . . .

البـوم والاماتيست

نجم الموسم في باريس هو البـوم .وبعد ان كان رمزا للتشاؤم صار الان (بورت بونير) التفاؤل . تجده على اغلفة كتب الاطفال ، وعلى ضفاف السين بشكل لوحات ، وفي دكاكين المفروشات بشكل (بيبلوه) غالي الثمـن ، وبشـكل آنية للزهـور او وعـاء للمظلات او بشكل بروش من الماس والبلاتين . . . ذلك الطائر السيء السمعة استطاع اخيرا اقناع البشر بأنه ليس هو المسؤول عن مآسيهم وشرورهم ! ونجم الموسم الثاني في باريس هو احجار الاماتيست بكل صورها . . . والاماتيست حجر طبيعي شبه كريم ، يوجد بشكل صخور بلورية شفافة ذات الوان ساحرة بنفسجية او ارجوانية وهو نوع من انواع الكوارتز المتعدد الالوان من بيضاء شفافة او ذهبية او مخضرة وغيرها . . وفي باريس اليوم دكاكين متخصصة ببيعه كما تجد بعض الحلى الرخيصة نسبيا المصنوعة منه ، ولا يخلو ديكور واجهة (بـوتيك) في باريس من احجـاره ، ويستعمـل لجلـب الانتبـاه الى بقية البضائع ! . . .

اللبنـانيون موجـودون بكثـرة في باريس ، بصـورة خاصـة عنـد الارصفـة بـين الشانزليزيه والاوبرا ، ويقربهم من باريس اتقانهم للفرنسية بالاضافة الى عظمة باريس فنيا وتراثيًا ، وحتى نسائيا (لمن يفضل ذلك) . . .

موضـة حــواء

ذهبت لشراء مايوه ، فاخرجت لي البائعة قطعة قماش بحجم طابع البريد يتدلى منها خيطان وقالت : ١٠٠ فرنك . سألتها : ولكن اين المايوه ؟ قالت : هذا هو المايوه ! . .

ففي العام الماضي قررت القطط الباريسية الاستغناء عن النصف الاعلى من البيكيني ما دامت القطط لا ترتديها ، وهذا العام قررن العودة الى (التراث) وذلك بارتداء زي حواء الاسطوري على الشاطىء وتوفيرا للمصاريف تكفي الخيطان لربط (المايوه الرمزي) ! . . وفي « الكوت دازور » اجتاحت الموضة اكثر الشواطىء ، واجتاحت صور العاريات اكثر الصحف ، ومن المتوقع ان تغلق نوادي العراة ابوابها بعد ان انتفى مبرر وجودها ، وصارت « سان تروبيز » نفسها ناديا واحدا كبيرا للعراة .

مسرح أزلي

شوارع باريس هي باستمرار ديكورات عريقة للكوميديا الانسانية التي تدور على ارصفتها وفي مقاهيها وخلف نوافذها . . . وانت تستطيع ان تجلس في مقهى الرصيف لتتأمل حولك عشرات المسرحيات الازلية ولا يكلفك ذلك اكثر من ثمن فنجان قهوة ! . . . ولكن اغراء المسرح الباريسي الليلي لا يقاوم خصوصا حين يكون قلبك حزينا والمسرح ساخرا . . .

وفي مسرح (دورساي) ذهبت لمشاهدة فرقة (السيرك السحري الكبير) وهي تقدم احتفالا مسرحيا بعنوان « من موسى الى ماو » . . . وكما هو واضح من العنوان ، تروي المسرحية ابرز الاحداث التاريخية والانسانية من موسى الى ماوتسي تونغ بأسلوب يكثف السخرية الفرنسية الرائعة . . . ويقول المؤلف انه يروي احداث مسيرة البشرية كما يمكن لطفل ان يراها (اي لعين جديدة = عين فنان) ، وطوال مدة المسرحية يضحك الانسان من نفسه ، ومن احداث التاريخ ، ويرى كل شيء بعين هزلية ويضحك كثيرا بحزن .

والمسرحية كرست اهتماما كبيرا للسخرية من الاميركان ، ومن الواضح ان الفرنسيين لا يحبون الاميركي ولكنهم يحبون الدولار ، وهم في مسرحهم ينفسون عن (اعجابهم) باميركا . . . وقد انسحبت سائحة عجوز اميركية ثرية كانت تجلس في المقعد خلفي وتتحدث قبل بدء المسرحية بصوت مرتفع جدا عن مغامراتها العاطفية منذ الايام الغاربة لعذريتها ، وقد انسحبت منذ الفصل الاول احتجاجا على السخرية من الاميركان واراحتنا منها . . . ومن تاريخها الجنسي ! . . . لا تترك المسرحية شيئا لا تسخر منه . . . من موسى الى المسيح (الذي تظهره المسرحية مشاغبا وميالا للعنف حتى انه يصر ان يوكل اليه دور الجلاد الذي سيقطع رأس فرنسا بالمقصلة !) الى فرنسا نفسها ، حيث يحكمون بالاعدام على رمز الجمهورية (تمثل دورها امرأة تشبه تماما صورة المرأة التي نراها على العملة الفرنسية وترمز للحرية !) ، ويسخرون من العلماء كفرويد وقروده ، وانشتاين

ونسبيته ، ومن رجال السياسة ونجومها كالقيصر الروسي وابنته المزعومة الاميرة انستازيا ، ونابليون (الذي يمثل دوره قزم) وجوزفين ، ولا ينسون رجال الفن والادب ، فحكاية شوبان وجورج صاند العاطفية الشهيرة تثير الضحك . . . نضحك من كل شيء : انسان العصر الحجري وانسان الذرة ، ومن الصينيين ، والرومان ، مصرع يوليوس قيصر ، والهنود الحمر ، والصليبيين ، وجان دارك ، ومن فولتير وبلاط لويس الرابع عشر (حيث يتركز نشاط فولتير في مسح مؤخرة ملكه !) ، ثم سقوط الباستيل . . ولعل من اطرف المشاهد مشهدا كرس للسخرية من راقصات التعري - (الستربتيز) - حيث تظهر احداهن وهي تتعرى كما في الملاهي واخيرا حين تخلع كل ثيابها باغراء مبالغ به ، وتأتي اللحظة الحرجة وتتعرى تماما لنكتشف انها رجل ! . . . ولا تنسى باريس الضحك من الحروب العالمية والعسكريين والبيض والسود والنعيم والجحيم وسارة برنار وكل ما يخطر او لا يخطر بالبال .

في هذا الاستعراض المسرحي الممتع ، يلحظ المتفرج انه بدأ يألف العري التام على المسرح . . . ففي مسرحيتي (هير) ثم (اوه كالكوتا) قامت ضجة هائلة لظهور الممثلين عراة تماما للمرة الاولى على المسرح . . اما الان فيبدو ان العين الاوروبية قد الفت ذلك تماما والسرير الموضوع بين صفوف المتفرجين (كامتداد للمسرح) حيث يمارس بعض الممثلين والممثلات الجنس اثناء المسرحية يلفت اهتمام الغرباء فقط بينما يتابع الجميع المسرحية التي تدور على مصاطب مختلفة موزعة في القاعة باهتمام موزع ومتساو ويظهر الممثلون (رجالا ونساء) في اكثر المشاهد عراة تماما ، ولكن ذلك بدأ يصير امرا مألوفا تماما وجزءًا من تقاليد المسرح الغنائي الراقص الحيوي الايقاع . . . ولعل (احدث) ما في المسرحية هو ما يصيب الجمهور من الممثلين الذين يقفزون بين المقاعد متنقلين على مصاطب العرض المتعددة . . . واحيانا ينسجم الممثل في دوره إلى حد مرعب ، فقد هجم احدهم وهو يرتدي قناع دب على فتاة تجلس الى جانبي وبدأ يخنقها وهي تصرخ ولم يعرف احد فيما اذا كان يقصد مداعبتها ام انه انسجم في دوره اكثر مما يجب . . . اما الفراقيع التي استخدمت لتمثيل الحربُ ، فقد شكلت سحابة كثيفة في جو القاعة اسالت دموع المتفرجين وصاروا جزءا من المشهد الباكي عن الحرب والضاحك ايضا . . . . وقد سقطت بعض الاسماك على رؤوس الحاضرين واستقر حذاء احد الممثلين في حضن الشاب امامي واما القطة المذعورة التي استعانوا بها في احد المشاهد فقد استقرت اظافرها في ساق امرأة مجاورة . . . ونجوت انا بأعجوبة . . . وحين انتهت المسرحية كان المتفرجون

يهنئون بعضهم بعضا على سلامتهم من العرض المجنون !

ليست فكرة المسرحية وحدها هي الممتعة ، والتي تلقي بنظرة مدهشة السخرية على تاريخ الانسان الهزلي جدا حين نفكر به بعين فيلسوف لا معقول الرؤ يا للوجود ، بل ان حيوية المسرح الفرنسي واسلوب الفرقة في العطاء وفي مد الخشبة على طول الجمهور وجعله ممثلا في المسرحية هو ابرز ما في تلك السهرة الفرنسية . .

ويبدو ان هذه الفرقة المسرحية لا تتلقى من وزير الشؤ ون الثقافية اية معونات ، ولذا فان الممثلين يوزعون قبل البدء بالمسرحية منشورا فيه بطاقة بريدية راجين كل الذين أرضاهم العرض المسرحي ان يبعثوا البطاقة بالبريد الى الوزير المسؤ ول عن توزيع المعونات الرسمية . وتقول البطاقة :

سيدي الوزير . لقد اضطررتني لدفع ٥ فرنكات اكثر مما يجب ثمنا لبطاقتي في « السيرك السحري الكبير » . وبما ان سبب رفعهم للاسعار هو انك لا تمنحهم اية معونات رسمية مادية ، لذا ، يمكنك ان تزيل الغبن الذي لحقني بأن ترسل لي المبلغ المذكور الى عنواني ادناه ! التوقيع . . .

المتحف الوطني للفنون الحديثة أم الجنون ؟!

في المتاحف الفنية ، احاول دائما ان انظر الى لوحات المشاهير بحياد ، دون ان اسقط تحت سطوة الاسم الكبير . في المتحف الوطني للفنون الحديثة بباريس وقفت مثلا امام بعض لوحات بيكاسو وسألت نفسي بحياد : لو وجدت هذه اللوحة في السوق بدون توقيع معروضة للبيع بسعر معقول ، هل كنت اشتريها ؟ وبدون خجل كان الجواب : لا . فيها تقنية حاذقة تفوق لمعة الابداع وهو امر لا احبه عادة ! . . . بيكاسو احبه في « المرحلة الزرقاء » فقط .

توقفت طويلا امام اعمال بيكاسو وبراك ، وبلا خجل تساءلت : ترى هل تبقى اعمالهم كلها في المتاحف بعد عصور ام يغربلها التاريخ ؟ . . . توقفت امام اسماء كبيرة لمشاهير ، ولم احس بالكثير امام اعمالهم ، ظللت خارج اللوحات لاهي تقتحمني ولا انا اقتحمها ، ولم اجد سببا للخجل من اعلان ذلك . . . شيء واحد يجعلني اتحفظ قليلا في موقفي من اكثر اعمال الفن (التجريدي) ، وهو موقف بعض المثقفين السلبي من بعض الاعمال التي خلدت فيما بعد وكان ذنبها الوحيد هو انها سبقت عصرها . . . فهل هذه اللوحات التي تبدو لي مليئة بالضجيج الفارغ وفقاعات الغضب هي اعمال خالدة وسبقت عصري وانا التي اعجز عن تذوقها ؟

هذا ما لا يمكن ان يؤكده أو ينفيه الا الزمن ، وأجيالٌ اخرى . . .

وربما لن يكون علينا ان ننتظر اجيالا اخرى بعيدة . . ومنذ الآن بدأت تظهر في الوسط الفرنسي الفني المثقف ردة فعل ضد (تأليه) بيكاسو ، وبدأت نظرات نقدية حيادية تعبر عن رأيها في بعض اعماله الاخيرة دونما خجل من اسطورته الكبيرة . . وفي عيد متحف « الماغت » الفرنسي العاشر ، اجتمعت نخبة من الفنانين الكبار ومعاصري بيكاسو الذين لا يقلون عنه اهمية في تأثيرهم الفني على عصرهم امثال كالدير وميرو ، وعبرت زوجة ميرو عن موجة اعادة تقييم بيكاسو حين اعلنت « بيكاسو نفسه اعترف ذات يوم بأنه رسم ثماني لوحات فقط ، وكل ما تبقى من رسومه كان مجرد اعادة وتكرار . . لقد كان مقلدا ماهرا لنفسه ! . . لقد اصبح بيكاسو عبقريا فنيا وهذا خطأ . هنالك رسام جيدولكن ليس هنالك رسام معصوم » . . (عن مجلة النيوزويك العدد ٥ آب ١٩٧٤) .

وتنقلت بين اعمال شاغال ورؤوسه الطائرة في الفراغ ، وكاندينسكي وخربشاته وماتيس ومنحوتاته ورسومه . . . وهنا لا بد لي من ملاحظة ثانية . . . وهي انني احببت اعمال اسماء غير مشهورة عالميا اكثر بكثير من اعمال (النجوم) الذائعي الصيت . . احببت مثلا اعمال راؤ ول دوفي وبونار وفويار وماركيه ولوس وقدرتها وفضلتها بما لا يقاس على اعمال ماتيس المكرسة عالميا . . ومما لا شك فيه ان (النجوم) صناعة علاقتها بالفن غير وثيقة او على الاقل غير اكيدة دائما . . . مايكل انجلو مثلا اعتقدت بعد ان شاهدت اعماله ان شهرته العالمية هي اقل مما يستحق . . انه اكبر عبقرية من العبقرية . . يخيل الي ان اعادة تقييم (النجوم) في الفن عمل ضروري كل مئة عام (اي بعد انقضاء قرن على الاقل على وفاة النجم) .

تابعت تجوالي في المتحف الشاسع واحببت بعض الاعمال الحديثة ، وكل ما احببته كان لاسماء نصف مشهورة . لفت نظري بيكابا في بورترية من المرحلة الدادية . عين شاسعة برموش واخرى بلا رموش (هي التي استوحى منها مخرج فيلم « البرتقالة الالية » صورة بطلة دون الاشارة الى المصدر !) . .

سلفادور دالي من الرسامين الذين يكتبون بالرسم ، ولوحته « استحضار صورة لينين » هي بيانو كل اصبع فيه هو وجه لينين .

لوحة لروي اسمها « يوم في الريف » ، رسم فيه كأس نبيذ هائل الضخامة وبيض واطعمة مختلفة بحجم كبير ، بينما القلاع والقصور صغيرة في ركن الصورة . فالبطن يأتي اولا ! . .

بيلمير صنع تكوينا لامرأة فيه اعضاؤها التناسلية تغطي الجسد ، اما الرأس فمقطوع وملقى باهمال . . . انها صرخة فنية ذكية من اجل انسانية المرأة . . .

جياكوميتي من المشاهير القلائل الذين احبهم ، والمتحف غني بأعماله ذات الطابع الخاص الاصيل .

وتتوالى الفظاعات والاشياء الجميلة (ولكن من هو المؤهل ليكون حكما ؟ كل ما اكتبه هو بالنتيجة انطباعي الشخصي) . هنالك مثلا لوحة لفنان اسمه بوي وهي عبارة عن نتف من الخيش الممزق ملصق على هيكل لوحة .

هنالك لوحة لرينهارد كلها سوداء تماما . هنالك لوحة لبيشوب كلها بياض تماما . هنالك لوحة لروتكو اسمها « غامق فوق البني » وهي فعلا لون غامق فوق بني شاسع !

ولكن لا بد من ومضات تحبها بين الحين والاخر . هنالك مثلا عمل اسمه قاطعة التذاكر يمثل امرأة داخل (الكيشيه) على مدخل مسرح ، وينطق بالعزلة والحزن والكآبة المعاصرة .

هنالك ايضا اعمال لفنانة رائعة اسمها « انيت ساجيه » مختصة بتحنيط العصافير الصغيرة ، ثم غرسها بالمسامير على طول لوحة اسمها : سكان البنسيون ! . . .

وعصافيرها بشر مسحوقون يرتدون التريكو والبلوزات الانيقة ولكنها دوما تصلبهم من القلب بسكين او مسمار . . . الى جانب اعمالها هنالك اشياء اخرى تحار في تصنيفها . . . ادراج بداخلها طائرات من الورق وسكة حديد من الطين وجمجمة من المعجون وقد غرست فيها مجموعة من المسامير .

فن أم قرف ؟!

هنالك علبة (بسكويت) اسمها « لحظة من حياة كريستيان بولتنسكي » وفيها قطعة من (فضلاته الجسدية) ! . . . (الفنان الايطالي مانزوني عرض في متحف الفن الحديث بروما « فضلاته » بعد ان عبأها في علب كونسروة خصيصا للسياح الاميركان ، وعلى جدران المتحف صورة في مرحاض بيته اثناء ممارسة « عملية الخلق » هذه) .

جنون ؟

ارمان قدم لوحة ركب فيها حوالي ١٠٠٠ لمبة مختلفة الاحجام والاشكال من لمبات الكهرباء المنطفئة ! . . . هنالك (فنان) آخر الصق على لوحة خشبية ضخمة كل (كراكيب) المطبخ وآنيته الصغير كأنه يحاول ان يقول لنا : الحياة مجموعة تفاصيل توافه صغيرة (فهل قالها ؟ . .)

هنالك دراجة عادية ولكن لها جناحا فراشة ، واجنحتها الزجاجية الشفافة هائلة الضخامة تبلغ حوالي ٥ امتار طولا ! . .

هنالك عروس ضخمة ، هائلة الضخامة المفروض انها في ثوب الزفاف ، وجهها وجه مومياء وشعرها من قش فزاعي الطيور وجسدها خرق ومفكات وبراغي وسحالي وبقايا لعب اطفال مرشوشة كلها بالكلس الابيض ! . .

وتمر بما تظنه جهازا لاطفاء الحريق ، ثم تكتشف انه تركيب لفنان حديث هو رينو . . .

تأتي الى لوحة بيضاء كتب فيها الفنان في امكنة مختلفة : شجرة . بيت . نافذة . طائر . . . ولم يرسم هذه الاشياء كلها في مواضعها !! .

هنالك تكوين رائع من البرونز للفنان ارنست فيه سخرية من الملوك القدماء ، فللرجل رأس ثور ضخم القرنين ، والمرأة مهرجة ، وصولجانه وجه عفريت .

تتابع الرحلة داخل سراديب المتحف . تلتقي برجل عصري الزي مفتوح ومشروح من الاعلى الى الاسفل وقد اندلقت امعاؤه . لا تخف . انه تمثال ! . . .

هنالك ايضا خوذات عتيقة مهروسة مع مداخن سود .

بعدها تلتقي بفنان رائع المنحوتات هو جونزالس ، في اعماله حزن شفاف والتصاق بفلاحي بلاده ، واجمل اعماله صورة امه ـ التراث . تخطف انتباهك ايضا منحوتات زادكين واورلوف وجارجالو الذي نحت رأس بيكاسو وابدع . . .

وقد ختمت جولتي في المتحف امام تكوين لسيزار بالداتشيني هو عبارة عن سيارتين معجونتين معا في حادث اصطدام ، وخرجت من المتحف وقد اصاب رأسي بعض ما اصاب السيارتين ! . .

الناي الافريقي في باريس

اكثر ما هزني في باريس شاب ملامحه تدل على انه من شمال افريقيا (المغرب . تونس . ليبيا ؟) ، وكان يعزف على ناي شرقي وقد وقف في احد سراديب المترو . . . وكان صوت الناي شفافا وعذبا وحزينا ، وحملني بعيدا بعيدا الى عوالمي الحقيقية ، وملأ قلبي بغصة الشوق والحنين . . .

ثم وصل المترو ، واطبق بفكيه عليه . . وضاع الصوت . . والصدى ؟

روما ٢٦/ ٨/ ٧٤

بائعة بنفسج على ابواب الليل !

« إن من لم يشم زهرة قط ، لم يتأمل نجمة ، لم يحب ، لم يفعل شيئا في حياته سوى جمع الارقام والحسابات . . . شخص كهذا ليس انسانا . انه طحلب ! . . » (من « الامير الصغير » - سانت اكزوبري) . وكان شارع الاناقة في باريس - « فوبور سانت اونوريه » - مليئا بهم ، ببشر من فئة الذين لم يتأملوا نجمة ، ولم يشهقوا مرة حبا ، ولم يحتضنوا زهرة ، وجيوبهم منتفخة بالنقود ، وبدفاتر الشيكات لحالات الطوارىء - وجولة شراء ثياب في « السانت اونوريه » هي طبعا حالة طوارىء قصوى ! . .

كنت اتسكع في ذلك الشارع . لا أتأمل الدكاكين ذات الاسماء الشهيرة جدا (كاردان - ديور - لابيدوس) وانما اتأمل المشترين ، وكان بينهم عدد هائل من العرب ، وكنت مثل بائعة البنفسج على ابواب الليل ، اتأمل ما يدور دون ان تكون لي اية علاقة بعالمهم المرعب . . . ولاحظت اقبال العربيات على شراء الثياب التي تحمل توقيع احد مشاهيرمصممي الازياء . « ايشارب » بشع الالوان يدفعن ثمنه مبلغا خرافيا لمجرد ان احد ربابنة الموضة الاوروبيين مهره بحرف واحد من إسمه ! . . جميل اقبال المرأة العربية على الاناقة ، ولكن لا علاقة بين الاناقة وشراء البشاعات الغالية الثمن لمجرد انها تحمل توقيع مبتكرها . والرجال يشترون « كرافتاتهم » بمبالغ باهظة. ويحرصون على ان يكون « التوقيع » ظاهرا ، فالتوقيع بالنتيجة بمثابة ارتداء « الكرافته » وقد كتب عليها سعرها ! . .

وفي اسواق روما لاحظت الشيء ذاته اي اقبالا عربيا على بشاعات أزيائها لمجرد ظهور الامضاء بشكل بارز تمكن رؤيته في اعتم علب الليل . . . (وتذكرت قول اوسكار وايلد : « الموضة هي نوع من البشاعة الى حد ان المرأة تضطر الى تبديلها كل ستة اشهر ! ») .

هذا الهوس بشراء الثياب الموقعة يعني شيئا واحدا : الرغبة في استعراض الثراء والقدرة الشرائية .

اقتراح : لماذا لا يعلق كل ثري عربي معقد او « نوفوريش » على صدره بطاقة تحمل

رقم ثروته في البنك ، ويريحنا من هذه البشاعات ويريح زوجته من ارتداء الفراء والمجوهرات والثياب الممهورة بامضاء المشاهير ، والتعبير عن ذاتها بملابس بسيطة وأنيقة ولا يشترط أن تكون ثمينة ؟!

ألا تشعر اكثر زوجات الاثرياء في بلادنا انهن لسن اكثر من مجرد عارضات لطاقات ازواجهن الشرائية وعضلاتهم المالية ، وربما كان ذلك هو السبب الوحيد لاصطحاب الزوجات الى الحفلات الرسمية الساهرة ؟ ! .

واذا كانت بطاقة صغيرة برقم الثروة لا تكفي ، يمكن ان يجعلها السيد الثري من « النيون » الملون كما في اعلانات سهرات « اضواء المدينة » او واجهات الحانات الملفتة للنظر . . . وتضاء بالبطاريات في الجيوب !

* * *

لا ادري ماذا دهى الناس في اوروبا ! ففي زيارتي الاولى للندن منذ اعوام ، ذهلت اعجابا امام احترام الفرد للقانون . وبالنسبة الى السائح كان هذا الاحترام يتجلى بشكل خاص في التزام قانون المرور . وذات ليلة كنت اركب « التاكسي » في لندن في الساعة الرابعة صباحا ، والشوارع خاوية ، وكان السائق يقف امام اشارات الضوء الحمراء ولا يتحرك الا حين يضيء الاخضر وقلت له يومها : لماذا تتوقف امام الضوء الاحمر والشارع فارغ امامك ، والمدينة كلها نائمة ؟ »

قال : « ولكن القانون لا ينام يا سيدتي ! »

كان ذلك منذ اعوام . . .

اما اليوم فيبدو ان القانون ذهب في لندن ليتعاطى المخدرات مع الهيبيز وينام ليل نهار . السيارات تخالف اشارات السير ، والمارة يتسللون بين السيارات كأن اضواء المرور الحمر والخضر وضعت لتنظيم سير الحمام اللندني لا البشر . وحده الحمام لا يخالفها . اما الناس ففي فوضى اين منها فوضى ساحة البرج في بيروت .

الامر نفسه ينطبق على باريس ورو ما وكل العواصم الاوروبية التي زرتها مؤخرا ، حتى انني لم اشعر بالغربة ابدا من هذه الناحية اذ كانت فوضى السير شبيهة بما يجري في بيروت . وكل آداب المرور التي تعلمناها (بمعجزة) نسيناها في اوروبا . . . ماذا حدث ؟ لا ادري ! كل ما اذكره ان سيارة اجتاحت طفلا بجانبي على جسر نهر التايبر في روما وقذفت به الى النهر وظلت منطلقة ، بينما وقفت انا ارقبه يغرق ويموت في القاع البعيد وقد انعقد لساني وجسدي . ملعونة هي الحضارة الالية التي تخترع السيارة قبل ان يكون

الانسان قد تطور انسانيا ليكون على مستوى هذا الاختراع . . .

وما دام الانسان وحشا ، فستظل كل سيارة مجرد رشاش متحرك مستمر الطلقات ولا احد يدري متى تصيبه منها طلقة !

وحلمت ليلتها انني احمل سيارات العالم كلها ، واحدة واحدة ، لارمي بها في نهر التايبر . . . واستيقظت مهدمة كما لو انني مارست ذلك حقا !

* * *

ايها الشقي ،

امام بركة تريفي بروما وقفت ،

والى جانبي اكثر من سائحة تنفذ وصية الاسطورة : ترمي بقطعة نقود في البركة وتغمض عينيها وتهمس باسم حبيبها ثلاث مرات . . . (تقول الاسطورة ان من ينادي حبيبه امام هذه البركة لا يفقده ابدا . . . وتتحقق امنياته) . . .

اما انا ، فلم ارم في البركة بقطعة نقود . اجز رأسك ايها الشقي عند العنق ، وارمي به في الماء . . .

روما ٢٩/ ٨/ ١٩٧٤

مدينة التاريخ تبيع ماضيها ! . .

روما . . . اخيرا روما . . .

واطوي مظلتي التي ثقبتها امطار الصيف اللئيمة في اسكوتلندا ولندن وباريس . . .

وتفتح شمس البحر الابيض المتوسط ذراعيها وتضمني حارة ، ودية . . وتهب من مدخل روما رائحة بيروت . . . واغص بالحنين . . . وفي مدخل روما يطالعني ذلك الهرم الصغير . . . واتذكر آثار مصر المسروقة على مر العصور ، المنتشرة في متاحف اوروبا كلها ، والمسلات الفرعونية الضخمة التي طالما شحنتها بواخر نابليون ثم الانكليز وصلبتها في شوارع مدنهم . وسألت الايطالي المجاور في الباص : وهذا الهرم الصغير ، سرقتموه بأكمله من مصر ام ترانا هبطنا خطأ في الجيزة ؟ قال ضاحكا : لا ، هذا من صنع ايطالي محلي . وقد اتم بناءه عام ١٢ قبل الميلاد القاضي في محكمة الشعب كايوس سيستيوس الذي حلا له ان يدفن فيه . . . مزاج !

وكررت كلمته مزاج . (وفكرت في انني اتمنى ان يكون سقف قبري شفافا كي ارى الشروق ، وشمس الظهيرة ،سقوط اوراق الخريف ، وطلوع القمر الحزين خلف سحب الشتاء) . . .

وفي الطريق من المطار الى قلب روما تجد نفسك في نزهه سياحية مجانيه ، فانت تمر بكثير من معالم روما الاثرية الهامة كـ « الكوليزيوم » ونصب النصر وبعض الكنائس القديمة الجميلة ، امثال « سانت بول اوتسايد ذي وول » .

والواقع انك مهما جهدت للهرب من التاريخ في روما فلن تستطيع . ومهما كنت حريصا على عدم الثقافة او الاحتكاك بالفن ، فان الفن سيحاصرك ويطل عليك من نافذة اي فندق تقيم فيه ، واي شارع تسير فيه ، واية ساحة تجوبها بنات الليل . . .

فروما عجينة التاريخ المخبوزة في فرن الزمن والعراقة . . .

ستحس بالالفة في روما ، فمزاج الناس مشابه لمزاجك ، اي انهم عصبيو المزاج وعاطفيون ونزقون طيبو القلب وثرثارون مثلي ومثلك . . . وسائق « التاكسي » لا بد وان

يروي لك قصة حياته وهو يوصلك إلى الفندق . . . وسيرويها بالانكليزية أو بالفرنسية او بالايطالية سواء فهمت ام لا ! المهم انه سيثرثر . . . ولن تشعر بالغربة التي تحسها مع سائق « التاكسي » البريطاني الذي يعاملك كما لو انه كان ملكاً تنازل عن العرش قبل نصف ساعة ! . .

ولكنك ستحس في روما ايضا بالدهشة والسحر . . فالابداع طاقة لا تخمد ، تتفجر من التماثيل المزروعة في الشوارع ، وتجد نفسك اسير عظمتها . . . ولا تملك الا الانجراف في رحلة الركض وراء الجمال في روما . . . وقد تقودك الرحلة الى خارج روما ، الى فلورنسا وحتى البندقية في اقصى الشمال . . . فاذا احببت مايكل انجلو مثلا ، ستجد نفسك مثلي مسافرا الى فلورنسا لترى المزيد منه . وفلورنسا تجرك الى البندقية . . . والبندقية تجرك الى الافلاس والعودة الى بلدك عطشا كمن شرب من ماء البحر . . . ولم . . .

التسكع . . . فن

في اكثر من مدن الدنيا التسكع استرخاء الا في فيينا وروما . فالتسكع دورة دراسية فنيه . . . فاذا خرجت مثلا تتسكع في « الفيافينيتو » او « شارع الحمراء » في روما ، وانحدرت قليلا في الشارع حتى ساحة برنيني ، فستجد نفسك امام البركة الرائعة التي نحتها برنيني الخالد عام ١٦٤٠ وفيها اربع اسماك تحمل صدفة يخرج منها كائن خرافي ينفخ في بوق فيخرج الماء من مزماره . . . واذا ذهبت لشراء الهدايا قرب « بياتزا نوفانا » فسوف تنسى كل شيء عن « الشوبنغ » وتجد نفسك امام عمل عظيم اخر من اعمال برنيني اسمه الانهار ، وستطالعك ايضا بركة المغاربة امام كنيسة اثرية متميزة في فنها المعماري « بوروميني » . واذا تابعت المسير على غير هدى فستظل تصطدم بالانصاب التذكارية الرائعة المشيدة على مر العصور . . . وسترى نصب « فيتورياني » (اي النصر) مطلا عليك من قمة تل « الكابيتولين » . الادراج العتيقة ستطاردك ، وستتسلق قدميك ـ أي الادراج ـ فتقودك الى الكنائس الاثرية حيث تسمع موسيقى باخ على الارغن تنهمر كالمطر المضيء لتغسلك . واذا ذهبت بحثا عن « الهيبيز » في روما (مركز تجمعهم الرئيسي في « الدرج الاسباني ») فستجد نفسك امام تحفة فنية من نوع شرقي الايحاء . . . فالبركة اسفل السلم لها شكل قارب حجري (باوهامك تبحر به الى حيث تقذف بك ريح الشوق ـ اسمها نافورة . . الزورق القديم وهي من اعمال فلورنتين برنيني) ، ثم تقودك الازهار على جانبي السلم ، وفي ذورته تطالعك روما ، تنفتح امام عينيك كوردة حارة . وتتأمل

« الهيبيز » . . . لا شك ان بينهم موهوبـاً واحداً او مبدعاً واحداً ، فقد كان هذا الدرج دوما نقطة جذب « للهيبيين » والمبدعين منذ قرون ، وقد سكن « الهيبي » شيللي مع صديقه « الهيبي » كيتس في البيت المطل على الدرج هاربين لفترة من صقيع انكلترا ودخل اسمهما في المعاجم مع لقب « الشاعرين الخالدين » .

هل سمعت ببركة « تريفي » ؟ البركة التي يفترض ان ترمي فيها بقطعة نقـود ثم تهمس بأمنيتك فتتحقق ؟ بعيدا عن القيمة العجائبية للبركة ، فانها آية من آيات النحت ، وقد حققها المثال الروماني نيقول سالفي وتتفجر منها مياه « ينبوع العـذراء » ، وتـدور حولها اساطير تعود بأصلها الى القرن الاول قبل الميلاد . . . هذه هي البركة المفضلة لدى العشاق ، ومن المفروض ان من يذكر اسم حبيبه امامها لا يضيعه ابدا . . . (لي صديقة جربت ذلك ، فتشاجرت مع حبيبها امام البركة وافترقا !) .

مايكل انجلو . . العظيم

حتى ولو كنت قد زرت « السيستينا » في الفاتيكان من قبل فستجد نفسك ذاهبـا كالمنوم لزيارتهـا ثانية ولـرؤ ية عمـل فنـي فريد ليس في تاريخ الفـن ما يشبهـه ابداعـا ومثابرة . . . مئات الامتار المربعة على الجدران والسـقف (السـقف وحـده ٥٢٠ متـرا مربعا) تصور حكاية البشرية ، وكل مليمتر مربع منها مدينة ابداع . . . خلدها مايكل انجلـو وخلدتـه . . . واذا كنـت لـم تشاهدهـا فسـوف يرغمـك الـدليل على الذهـاب اليها . . . ولن تندم . استغرق رسم القبة اربعة اعوام (بين ١٥٠٨ و ١٥١٢) واستغرق رسم الجدران ستة اعوام ! . . وداخل « السيستينا » ، تجد السائـح الامـيركي التقليدي الذي يدخل بسرعة ، ويجيل نظرة عابرة على الجدران والسقف (اللـذين استنزفـا عشر سنوات عذاب من العبقري الذي رسمها) . ويصرخ السائح الاميركي مهرولا وهو يلقي نظرة عابرة) « اوه . . كم هذا جميل ! » ثم يلتقط لنفسه صورة تذكارية داخلها ، ويتابع سياحته مهرولا . المهم ان يخبر الجيران في كاليفورنيا انه شاهد « السيستينا » ويعرض لهم صورته بالالوان في المصباح السحري بينما هو يلتهم « البوب كورن » و « الهامبرغر » بـ « الكتشاب » ! . .

والى جانب السائح الاميركي التقليدي الذي ينظر الى الاشياء دون ان يراها او ينفذ الى داخلها ، ورغم ذلك يشهق باستمرار اعجابا (اوه ! . . بيوتيفول !) ، تجد عشاق الفن الحقيقيين . يجلسون ساعات يتأملون الدقة في الخلق الفني ، وتلاميذ الفن يتعلمون من ريشة مايكل انجلو وصبره الكثير ، ويعودون في اليوم التالي برقاب متشنجة العضلات

لكثرة التحديق في السقف . (شاهدنا جانبا من حكاية رسم مايكل انجلو « للسيستينا » في فيلم « العذاب والنشوة » تمثيل شارلتون هستون) .

هل اتابع ؟ . . .

ما جدوى ذلك ؟ انك لا تستطيع ان تصف الابداع ، ولكنك تستطيع ان تصف اثره عليك ! . .

الموسيقى يجب ان تُسمع لا ان يقرأ عنها . اللوحات يجب ان تُرى لا ان يكتب عنها . التماثيل يجب ان نتحسسها بعيوننا وننصت لحديثها لا ان نسمع وصفا لها . فلأكتف بهذا المقدار ، وان كان كل ما ذكرته هو غيض من فيض . ففي روما الشاسعة تحف فنية كثيرة تنتظر تلامذة الفن وعشاقه . . .

وكلما زرت روما ازداد سقوطا تحت وطأة الاحساس بأن سكانها الحقيقيين هم التماثيل ، وانهم اكثر حياة من سكانها المعاصرين ، وحياتهم اعمق واخصب واغنى انسانيا . . . وكلما زرت روما ، وسقط الليل ورحل سكانها الى مدن النوم ، وجلا الساهرون عن شوارعها ، احس ان حياة اخرى تخفق في ليلها ، وان التماثيل فيها تعيش ، وتتحرك ، وتمارس حياة مليئة بالكثافة والخصب السري ، وحينما امشي ليلا في ازقتها اسمع التماثيل تتهامس والمحها تركض واحس بقشعريرة نشوة خوف وانا اتحرك مع ظلال المدينة المسحورة . . . ليتني اقدر على سماع اغنية التماثيل في روما ، وتسجيل همساتها ! . . ليتني استطيع التقاط انشودة الينابيع المتفجرة من جراح الليل ! . . ليت الحجر يصادقني ويسمح لي بالنفاذ الى داخله الحي الحنون ويروي لي قصص مبدعه الحقيقية ! . . ولكن . . .

الجيتار . . . وأغنية مجروحة

لا تخف . ليست روما كلها مدينة حجرية لعشاق الاثار . . . انها مدينة عصرية لعشاق الحياة ايضا ، الحياة بابسط معانيها واكثرها استرخاء : الموسيقى في الشوارع . . والضحك . . . والجنون . . . والاكل الايطالي المشبع بجوزة الطيب والبهارات وكائنات البحر ، وخمرة العنب الايطالي الملوحة .

وتجد احياء بكاملها مكرسة لذلك ، ولكنها ترغمك على ان تحس اصالة روما وعراقتها .

ففي ازقة رومانية قديمة ، منعت السيارات من الدخول اليها ، تجد مركزا رئيسيا من مراكز الجنون . في « سانتا ماريا تراستيفري » تجد احياء رومانية قديمة ، ارضها بلاط قديم

كما في الشوارع الرومانية القديمة كلها وابنيتها كذلك شبه اثرية من عصر النهضة الاوربية (الرينيسانس) لكنها ما تزال مأهولة وحسنة الصيانة ، وقد تحولت ازقتها بأكملها الى مطاعم . وفي الليل يبدأ الجميع بالغناء مع عازف الجيتار وهو يغني ، ويبكي احيانا وهو يغني . فهو ابن حوض البحر المتوسط حيث العاطفة جزء من التنفس والبكاء امتداد لاغنية القلب . . . وقد يمسح احد السياح الانكليز دمعته سرا ، وتجهش بالبكاء صقلية وتصرخ « اه » فاتذكر سميعة ام كلثوم في بلادي ! . .

وتجد نفسك مساقا لتغني مع الجمع (وقد تبكي ايضا) ، وتتذكر المثل الشهير « حينما تكون في روما تصرف كما يتصرف الرومان » ! وتطبيق هذه القاعدة يريحك كثيرا ، ولكن حذار من التهام الاكلتين الشعبيتين الايطاليتين ، « البيتزا » و « السباغيتي » ، لأن روما لا تجيد طبخهما !!

السينما بدل المسرح

في لندن ، وفي باريس اظل قادرة على ملاحقة حركة المسرح لان حاجز اللغة لا ينتصب بيني وبينها حائلا . . . اما في روما ، فان معرفتي بالايطالية لا تتعدى حوارا (بالاشارة) مع الجرسونات والسائقين ورجال الشرطة حينما اضيع في حي ما وانا مستغرقة في التسكع ! واخرج منه غالبا وقد فهمت عكس المقصود . مرة مثلا ، في الفندق ، دخلت الى غرفتي حرباء كبيرة جدا (حرباية ـ حردون) ، فخفت منها كثيرا وطلبت بالتلفون ان يرسلوا لي من يقتلها ! . . وفوجئت بهم يرسلون لي شخصا كأنه من « المافيا » او القتلة المأجورين ، وفي ظنهم ان هناك من يحاول قتلي او انني اريد توظيفه لقتل احد ! . .

المهم ، اجهل كل شيء عن المسرح الايطالي المعاصر ، وكنوع من التعويض اذهب الى السينما . . . وفي روما اربع دور سينما متخصصة في عرض الافلام الناطقة بالانكليزية والفرنسية منها (سينما « سان سابا » ، وثانية في حي « التراستيفري » وسينما « ارخميدس ») وغيرها ، وفي احداها شاهدت فيلما قديما لشارلي شابلن اسمه « مسيو فردو » . كان شارلو العظيم رائعا فيه ، ومثل دور الاب الحنون والزوج الوفي والقاتل المحترف في الوقت ذاته . . . وكان من الاوائل الذين صرخوا بملء فمهم : « في عالمنا المجنون ينجو المجرم الكبير من العقاب ، ويسقط فريسة السجن المجرمون الصغار . » وعلى بعد امتار من الفاتيكان شاهدت ايضا مسرحية « يسوع سوبر ستار » بعد ان تحولت الى فيلم سينمائي ، وكانت الصالة مليئة بالزبائن وتجار الروحانيات يحصدون الملايين من

جوع الشبيبة الاوروبية الى اليقين . . . وشاهدت المسيح على الطريقة « الهيبية » على بعد امتار من الفاتيكان !!!

اما عن المسرح الايطالي فلم اشاهد غير المسرحيات الصامتة التي تدور في الشوارع . منها مثلا مسرحية شارع « فيا فينيتو » كل ليلة بعد الساعة الحادية عشرة . تخرج سبع فتيات ، بعضهن جميلات ، ويقفن لبيع اجسادهن على الرصيف المواجه للسفارة الاميركية (مصادفة؟!) . ويدهشني الحوار الودي جدا الذي يدور بينهن وبين رجال البوليس . . . كأن بين الجلاد والضحية علاقة جوهرية ، اذ ان وجود كل منهما ضروري لوجود الاخر ! . .

وهنالك مسرحية اخرى تلفت الانظار . . . ففي روما ، بين ساحة اسبانيا و«فياديل كورسو» ، حي من الاسواق ، تمنع السيارات من الدخول اليه . . . وقد فرشه التجار بالسجاد . . . ووضعوا في زقاق اخر مجموعة من المقاعد الخشبية تحميها المظلات وتحيط بها اصص الازهار . يوم الاحد ، حين تغلق المتاجر ابوابها ويمضي اصحابها وزبائنهم من الاغنياء الى اجازاتهم ، يتحول المكان الى سوق للفقراء العشاق ، يجلسون على المقاعد الخشبية مجانا لساعات ولا يرفعون رؤوسهم الى المتفرجين امثالي الا للاستراحة بين قبلة واخرى ! . .

اما « فيلا بورغيزي » فانها تذكرك يوم الاحد بحديقة « الهايد بارك » في لندن . . .

فقد تحولت الفيلا الفخمة الى متحف ، وصارت حديقتها الشاسعة حديقة عامة لابناء الشعب . ترمي بجسدك الذي قدده برد اسكوتلندا الى العشب ، وتترك الشمس تجتاحك والفرح ينمو عليك كعشب سري . . .

في روما تظل اللغة حائلا بيني وبين الالتحام بها ، واحس المدينة مثل حبيب لا اعرفه جيدا لكنني اعي ايقاعه ولدي حس غامض بنبضه ، اتسلل واسبح داخل شرايينه الحميمة رغم كل شيء !

سوق العتيق

تعمل روما طيلة ايام الاسبوع ، ويوم الاحد تخرج لتبيع ماضيها . . .

ويتحول شارع « التراستيفري » صباح الاحد من ارصفة عادية الى سوق تضم كل شيء وتبيع كل شيء حتى السحر . . . فالى جانب اللوحات والتماثيل والاثاث وادوات المطبخ هنالك ايضا « بسطة » ساحر يرتدي ثيابا غريبة كأنه خارج من احد كتب الخيمياء في العصور الوسطى ، وقد استعان بالتكنولوجيا في صورة آلة عجيبة غريبة هي بين

« صندوق الفرجة » و « الكومبيوتر » . . . والمفروض انه يستطيع ان يكشف لك عن حظك وماضيك ومستقبلك ، وبحفنة من الدولارات تجده مستعدا ليحدثك عن مستقبل الكرة الارضية كلها والكواكب ايضا ! . . وهذه هي المرة الاولى التي ارى فيها « ساحر البسطة » واحس انه عجوز « صندوق الفرجة » القديم ، ولكنه تكيف مع الزمن وتطور فتزود بآلة الكترونية المظهر ، ونما حسه التجاري فصار يحدثك عن مستقبلك بدلا من ان يحدثك عن ماضي ابي زيد الهلالي والمرحومة عبلة حرم عنتر ! . .

واذا اوغلت مسيرا في « التراستيفري » ثم انحرفت الى اليسار نحو جادة « بورتابورتيزي » فستجد نفسك امام مشهد طريف جدا . . . ستجد سوقا نادرة من « الانتيكات » . . . كل ما يخطر بالبال من « انتيكات » واشياء قديمة . . . والسوق طويلة طويلة ومليئة باشياء لا تحصى . وقد قررت ان اسجل لمدة دقيقتين كل ما تقع عليه عيني ، واليكم هذه القائمة العجيبة من الاشياء القديمة والالات ذات « الموديلات » التي كف الناس عن استعمالها والتي وضعت جنبا الى جنب حسب الترتيب الاتي : آلة حاسبة . قديس . يوليوس قيصر معتقا . ثريات . تلفزيون . اسماك . اسطوانات . نباتات . سلاحف . ساعات . زجاجات كازوز موديل قديم . كرسي . زيتون . ترمس . « اوبالين » . جوز هند . قش . اثاث منزلي من القصب . اثار رومانية . خشب منحوت . صور اسرة قديمة . « فازات » . ارنب . العذراء . عقود . منخل . مشواية فحم . كاز . شمسية . المسيح . قوالب حلويات . شهادة تخرج جامعية تاريخها ١٩٠٠ . غاريبالدي . قفل باب ومزلاج . عداد امبير . نمر . مغسلة . طربوش . احذية . نباتات « كاكتوس » (صبير) . شتلات . حقائب . مجلات قديمة فوقها المسيح . صوف . عملات قديمة . طوابع . ماكنة خياطة . جلد تمساح . « غرامافون » . مكواية فحم . سجادة . مبخرة كنيسة . بوق . جيتار . سيف . ازرار . سرير طفل مكسور . مكاييل ميزان . كومة لعب عتيقة كجثث مهترئة . . .

وشعرت بالدوار . . . طريف هو سوق « الانتيكات » للوهلة الاولى ، مرعب حينما تتأمله حقا . . . ها هي حياة الناس اي حياتك انت ! تخرج من قبور الماضي ، وتتكدس على الارصفة عارية فتراها كما هي في حقيقتها ، مجرد تفاصيل صغيرة تافهة مهترئة . . . هذه هي حياتك فقط لا غير : مجموعة « كراكيب » . وكل ما تبقى الفاظ يخترعها الشعراء ليسبغوا على الحياة اليومية البشعة ، المرعبة الروتين ، صورة لماعة براقة .

وشعرت انني اسير بين قبور مفتوحة . . . وانفتحت حقيبة ايامي وتناثرت محتوياتها

على الرصيف امامي : اسطوانات . « اتوغرافات » . صور . عقب سيجارة . ثقاب محترق . محبرة . قلم مكسور . ازرار . شال . علب ادوية فارغة . تنك بيرة « هاينيكن » . رسائل بللها المطر . . .

وهربت من زقاق « الانتيكات » مذعورة بينا وقف سائح اميركي يتصور على اشلائي وهو يشهق باعجاب : « اوه . . وندرفول ! »

٢/ ٩/ ٧٤

كيف تزور فلورنسا دون ان تراها !

لـذيذة هي اللحظـات التـي ينطبـق فيهـا قول الشاعـر « وتعطلـت لغـة الكلام . . . » ،ولكنها تستحيل الى كابوس حـين يحـدث لك ذلك في احـدى محطـات السكك الحديدية في روما مع الموظف العجوز المختص الذي لا تعرف لغته ورغم ذلك تحاول الاستعلام منه بغير « لغة الكلام » عن كيفية السفر الى فلورنسا وامكانيات الاقامة والتكاليف ، وغيرها من التفاصيل التي وجدت « لغة الكلام » اصلا لاجلها فقط . . .

ودفعني فشلي الى قبول عرض موظف الفندق : « لماذا لا تذهبين اكسكيرشـن ، اي في باص سياحي متخصص بهذا النوع من الجولات ، يأتي ليلتقطك من باب الفندق ويذهب بك الى فلورنسا وكل الاماكن الرائعـة ، مع بقية السياح ، وفي رفقتـكم دليل يتحدث بكل اللغات ، ثم يعيدك فيما بعد الى الفندق » ؟

وقبلت بلا نقاش ، وكيف لي ان اناقش وانا لا اعرف من الايطالية غير كلمة « سي » اي « نعم » ؟ ! .

* * *

نمت ليلتها احلم بفلورنسا ـ فلورنسا العظيمة ، عاصمة ايطاليا الى ما قبل قرون ، ومركز هام في عصر النهضة ـ واحلم باعمال الفنان الخالـد مايكل انجلـو ، و بآثار آل مديتشي ، وبالمدينة التي يخترق قرميدها نهر ارنو منذ عصور (قرأت كتابا عنها واكتشفت انني اريد ان ارى اشياء كثيرة صرت اعرف مكانها بالتحديد) . . . وحلمت ايضا بالباص السياحي . تخيلته يركض في ريف ايطاليا وسط الخضرة القاتمة والضحكات وعزف الغيتار والنظرات تنضج تحت اشعة شمس البحر المتوسط . سنكون قبيلة ضحك وفرح وغناء ، وسنرحـل الى عظمـة الماضي ونعـود ممتلئـين غبطـة وثـراء انسـانيا . وحلمـت . . . وحلمت . . .

* * *

في الصباح الباكر فوجئت بان الرحلة لن تطول اكثر من يوم واحد ثم نعود ليلا . قلت لنفسي : « اذا لم نضع وقتنا فسنكون قادرين على رؤ ية الكثير » . وفي البـاص

فوجئت بان اكثر ركابه من الذين تجاوزوا سن الشباب منذ دهور . وعزيت نفسي بان السن ليس عقبة بين الانسان والاستمتاع بالحياة . ولكنني فوجئت بأنني محاطة بكمية مرعبة من العجائز الاميركيات اللواتي يبدو عليهن الثراء ، ورغم ذلك قررت ان الثراء ليس جريمة ولا داعي لان اكرههن بل ساكتفي بالحسد !

ومضى الباص متأخرا عن موعده اكثر من ساعة . وبدأ الجميع بالتثاؤ ب ، وحين مررنا بأورفيتو البلدة المسحورة المعلقة بين السماء والارض ، وحلمت انني اطير فوق سطوحها ، ايقظني شخير الياباني خلفي . وسقطت من حالق الى ارض الواقع . . .

اما الدليلة الكريمة فقد استعاضت عن شرح تاريخ ايطاليا بشرح تاريخ اسمها هي ! (واسمها باتريشيا بالايطالية وبياتريس بالفرنسية) وغرقت في ثرثرة عائلية حول اسمها الخالد ، فقررت ان اهرب الى النوم انا ايضا . حتى الشمس لملمت ثيابها الذهبية عن الحقول ومضت لتنام وخلفتنا لصيف شتائي . . .

* * *

في الثانية عشرة ظهرا وصلنا الى فلورنسا . اخيرا فلورنسا ! اطلت المدينة بقرميدها المعتق وعراقتها ، ومنذ النظرة الاولى احسست انني امام صندوق مقفل يضم كنوزا . ونسيت كل شيء عن بشاعة الطريق وسماجة الدليل . وتساءلت ترى من اي متحف نبدأ ؟

وجاء الجواب سريعا : « سنذهب بكم الان الى معمل للجلود يصنع حقائب يدوية واشغالا جلدية جميلة لتشتروا منها ما تحبون » ! من روما الى فلورنسا لنتسوق ؟ ! . طبعا هناك صفقة بين شركة السياحة اياها وصاحب المعمل (ربما كانوا شركاء !) وسكت على مضض .

وتوقف الباص امام دكان الجلود ، فهجمت العجائز الاميركيات وقد استللن دفاتر الشيكات . وفوجئت بأن الكنيسة المواجهة للدكان هي مدفن مايكل انجلو بكل ما فيه من اعمال فنية نفيسة ، فتسللت مع « الاقلية الغاضبة » الى المدفن واسترقنا بعض النظرات الى ما يفترض اننا جئنا اصلا لنراه : شاهد قبره الذي نحته بيده ولم يكمله وهو تمثال بديع رغم انه غير كامل النحت .

بعد ان افتتحت شركة السياحة زيارتنا لفلورنسا بزيارة لمصنع الجلود ، حملنا الباص الى ساحة مايكل انجلو التي تشرف على المدينة باكملها . يتوسط الساحة تمثال دافيد لمايكل انجلو (نسخة طبق الاصل عنه لان النسخة الاصلية في المتحف) . سمحوا لنا بعشر

دقائق من اجل ضرورات التصوير ، فهجم السياح على كاميراتهم وعلى التمثال . . .

وتأملت التمثال . نحته مايكل انجلو حين كان في السادسة والعشرين ولم ينجزه الا وقدجاوزالثلاثين . واراده رمزا للجمال والقوة . التمثال يمثل شابا يحمل في يده مقلاعا في اللحظة التي تسبق اطلاق الحجر ـ لحظة ما قبل القتل ـ وكانت تعابير وجهه حية ومذهلة . وفجأة طارت حمامة وحطت على حجر المقلاع كأنها تقترح عليه الاقلاع عن العنف ! جميل هو حوار الطيور مع التماثيل ، حوار الزمن مع الفن . وضحكت وانا ارى الحمامة تقذف بفضلاتها على مقلاعه ومجده . . . حرمني الدليل من خواطري ، ودعاني بحدة لركوب الباص لانني دوما المتخلفة ـ النعجة السوداء في القطيع ! ودوت صرخة : « الى الغذاء » فتهللت وجوه العجائز الاميركيات !

* * *

لم يأخذونا الى سوق فلورنسية عريقة او مطعم شعبي نشتَمُّ فيه مذاق المدينة الحقيقي . حملونا الى مطعم ضخم بعيد فيه مئات السياح ، كأننا في قاووش مصح عقلي ! قضينا ساعتين ونصفاً من يومنا الثمين في المطعم ذي الشخصية الاميركية (اي لا شخصية له) ، وازدادت الكروش انتفاخا ، وسرالجميع بالوجبة الضخمة ، وابتلعوا كميات مرعبة من النبيذ فلم تعد لاحد رغبة في غير النوم .

في الركن كان الدليل وزميلته يتغازلان ، وكانت كنوز فلورنسا لا تزال تنتظر ، وقلبي يتمزق ، فأنا لم اجيء من روما الى هنا (اربع ساعات بالسيارة) لاتناول طعام الغذاء !

* * *

اخيرا ذهبوا بنا الى متحف ، يضم النسخة الاصلية لتمثال دافيد وبعض اعمال مايكل انجلو غير المنتهية . كان الدليل يهرول في الردهات راكضا والسياح يترنحون حوله ثمالى . نصف ساعة فقط ثم الى الباص من جديد . ثم متحف اخر (بيتي) . كان متحفا ضخما فيه اروع اثار ليوناردو دافنتشي وبوتيتشيللي ورفائيل وانجلو وغيرهم من الاقل شهرة وربما الاكثر ابداعا . كانت الدليلة تهرول ، وحولها شابان يتأملانها بدلا من تأمل اللوحات (اكتشفت فيما بعد انهما لبنانيان !) ، وهي تبدو سعيدة جدا بهذا الغزل الذي لا تستحقه . وحينما وقفنا امام رائعة بوتيتشللي الخالدة (فينوس تخرج من الصدفة) اخرجت هي بطاقتها واعطتها للشابين ! كانت الكنوز تحيط بي من كل جانب . حتى منظر فلورنسا من النافذة ، والجسور العتيقة فوق نهرها ، بدا لي لوحة خالدة . وقفت اتأملها ونسيت

نفسي . . . استيقظت على قرع جرس انتهاء دوام المتحف ، وكانت الساعة الخامسة وكنت قد اضعت الجميع . خرجت من باب المتحف وانا سعيدة بضياعي ، وقررت ان ابقى لاكتشف المدينة التي لا نزال منذ الصباح نهرول في ازقتها ، من مطعم الى مقهى ، بلا جدوى . فوجئت بالدليل يعتقلني على الباب ويرغمني على العودة الى الباص بعد ان انتظرني الركاب طويلا . وحين صعدت اليه كانت في العيون نظرات التأنيب . لم اشعر بالحرج ، فانا النعجة السوداء الشاردة عن القطيع ، وقد اعتدت ذلك .

وقررت : « لا ريب في انهم ذاهبون الى مكان مهم وقد اخرتهم » .

وانطلق الباص كالمجنون . واغمضت عيني على القهر . ما ابعد منطق الفن عن منطق التجارة ! ان كل المحاولات التوفيقية بينهما هي ابدا فاشلة .

فكرت : « كيف اكتب لمجلتي تحقيقا عن مشاهداتي في فلورنسا ؟ » من الاسهل علي ان اكتب تحقيقا عن « عدم مشاهداتي » فيها ، وان العن كل المؤسسات السياحية التي ترمي بصنارة الفن لتصطاد الذهب . وكل السذج امثالي الذين يصدقون ان الرحلة الى فلورنسا تعني مشاهدتها !

* * *

توقف الباص . . .

فتحت عيني ، وفوجئت باننا امام مطعم شاسع في مكان ما من الطريق .

وهجمت العجائز الاميركيات ، وفي انتظار الطعام كن يتحدثن عن صورهن مع التماثيل والقديسين وكم سيسر الجيران برؤيتها وروعة الفن في فلورنسا التي لم نشاهد منها شيئا !

ملعونة هي السياحة على الطريقة الاميركية !

* * *

فلورنسا . . .

كحكاية حب لم تكتمل كان لقائي بك ، فخلف في نفسي شهية اكبر الى ان اعرفك اكثر . . . لاحبك حقا واحبك اكثر .

* * *

صباح اليوم التالي وجدني عجوز السكك الحديدية انتظر في مكتبه لاشتري بطاقة سفر الى فلورنسا ، وانا مستعدة للحديث بلغة الكلام او الاشارة ، ما عدا لغة التذوق الفني على « الطريقة الاميركية » ! . .

روما ٩/ ٩/ ٧٤

اعلان عالمي لحقوق الحيوان

من جديد عاودني الاحساس بتلك الحركة المريبة داخل الحقيبة الموضوعة بيني وبين جارتي في المقعد الملاصق لي بالطائرة بينما انا أطير من باريس الى روما .

كانت الحقيبة تتحرك ، وتصدر عنها بعض الاصوات ، ولم اكن واهمة . حاولت تجاهل الامر . انها حقيبة صغيرة ولا يمكن ان تتسع لرجل مخطوف ! . . . وانتفضت الحقيبة بعنف ولم تعد اعتبارات التهذيب الاجتماعي واللياقات وعدم التداخل بشؤ ون الجيران تكفي لردعي عن التحديق بفضول في حقيبة الجيران . . .

وردت على نظراتي نظرات اخرى اكثر فضولاً من عينين خضراوين ملتهبتين داخل الحقيبة التي لاحظت ان احد جدرانها شفاف . كانت قطة . واخرجتها ، صاحبتها وهي تقول لي بفخر : انه قط حبشي . تحسسيه . ناعم كفرو النمر . . .

وحين جاء المضيف بصواني الطعام ، كان اللحم الشهي من نصيب القط المرفه . . وأمسكت باحدى الصحف لأتلهى عن المدموزيل وقرينها القط ، وكانت صور الاطفال والبشر الجياع في اواسط افريقيا الوسطى تمزق القلب ، وكان القط السعيد غارقا بين صحني السمك والجبن ! فقط حينما بدأت الطائرة بالهبوط ، اعادته الى حقيبته الامينة ذات الجدران الشفافة لسجنه مؤ قتا (فكرت بالاف الرجال السجناء في العالم في هذه اللحظة ، وبزنزاناتهم المظلمة التي تحرمهم مشهد الاشجار والشمس والفراشات. أما صانع سجن القط فلم ينس جعل جدرانه شفافة حرصا على سلامته النفسية . لماذا لا يرق الانسان للانسان فيجعل جدران المعتقلات شفافة على الاقل ، ويخص بذلك الحيوانات المدلله ؟) . . .

* * *

وفي روما كان الطقس حارا وكنت اسير في شارع « فيافينيتو » حين شاهدت الماء يترقرق على الرصيف من سبيل رخامي جميل . . . وبكل عفوية انحنيت لاشرب وفوجئت بضحك المارة من حركتي . لاحظت ايضا ان الماء لا ينزل من السبيل من اعلى الى اسفل، بحيث يستطيع الانسان (المنتصب على ساقين) الشرب منه بيسر بعد الانحناء قليلا ،

وانما كان الماء يخرج من أرض السبيل وبالتالي لا سبيل الى الشرب الا بالركوع على اربع كما تفعل الكلاب ، وتأملت الرخام المنحوت وفوجئت بصورة كلب منحوتة بالصخر ، وبكلمات تدل على ان هذا السبيل موجود خصيصا لشرب الكلاب لا لشرب البشر !! . . .

ودخلت الى اول مقهى ، واشتريت صحيفة « الهيرالد تريبيون » لأتلهى بها عن مراقبة الكلاب المدللة التي كانت تتبختر امامي مثيرة في نفسي بعضا من (الحقد الطبقي) . . . وفوجئت في صفحة الاعلانات بالجريدة بهذا الخبر عدد ٢٨/ ٨/ ٧٤ . . .

اترجم لكم الاعلان حرفيا . يقول : ساعدوا حمارا صغيرا في شدته ! اننا بحاجة ماسة الى النقود لمساعدة الحمير ، لا المرضى والعجائز منهم فحسب ، بل وللاسف لمساعدة صغار الحمير الذين تساء معاملتهم . رجاء ان تساعدوا الان بتبرعاتكم تلك المخلوقات المسكينة المؤثرة الرقيقة . نحن مؤسسة خيرية مسجلة ، ومرخص لها من قبل مجمع الحفاظ على الحمير . عنواننا : انكلترا ـ ديفون ـ اوتيري سانت ماري ـ الخ . . .

وكانت بقية صفحات الجريدة مكرسة طبعا لرواية اخبار كل الفظاعات التي يرتكبها الانسان في حق اخيه الانسان (حروب ـ اغتيالات ـ عنف ـ مصانع اسلحة ـ) او التي ترتكبها الطبيعة في حق الانسان دون ان يتحد النوع البشري لمواجهتها (قحط ـ فيضان ـ زلزال ـ مجاعة) او التي تتم على الصعيد الفردي (قتل . قتل معنوي . ايذاء . مجتمع بورجوازي مدمر لانسانية الفرد) . . وكانت صور القتلى في المخيمات الفلسطينية وجنوب لبنان تحتل مساحة اقل من التي احتلها الاعلان عن الرفق بالاخ الحمار !

* * *

في اليوم التالي وقع بين يدي مصادفة «مشروع الاعلان العالمي لحقوق الحيوان» وهو يكفل للحيوانات الحرية والعمل والراحة وعدم الاسر او الايذاء او التعذيب او الابادة . . . وفيها من الاقرار بحقوق الحيوان اكثر مما في ميثاق الامم المتحدة من الاقرار بحقوق الانسان ! . . .

فأبرز ما يميز مشروع الاعلان العالمي لحقوق الحيوان (الذي قدمه الى اليونيسكو رئيس المؤسسة الدولية للاحياء الانسانية البروفسور جورج هوز) هو المساواة التامة بين الاسد والبعوضة ، وبين النمر والنملة . . . ولم يعط المشروع حق التسلط للاقوى ، ولا حق الفيتو للفيل لمجرد انه اكبر من الفراشة . . . اي ان الاعلان العالمي لحقوق الحيوان لم يتضمن اطلاقا مزيدا من الحقوق للحيوانات المفترسة والاقوى . . . أما في الامم المتحدة

(حيث الاعلان العالمي عن حقوق الانسان) فان للدول الكبيرة (اي القادرة اكثر على الافتراس) حقوقا اكثر بعضها معلن كحق الفيتو وبعضها الاخر مفهوم ضمنا (كامكانية استعمال السلاح الذري) . . .

اتساءل ، لماذا يملك الانسان هذا الحس الرائع بالعدالة نحو الاجناس الحيوانية كلها ما عدا جنسه ؟ ام ان عدالة الانسان نحو الحيوان (التي تتصاعد في الاعوام الاخيرة مع تصاعد وحشيته في معاملة اخيه الانسان) هذه العدالة ليست اكثر من حالة اسقاط يمارسها على حيوان ليرشو نفسه وضميره الداخلي ما دام لا يمارسها مع الانسان؟. .

هل موجة الرفق بالحيوان التي تجتاح العالم هي كفارة نفسيه يقوم بها الانسان ـ المرفه المعاصر ، المثقل الضمير بجرائمه النابالمية ضد الشعوب البريئة الامنة ؟ . . .

* * *

ذلك الرجل الذي بنى سبيلا للكلاب في « فيافينيتو » بروما ، تراه ترك ذات يوم رجلا يموت من العطش امام بابه ؟ . . .

لندن ٢٨/ ٥/ ٧٥

الفلسطينيو ن في لندن

انها الساعة الحادية عشرة الا ربعا من ليلة ٢٨ أيار ، وانا جالسة في علبة السردين الخاصة بي في لندن ، حين فوجئت على شاشة تلفزيون « الـ . بي . سي . وآن » بفيلم وثائقي عن الشعب الفلسطيني .

أقول : فوجئت .

هذه المرة الاولى التي ارى فيها وسيلة اعلام غربية تفرد لقضيتنا العربية الاولى مكانا مع مراعاة الحد الادنى من الموضوعية على الاقل .

طالما شاهدت مناقشات في التلفزيون البريطاني حول القضية الفلسطينية ، كل ما فيها قد أعد سلفا لمساعدة « المبارز » الاسرائيلي ، والحكم طرف منحاز فيها لمصلحة الصهيونية ، ويشاركه في الانحياز التوقيت الذي يقصد منه ان تنتهي الندوة دوما حين يأتي دور الفلسطيني للكلام ، والمونتاج الذي لا يتناول دائما أهم ما قاله الفلسطيني . وحتى الاضاءة كانت عادة منحازة ! والنتيجة ؟مزيد من التشويه لحقيقة القضية الفلسطينية .

الليلة ، كان الامر مختلفا مع فيلم توم مانجولد . يبدأ الفيلم بالفدائيين وهم يتلون قسمهم المقدس ، ويخبر المذيع المتفرجين انهم يقسمون على مهاجمة اهداف عسكرية ومدنية في اسرائيل . ثم يسأل « السيد توم » احد الفدائيين : كيف تشعر حين تقتل اليهود ؟ . . وهنا كان جواب الفدائي غير واضح في التسجيل مما اغاظني كثيرا . صرخت في وجه التلفزيون مجيبة : السؤ ال هو اصلا خطأ . لا احد يقتل اليهود . اننا نقتل الاسرائيليين . ولكن لم يبد على التلفزيون انه سمعني اذ ان المذيع تابع عرض فيلم وثائقي عن مدرسة اسرائيلية حوصر فيها ١٨ طفلا . وبعد صور ندب الاسرائيليات لقتلاهن ، وصور جثث النساء الاسرائيليات الاربع اللواتي قتلن في هجوم فدائي ، نرى فيلما قصيرا يمثل هجوم اسرائيل على مخيم النبطية والدمار الذي احدثوه .

ويقول « الصوت » الذي يعلق على الفيلم الوثائقي : عدد الفلسطينيين يفوق ٣ ملايين انسان منتشرين في العالم كله . ويطل وجه ياسر عرفات وهو يتحدث في الامم المتحدة كاشفا للعالم ـ من اوسع المنابر انتشارا ـ مطامع اسرائيل التوسعية ضد شعبه .

ويلقب « الصوت » ياسر عرفات بـ « القائد بلا وطن » .

ثم ينتقل للحديث عن مراكز الابحاث الفلسطينية ونشراتها ومجلاتها ، مما يرسخ في نفس المتفرج الغربي فكرة اقتران العلم والبحث الجاد بعدالة القضية الفلسطينية التي يقاتل الشعب فيها على جبهتين : حرب النار وحرب الفكر ، وحيث يتم التخطيط لهدف البندقية انطلاقا من وعي انساني علمي وموضوعي بقدر طاقة البشر على الموضوعية .

يتحدث الاستاذ ابراهيم الاديب بانكليزية واضحة وجيدة .

ومن لقطات الفيلم الممتازة مشهد مدرسة فلسطينية يتعلم فيها اطفالهم العبرية لانهم ، على حد توضيح الاستاذ ، يهدفون للعيش ذات يوم مع اليهود الذين لا يريد ان يقذف بهم احد الى البحر !

ويهب على وجهي صوت الفلسطينيين وهم ينشدون « بلادي بلادي بلادي » ، وبعد نقلة جيدة من مخيم برج البراجنة يدور الحوار بين « الصوت » وياسر عرفات الذي يتحدث بهدوء محبب الى العقلية الغربية : « اننا نطالب بالعدالة ، وسيجدها شعبي ذات يوم . لدينا أمل في المستقبل » . كما تحدث عن السلام وعن عودة الفلسطينيين الى ارضهم والتعايش مع اليهود .

وبعده تحدث نبيل شعث عن الطاقات الفكرية الفلسطينية وشبابها الجامعي المثقف ، راسما صورة حضارية مشرقة للشعب الفلسطيني الصامد ، مكررا آراء عرفات حول الديمقراطية والحرية والتعايش مع الطوائف كلها .

ثم صورة لمقبرة الشهداء ، وبعدها تطل صورة غسان كنفاني فيما يتحدث « الصوت » عن مصرعه الموجع . ويطل بسام ابو شريف في حوار شرس مع الاسئلة « المتجاهلة » للواقع المر . . فـ « الصوت » مصر على التركيز حول مصرع الاطفال «والمدنيين» على ايدي الفدائيين . ويأتي جواب بسام ابو شريف حادا وصادقا : المجتمع الاسرائيلي هو مجتمع عسكري أعد لقتلنا ، وبالتالي ليس في اسرائيل شخص واحد « مدني » .

يتابع « الصوت » تجاهل جوهر القضية ويسأل : هل تقصد ان تقول ان الاطفال هم اهداف عسكرية ؟

يرد بسام ابو شريف : في الحرب لا تستطيع ان تضمن وصول كل رصاصة الى هدفها .

وتتحمس لبسام ، وتصرخ في المذيع : المسؤول الحقيقي عن موت الاطفال في

اسرائيل هم آباؤهم الذين يعيشون في وطن مسروق وامهاتهم اللواتي رضين بالوضع في سرير مسروق . ومن واجب الاسرائيليين ان يفكروا في مصير اطفالهم عمليا اذا كان ذلك المصير يهمهم حقا بدلا من تحويل اولئك الاطفال الى جدار مبكى جديد ! . . ويختم الفيلم برقص شعبي فلسطيني وببعض التدريبات الفدائية على القتال ، ثم ينتهي بمزج اخراجي جميل للرقص والقتال . . .

هنالك ملاحظة أو اكثر حول الفيلم :

١ ـ اصرار المذيع على تسمية الفدائيين بالارهابيين

٢ ـ التركيز غير العادل على عدد القتلى من الاطفال الاسرائيليين والنساء (ولماذا لا تقتل النساء اسوة بالرجال على الاقل في سنتهن العالمية ؟ !) وعدم ذكر مذابح الاسرائيليين وفظاعاتهم في حق الاطفال العرب في اكثر من مكان من مدرسة بحر البقر الى مجازر جنوبي لبنان .

٣ ـ في الدقائق الاخيرة من البرنامج سأل « الصوت » شبلا فدائيا عن شعوره لدى استشهاد رفيقه ، وسمعت الشبل يتحدث بالعربية قائلا : كنا مسرورين باستشهاده لانه سار على الدرب الصحيح كأبيه الشهيد .

لماذا تم تحويرعباراته هذه في الترجمة الانكليزية لكلامه ؟ ! .

يظل هذا الفيلم خطوة جيدة في درب الاعلام العربي عن حقيقة الشعب الفلسطيني والقضية العربية الاولى . . .

ونظل نحلم بأن تساهم الاموال العربية في تنوير الرأي العام الغربي مستخدمة أكثر الوسائل انتشارا لديهم كالتلفزيون . . . و« صوتنا » يتفهم قضيتنا بما فيه الكفاية ليبدل وصفه لثوارنا بـ « الارهابيين » ! . .

لندن ١٦/ ٦/ ١٩٧٥

بريطانيا تواجه الفقرين : المادي والروحي !!

. . . واخيرا تهبط بك الطائرة بسلام ، فتفك عنك حزام النجاة « الرمزي » الذي تعرف جيدا انه لا يملك لك « نجاة » ، في حال سقوط الطائرة ، غير ضمان وفاتك وانت مقيد الى كرسيك الذي سيتحول الى تابوت مجاني ، وبذلك لن يضيع عليك ثمن بطاقة السفر ! . .

وتنهض وتقرر ان اسمك لن يظهر غدا ـ على الاقل ـ في صفحة الوفيات .

. . . ولا تكاد تهبط على سلم الطائرة حتى تستقبلك لندن بوجه دامع ، غسله مطر رمادي حزين كوجه امرأة فقدت حبيبها .

وتصفعك يد الريح الباردة على خدك الايمن ، فتدير لها خدك الايسر . . . وتصفعك يد الغربة عليه . الغربة ؟ ربما كان مبعثها مساء لندن الرمادي نصف المظلم حيث يطول احتضار الضياء حتى ما يقارب منتصف الليل ، وربما كان الفارق الهائل في درجة الحرارة بين بيروت ولندن : عشرين درجة مئوية تنقلك دفعة واحدة من عالم الدفء الحنون الى انياب البرد المفاجىء .

وتلملم نفسك داخل ملابسك الصيفية ، وتشعر بأنك سلحفاة اضاعت صدفتها ، وها هي تركض عارية في ليل المدن النائية ، واسياخ المطر تصلبها على لوحة مساء الغربة . . .

وتجلس في الباص الذي يقلك من المطار الى لندن ، وتلتفت الى المقعد الخاوي المجاور لمقعدك وتقول : « مساء الخير ايتها الغربة » ، فلا يجيبك احد ، حتى ولا « الغربة » . . . لا تجيب كعادتها ! تتلهى بقراءة اللافتات المعهودة . ها هي لافتة جديدة في الباص ، لافتة لم تكن هناك في العام الماضي حين زرت لندن لآخر مرة . ماذا تقول اللافتة ؟ انها لا تقول لك « مساء الخير » على اي حال ، بل تحذرك من « مساء الشر » في حال ركوبك احدى سيارات التاكسي غير « الشرعية » والمندسة على ابواب المحطات . انها تنصحك بعدم استعمالها .

اذن هنالك ايضا سيارات غامضة تتوقف في المحطات الرئيسية لاقتناص الغرباء !

ماذا يحدث لهذه المدينـة التـي كانـت ذات يوم مثـلا في الامانـة والاخـلاق ؟ . . يضيق صدرك . تقرر : حين يكون هنالك تحذير تكون هنالك متاعب .

في التاكسي (الشرعي) الذي ترمي بجثتك المتعبة على مقعده الخلفي ، تجد لافتة جديدة تخاطبك بعبوس وقسوة ، كصوت ناظرة في مدرسة للايتام الفقراء ، وتقول لك : كل زيادة في الاسعار يسجلها العداد ليست قابلة للنقـاش وعليك دفعهـا فورا (وخـط بالاحمر تحت كلمة « ليست ») . وفي مكان قصي بالتاكسي تجد اللافتة القديمة الترحيبية تقول بود منسي « الرجاء ان تجلس في مقعدك جيدا لاجل راحتك وسلامتك » . وتشعر بان اللافتات الانكليزية الجـديدة تخلـق في نفسـك جوا من عدم المودة . انهـا تتحـداك وتستفزك وتثير شهيتك الى شجار ما . . . تشعر بأن لندن لم تعد تضمك الى قلبها الكبير ، فقد استحال قلبها الى مضخة معدنية ، وعليك ان تستحيل الى قطرة معدنية مصهورة ليتم ضخك فورا الى اول علبة سردين تستطيع استيعابك .

الصديقـة اولغـا ، صاحبـة برنامـج « نصف ساعـة مع اولغــا جويدة » في الـ (بي . بي . سي .) والتي كانت اول وجه حبيب يطالعني في مساء الغربة بادرتني بالتحذير التالي : لن تستطيعي اثناء هذه الزيارة ممارسة هواياتك التشردية كالمشي ليلا وحيدة في ازقة لندن ، فلندن لم تعد التي كنت تعرفينها . هناك خطف وقتل ، والمشي ليلا لم يعد مأمونا حتى من محطة المترو الى فندق قريب . وقلت لها أنني سأذهب الى فندق مجاور للمتحف البريطاني (فندق بونينغتون) فحذرتني من الزقاق المعتم هناك بين محطة المترو والفندق واصرت على استضافتي في ليلتي الاولى . .

وروت لي ان سائق التاكسي العجوز ، الذي يوصلها الى بيتها كل ليلة ، يظل واقفا حتى تضيء انوار شقتها خوفا عليها من مخاطر السلم ! . .

السرقة . . . الجريمة . . . تتصاعد يوما بعد آخر ، وفي اعمدة الصحف تقرأ هذه الايام الكثـير عن اخبارهــا . . . فالفقـر الـذي بدأ يأكل اطـراف « الامبراطـورية البريطانية » ، التي سبق لها ان اكلت العالم ، يساهم مساهمة هائلة في تفسخ المجتمع الانكليزي . الفقر المادي والروحي على السواء . وهنالك جرائم مبعثها الفقر المادي ابتداء من اختطاف حقائب اليد وانتهاء بسرقة الاسنان الذهبية من افواه الموتى ، ولكن هنالك جرائم اخرى مبعثها الفقر الروحي واهم محاصيلها جرائم الاغتصاب الغريبة التي يرتكبها مهووسون والتي تستهدف الاطفال غالبا . وقلما تمر فترة من دون ان يلمع فيها نجم سفاح او مهووس ما ، وحاليا الاضواء مسلطة على سفاح اوكسفورد . ومن الواضح ان السفاح

مطلع على التنافس الكبير بين جامعتي اوكسفورد وكامبريدج ، ولا يجب ان يكون طرفا منحازا الى اي منهما ، ولذا فقد بدأ بممارسة « نشاطه » في منطقة كامبريدج ايضا . ومن الملاحظ ان هذا النوع من الجرائم ابطاله دوما من الانكليز وابناء البلد ، لا من الاغراب او حتى الانكليز السود .

أين البضائع البريطانية ؟

حين تدخل الى المتاجر البريطانية صرت تفاجأ بأنك تجد فيها كل شيء الا المصنوعات البريطانية ! انك تجد حقيبة صنع الفليبين ، وبلوزة صنع هونغ كونغ ، ومشطا صنع اليابان ، وعبثا تفتش عن الصوف الانكليزي القديم ، لقد انقرض مع انقراض اشياء كثيرة ابرزها الشخصية الانكليزية القديمة . قال لي الغرسون العجوز في مطعم « الويمبي » ، الاميركي الروح والايقاع : « لقد ماتت بريطانيا يا سيدتي . السبب ؟ الجيل الجديد اضحى رخوا ، وليس هنالك ما يؤمن به . . . والذي لا يؤمن لا يعمل ، لانه يظل مهدورا ، زائغا وبلا هدف » .

مرة قال دين اتشيسون وزير خارجية اميركا عن الانكليز : « لقد فقدوا دورا ولم يجدوا بعد دورا آخر » .

وهذا صحيح . . . وهم منذ حوالي ربع قرن يفتشون عن دور لهم والضياع يكاد يفترسهم . وقد ظهرت موجة الهيبيين في اواسط الستينات معبرة عن ضياع احفاد الامبراطورية التي لم تعد امبراطورية ، وخرج ابناء المجتمع ،العسكري الامبريالي العتيق حفاة شبه عراة وقد رسموا الازهار على اجسادهم وعلقوا النياشين الحربية القديمة باستخفاف على سيقانهم وحطموا كل اخلاقيات عوالم الدانتيل والرياء والعصر الفيكتوري . لكن موجة الهيبيين ما لبثت ان انحسرت لانها عجزت عن تقديم البديل لموت المجتمع القديم . . . لقد دمر الهيبيون قيم العالم القديم وطقوسه الاجتماعية والدينية والجنسية لكنهم سقطوا في فخ الضياع والتفكك لعدم وجود فلسفة واضحة متماسكة خلف رفضهم . كانوا مجرد صرخة احتجاج انطفأ زبدها من دون ان يخلف غير الصدى .

لقد دمروا البيت العتيق لكنهم عجزوا عن بناء حتى خيمة في خلاء موت القيم . . . ولعل بريطانيا استفادت ماديا من موجة الهيبيين على الصعيد السياحي ، اذ ان الناس صاروا يركضون الى لندن للتفرج على ذلك الجنون الشاب الجميل المنتشر في الشوارع والحدائق العامة والساحات ، هذا بالاضافة الى ازدهار البيتلز الذين جسدوا ثورة الهيبيين في اغانيهم وعبروا عنها في ثورة مماثلة على صعيد الموسيقى ، مطلقين شعار « مارسوا الحب

لا الحرب » . والملكة اليزابيت ، التي علقت الاوسمة على صدور البيتلز ، لم تفعل ذلك اكراما لشعرهم الطويل واظافرهم الوسخة وقمصانهم الملونة وانما سروراً بالعملة الصعبة التي درتها اسطواناتهم وافلامهم على بريطانيا شبه المفلسة .

فبالاضافة الى المستعمرات التي كانت تدر على بريطانيا ذهبا كثيرا توقف مع استقلال هذه المستعمرات ، نجد ان الصناعة التي كانت عصب بريطانيا الاساسي بدأت بالانهيار لاسباب كثيرة . ابرزها ان طبيعة العصر بدأت تتجاوزها . ثم ان بريطانيا تستورد غالبا المواد الخام وتعيد تصنيعها ثم تصدرها من جديد ، لكن العامل البريطاني المشغول حاليا بالاضرابات لم تعد له المهارة التقنية السابقة .

ومهما كانت الآلة متقنة الصنع فانها لا تنجز الكثير اذا كانت اليد التي تديرها مصابة بالضجر والسأم واللامبالاة والرغبة في الهرولة الى اقرب حانة جعة او مكتب مراهنات او مظاهرة . . .

التلفون الذي لا يجيء !

ذلك المساء كانت الشوارع اللندنية موحشة ومظلمة . وكان المصعد في الفندق موحشا ومظلما . وكانت ممرات الفندق موحشة ومظلمة . وكان قلبي موحشا ومظلما . وقررت اجراء مخابرة هاتفية مع بيروت لسماع صوت اليف غير مظلم ولا موحش . وقالت لي عاملة الهاتف : آسفة ! عمال المخابرات الخارجية في حالة اضراب ! وكان قلبي موحشاً ومظلماً فقررت السفر فوراً . . وحين حاولت حجز مكان على الطائرة فوجئت باضراب عمال المطارات !

وكان الليل يزداد ثقلاً على صدري ، فضغطت زر التلفزيون وحين اتضحت الصورة فوجئت بعبارة واحدة لا تتبدل : تعتذر قناة بي . بي . سي . ٢ ، عن البث بسبب اضراب الفنيين فيها !

واذا كان السائح يعاني من الاضرابات العمالية بصفتها مضايقات مفاجئة تخلق له مناخا غير مريح ، فان بريطانيا تعاني منها بشكل يهدد اقتصادها بأكمله . فقلما تخلو امسية تلفزيونية من زعيم بريطاني محافظ - في ياقته المنشاة - يندب مستقبل بريطانيا اذا دامت الاضرابات على هذا الحال ، ويرد عليه نقابي عمالي مذكرا بارتفاع الاسعار وضرورة ارتفاع الاجور ، ويدور الاثنان في حلقة مفرغة حتى تنتهي مدة البرنامج . . . ولا تنتهي الازمة !

لندن ٢٣/ ٦/ ٧٥

« نوستالجيا » ، هربا من خلق واقع جديد يستلهم التراث! . .

قرب منتصف الليل بثوان . . .

وساعة « بيغ بن » تلملم انفاسها لتئن ١٢ مرة . . . ١٢ شهقة غامضة . .

وسندريللا تخلع حذاءها وتركض هاربة من اميرها . . . الى الابد ؟

وانا في التاكسي العتيق عائدة من المسرح في « شلسي » الى الفندق في حي « ماربل آرش » ، والتاكسي يركض على سور حديقة « الهايد بارك » . . . والليل . . . آه الليل . . .

الليل اللندني العتيق . . . كان شفافاً ونقياً ، السماء شبه مضيئة فوق اشجار الهايد بارك ، والصمت النسبي رقيقا حنونا يحمل في طياته اصوات الماضي شبه المسموعة . . . ونصف المسحوقة .

واتذكر أخي بكثافة وسنواتنا معا في لندن القديمة، لندن ما قبل سبع سنوات واكثر ، هل تبدل كل شيء في لندن حقا ؟ . . . في الليل يبدو كل شيء كما كان ، . . . أما في الصباح ، فتأتي شمس لندن السرية لتواجهك بالحقائق بوضوح مسموم . . .

ففي الصباح ، ايقظتني عاملة الهاتف في السادسة صباحا « لتحول » لي مخابرة مع بيروت سبق ان اجريتها في الليلة السابقة ـ بعد اسبوع طويل من انتظار انتهاء اضراب عمال الهاتف ـ وانتهى الامر . وحين قلت لها ذلك ، لم تعتذر ، بل سألتني : ولماذا لم تبلغيني بذلك ؟ ودهشت ، وذكرتها بأن هاتفي ليس مباشرا وانما هي او زميلتها لا بد ان تكون قد حولت لي المخابرة البيروتية ونسيت تدوين ذلك . وانتهى الحوار عند هذا الحد . واقفلت السماعة وانا اندب لندن القديمة ، لندن الدقة والتهذيب . ايام كان الفرد الانكليزي مهذبا الى حد انك تدوس على قدمه فيعتذر هو عن حشرها تحت قدمك !! . .

ادرت زر الراديو وسمعت المطرب يصرخ : « يا رجل الفضاء ، خذني معك في نزهة للقمر » . ولم اله بل ضممت صوتي الى صوته . وحين هبطت الى فناء الفندق

سلمتني الموظفة رسالة . كانت فاتورة تحمل رقم غرفتي من المفروض ان ادفعها . هذه هي التحية الصباحية في الفنادق الكبيرة بلندن : فاتورة عليك ان تدفعها كل يومين ، وبعبارة اخرى ، رسالة صباحية تشكك بنزاهتك يوميا . وذهبت لدفع الفاتورة . وقفت في صف طويل مزعج ، واخيرا وصلت الى الموظفة المختصة بالقبض . وبدأت اوقع لها شيكات سياحية . فتأملت توقيعي وقالت مشككة وبلؤم : « هل تستطيعين التوقيع على الشيك كتوقيعك الاول ؟ بلؤم مشابه قلت لها : « لا . لا استطيع ان اوقع التوقيع نفسه مرتين ابدا . لا احد يستطيع » . ثم اكتشفت انني ادفع فاتورة المستر براون ، الذي سبق له ان شغل الغرفة قبلي (على الارجح) والذي تأخر الكومبيوتر (ومن ورائه الموظفة الكسول) في القاء القبض عليه ، فسافر واورثني فاتورته ! . . . هذه الفوضى الكومبيوترية يشكو منها الجميع ، ولندن العتيقة كساعة سويسرية ، صارت اليوم مثل ديك مخبول يصيح في غير اوقاته ! . . . وقد روت لي صديقة انكليزية حكاية تتناقلها لندن عن الكومبيوتر وفوضاه تعبر عما آلت اليه الحال : امرأة عجوز عمرها ١١٢ سنة استلمت رسالة من الكومبيوتر موجهة الى (والدها !) تحثه فيها على ادخالها الى المدرسة الابتدائية ما دامت قد بلغت سن الـ ١٢ (واسقط الكوميوتبر من عمرها ١٠٠ سنة لان الموظفة التي القمته المعلومات لم تلقمه اي شيء بخصوص ما فوق المئة عام !) . . وقد وصلت هذه الرسائل الى (اولياء) جميع المعمرين الذي تفوق اعمارهم المئة لادخالهم مدرسة الحضانة ! .

شيء آخر يصعق عشاق لندن العتيقة امثالي . حين تستأجر غرفة في فندق ، يعطونك بطاقة كبطاقة الهوية ، وعليك ابرازها كلما طلبت مفتاح غرفتك . . . وتشعر بأنك تقيم في معمل لصنع الصواريخ وكل ما حولك يكتنفه الشك والحذر . .

قلت لنفسي : ربما كان هذا الفندق « بماربل آرش » حالة خاصة .

ولكنك تجد اكثر الناس في لندن ـ مصابين باعراض الاستخفاف بالعمل واللامبالاة والتأزم النفسي الغامض . سائق التاسكي يرمي بوجهك قطعة النقود (الاكرامية) اذا لم يعجبه المبلغ ! مستوى النظافة في المطاعم انحدر الى حد لا يوصف . ففي مطعم بـ « اوكسفورد ستريت » يعد مآكل اللحوم على انواعها ، جلست انتظر « الجرسون » المتباطىء وتظاهرت بالانهماك في قراءة جريدتي كما يفعل الغرباء امثالي . . . ثم اختلست النظر الى الطاولة المجاورة اتسلى بمراقبة الناس كي لا اموت غما ، وشاهدت انكليزية جميلة تلتهم طعامها بشهية ، وفجأة توقفت عن الاكل بقرف واشارت لمرافقتها الى صحنها وقد

انعقد لسانها . وانعقد لساني حين شاهدت في صحنها « صرصورا » حيا يرزق . وكان ذهولي عظيما حين لم يبد الجرسون اي اهتمام بما وقع ، ولم يفسر لها الامر او يعتذر لها ، بل انه ابدى اهتماما بالصرصور اكثر من الزبونة ، اذ حمله واختفى به ! . . . وفي الصحف ، اصبحنا نقرأ اخبارا من نوع جديد عن مطاعم دوهمت لقذارتها (جريدة ايفننغ ستاندارد عدد ٢٧ ايار - مايو ١٩٧٥) وعن اشخاص تسمموا باللحم الفاسد ، كما اصبحت تقرأ في المجلات النسائية تعليمات عن كيفية التصرف في حال التسمم بالطعام الفاسد ، (عدد ١/ ٦/ ٧٥) من مجلة وومنز اون) مما يدل على تكرار هذه الحوادث .

ولم تعد لشارات السير هيبتها السابقة . . والسيارة التي كانت تقف امام الضوء الاحمر بعد منتصف الليل بينما الشوارع خاوية ، اصبحت اليوم تتجاهل النور الاحمر حتى في ساعات الزحام . . . اما المارة فصاروا يزاحمون السيارات وصارت اضواء المرور في لندن جزءا من التراث !

وانتقلت عدوى الفوضى الى المسرح ، حيث كان موعد البدء بأية مسرحية مقدسا ، وكل من يتأخر ولو دقيقة واحدة يضطر للوقوف خارجا حتى نهاية الفصل الاول . اما الآن فصار مألوفا ان يتأخر عرض المسرح من ٥ الى ١٠ دقائق . . .

شيء اخر يضايق عشاق لندن ،وهو الابتذال فيالاعلانات التلفزيونية حيث اصبحنا نسمع عبارات امريكية بغيضة مثل (جاش - جي - وغيرهما من علامات التعجب) التي تشوه جمال اللغة الانكليزية المحافظة الاصيلة . . .

الهرب الى الماضي

وحالة الافلاس المادية والمعنوية التي تعاني منها لندن تنعكس في مجالات شتى . . . وقد صور المخرج البريطاني الموهوب « كين راسل » ضياع بريطانيا الحالي في فيلمه الأخير « تومي » واذا كان « كين راسل » قد اختار تسليط الضوء على المأساة ووضع اصبعه على الجرح ، فان كثيرين من الناس وجدوا المواجهة موجعة ، والهرب من الازمة من وقت الى آخر ضروريا . . . ولكن الى اين المفر ؟ طبعا الى ايام انقضت . ومن هنا تفسير موجة الحنين الى الماضي (النوستالجيا) التي تنتاب الناس هنا على كل صعيد،فعلى صعيد الفن ، نجد ان معرض الرومانتيكي الانطباعي « تيرنر » الذي عاش في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن يلقى اقبالا هائلا لا تفسير له غير الحنين الى اجواء الشفافية والصفاء التي رسمها « تيرنر » في مائياته . . .

نذهب الى المتحف البريطاني حيث اقيم المعرض في احدى صالاته لنرى اعمال

« تيرنر » الجيدة .

في المتحف البريطاني

تدخل معي . الدخول مجاني . التدخين ممنوع . تتذكر سجائرك ، وتشعر بحاجة كبيرة الى التدخين . تضع لفافة في فمك دون اشعالها لتغيظ حرس المتحف . تنجح الخدعة ، ويسرك ركضهم خلفك بعدوانية ، ثم امارات الخيبة تعلو وجوههم لان اللفافة غير مشتعلة ، وانت قد فوت عليهم فرصة اضطهادك . تنسى (عبثك الطفولي) وانت تغرق في كنوز المتحف البريطاني . المفروض ان تعبر هذه القاعات بسرعة في دربك الى هدفك : معرض تيرنر . لكنك لا تملك الا التوقف امام هذه التحف الفنية والتاريخية . ها هي مصاحف نادرة مخطوطة يرجع تاريخها الى اكثر من الف سنة . ها هو قرآن رائع الخط تحيط بآياته تزيينات عربية بديعة التخطيط . امامها وقفت فتاة يبدو عليها انها مصممة ازياء ، تنقل الخطوط و « الديزاين » والتصميم التزييني الاساسي . تأملت المصحف فوجدته يعود بتاريخه الى عصر المماليك بمصر ، وقد كتب خطوطه « محمد ابن عبد الوهاب » ورسم زخارفه التزيينية « محمد ابن مبادر » . ربما كانت هذه الفتاة احدى معاونات « ديور » او « بيير كاردان » ، وربما كانت تسرق في هذه اللحظة تصاميم رسوم موضة العام المقبل التي سنستوردها وسنشتريها بثمن باهظ دون ان ندري ان صاحبها الاصلي عربي عاش ومات قبل مئات السنين ! . . طوال الدرب المزروعة بالتحف نتوقف حتى لنكاد ننسى هدفنا الاصلي من زيارة المتحف البريطاني هذه المرة ، الا وهو زيارة الفنان « تيرنر » . ونعد انفسنا بالتجول في المتحف بعد رؤية « تيرنر » ، ومع ذلك لا نصل اليه قبل انقضاء اكثر من نصف ساعة . . .

مع متحف « تيرنر » ننتقل الى عالم من الهدوء والصفاء والشفافية الانسانية . المكان مزدحم ومن الواضح ان لدى الناس كمية من الجوع الى عالمه البعيد عن تعقيدات المجتمعات الصناعية المتفسخة التي ضلت طريقها في دروب العصر الارعن . . .

نقرأ بعض عناوين اللوحات ، واسماؤها كافية لاعطاء فكرة عن مناخ هذا الفنان ذي التقنية الممتازة : اشجار قرب البحر ـ صديقة « بتوورث » وكنيسة « تيلينغتون » عند اخر المدى . « بيلات » يغسل يديه . سفينة في المرسى . جسر التنهدات . امرأتان ورسالة شروق الشمس . قلعة على الخليج . . وهكذا . . . والناس يأتون الى عالمه الهادىء الحنون ، يغسلون عن عيونهم هباب لندن في خلجانه الشفافة ، ويمسحون عن صدورهم بصمات عالم العنف في الخارج . . . كانت القاعة تسبح في نور هادىء شفاف ، وخيل

الي انها بلا نوافذ وانني والحضور اسماك متعبة تسبح داخل (اكواريوم) مسحور لعالم حنون خلقه « تيرنر » . . . وحين تذكرت العالم القابع على باب المتحف في الخارج وقد شهر انيابه واظافره بانتظاري ارتعدت ، وهربت الى داخل لوحة من لوحات « تيرنر » هي « خليج بايي » ، وسرت داخل اللوحة ، وفاحت رائحة الارض ، وركضت الى الشجرة وتسلقتها ، وتركت طعم البحر يستولي على حواسي ، والتقيت بطائر ورويت له اشياء كثيرة وهو يحدق بي مشدوها بعينيه الطفوليتين وحين فتح منقاره ليجيبني ، لكزتني سيدة وقالت لي : هل تسمحين ؟ . . وفهمت ان وقفتي طالت امام اللوحة ، وسواي يريد ان يتفرج عليها (او يرحل داخلها ـ كل حسب قدرته على التجاوب مع الفنان) ، وغادرت اللوحة لادخل لوحة اخرى . . .

ان اقبال الناس في لندن على معرض الفنان « تيرنر » هو دليل الجوع الى عالم من الصفاء والهدوء ، والضيق بتعقيدات الحياة المعاصرة وخيباتها .

الاقبال نفسه يلقاه جاليري « عزيزه » بـ « ويمبلدون » ـ لندن ـ حيث تقدم صاحبة الجاليري لوحات لمرحلة ما قبل الانطباعية وكل رساميه من مواليد القرن الماضي امثال « اوغسطس جون » (١٨٧٨ ـ ١٩٦١) ، « باسيت ويلسون » (١٨٨٨ ـ ١٩٧٢) « جابريل فورنييه » (١٨٩٣ ـ ١٩٦٣) . و « جاليله شيمسي » (١٨٧٣ ـ ١٩٥٦) وغيرهم . . . ان في اعادة اكتشاف اولئك الفنانين وعوالمهم الاقل تعقيدا وشراسة من عوالم الفنان المعاصر المتأزم باستمرار ، نوعا من الهرب النفسي والروحي لسكان مدينة مرهقة حتى الاعياء .

المطرب المفضل : في الستين :

ولعل في « النوستالجيا » اللندنية ، وحنين اهلها الى الماضي يكمن تفسير نجاح « فرانك سيناترا » الهائل في امسيتيه الغنائيتين في (رويال البرت هول) . . . لقد وقف مطرب « غرباء في الليل » بأعوامه الستين ، وبكامل ثيابه وجلال سنه ومهابة خريفه يغني . . . اغنيه هادئة ، حزينة ، لا (بي بي) فيها ولا (هيبية) ولا تمزيق ملابس او نفشاً للشعر الطويل . . . وقف يغني بصوته نصف المتعب ، وكأنه استحضر للجمهور روح أوربا ما قبل نصف قرن . . . وفي قارب اغنياته الشفافة الحالمة ابحر الناس الى الماضي ، وعاشوا من جديد ايام الحب والايمان . . . وانعشت ذاكرتهم اغنياته التي يرجع بعضها الى ما قبل ٣٠ سنة امثال « ضع احلامك جانبا » و « بنفسج » وغيرها . والا ، فبماذا نفسر النجاح الهائل الذي لاقتاه امسيتاه اللندنيتان ، مقابل شبه فتور واجهه في بقية محطات

جولته الاوروبية ؟ . . . لقد كانت نقاط ضعف سيناترا (السن ـ ذبول الصوت ـ كآبة المظهر) هي نقاط قوته مع جمهور لندن ، الذي سئم جنون العصر ، وبدأ يحن الى ذكريات الاستقرار النفسي والقومي والديني . . .

ماري ويلسون . . . والنوستالجيا

وعلى صعيد الادب نلحظ ردة الفعل « النوستالجية » بشكل واضح عند عدد من الكتاب والشعراء المعاصرين في بريطانيا . ولعل « ماري ويلسون » (زوجة هارولد ويلسون ، رئيس حزب العمال ورئيس الوزراء الحالي) تجسد في ديوانها النوستالجيا البريطانية في انقى صورها الشعرية المليئة بالشفافية . . . وانت حين تقرأ قصائدها ، يصعب عليك ان تحدد العصر الذي عاشت فيه الكاتبة (اذا لم يخبرك احد بذلك) . . وفيما عدا اشارة واحدة الى هبوط الانسان على القمر في قصيدتها الاخيرة ، فاننا لا نجد في اشعارها ما له علاقة بالعصر (كما نجد في اشعار « اليوت » مثلا او غيره من المذبوحين بالمعاصرة) . . . وهذا ليس مدحا للشاعرة ولا ذما . . انه ببساطة تقرير أمر واقع . . . ففي قصيدتها (صفحة ٢٣ من ديوانها) المسماة : « المنزل عند نهاية الغابة » نجدها تقول:

احيانا ، بينما اناضل
عبر غرف مزدحمة بالناس
مزكومة بأبخرة الويسكي والتبغ
وبالاصوات النشاز الكثيرة
كصرخات ببغاء متلاحقة . . .
فجأة ، استطيع ان اراه هناك !
بيتي عند نهاية الغابة . . .
استطيع ان ارى الاجراس الزرق !
استطيع ان اشم عبيره الخاص ،
وضوء الشمس المسائي يرسم خطوطه
عبر بيتي هناك .
عند نهاية الغابة !! . . .

الاشارة الوحيدة في كتابها الى العصر تجيء في قصيدتها « القطار » وهي قصيدة تتحدث عن شجار بين عاشقين في القطار . . . ولكن حتى هذه الاشارة الى العصر نشعر في ايقاعها النفسي انها اقرب الى عصر اختراع الالة البخارية ، اي عصر بريطانيا

الامبراطورية ، منها الى عصر الفضاء . .

والاشارة الثانية للعصر تتحدث عن بشاعة القنبلة في قصيدتها « القنبلة » وهي ايضا تحمل ملامح ازمات ما قبل نصف قرن . . .

وهكذا نجد « ماري ويلسون » تواجه العصر برفض مواجهته ! تعبر عن سخطها عليه بتركه في الغرف المزدحمة بالنقاش وابخرة الويسكي والتبغ ، هاربة الى بيتها عند نهاية الغابة ، ولكن ، هل هذا ممكن شعريا وانسانيا ؟

بطاقات أيام زمان

واذا ذهبت لشراء بطاقة بريدية (بوست كارد) ترسل بها الى احد اصدقائك ، ستظن للوهلة الاولى انك ركبت عجلة الزمن خطأ وانها قذفت بك قبل نصف قرن . . . فالبطاقات البريدية هي اليوم منقولة عن بطاقات ايام زمان . . .

سترى الصورة التقليدية للمرأة السمينة المحتشمة واقفة في كنف زوجها ذي الشوارب والنظرة الرجولية . . ولكن شراء بطاقات تلك الايام لا تكفي وحدها لتكتب على وجهها الآخر كما كانوا يكتبون . . لقد جاء الزلزال ودمر كل الكلمات العتيقة والبطاقة لا تكفي وحدها لاسترداد روح عصر . . . وتشتري البطاقة . . . وتكتب على وجهها الآخر كلمات كعصرنا ، مليئة بالشراسة والخيبة والرفض . . ثم تلحظ الهوة بين الشكل والمضمون ، فتمزق البطاقة ، وترمي بها تحت عجلات قطار « المترو » بينما يعيدك هديره الى عصرك مرغما . .

الازياء أيضـا

و« ماري كوانت » مصممة « الميني جوب » خضعت اخيرا لموجة الردة الى الماضي ، وصممت ازياء (محتشمة) تستوحي روح الثلاثينات . . .

فصورة الفتاة ـ الصبي عارية الساقين انتهى عصرها مع الستينات ، والآن في السبعينات تعود امرأة العشرينات والثلاثينات كتعبير عن الجوع الى الماضي ، بثيابها المكوية جيدا ووجهها المعتنى به ، وماكياجها الطاووسي المناخ ـ فقد كانت في تلك الايام تملك اوقات فراغ كثيرة وتستطيع ان تمنح نصف ساعة لرسم حاجبيها (!) لا كامرأة العصر التي لا تملك الا الركض خلف الباص في الزحام والـ (راش اور) حيث تمسح الريح عن وجهها اصباغ العصر الماضي ؟ ما جدوى ان تخرج مع امرأة لها شكل امرأة الثلاثينات لكن قلبها ينتمي الى السبعينات ؟

والاعلانات ايضـا

وقد وعت شركات الاعلان هذه الحقيقة ، ومن الملحوظ ان فتيات الاعلانات يرتدين مؤخـرا ازياء العشرينـات والملامـح النفسية للعشرينـات . . فمـن رومـانتيكية تراقص ضابطا ، الى فتاة « جمة » بمفهوم تلك الايام . . . هذا النوع من الصور يلفت الانظار ولكنك تحس بزيفه ، وتتخيل الفتاة التي ترقص والضابـط « التانغـو » تسـارع لارتـداء بنطلونها « الجينز » فور انتهاء الكاميرا من التصوير وتنغمس ومرافقها في « جيرك » سريع مجنون . .

المكتبـات ايضـا

في مكتبات فويلز الشهيرة وغيرها ، تجد اليوم رفا خاصا بالكتب التي كانت رائجة في العشرينات واسمه رف النوستالجيا (اي رف الحنين للماضي) . . .

« الحنين الى الماضي » ليس اكثر من شكل من اشـكال مواجهـة لنـدن للافـلاس الروحي . . . انه محاولة للهجرة الى قارة الماضي الغنية بالقيم والتربة الصلبة . . ولـكن الهجرة الى الماضي قد تريح قليلا لكنها في المدى البعيد لا تجدي . . انها تعطيك الشعور نفسه الذي يحسه العاشق وهو ينشد اغنية طالما سمعها مع حبيبته . . . يستعيد بها لدقائق مناخ الحب الذي كان ، لكنه لا يستعيدَ بها . . الحبيبة ! والفرق شاسـع بـين الارتـداد الطفولي الهارب الى التراث وبين استلهام روح التراث لخلق واقع جديد .

وهو درس ليتنا ـ كعرب ـ نعيه جيداً . . .

لندن ٣٠/ ٦/ ١٩٧٥

العنف والإباحية ، في رحلة البحث عن خلاص !

انه المساء اللندني البارد . . .

والسماء تبدو كبركة من الوحل . . .

ونهر « التايمز » يهرول في القاع تحت جسر « واترلو » ، ومياهه محمرة دامية ، كأن مجزرة هائلة تتم كل يوم على ضفتيه . . .

انه المساء اللندني البارد . .

مساء صيفي حزين . . وانا مصفحة داخل ثيابي الشتوية ، انعش اطرافي المتجلدة بذكرى شمس بيروت .

كنت والصديقة اولغا جويدة من القسم العربي في الـ « بي . بي . سي » قد غادرنا مبنى « بوش هاوس » في شارع « ستراند » ـ حيث مقر عملها ـ وسرنا حتى مشهدنا المفضل : النهر من جسر « واترلو » . . .

بعدها عدنا لنتابع المسير نحو ساحة ترافلغار ثم بيكاديللي . . .

زحام ، زحام يتكاثف . دقائق واحسسنا انفسنا في مهرجان اسكتلندي فولكلوري للعنف . .

كان الشبان في تنانيرهم « السكوتش » المربعة الزاهية الالوان ، لباسهم الوطني ، يستعرضون انفسهم في الشوارع في تحد عدواني . . . يحملون في أيديهم زجاجات المشروب الاسكتلندي المعتق ويبدون فخورين بأنهم اخترعوا « حالة السكر » ، وينشدون اغانيهم معربدين ، متحرشين بالمارة قليلا او كثيرا . سألت فتاة بينهم : لماذا انتم في الشوارع هكذا ؟ قالت : لدينا مباراة كرة قدم ضد الفريق الانكليزي . اسكوتلندا هي الرابحة غالبا ضد انكلترا على الكأس . . .

سألتها : هل ربحتم حتى تحتفلوا هكذا ؟ قالت : لم تقع المباراة بعد . غدا موعدها ! . .

وقالت اولغا مفسرة : عدم وجود وعي سياسي وممارسات سياسية يجعل الشبيبة تفرغ شحناتها العدوانية في مجال « الكورة » كرة القدم - كما يحدث في اكثر بلدان العالم « المكبوتة » سياسيا . . . انه مجرد تصريف لطاقات الشبان الذين يعانون من الوحدة والخواء الداخلي والافتقار الى هدف قومي وانساني محدد . . . ظاهرة الغرق في هستيريا كرة القدم شبيهة بظاهرة الغرق في الجنس التجاري او الغرق في افلام العنف وغيرها . . . كلها مجرد تصريف لطاقات لا تجد لنفسها نبعا حقيقيا تؤمن به وتركض نحوه . . . انه الضياع . . .

تابعنا المسير نحو بيكاديللي . . . كان الزحام المتوتر يزداد كثافة . والعنف الذي حمله ٣٠ الف اسكتلندي وصلوا الى لندن لحضور المباراة يواجهه عنف انكليزي مضاد . . . ولم يكن المناخ وديا ، بل كان كله تحديا وبذاءة . . . فعلى احد الارصفة جلس اسكتلندي يحتسي دواءه غير الشافي (الويسكي) وبالقرب منه وقف انكليزي في وسط الناس « يقضي حاجته » . . . وحول التمثال الذي يتوسط ساحة البيكاديللي وبركتها ذات الدرجات ، اقيم حاجز مرتفع . . ترى هل اقيم لمنع الناس من النزول الى البركة عراة كما يحدث في ليالي الهستيريا الجماعية الاخرى كليلة رأس السنة ؟ وبحثت في الزحام عن مشاهد ساحة البيكاديللي المألوفة ، عن شاب وفتاة يتعانقان في وله محموم ساعات تحت المطر كما كنا نرى من زمان ، فلم ار اي عاشقين . لا احد يقبل الآخر او يضمه . لا بريق حب في العيون . الشيء الاخر الجديد في البيكاديللي كان منظر متسول . انها المرة الاولى التي ارى فيها في لندن متسولاً يستعطي الناس بثيابه الرثة . . .

وحتى شارع اكسفورد كان مزدحما بمشاهد العنف « الكروي » الاسكتلندي الذي كان يزداد زخما كلما تقدم الليل . . . مشهد الحب والرقة الوحيد الذي رأيته تلك الامسية الباردة كان داخل واجهة مضاءة لاحدى محلات الالبسة الكبيرة . . . كان هنالك تمثالان لامرأة ورجل يعرضان الثياب ، وقد وقف التمثالان متواجهين تماما ، وفي قدمي كل منهما خطوة نحو الاخر لم يقم بها بعد . . . كل منهما ينظر الى الاخر بعينيه الزجاجيتين الشاسعتين ، وفي ظلال المساء خيل الي ان نظرة انسانية عميقة الحزن تطل من عيني كل منهما . . فقد تحجرا وهما قريبان هكذا على مرمى خطوة ، وبعيدان على مرمى عمر . . . تحجرا قبل لحظة اللقاء المكتملة ، وها هما يقفان هكذا ، محكومين بالبعد الى الأبد وبالقرب الى الابد . . . سيظل حبهما جديدا ، لا يستهلكه لقاء ، ولا يشتته فراق . . . توقفت امامهما طويلا مشدوهة . . . ظنني بعض المارة أتأمل ثيابا رائعة ما فتوقفوا ،

وشاهدهم مارة اخرون فتوقفوا ايضا ، وكالقطيع جاء اخرون ايضا ، وصار على الواجهة حولي زحام ، وكلهم يفتش عن السر ! وشعرت بغربة لا حدود لها ، وقلت للعاشقين الحزينين في الواجهة : مساء الخير ايها العاشقان الوحيدان في مدينة الجنون . . . قلبي معكما !

مجزرة كرة القدم

وحتى في غرفتي ، كان جنون الشوارع وزعيقها يتسلقان الطبقات العشر تحتي ثم يقرعان نافذتي بشراسة السكارى . . واحسست بأنني اختنق تحت ثقل الليل واكداس من الشعر الطويل القذر للشبان الراكضين في الشوارع ثملين نزقين حائرين صارخين . . . وادرت زر التلفزيون فأطل علي هارولد ويلسون (ام تراه كان ادوارد هيث ؟ لم اعد اذكر) المهم اطل علي سياسي بريطاني نظيف الملابس وحليق الشعر ، تلتمع ربطة عنقه تحت اضواء الاستديو ، ويتحرك « بايبه » الانيق بين شفتيه في استرخاء الواثق من اهميته وسطوته وحسن مظهره . . . اي تناقض بين جيله وذلك الجيل الممزق الراكض في الشوارع متعثرا بشعره الطويل الوسخ . . .

وفي اليوم التالي خسرت اسكتلندا المباراة وربحت انكلترا بخمس اصابات ضد اصابة واحدة .

وخرجت صحيفة « الاوبزرفر » وفي صفحتها الاولى صورة وجه من وجوه العنف البشع لتعيد الى الاذهان مأساة قاسية . . .

فقبل عامين ، حين التقى الفريقان اياهما وانتصرت يومها اسكتلندا ، عاد الاسكتلنديون من الملعب ثملين بالنصر ، وفي احدى محطات المترو بين ويمبلدون (حيث الملعب) ولندن قاموا بدفع عامل المحطة - من دون مبرر - تحت العجلات . . . وقد اختارت « الاوبزرفر » هذا الوقت بالذات لاجراء حوار صحافي مع العامل المدهوس العاطل عن العمل من يومها بسبب تخريب دائم لجهازه العصبي لم يشف منه بعد ان شفي من جروحه . . .

وهكذا فقد اضرب هذا العام جميع عمال المترو على خط ويمبلدون - لندن احتجاجا على ما الحقه الاسكتلنديون برفيقهم من اضرار . . . وهكذا كان على ٣٠ الف اسكتلندي ان يزحفوا مشيا الى الملعب الذي يبعد ثمانية اميال عن لندن . . . وان يعودوا منه - بعد الهزيمة - مشيا . . . ومع ذلك عادوا من المسيرة وشحناتهم العدوانية في ذروتها وقد الهبتها الهزيمة . . وهنا تدخلت السماء لمساعدة رجال الشرطة ، (او لمساعدتي على النوم) فقد انهمر المطر ليلا ، حارما الناس متعة الهياج في الشوارع والعربدة وتحطيم المقاعد

العامة . . . ومرت موجة العنف من دون خسائر تذكر غير تنانير الاسكتلنديين الذين خلعوها علامة على العار والهزيمة ووعيدا بالانتقام . . . وحوالى مئة منهم اعتقلهم البوليس بتهمة الشغب والعربدة . . .

واذا كانت فرصة الهستيريا الجماعية التي وفرتها المباراة قد انقضت ، فان اهالي لندن لا يعدمون عشرات من « المصارف » الاخرى لطاقاتهم الحائرة ذات الزخم الضال الهدف . . . ولعل في موجة افلام الكوارث الكبرى وافلام العنف والجنس نوعا من انواع التصريف الاساسية التي تبدو في مظهرها منافية لموجة الحنين الى الماضي ، لكنها في جوهرها تنفس عن ثورة ضالة واحدة .

وفي دراسة جيدة لشفيق مقار نجده يذكر لنا احصائية تعبر عن واقع خطير اذ يقول : « في احصائية نشرت مؤخرا ، بمناسبة استقالة الامين العام للمجلس البريطاني للرقابة على الأفلام ، تبين ان الرقابة اجازت للعرض خلال سنة ١٩٧٣ (لم تكتمل بعد احصائيات عام ١٩٧٤ المنقضي) ، ٤٧٧ فيلما ، بلغ عدد ما اجيز منها بشهادة اكس (X) ـ التي تعطى لافلام الجنس والرعب والعنف غير المسموح بمشاهدتها (نظريا) لمن لم يتجاوزوا سن الثامنة عشر ـ ٢٤٩ فيلما ، مقابل ٢٢٨ من كافة الانواع الاخرى . وهو عدد ملفت للنظر فعلا . ولا نعتقد ان النسبة اختلفت عن ذلك كثيرا خلال عام ١٩٧٤ ، ان لم تكن زادت ، لصالح افلام الجنس والعنف » ما علاقتنا بذلك كله ؟ العلاقة للأسف وثيقة . هذه الأفلام الرهيبة سوف تصب في شاشاتنا وسنراها في الموسم السينمائي العربي لعام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ وستساهم في تخديرنا عن غضبنا العربي وما من سينما عربية بديلة نستعيض بها عنها .

وهكذا فانك تجد نفسك في لندن في بحر من الافلام التافهة ، ذات التقنية المهنية الجيدة ، التي تقدم لك جميع اطباق مائدة الرعب الدامية ذات البهارات الجنسية الحريفة . قلت لنفسي : سأهرب الى المسرح . ولم اكن ادري انني كالمستجير من النار بالرمضاء ، وان موجة التخدير بالرعب والجنس انتقلت لتفسد اجمل ما في لندن : مسرحها . . .

ذهبت الى مسرح كينغز رود في منطقة شلسي لحضور « استعراض الرعب الراقص » وهي « ميوزيكهول » من المسرح الغنائي وفائزة بجائزة « الايفننغ ستاندرد » للدراما وبلقب « افضل مسرحية غنائية للعام » فماذا وجدت ؟! .

وجدتني امام مسرحية تافهة مليئة بكليشهات الجنس الجماعي على الطريقة الاميركية . وعدت اقرأ الكراس .

حين تقرأ اسماء الممثلين ، والادوار التي سبق ان مثلوها ، تشعر بما يشبه الصدمة .

اولئك الشبان الذين بذلوا كل ما في وسعهم للابتذال طيلة السهرة طالما مثلوا ادوارا هامة في مسرحيات لشكسبير - بينهم من مثل دور ماكدوف في فيلم « ماكبث » اخراج رومان بولنسكي . وبعضهم شارك لورانس اوليفيه في مسرحية « قيصر وكليوباترة » لشكسبير . ولكل منهم ماض عريق في عالم التمثيل الجاد . فماذا حدث ؟ ولم هذا النزوح من مسرح شكسبير الى تقديم مسرح « ستربتيز » رجالي جماعي ؟ . . هل هو الربح السريع ، واقبال اهل لندن على وجبة الجنس والرعب الرخيصة ؟ . . ام انهم يؤمنون حقا بأهمية ما يفعلون ؟ .

من المعروف ان الثورة على الاخلاق البورجوازية تتضمن تذكير الانسان باعضاء جسده المنسية والتأكيد ان الخطأ ليس فيها بل في اسلوب استعمالها ، وان العيب لا يتمركز في عضو معين بل في سلوك معين ، وان العيب الكبير هو الكذب والرياء الاجتماعي والتنكر للطبيعة . وكما ان الاكل ليس عيبا ويمارسه الناس جماعيا في المطاعم ، وله آداب يتبعونها ، فالجنس في نظرهم حاجة طبيعية كالاكل ، وممارسته العلنية يجب التعود عليها (لا تتطرق المسرحية الى آداب الجنس اسوة بآداب الاكل مثلا) !

ففي العشرينات نشأ تيار مسرحي غرضه مواجهة الناس بحاجاتهم الطبيعية وتقديمها على المسرح دونما حرج ، كالتجشؤ (المرفوض اجتماعيا) وقضاء بقية الحاجات الطبيعية . . .

واليوم يحاول المسرح متابعة ذلك عن طريق صدم الجمهور بجسده المنسي .

ايا كانت رسالة المسرحية ، وآراء النقاد الذين قرروا اختيارها افضل مسرحية غنائية ، فقد خرجت شخصيا منها وانا في حالة اعجاب بـ « العفة » ولكن مخرج المسرحية اعد العدة للمتفرجين امثالي ، ومن لا يدوخ بالجنس والرعب يدوخ بالكحول ، وينصحونه بتجريب مشروب « الرعب الراقص » في البار الملحق بالمسرح ! كما يوزعون عليك قبل مغادرة القاعة منشورات ، وتدهش حين تجد فيها تعليمات لكيفية ممارسة رقصة « روك الرعب » . . وتسارع الى مغادرة المسرح قبل ان يمطروك باقتراحات « مرعبة راقصة » اخرى . . . ولكنهم يفعلون ، ففي الكراس الاعلامي عن المسرحية اعلانات عن ثلاث مسرحيات رعب وجنس اخرى بينها « اوه كلكوتا » الشهيرة .

وتعليقا على موجة الابتذال الرجالي الذي يكتسح اوروبا ، ذكرت مجلة « باري ماتش » في عددها الاخير ان انيتا لوس ، مؤلفة كتاب « الرجال يفضلون الشقراوات »

اعلنت انها لو الفت كتابها اليوم لأسمته « الرجال يفضلون الرجال » !

ولكن من الظلم لمسرح لندن الادعاء بأنك لن تجد فيه الا جنسا وعنفا ، فمسرح شكسبير ما زالت له مكانته ، وكل نشاطات المسارح الجدية الاخرى . . .

وكذلك من الظلم الادعاء بأن لندن لم تعد تقدم غير الرعب المبتذل . فقد عدت الى فندقي لاجد هتشكوك ، امير الرعب الراقي ، في انتظاري . . . هتشكوك سيد الرعب البناء لا الرعب « التفريغي » . . .

السعادة هي الوضوح

هتشكوك يملأ شاشة التلفزيون الملون . وجه متصلب الملامح كوجه جثة ، ولكن ما ان يتحدث حتى تنبسط لعينيك عوالم من العمق والوعي والحب ، فتحبه فورا ، وتراه بشكل جديد . . .

لقاء رائع وعميق مع سيد الرعب غير المبتذل . لقد عرض التلفزيون مشاهد العنف في أفلامه ، وكان هتشكوك يعلق على بعضها شارحا ومفسرا ، وذلك في برنامج نتمنى ان نرى في تلفزيوننا ما يماثله عمقا وجدية في النظر الى امور الفكر . فتلفزيوننا يستضيف أهل الفكر كنوع من (الكوكتيل) ويحشر عادة حوالي خمسة مبدعين في نصف ساعة واحدة وتطرح عليهم كل الاسئلة الممكنة واذا فتح احدهم فمه ليجيب تسكته المذيعة بالسؤال التالي وتمنعه من الاجابة بحجة ضيق الوقت حتى صار كل فنان يحترم نفسه في لبنان يمتنع امتناعاً تاماً عن الظهور على شاشة التلفزيون .

لقد منح افلاطون المفكرين في جمهوريته أعلى مرتبة لكن تلفزيوننا ما يزال مصراً على وضعهم في المرتبة الدنيا، وهو مصّر على استعراضهم ضمن إطار تهريجي وممنوع منحهم فسحة احترام ووقت يقولون فيها ما ينفع الناس ويمكث في الارض بدلا من الهراء (الماكث) في التلفزيون عندنا . نعود الى هتشكوك عندهم !

نشاهد معه جزءا من فيلم « الطيور » حيث تهاجم اسراب الطيور قرية فتأكل اهلها وتحولهم الى هياكل عظمية . . .

يقول هتشكوك معلقا على ذلك : لقد الفنا الطيور حتى نسيناها ، ونسينا انها كائنات حية وبالتالي عرضة للمفاجآت في سلوكها نحونا . هنالك ١٠٠ مليون مليون طائر يقاسموننا وجه الارض ، وسلوكنا منذ اقدم العصور عدواني نحو الطيور . اننا نقتلها . نسجنها . نستخدمها (الحمام الزاجل) ونعذبها . لماذا يدهشنا احتمال ان تنقلب علينا

وتقرر معاملتنا بالمثل ؟ . . ويلح هتشكوك على موضوع مهم وخطير : يجب على الانسان ان يكف عن العبث بالطبيعة ومخلوقاتها . يجب عليه ان يتعامل مع الطبيعة بانسانية ووعي وان لا يسخر ذكاءه لايذاء عناصرها والا انقلبت عليه وآذته . لقد عبث الانسان مثلا بمعدن اليورانيوم ، وكانت النتيجة قنبلة هيدروجينية تتهدد العصر بالدمار . ان على الانسان الذكي الا يصل به ذكاؤه الى حد الغرور واعتبار الطبيعة كلها مسخرة لخدمته كيفما شاء . . .

وبعد حوار شيق بين مقدم البرنامج وهتشكوك حول فيلم « الطيور » ، عرض علينا التلفزيون مشاهد ارتكاب الجرائم في عدد من افلامه ومنها اخر افلامه الذي شاهدته ببيروت مؤخرا وفيه يتم القتل بينما القاتل يبتسم ببرود سببه الجنون او انفصام الشخصية او العنف الى درجة عدم الوعي بمعنى القتل . . . ويقول هتشكوك معلقا : عالمنا اليوم مليء بالعنف والوحشية والقتل بكافة الوسائل والاساليب ، وابشع ما نواجهه اليوم هو تطور العالم نحو العنف بينما هو يبتسم . والقسوة المبتسمة ابشع من العنف البريء واشد خطورة لانها تنم عن تفسخ النوازع الانسانية لدى انسان العصر .

وتعليقا على فيلم « بسايكو » ، بعد عرض مشاهد الغموض والجريمة فيه ، وبحث بطلته جانيت لي اليائس عن السعادة في عالم من الاشباح ، قال هتشكوك شارحا : السعادة هي الوضوح ، والسلام هو القدرة على الرؤية دونما ظلال ودونما اشباح نعجز عن الحوار المباشر معها . . .

المهم ، استمتعت بمشاهدة برنامج ذكي وعميق ، وحين انتهى البرنامج قرب منتصف الليل حاولت ان انام ، ولكن صور العنف التي شاهدتها عادت تتفجر داخل رأسي . واقفلت الباب والنوافذ . وعبثا انتظرت ان يجيء النوم لنجدتي - الى جانب فراشي (كما في اكثر الفنادق الاوروبية) جهاز يدعى « صبي المسَاج » من المفترض انه يساعد على النوم ، وكل ما عليك ان تفعله هو ان تلقمه نقوداً ، فيرقص السرير تحتك في حركات رتيبة كالمساج تسارع في قدوم النوم اليك . . .

والقمتُ الالة قطعة نقود . وبدأ السرير يرقص تحتي ، لكن الجرائم الكثيرة التي شاهدتها قذفت بافكاري الى مدار بعيد جدا ذكرني بفيلم « طارد الشياطين » اي « اكزورسيست » . وفيه يحرم الشيطان بطلته من النوم بأن يهز لها سريرها بعنف واستمرار . . . وفتحت النافذة على مصراعيها .

ومن الشارع الحزين ،
تدفق الليل اللندني البارد . . .
وبدت السماء سقفا فولاذيا دق باحكام بيني وبين الافق المفتوح . . . وتذكرتُ سماء بيروت المزروعة نجوما . . . وحبا وهدراً ولم أنم .

لندن ٧/ ٧/ ١٩٧٥

صرخة احتجاج على المجتمعات الاستهلاكية !

« بماذا تحس
وانت بلا مأوى
كحجر متدحرج ، وحيد
دونما هدف . . .
ولا احد يعرفك . . .
بماذا تحس ؟ »

وتحس بثقل فولاذي على صدرك ، بينما تبدأ نهارك بهذه الاغنية الكئيبة ينشدها بوب ديلان ، والصباح اللندني الرمادي هاجم عليك بنواح مئات من طيور الحمام ، وهدير محركات السيارات في غابات الشوارع . . . وتسارع لاسكات المذياع ، لكنك تجد نفسك تردد كلمات اغنية بوب ديلان كما لو كانت اغنية قلبك . . . وعبثا تتخلص من مرارة الكلمات في فمك « بماذا تحس . . وانت بلا مأوى كحجر متدحرج . . وحيدا ودونما هدف . . ولا احد يعرفك . . بماذا تحس » . وتحس بأنك نملة وحيدة في مملكة الحزن ، وان اسكات المذياع لا يجدي ما دمت عاجزا عن اسكات صوتك الداخلي ، فتعود الى راديو « بي - بي . سي . واحد » وتضغط زره . تحمد الزمن لان اغنية بوب ديلان انتهت ! المذيع يتحدث بدلع . يعلن عن انتخاب « المذيع ذي الجاذبية الجنسية » اي « المذيع السكسي » فتضحك من هذا العالم المجنون المجنون . . . الحزين حتى الجنون . . . المضحك حتى الجنون ! . . كما عندهم ؛ كما عندنا . الوطن في خطر وهم يتلهون بالعبث وينتخبون المذيع الاكثر جاذبية جنسية . تذكرت انتخاب ملك جمال الشوارب في لبنان منذ اسابيع فازددت غما . . ونظرة سريعة الى برنامج افلام الاسبوع في لندن كفيلة بأن تزيدك غما على غم . . . تلحظ ازدياد عدد « افلام الكوارث الكبرى » ، اي الافلام التي تصور كارثة عامة كالزلزال او الحريق . . . واذا كنت قد شاهدت بعضها فتتلاحق الصور داخل رأسك من جديد . . .

في فيلم « الزلزال » مثلا ، الذي يعرض في سينما « امباير » في «لسستر سكوير» ،

لم يكتف المخرج بمصائب الممثلين مع الزلزال بل اقحم جمهوره عن طريق حيل سينمائية « سكوبية » و « سينيرامية » استطاع عن طريقها وعن طريق الصوت المجسم ايهام كل متفرج بأن الزلزال وقع حقا . والنتيجة انك تتمسك بمقعدك وتستمتع بمذاق الخوف الآمن ،لانك تعرف ان شيئا لن يحدث لك وان ابطال الفيلم فقط هم الذين سيقتلون لا انت ! . .

(ولكنك تنسى ان هذا الزلزال الوهمي الذي لم يؤذك ليس كفارة عن الزلازل في صلب ارضك العربية وتركيبتها السياسية والطبقية والطائفية ، وانه لا مهرب لك ولبيتك من الزلزال الذي يتهددك) . . .

ويبدو ان الكثيرين يحبون هذا الشعور ، فالاقبال على هذا الفيلم كبير ، كما الاقبال على بقية افلام الكوارث كفيلم « الجحيم في البرج العالي » الذي يصور حريقا ينشب في طبقة علوية في ناطحة سحاب حيث تحاصر ألسنة النار وسحب الدخان عددا كبيرا من الناس . ويجد المخرج في الحريق مناسبة لرسم شخصيات الفيلم وتعريتها اثناء الازمة ـ كما هي العادة في هذا النوع من الافلام ـ فالازمات تعري النفوس (كالنقود والنساء !) .

ومن لا يكتفي بالزلزال والحريق ففي وسعه الذهاب الى فيلم « اختطاف الطائرة » حيث ينضم الى ركاب الطائرة المنكوبة بمصرع ربانها والتي تستلم قيادها مضيفة لا تعرف عن القيادة اكثر مما اعرف انا عن علم الرياضيات ! لكن ذلك لن يعفيك من اهوال (المطبات) التي ستتعرض لها طائرة الوطن اذا دامت الحال على ما هي عليه . . .

اما اذا كنت تفضل مشاهد الموت غرقا فتستطيع الذهاب الى سينما « لاكسي » في حي « شيبردس بوش » حيث تشهد غرق الباخرة « بوسايدون » في فيلم « مغامرة بوسايدون » ، وتستمتع بمشهد رعب الناس بينما الباخرة تنقلب بهم رأسا على عقب ، ومياه البحر تطاردهم بينما هم يركضون كالجرذان المذعورة في كفاح يائس للوصول الى قاع السفينة ، الذي بقي وحده عائما بعد انقلابها .

واذا كانت الكوارث الطبيعية لا تشفي غليلك ، ففي وسعك الذهاب الى سينما الكوارث « الميتافيزيكية » حيث تتولى امر القتل كائنات من ما وراء الطبيعة ، كمصاصي الدماء (والفامبايرز) فهنا يتم الموت بغرس الانياب الحادة في العنق ! وهنالك دور سينما متخصصة في عرض افلام الرعب ، مثل « سين ٤ » في « واردور ستريت » وهي تعرض منذ العام الماضي فيلم « طارد الشياطين » ، ومثل « وارنر وست اند ١ » التي تعرض حاليا

« انه حي » وغيرها من دور السينما . . .

فالسينما التي تهدف الى تحقيق اثارة رخيصة عابرة هي السائدة حاليا . . . انها العلاج الموقت والمخدر المفضل للضائعين ، الساقطين في روتينهم الميكانيكي ، واعماقهم تنطوي على جوع الى اليقين ، الى هدف ، الى قضية يمنحونها نفوسهم وتمنح حياتهم مدلولا ومعنى .

والرعب ليس باب الاثارة الوحيد ، فسينما الاثارة التي تستهدف « تفريغ » شحنات عطاء مكبوتة تعتمد افلام الجنس ايضا لهذا الغرض . وتصفعك اعلانات هذا النوع من الافلام ، وتطاردك اين ذهبت واسماؤها كافية للتعريف بها . اقرأ معي هذه الافلام : « العشاق النهمون ـ الحب الساخن ـ يحبون الجنس ـ اعترافات عذراء مراهقة ـ كيف تغوي عذراء ـ هل تستطيع الاستمرار لاسبوع ـ القطط البرية السويدية ـ الجنس من دون حب ـ الباحثون عن اللذة » . . . الى اخره . .

ووسط هذا الركام الهائل من السينما الاستهلاكية عليك ان تشق طريقك بحثا عن برعم عطاء يستحق المشاهدة . . .

وتجده في فيلم « تومي » للمخرج البريطاني الموهوب كين راسل . وتجد في الفيلم نفسه عرضا وتفسيرا واحتجاجا على اجتياح التخدير للمجتمع البريطاني ، بما فيه تخدير السينما والمسرح والمخدرات نفسها .

كما انك قد تجد نفسك في حالة قرف من كل شيء ، وفي حاجة الى الهرب تماما من هذا العالم الوسخ المقلق المرتجف بعصبية ، ولا يبقى امامك سوى افلام « الكارتونز » (افلام والت ديزني المرسومة باتقان) حيث تمضي لترمي بجسدك على المقعد وترحل في رفقة الارنب اللطيف والفأر الذكي والقط الملعون . . . وتضحك كما كنت تضحك قبل ان يوسخوا لك عالمك .

وتشهد لندن مؤخرا اقبالا كبيرا على افلام « الكارتونز » ووالت ديزني وعالمه المسحور ، وهي ردة فعل طبيعية وجزء من الحنين الى الماضي والهرب بالتالي الى ذكريات الطفولة وسنواتها المضيئة بالامل والثقة ، ومجلة « اين تذهب » ، التي تصدر في لندن وعت هذه الردة وخصت غلافها (العدد ٢٢ ـ ٢٨ ايار) بكائنات والت ديزني من قطط وارانب وفئران وبط ، داعية الناس الى قضاء اجازة معهم بعيدا عن كل شيء . ولكن الهرب (سواء الى الماضي او الطفولة او عوالم الصفاء المزيفة او الاثارة المفتعلة) يظل هربا ، والافضل في نظري مواجهة الواقع مهما كانت مخالبه ، والتحديق في الحقيقة مهما

كانت شمسها كاوية . وفيلم « تومي » للمخرج كين راسل من الافلام القليلة في لندن التي تتصف بذلك . اجلس الى جانبي في سينما «ليسستر سكوير تياتر» ولنشهده معا .

تومي هو بريطانيا ؟

تومي في الفيلم رمز لبريطانيا المعاصرة فيوم مولده هو يوم عيد وطني ترتفع فيه الاعلام البريطانية ويقف الناس جميعا تحت نافذة والدته وهي تعاني المخاض قبل ان تلده . وحين يأتي الى العالم تطل الممرضة من النافذة لتبشر الناس بمولده . انه رمز لمولد بريطانيا العصر ، بريطانيا الحديثة .

ومقتل والده الطيار في الحرب رمز لموت الروح الانكليزية المقاتلة والجادة ، والتي اختفت مع انتهاء الحرب العالمية الاخيرة . اما العم الذي تتزوجه الام فهو رمز للعقلية الاميركية الاستهلاكية القائمة على جمع المال واللامبالاة التامة بكل القيم والمفاهيم . وهو غريب عن عالم الام والصبي ولكنه يطوع الاسرة ويجرها في درب المجتمعات الاستهلاكية .

فلقاء الام به يتم في احد النوادي حيث تقام مباراة لاجمل ساقين (رمز لمجتمع السلع حيث كل شيء استعراضي وله ثمن ، حتى جسد المرأة) . ويسخر كين راسل من هذه المباريات ومن حال بريطانيا المعاصرة ، فيجعل الساقين الفائزتين ساقين مكسوتين بالشعر لرجل اندس بين المتباريات !

وحين تقرر الام الزواج من ارني (اوليفر ريد) . يسألها تومي ، الذي ما انفك معجبا بصورة ابيه ، شهيد الحرب : « هل حارب العم ارني كأبي ؟ »

لكن العم ارني هو احد صانعي المجتمع الاستهلاكي ، وهو اختصاصي في الحانات لجمع الثروات .

وهكذا كان لا بد من قتل شهيد الحرب مرة ثانية (الاب ، رمز الماضي) . فروح المجتمعات الاستهلاكية مضطرة الى تدمير « الانسان المقاتل » وتطويعه ، وبالتالي تحويله الى جزء مسالم من ماكينتها الجهنمية ، وبمصرع الاب (الوطن المقاتل) يصير تومي شخصا ميتا ـ حيا وتبدأ الازمة الحقيقية . ومنذ كفت بريطانيا عن ان يكون لها هدف ومثل عليا ، ومنذ كفت شبيبتها عن الايمان بشيء بدأ الخلل يجد طريقه ، وكانت حلول العم ارني لمداواته تزيد الامور سوءا .

فلا الجنس ، ولا التخدير ، ولا العنف استطاع ان يسد في نفوس شبيبة بريطانيا جوعهم الى اليقين والهدف والعطاء .

وحين استطاع عذاب الام (اي اقرارها بخطأ تحالفها مع ارني) ان يشفي تومي موقتا ، فان تومي كان مشغولا بفرحه باستقبال حواسه واكتشاف جسده الى حد انه لم يلحظ ان العم ارني استغل ذلك ايضا بالذات لتحقيق مزيد من المكاسب المادية ! (وحيوية تومي في هذا الجزء من الفيلم تذكرنا بفورة شبيبة لندن في الستينات وببدايات حركة « الهيبيين » قبل ان تتشوه وتصير اداة تجارية وسلعة جديدة) .

وهكذا يتم تحويل تومي ، من دون ان يدري ، الى سلعة . وشبيبة بريطانيا التائهون والمتعلقون بأي سلعة حتى يملوها فيكسروها (في سلوك طفولي كسلوك الطفل) يتعلقون بتومي الجديد المبشر بحرية الجسد والروح ونقائهما بالحب (نجده يخلع حلي الماس عن امه ويجرها معه للاغتسال في البحر) . ويدفعهم « زهقهم » الى تدمير مملكته واوثانه والى قتل امه وعمه معا .

والان ، ما حال تومي ؟

انه يهيم في دنيا من الخراب ، مخلفا خلفه اهوال السنين الماضية ومقابرها (كمقبرة « الفليبرز » والغسالات والبرادات ، رمز المجتمع الاستهلاكي البشع) ، والنيران تحاصره وهو يصرخ « اسمعوني . . . تحسسوا جراحي . . . المسوني . . . داووني . . . انقذوني » . ولكن من ينقذ تومي (الوطن) وكيف ؟ ! .

ينتهي فيلم كين راسل هنا ، فليست وظيفة الفنان اصدار كراس حزبي عن وسائل الانقاذ . مهمته هي في كشف المأساة وعرضها بأسلوب يوحي بوسائل حلها ، وقد نجح المخرج في ذلك . ففيلمه صرخة احتجاج على روح المجتمعات الاستهلاكية التي افسدت شبيبة بريطانيا . صرخة قرف في وجه التخدير بالجنس والعنف والدين الذي أسيء فهمه والعصر الذي أسيئت صياغته وصرخة تنبيه الى مخاطر قطع الجذور وهجر الماضي ودفن الروح المقاتلة الصارمة . وما احوجنا نحن ايضا في بلادنا الى صرخة كهذه . . .

في الفيلم ايضا صرخة ضد الابتذال

ولعل كين راسل اراد التأكيد مرتين على رفضه الابتذال ففيلمه هذا مسموح للجميع وليس من نوع « × » الممنوع على من هم دون الثامنة عشرة ، وليس فيه اي من مشاهد العنف والعري التي شاهدناها في افلامه السابقة كفيلم « نساء عاشقات » عن قصة د . هـ. لورانس ، و « سيرة حياة تشايكوفسكي » والشياطين وغيرها . .

والفيلم ممتع حتى للصغار الذين قد لا يعون تماما ابعاده الفكرية فهو فيلم غنائي راقص (روك اند رول) ويضم اجمل ما استطاعت هذه الموسيقى التوصل اليه وهو مبنى

على « البوم تومي » الناجح جدا والذي ظهر عام ١٩٦٩ وباع ٨ ملايين نسخة ـ كتبه بيت تاونشد وحقق به يومئذ ثورة على صعيد الموسيقى كما يحقق به اليوم كين راسل ثورة على صعيد السينما .

ولعل اكثر ما يدور اليوم في لندن والغرب واميركا بالذات يؤكد صدق مخاوف كين راسل وصعوبة انقاذ تومي .

فلندن تلتقط من اميركا فورا كل الموجات الاستهلاكية الاباحية . واخر موجة تم وصولها الى الشواطىء البريطانية هي موجة « الستربتيز » الرجالي !

فـــي اميركا اولا

كتبت الصحافية البريطانية كاتي مارشال في مجلة «شي » أي « هي » ـ عدد اخر ايار (مايو) ـ وصفا لما يدور في نوادي التعرية الرجالية ، وختمت مقالها بالقول : « حين انتهى « الستربتيز » الرجالي صفقنا وفرحنا وعاد الرجل وكرر حفلة التعرية ، وقوبل بمزيد من التصفيق المحموم » .

وفي العدد الاخير من مجلة « شتيرن » تحقيق مصور عـــن احـد النـوادي الخاصـة بالتعرية للرجال ، واسمه « نادي الجوع » ، في ميريلاند في اميركا ، وهو واحد من ١٨ ناديا انشئت كلها في الشهور الاخيرة ونجحت نجاحا كبيرا وكان اقبال النساء عليها غير متوقع .

ممنوع دخـول الرجـال الى النـادي (مـا عدا الشبـان الـذين يتعـرون ويقدمـون نمرتهم) . واغلب « الزبونات » سكرتيرات وزوجات في الثلاثـين من العمـر تقريبـا . ويلقي فيهن صاحب النادي ، الايطالي الاصل ، خطبة يبدؤها بقوله : « لقد تغير الزمان يا سيداتي . لسنا ضد ازواجكن ، ولكننا نمنعهم من الدخول لانه يجب ان يبقى احد في البيت للعناية بالاطفال » !

وعلى ايقـاع الموسيقـى ، والاضـواء الحمـر ، يرقص الرجـال تمامـا كفتيات « الستربتيز » ، وتنهال عليهم « اكراميات » النساء .

ولندن التقطت الموجة ، وفيها اليوم ناد واحد من هذا النوع ، ومن المنتظر ان تتسع الموجة !

والرجال العاملون اغلبهم من الطلاب والجنود وسائقي سيارات الشحن الذين لا تكفي رواتبهم لسد نفقاتهم .

الساحــر العــاري

واذا كان بازوليني من اوائل المخرجين الذين ركزوا على جسد الرجل العاري في السينما ، خصوصا في فيلمه « الليالي العربية » ، فان العري الرجالي يجتاح كل المجالات اللهلية الاخرى خارج السينما . وحتى في النوادي الليلية ، ذات البرنامج العادي ، فاننا نجد « نمرة » الساحر ـ التي كانت تتم وفق مواصفات تقليدية خاصة ـ قد تبدلت اذ تحرر الساحر تماما من ثيابه المسرحية التقليدية وصار يفضل تقديم نمرتـه عاريا تمامـا ، لماذا ؟ يقول حاوي العاب الخفة مالكولم كاديل ، الذي يعمل على مسرح « كازينو باريس » في لندن «يخبىء الساحر عادة الحمام والارانب داخل اكمامه الواسعة ، اما انا فلا مكان في ثيابي اخفي فيه اي شيء لانني بلا ثياب . انني ساحر حقيقي » !

وهكذا تضاف الى سوق الليل في اوروبا سلعة جديدة هي الرجل ، (ربما بمناسبة سنة المرأة العالمية) !

الـردة الدينيـة

ربما كانت هذه الموجة الاباحية هي المحرض الاساسي على ما يشبه الردة الدينية . فهنالك نوع من الرجوع الى الله هربا من هذا الجحيم الارضي ومن الملذات الرخيصة .

وتنتهز بعض « الاديان المزعومة » جوع الشبيبة الى يقين ، فتنتج افلاما تلفـزيونية اعـلانية عن بضاعتهـا . وقـد عرض التلفـزيون « بـي - بي . سي ٢ » فيلما عن دين « كريشنا » ، وفيه نرى اتباع هالي راما يرقصون ويغنون وفقا لطقوسهم الخاصة (الرقص صلاتهم) .

بدأ البرنامج بداية غير مناسبة ـ بنظري ـ بعرضها صورة جامع لندن وفيه المسلمون يقيمون صلاتهم ، ثم الكنيسة والقداس وصورة المسيح ، ثم صورة المعبد الكريشناوي والمعبود راما . فهذا خلط خاطىء ـ من الناحية العلمية على الاقل ـ بين الاديان السماوية القديمة ، ومؤسسة احتكارية اميركية لا تخلو من الروابط مع « المافيا » ومـن مصلحتهـا ترويج المخدرات ، فتستغل جوع الشبيبة الى دين لتستعبدهم بالمخدر ، وباسم الـدين تأخذ ربع ما يكسبون من اي عمل يعتاشون منه !

ولكن الردة الدينية تتجلى في مجالات اخرى حلوة ، ومن حصيلتها تطور مهم وجميل في الاغنية البريطانية « بوب ميوزيك » اذ تحولت اغاني الـ « يه يه » الى تمجيـد المسيح ، كما ظهر على شاشة « بي . بي . سي ١ » كاهن ياباني يمجد اسم الرب . . .

ومن احلى الاغاني الدينية اغنية بوب ديلان « والد الليل » ، واغنية الكريشناويين

« يا الهي المحبوب » .

ومع ذلك تظل تحس ان الردة الدينية هنا اقرب الى الاستعراضية الهستيرية منها الى التأمل الهادىء البعيد عن الاضواء . ولعل الكنيسة احست بخطورة انحراف مسيرة العودة الى الله ، فأكثرت من اعلاناتها عن مواعيد الوعظ والصلاة . ففي مجلة « اين تذهب » ، التي تحوي دليلا واسعا عن حياة لندن السرية وعناوين عاهراتها ، نجد اعلانا نشرته الكنيسة عن عناوين كنائسها ومواعيد الصلوات فيها . والشيء ذاته نجده في كثير من الصحف الواسعة الانتشار - في باب الاعلانات المبوبة . كما في « الهيرالد تريبيون » و « التايمز » . وتحاول الكنيسة من جهة اخرى جذب الشبيبة اليها باقامة الحفلات الراقصة تحت رعاية الكاهن ، والقداسات « المودرن » على انغام « الروك » و « الجيرك » . . وهنالك كاهن رضي بتسلق خشبة بهلوانين في سيرك رغبا في عقد قرانهما على ارتفاع مئة متر عن الارض . وقبل الكاهن خوفا من انتصار الزواج المدني !

ورغم جهود الكنيسة وجوع الشبيبة الى اليقين ، فان الشيطان ما زال يبسط جناحيه على هذه الجزيرة من دون منازع . . . وحتى اشعار آخر او انفجار آخر .

لندن ١٤/ ٧/ ١٩٧٥

كلنا . . للغربة ! . .

حذار من الذهاب الى لندن وحيدا اذا كنت عاشقا . كل هذا الزحام لا يجدي . كل اولئك الذين يتدفقون أمام عينيك كالشلال ، ينطفئون كالزبد . . مئات المتاحف والمسرحيات والملاهي لا تجدي . . . ليست اكثر من سكين في القلب تزيد في حدة أحزانك . . . فلندن مدينة تمنحك كل شيء الا الانس والرفقة الانسانية . . .

تستطيع ان تشتري في لندن أجمل فتيات العالم ، لكنك لا تستطيع شراء لمسة حنان واحدة . . .

وهكذا ، وبعد انقضاء أيام طويلة في لندن ، ستشعر فجأة بما يشبه الاختناق . . . والساحات الشاسعة ستضيق بك ، والبيوت ستحاصرك بلا مبالاة عدوانية ، وكنوز المتاحف ستتراكم فوق صدرك كالاثاث العتيق ، وعربات المترو ستركض فوق عينيك بزعيقها المعدني الصدىء ، والعمارات الشاهقة ستنهار فوق رأسك بكل ما فيها من اسمنت وحديد ورمل ، وستحس بحاجة الى العلاج بشراء بطاقة عودة الى وطنك ، او باللجوء الى مسكنات صيدلية الطبيعة الخضراء ، وحنان الهدوء النادر . . .

وتمتاز لندن بانتشار صيدليات الطبيعة فيها حيث تستطيع أن تهرب من الزحام في أقل من ربع ساعة ، اينما كنت .

فحديقة الهايد بارك الشاسعة تتوسط اماكن سكنية مزدحمة ومراكز تجارية مثل ماربل آرش واكسفورد ستريت ، ونايتسبريدج ، ونوتيغهل وكينسنغتون وكلها تحيط بالهايد بارك كالخاتم . .

حديقة هايد بارك هي اشهر حدائق لندن ، لكن لندن تتضمن حدائق اخرى لا تقل اتساعا عن الهايد بارك مثل حديقة ريجنت (وفيها حديقة للحيوانات) وحديقة جرين بارك وحدائق هامستيد وريتشموند وغيرها . . .

وهذه الحدائق تشكل الرئة المعافاة التي تتنفس لندن بها ولولاها لزاد عدد زبائن الاطباء النفسانيين . .

وتتذكر هذه الحدائق ، فتهدأ نفسك المعذبة قليلا ، وتسكت الراديو الذي يعلن عن

مسابقة أفضل جار معبرا بذلك عن الغربة التي يحياها كل في صدفته وحيدا الى حد محاولة تشجيع فكرة (الجار) ، وتمضي في طريقك الى أحدى الحدائق العامة . . . واذا تصادف ان ذهبت اليها يوم الاحد ، فتسجد على اسوارها مظاهـرة فنية ممتعـة من نوع يستحـق الرصد .

اليوم هو الاحد . وأنا في المترو بطريقي الى منطقة هامستيد . فعلى الرصيف المواجه لحدائقها يقام صباح كل أحد معرض فني في الهواء الطلق ، يأتيه السواح وعشاق الفن من كل مكان . . . وعلى الرصيف ، تتكدس التحف والبضائع في سوق حرة مفتوحة للشمس نادرا وللمطر غالبا ، وللعيون الفضولية . . .

الطقس اليوم جيد في نظر الانكليز ، وبارد جدا بالنسبة الى امرأة مثلي قادمة من بلاد منبع الشمس . . وها هي رعشة برد تسري في جسدي المصفح بأربع كنزات صوفية ، أبدو فيها كمحاربي العصور الوسطى أو حرس البابا ، بينما تمر بي انكليزية في بلـوزة عارية الاكتاف وهي تستجدي شمسها البخيلة الباردة ظل لون أسمر . . .

تمر بي مظاهـرة حريمية لاتحـاد الزوجـات تحمـل الشعـارات بمناسبـة سنـة المرأة العالمية . . . احدى اللافتات تحوي اخطاء في الاملاء والقواعـد !! . . أمـا الزوجـات المتظاهرات ، فيبدو في وجوههن بريق كالذي نراه في وجوه التلامذة الهاربين من المدرسة الى السينما سرا ! . . وفكرت (كما عندهم كما عندنا) . . . ثم نسيت كل شيء عنهن ، حين فوجئت بلوحات ممتازة في معرض الهواء الطلق . . .

اسم الرسام دافيد أونيت . اسم لا يثير فيك شيئا . تماما كاسماء غوغان وفان كوخ قبل ان يموتوا باعوام طويلة وقبل ان يصيروا « غوغان » و « فان كوخ » في نظرنا !!

اسم مغمور ، كما كان جميع العباقرة قبل أن نكتشفهـم . ولـكن لوحاتـه رائعـة حقا . . . فالفنان يرسم البشر كالطحالب تماما فوق اسفلت المدينة . . . بلا جذور . . كما يرسمهم بصورة طيور مهاجرة . . . ترى هل يشاهد احفادي هذه اللوحات ذات يوم في أحد المتاحف ؟ . . .

بعد لوحاته ، شاهدت فنانة ساخرة تصنع اوعية مبتكرة للنباتات ، لبعضها شكل الجمجمة التي تخرج عروق النباتات الخضر من فتحتي عينيها واذنيها وعبر اسنانها ! . . لقد مات الجسد وتبقت الجمجمة ، ولكن ها هي دورة الحياة تتجدد فيها بصورة مختلفة جديدة هي الحياة النباتية ، فتحتلها وترفع بيارق الحياة الخضر فوقها . . .

بسطة اخرى . فنانة اخرى ، ومجموعة من اشغال السيراميك الجميلة أبرز ما فيها

صورة عبلة المستوحاة من الشرق ، ونقوش مستوحاة من التصاميم العربية . . . بسطة أخرى . . عود عربي جميل الهيكل ، نقل صاحبه الاوروبي تصميمه ، ونسي الانتباه الى عدد أوتاره ، فبدا شبيها بالغراب الذي قلد الطاووس . . .

هنالك اشغال جلدية جميلة لزنانير وحقائب يدوية ، كلها تستوحي المناخ الافريقي ، وتبدو دافئة ومغرية تحت شمس لندن الباردة . . التأثيرات الافريقية واضحة ايضا في تماثيل محفورة في الخشب ، وفي مجموعة من الحلي والعقود الفضية المطعمة بناب الفيل (العاج) . . . وكذلك في بعض اللوحات التي تنتمي الى الاتجاهات الفنية كافة . هنالك لوحات كلاسيكية جدا تحاول تقليد الكاميرا العادية ، وهنالك لوحات من المدرسة الانطباعية والسوريالية والحديثة . . هنالك ايضا تطعيم لبعض اللوحات بكابح بسكليته عجوز يحاول الفنان ان (يفرمل) بها الكرة الارضية المتدهورة . . . وهنالك لوحات تحتل فيها الزهور المحنطة مكان الوجوه . . .

هنالك ايضا حلي من احجار الاماتيست الليلكية الشفافة ، المطعمة بالصدف . . وذكرتني بالاثاث الدمشقي التقليدي المزروع بالصدف كقطع النجوم المكسرة . . . أول أثاث فتحت عليه عيوني في دمشق . . . (يا دمشق . .) . . . نجمة اسرائيل تتطفل على كثير من محتويات متحف الهواء الطلق . . . تجدها فوق فضة قرطين . محفورة على اسوارة . على علبة مطعمة بالعاج . تجدها تزين خاتما . قلادة . واسرائيل تبذل جهودا لا بأس بها في هذا المجال حتى على صعيد تمويل الحرفيين الصغار الذين ينتجونها ، فالذي يلفت النظر هو رخصها الشديد بالنسبة للمواد الفضية والذهبية التي صنعت منها نجمة اسرائيل تلك ! . . حتى بعض علب السيراميك الجميلة.، تجدها تحمل شعار اسرائيل في محاولة ذكية لربط الحضارة والابداع الفني برمز اسرائيل ، المجتمع العدواني التوسعي .

وفي آخر رصيف المعروضات وجدت البائع العجوز المتخصص في البوم . انه يبيعك البوم في اشكال سيراميكية متعددة : تماثيل صغيرة . . لوحات . . صحون سجائر . . ثقالات ورق . . وكلها يتضمن البوم في اوضاع مختلفة تتراوح بين الضحك والبكاء . . . اعوام طويلة والبائع العجوز يتخصص في صنعها ويبيعها حتى صار وجهه يشبه وجه بومة اسطورية تقطن شجرة صبار مليئة باشواك الزمن . .

على الرصيف الثاني حديقة هامستيد تناديني . . وفي القاع سيطل جزء من لندن بعيدا وشاسعاً . . طالما عشق الشعراء والفنانون هذه المروج المليئة بالبحيرات . . .

ولكنني اتذكر المعرض الفني الثاني في الهواء الطلق والذي يقام كل اسبوع على

جدار حديقة الهايد بارك . . . **تعالوا معي اليه** . . . **للمرة الألف !** . .

نقابة الثوار الخطابيين

متحف آخر شاسع في الهواء الطلق على سور الهايد بارك الممتد من منطقة (بايز ووتر) حتى (بارك لين) . . سرت وسط وجوه من مختلف الجنسيات . . كانت الشمس في ذروة دفئها ، والوجوه مغسولة بالوضوح والضياء . . وعدد كبير من الاطفال يتأمل اللوحات كالكبار . . واحسست أنني في معرض للحياة المعافاة البريئة ، حيث أشياء الحياة الحلوة والمجانية كالشمس والطفولة والصباح الذي لم يتسخ بالليل بعد . . . وما أحبه في هذه المعارض المنتشرة مثل كرم على درب ، ليس قيمتها الفنية ـ وبعضها عادي ـ وانما المناخ الصحي المعافى الذي يحيط بها . . .

واخيرا أصل الى جزء الهايد بارك المخصص للخطباء (سبيكرز كورنر) . . هناك تستطيع أن تحمل سلما وسطلة ، او منصة ، وتقف عليها ، وتخطب لساعات ، وتحت حماية البوليس . . وفي هذا الجزء من الحديقة تجد أشخاصا اذكياء لكنهم في حالة عجز عن التكيف مع المجتمع او تحويل افكارهم الى سلوك او عمل . . انهم يذكرونني بثوار المقاهي في بلادنا ، حيث يثرثر المثقفون طوال النهار عن « ما العمل » وهم عاطلون عن العمل !! . . . هنا نقابة ثوار الكلام في الهايد بارك ! . . . ولكن . . ما هذا ؟ شجار ؟ اجل ! لقد امتدت موجة العنف حتى الى ركن « التنبلة » الجسدية . . ماذا حدث ؟ اسأل عابر سبيل . يقول لي : احدهما كان يحاضر ضد السلبية ومع العنف الثوري . . وآخر لا يؤمن بالعنف وانما بالسلام ، ناقشه ثم ضربه !! (المؤمن بالسلام هو الذي ضرب المحاضر عن مزايا العنف !)

السماء الخضراء

اتوغل في حديقة الهايد بارك . . . مساحات شاسعة من الاعشاب والاشجار . . . السماء سقف من الخضرة . . . وانا امشي احس انني اخطو داخل لوحة فنية مذهلة الجمال . السكينة تمطر فوقي من الاغصان الكثيفة المتشابكة ومن أصوات الطيور المتسكعة على رؤوس التماثيل ، واللون المتوحش لازهار غزيرة . . . ارتمي على العشب عاما من التعب والصق وجهي بالتراب واحس بها تنبض تحتي (ام تراها عروقي) وترحب بي وأهمس لها : اهلاً بأمي الارض . واتذكر اشعار والت ويتمان عن الارض واوراق العشب ، وأردد بعضها فيما يشبه الصلاة الرمزية . . يمر بي بعض راكبي الاحصنة . . تمر

بي اسرة نصف سعيدة وكلبها وحده يبدو مدللا وسعيدا . . . تمر بي الغيوم والرياح . . . تمر بي الذكريات ، وانا ازداد التصاقا بصدر أمي الارض . . يمر بي عاشقان يتشاجران . . . واتذكر : منذ اعوام كانت الهايد بارك مزروعة بالاشجار وبالعشاق الذين يتبادلون القبلات على العشب . . . ذهب العشاق ، وها هي شجرة ضخمة من اشجار الهايد بارك مرمية على الارض كجثة كأنها قضت نحبها حزنا حين عرفت ان كل الذين تبادلوا قسم الحب تحت اغصانها قد خانوا بعضهم . . الاطفال يركضون ويتسلقون جسد الشجرة الميتة . (انا اقرأ عليها الفاتحة) . . اتابع المشي . . ها هو عاشق غارق تحت الشعر الاشقر لحبيبته . . . سررت بهما . . انهما اول عاشقين اراهما في لندن هذه الرحلة . . يسمع وقع خطواتي فيخرج رأسه من غابة شعرها الاشقر ويديره مستطلعا . . واراه . . وجه عربي جدا . . . وارد ابتسامته المتواطئة . . كان علي ان احدس ان العاشق الوحيد في الحديقة . . . عربي لا أوروبي ! . .

تمر بي اسر كثيرة جاءت تغتسل في بحر الهدوء مخلفة اسبوعها الملطخ بهباب لندن وضوضائها . . . اقترب من بحيرة « السربنتاين » التي تتوسط الهايد بارك . . . ها هو طفل يلعب بطائرته الورقية . . تحلق الطائرة عاليا عاليا مستسلمة لنزوات الريح . . . تحلم بانك تطير على متنها ، ثم تتذكر انك كنت ذات يوم طائرة ورقية عبثت بها نزوات ريح حارة ، ومزقتها . . . . الطفل يفلت من اصابعه طائرته والريح تقذفها بعيدا الى حيث لا تدري . . تتذكر الاصابع التي افلتتك لريح الضياع بطفولة بريئة الاجرام . . . تتابع سيرك نحو البحيرة . . .

ها هو البط يسبح . الام أولا ثم يلحق بها اولادها في تشكيلات بديعة . . . قوارب الاطفال الصغيرة الموجهة تزاحم البط وتصطدم به (لماذا لا تفكر اية بطة بركوب قارب من عشرات القوارب حولها) ؟ بل انها تبدو متضايقة منها ، تتحاشاها وترمق الاطفال اللاعبين بنظرات غاضبة لكنها تأكل الخبز الذي يرمون به اليها . تأكله وتشتمهم . صبي ضرب بطة . سألته امه : هل تحب ان يضربك أحد ؟ لماذا ضربت البطة ؟ ضحكت من التربية الانكليزية الحريصة على التفاصيل الصغيرة كضرب بطة . . . اللامبالية بحوادث الضرب حين تتم على نطاق شاسع اسمه الاستعمار . . . ماذا تجدي التربية المنزلية الصغيرة حين تكون العوبة في يد السياسة الخاطئة لدولة عدوانية ؟ وكيف يتعلم الطفل ان يكون عادلا مع البطة ظالما مع الانسان ؟ . . . تركض ظلال عشرات الطائرات الورقية الهشة ، انها كالامنيات الاكبر من الامكانيات . . .

انها كحلم مشلول بالركض في الغابات . . . وكنت ارتجف بردا حين توقف امامي بائع « الايس كريم » كأنه يسخر مني . . . وخلفه كشك لفرقة موسيقية ستأتي لتعزف ألحان بيتهوفن مجانا . . وحسدت الاطفال الذين سيستمعون اليها بدلا من الاستماع الى اغاني مثل « العتبة قزاز » و « قوم تانلعب باصرة » .

ادخل الى المطعم الزجاجي المطل على بحيرة السربنتاين في الهايد بارك . . . وجوه الناس تبدو شمعية وفي غاية البرود . . . وحده كلب صغير كان يفيض عاطفة ويهز ذيله بحنان انساني . . جلس امامي رجل وامرأة . . الرجل نحيل ورقيق وقد زين أذنيه بقرطين ينسدل فوقهما شعره الاشقر الطويل . . والمرأة خشنة المظهر شعرها القصير خشن كنظراتها وقبضة يدها القوية . . سألته هي ماذا يحب ان يشرب وذهبت تشتري له شرابا بينما نثر هو شعره الاشقر الناعم . خرجت آكل في الهواء الطلق ، فلحقت بي الطيور وبدأت تلتهم غدائي وكالبشر كانت تأكل من يدي ثم تنقرها . . . ثم . . . نمت .

اوغندا تسحر لندن

واذا كانت الحدائق العامة المنتشرة في لندن بكثرة ـ والتي تفتقر اليها اكثر عواصمنا العربية الممعنة في تحويل مدننا الى غابات اسمنت بشعة ـ تحافظ على توازن الانسان النفسي في مواجهة مجاعة القيم ، فان مظاهر اخرى كثيرة معافاة ما تزال مستمرة في المجتمع الانكليزي تساهم مساهمة حقيقية في محاربة الفقر الروحي الزاحف . . وحتى المادي . . .

ولا شك في ان مسارح لندن الجادة وحركتها المسرحية العميقة فكريا والمعافاة هي من أهم مظاهر الصلابة الانسانية في مواجهة زلزال القيم . . .

والى جانب مسرح شكسبير العظيم ، يقام في لندن كل عام مهرجان مسرحي عالمي . . . تشترك فيه فرق كثيرة من بلدان مختلفة كان اخرها الذي اقيم على مسرح (الاولدويتش) ولمعت فيه الفرقة الاوغندية وتليها البولندية فالسويدية التي قدمت مسرحية جوستاف الثالث تأليف ستريندبرج والايطالية التي قدمت « البعث » تأليف سفيفو . . .

وكانت مسرحية الاوغنديين مدهشةالعمق واثارت الاعجاب بطقوس السحر فيها والبسة القبائل (بالاحرى عريها) وطبولها واغانيها الغامضة السحرية واساطيرها الافريقية العظيمة الثراء واسم المسرحية « المحارب الاحمر » الذي ـ وفقا للتقاليد هناك ـ قد بلغ ذروة الشجاعة لان يديه لونهما أحمر فقد تلطختا بدماء الاعداء الذين ذبحهم . وهي

تروي حكاية واقعية لزعيم قبيلة افريقي اختار الدفاع عن قريته ضد عدوان قبيلة اخرى ، وكان اختياره هذا يتضمن التضحية بحياة طفليه الصغيرين . . انها قصة الولادة والموت ، الجريمة والحب ، الخوف والغضب والاسى . . . وضربات الطبل الافريقي المعبرة عن الفرح المجنون تارة والحزن الشاحب تارة اخرى . .

الارض المحايدة

هي المسرحية الجديدة للكاتب المسرحي الشهير هارولد بينتر . . وهو ينتمي الى مدرسة (اللامعقول) المسرحية التي يتربع على قمتها صموئيل بيكيت (في نظري) وبعده يأتي الجميع كيونيسكو وجينيه وألبي وهارولد بينتر مؤلف المسرحية التي سنشاهدها الليلة . نحن الآن في مسرح (أولد فيك) . المفروض ان ترتفع الستارة في السابعة والنصف تماما ، لكن ساعة الدقة الانكليزية الشهيرة صارت صدئة ، ولم تعد موضع ثقة . . الستارة لا ترتفع في الوقت المحدد . تتأمل خشبة المسرح الذي ظل طويلا مركزا لنشاط الفرقة القومية ، وشهدت هذه الخشبة في السنوات السابقة مسرحيات شكسبير وبرناردشو ومارلو وسينيكا وستريندبرغ وتشيكوف وغيرهم . . بعد اسابيع تنقل الفرقة القومية نشاطها الى مسرح جديد بني خصيصا لها ، وتبقى الستارة وحيدة تجتر ذكرياتها مع صرير خشب المسرح العتيق الذي كان نابضا وخفاقا وساهم سنوات في اثراء نهر العطاء الانكليزي على صعيد المسرح . .

المسرحية بكاملها يمثلها اربعة رجال . لا امرأة فيها . لا احداث . مجرد حوار حي متدفق شرس يشدك الى المسرح طيلة ساعات . . الممثلون على درجة عظيمة من الخبرة ، والماضي الفني العريق وعلى رأسهم جون جيلجود (مثل على هذه الخشبة بالذات دور هاملت لشكسبير للمرة الاولى عام ١٩٢٩ ومن يومها حتى الان مثله حوالي ٥٠٠ مرة . كما لعب الادوار الرئيسية في بقية مسرحيات شكسبير منها : روميو وجولييت ـ ريتشارد الثاني ـ مارك انتوني ـ ماكبث ـ الملك لير ـ عطيل وغيرها) . .

المسرحية لا تروي حكاية محددة تقليدية ، بل هي ككل مسرح اللامعقول تخلق مناخا معينا . . . انها لا تستخدم الاساليب التقليدية لمخاطبة الجمهور ، بل لها اساليبها الخاصة القائمة على نسف القواعد التقليدية للمسرح .

تطرح هذه المسرحية علاقة الانسان بالكون اللامبالي . . . الكون المحايد حيث « لا شيء يتبدل او ينمو وانما يظل صامتا ولا مباليا » ، حيث نأتي دون ان ندري لماذا . . . ونمضي دون ان ندري لماذا . . حيث الغربة قدرنا ، وفي روحنا « مناطق لم يدخلها انسان

ولم يدر بها مخلوق آخر » ونضطر الى الاستمرار رغم وعينا بأنه « لن يحدث شيء الى الابد ، وسيكون شتاء الى الابد ، وليلا الى الابد » ، وحتى حينما يطلع الصباح ، فان حزنا عميقاً ينبثق في روح بطل المسرحية « لقد شاهدت بُكَراً كثيرة كهذه الغدوة ، والنور يحاول عبثا أن يخترق الأبواب والنوافذ الموصدة » ، فكل خروج الى النور الحقيقي عبث ما دامت النوافذ خلقت موصدة والأبواب بلا أقفال تفتح بها والعزلة قدر لا مفر منه . . .

وحتى القوة التي تتدفق في البعض ، انها قوة اليأس النابعة من الغربة « هل تعرف من أين استمد قوتي ؟ لا احد احبني قط !! » . . . فالصداقة خداع والحب العوبة تخديرية نتلهى بها عن مأساتنا الوجودية .

وتخرج من هذه المسرحية ، وانت ممتلىء بغم غامض قلق يزرعه في النفوس مسرح اللامعقول الذي ينطلق من مبدأ : الحياة وهم وعبث ، وحلم بلا معنى . . .

ها هو الليل الرابض في الخارج ينقض عليك. تستسلم لبراثنه كما استسلمت انا وصديقي . . . وسرنا على غير هدى غارقين في بحر الاحزان التي ايقظتها في نفوسنا . . . ويبدو اننا سرنا عكس اتجاه الطريق السليمة الموصلة الى محطة مترو واترلو . . . وبعد دقائق وجدنا نفسينا في شارع تصفر فيه الرياح والاشباح . . وبدأ المطر يهطل في زخات خفيفة تهديدية منذرة بالتحول في أية لحظة الى « دوش » شرس . . . لم يمر اي تاكسي طيلة نصف الساعة التي كنا نتخبط فيها على غير هدى . . ومر بنا باص غامض فركبناه دون ان ندري الى اين . . . وقلنا للكمساري ان ينزلنا في اي مكان نستطيع ان نجد فيه تاكسيا . . وبعد دقائق اعطانا الكمساري اشارة الهبوط . . فهبطنا . . وجدنا انفسنا على جسر فوق التايمز ، وساعة البيغ بن امامنا والنهر وراءنا . والمطر من فوقنا والطريق المقفرة من تحتنا وليس امامنا الا . . . الالتهاب الرئوي . . وكان مشهد النهر ساحرا واضواء ترقص على صفحته ، وغرقت في جماله ولم الحظ ان المطر قد اخترقني حتى قاع عظامي . . . بعد ساعة كاملة من التيه في الفيافي والقفار اللندنية ، حين ركبت التاكسي المبارك لاحظت انني مبتلة كفأر حقل في العاصفة . . . وحننت الى بيروت حيث يطاردك سائقو التاكسيات . . وقال صديقي أن علينا ان نصوم عن الذهاب للمسرح أيام اضراب السائقين ، وأنه من زمان ، ايام كانت لندن هي لندن ، كان اصحاب السيارات الخاصة يساهمون في نقل الركاب بدعوتهم لركوب سياراتهم حين يضرب سائقو التاكسي . . وطبعا انقرضت هذه العادة الانكليزية الحلوة منذ تفشت موجة الجريمة والعنف ، وصار الناس يقفلون على

انفسهم ابواب سياراتهم اثناء التنقل ليلا بها خوفا من السرقة والخطف . . و . .

مهرجان العالم الاسلامي

في النادي الخاص بالعاملين في الـ بي . بي . سي ، كنت برفقة الصديقة ليلى طنوس العاملة في قسمها العربي ، والتقيت بالشاعر صلاح نيازي والاستاذ صلاح عز الدين وحين سألتهما عن اهم ما يستحق الكتابة عنه في لندن اتفقا على ان اهم حدث في لندن هو مهرجان العالم الاسلامي الذي سيقام في لندن في السنة المقبلة ويجري التحضير له منذ الآن على نطاق واسع . . . وكان من المفروض ان التقي ببول كيلر - احد العاملين الانكليز في المؤتمر - ليحدثني عنه ، لكن الظروف خربت اللقاء . . وذكر لي بعض الاخوان ان الصهيونية بدأت منذ الآن في العمل ضد المهرجان ، وان الصحف التي تمولها بدأت بمهاجمته بصفته مظاهرة عربية واسعة (خصوصا جريدة الدايلي تلغراف) وقد رد عليهم - حتى الآن - هارولد بيلي رئيس اللجنة التي تشرف على الاعداد للمهرجان .

وحدثني الاخ ماهر عثمان عن ذلك بمزيد من التفصيل :

● سيكون اضخم مهرجان ثقافي تشهده لندن .

● سيشمل المهرجان مختلف وجوه الحضارة الاسلامية وشتى مساهماتها في التراث الانساني .

● ميزانية المهرجان ستزيد عن مليون جنيه استرليني .

● يدوم ثلاثة اشهر كاملة .

● سيتمثل في ١٥ معرضا تقام في عدد من اشهر واعرق المتاحف والمعارض اللندنية .

● سيجري نشر ١٥ كتابا بمناسبة المهرجان كما سيتم عرض عدد من الافلام عن الحضارة الاسلامية .

● سيعقد معرض في « هيوارد جاليري » برعاية مجلس الفنون البريطاني بعنوان « الفنون الاسلامية » وهو اول معرض ضخم من نوعه منذ معرض ميونيخ بألمانيا للفنون الاسلامية الذي عقد عام ١٩١٠ .

● تمويل المهرجان من : السعودية ، الكويت ، الاردن ، قطر ، ايران ، مصر وغيرها من البلدان الاسلامية .

● مجلس امناء مهرجان العالم الاسلامي كان قد شكل في لندن عام ١٩٧٣ بقصد ادارة المهرجان ثم تقديم برنامج ثقافي مستمر . ويرأس مجلس الامناء السير هارولد بيلي

سفير بريطانيا السابق في مصر . . . .

وبعد ، فان توقيت هذا المهرجان ذكي جدا . . فالغـرب اليوم يتلهف الى اعـادة اكتشاف العرب . . . والمهرجان الاسلامي سيعرض وجها تراثياً من وجوه العرب . . الا وهو الحضارة التي غذاها الاسلام .

لندن ۱۷/ ۷/ ۷٥

في مكتبة « فويلز » بلندن . . .

حين يطلقونني في مكتبة غنية بكتبها ، اشعر بالانبهار والفرح والامتلاء ، مثل طفل في مخزن الالعاب ، او قط جائع في وليمة للعيان .

وبخشوع مؤمن في معبده كنت اطوف هذا الصباح بين رفوف مكتبة « فويلز » الكبيرة في لندن حين فوجئت بسلسلة من الكتب العجيبة الغريبة وأسمها « دليل المخادعين » أو « كيف تبلف » .

تناولت كتيبا منها وتأملت عنوانه وأنا لا أصدق ما تقرأه عيناي ! الكتيب اسمه « كيف تخادع لشق طريقك في عالم الفلسفة » .

للوهلة الاولى ظننت أن المؤلف يمزح وأن الكتاب ينتمي الى تلك المسلسلات الفكاهية الضاحكة التي تحمل عناوين مثيرة وتتضمن محاولة ناجحة او فاشلة لرسم ابتسامة على الوجه الكالح لحياة الانسان المعاصر .

وتناولت الكتيب وقلبته ، ففوجئت بأنه ليس في الأمر نكتة بل ربما مأساة ! فالكتاب قد تم تأليفه للغرض المذكور في عنوانه وهو ، ببساطة ، ارشاد القارىء الى بعض الاسماء والمعلومات السطحية التي يستطيع أن يتفوه بها كالببغاء في سهرة ما بحيث يتوهم سامعوه انه علامة في عالم الفلسفة وأنه سقراط عصره وارسطو زمانه ! تابعت تقليب بقية كتب السلسلة الموضوعة على رف خاص في مكان بارز ، وهي كالكتاب السابق ولكن في حقول أخرى : « كيف تخادع لشق طريقك في عالم الفن » ، « كيف تخادع لشق طريقك في عالم الموسيقى » ، « كيف تخادع لشق طريقك في عالم السياسة » ، « . . . في عالم المحاسبة . . . والجاز . . . والادب . . . والاوبرا . . . والاعلان . . . والمسرح . . . وغيرها من المجالات الاخرى التي يكدح البشر عادة للالمام بها ! وها هي كلها امامك على الرف مثل المعلبات الجاهزة في « السوبر ماركت » ولا يتطلب منك امتلاكها غير دفع ثمنها !

عدد الكتب التي صدرت من هذه السلسلة حتى الآن ٢٠ كتابا ، لكن النجاح الكبير الذي تلقاه ، بشهادة موظف المكتبة سيشجع بلا ريب مؤلفها على توسيع السلسلة حتى تغطي مجالات الحياة كافة مساهمة منه في خلق المواطن الغربي في عصر الفضاء ،

المواطن الذي يجهل كل شيء عن كل شيء لكنه يتقن التظاهر بالمعرفة في كل شيء ! انسان عصر المخادعة والقشور والزبد !

وابتعت نسخة من « كيف تخادع لشق طريقك الى عالم الفلسفة » وهو ، كما يقول غلافه الأول ، « يضمن معرفة واسعة فورية » ، وكما يقول غلافه الثاني ، « وأنت ايضا تستطيع أن تكون مزيفا ناجحا .هل تشعر بالنقص لأنك تجهل موضوع النقاش ؟ اقتن دليل « البلف » ليساعدك على التظاهر بالمعرفة ، وسوف تبدو لهم ذكيا كما يبدون لك » !

ويقول المؤلف في مقدمته : « غاية الكتاب هي منح القارىء المرتبك معرفة سطحية بالامور لكنها تكفي لخداع السامعين ، وتزويده بقشرة من المعلومات بحيث يبدو لسامعه وكأنه من الراسخين في العلم » !

وفي الكتاب قائمة قصيرة باسماء الفلاسفة التي على « الغشاش » حفظها ، مع جملة شهيرة او حكاية نادرة يستطيع استعمالها كـ « كليشيه » لاثارة شهقات اعجاب الجالسين . فاذا كان الحديث مثلا يدور حول النوم والحلم ، فما على « البليف » الا القول بصوت شاعري متهدج : « ذكر ديكارات في تأملاته الفلسفية أنه لا يجد مبررا كافيا للتمييز بوضوح تام بين حالة الصحو وحالة النوم والحلم » ، وأن شكسبير قال « نحن مصنوعون من المادة التي صنع الحلم منها ، وحياتنا الصغيرة محاطة بالنوم » !

والكتيب يزود القارىء بـ « كليشيهات » كهذه ، وباسماء سقراط وكانت وسبينوزا وداروين وديوجين وتوماس مور وشوبنهاور وماركس وفولتير ، مع جملة واحدة او حادثة واحدة تحفظها عن كل واحد منهم . ويقترح على القارىء اختراع اسم لفيلسوف وهمي ، غوتا بوجري مثلا ، على ان تمنحه الجنسية الهندية وتلصق به كل الافكار السفسطائية التي تشعر برغبة في تأكيدها !

غوتا بوجري ! في عصرنا الرديء هذا ، المليء بالعقد النفسية ومدعي العلم ، لو ذكر احدكم اسم الفيلسوف « الوهمي » الهندي غوتا بوجري في احدى الجلسات ، ترى كم من الجالسين سيقولون ببساطة انهم لم يسمعوا به ، وكم منهم سيؤكدون انهم قرأوا كتبه كلها وقد يسارعون الى تسميتها ؟ ! .

أبشع ما في كتاب «كيف تخادع لشق طريقك الى عالم الفلسفة » هو ذلك الفصل الذي يتحدث عن أهمية التظاهر بالفهم والمعرفة الفلسفية من أجل اصطياد النساء اللواتي يعجبن غالبا بـ « المفكرين » ! وينافسه في البشاعة ذلك الفصل المليء بالنكات الرخيصة والبذئية ، والسخرية من فتاة وقعت صريعة غرام رجل عطس أمامها لأنها ظنته يقول

شوبنهور (اسم فيلسوف) !

صفحة بعد صفحة تحزن وانت تقرأ عن الفلسفة في مجال البذاءة والتنكيت الرخيص ، وتحس بما يحسه غواص قضى حياته في صيد اللؤلؤ واصابه ما أصاب الذين عناهم السيد المسيح بقوله « ولا تطرحوا جواهركم قدام الخنازير ، فتدوسها بارجلها وترجع عليكم فتمزقكم » !

هذا ما فعله المؤلف بجواهر عطاء الفلسفة ! سلسلة « دليل المخادعين للبلف » تثير في قلوب عشاق الكتاب حسرة ما بعدها حسرة ! من زمان كان الكتاب وسيلة لنشر المعرفة وصار اليوم وسيلة لنشر الجهل ! ذلك المسكين الذي اخترع المطبعة ، وهو يتوهم انه باختراعه هذا سيساهم في انتشار الكتاب والعلم ، وهل كان يدري ان اختراعه هذا سيساهم في انتشار نموذج « المثقف الجاهل » او « المثقف المزيف » ؟ ! .

لقد كانت المعرفة هي الأمل الوحيد الباقي للانسان ليستعيد انسانيته ، وها هي المعرفة تقع ايضا سبية في ايدي قراصنة العصر الاستهلاكي ، وها هو الغرب يقدم بكل وقاحة على ارتكاب جريمة قتل الامل ، وها هو يبدو وكأنه يقف على أعتاب عصور وسطى جديدة .

ويساهم دوئما رحمة في خلق جيل من الفارغين البائسين ، الذين حياتهم الداخلية خواء يشبه خواء صرصور أكله النمل من الداخل ولم يبق منه غير هيكله البراق ملتمعا تحت فلاشات العيون المقتولة بعبادة المظهر الخارجي والحذلقات الصالونية . . .

لقد فسد الملح !

لندن ١٩/ ٧/ ٧٥

المال العربي في اوروبا

المال العربي هو نجم الموسم في اوروبا . . . فقد طارت شهرته ، وصار لا يذكر الا مصحوبا بشهقات الاعجاب والحسد والتمني . . .

ويتحدثون في لندن عن « المال العربي » ويتغزلون به ويسيل « لعابهم الفكري » لذكره . . .

وأصاب الصحافي البريطاني مايكل فيلد (المحرر الاقتصادي في جريدة « الفايننشال تايمز » و « الصنداي تلغراف » و « الاميركان بانكر ») بعضا من « الثراء » حين اصدر كتابا يتحدث عن « الثراء العربي » اسمه « مئة مليون دولار في اليوم » . ونفذت الطبعة الانكليزية فيما سجلت الترجمة الفرنسية ارقام مبيعات هائلة . . .

ويذكر الكتاب أن دخل بعض الدول العربية البترولية يفوق مئة مليون دولار في اليوم ، وأن العرب يستطيعون شراء كل سيارات شركة « ليلاند » الانكليزية من دخلهم في ٣٠ ساعة فقط ! . . ويستطيعون شراء « بنك اميركا » من دخلهم في ١٦ يوما فقط ! . . ويستطيعون شراء مئة طائرة « كونكورد » من دخلهم في ٣ أشهر واسبوعين . . . ويستطيعون شراء الاوراق المالية كلها في بورصة لندن في سنة ونصف . . . ويستطيعون شراء كل الذهب الموجود في البنوك الرسمية العالمية في ٥ سنوات فقط وشراء كل اسهم الشركات العالمية في بورصات العالم كله في ربع قرن فقط ! . .

إن في وسع العرب إذن أن يشتروا ذهب العالم كله في اعوام قليلة . . .

ولكن ، ماذا يجدي العرب ذهب الدنيا وثروات الارض ما داموا فقراء على صعيد العدالة ، وما دام توزيع الثروات يسمح بموت البعض جوعا او شوقا الى الكتاب والدواء والرغيف ؟ ! .

ان المال العربي في ٢١ سنة يكفي لمنح كل عربي حي على وجه الارض مبلغ ١٠٠٠ فرنك فرنسي في الاسبوع (اي حوالي مئة دينار اسبوعيا) ، ومع ذلك فما زال في وطننا العربي من يمشي حافيا ويستعطي ، وما زال الكثيرون في قافلة الفقراء البسطاء يموتون جوعا واهمالا وسرا كاللقطاء على ابواب بعض المسؤولين « الكادحين » لتهريب ملايينهم

الى اوروبا خوفا من الطوفان الذي لا تجدي معه سفينة نوح .

وحين لا تكون العدالة توأما للثراء ، يصير الذهب لعنة ، والمال نقمة لا نعمة . . . فهل ؟ . . أم ؟ ! .

* * *

. . . والصحفيات البريطانيات يعجبن ايضا بـ « المال العربي » اكثر من اعجابهن بعمر الشريف . . . ويلاحقن الاثرياء العرب المقيمين في لندن أو الزوار . والتي لا تفوز بـ « كاديلاك » تكتفي بفوزها الصحافي فتقوم بكتابة موضوع لئيم عن الثري العربي . . . وفي جريدة « الايفننغ نيوز » ، عدد ٢٦ ـ ٥ ـ ٧٥ ، تصدرت الصفحة صورة لوجه عربي الملامح ومقال لصحافية بعنوان « حينما ينثر شيخ عربي نقوده » . . . وتتحدث الصحافة عن ثري عربي يقتني سيارة « ميني » مزودة بكماليات « الرولز رويس » كالبراد والتلفزيون والتلفون داخل السيارة . . وتروي كيف قابلته في فندق « هيلتون » في جناحه المزود ببيانو فاخر ! .

والمقال في مجمله يشهر بالعرب على لسان الكاتبة وعلى لسان الذين استجوبتهم من بائعي السيارات وسماسرة البيوت الذين يتعاملون والعرب ، والذين وصفوا كيف يأتيهم العرب وحريمهم المكون من عدة نساء لشراء اكبر السيارات حجما حتى ولو كانت السيارة تنفق برميلا من البترول لقطع امتار عديدة ! واتفق الجميع على ان العرب لا يمتلكون شيئا من « الحضارة » رغم محاولاتهم امتلاك ادواتها الميكانيكية ! .

والسؤال الموجه الى بعض الاثرياء العرب : ألا يكفيكم ان تسرقوا نصيبنا من ثروات بلادنا حتى تستغلوها ايضا لسرقة سمعتنا في الغرب ؟ ! .

* * *

وحملة الغيرة والتشهير على « المال العربي » تزداد شراسة في اميركا ايضا ، وقد امتدت حتى شملت المجلات الفكاهية غير السياسية ، فخصت مجلة « كراكد » ، العدد ١٢٦ ، العرب بأربع صفحات كاملة سخرت فيها من تعاملهم مع الادوات الحضارية ، فهم يلعبون الغولف بالسيف ويعبثون خراطيم البنزين بـ « البارفان » للعبث مع نسائهم ، ويستعملون الغرف المصفحة في البنوك لسجن حريمهم في أمان ، ويركبون جمالا هودجها قبة مكيفة الهواء ، وبدلا من النوم فوق سرير فراشه مملوء بالماء (الفراش « المودرن ») فانهم ينامون فوق أسرة مملوءة بالبترول ، أما اختراع المراقبة التلفزيونية (كلوزد سيركويت) فيستعملونه لمراقبة جسد راقصة هز البطن من الزوايا كلها ! . .

هذا التشهير بالشعب العربي يستحقه اكثر اثريائنا العرب في اوروبا ولكن متى تنطلق صرخة الاعلام العربي المضاد لتنقل الى الدنيا حكاية ١٤٠ مليون عربي كادح ؟

* * *

المتحف البريطاني شاسع ويضم كل شيء . فيه الكنوز كلها التي نهبتها بريطانيا من الشعوب الاخرى على طول تاريخها . فيه مومياءات من مصر ، وتماثيل وكتابات فرعونية ، وفيه آثار بابلية واغريقية وفارسية ورومانية واسلامية وافريقية . . . فيه قطع منهوبة من آثار الشعوب كلها : توابيتهم وآنيتهم ومخطوطاتهم وتماثيلهم وحتى جثثهم (مومياءاتهم) ! وانا حين امشي في المتحف البريطاني أشعر انني في مغارة شاسعة لسارق ذواقة نهب كنوز الدنيا على طول العصور وحبسها في مغارة الاربعين حرامي هذه .

ولو طبقوا على المتحف البريطاني قانون « من أين لك هذا » لما تبقى فيه شيء غير حراسه وجدرانه ولافتاته ! لو حاكمته محكمة العدل الدولية مثلا بقانون « من اين لك هذا » لفرغ تماما من كل ما يحويه ، ولاعيدت المسروقات الى وطنها الاصلي ، ولنامت عيون المومياءات ولهدأت عظامها بعد قرون من التشرد والاسر !

باريس ٢١/٧/٧٥

اختــرع الانســان الطــيران ... ونسي التحليق !!

حقول السحب البيضاء وكثبانها تمتد الى ما لا نهاية ... وكذلك توقي الى اكتشاف المجهول ، في مدينة تنتظرني بكل اسرارها ... المضيفة تعرض علينا كيفية استعمال قناع الاكسجين في حال وقوع خلل في ضغط الطائرة ... وكيفية استعمال حزام النجاة في حال سقوط الطائرة (حزام النجاة الوحيد الحقيقي هو القدر والصدفة) .. ما تزال المضيفة تلصق قناع الاكسجين على وجهها . أشعر بأنني كمن يرى المسرحية ذاتها للمرة المئة ، تقدمها فرقة مدرسية سيئة من الهواة . المضيفة تنتهي من دورها الممل . تتابع دورا اخر في التنقل بين الركاب و« تضييفهم » قطعا من الشوكولاته .. تبتسم لركاب الدرجة الاولى اكثر مما تبتسم لركاب الدرجة الثانية ، فلكل شيء تسعيرة ، حتى الابتسامة .. ما ابشع الابتسامة في سوق البورصة ... كان الانسان يمتاز على بقية الحيوانات بأنه حيوان مبتسم . الان لم تعد الابتسامة اكثر من تقليصة في الوجه ، وجذب في عضلات الفكين ، وكلما ارتفعت التسعيرة ، اشتد التقلص واتسعت انفراجة الفم ، الشبيهة بقسمات وجوه الجثث في البرادات ...

أغمض عيني هربا من كل شيء . يقتحمني صوت القبطان متمنيا لنا رحلة سعيدة ، ومنذرا بأن درجة الحرارة في باريس هي سبت درجات فقط لا غير ...

الريح الباردة في مطار باريس تؤكد صدق القبطان ... برد شديد لاذع ... هذا الصيف الاوروبي المخادع ، يغيظني ... وشمس الصيف الاوروبية تشبه مصباحا باردا مطفأ مطليا بالاصفر ، ومثبتا في ركن السماء ...

والذي يثير مزيدا من الغيظ ، أن الصحف والمجلات واعلانات المخازن وواجهاتها تتحدث عن الصيف اكثر مما تحاضر الغانية عن الفضيلة ...

هنالك اعلانات لا تحصى عن زيت البحر ، وقد عبيء في زجاجات على شكل ميداليات تعلق في الرقبة . كي تحملها معك كيفما تحركت على الشاطيء . وفي هذا الطقس ، تتساءل : هل المفروض أن أدهن هذا الزيت فوق ثيابي أم تحتها ؟ ففي هذا

البرد ، لا يستطيع الانسان أن يتحرك بدون معطف ،بينما تبدو الاعلانات وكأنها موجهة لأحد نوادي العراة . وبينما انت تسبح تحت المطر ـ بدون زيت بحر ـ تلاحقك توصيات الاعلانات بارتداء المايوه ذي الماركة الفلانية لاكتساب اللون البرونزي ، وتتساءل : هل المقصود بالاعلان السباحة تحت ماء المطر الصيفي البارد ؟ . . . هنالك أيضاً توصيات باستعمال كريم معين لاجل امتصاص أشعة الشمس ، وكريم آخر ضد الشمس ، ويبقى السؤال : اين الشمس ؟! وحتى اعلانات الماكياج ، اكثرها يتحدث عن ماكياج لا يزول بماء البحر ، ولكن من يذهب الى البحر في هذا الطقس البارد ؟ ولعل الذي وضع الاعلان لاحظ ذلك ، فلم ينس ان يذكر ان استعمال هذا النوع من الماكياج يوفر للمرأة متعة البكاء من دون افساد ماكياجها . .

التاكسي يركض بي في شوارع باريس ، والعاصفة الرعدية تفترسها ، والمطر يجلدها ، ويغسل واجهات الدكاكين المضاءة ، وكلها يعرض المايوهات الجديدة والثياب شبه العارية والملابس الشفافة والخفيفة . . . وتمنيت لو اركض في الشوارع تحت المطر من واجهة الى اخرى ، واكتب على زجاجها : البكيني لا يصنع الصيف ، كما ان السنونو لا يصنع الربيع ، والديك لا يصنع الفجر ! . . لكن اوروبا تتعرى على رصيف الصيف وتنتظر شمسا لا تشرق . . .

الفندق بلا تدفئة وانا ارتجف بردا ، وأسأل العجوز التي تفوح من فمها رائحة الخمرة : « لماذا لا تدفئون الفندق ؟ الطقس بارد ، وان كانت الروزنامة تصر على اننا في الصيف » . قالت وهي تتأمل ملامحي العربية : انتم السبب . انكم تحرموننا من البترول . . . صرنا مضطرين للتدفئة ببترولنا الخاص . . . انه النبيذ الفرنسي . . . وضحكت ثملة ثم قالت وقد التمعت نظراتها : لم اكن اشعر بالبرد من زمان . . . أما اليوم ، فلم يعد زوجي قادرا على تدفئة احد . . . انه الآن بارد جداً ، فهو ميت . . .

وقهقهت كالساحرات في مسرحية شكسبيرية ، ثم غادرت الغرفة ، بينما وقفت أتأمل مكانها الفارغ ، واحس بخواء حزين . . . هذا العالم كم هو مرعب وساحر . . . اولئك البشر كم هم مذهلون . . . لحكاياهم العادية احيانا رنين حاد كالاسطورة. . .

الدعايـة الاسرائيلية . .

اول شيء فعلته في باريس ، هو حجز مكان على طائرة تغادرها . . . فبعد أن حجزتني اضرابات عمال المطارات عدة ساعات في مطار لندن ، وبعد ان وجدت مشقة في مغادرتها ، صار همي الاول التأكد من انني لست سجينة في مدينة ما كي استطيع

الاستمتاع باقامتي فيها . . . فالاقامة الارغامية تضايقني حتى ولو كان المكان باريس نفسها . . . في مكتب « السويس اير » بشارع الاوبرا بباريس ، وبينما الموظف الخاص يتعاون والكومبيوتر على رسم بعض الخطوط في بطاقة سفري ، وانا أتأمل المكان ، شاهدت على المنضدة الملاصقة لكراسي الانتظار كراسات دعائية لاسرائيل ، تدعو السياح الى زيارتها . . . شعرت برغبة حادة في تصحيح كل ما ورد في الكراس ، ابتداء من العنوان ، وشطب كلمة اسرائيل ، ووضع كلمة فلسطين مكانها . إنتهى الموظف واعاد لي بطاقتي فخرجت مغتاظة ، تتقاذفني الرغبة في القاء قنبلة على المكان ، والرغبة في تفهم عدم سوء نية القيمين على المكان . . .

ايمانويل

في باريس ظاهرة أحب ان اسميها « الايمانويليية » ، نسبة الى فيلم « ايمانويل » الذي بدأ عرضه في العام الماضي باحدى صالات الشانزيليزيه الكبرى . . . اذكر انني كنت بباريس في اسبوع العرض الاول للفيلم ، وقد توقفت امام الصور ولم تجذبني ، فلم أحضره . . . وكان اقبال الناس على الفيلم ملحوظا . وذات مساء ، وبينما كنت في احد المسارح ، جلست خلفي سائحة اميركية خمسينية ، تروي احداث الفيلم بصفاقة وبذاءة ، فقررت أنه لا بد ان يكون سيئا كي ينال اعجاب امرأة مثلها . . .

وفي لندن ، شاهدت هذه المرة صفا طويلا من الناس على باب احدى افخم دورها السينمائية . . وادهشني ان الفيلم الذي يتدافعون لمشاهدته هو « ايمانويل » ! . . . وبقيت على عنادي ولم ادخل اليه . . . وها انا اليوم في باريس ، افاجأ بظاهرة نجاح صاعق اسمها ايمانويل ، والصحف تتحدث عن الفيلم ، والفيلم يعرض في ثلاث دور للسينما لا في دار واحدة : في (سينما بارامونت في مونبارناس ـ اوديون بالسان جرمان ـ تريومف بالشانزيليزيه) . . وصف طويل من الناس على باب كل منها . . .

وهذه المرة دفعني الفضول للدخول ، واكتشاف ماذا كتبت المؤلفة الفرنسية ايمانويل أرسان ، حتى استحقت هذه الجماهير كلها ؟ . .

وكان الجواب مفاجأة . . .

وجدتني امام فيلم بذيء رديء تمنح بطلته نفسها لرجلين لا تعرفهما على مقاعد الطائرة اثناء الطيران من باريس الى تايلاند . . . في الدقائق الاولى من الفيلم . . . ثم تمارس الشيء ذاته تقريباً مع كل شخص تلتقي به في الفيلم ، ومع ذلك فقد شاهد هذه التفاهة أكثر من ١٦ مليون متفرج حتى الآن .

الذين اخرجوه قرروا استغلال نجاحه في انتاج ملحق له في (ايمانويل ٢) و (ايمانويل ٣) ، على طريقة فيلم (العراب ٢) ، الذي يستغل نجاح العراب الاول ويقرر متابعة سرد سيرة ما تبقى حيا من ابطاله ! . . . (وقد صدر كتاب ايمانويل ٢ وترجم في وقت واحد الى الانكليزية والالمانية !!) . .

ولكن أجر ممثلة ايمانويل لن يبقى على حاله . . لقد تقاضت سيلفيا عن دورها في (ايمانويل ١) مبلغ ٣٥ الف فرنك فرنسي ، وسوف تتقاضى عن (ايمانويل ٢) مبلغ مليون فرنك !! . . .

امام هذه المعجزات المالية والجماهيرية يتزايد فضولك . . . وتجد نفسك وقد اشتريت الكتاب الذي كان وحيا لهذه التحفة السينمائية . انه كتاب « ايمانويل » للمؤلفة ايمانويل أرسان .

تقرر أنه ربما كانت الرواية عظيمة ، والمخرج قد مسخها مثلا . . . وبعد ان تقرأ الرواية تصير صدمتك مزدوجة . انها مجرد رواية جنسية ، ولكنها مكتوبة باسلوب (أدبي) ومطعمة بالحوارات المتفلسفة (المتفزلكة) كأنما تهدف الى ستر عوراتها تحت قشرة (الفكر) . . . قشرة من العمق الظاهري ولكن النتيجة باهرة على صعيد الجماهير كما يبدو . . .

سام هاسكينز

من الافلام التسجيلية القصيرة ، فيلم رائع يعرض في أوروبا عن المصور الفوتوغرافي العملاق « سام هاسكينز » . . ففن التصوير هو اليوم في الغرب ابداع معترف به تماماكفن النحت او الرسم بالزيت ، « وسام هاسكينز » من مبدعيه الكبار . مناسبة الفيلم ، معرض الرسام المسمى « صور افريقية » ، ولكن الفيلم لا يكتفي بتسجيل المعرض بل ويتعداه الى اسلوب سام هاسكينز في العمل ، ورؤياه الخاصة للمرأة والجسد والحب . . . ونراه بين موديلاته يصورهن ، ويرشدهن كيف يمنحن أنفسهن للكاميرا ، ثم نراه مع موديله المفضل يصورها ، ثم نسمع آراء اللواتي عملن معه ، فيه وفي فنه . . .

وهكذا نجد أن فن الرسم بالكاميرا قد ثبت نفسه نهائيا هنا كفن معترف به . . . وصارت له صالات عرض دائمة ، كرست نفسها لنتاج رسامي الكاميرا . . . ففي باريس قاعة عرض دائمة تعرض حاليا مجموعة من صور الفنان « جان دوزيال » ، وهي تبدو أشبه بلوحات تجريدية ورسوم غرافيكية سوريالية ، منها بالصور الفوتوغرافية . . . وفي لندن ايضا معرض دائم للفن الفوتوغرافي .

معرض بورجيه للطائرات . . .

تتعب من المشاهد المتكررة . . . دور سينما . . . صف طويل من الشبيبة بالجينز . . . مسارح . . . معارض . . . شوارع مزروعة بالبرد والوجوه الزجاجية العيون . . . تقرر أن تجرب حقلا خارج اختصاصك ، تسمع بمعرض الطائرات الشهير في مطار بورجيه (أحد مطارات باريس الثلاثة واقدمها) تقرر الذهاب . . .

مساحات شاسعة من الارض تجثم عليها عشرات الطائرات . . . طائرات مختلفة الاحجام والاشكال . . اكثرها عصري محشو بمختلف وسائل الطيران الكومبيوترية والالكترونية . . . تتأملها بحزن وتفكر : لقد اخترع الانسان الطيران ولكنه . . . نسي التحليق ! . . .

تتذكر عباس بن فرناس ، ومحاولته الفريدة للطيران عن ارض الواقع ، وكيف دفع حياته ثمنا لشهية التحليق . . . تجد في المعرض رسومات ومخططات دافنتشي عن آلات بدائية تستطيع الطيران وتجد من يحدثك عن اجهزة حديثة للطيران يتم العمل عليها ، بحيث يحلق الانسان بواسطتها بمفرده . . كالطائر .

نحن الآن في معرض بورجيه الواحد والثلاثين (كل عامين معرض ، وقد افتتح لأول مرة منذ حوالى ٦٢ سنة) . وتشترك فيه هذا العام كل دول العالم التي تعمل في صناعة الطائرات (فرنسا ـ انكلترا ـ اميركا ـ روسيا ـ وغيرها . .)

في المعرض طائرات مصنوعة خصيصا للدمار ، تقف وبراءة الاطفال في محركاتها ، وتدور امام المنصة الرئيسية كما تفعل المرشحات في انتخابات ملكات الجمال ، ثم تحلق فوق المطار في دورة استعراضية ليتأملها رجال الصحافة والناس ووكلاء البيع والشراء . . وتتنافس حاليا المقاتلات الفرنسية (ميراج) صنع داسو والاميركية (جنرال ديناميكس) . والذي يربح سيكون له شرف ابادة عدد أكبر من الاحياء في حروب مقبلة كحرب فيتنام . . .

تلفت النظر ايضا طائرة الكونكورد ، الشبيهة كثيرا بطائر اللقلق ، والجاثمة تحت الضياء كطائر اسطوري غامض من الفضة البراقة . . . أتأملها باعجاب يشبه الكراهية الخائفة . . أمامها يقف من يحدثني عنها : هذه الطائرات التي يشبه شكلها الطيور ، تطير كما لا يقدر طائر . . . انها اسرع من الصوت بمرتين ونصف ، اي انها تقطع المسافة بين نيويورك وباريس في ثلاث ساعات ونصف ، بدلا من سبع ساعات . شركة « رولز رويس » هي التي تصنع محركاتها بالاشتراك مع شركة « سنكما » الفرنسي . . .

الكونكورد هي طبعا طائرة المستقبل .

وقلت لمحدثي : لا اعتقد ان الكونكورد هي طائرة المستقبل . ما جدوى ان تقطع المسافة بين نيويورك وباريس في ثلاث ساعات ، اذا كنت ستهدر بقية وقتك في روتينيات المطار والحقائب والتفتيش والامن العام ، عدا عن اضطرار الطائرات ـ في المطارات الكبيرة ـ الى ان تحوم فوق المطار ريثما يؤذن لها بالهبوط حين يحين دورها . . فالطائرات الحديثة صارت مضطرة للوقوف في صف طويل كصفوف البشر في اوروبا على ابواب دور السينما والمسارح . . . وهكذا فإن ما توفره الطائرة من الوقت بسرعتها ، يهدره الانسان بعجزه عن اللحاق بالآلة . . .

وتتابع دورتك بالمعرض . . . تتأمل عصفورا جميلا يطير محلقاً ثم يقف داخل محرك احدى الطائرات (وربما كان ينصب عشا) يلح عليك ذلك الشعور المرير ، بان الانسان اخترع الطائرة لكنه نسي التحليق بالمعنى الانساني . . يضيق صدرك . . تهرب راجعا الى زحام الشوارع الباريسية . . .

باريس . . . الكان كان

حين تمشي يوم السبت مساءً على رصيف الشانزيليزيه ، متأملا رواد مقاهي الارصفة وزحام المشاة ـ رغم البرد ـ يداخلك شعور بانك في يوم القيامة . . . فالوجوه المتدفقة امام عينيك تنتمي الى جنسيات العالم كلها . . وجوه اوروبية وافريقية واسيوية تتلاحق . . . كل الاجناس والعروق والالسنة اجتمعت هنا . . . دقائق . . . ثم تتعب ، ربما لأن كل ما يفعله هذا الزحام هو انه يحيط بوحدتك كالاطار ، ويبرزها لعينيك كالخنجر خارج غمده . . .

تجلس على اول مقعد فارغ تلقاه في أول مقهى ، وتتابع التأمل . . . تأتي فتاتان (هيبيتان) تعزف احداهما على الجيتار وتغني . ويبدو أن رواد المقهى قد سئموا هذا المشهد المتكرر ، ورغم جمال الفتاة فقد اشاح الجالسون عنها بوجوههم متشاغلين باشياء اخرى ، وتأكد لي ذلك حين دارت رفيقتها بين الجلوس لجمع النقود ، فلم يدفع احد حتى ولا خجلا ، وحتى الشاب العربي الاسمر الذي ركزت عليه الفتاتان جهودهما الفنية والمادية ، ظل يتأملها بعينين تفيضان باللامبالاة . . . لقد نضج الشاب العربي في مواجهة « الشعر الاشقر » أو انه بدأ يسير في طريق النضج . . . وصدمة الحضارة الاولى قد انجلى غبارها وزبدها . . . وبدأ الغرب يرى صورة جديدة للشاب العربي وعلاقاته في مواجهة المجتمع الغربي عامة ، ونسائه خاصة . . . ومقابل هذا النضج العربي

وروجولته المميزة ، نجد أن الشاب الغربي ما يزال يمعن انزلاقاً في درب التخنث ، وفيما مضى ، كان اتخاذ اوضاع (مثيرة) وقفا على الغانيات اللواتي يرغبن بإلتقاط صورهن في غرف نومهن ، أو في « بانيو » الحمام لتحريض خيال المتفرج . أما اليوم فقد انتقلت هذه العادة الى بعض كتاب فرنسا الشبان ، ومؤلفيها المسرحيين والموسيقيين ، أبرزها صورة المؤلف الموهوب « فرنسوا ورثيمر » (مؤلف مسرحي وموسيقي) الذي تصور عارياً في فراشه الوثير ، وسط فقاعات الصابون والرياش المحرضة للخيال منافسا برقته « مارلين مونرو » نفسها .

الجنس الموحــد !

و« فرنسوا ورثيمر » ليس ظاهرة فريدة ، بل هو جزء من موجة صممت فيما يبدو على الغاء الفروق بين المرأة والرجل ، (على الاقل من طرف الرجل !) . . . ولم تعد المشاركة قائمة على الازياء الموحدة ، بل تعدتها الى التسريحة الموحدة التي هي اليوم موضة الشبيبة الباريزية ، ونرى فيها قصة شعر واحدة للشاب والفتاة ، وتسريحة واحدة لكليهما . . . ولكن ذلك لا يمر دون سخرية الناس ، وتعبر عن هذه السخرية بعض الصحف في صفحاتها الكاريكاتورية . . . أطرفها يمثل صورة اثنين مثلا أمام الكاهن لعقد زواجهما . . ويقول لهما الكاهن : بما انني لا استطيع ان أميز العريس من العروس ، لذا اسألكما هل يقبل « احدكما » بالاخر زوجا له ؟ ! . . .

وصحيح ان باريس تضحك من الموضة ، وتسخر منها ، لكن الموضة تجتاح على الاقل رصيف الشانزيليزيه ، ومهمة التفريق بين الانثى والذكر شبه مستحيلة ، والانسان الغربي الذي طالما ثار على الزي الموحد على طريقة (ماوتسي تونغ) ، قد قذف بنفسه الى هوة (الجنس الموحد) !

كما « حنا » كما « حنين » !

وكما في لندن ، يجتاح العري باريس ، إذ لم تعد ثياب راقصات « الكان كان » الثقيلة قادرة على اجتذاب سواح العصر . . وهكذا فقد بدأت بعض الملاهي بتقديم نمرة «الكان كان » متخلية عن الملابس التقليدية ، ومكتفية بالداخلية منها ، وسقط الفولكلور امام متطلبات العصر المادية ، وفقدت الرقصة العتيقة سحرها وطقوسها . . .

ومنذ صدر في لندن قانون بتحريم البغاء العلني (« ستريت أكت » الذي يمنع المومسات من تلويث الارصفة) لجأت لندن الى ادارة وكالات لبيع اللحم البشري الحي

تحت اسماء اخرى مختلفة كوكالات « المساج » ، ووكالات تزويد السواح « بالمرافقات » و «الدليلات» اللواتي يعملن في ارشاد السواح الى قصور اللذة الحديثة ، لا الى قصور بريطانيا الاثرية . . .

اما في باريس فقد اختارت المومسات المواجهة المباشرة ، واعتصمن في كاتدرائية « سان ـ برنار » وفي كنائس أخرى . . . وباريس تتحدث عن « ثورتهن » ، وعن حقوقهن المشروعة في ممارسة « عملهن » دون مضايقات رجال الشرطة . . . وهن يلقين كثيرا من التأييد ، واكثر الناس حماسا لقضيتهن هي « سيمون دي بوفوار » التي نسيت حاليا حماسها لاسرائيل ، وانصبت بكليتها على مناصرة البغاء . . . ما الفرق ؟ . . . .

المطارات ٢٧/ ٧/ ٧٥

برقية من مواطنة في مملكة الغربة !

في لندن تأخر اقلاع الطائرة ربع ساعة . في باريس تأخر اقلاعها نصف ساعة . في جنيف تأخر اقلاعها الى زوريخ حوالي ثلث ساعة . في زوريخ تأخر اقلاعها الى اثينا حوالي أربعين دقيقة !

لم تعد طائرات الاوروبيين منضبطة ودقيقة المواعيد كسمعتها ! وكل المزايا الاوروبية الاخلاقية في حالة انخفاض . وحدها الاسعار في ارتفاع !

تأخر اقلاع الطائرات لا يضايقني !

أحب الجلوس في صالات« الترانزيت » الاوروبية الشاسعة ذات الجدران الزجاجية المفتوحة على الخلاء الماطرالمغبر . لماذا ؟ لاادري بالضبط !

ربما لانني حين اتكوم في مقعدي الجلدي في صالة« الترانزيت » أشعر بأنني قد ودعت مدينة ما بكل ما كان فيها ، وخلفتها ورائي ، وها أنا اجلس على الجسر بين مدينتين ، اتطلع الى لقاء الاخرى ، وأحلم بشوارعها التي لم أطأها بعد ، وموسيقاها التي لم اسمعها بعد ، وامطارها التي لم تغسلني ، واسرارها التي لم أدس بفضولي في فرائها بعد ، وربما لانني حين أجلس في صالة « الترانزيت » وحيدة ، أشعر بأنني أواجه الحقيقة العارية .

(وجودنا الفاني على وجه الارض ما هو الا وجود مسافر في صالة« الترانزيت » . وهذه الدنيا باكملها ليست سوى قاعة انتظار كبيرة يحل فيها المسافر قادما من حيث لا يدري . يقضي ساعات فيها . يحب . يضحك . يقاتل . يبكي . يرقص . يكتب الاشعار . ثم فجأة ينادون اسمه ، ولا يملك الا أن يطيع . يمضي الى الابد مع طائرة أخرى الى حيث لا يدري . يصعد اليها عاريا الا من كفن أبيض . يشيعه محبوه واعداؤه من نوافذ صالة« الترانزيت » باكين او شامتين . ثم ينسونه جميعا) . ربما لانني في صالات« الترانزيت » ارى الاشياء بوضوح اكثر وبـ« دراما » أقل !

وربما لان صالات« الترانزيت » مكان محايد . محايد حتى في موقفه من الزمن بحيث أحس ان الوقت يجمد هنا . (ويدهشني ان تتحرك عقارب الساعة في صالات« الترانزيت ») . فالماضي انتهى ، والمستقبل لما يبدأ بعد !

وربما لان كل الوجوه التي تمر بي غريبة غريبة ، وهذا أمر يريحني اكثر من مرور الوجوه الاليفة التي علي أن القي عليها التحية وأنا أحس بالغربة عنها !

في صالات« الترانزيت » الغربة عارية بلا اقنعة . وأظافرها غير مختفية تحت طلاء الصداقة المزيف . . في صالات« الترانزيت » أحس بأنني أنا أنا . المواطنة في مملكة الغربة . القادمة من حيث لا تدري والمسافرة الى حيث لا تدري . وعنواني : شارع الليل ـ رصيف الحزن ـ خيمة الرياح ! .

● أنا في صالة« الترانزيت » في مطار جنيف . اليوم الاحد ، ودكاكين المنطقة الحرة مازالت مغلقة . وحده الفجر فتح دكانه الرمادي الشاسع الماطر تحت بعض الطائرات التي ما زالت نائمة .

في القرب مني سيارة صفراء وقد ادارت ظهرها لي ، تحمل لافتة مكتوب عليها : اتبعيني ! انها أغرب لافتة شاهدتها . ربما كانت الطائرات هي المقصودة بعبارة اتبعيني ، لكن في هذا الفجر البارد شبه الفارغ من المسافرين والطائرات شعرت بطريقة ما ان العبارة موجهة الي شخصيا .

«اتبعيني» ، ولكن الى أين ؟ فأمام السيارة انتصب الخلاء الكبير ووراءه الافق الرمادي الزائغ ، ولا دربا للسيارة أو لي . انها سيارة تقودك الى مدينة اللامكان واللازمان ، مدينة المجهول ! ورغم الخوف الغامض المفاجيء الذي غمرني شعرت برغبة في تلبية هذه الدعوة الى مدن سرية . . قررت أن اتبع السيارة اذا تحركت . ولكن وصلت طائرتي قبل ذلك وكانت وجهة الطائرة مدينة اثينا .

وهكذا أضعت فرصة الرحيل الى مدينة المجهول !

● زهرة ياسمين صغيرة بيضاء على أرض صالة« الترانزيت » في مطار زوريخ !

كان الفجر حزينا وباردا ، وكنت أشهر جواز سفري وأرد على اسئلة الموظف المختص بكسل تماثيل الازياء في واجهات المخازن . . وكان الفجر حزينا وباردا ، والنعاس الخامل يلفني بشرنقته حين شاهدت فجأة تلك الياسمينة البيضاء نصف المداسة على البلاط البارد . كيف ؟ ومن اين ؟ وأي ريح قذفت بها الى هنا ؟ كان مشهدها منبها وحافزا للذاكرة كمشهد زرافة في قاعة للمحاضرات مثلا !

تراها ياسمينة دمشقية سقطت من« تشكيلة » عروس مرت بهذا المطار ؟ . . تراها نبتت على سور بيتي العتيق في دمشق ؟ أم في حي مجاور ؟ أم في دربي العتيق الى المدرسة ، من ساحة النجمة مرورا بطريق الصالحية وعرنوس والجسر الابيض ؟

وانبسطت دمشق داخل رأسي ، وعدت لاتحرك بين ياسمين الماضي ، وقاسيون ، والليل العتيق ، والدرج العتيق و . . . كان ياما كان !

واستيقظت على زعيق المضيفة معلنة قيام طائرتي ، فلملمت الياسمينة من على الارض وقلت للبلاط شكرا ، وتمسكت بها كبدائي يحتضن تعويذته ، واستعنت بها كشراع اواجه به بحرا من الصقيع الرمادي مكوما عند باب المطار في استقبال عدائي كاسر .

ماأقسى بحار الغربة على من لا يملك زهرة ياسمين أو ذكرى ياسمينة !

وفي صدري مزرعة ياسمين .

لندن ١٥/ ٣/ ١٩٧٦

صـــار الرحيـــل مسْـــتحيلا . . .

بعد أن استطعت خلال الشهور التسعة الاخيرة القيام بمنجز حضاري كبير خلال حرب ، وهو : البقاء على قيد الحياة ،كتبت الى أخي المغترب في لندن (أزف) اليه النبأ . ولكنه لم يصدق . لقد شاهد في التلفزيون البريطاني بيتي وهو يحترق وهو لا يصدق أنني لم اتحول الى حفنة من الرمـاد الملـون نثروهـا فوق امـواج البحـر المتوسـط ذات امسية حزينة . . .

وهكذا طرت اليه لمدة اسبوع ليتحسسني خلاله ، ويتأكد من انني ما زلـت حية أرزق أو لا أرزق لا يهم . المهم حية فحسب !

* * *

حين هبطت الطائرة في مطار لندن ، شعرت بانني لم اغادر بيروت . . .

حين يصير القلب خارطة للوطن ، يصير الرحيل مستحيلا . وفرحـت لانـني لم اهرب من بيروت حين كانت تحترق . . فقد كنت ساحترق معها حتى ولو كنت على بعد مئة الف ميل وفرسخ . .

حتى ولو لم نقطن في الوطن ، فانه سيظل يقطننا . . . لذا فالسفر ممكن ، لكن صار الرحيل مستحيلا ! . . .

* * *

الوجود العربي في لندن كثيف الحضور . . . فالوجوه العربية قد استطاعت اثبات وجودها في ملاهي العاصمة ، واحتلت الصدارة في « البلاي بوي كلوب » و « كازانوفا » كما اكتسحت أندية القمار الكبرى بجدارة ! . .

وقد استطاع هذا (الغزو) العربي ترك بصماته في الحياة البريطانية . . فقد دخلت اللغة العربية للمرة الاولى الى . . . صالات الحمامات ودور الخلاء في الفنادق ! . . وفي احد فنادق بارك لين بهايد بارك كورنر ترى في الحمام لافتة مكتوبة باللغة العربية (تعلم) العرب كيفية مراعاة النظافة في (الحمام) وغيرها من التفاصيل الحميمة ! . . هذا بالاضافة الى وجود (ملحقـين عاطفيين) في مكاتـب تأجـير (الفتيات الـدليلات السياحيات !) يتحدثون العربية بطلاقة لتلبية طلبات الزبائن العرب دون اي خطأ ولو طفيف في لون

الشعر او الوزن (الفكري) للدليلة ، او بقية المواصفات والمقاسات ! . . .

الظاهرة نفسها بدأت تتسلل . ليس الى المطاعم التي تقدم وجبات عربية فحسب ، بل الى المطاعم التي تقدم فاتورة لا يقدر على دفعها غير (ثري عربي) أيضا . . وصرت ترى اللغة العربية تطل عليك باستحياء في هذه الاماكن وغيرها . . .

أما في المتحف البريطاني وكراساته ولافتاته ، فلم يجر بعد أي تعديل لمواجهة متطلبات (الوجود العربي) في لندن ، ربما لانه غير موجود على الاطلاق في أمكنة (مملة) كالمتحف البريطاني مثلا ، او امكنة ذات طبيعة ثقافية « غير استهلاكية » . .

من هنا تأتي أهمية مهرجان العالم الاسلامي الذي يقام في لندن . . . والذي ينقل صورة مشرقة عن دور العرب كمشاركين في صنع الحضارة الانسانية . . .

ومن هنا تأتي أيضا أهمية المحاولات العربية الحالية العديدة لاصدار منشورات عربية في لندن باللغة الانكليزية . وعسى ان تحمل هذه المنشورات او بعضها الصوت الحقيقي للجماهير العربية ونبضها وتطلعاتها وكفاحها . . . وصوت مناضلينا العرب الذين يروون الارض بدمهم لا صوت (مناضلينا) في كاباريهات لندن الذين يروون ليلها بنقودهم التي هي أصلا نقود المئة والستين مليون كادح عربي ضد التخلف والامية والقهر السياسي والاجتماعي . . .

* * *

الاحصاءات تعطينا صورة مروعة عن هذا التخلف . تقول : من بين اربعة وعشرين مليون طفل عربي تحت الرابعة من عمرهم ، هنالك عشرون مليون طفل تربيهم أمهات أميات تماما ! . .

ومع ذلك ، فان بعض اثريائنا العرب ينفقون في ليلة واحدة لارضاء امرأة أوروبية ، نقودا تكفي لمحو الامية بين أمهات قريته جميعا ! . . ودونما خجل او خوف من عقاب الشعب الذي يمهل ولا يهمل ! . . .

الكويت ١٠/ ٥/ ٧٦

تحولت الى سمكة نسيان

اسبوع في الكويت . . .

وارتميت فوق قرص الشمس وكان الشاطىء يلهث تحت جسد الامواج ، وكان قلبي مثقلا برائحة البارود ، وفوق عيني اجساد عشرات القتلى ، وكانت ذاكرتي رصيفا للموت مصادفة . . .

اسبوع في الكويت . . .

وتقلبت فوق قرص الشمس فدارت بي وسط السماء ، دارت ودارت بسرعة ، وتطايرت ذاكرتي في الاتجاهات كلها ، وامتدت يد النسيان الحنون تحصي جراحي ثم تخيطها . . . وركضت على الشاطىء مثل تمساح استوائي صغير يطارد ذيله . . . وسبحت مع مئات الاسماك الشفافة وكانت تحدق بي بعيونها الطفولية الفضول ، ثم تحولت الى سمكة فالتصقت بي سمكة أخرى وصارت تروي لي حكايا الاعماق واسرار البحار منذ اقدم العصور . .

* * *

. . . وليس في الدنيا رجل يشبه رجلا اخر . . . وليس هنالك شاطىء يشبه شاطئا اخر او بحر يشبه بحرا اخر . . .

هذا ما يكتشفه عشاق البحر الاوفياء لحبهم . وبحر الكويت متميز الاصداف يختلف تماما عن بحر بيروت (المتوسط) ، او بحر ويلز ببريطانيا (الاطلسي) او البحر الاحمر في عدن ، او اي بحر اخر سبحت فيه واتحدت بمخلوقاته على الشاطىء ووسط الماء . . .

ملايين الاصداف منتشرة . . وقبائل هائلة من السمك الصغير تنزلق على جسدك هاربة منك واليك وانت تسبح . . . طعم الملح مختلف ومتميز . شكل اعشاب البحر مختلف الالوان . . ايقاع الموج ، وصوت الريح ، واسراب (الكوكسينيل) باجسادها البرتقالية الدقيقة المنقطة بالاسود وهي تحط فوق جلدك الحار وتطوي جناحيها الشفافين البنيين . . .

وأتعب . . . وتركض قبيلة الاسماك سابحة نحو القاع ، فالحق بها قليلا ثم اتذكر انني لست سمكة تماما فاعود الى الشاطىء وارتمي من جديد فوق قرص الشمس . . .

وتحط فوق كتفي جرادة حمراء الجناحين ترحب بفوران الحياة حولها ، وتقفز من كتف الى الاخر في حيوية مدهشة . . فأقول لها :

بعد غد اعود الى بيروت . . . مثلك انا احب هذا الكون الجميل . . . ليتني لا اقتل برصاصة طائشة . . .

وتهز الجرادة قرنيها الصغيرين موافقة ، ثم تطير . . .

فأتابع حواري مع سلطعان وردي . . .

* * *

واخيرا شاهدت « الطوز » في عاصفة رملية . . جاء يزحف ذات مساء بجسده الممتد على طول الافق والسماء . . .

هاجم الكويت مع الغروب . . . كان يركض في الشوارع بسيقانه الدقيقة الغبارية ويعربد فوق النوافذ متسللا الى الداخل ، كالاشباح لا تراه يدخل لكنك تجده هناك ، وحولك ، طبقة من الغبار تغطي كل شيء . . . تغطي الطاولة والكرسي وصفحة الورق التي تكتب عليها وكوب الشاي وافريز النافذة . . .

تجده فوق اهدابك . . . فوق بؤ بؤ عينيك . داخل شفتيك . . داخل حنجرتك . . داخل اذنيك . . . تحت لسانك . . . وتتذوق طعم التراب ومعه تتذكر الموت . . وطعم التراب الذي لا بد ان يحشو به القبر فمك ذات ليلة كهذه . . .

تقف امام النافذة وتتأمل عاصفة « الطوز » مذهولا كما وقفت انا . . .

انها ليلة ٩ ـ ٥ ـ ٧٦ ، وانا احدق من النافذة المرتفعة ، وفي القاع ، امتدت الكويت رقعة شاسعة من الاضواء جميلة وملونة مثل مجوهرات ساحرة تركض في العاصفة . . .

وادركت معنى التحدي الذي تواجهه مدننا العربية في الصحراء . . . و « الطوز » يركض ليغطي الليل بعاصفة رملية جنودها ملايين ذرات الرمل الدقيقة ، امتلأ قلبي بالغبطة وانا اتذكر ان الانسان العربي في اكثر اقطارنا العربية الصحراوية قد استطاع ان يقطع خطوات كبيرة في درب الانتصار على الصحراء ، وبحرها الرملي الشاسع ، وامواجها الغبارية التي تمد اذرعها الاخطبوطية لتطال كل شيء ولتدخل الى كل شيء . . . .

وعند منتصف الليل تدفق المطر . : . وبدأت السماء تغسل زحف الصحراء في الارض . . .

امطرت طويلا طويلا . . وكانت السيارة تركض بنا في الشوارع ، وأغنية كويتية تصرخ بلوعة عربية حادة المذاق :

« سرى الليل يا قمرنا
ولا جيت في سهرنا
أتاريك يا قمرنا
خداك الليل والهوى »

واترك انغام الاغنية الحزينة تمتلك روحي، واترك (عروبتي) في المشاعر تحتلني لأغرق في حزن عاطفي مبهم . . واتذكر الاغاني (عتابا وميجانا) السورية . . وانصت الى مرادف كويتي لها . . والمطر ينهمر واحزاني تمتزج بهذا النهر العجيب من المطر والآهات . . .

تلك الليلة . . . كان المطر دموع النسيان !

الكويت ١٥/ ٥/ ٧٦

يومياتي في الكويت

الطائرة من جديد . .

جسدي مشدود الى المقعد بحزام . . أما « أنـا » فجالسـة على جنـاح الطائـرة في الخارج ، وقد ادليت قدمي في بئر الليل ونشرت شعري على صفحة السماء وفي حلقي انشودة توق الى الحرية والمجهول يمتزج مع زعيق محركات الطائرة في لحن عصري حزين من شقهات الروح الممزقة بين اسنان الة ما ، الملطخة بزيوت التشحيم .

الطائرة من جديد . .

منـذ اسـابيع ثلاثـة كنـت في طريقـي الى الشمال . . الى جنيف . . الى ثلـوج غشتاد . . وكان للطائرة مذاق التابوت . .

هذه المرة أنا راحلة الى الجنوب . . الى الشمس . . الى الدفء . . والطائرة فراشة عملاقة . . احلم برجل لا اعرفه ، ذقنه مغارة حب . .

الطائرة من جديد . .

والليل قد زرع زهوره السود الغامضة على طول السماء والارض . .

ثمة شق من نور عند الافق . . يلـوح مثـل كوة تنفتـح على الطـرف الاخـر من العالم . . مثل عتبة امام درب اخرى (حبيبي الذي لم يعد حبيبي يقطن الطرف الآخر من العالم . . لكن الخنساء ليسـت جدتـي . ولن اقضي بقية عمـري أبـكيه . . أنـا بنـت اللحظـة . أعلن عصيانـي على البارحـة . . والماضي . . والـذكريات . . وكل الاسماء البراقة لجثة ما كان)

ولكن هل استطيع ذلك حقا ؟ . .

هل استطيع مثلا ان انسى مشهد الجثث في بيروت وانا في دربي الى المطار ؟ . .

(كانت مرمية تحت الجسر . متورمة ومنتفخة وقد تمزقت ثيابها . رائحة نتنة تفوح منها مختلطة مع رائحة احراق القمامة وابخرة البارود . هذه البقايا كانت الى ما قبل ايام رجـالا يضحـكون ويأكلـون ويحبـون ويمرضـون ويضمون الى صدورهـم زوجاتهـم واطفالهم . .

بينهم من مات مصادفة ودونما معنى . . ولكن بينهم من مات عن سابق تصميم وتصور ، لاجل مثل ما ، يؤمن بها . .

وعما قريب يأتي دوري لآخذ موضعي بين الجثث تحت الجسر . . فهنالك قيم كثيرة اؤمن بها ، ربما الى حد الموت لاجلها ، بل والحياة لأجلها . . لا يستطيع أي فنان ان يكون حياديا ما دام لا يستطيع ان يكون خارج قضايا مجتمعه .

تحت الجسر شاهدت جثتي وقد بدأت الجوارح تلتهمها . .

لملمت الشال حولي . الان انا هنا في الطائرة . . لتكن اجازة نسيان ، كي اكون اكثر قدرة على العطاء بعد عودتي . .

الان يجب ان انسى . . انسى . . أ . . ن . . س . . ى . . اعرف انه سيأتي يوم احب فيه الموت لاجل مثلي بقدر ما احب الحياة الان لذاتها . .

وريثما يحدث ذلك . .

فلانسى . .

الطائرة من جديد . .

وعشب الليل الاسود يكسو مروج السماء والارض . .

في القاع ضوء وحيد وسط الظلمة اللامتناهية . . ترى من يقطن هناك ؟ ولماذا هو وحيد هكذا ؟ ام تراه نجم هوى الى الارض . .

(بين ذراعي هوى . . كان ينزف والانفجارات تتوالى والاجساد الممزقة تتناثر حولي وترتطم بي.وبالجدار خلفي . . لم اكن ادري فيما اذا كنت قد اصبت ام لا . . لم اكن ادري فيما اذا كان ذلك الدم الذي يغطيني دمه أم دمي . . صرخت باسمه . . وللمرة الاولى لم يجب . . وعرفت انها المرة الاخيرة له بين ذراعي) . .

والطائرة تبحر بي بعيدا . . تصمت محركاتها . . تتحول الى منطاد صامت يعوم بي الى كوكب جديد . . القمر الجديد يبزغ من احد محاورها دعوة الى التجدد . . وانا لا املك الا ان استجيب لنداء القمر كما تستجيب له امواج البحر . . واحس بمده وجزره في قاع روحي . .

أظن ليلة ١١/ ٥/ ٧٦

***

لم انم جيدا . .

لم تطلق رصاصة . لم تنفجر قذيفة . لم يضيء برق القنبلة ثم صفيرها قبل لحظة

الدوي . . ربما لذلك لم انم جيدا . .

ان طاقة الجسد البشري على التكيف لا تصدق . . حتى على التكيف مع ليل الموت والدمار . . وليل الكويت عادي . . وانا قادمة من مدينة غير عادية .

لم استيقظ جيدا . .

عيناي مغمضتان ولا اعرف كم الوقت ولا يهمني ان اعرف . . . لكنني اسمع صوت الامواج عبر نوافذ الفندق البحري . . واشعر بالفرح لانني لم اجد غرفة فارغة في اي من الفنادق الكبرى بالكويت . .

ها أنا اسكن البحر من جديد . . تأتيني ضحكات الاطفال ممزوجة بصوت ارتطام اجسادهم الشفافة بماء البركة تحت نافذتي . .

تأتيني الشمس عبر النافذة واحس بلسعها فوق وجهي : تنقر باب جفوني ، فأفتحها . .

انه البحر . . بيتي الحقيقي . .

يوم اموت سأطلب اليهم احراق جثتي ، ونثر رمادي الملون فوق البحار كلها . . حفنة فوق كل بحر ، لانبت في القاع مرجانا وفي الاصداف لؤلؤا اسود . .

اركض الى الماء . .

اتمدد فوق قرص الشمس فيدور بي ، وتتناثر من دماغي اسماء اصدقائي وصديقاتي انكثر الذين اشتاق الى لقائهم بالكويت . .

استحيل حيوانا بحريا صغيرا يقفز على الرمل . . يضحك في ارجوحة اعشاب الماء . . يتحدث طويلا والاسماك . . يخونها مع سلطعان عابر . .

اه الشمس . . اركض على وجهها دونما خوف من رصاصة قناص . . ثم استرخي في رمالها وأطمر نفسي حتى العنق ، ويمر بي سرب من الجراد يحدق بي مذهولا ، فأقول له انا شجرة فلا يصدق ، ويطير وأطير معه . . وأصير جندب حقل صغير . .

انه الصباح . . انه المساء . .

والمسافة بينهما لحظة استرخاء . .

وأنا قد نسيت اسمي . .

الهاتف يرن . يقولون لي اسمي ، فأرتدي قناعي لالعب دوري على المسرح . .

خففوا الاضواء . . فجرحي عميق ومرهف . . لا تتشاجروا امامي لاجل خلافات اجتماعية ـ أدبية وتفاصيل هشة ،

فأنا قادمة من كوكب الجوع والثورة والفداء وكل ذلك يبدو لي ترفا فكريا في عالم من النزف . .

لا اهمية لسوء التفاهم الذي ننفخه احيانا ليكبر كالبالون . . .

ففي الخارج ينتظرنا الموت والغربة والمرض . . وهنالك ايضا الشمس والحقول التي لم نزرها بعد . .

هدوءا . . انصتوا لقلوبكم المنسية . . ذلك الذي يجري فيها هو دم حقيقي وليس نفطا . .

***

الجمعة او الاثنين

لقد غسل البحر ذاكرتي ، وتبعثرت هوادج الايام في الصحراء الشاسعة الرائعة . . ولم اعد اميز اسماء ايام الاسبوع . .

الجمعة ام الاثنين ؟ لا يهم . . ما الفرق ما دمت احيا . .

وصوته عملاق الحزن يأتيني فجأة . . يطلع الي من قحط اللاانتظار . . يشرق من افق المفاجأة . . اعطاني لفافة فدخنتها قبل ان الحظ ذلك . . وعرفت انه قادر على املاء ارادته علي بطريقة ما . .

ايها الحزين حتى الضحك . . . الشرس حتى العذوبة . . سعيد من له مرقد قلب في عالمك . .

***

الثـلاثـاء او الخميـس

تم القبض علي من قبل اصدقائي واحبابي متلبسة بجرم زيارة شمس الكويت دون بيوتها . . وشواطىء الكويت دون شوارعها . . ومواكب موجها دون موائدها . . وكثبان رمالها دون مكاتبها . .

وتم جلدي في ساحة المحبة بالعتاب الرقيق ، واعترفت بجرمي دون اعلان توبتي ، وعدت الى مواقعي في البحر وقد شهرت انياب نزواتي . . قررت ان اصير جزيرة .

(كيف استطعت يا غريب ان تمد جسدك المشدود كالرمح جسرا الى عالمي المتوحش ؟) . .

الاربعاء او الاحد

الزيارة الوحيدة التي قمت بها في الكويت كانت الى المستشفى .

.. التقيته للمرة الاولى بعد تسع سنوات الا قليلا .. كان أخا لي ، غدرت به الايام ..

في الدرب اليه تذكرت وجوه عشرات من اخوتي في الكويت الذين احب ان ازورهم ويحبون ان ازورهم ولم أفعل .

انهم ليسوا بحاجة الي . انهم يملكون الشمس والحرية والقدرة على اخراج اجنحتهم من تحت ثيابهم والطيران .

لقيته . غمرني بؤس حقيقي ..

فمن جدران المصح الهادىء كانت تسيل صرخات صامتة لأوجاع لا متناهية ..

تسعة اعوام ..

رحلت خلالها مئات المرات .. طاردت مئات النجوم .. دمرت مئات المنارات .. ضحكت بكيت .. رقصت تمزقت .. وهو وحيد هنا ، ومحبة اسرته له ، ومحبة إخوانه له ، ومحبة العالم اجمع لا تملك له شيئا ولا تقوى على حمل صليبه ، ولا تستطيع اختراق شرنقة اوجاعه ...

اه كم الانسان وحيد وحيد وحيد . يولد وحيداً ويموت وحيداً ويتعذب وحيداً. كم غربة الانسان داخل جسده حقيقة لا تستطيع كسرها لا الصداقة ولا المحبة ولا القرابة .. وكل منا سجين اقفاص غربته ، والكرة الارضية سجن واحد كبير ، والجسد قفص للروح ..

وغادرته وفي حنجرتي ثقب تهرب عبره الكلمات .. وحين جاءت الصديقة ليلى حاملة جهاز التسجيل لحوارنا الاذاعي اشرت الى الثقب في حنجرتي ففهمت . وجلست واياها ومنى ، وقرع الحزن الباب فادخلناه وصمتنا ، وتركناه يثرثر .

***

الخميس او السبت

الاختان الكويتيتان غنيمة ونوال ، ارى عبرهما الوجه المشرق لامرأة الكويت العاملة ..

كان احتكاكي بهما يوميا ، وعرفت عبرهما عن صمود الكويتية واحترامها لعملها اكثر مما تملك نقله كراسات الدعاية كلها ...

فقد كان اللقاء عفويا ..

ومع راوية طفت في شوارع الكويت كالسهم ، وكان علي ان اصدق ان هذه الابنية

والحدائق والاضواء قد انتشرت على وجه الكويت في اقل من عشر سنوات . . منذ زيارتي الاولى لهذا البلد . .

وادركت انني ببساطة قد زرت الكويت هذه المرة دون ان ازورها . . وصرت أعرف عن بحارها اكثر مما اعرفه عن مؤسساتها . . واعرف عن اسماكها اكثر مما اعرف عن أهلها . . وعذري انني هاربة من الحرب الثائرة بلبنان لاعود اليها بعد ايام . . وان حاجتي الان الى الاجازة هي اكبر من حاجتي الى المعرفة . .

وهكذا ادركت وأنا اتعرف على معالم الكويت كم اجهلها . .

وتمنيت ان يكون ذلك الزخم البنائي انعكاسا لزخم بنائي داخل الانسان الكويتي نفسه ، لا لمجرد قشرة من ذهب . .

تؤكد لي راوية ذلك . . تقول ان بناء البيوت الحديثة ليس على حساب تدمير الاسرة . . وان غرس الاشجار ليس على حساب قطع جذور الفرد الكويتي في تربة الاصالة العربية . .

ثم جاء « الطوز » ليلا وفهمت معنى ان نزرع في الصحراء زهرة . اري كثبان الصحراء تزحف علي بملايين من سيقانها الغبارية الدقيقة كوحش اسطوري . . تتسلل الى كل شيء من خلال كل شيء لتجتاح الدنيا . . تتسلق الاضواء والاشجار والاجساد الراكضة واسلاك الكهرباء واجنحة الطيور لتكفنها بتراب الموت . .

ووعيت معنى ان تقف في وجه الصحراء وتتحداها وتبني مدينة ونهرا وشجرة ومصنعا . .

ثم انفجر المطر . . وبدأت السماء تغسل ذنوب الرمال . . امطرت طويلا بعدد قطرات المحبة حين تشرق في الروح بعد عاصفة فراق رملية . .

* * *

الاثنين أو الاثنين

وهل اراك ثانية ؟ . .

وهل اهمس داخل رأسك : اشهد ان لا حب الا حبك ؟ . .

وهل تلقي بظلك العملاق على الغجرية محروقة الخدين ؟ . .

وهل . . وهل . . ومتى ؟ . .

ربما كان اروع ما فيك هو انني لا ادري . .

الثلاثاء بالضبط

واعرف انه الثلاثاء . .

واعرف جيدا اسمي . . واعرف جيدا انني عائدة الى المدينة التي تولد او تحتضر . .

وأعرف جيدا ان اسمي هو مشروع ذبيحة . .

وأعرف انني عائدة . . لاقاتل على طريقتي . . شاهرة قلمي وغضبي . . واذا مت في أزقة بيروت المزروعة نارا ودمارا فسيكون موتا حقا ، فقد احببت الحياة حقا . .

الى اللقاء ؟ . . . .

جنيف ٢٥/ ٥/ ٧٦

وداعا عالم الفنادق المكهربة

رحلة عمل

وجنيف تستقبلني كسحابة من التخدير الملون . تفتح ذراعيها لتضمني الى قلبها الافيوني السكينة ، لكنني لا استطيع ان اخطو عبر عتبة الوعي الى حجرات النسيان . .

حين تسبح هموم وطنك في دمك كالاسماك الفسفورية ، تعجز عن النسيان ولو للحظة واحدة . . .

حين يصير القلب خارطة للوطن ، يصبح الهرب مستحيلا . . .

* * *

. . . ويقدمون لك طعام الافطار . . . وجريدة صباح خالية من النعوات واخبار الوفيات . . وعدة زهرات تزين مائدتك . . .

تتأمل ورودهم . . .

انها جميلة . . . كأنها مصنوعة من مخمل مدهش التقنية . . . كأنها خارجة من معمل كله « تكنولوجيا » راقية . . .

ورود جنيف جميلة ونظيفة ، حتى كأنها مزروعة في الثلج لا في التراب . . .

تذكرت ياسمين دمشق ، العابق برائحة التراب والمطر . . . الصغير الحنون . . .

وشهقت شوقا وهلعا . . وخلف النافذة كان يقبع عالم من البرود المحايد . .

* * *

وكل ما في الفندق يتحرك بدقة ساعة سويسرية . . . الا انا . . . ألمس مقبض الباب الفولاذي ، فيخرج البرق من تحت اظافري . . .

لا ألمس شيئاً حولي إلا وأتكهرب وأصرخ بصمت . . .خادمة الفندق لديها تفسير علمي . تقول ان الامر يحدث لجميع النزلاء . وان اسمه « الكهرباء الساكنة » . . . (فالموكيت) السجاد غير الاصلي يشحن الجسد بطاقة كهربائية ، ويتم نقلها الى اي شيء معدني تمسه . . .

ولكن الامر كان يحدث لي بشكل آخر . . . كانت الريح الباردة تكهربني . . .

الاصوات الغريبة . . همهمات الغرباء في الدروب . . . السماء . . . الاشجار . . . الازهار النظيفة كثوب ممرضة في مصح عقلي للاثرياء . . .

آه عالم الفنادق المكهربة كم امقته ، انا ابنة الريح والتراب والصيف العربي الحار . . .

* * *

الدرب الى غشتاد طويلة وحزينة . . اسراب السيارات قافلة من النمل المنتظم . . .

والسيارة تركض بنا عبر لوزان ثم ايجيل نحو ليسين ثم غشتاد . . .

طرقات الالب السويسرية نظيفة كورود جنيف .

افتقد غبار دروب جبال لبنان . . . وتركض في عيوني طرقات طالما مضيت فيها . . . الدرب الى كربلاء والنجف في العراق . . الدرب الى اللاذقية ، وصافيتا ، والدريكيش بسوريا . الدرب الى أبين . . الى حضرموت . . . الى يافع في اليمن . . .

آه غبار دروب عرمون . ورائحة الغابات والريح والدفء . . .

آه رائحة زهر الليمون الحار . . .

واشهق . . .

واحس بأنني سمكة اخرجوها من مياهها ليجرجروها على اسفلت الالب السويسري ! . .

آه هذا العالم المروع الدقة والنظام والبرودة . . . عالم الفنادق المكهربة . . .

اعيدوني الى بحري الدافىء . . .

* * *

وعالم الفنادق المكهربة في اوروبا مليء بالعرب . . . وتحيط بهم الورود المخميلة ، ورود الثلج .

وخلف النوافذ يشهر الليل البارد اظافره ويقبع رابضا محايدا حتى العدوانية . . .

واشعر بالحنين الى اية ارض عربية . . . اي وطن عربي بكل ما فيه من اوجاع وامراض وسقطات . . .

واصلي . . . (منذ دهر لم أصلّ !) . .

اصلي من اجل الذين هاجروا من الوطن العربي لاي سبب . . .

ايا كانت مآسينا في بيروت او اية عاصمة عربية اخرى ، فانها تظل في نظري خيراًمن هذه العودة المحزنة الى مستنقع الغربة . .

اصلي من اجل الراحلين عن بيروت لا من اجل الباقين فيها . . .
واودع وردة الثلج ، واعود الى وردة البارود ببيروت . . .

* * *

ان ثروات العالم اجمع عاجزة عن شراء ذلك الشريان الذي يغرسه الانسان في تربة وطنه . . . ليحيا . . . لا ليعيش فقط ! . .
وداعا عالم الفنادق المكهربة ! . .

إقرار

محتويات هذا الكتاب نشرت بأكملها في المجلتين التاليتين (وفقا للترتيب الابجدي) :

مجلة الاسبوع العربي (اللبنانية)

مجلة الحوادث (اللبنانية)

ما عدا مقال « يومياتي في الكويت » الذي نشر في مجلة اليقظة الكويتية .

ملحوظة : هذه (التحقيقات) نشرت يومئذ متكاملة مع الصور بكاميرا المؤلفة . وقد تعذر نشر الصور او حتى بعض اللقطات النادرة منها في هذا الكتاب ، ولكن لا بد من التنويه بالخسارة الفادحة التي لحقت بالموضوعات من جراء فقدان الصور (لاسباب حربية وأرشيفية) ، فالصورة كتابة بالكاميرا .

فهرس الكتاب



□ لقد رحلت غادة السمان وكتبت بحسّ إنساني، وبإيمان بأن كنوز العالم اجمع عاجزة عن شراء ذلك الشريان الذي يغرسه الإنسان في أرض الوطن.

أديب عزّت

□ رحّالة واعية وذات موقف قومي تروي قصة الرحيل إلى الانتماء عبر مضيق الغربة، الرحيل نحو الانتماء الواعي الاختياري لا المتوارث شبه الإرغامي.

سعاد غنيم

□ أكثر كتب غادة السمان فائدةً ومتعة.. والمؤلفة في ترحالها لا تتخلى عن كونها عربية ترى الأشياء بعينين عربيتين. وفي إحساسها بهذا الانتماء تبدو غادة ـ وعلى عكس الكثيرين ـ خاليةً من عُقد النقص: لا تعلن انبهارها بأي شيء. إنها تغزو المدن والحضارات غير وجلة...

إبراهيم العريس

□ إنتماء غادة السمان يجب ألا يُفهم فهماً سياسياً أو ايديولوجياً ضيّقاً بقدر ما يجب أن يتحدد كارتباط بهوية اجتماعية وإنسانية وقومية. غادة هي أولاً وأخيراً روائية تكتب يومياتها التسجيلية. لهذا فإن المناخ القصصي يلفّها في سياق روائي واحد.

بول شاوول

□ لقد كتب العرب فصولاً لا تُنسى في أدب الرحلات (المسعودي وياقوت وابن بطوطة). وإذا كانت السمة الرئيسية لتلك الفصول سمة وصفية، فإن غادة السمان تضيف لهذه السمة بُعدها الفكري. فالغربة وضعت غادة أمام مسؤوليتها ككاتبة ملتزمة، وهمّ الوطن جعل من الكتابة الصحافية عملاً إبداعياً.

نزار العاني

منشورات غادة السمان